تفسير ابن عطية

المحرر الوجيز

في تفسير الكتاب العزيز

للإمام أبي محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي

□ **تفسير ابن عطية المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**
تأليف : الإمام أبي محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي
تحقيق : مجموعة من الباحثين - بإشراف إدارة الشؤون الإسلامية
الطبعة المحققة الأولى : ١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

قياس القطع : ١٧ × ٢٤

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
إدارة الشؤون الإسلامية
بتمويل الإدارة العامة للأوقاف
دولة قطر
ص.ب ٤٢٢ الدوحة
البريد الإلكتروني : turathuna@islam.gov.qa





تفسير ابن عطيّة

المحرّر الوجيز

في تفسير الكتاب العزيز

للإمام أبي محمّد عبد الحقّ بن عطيّة الأندلسيّ

تحقيق

مجموعة من الباحثين

بإشراف

إدارة الشّؤون الإسلاميّة

الجزء الخامس

من تفسير الآية ٦٠ من التّوبة حتّى نهاية الحجر

إصدارات

وزارة الأوقاف والشّؤون الإسلاميّة

إدارة الشّؤون الإسلاميّة

بتمويل الإدارة العامّة للأوقاف

دولة قطر


بسم الله الرحمن الرحيم

قوله عز وجل: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٦٠﴾.

﴿إِنَّمَا﴾ في هذه الآية حاصرةٌ تقتضي وقوف الصَّدَقات على الثمانية الأصناف، وإنما اختلف في صورة القسمة:

فقال مالك وغيره: ذلك على قدر اجتهاد الإمام وبحسب أهل الحاجة[١].

وقال الشافعي وغيره: هي ثمانية أقسام على ثمانية أصناف، لا يخلُّ بواحد منها، / إلا أن الْمُؤَلَّفَة انقطعوا[٢]. [٢/ ٢٤٦]

قال القاضي أبو محمد: ويقول صاحب هذا القول: إنه لا يجزئ المتصدقَ والقاسمَ من كل صنف أقلُّ من ثلاثة[٣]، وأَمَّا الفقير والمسكين فقال الأصمعي وغيره: الفقير أبلغ فاقة، وقال غيرهم: المسكين أبلغ فاقة[٤].

قال القاضي أبو محمد: ولا طريق إلى هذا الاختلاف ولا إلى الترجيح إلا النظر في شواهد القرآن والنظرُ في كلام العرب وأشعارها:

فمن حجة الأولين: قول الله عز وجل: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتۡ لِمَسَٰكِينَ يَعۡمَلُونَ فِي ٱلۡبَحۡرِ﴾ [الكهف: ٧٩]، واعترض هذا الشاهد بوجوه منها:

أن يكون سماهم مساكين بالإضافة إلى الغاصب، وإن كانوا أغنياء على جهة الشفقة[٥]، كما تقول في جماعة تُظلم: مساكين لا حيلة لهم، وربما كانوا مياسير.

---

(١) وهو أيضاً قول حذيفة وابن عباس وأبي حنيفة والثوري. انظر: الاستذكار (٣/ ٢٠٧)، وأحكام القرآن للجصاص (١/ ٣٧١).

(٢) انظر قول الشافعي في: الأم (٢/ ٨٣-٨٥).

(٣) انظر ذلك في: الحاوي للماوردي (٨/ ٤٨٤).

(٤) انظر قول الأصمعي وغيره في الزاهر في معاني كلمات الناس (١/ ١٢٨)، وتهذيب اللغة (٩/ ١٠٢).

(٥) في المطبوع: «الشفعة».

ومنها: أنه قد قرئ: (لمسَّاكين) بشد السين[١]، بمعنى: دبَّاغين يعملون المُسوك[٢]، قاله النقاش وغيره[٣].

ومنها: أن تكون إضافتها إليهم ليست بإضافة مِلْكٍ، بل كانوا عاملين بها، فهي كما تقول: سَرج الفرس [وباب الدَّار][٤].

ومن حجة الآخرين قول الراعي:

[البسيط] أَمَّا الْفَقِيرُ الَّذِي كَانَتْ حَلُوبَتُهُ وَفْقَ الْعِيَالِ فَلَمْ يُتْرَكْ لَهُ سَبَدُ[٥]

وقد اعترض هذا الشاهد بأنه إنما سماه فقيراً بعد أن صار لا حَلوبة له، وإنما ذكر الحلوبة بأنها كانت، وهذا اعتراض يرده معنى القصيدة ومقصد الشاعر بأنه إنما يصف سعاية أتت على مال الحي بأجمعه، فقال: أما الفقير فاستؤصل ماله فكيف بالغني مع هذه الحال؟

وذهب من يقول: إنَّ المسكين أبلغ فاقة، إلى أنه مشتق من السكون، وأنَّ الفقير مشتق من فَقَار الظهر، كأنه أصيب فَقَاره ففيه لا محالة حركة[٦].

وذهب من يقول: إن الفقير أبلغ فاقة، إلى أنه مشتق من فقرتُ البئر: إذا نزعت جميع ما فيها، وأن المسكين من السكن[٧].

قال القاضي أبو محمد: ومع هذا الاختلاف فإنهما صنفان يعمهما الإقلال

---

(١) كما سيأتي في محله.

(٢) جمع المَسْك، وهو الجلد. «القاموس» (مسك).

(٣) لم أقف عليه، وانظر أحكام القرآن لابن العربي (٣/ ٢٤٢).

(٤) من التركية ونور العثمانية ونجيبويه.

(٥) انظر عزوه له في طبقات فحول الشعراء (٢/ ٥١١)، وإصلاح المنطق (ص: ٢٣٢)، والحيوان (٥/ ٢٧٦)، وأدب الكاتب (ص: ٣٤).

(٦) استدل بذلك الحنفية كما في: أحكام القرآن للجصاص (٤/ ٣٢٢-٣٢٣).

(٧) استدل بذلك الشافعية كما في: الحاوي للماوردي (٨/ ٤٨٨-٤٩٠).

والفاقة، فينبغي أن يبحث على الوجه الذي من أجله جعلهما الله اثنين، والمعنى فيهما واحد، وقد اضطرب الناس في هذا:

فقال الضحاك بن مزاحم: الفقراء هم من المهاجرين، وَالْمَساكِين من لم يهاجر.

وقال النخعي نحوه، قال سفيان: يعني لا يعطَى فقراء الأعراب منها شيئاً.

قال القاضي أبو محمد: والمسكين: السائل يعطى في المدينة وغيرها، وهذا القول هو حكاية الحال وقت نزول الآية، وأما منذ زالت الهجرة، فاستوى الناس، وتعطى الزكاة لكلِّ متصفٍ بفقر.

وقال عكرمة: الفقراء من المسلمين، وَالْمَساكِين من أهل الذمة، ولا تقولوا الفقراء المسلمين: مساكين[(١)].

وقال الشافعي في كتاب ابن المنذر: الفقير من لا مال له ولا حرفة، سائلاً كان أو متعفِّفاً، والمسكين الذي له حرفة أو مال، ولكن لا يغنيه ذلك سائلاً كان أو غير سائل[(٢)].

وقال قتادة بن دِعامةَ: الفقير الزَّمِن المحتاج، والمسكين الصحيح المحتاج.

وقال ابن عباس، والحسن، ومجاهد، والزهري، وابن زيد، وجابر بن زيد، ومحمد ابن مسلمة: المساكين: الذين يسعون ويسألون، والفقراء هم الذين يتصاونون[(٣)].

وهذا القول الأخير إذا لخِّص وحرِّر أحسنُ ما يقال في هذا.

وتحريره: أن الفقير هو الذي لا مال له إلا أنه لم يذل ولا بذل وجهه، وذلك إما لتعففٍ مُفْرِطٍ، وإما لبُلغة تكون له كالحلُوبة وما أشبهها، والمسكين هو الذي يقترن بفقره تذلل وخضوع وسؤال، فهذه هي المسكنة، فعلى هذا كلُّ مسكينٍ فقيرٌ وليس كلُّ

---

(١) انظر قول الضحاك وإبراهيم النخعي وسفيان وعكرمة في: تفسير الطبري (١٤/ ٣٠٧-٣٠٨).

(٢) انظر: الإشراف لابن المنذر (٣/ ٨٩)، والحاوي للماوردي (٨/ ٤٨٧).

(٣) انظر قول محمد بن مسلمة في: تفسير القرطبي (٨/ ١٧١)، وقول الباقين في: تفسير الطبري (١٤/ ٣٠٥-٣٠٦).

فقيرٍ مسكيناً، ويقوي هذا أن الله تعالى قد وصف بني إسرائيل بالمسكنة، وقرنها بالذلة مع غناهم، وإذا تأملت ما قلناه بانَ أنهما صنفان موجودان في المسلمين، ويقوي هذا قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾ [البقرة: ٢٧٣] وقيل لأعرابي: أفقير أنت؟ فقال: إني والله مسكين[١].

وقال النبي ﷺ: «ليس المسكين بهذا الطوَّاف الذي ترده اللقمة واللقمتان، ولكن المسكين هو الذي لا يجد غنى يغنيه، ولا يُفطن له فيُتصدق عليه»[٢]، اقرأوا إن شئتم: ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾.

فدلَّ هذا الحديث على أن المسكين في اللغة هو الطوّاف، وجرى تنبيه النبي ﷺ في هذا الحديث على المتصاون مجرى تقديم الفقراء في الآية لمعنى الاهتمام؛ إذ هم بحيث إن لم يُتهمَّمْ بهم هلكوا، والمسكين يُلحُّ ويذكِّر بنفسه.

وأما «العامل» فهو الرجل الذي يستنيبه الإمام في السعي على الناس وجمع صدقاتهم، وكلُّ من يُصرِّف من عون لا يُستغنى عنه فهو من الْعامِلِينَ؛ لأنه يحشر الناس على السعي.

وقال الضحاك: للعاملين ثمن ما عملوا على قسمة القرآن[٣].

وقال الجمهور: لهم قدر تعبهم ومؤنتهم، قاله مالكٌ والشافعي في كتاب ابن المنذر[٤]، فإن تجاوز ذلك ثمن الصدقة فاختلف:

---

(١) إصلاح المنطق (ص: ٢٣٢)، نقلاً عن يونس.

(٢) متفق عليه، هذا الحديث أخرجه البخاري (٤٢٦٥)، ومسلم (١٠٣٩) من حديث أبي هريرة، رضي الله عنه، به مرفوعاً.

(٣) انظر قول الضحاك في: تفسير الطبري (١٤/ ٣١١).

(٤) انظر نسبة القول للجمهور ولمالك معهم في: الاستذكار (٣/ ٢١١)، وانظر قول الشافعي في: الحاوي للماوردي (٨/ ٥٢١)، وانظر: «الإشراف» لابن المنذر (٣/ ٩٠).

فقيل: يتم لهم ذلك من سائر الأنصباء، وقيل: بل يتم لهم ذلك من خمس الغنيمة.

واختلف إذا عمل في الصدقات هاشمي، فقيل: يعطى منها عمالته، وقيل: بل يعطاها من الخمس.

ولا يجوز للعامل قبول الهدية والمصانعة ممن يسعى عليه، وذلك إن فعله رُد في بيت المال، كما فعل النبي ﷺ بابن اللُّتْبِية[١] حين استعمله على الصدقة، فقال: هذا لكم وهذا أهدي لي، فقال النبي ﷺ: «هلا قعدت في بيت أبيك وأمك حتى تعلم ما يُهدى لك» وأخذ الجميع منه[٢].

قال القاضي أبو محمد: وتأمَّلْ عمالة الساعي: هل يأخذها قبل العمل أو بعده؟ وهل هي إجارة أو هي جُعل؟ وهل العمل معلوم، أو هو يتتبع وإنما يعرف قَدْره بعد الفراغ؟

وأما ﴿الْمُؤَلَّفَة قُلُوبُهُمْ﴾ فكانوا صنفين: مسلمين وكافرين متساترين[٣]، قال يحيى بن أبي كثير: كان منهم أبو سفيان بن حرب بن أمية، والحارث بن هشام، وصفوان ابن أمية، وسهيل بن عمرو[٤]، وحكيم بن حزام، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وعُيينة، والأقرع، ومالك بن عوف، والعباس بن مرداس، والعلاء بن جارية الثقفي[٥].

---

(١) هو عبد الله بن اللّتبيّة بن ثعلبة الأزدي، بعثه النبيّ ﷺ على الصدقات وهو في أكثر الروايات غير مسمًّى، الإصابة (٤/ ١٨٨).

(٢) متفق عليه، هذا الحديث أخرجه البخاري (٦٢٦٠)، ومسلم (١٨٣٢) من حديث أبي حميد الساعدي، رضي الله عنه، مرفوعاً.

(٣) في المطبوع: «مساترين». وفي نجيبويه: «مستارين».

(٤) هو سهيل بن عمرو بن عبد شمس بن عبد ودّ القرشي العامريُّ خطيب قريش، أبو يزيد، صحابي مشهور، وهو الذي تولى أمر الصلح بالحديبية، أسلم يوم الفتح، وشهد الفتوح، مات بالطاعون سنة (١٨هـ)، ويقال: قتل باليرموك. الإصابة (٣/ ١٧٧).

(٥) انظر ترجمته في الإصابة (٤/ ٤٤٥)، وانظر قول يحيى بن أبي كثير في: تفسير الطبري (١٤/ ٣١٣).

[٢/ ٢٤٧] قال القاضي أبو محمد / : وأكثر هؤلاء من الطلقاء الذين ظاهِرُ أمرهم يوم الفتح الكفرُ، ثم بَقُوا مظهِرين الإسلام حتى وثقه الاستئلاف في أكثرهم، واستئلافُهم إنما كان لتجلب إلى الإسلام منفعة أو تدفع عنه مضرة، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه [(١)]، والحسن والشعبي وجماعة من أهل العلم: انقطع هذا الصنف بعزة الإسلام وظهوره، وهذا مشهورُ مذهب مالك رحمه الله[(٢)]، قال عبد الوهاب: إن احتيج إليهم في بعض الأوقات أعطوا من الصدقة[(٣)].

قال القاضي أبو محمد: وقول عمر عندي إنما هو لمعنيين، فإنه قال لأبي سفيان حين أراد أخذ عطائه القديم: «إنما تأخذ كرجل من المسلمين فإن الله قد أغنى عنك وعن ضربائك»[(٤)]، يريد في الاستئلاف، وأما أن ينكر عمر الاستئلاف جملة وفي ثغور الإسلام فبعيد، وقال كثير من أهل العلم: الْمُؤَلَّفَة قُلُوبُهُمْ موجودون إلى يوم القيامة[(٥)].

قال القاضي أبو محمد: وإذا تأمَّلْتَ الثغور وجدتَ فيها الحاجة إلى الاستئلاف.

وقال الزهري: الْمُؤَلَّفَة: كل من أسلم من يهودي أو نصراني وإن كان غنيّاً[(٦)].

قال القاضي أبو محمد: يريد: لتُبسط نفسه ويحبَّب دين الإسلام إليه.

---

(١) منقطع، هذا الأثر أخرجه الطبري (١٤/ ٣١٥) من طريق حبان بن أبي جبلة، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وهذا إسناد منقطع، حبان بن أبي جبلة لم يدرك عمر.

(٢) انظر قول الحسن والشعبي في: تفسير الطبري (١٤/ ٣١٥)، وقول مالك في: البيان والتحصيل (٢/ ٣٥٩).

(٣) انظر قول عبد الوهاب في: المعونة (١/ ٢٦٩).

(٤) لم أقف عليه مسنداً.

(٥) ممن قال بذلك أحمد كما في: اختلاف الأئمة العلماء لابن هبيرة (١/ ٢١٦)، والشافعي كما في: الحاوي للماوردي (٨/ ٥٢٣).

(٦) انظر قول الزهري في: تفسير الطبري (١٤/ ٣١٤).

وأما ﴿ٱلرِّقَابِ﴾: فقال ابن عباس[١]، والحسن، ومالك، وغيره: هو ابتداءُ العتق، وعون المكاتب بما يأتي على حريته[٢].

واختلف هل يعان بها المكاتب في أثناء نجومه بالمنع والإباحة، واختلف على القول بإباحة ذلك إن عجز فقيل: يُردُّ ذلك من عند السيد، وقيل: يمضي؛ لأنه كان يوم دفعه بوجه مترتب.

وقال الشافعي: معنى ﴿وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾: في المكاتبين، ولا يبتدأ منها عتقُ عبد، وقاله الليث وإبراهيم النخعي وابن جبير[٣]؛ وذلك أن هذه الأصناف إنما تعطى إما لمنفعة المسلمين أو لحاجة في أنفسها، والعبد ليس له واحدة من هاتين العلتين، والمكاتب قد صار من ذوي الحاجة.

وقال الزهري: سهم الرقاب نصفان: نصف للمكاتبين، ونصف يُعتق منه رقابٌ

---

(١) قال البخاري في صحيحه: باب قول الله تعالى ﴿وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَـٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ويذكر عن ابن عباس: يعتق من زكاة ماله ويعطي في الحج. اهـ، قال الحافظ ابن حجر في الفتح (٣/ ٣٣١): وصله أبو عبيد في كتاب الأموال من طريق حسان بن أبي الأشرس عن مجاهد عنه: أنه كان لا يرى بأساً أن يعطي الرجل من زكاة ماله في الحج وأن يعتق منه الرقبة، أخرجه عن أبي معاوية عن الأعمش عنه، وأخرج عن أبي بكر بن عياش عن الأعمش عن بن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس قال: أعتقْ من زكاة مالك، وتابع أبا معاوية عبدة بن سليمان، رويناه في فوائد يحيى بن معين رواية أبي بكر بن علي المروزي عنه عن عبدة عن الأعمش عن بن أبي الأشرس، ولفظه: كان يخرج زكاته ثم يقول: جهزوا منها إلى الحج، وقال الميموني: قلت لأبي عبد الله: يشتري الرجل من زكاة ماله الرقاب فيعتق ويجعل في ابن السبيل؟ قال: نعم، ابن عباس يقول ذلك ولا أعلم شيئاً يدفعه، وقال الخلال: أخبرنا أحمد بن هاشم قال: قال أحمد: كنت أرى أن يعتق من الزكاة ثم كففت عن ذلك لأني لم أره يصح. قال حرب: فاحتج عليه بحديث ابن عباس فقال: هو مضطرب، انتهى وإنما وصفه بالاضطراب للاختلاف في إسناده على الأعمش كما ترى ولهذا لم يجزم به البخاري.اهـ

(٢) انظر قول الحسن في: القرطبي (٨/ ١٨٢)، وقول مالك في: النوادر (٢/ ٢٨٤).

(٣) انظر قول الليث في: فتح الباري (٣/ ٣٣٢)، وانظر قول الشافعي وابن جبير وإبراهيم في: الحاوي للماوردي (٨/ ٥٠٣).

مسلمون ممن صلى[١]، قال ابن حبيب[٢]: ويفدى منه أسارى المسلمين، ومنع ذلك غيرُه[٣].

وأمَّا «الغارم» فهو: الرجل يركبه دين في غير معصية ولا سَفَهٍ، كذا[٤] قال العلماء، فهذا يؤدى عنه دينه وإن كانت له عُروض تقيم رمقه وتكفي عيالَه، وكذلك الرجل يتحمل بحَمالة في دياتٍ أو إصلاح بين القبائل ونحو هذا[٥]، وهو أحد الخمسة الذين قال فيهم رسول الله ﷺ: «لا تحل الصدقة لغني إلا لخمسة: لعامل عليها، أو غاز في سبيل الله، أو رجل تحمل بحمالةٍ، أو من أهديت له، أو من اشتراها بماله»[٦].

قال القاضي أبو محمد: وقد سقط الْمُؤَلَّفَة من هذا الحديث، [قال ابن حبيب:][٧] ولا يؤدَّى من الصدقة دين ميت، ولا يعطى منها من عليه كفارة ونحو ذلك من حقوق الله[٨].

---

(١) انظر قول الليث والزهري في: فتح الباري لابن حجر (٣/ ٣٣٢)، وقول الباقين في: الحاوي للماوردي (٨/ ٥٠٣).

(٢) «قال ابن حبيب» ساقط من المطبوع.

(٣) انظر قول ابن حبيب وقول غيره من المالكية في: النوادر (٢/ ٢٨٥).

(٤) «كذا»: من التركية ونجيبويه ونور العثمانية وأحمد٣، والمعنى يستقيم دونها.

(٥) انظر: أحكام القرآن لابن العربي (٢/ ٥٣٢)، وأحكام القرآن للجصاص (٤/ ٣٢٧)، والحاوي للماوردي (٨/ ٥٠٨).

(٦) معضل، هذا الحديث أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٤/ ١٠٩)، وعنه الإمام أحمد (١٨/ ٩٦)، ومن طريقه أبو داود (١٦٣٣) وحكى الخلاف في إسناده، وابن ماجه (١٨٤١)، كلهم من طريق معمر، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، مرفوعاً، به، قلت: وهذا السند، وإن كان ظاهره الصحة، إلا أنه معلول؛ فقد رواه عبد الرحمن بن مهدي، عن الثوري، عن زيد بن أسلم، قال: حدثني الثبت عن النبي ﷺ، ولم يسم الرجل، رواه الدارقطني في العلل (١١/ ٢٧٠-٢٧١)، وأبو حاتم وأبو زرعة الرازيان، كما في علل ابن أبي حاتم (٦٤٢) وقد ذهبوا جميعاً إلى ترجيح رواية الثوري المعضلة، وقد صحح الطريق المبهمة المرسلة كلٌّ من: أبي حاتم وأبي زرعة الرازيين، والدارقطني، كما في المصادر السابق ذكرها لهم.

(٧) زيادة من نور العثمانية ونجيبويه.

(٨) انظر هذا المعنى في: التاج والإكليل (٢/ ٣٥٠).

وإنما «الغارم» من عليه دين يسجن فيه، وقد قيل في مذهبنا وغيره: يؤدى دين الميت من الصدقات، قاله أبو ثور[١].

وأما (فِي سَبِيلِ اللهِ) فهو المجاهد يجوز أن يأخذ من الصدقة لينفقها في غزوه وإن كان غنيّاً، قال ابن حبيب: ولا يعطى منها الحاجُّ إلا أن يكون فقيراً فيعطى لفقره، وقال ابن عباس، وابن عمر[٢]، وأحمد وإسحاق: يعطى منها الحاج وإن كان غنيّاً، والحج في سبيل الله[٣]، ولا يعطى منها في بناء مسجد ولا قنطرة ولا شراء مصحف ونحو هذا.

وأما (ابْنِ السَّبِيلِ) فهو الرجل في السفر والغربة يعدم[٤]، فإنه يعطى من الزكاة وإن كان غنيّاً في بلده[٥]، وسمي المسافر ابن السبيل لملازمته السبيل، كما يقال للطائر: ابن ماء لملازمته له، ومنه عندي قولهم: ابن جلا، وقد قيل فيه غير هذا، ومنه قولهم: بنو الحرب، وبنو المجد.

ولا يعطى بنو هاشم من الصدقة المفروضة، قال ابن الماجِشُون، ومطرِّفٌ، وأَصْبَغُ، وابن حبيب: ولا من التطوع، ولا يعطى مواليهم؛ لأن مولى القوم منهم، وقال ابن القاسم: يعطى بنو هاشم من صدقة التطوع، ويعطى مواليهم من الصدقتين[٦].

---

(١) انظر: المجموع (٦/ ٢١١) وهو قول ابن حبيب كما في: التاج والإكليل (٢/ ٣٥٠).

(٢) أما أثر ابن عباس، فرواه أبو عبيد القاسم بن سلام في كتابه الأموال (١٩٦٥) قال: حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن حسان بن أبي الأشرس، عن مجاهد، عن ابن عباس رضي الله عنه، به، قلت: وهذا إسناد صحيح لو سلم من تدليس الأعمش، فإنه قد عنعنه، وقال أبو عبيد: أبو معاوية انفرد بذكر الحج في حديثه دون غيره، وأما أثر ابن عمر رضي الله عنه، فرواه أيضاً أبو عبيد في الأموال (١٩٧٦)، قال: سمعت إسماعيل بن إبراهيم ومعاذاً يحدثانه عن ابن عون، عن أنس بن سيرين، عن ابن عمر، رضي الله عنه، وهذا إسناد صحيح.

(٣) انظر قول أحمد وإسحاق في: المغني (٦/ ٣٣٤)، أما قول ابن حبيب فهو قريب مما تقدم عنه.

(٤) في الأسدية: «يغرم»، وفي التركية: «يقدم».

(٥) انظر الإجماع على ذلك في: الإقناع (٢/ ٦٩٩).

(٦) انظر قول ابن القاسم في: النوادر (٢/ ٢٩٦-٢٩٧)، وانظر قول الباقين في: تفسير القرطبي (٨/ ١٩١).

ومن سأل من الصدقة، وقال: إنه فقيرٌ، فقالت فرقة: يعطى دون أن يكلَّف بينةً على فقره[١]، بخلاف حقوق الآدميين يدَّعي معها الفقر فإنه يكلف البينة لأنها حقوق الناس يؤخذ لها بالأحوط، وأيضاً فالناس إذا تعلقت بهم حقوق آدمي محمولون على الغنى حتى يثبت العدم[٢]، ويظهر ذلك من قوة[٣] قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ﴾ [البقرة: ٢٨٠]، أي: إن وقع، فيعطي هذا أن الأصل الغنى، فإن وقع ذو عسرة فنظرة.

وقالت فرقة: الرجل الصحيح الذي لا يُعلم فقره لا يعطى إلا أن يُعلم فقره، وأما إن ادعى أنه غارم أو مكاتب أو ابن سبيل أو في سبيل الله أو نحو ذلك مما لم يعلم منه، فلا يعطى إلا ببينة قولاً واحداً[٤].

وقد قيل في الغارم: تباع عروضه وجميع ما يملك، ثم يعطى بالفقر[٥]، [وهو عندي ليس بشيء، وهو خلاف نصِّ الكتاب؛ لأنه إذا كان كذلك لم يكن للغرامة معنًى، ولا تأخير في استحقاق الصرفة، فكان يكونُ ذكرُ الغارم في كتاب الله بغير معنًى][٦].

ويعطي الرجل قرابته الفقراء، وهم أحق من غيرهم، فإن كان قريبه غائباً في موضع تُقصر إليه الصلاة فجاره الفقير أولى، وإن كان في غيبة لا تقصر إليه الصلاة فقيل: هو أولى من الجار الفقير، وقيل: الجار أولى، ويعطي الرجل قرابته الذين لا تلزمه نفقتهم، وتعطي المرأة زوجها، وقال بعض الناس: ما لم ينفق ذلك عليها[٧]، ويعطي الرجل زوجته إذا كانت من الغارمين[٨].

---

(١) ممن قال بذلك الشافعي، كما في: الحاوي للماوردي (٨/ ٤٩٢).

(٢) انظر في ذلك: حاشية الدسوقي (٣/ ٢٧٨)، وغمز عيون البصائر (٢/ ٢٥٥)، وقواعد الأحكام للعز ابن عبد السلام (١/ ١٠١).

(٣) «قوة»: سقطت من الأصل والمطبوع.

(٤) ممن قال بذلك الحنابلة كما في: الشرح الكبير لابن قدامة (٢/ ٧٠٦)، وانظر: الذخيرة (٣/ ١٥٠).

(٥) انظر نسبة هذا القول للشافعي في: الاستذكار (٣/ ٢١٢).

(٦) سقط من الأصل ونور العثمانية.

(٧) انظر أقوال العلماء في هذا في: النوادر (٢/ ٢٩٤-٢/ ٢٩٥).

(٨) قال به اللخمي، انظر ذلك في: التاج والإكليل (٢/ ٣٥٤).

واختلف في ولاء الذي يُعتق من الصدقة:

فقال مالك: ولاؤه لجماعة المسلمين[١]، وقال أبو عبيد: ولاؤه للمعتِق.

وقال عبيد الله بن الحسن: يجعل ماله في بيت الصدقات.

وقال الحسن، وأحمد، وإسحاق: ويعتق من ماله رقاب[٢].

وإذا كان لرجل على معسر دين فقيل: يتركه له ويقطع[٣] ذلك من صدقته، وقيل: لا يجوز[٤] ذلك جملة، وقيل: إن كان ممن لو رفعه للحاكم أمكن أن يؤديه جاز ذلك، وإلا لم يجز لأنه قد تَوَى[٥].

وأمَّا السبيل: فهو الذي قدمنا ذكره، يعطى الرجل الغازي وإن كان غنيّاً.

وقال أصحاب الرأي: لا يعطى الغازي في سبيل الله إلا أن يكون منقطعاً به. قال ابن المنذر: وهذا خلاف ظاهر القرآن وحديث رسول الله ﷺ[٦].

أما القرآن فقوله: ﴿وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وأمَّا الحديث فقوله: «إلا لخمسة: لعامل عليها، أو غاز في سبيل الله»[٧].

---

(١) انظر قول مالك في: المدونة (١/ ٣٤٥).

(٢) انظر أقوال أبي عبيد وبقية من ذكرهم المؤلف في: المغني (٦/ ٣٣١).

(٣) في الأسدية: ولا يقطع.

(٤) في الأسدية والتركية: «يجز»، وفي نجيبويه: «يجزئ».

(٥) في التركية: «ثوى»، قال في هامشه: «أي هلك»، وفي نجيبويه: «توتى»، وفي المطبوع وأحمد٣: «توفى».

(٦) انظر ما نسبه المؤلف لأصحاب الرأي في: بدائع الصنائع (٢/ ٤٦)، وما عزاه لابن المنذر في الإشراف (٣/ ٩٤).

(٧) اختلف في وصله وإرساله، والثاني أكثر، أخرجه مالك في الموطأ (٩١٩) ومن طريقه أبو داود (١٦٣٥) وغيره عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار أن رسول الله ﷺ قال: «لا تحل الصدقة لغني إلا لخمسة: لغاز في سبيل الله، أو لعامل عليها، أو لغارم، أو لرجل اشتراها بماله، أو لرجل كان له =

وأما صورة التفريق: فقال مالك وغيره: على قدْر الحاجة ونظرِ الإمام، يضعها في أي صنف رأى، وكذلك المتصدِّق، وقاله حذيفة بن اليمان / ، وسعيد بن جبير، وإبراهيم، وأبو العالية[١]. [٢/ ٢٤٨]

قال الطبري: وقال بعض المتأخرين: إذا قَسَم المتصدق قسم في ستة أصناف؛ لأنه ليس ثَمَّ عامل ولأنَّ المؤلفة قلوبهم قد انقطعوا، فإنْ قسم الإمام ففي سبعة أصناف، وقال الشافعي وعكرمة والزهري: هي ثمانية أقسام لثمانية أصناف لا يخلُّ بواحد منها[٢].

واحتج الشافعي بقول رسول الله ﷺ للرجل الذي سأله: «إن الله تعالى لم يرض في الصدقات بقَسْم نبي ولا غيره حتى قسمها بنفسه فجعلها ثمانية أقسام لثمانية أصناف، فإن كنت واحداً منها أعطيتك»[٣].

قال القاضي أبو محمد: والحديث في مصنف أبي داود[٤].

وقال أبو ثور: إذا قسمها الإمام لم يُخِلَّ بصنف منها، وإن أعطى الرجلُ صدقته

= جار مسكين فتصدق على المسكين فأهداها المسكين للغني. اهـ. وهذا مرسل، قال أبو داود (١٦٣٦): ورواه ابن عيينة عن زيد كما قال مالك، ورواه الثوري عن زيد قال: حدثني الثبت عن النبي ﷺ، ووصله عبد الرزاق عن معمر عن زيد فجعله عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً، أخرجه أبو داود (١٦٣٦) وغيره.

(١) انظر قول مالك في: بداية المجتهد (١/ ٢٧٥)، وانظر قول البقية في: تفسير الطبري (١٤/ ٣٢٢-٣٢٣).

(٢) انظر ما نسبه للطبري في: تفسيره (١٤/ ٣٢٣-٣٢٤)، وانظر قول الشافعي في: الحاوي للماوردي (٨/ ٤٧٨)، وانظر قول عكرمة في: شرح صحيح البخاري لابن بطال (٣/ ٤٥٧)، وانظر قول الزهري في: المغني (٢/ ٢٧٩).

(٣) انظر الاحتجاج بهذا الحديث لمذهب الشافعي في: الحاوي للماوردي (٨/ ٤٨٠).

(٤) ضعيف، أخرجه أبو داود (١٦٣٢) من طريق: عبد الرحمن بن زياد أنه سمع زياد بن نعيم الحضرمي أنه سمع زياد بن الحارث الصدائي قال: أتيت رسول الله ﷺ فبايعته، فذكر حديثاً طويلاً قال: فأتاه رجل فقال: أعطني من الصدقة، وعبد الرحمن بن زياد هو الإفريقي ليس بعمدة وقد انفرد بهذا.

صنفاً دون صنف أجزأه ذلك، وقال النخعي: إذا كان المال كثيراً قسم على الأصناف كلها، وإذا كان قليلاً أعطاه صنفاً واحداً[(١)].

وقالت فرقة من العلماء: من له خمسون درهماً فلا يعطى من الزكاة، وقال الحسن وأبو عبيد: لا يعطى من له أوقية، وهي أربعون درهما، [قال الحسن: وهو غني][(٢)].

وقال الشافعي: قد يكون الرجل الذي لا قَدْر له غنيّاً بالدرهم مع سعيه وتحيُّله، وقد يكون الرجل له القدر والعيال ضعيف النفس والحيلة فلا تغنيه آلاف[(٣)].

وقال أبو حنيفة: لا يأخذ الصدقة من له مائتا درهم، ومن كان له أقلُّ فلا بأس أن يأخذ[(٤)].

قال سفيان الثوري: لا يدفع إلى أحد[(٥)] من الزكاة أكثر من خمسين درهماً، إلا أن يكون غارماً[(٦)]، وقال أصحاب الرأي: إن أعطي ألفاً وهو محتاج أجزأ ذلك[(٧)].

وقال أبو ثور: يعطى من الصدقة حتى يغنى ويزول عنه اسم المسكنة[(٨)]، ولا بأس أن يعطى الفقير الألف وأكثر من ذلك.

وقال ابن المنذر: أجمع أكثر من يحفظ عنه من أهل العلم أن من له دار وخادم لا

---

(١) انظر قول أبي ثور في شرح العيني لأبي داود (٦/ ٣٦٨)، وانظر قول النخعي في: الحاوي للماوردي (٨/ ٤٧٨).

(٢) في الأسدية: «إلا إذا كان غنيّاً»، وهذا قول أحمد وإسحاق والنخعي والثوري وابن المبارك، انظر الكل في: المغني (٢/ ٢٧٧).

(٣) في الأسدية، والتركية: «الألف»، وانظر: الحاوي للماوردي (٨/ ١٣١٢).

(٤) بدائع الصنائع (٢/ ٤٨).

(٥) في نجيبويه: «لا يدفع الواحد».

(٦) انظر قول الثوري في: شرح صحيح البخاري لابن بطال (٣/ ٤٤٤).

(٧) انظر مذهبهم في تحفة الفقهاء للسمرقندي (١/ ٣٠١)، وبدائع الصنائع (٢/ ٤٨).

(٨) انظر قول أبي ثور في: الاستذكار (٣/ ٢١٠).

يستغني عنهما أن يأخذ من الزكاة وللمعطي أن يعطيه[١].

[وقال مالك][٢]: إن لم يكن في ثمن الدار والخادم فضلة عمَّا يحتاج إليه منهما جاز له الأخذ، وإلا لم يجز[٣].

وأما الرجل يعطي الآخر وهو يظنه فقيراً فإذا هو غني، فإنه إن كان بفَوْرِ[٤] ذلك أخذها منه، فإن فاتت نظر: فإن كان الآخِذُ غَرَّ[٥] وأخذها مع علمه بأنها لا تحل له ضمنها على كل وجه، وإن كان لم يَغُرّ بل اعتقد أنها تجوز له، أو لم يتحقق مقصد المعطي نظر: فإن كان[٦] أكلها أو لبسها [أو انتفع بها][٧] ضمنها، وإن كانت تلفت لم يضمن.

واختلف في إجزائها عن المتصدق: فقال الحسن وأبو عبيدة: تجزئه، وقال الثوري وغيره: لا تجزئه[٨].

وأهل بلد[٩] الصدقة أحقُّ بها، إلا أن تفضل فضلة فتنقل إلى غيرها بحسب نظر الإمام، قال ابن حبيب في «الواضحة»: أما الْمُؤَلَّفَة فانقطع سهمهم، وأما سبيل الله فلا بأس أن يعطي الإمام الغزاة إذا قلَّ الفيء في بيت المال[١٠].

قال القاضي أبو محمد: وهذا الشرط فيه نظر.

---

(١) الإشراف (٣/ ١٠١-١٠٢)، وفيه: «دار أو خادم».

(٢) في الأسدية: «وإن كان مالك يقول»، وفي التركية: «وكان مالك يقول»، وهو الموافق لما في «الإشراف».

(٣) الإشراف (٣/ ١٠٢)، والاستذكار (٣/ ٢٠١٠).

(٤) في الأسدية والمطبوع: «تعود»، وفي التركية: «يفوز»، وفي نور العثمانية: «يقول»، وكلها تحريف.

(٥) في الأسدية: «غروا»، وفي المطبوع: «غنيا».

(٦) في الأسدية: «لم يكن»، وهو خطأ.

(٧) زيادة من نجيبويه ونور العثمانية.

(٨) انظر قول الحسن وأبي عبيدة وقول الثوري ومن معهم من العلماء في المغني (٢/ ٢٨٠-٢٨١).

(٩) «بلد»: سقطت من الأصل.

(١٠) غير متوفر ولم أجد من نقله عنه.

قال ابن حبيب: وينبغي للإمام أن يأمر السعاة بتفريقها بالمواضع التي جبيت فيها، ولا يحمل منه شيء إلى الإمام إلا أن يرى ذلك لحاجة أو فاقة نزلت بقوم[١].

قال مالك: ومن له مزرعة أو شيء في ثمنه إذا باعه ما يغنيه لم يجز له أخذ الصدقة[٢].

وهذه جملة من فقه الآية كافيةٌ على شرطنا في الإيجاز، والله الموفق برحمته.

وقوله تعالى: ﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: موجَبةً محدودة، وهو مأخوذ من الفرض في الشيء بمعنى الحز والقطع لثبوت ذلك ودوامه، شبِّه به ما يفرض من الأحكام.

ونصب ﴿فَرِيضَةً﴾ على المصدر، ثم وصف نفسه تعالى بصفتين مناسبتين لحكم هذه الآية؛ لأنه صدر عن علم منه بخلقه، وحكمة منه في القسمة بينهم.

قوله عز وجل: ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾﴾.

الضمير في قوله: ﴿وَمِنْهُمُ﴾ عائد على المنافقين، و﴿يُؤْذُونَ﴾ لفظٌ يعم جميع ما كانوا يفعلونه ويقولونه في جهة رسول الله ﷺ من الأذى، وخص بعد ذلك من قولهم: ﴿هُوَ أُذُنٌ﴾، وروي أن قائل هذه اللفظة: نبتل بن الحارث[٣]، وكان من مردة المنافقين،

(١) انظر قول ابن حبيب في: النوادر (٢/ ٢٩١).

(٢) لم أقف عليه بهذا اللفظ، وللتوسع في مذهبه في المسألة انظر: المدونة (١/ ٣٤٧)، مواهب الجليل (٣/ ٢٢٦).

(٣) ضعيف، هذا الأثر أخرجه الطبري (١٤/ ٣٢٥)، عن محمد بن إسحاق به معضلاً، وهو نبتل بن الحارث بن قيس بن ضبيعة الأنصاريّ الأوسيّ، ذكره ابن الكلبيّ ثم البلاذريّ في المنافقين، وذكر ابن إسحاق أنه الذي نزلت فيه الآية. الإصابة (٦/ ٣٢٩).

وهو الذي قال فيه رسول الله ﷺ: «من سره أن ينظر إلى الشيطان فلينظر إلى نبتل بن الحارث»[١]، وكان ثائر الرأس، منتفش الشعرة، أحمر العينين، أسفع الخدين مشوَّهاً.

وروي عن الحسن البصري ومجاهد أنهما تأولا أنهم أرادوا بقولهم: ﴿هُوَ أُذُنٌ﴾، أي: يسمع منا معاذيرنا وتنصُّلنا[٢] ويقبله؛ أي: فنحن لا نبالي عن أذاه ولا الوقوعِ فيه، إذ هو سمَّاع لكل ما يقال من اعتذار ونحوه، فهذا تنقُّص بقلة الحَزَامة[٣] والانخداع[٤].

وروي عن ابن عباس وجماعة معه أنهم أرادوا بقولهم: ﴿هُوَ أُذُنٌ﴾؛ أي: يسمع كل ما ينقل إليه عنا ويصغي إليه ويقبله[٥]، فهذا تشكٍّ منه ووصفٌ بأنه يَسُوغ عنده الأباطيلُ والنمائم.

ومعنى ﴿أُذُنٌ﴾: سمَّاع، ويسمى الرجل السمَّاع لكل قول أُذُناً إذا كثر منه استعمال الأذن، فهذه تسمية الشيء بالشيء إذا كان منه بسبب، كما يقال للربيئة: عين، وكما يقال للمسنة من الإبل التي قد بزل نابها: نابٌ، وقيل: معنى الكلام: ذو أذن؛ أي: ذو سماع.

وقيل: إن قوله: ﴿أُذُنٌ﴾ مشتق من قولهم: أذِن للشيء، إذا استمع، كما قال الشاعر، وهو عدي بن زيد:

[الرمل] أَيُّهَا الْقَلْبُ تَعَلَّلْ بِدَدَنْ ... إِنَّ هَمِّي فِي سَمَاعٍ وَأَذَنْ[٦]

---

(١) ضعيف، هذا الحديث ذكره ابن إسحاق في السيرة ص (٤٤٦ ابن هشام) به معضلاً، ولم أقف له على إسناد عند غيره.

(٢) في الأسدية: «تنملنا»، وفي نور العثمانية: «ونقلنا».

(٣) في التركية: «الخزاية».

(٤) في الأسدية: «الانخراع».

(٥) أخرجه الطبري (١٤/ ٣٢٦) من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، فيه أيضاً قول الحسن ومجاهد.

(٦) انظر عزوه له في غريب الحديث لابن سلام (١/ ٤٠)، والزاهر في معاني كلمات الناس (١/ ٢٤٢)، وتهذيب اللغة (١٥/ ١٥).

وفي التنزيل: ﴿وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ﴾ [الانشقاق: ٢-٥] ومن هذا قول النبي ﷺ: «ما أَذِنَ الله لشيء كأَذَنه لنبي يتغنَّى بالقرآن»[١]، ومن هذا قول الشاعر:

فِي سَمَاعٍ يَأْذَنُ الشَّيْخُ لَهُ وَحَدِيثٍ مِثْلِ مَاذِيٍّ مُشَارِ[٢] [الرمل]

ومنه قول الآخر:

صُمٌّ إِذَا سَمِعُوا خَيْراً ذُكِرْتُ بِهِ وَإِنْ ذُكِرْتُ بسوء عِنْدَهُمْ أَذِنُوا[٣] [البسيط]

/ وقرأ نافع: ﴿أُذْن﴾ بسكون الذال فيهما، وقرأ الباقون: ﴿أُذُنٌ﴾ بضم الذال فيهما[٤]، وكلهم قرأ بالإضافة إلى ﴿خَيۡرٍ﴾ إلا ما روي عن عاصم. [٢/ ٢٤٩]

وقرأ الحسن بن أبي الحسن ومجاهد وعيسى بخلاف: (قل أذنٌ خيرٌ) برفع (خيرٌ) وتنوين (أذنٌ)، وهذا يجري مع تأويل الحسن الذي ذكرناه، أي: من يقبل معاذيركم خير لكم، ورويت هذه القراءة عن عاصم[٥].

ومعنى ﴿أُذُنُ خَيۡرٍ﴾ على الإضافة؛ أي: سمَّاعُ خير وحقٍّ.

وَ﴿يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ﴾ معناه: يصدِّق بالله. ﴿وَيُؤۡمِنُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ قيل: معناه: ويصدق المؤمنين، واللام زائدة، كما هي في قوله: ﴿رَدِفَ لَكُم﴾ [النمل: ٧٢].

---

(١) متفق عليه، هذا الحديث أخرجه البخاري (٤٧٣٥)، ومسلم (٧٩٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، مرفوعاً به.

(٢) البيت لعدي بن زيد كما في غريب الحديث لابن سلام (٣/ ٣٢٣)، وجمهرة اللغة (٢/ ٧٣٥)، والعقد الفريد (٦/ ٢٦٣).

(٣) البيت لقعنب ابن أم صاحب كما في عيون الأخبار (٣/ ٩٦)، وأنساب الأشراف (١٣/ ٤١٢)، وأمالي القالي (١/ ١٢٢).

(٤) وهما سبعيتان، انظر السبعة لابن مجاهد (ص: ٣١٥).

(٥) من رواية الأعشى والجعفي عن أبي بكر عنه كما في جامع البيان (٣/ ١١٥٣)، والبرجمي كما في المبسوط (ص: ٢٢٧)، وانظر عزوها فيه لعيسى وقتادة والأشهب، وللحسن في تفسير الطبري (١٤/ ٣٢٥)، ولمجاهد وزيد بن علي في البحر المحيط (٥/ ٤٤٨).

وقال المبرد: هي متعلقة بمصدر مقدر من الفعل، كأنه قال: وإيمانُه للمؤمنين، أي: تصديقه[١]، وقيل[٢]: يقال: آمنت لك، بمعنى: صدقتك، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ [يوسف: ١٧].

قال القاضي أبو محمد: وعندي أن هذه التي معها اللام في ضمنها باء، فالمعنى: ويصدِّق للمؤمنين بما يخبرونه، وكذلك: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ بما نقوله لك، والله المستعان.

وقرأ جميع السبعة إلا حمزة: ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ بالرفع عطفاً على ﴿أُذُنُ﴾.

وقرأ حمزة وحده: ﴿ورحمةٍ﴾ بالخفض، عطفاً على ﴿خَيْرٍ﴾، وهي قراءة أبي ابن كعب وعبد الله والأعمش[٣].

وخصص الرحمة لِلَّذِينَ آمَنُوا؛ إذ هم الذين نجوا بالرسول وفازوا به، ثم أوجب تعالى للذين يؤذون رسول الله العذاب الأليم وحتم عليهم به.

وقوله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ﴾ الآية، ظاهر هذه الآية أن المراد بها جميع المنافقين الذين يحلفون لرسول الله ﷺ وللمؤمنين بأنهم منهم في الدين، وأنهم معهم في كل أمر وكلِّ حزب[٤]، وهم في ذلك يبطنون النفاق ويتربصون الدوائر، وهذا قول جماعة من أهل التأويل.

وقد روت فرقة أنها نزلت بسبب رجل من المنافقين قال: إن كان ما يقول محمد

---

(١) انظر مشكل إعراب القرآن لمكي (١/ ٣٣١).

(٢) من الأسدية والتركية ونور العثمانية.

(٣) انظر: التيسير للداني (ص: ١١٨)، وتابعه في الباقين في البحر المحيط (٥/ ٤٤٩)، وانظر: تفسير الثعلبي (٥/ ٦٣).

(٤) في التركية: «حرف»، وفي نجيبويه ونور العثمانية وأحمد٣: «حرب».

(ﷺ) حقّاً فأنا[١] شر من الحمر، فبلغ قولُه رسولَ الله ﷺ، فدعاه ووقَفه على قوله ووبخه، فحلف مجتهداً أنه ما فعل، فنزلت الآية في ذلك[٢].

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ﴾ [مذهب سيبويه أنهما جملتان حذفت الأولى لدلالة الثانية عليها، والتقدير عنده: والله أحق أن يرضوه، ورسوله أحق أن يرضوه][٣]، وهذا كقول الشاعر:

نَـحْـنُ بِـمَـا عِـنْـدَنَـا وَأَنْـتَ بِمَـا ... عِنْـدَكَ رَاضٍ وَالرَّأْيُ مُخْتَلِفُ[٤] [المنسرح]

ومذهب المبرد أن في الكلام تقديماً وتأخيراً[٥]، وتقديره: والله أحق أن يرضوه ورسولُه.

قال: وكانوا يكرهون أن يجمع الرسول مع الله في ضمير، حكاه النقاش عنه[٦].

وليس هذا بشيء، وفي مصنف أبي داود أنَّ النبي ﷺ قال: «من يطع الله ورسوله فقد رَشَدَ، ومَن يَعْصِهما[٧]»، فجمع في ضمير، وقوله ﷺ في الحديث الآخر: «بئس

(١) في الأسدية: «لنحن».
(٢) ذكره قتادة مرسلاً، أخرجه الطبري (١٤/ ٣٢٩).
(٣) ساقط من الأصل، وسقط: «ورسوله أحق أن يرضوه» من التركية، وسقطت أيضاً من الآية من المطبوع.
(٤) البيت لعمر بن امرئ القيس الأنصاري الخزرجي كما في مجاز القرآن (١/ ٣٩)، وجمهرة أشعار العرب (ص: ٥٣٠)، والبيان والتبيين (٣/ ٦٩)، أو قيسِ بن الخَطيم كما في الكتاب لسيبويه (١/ ٧٤)، أو مرَّار الأَسَدي كما في معاني القرآن للفراء (٢/ ٣٦٣).
(٥) انظر إعراب القرآن للنحاس (٢/ ١٣٥)، والهداية لمكي (٤/ ٣٠٥٣)، مشكل إعراب القرآن لمكي (١/ ٣٣١).
(٦) لم أقف عليه، لكن انظر شرح النووي على مسلم (٦/ ١٥٩)، وفتح الباري (١٥-١/ ٦٠).
(٧) زاد في المطبوع: «فقد غوى»، وليست في رواية أبي داود التي أحال عليها المصنف، والحديث صحيح، أخرجه أبو داود (٤٩٨٣) من طريق وكيع عن الثوري عن عبد العزيز بن رفيع عن تميم الطائي عن عدي بن حاتم أن خطيباً خطب عند النبي ﷺ فقال: من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما. فقال: «قم ـ أو قال: اذهب ـ فبئس الخطيب أنت»، وقد أخرجه مسلم (٢٠٤٧) من نفس الطريق =

الخطيب أنت»[١]، إنما ذلك لأنه وقف في يعصهما فأدخل العاصي في الرشد.

وقيل: الضمير في ﴿يُرْضُوهُ﴾[٢] عائد على المذكور كما قال رؤبة:

[الرجز] فِيهَا خُطُوطٌ مِنْ سَوَادٍ وَبَلَقْ كَأَنَّهُ فِي الْجِلْدِ تَوْلِيعُ الْبَهَقْ[٣]

وقوله: ﴿إِن كَانُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي: على قولهم ودعواهم.

وقوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ﴾ الآية، قوله: ﴿أَلَمْ﴾ تقريرٌ ووعيدٌ.

وفي مصحف أبي بن كعب: (ألم تعلم)[٤] على خطاب النبي ﷺ، وهو وعيدٌ لهم.

وقرأ الأعرج والحسن: (ألم تعلموا) بالتاء[٥].

و﴿يُحَادِدِ﴾ معناه: يخالف ويشاقّ، وهو أن يعطي هذا حدَّه[٦] لهذا، وهذا حدَّه لهذا.

وقال الزجَّاج: هو أن يكون هذا في حدٍّ وهذا في حدٍّ[٧].

وقوله: ﴿فَأَنَّ﴾ مذهب سيبويه أنها بدل من الأولى، وهذا معترَض بأن الشيء لا يبدل منه حتى يُستوفى، والأُولى في هذا الموضع لم يأت خبرها بعد، إذ لم يتم جواب الشرط، وتلك الجملة هي الخبر، وأيضاً فإن الفاء تمانع البدل، وأيضاً فهي في معنًى آخر غير الأول فيقلق[٨] البدل، وإذا تُلطِّف للبدل فهو بدل الاشتمال.

= لكن فيه: «ومن يعصهما فقد غوى» فقال رسول الله ﷺ: «بئس الخطيب أنت، قل: ومن يعص الله ورسوله» زاد ابن نمير: «فقد غوى».

(١) هو نفس الحديث السابق.

(٢) في الأسدية: «يرضونه».

(٣) انظر عزوه له في مجاز القرآن (١/ ٤٣)، والمحتسب (٢/ ١٥٤)، والصحاح للجوهري (٣/ ١٣٠٤)، ديوان المعاني (٢/ ١٣٠).

(٤) وهي شاذة مخالفة للمصحف، تابعه عليها في البحر المحيط (١١/ ٣٣٨) طبعة الرسالة.

(٥) وهي قراءة شاذة، انظر عزوها لهما في الشواذ للكرماني (ص: ٢١٧)، وعزاها الثعلبي (٥/ ٦٤) للسلمي.

(٦) في الأسدية: حقه.

(٧) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٤٥٨).

(٨) تحرفت في الأسدية إلى: «متعلق».

وقال غير سيبويه: هي مجردة لتأكيد الأولى[١]، وقالت فرقة من النحاة: هي في موضع خبر ابتداء تقديره: فواجبٌ أن له، وقيل: المعنى: فله أن له.

وقالت فرقة: هي ابتداء، والخبر مضمر تقديره: فأن له نار جهنم واجب، وهذا مردودٌ؛ لأن الابتداء بـ(أنَّ) لا يجوز مع إضمار الخبر، قاله المبرد.

وحُكي عن أبي علي الفارسي قولٌ يقرب معناه من معنى القول الثالث من هذه الآية التي ذكرنا لا أقف الآن على لفظه[٢].

وجميع القراء على فتح (أنَّ) الثانية.

وحكى الطبري عن بعض نحويي البصرة أنه اختار في قراءتها كسر الألف[٣].

وذكر أبو عمرو الداني أنها قراءة ابن أبي عبلة[٤].

ووجهُه في العربية قوي؛ لأن الفاء تقتضي القطع والاستئناف، ولأنه[٥] يصلح في موضعها الاسم ويصلح الفعل، وإذا كانت كذلك وجب كسرها.

قوله عز وجل: ﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾.

قوله: ﴿ يَحْذَرُ ﴾ خبر عن حال قلوبهم، وحذرُهم إنما هو أن تتلى سورة، ومعتقدهم

---

(١) في نجيبويه: «التأكيد الأول».

(٢) راجع جميع أوجه الإعراب المذكورة هنا في إعراب القرآن للنحاس (٢/ ١٢٥).

.(٣)انظر: تفسير الطبري (١٤/ ٣٣٠)، وأجازه الخليل وسيبويه كما في إعراب القرآن للنحاس (٢/ ١٢٥).

(٤) انظر قول الداني في: البحر المحيط لأبي حيان (٥/ ٤٥٢)، وهي قراءة شاذة.

(٥) «ولأنه»: ساقطة من نجيبويه، وفي مكانها: «ولا».

هل تنزل أم لا ليس بنص في الآية لكنه ظاهر، فإنْ حمل على مقتضى نفاقهم واعتقادهم أن ذلك ليس من عند الله فوجه بيِّن، وإن قيل: إنهم يعتقدون نزول ذلك من عند الله وهم ينافقون مع ذلك فهذا كفر عناد.

وقال الزجَّاج وبعض من ذهب إلى التحرز من هذا الاحتمال: معنى ﴿ يَحۡذَرُ ﴾: الأمرُ وإن كان لفظه لفظَ الخبر، كأنه يقول: ليَحْذرْ[١].

وقرأ أبو عمرو وجماعة معه: ﴿أن تَنْزِل﴾ ساكنة النون خفيفة الزاي، وقرأ بفتح النون مشددة الزاي الحسن والأعرج وعاصم والأعمش وعيسى[٢].

و﴿أَن﴾ من قوله: ﴿أَن تُنَزَّلَ﴾ مذهب سيبويه أن ﴿ يَحۡذَرُ ﴾ عامل فيها فهي مفعوله[٣].

وقال غيره: حذِر إنما هي من هيئات النفس التي لا تتعدى مثل: (فزع) وإنما التقدير: يحذر المنافقون من أن تنزل عليهم سورة.

وقوله: ﴿قُلِ ٱسۡتَهۡزِءُوٓاْ﴾ لفظه الأمر ومعناه التهديد، ثم ابتدأ الإخبار عن أنه يُخرج لهم إلى حيز الوجود ما يَحْذَرونه، وفَعل ذلك تبارك وتعالى في سورة براءة فهي تسمى الفاضحة؛ لأنها فضحت المنافقين.

وقال الطبري: كان المنافقون إذا عابوا رسول الله ﷺ وذكروا شيئاً من أمره قالوا: لعل الله لا يفشي سرنا، فنزلت الآية في ذلك[٤] / . [٢/ ٢٥٠]

قال القاضي أبو محمد: وهذا يقتضي كفر العناد الذي قلناه.

---

(١) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٤٥٩).

(٢) غير متقن، فهما سبعيتان، التخفيف لأبي عمرو وابن كثير على قاعدتهما، والتشديد للجمهور، كما مر في سورة البقرة الآية (٨٩).

(٣) انظر إعراب القرآن للنحاس (٢/ ١٢٦).

(٤) انظر تفسير الطبري (١٤/ ٣٣١-٣٣٢).

وقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ﴾ الآية، نزلت على ما ذكر جماعة من المفسرين في وديعة بن ثابت[١]؛ وذلك أنه مع قوم من المنافقين كانوا يسيرون في غزوة تبوك، فقال بعضهم لبعض: هذا يريد أن يفتح قصورَ الشام ويأخذ حصونَ بني الأصفر، هيهات هيهات، فوقفهم رسول الله ﷺ على ذلك، وقال لهم: «قلتم كذا وكذا»، فقالوا: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾[٢]، يريدون: كنا غير مجدِّين.

وذكر ابن إسحاق أن قوماً منهم تقدموا النبي ﷺ، وقال بعضهم: كأنكم والله غداً في الحبال أسرى لبني الأصفر، إلى نحو هذا من القول، فقال النبي ﷺ لعمار بن ياسر[٣]: «أدرِكِ القوم فقد احترقوا، وأخبِرْهم بما قالوا»، ونزلت الآية[٤].

وروي أنَّ وديعة بن ثابت المذكور قال في جماعة من المنافقين: ما رأيتُ كقرائنا هؤلاء، لا أرغبَ بطوناً ولا أكثر كذباً ولا أجبنَ عند اللقاء، فعنفهم رسول الله ﷺ على هذه المقالة، فقالوا: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾[٥]، ثم أمره بتقريرهم: ﴿أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾، وفي ضمن هذا التقرير وعيد.

وذكر الطبري عن عبد الله بن عمر أنه قال: «رأيت قائل هذه المقالة وديعة متعلقاً بحَقَب ناقة رسول الله ﷺ يماشيها والحجارة[٦] تَنْكُبه، وهو يقول: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ

(١) من بني أمية بن زيد بن مالك، وهو ممن بنى مسجد الضرار، وممن قال: إنما كنا نخوض ونلعب، سيرة ابن هشام (١/ ٥٢٣).
(٢) أخرجه الطبري (١٤/ ٣٣٢) من طريق ابن إسحاق به معضلاً، و(١٤/ ٣٣٤) من قول قتادة.
(٣) «لعمار بن ياسر» ساقط من المطبوع.
(٤) نقله ابن كثير في تفسيره (٤/ ١٧٢) عن ابن إسحاق بلا إسناد.
(٥) إسناده مستقيم، هذا الحديث أخرجه الطبري (١٤/ ٣٣٣)، وابن أبي حاتم (١٠٠٤٧) من طريق عبد الله بن وهب، عن هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، مرفوعاً به، وهشام بن سعد، وإن كان متكلَّماً فيه، إلا أنه من أثبت الناس في زيد بن أسلم، كما قال أبو داود، انظر تهذيب الكمال (٣٠/ ٢٠٨).
(٦) «والحجارة» ساقطة من المطبوع.

وَنَلْعَبُ﴾، والنبي يقول: ﴿أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾»[١].

وذكر النقاش أن هذا المتعلِّق كان عبدَ الله بن أبيٍّ ابنَ سلولَ[٢]، وذلك خطأ؛ لأنه لم يشهد تبوك.

وقوله تعالى: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا۟﴾ الآية؛ المعنى: قل لهم يا محمد: لا تعتذروا؛ على جهة التوبيخ، كأنه قال: لا تفعلوا ما لا ينفع.

ثم حكم عليهم بالكفر فقال: قل لهم: ﴿قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ الذي زعمتموه ونطقتم به، وقوله: ﴿عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ﴾ يريد فيما ذكر المفسرون رجلاً واحداً قيل: اسمه: [مُخَشِّنُ بن حُميِّر][٣] قاله ابن إسحاق، وقال ابن هشام ومقاتل[٤]: ويقال فيه: مُخْشِي[٥]، وقال خليفة بن خياط[٦] في «تاريخه»: «مُخاشن بن حميِّر»[٧]، وذكر ابن عبد البر: مُخاشن[٨] الحِمْيَري.

وذكر جميعهم أنه استشهد باليمامة[٩] وكان قد تاب وتسمى عبد الرحمن، فدعا الله

(١) بقية الحديث السابق. والحقب: حبل يشد به الرحل في بطن البعير. «القاموس» (حقب).

(٢) وأخرج هذه الرواية العقيلي في الضعفاء (١/ ٩٤) من طريق إسماعيل بن مخراق، عن مالك، عن نافع، عن ابن عمر، وقال: ليس له أصل من حديث مالك.

(٣) في الأصل: «بن حفير»، وفي الأسدية: «محشر بن محير»، وفي نور العثمانية: «محسن بن جبير»، وهو منافق من أشجع، حليف بني سلمة.

(٤) من المطبوع، وأحمد٣.

(٥) قاله ابن هشام في السيرة (٢/ ٥٢٤).

(٦) هو أبو عمرو خليفة بن خياط بن أبي هبيرة خليفة بن خياط الشيباني العصفري البصري المعروف بشباب، صاحب الطبقات، مستقيم الحديث، صدوق، من متيقظي الرواة، توفي سنة (٢٤٠هـ). غاية النهاية (١/ ٢٧٥)، وتاريخ الإسلام (١٧/ ١٥٣).

(٧) انظر: تاريخ خليفة بن خياط (ص: ١١٤)، وفيه: «مخاش الحميري».

(٨) في الأسدية: «محاسن»، وفي نور العثمانية: «مخشي».

(٩) انظر: الاستيعاب (٤/ ١٤٦٥)، وسيرة ابن هشام (٥/ ٢٠٥)، وتاريخ خليفة بن خياط (ص: ١١١-١١٤).

أن يُستشهد، ويُجهل أمره، فكان ذلك باليمامة ولم يوجد جسده[(١)]، وذكر أيضاً ابن عبد البر: مُخشِّي[(٢)] بن حمير بضم الحاء وفتح الميم وسكون الياء، ولم يتقن القصة[(٣)]، وقد كان مخشي[(٤)] مع المنافقين الذين قالوا: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾، فقيل: كان منافقاً ثم تاب توبة صحيحة، وقيل: كان مسلماً مخلصاً إلا أنه سمع كلام المنافقين فضحك لهم ولم ينكر عليهم فعفا الله عنه في كلا الوجهين، ثم أوجب العذاب لباقي المنافقين الذين قالوا ما تقدم.

وقرأ جميع السبعة سوى عاصم: ﴿إن يُعفَ عن طائفة﴾ بالياء [من تحت]، ﴿تُعذَّب﴾ بالتاء [من فوق][(٥)].

وقرأ الجحدري: (إنْ يَعفُ) بالياء [المفتوحة][(٦)] على تقدير: [إن يعفُ الله][(٧)] (يعذِّب) الله (طائفةً) بالنصب[(٨)].

وقرأ عاصم وزيد بن ثابت وأبو عبد الرحمن: ﴿إِن نَّعْفُ﴾ بالنون، ﴿نُعَذِّبْ﴾ بنون الجميع أيضاً[(٩)].

وقرأ مجاهد: (إن تُعفَ) بالتاء المضمومة على تقدير: إن تعف هذه الذنوبُ (تُعذَّب) بالتاء أيضاً[(١٠)].

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام (٥/ ٢٠٥-٢٠٦)، والروض الأنف (٤/ ٣٠٠).

(٢) في غير التركية: «محشي»، وهكذا ضبطه بالمعجمة: الأمير ابن ماكولا: في «الإكمال» (٧/ ١٧٦) باب مَخَش، ومَخْشي، قال: وأما «مخشي» بسكون الخاء وكسر الشين المخففة وبعدها ياء: فهو مخشي بن حمير الأشجعي حليف بني سلمة كان من المنافقين...، وهكذا ضبطه ابن حجر في «الإصابة» (٦/ ٤٤).

(٣) انظر الترجمتين في: الاستيعاب (٣/ ١٣٨١)، و(٤/ ١٤٦٥).

(٤) «مخشي» من التركية، وفي نجيبويه: «محشن»، وفي الباقي: «محشي».

(٥) «من فوق» زيادة من الأسدية، وكذا «من تحت» التي قبلها.

(٦) زيادة من نور العثمانية والمطبوع ونجيبويه.

(٧) زيادة من نور العثمانية والمطبوع ونجيبويه.

(٨) وهي شاذة، انظر: إعراب القرآن للنحاس (٢/ ١٢٦).

(٩) وهي والأولى سبعيتان، انظر: التيسير (ص: ١١٨)، وانظر عزوها للباقيَيْن في إعراب القرآن للنحاس (٢/ ٢٢٦).

(١٠) وهي قراءة شاذة، انظر: المحتسب (١/ ٢٩٨)، مختصر الشواذ (ص: ٥٨).

قوله عز وجل: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ هِىَ حَسْبُهُمْۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

هذا ابتداء إخبار عنهم وحكمٌ من الله تعالى عليهم بما تضمنته الآية، فقوله: ﴿بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ يريد: في الحكم والمنزلة من الكفر، وهذا نحو قولهم: الأذنان من الرأس يريدون في حكم المسح، وإلا فمعلوم أنهما من الرأس، ولمَّا تقدم قبل: ﴿وَمَا هُم مِّنكُمْ﴾ حَسُن هذا الإخبار.

وقوله: ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ﴾ يريد: بالكفر وعبادة غير الله وسائر ذلك من الآية؛ لأن المنافقين الذين نزلت هذه الآيات فيهم لم يكونوا أهل قدرة ولا أفعالٍ ظاهرة، وذلك بسبب ظهور الإسلام وكلمة الله عز وجل، والقبض: هو عن الصدقة وفعل الخير.

وقوله تعالى: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ أي: تركوه حين تركوا نبيه وشرعته، فتركهم حين لم يهدهم ولا كفاهم عذاب النار، وإنما يعبر بالنسيان عن الترك مبالغةً إذ أبلغ وجوه الترك الوجه الذي يقترن به نسيان، وعلى هذا يجيء: ﴿وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧]، ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ [القصص: ٧٧] ثم حكم عليهم عز وجل بالفسق، وهو فسوق الكفر المقتضي للخلود في النار.

وكان قتادة يقول: ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾، أي: من الخير ولم ينسهم من الشر[1].

---

(١) انظر قول قتادة في: تفسير الطبري (١٤/ ٣٣٩).

وقوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ الآية، لما قيِّد الوعد بالتصريح بالشرِّ صح ذلك وحَسُن، وإن كانت آيةَ وعيد محض.

و(الْكُفَّار) في هذه الآية: المعلنون.

وقوله: ﴿هِىَ حَسْبُهُمْ﴾ أي: كافيتُهم وكافية جُرمهم وكفرهم نكالاً وجزاء، فلو تمنى أحد لهم عذاباً لكان ذلك عنده حسباً لهم.

﴿وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ معناه: أبعدهم عن رحمته، و﴿عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ معناه: مؤبد لا نُقلة له.

وقوله تعالى: ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ الآية أمر الله نبيه أن يخاطب بها المنافقين، فيقول لهم: ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾، والمعنى: أنتم كالذين، أو: مَثَلُكم مَثَلُ الذين من قبلكم.

وقال الزجّاج: المعنى: وعداً كما وعد الذين من قبلكم، فهو متعلق بـ﴿وَعَدَ﴾[(١)].

قال القاضي أبو محمد: وفي هذا قلَق.

ثم قال: ﴿كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ﴾ وأعظمَ فعصوا فأُهلكوا، فأنتم أحرى بالإهلاك لمعصيتكم وضعفكم، والخلاق: الحظ من القدْر والدين وجميعُ حال المرء، وخلاق المرء: الشيء الذي هو به خليق، والمعنى: عَجِلوا حظَّهم في دنياهم وتركوا باب الآخرة فاتبعتُموهم أنتم.

قال القاضي أبو محمد: وأورد الطبري في تفسير هذه الآية قوله ﷺ: «لتتَّبِعُنَّ سَنَن مَن[(٢)] قبلَكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا جُحر ضب لدخلتموه»[(٣)]، / [٢/ ٢٥١] وما شاكل هذا الحديثَ مما يقتضي اتباع أمة محمد ﷺ لسائر الأمم، وهو معنًى لا يليق بالآية جدّاً، إذ هي مخاطَبَةٌ لمنافقين كفارٍ أعمالهم حابطةٌ، والحديث مخاطَبَةٌ لموحدين يتبعون سَنَن مَن مضى في أفعال دنياوية لا تخرج عن الدين.

(١) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٤٦٠).

(٢) في الأسدية: «لتتبعن سبل الذين».

(٣) البخاري، أخرجه (٣٢٦٩) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، مرفوعاً به.

وقوله: ﴿وَخُضۡتُمۡ كَٱلَّذِي خَاضُوٓاْ﴾ أي: خلَّطتم كالذي خلَّطوا، وهو مستعار من الخوض في المائعات، ولا يستعمل إلا في الباطل؛ لأن التصرف في الحقائق إنما هو على ترتيب ونظام، وأمور الباطل إنما هي خوض، ومنه قول النبي ﷺ: «ربَّ متخوِّضٍ في مال الله له النار يوم القيامة»[١].

ثم قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ فيحتمل أن يراد بـ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: القومُ الذين وصفهم بالشدة وكثرة الأموال والاستمتاع بالخلاق، والمعنى: وأنتم أيضاً كذلك يعتريكم بإعراضكم عن الحق، ويحتمل أن يريد بـ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: المنافقين المعاصرين لمحمد ﷺ، ويكون الخطاب لمحمد ﷺ، وفي ذلك خروج من خطاب إلى خطابٍ غيرِ الأول.

وحبِط العمل وما جرى مجراه يَحبَط حَبْطاً: إذا بطل بعد التعب فيه، وحَبِط البطن حبَطا بفتح الباء وهو داء في البطن، ومنه قول النبي ﷺ: «إن مما ينبت الربيع ما يقتل حَبَطاً أو يُلمُّ»[٢].

وقوله: ﴿فِي ٱلدُّنۡيَا﴾ معناه إذا كان في المنافقين: ما يصيبهم في الدنيا من المقت من المؤمنين وفسادِ أعمالهم وغمصِهم عليهم[٣]، وفي الآخرة بأن لا تنفع ولا يقع عليها جزاء، ويقوِّي أن الإشارة بـ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إلى المنافقين قولُه في الآية المستقبلة: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِهِمۡ﴾ فتأمله.

قوله عز وجل: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِهِمۡ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَقَوۡمِ إِبۡرَٰهِيمَ وَأَصۡحَٰبِ مَدۡيَنَ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتِۚ أَتَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ۝٧٠ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ

---

(١) ضعيف، أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٤/ ٣٩٦) من طريق: أبي عقيل يحيى بن المتوكل عن عمر بن نافع عن أبيه عن ابن عمر مرفوعاً في حديث طويل. ويحيى هذا ضعيف.

(٢) متفق عليه، هذا الحديث أخرجه البخاري (٢٦٨٧)، ومسلم (١٠٥٢) من حديث أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه مرفوعاً.

(٣) و«غمصهم عليهم»: ساقطة من المطبوع، وفي نجيبويه وأحمد٣: و«غمضهم».

يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾.

يقول عز وجل لنبيه ﷺ: ألم يأت هؤلاء المنافقين خبر الأمم السالفة التي عصت الله بتكذيب رسله فأهلكها.

﴿وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾: قبيلتان، ﴿وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ﴾: نمرود وأصحابه وتُبَّاع دولته، ﴿وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ﴾: قومُ شعيب، ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ﴾: أهل القرى الأربعة ـ وقيل: السبعة ـ الذين بُعِث إليهم لوط ﷺ.

ومعنى (الْمُؤْتَفِكات): المنصرفات والمنقلبات أُفكت فائتَفكَتْ[1]، لأنها جُعل أعاليها أسفلَها، وقد جاءت في القرآن مفردة تدل على الجمع، ومن هذه اللفظة قول عمران بن حِطَّان[2]:

بِمَنْطِقٍ مُسْتَبِينٍ غَيْرِ مُلْتَبِسٍ ... بِهِ اللِّسَانُ وَإِنِّي غَيْرُ مُؤْتَفِكِ[3] [البسيط]

أي: غير منقلبٍ منصرف مضطرب، ومنه يقال للريح: مؤتفكة لتصرُّفها، ومنه: ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾[4] والإفك: صرف القول من الحق إلى الكذب.

والضمير في قوله: ﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم﴾ عائد على هذه الأمم المذكورة، وقيل:

---

(١) في الأصل: فانتفكت، وفي التركية: فاتفكت.

(٢) هو عمران بن حطان بن ظبيان السدوسي البصري، أحد رؤوس الخوارج، روى عن عائشة، وأبي موسى الأشعري، وابن عباس، روى عنه: محمد بن سيرين، ويحيى بن أبي كثير، وقتادة، وكان من أشعر الناس، توفي سنة (٨٤هـ). تاريخ الإسلام (٦/ ١٥٤).

(٣) انظر عزوه له في البحر المحيط (٥/ ٤٥٨)، وفي الأسدية والتركية: «رأي»، وفي نجيبويه: «ورأيي»، وفي نور العثمانية: غير مستلين.

(٤) المائدة: ٧٥، التوبة: ٣٠، العنكبوت: ٦١، الزخرف: ٨٧، المنافقون: ٤.

على (الْمُؤْتَفِكاتِ) خاصة، وجعل لهم رسلاً وإنما كان نبيهم واحداً؛ لأنه كان يرسل إلى كل قرية رسولاً داعياً، فهم رسلُ رسول الله، ذكره الطبري[(١)]، والتأويل الأول في عود الضمير على جميع الأمم أبْين.

وقوله: ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ يريد: بالمعجزات وهي بينةٌ في أنفسها بالإضافة إلى الحق لا بالإضافة إلى المكذبين بها.

ولما فرغ من ذكر المنافقين بالأشياء التي ينبغي أن تَصرف عن النفاق وتَنهى عنه، عقَّب ذلك بذكر المؤمنين بالأشياء التي ترغِّب في الإيمان وتنشِّط إليه، تلطفاً منه تعالى بعباده لا رب غيره، وذُكرت هنا الولاية إذ لا ولاية بين المنافقين، ولا شفاعة لهم ولا يدعو بعضهم لبعض، وكأن المراد هنا الولاية في الله خاصة.

وقوله: ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ يريد: بعبادة الله وتوحيده وكلِّ ما اتبع ذلك.

وقوله: ﴿عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ يريد: عن عبادة الأوثان وكل ما اتبع ذلك.

وذكر الطبري عن أبي العالية أنه قال: كلُّ ما ذكر الله في القرآن من الأمر بالمعروف فهو دعاء من الشرك إلى الإسلام، وكل ما ذكر من النهي عن المنكر فهو النهي عن عبادة الأوثان والشياطين[(٢)].

وقال ابن عباس في قوله: ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: «هي الصلوات الخمس»[(٣)].

قال القاضي أبو محمد: وبحسب هذا تكون الزَّكاةُ المفروضة، والمدح عندي بالنوافل أبلغ، إذ من يقيم النوافل أحرى بإقامة الفرض.

وقوله: ﴿وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ جامع للمندوبات.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١٤/ ٣٤٦).

(٢) تفسير الطبري (١٤/ ٣٤٨).

(٣) رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، أخرجه الطبري (١٤/ ٣٤٨).

والسين في قوله: ﴿سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ مُدْخِلةٌ في الوعد مهلةً لتكون النفس تنعم برجائه وفضله تعالى زعيم بالإنجاز.

وقوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية؛ وعدُه في هذه الآية صريحٌ نصٌّ في الخير.

وقوله: ﴿مِن تَحْتِهَا﴾ إما من تحت أشجارها، وإما من تحت علِّياتها، وإما من تحت مجالسها بالإضافة إلى مبدأ[1]، كما تقول في دارين متجاورتين متساويتي المكان: هذه تحت هذه.

وذكر الطبري في قوله: ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً﴾ عن الحسن أنه قال: سألت عنها عمران بن الحصين وأبا هريرة فقالا: على الخبير سقطت، سألنا عنها رسول الله ﷺ فقال: «قصر في الجنة من اللؤلؤ فيه سبعون داراً من ياقوتة حمراء، في كلِّ دارٍ سبعون بيتاً من زمردة خضراء، في كلِّ بيت سبعون سريراً»[2].

قال القاضي أبو محمد: ونحو هذا مما يشبه هذه الألفاظ أو يقرُب منها، فاختصرتها طلبَ الإيجاز.

وأما قوله: ﴿فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ فمعناه: في جنات إقامة وثبوت، يقال: عَدَن الشيءُ في المكان: إذا أقام به وثبت، ومنه المَعْدِن، أي: موضع ثبوت الشيء، ومنه قول الأعشى:

وَإِنْ يَسْتَضِيفُوا إِلَى حِلْمِهِ ... يُضَافُوا إِلَى رَاجِحٍ قَدْ عَدَنْ[3] [المتقارب]

هذا الكلام اللغوي، وقال كعب الأحبار: جَنَّات عَدْنٍ هي بالفارسية: جنات الكروم / والأعناب[4]. [٢/ ٢٥٢]

قال القاضي أبو محمد: وأظن هذا وهماً اختلط بالفردوس.

---

(١) في المطبوع: «إلى هذا».

(٢) ضعيف، أخرجه الطبري (١٣/ ٣٤٩) من طريق جسر، عن الحسن به، وجسر هو ابن فرقد ضعيف.

(٣) انظر عزوه له في مجاز القرآن (١/ ٢٦٤)، تفسير الطبري (١٤/ ٣٥٠).

(٤) انظر قول كعب في: تفسير الطبري (١٤/ ٣٥٢)، وفيه (السريانية) بدل (الفارسية).

وقال الضحاك: ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٖ﴾ هي مدينة الجنة وعُظْمُها، فيها الأنبياء والعلماء والشهداء وأئمة العدل، والناس حولهم بعدُ، والجنات حولها.

وقال ابن مسعود: «عدن: هي بُطنَانُ الجنة وسرتها»[(١)].

وقال عطاء: عدن: نهر في الجنة جناته على حافته، وقال الحسن: عدن: قصر في الجنة لا يدخله إلا نبي أو صِدِّيق أو شهيد أو حَكَمٌ عدل، ومد بها صوته[(٢)].

قال القاضي أبو محمد: والآية تأبى هذا التخصيصَ، إذ قد وعد الله بها جميع المؤمنين.

وأما قوله: ﴿وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ﴾ فروي فيه أن الله عز وجل يقول لعباده إذا استقروا في الجنة: «هل رضيتم؟ فيقولون: وكيف لا نرضى يا ربنا؟ فيقول: إني سأعطيكم أفضل من هذا كله، رضواني أرضى عنكم فلا أسخط عليكم أبداً» الحديث[(٣)].

وقوله: ﴿أَكۡبَرُۚ﴾ يريد: أكبر من جميع ما تقدم، ومعنى الآية والحديث متفق.

وقال الحسن بن أبي الحسن: وصل إلى قلوبهم برضوان الله من اللذة والسرور ما هو ألذ عندهم وأقرُّ لأعينهم من كل شيء أصابوه من لذة الجنة[(٤)].

قال القاضي أبو محمد: ويظهر أن يكون قوله تعالى: ﴿وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ﴾ إشارةً إلى منازل المقرَّبين الشاربين من تسنيم، والذين يُرون كما يُرى النجم الغابر[(٥)] في الأفق، وجميع من في الجنة راضٍ والمنازل مختلفة، وفضل الله تعالى متسع.

---

(١) صحيح، هذا الأثر أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٣٤٠٣٣)، وابن جرير (١٤/ ٣٥٣) كلهم من طريق منصور بن المعتمر، عن أبي الضحى، عن مسروق، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وهذا إسناد صحيح، وفي لسان العرب (١٣/ ٥٥): بطنان الجنة: وسطها.

(٢) انظر قول الضحاك والحسن وعطاء في: تفسير الطبري (١٤/ ٣٥٣-٣٥٥).

(٣) متفق عليه، هذا الحديث أخرجه البخاري (٦١٨٣) ومسلم (٢٨٢٩) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعاً.

(٤) انظر قول الحسن في: تفسير ابن أبي زمنين (١/ ٢٥٦).

(٥) في المطبوع: «الغائر».

و﴿ٱلۡفَوۡزُ﴾: النجاة والخلاص، ومن أُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فازَ، والمقربون هم في الفوز العظيم، والعبارة عندي عن حالهم بسرورٍ وكمال أجودُ من العبارة عنها بلذة، واللذة أيضاً مستعملة في هذا مع الحاسة[١].

قوله عز وجل: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَـٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَـٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ٧٣ يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدۡ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ وَكَفَرُواْ بَعۡدَ إِسۡلَـٰمِهِمۡ وَهَمُّواْ بِمَا لَمۡ يَنَالُواْۚ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦۚ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيۡرٗا لَّهُمۡۖ وَإِن يَتَوَلَّوۡاْ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَمَا لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ٧٤﴾.

قوله: ﴿جَـٰهِدِ﴾ مأخوذ من بلوغ الجهد، وهي مقصود بها المكافحة والمخالفة، وتتنوع بحسب المجاهَد، فجهاد الكافر المعلن بالسيف، وجهاد المنافق المتستر باللسان والتعنيف والاكفهرار في وجهه، ونحو ذلك، ألا ترى أن من ألفاظ الشرع قوله ﷺ: «والمجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله»[٢].

فجهاد النفس إنما هو مصابرتها وأَخْذُها[٣] باتباع الحق وترك الشهوات، فهذا الذي يليق بمعنى هذه الآية، لكِنَّا نجلب أقوال المفسرين نصّاً لتكون معرضة للنظر.

قال الزجّاج ـ وهو متعلق في ذلك بألفاظ ابن مسعود ـ: أمر في هذه الآية بجهاد الكفار والمنافقين بالسيف، وأبيح له فيها قتل المنافقين[٤]، قال ابن مسعود: «إن قدر

---

(١) «مع الحاسة» زيادة من نجيبويه والتركية، وفي الأسدية: «بحاسة».

(٢) صحيح، أخرجه ابن المبارك في الزهد (٨٢٦)، ومن طريقه الإمام أحمد (٢٣٩٥٨)، وابن حبان في صحيحه (١١/ ٢٠٣) مطولاً عن هذا، عن ليث بن سعد، قال: أخبرني أبو هانئ الخولاني، عن عمرو بن مالك الجنبي، قال: حدثني فضالة بن عبيد رضي الله عنه، مرفوعاً به، وأخرجه الترمذي (١٧١٥)، من طريق حيوة بن شريح، عن أبي هانئ الخولاني به. وقال: حديث حسن صحيح.

(٣) «وأخذها»: سقطت من الأصل والمطبوع.

(٤) انظر معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٤٦١).

وإلا فباللسان، وإلا فبالقلب والاكفهرارِ في الوجه»[١].

قال القاضي أبو محمد: والقتل لا يكون إلا مع التجليح، ومن جلَّح خرج عن رتبة النفاق. وقال ابن عباس: المعنى: جاهد المنافقين باللسان[٢].

وقال الحسن بن أبي الحسن: المعنى: جاهد المنافقين بإقامة الحدود عليهم، قال: وأكثر ما كانت الحدود يومئذ تصيب المنافقين[٣].

قال القاضي أبو محمد: ووجه ترك رسول الله ﷺ المنافقين بالمدينة أنهم لم يكونوا مجلِّحين، بل كان كلُّ مغموصٍ عليه إذا وقف ادعى الإسلام، فكان في تركهم إبقاءٌ وحياطة للإسلام، ومخافة أن تنفر العرب إذا سمعت أن محمداً ﷺ يقتل من يُظهر الإسلام، وقد أوعبتُ[٤] هذا المعنى في صدر سورة البقرة، ومذهب الطبري: أن النبي ﷺ كان يعرفهم ويسترهم[٥].

وأما قوله تعالى: ﴿وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ فلفظة عامة تتصرف في الأفعال والأقوال واللحظات، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، ومنه قول النسوة لعمر بن الخطاب: «أنت أفظ من رسول الله ﷺ»[٦].

ومعنى الغلظ: خشن [الجانب، فهي ضدُّ قوله تعالى: ﴿ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ

---

(١) لا بأس به، هذا الأثر أخرجه ابن المبارك في الزهد (١٣٧٧)، والطبري (١٤/ ٣٥٨)، كلاهما من طريق علي بن الأقمر، عن عمرو ـ أو: عمر ـ بن أبي جندب، عن ابن مسعود، رضي الله عنه به، وعمرو، أو: عمر بن أبي جندب، قال فيه أبو حاتم: لا بأس بحديثه، وقال أبو داود: ثقة، انظر: تهذيب الكمال (٢١/ ٥٦٦).

(٢) منقطع، هذا الأثر أخرجه الطبري (١٤/ ٣٥٨-٣٥٩)، من طريق علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما، به.

(٣) انظر قول الحسن في: تفسير الطبري (١٤/ ٣٥٨).

(٤) في الأصل: «أوجبت»، وفي نور العثمانية: «أوعيت».

(٥) انظر مذهب الطبري في تفسيره (١٤/ ٣٦٠).

(٦) متفق عليه، هذا الحديث أخرجه البخاري (٣١٢٠)، ومسلم (٢٣٩٦) من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه به.

﴿ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥]، ثم جسَّرت الآية][١] المؤمنين عليهم في عقب الأمر بإخباره أنهم في جهنم، والمعنى: هم أهل لجميع ما أُمرت أن تفعل بهم.

والمأوى: حيث يأوي الإنسان ويستقر.

وقوله: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟﴾ الآية، هذه الآية نزلت في الجُلَاس بن سويد ابن الصامت، وذلك أنه كان يأتي من قُبَاءٍ ومعه ابن امرأته عمير بن سعد فيما قال ابن إسحاق، وقال عروة: اسمه مصعب، وقال غيره: وهما على حمارين، وكان رسول الله ﷺ قد سمى قوماً ممن اتهمهم بالنفاق، وقال: إنهم رجس، فقال الجلاس للذي كان يسير معه: والله ما هؤلاء الذين سمى محمد إلا كبراؤنا وسادتنا، ولئن كان ما يقول محمد حقّاً لنحن شرٌّ من حمرنا هذه، فقال له ربيبه أو الرجل الآخر: والله إنه لحق، وإنك لشرٌّ من حمارك.

ثم خشي الرجل من أن يلحقه في دينه دَرَكٌ، فخرج وأخبر رسول الله ﷺ بالقصة، فأرسل النبي ﷺ في أثر الجُلاس[٢] فقرره، فحلف بالله ما قال، فنزلت هذه الآية[٣].

والإشارة بـ﴿كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ﴾ إلى قوله: إن كان ما يقول محمد حقّاً فنحن شر من الحمر؛ لأن التكذيب في قوة هذا الكلام، قال مجاهد: وكان الجلاس لما قال له صاحبه: إني سأخبر رسول الله ﷺ بقولك، همَّ بقتله، ثم لم يفعل عَجْزاً عن ذلك، فإلى هذا الإشارة بقوله: ﴿وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟﴾[٤].

وقال قتادة بن دِعامةَ: نزلت هذه الآية في عبد الله بن أبيٍّ ابنِ سلولَ، وذلك أن سنان ابن وَبَرَةَ الأنصاري والجَهْجاهَ الغفاري كسع[٥] أحدُهما رِجْل الآخر في غزوة

---

(١) ساقط من التركية، وفي الأسدية: «فسرت الآية»، وفي الحمزوية: «حذرت»، وفي المطبوع «خبرت».

(٢) في التركية: «إلى الجلاس»، وفي الأسدية: «فأخبر النبي ﷺ بالجلاس».

(٣) مرسل، أخرجه الطبري (١٤/ ٣٦١) من طريق أبي معاوية الضرير، عن هشام بن عروة بن الزبير، عن أبيه به مرسلاً.

(٤) انظر قول عروة وابن إسحاق وقول مجاهد في نزول الآية في الجلاس بن سويد؛ في: تفسير الطبري (١٤/ ٣٦١-٣٦٣).

(٥) قال في القاموس المحيط (ص: ٧٥٩): كسعه، كمنعه: ضرب دبره بيده، أو بصدر قدمه.

المُريسيع، فتثاوروا، فصاح جهجاه بالأنصار وصاح سنان بالمهاجرين، فثار الناس، فهدَّن رسول الله ﷺ الأمر، فقال عبد الله بن أبيٍّ ابنُ سلولَ: ما أرى هؤلاء إلا قد تداعوا علينا، ما مَثَلُنا ومثلُهم إلا كما قال الأُوَل / : سمِّن كلبك يأكلْك، ولئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، فبلغ ذلك رسولَ الله ﷺ، فوقفه فحلف أنه لم يقل ذلك، فنزلت الآية مُكذِّبةً له[١]. [٢/ ٢٥٣]

والإشارة بـكَلِمَةِ الْكُفْرِ إلى تمثيله: «سمِّن كلبك يأكلك».

قال قتادة والإشارة بـ﴿وَهَمُّواْ بِمَا لَمۡ يَنَالُواْ﴾ إلى قوله: ﴿لَئِن رَّجَعۡنَآ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ﴾[٢].

وقال الحسن: همَّ المنافقون من إظهار الشرك ومكابرة النبي ﷺ بما لم ينالوا[٣].

وقال تعالى: ﴿بَعۡدَ إِسۡلَٰمِهِمۡ﴾ ولم يقل: بعد إيمانهم؛ لأن ذلك لم يتجاوز ألسنتهم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ معناه: أن رسول الله ﷺ أنفذ لعبد الله بن أبيٍّ ابنِ سلولَ ديةً كانت قد تعطلت له[٤]، ذكر عكرمة أنها كانت اثني عشر ألفاً[٥]، وقيل: بل كانت للجلاس.

قال القاضي أبو محمد: وهذا بحسب الخلاف المتقدم فيمن نزلت الآية من أولها.

وتقدم اختلاف القراء في ﴿نَقَمُوٓاْ﴾ في سورة الأعراف، وقرأها أبو حيوة وابن أبي عبلة بكسر القاف[٦]، وهي لغة.

---

(١) قاله قتادة مرسلاً، أخرجه الطبري (١٤/ ٣٦٤).

(٢) انظر قول قتادة في تفسير الطبري (١٤/ ٣٦٤، ٣٦٦)، وانظر تسمية الرجلين في مغازي الواقدي (٢/ ٤١٥).

(٣) انظر قول الحسن في أحكام القرآن لابن العربي (٤/ ٣١٥).

(٤) أرسله قتادة أيضاً (١٤/ ٣٦٧).

(٥) انظر قول عكرمة في تفسير الطبري (١٤/ ٣٦٦-٣٦٧).

(٦) وهي قراءة شاذة، تقدمت الإشارة لها في تفسير الآيتين (٥٨) من المائدة، و(٧٣) من الأعراف.

وقوله: ﴿إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ استثناء من غير الأول كما قال النابغة:

وَلاَ عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سِيوفَهُمْ بِهِنَّ فُلُولٌ مِنْ قِرَاعِ الْكَتَائِبِ[١] [الطويل]

فكأن الكلام: وما نقموا إلا ما حقُّه أن يُشكر.

وقال مجاهد في قوله: ﴿وَهَمُّواْ بِمَا لَمۡ يَنَالُواْ﴾: إنها نزلت في قوم من قريش أرادوا قتل رسول الله ﷺ[٢].

قال القاضي أبو محمد: وهذا لا يناسب الآية.

وقالت فرقة: إنَّ الجُلَاس هو الذي همَّ بقتل رسول الله ﷺ[٣]، وهذا يشبه الآية إلا أنه غير قوي السند.

وحكى الزجَّاج أن اثني عشر من المنافقين هموا بذلك فاطلع الله عليهم[٤].

وذكرُ رسول الله ﷺ في إغنائهم من حيث كثرت أموالهم من الغنائم، فرسول الله ﷺ سببٌ في ذلك، وعلى هذا الحدِّ قال رسول الله ﷺ للأنصار: «كنتم عالةً فأغناكم الله بي»[٥].

ثم فتح عز وجل لهم باب التوبة رفقاً بهم ولطفاً في قوله: ﴿فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيۡرٗا لَّهُمۡ﴾.

وروي أن الجلاس تاب من النفاق فقال: «إن الله قد ترك لي باب التوبة» فاعترف وأخلص، وحسنت توبته[٦].

والعذاب الأليم اللاحق بهم في الدنيا: هو المقت والخوف والهجنة[٧] عند المؤمنين.

---

(١) تقدم عزوه له في تفسير الآية (٥٨) من المائدة.

(٢) انظر قول مجاهد في: تفسير الطبري (١٤/ ٣٦٦).

(٣) قاله عروة بن الزبير كما في: تفسير ابن أبي حاتم (٧/ ٣٤٠).

(٤) انظر قول الزجاج في كتابه: معاني القرآن وإعرابه (٢/ ٤٦١).

(٥) أخرجه البخاري (٤٣٣٠) ومسلم (١٠٦١).

(٦) أرسله عروة بن الزبير أيضاً، أخرجه الطبري (١٤/ ٣٦٨).

(٧) في الأسدية: «المحنة». وفي نجيبويه: «واللجنة».

قوله عز وجل: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾﴾.

هذه الآية نزلت في ثعلبة بن حاطب الأنصاري(١)، قال الحسن: وفي مُعتِّب بن قُشيرٍ معه(٢)، واختصار ما ذكره الطبري وغيره من أمره: أنه جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله ادع الله أن يجعل لي مالاً، فإني لو كنت ذا مال لقضيت حقوقه وفعلت فيه الخير، فرادَّه رسول الله ﷺ، وقال: «قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه»، فعاود، فقال له النبي ﷺ: «ألا تريد أن تكون مثل رسول الله ﷺ، ولو دعوتُ الله أن يسيِّر الجبال معي ذهباً لسارت»، فأعاد عليه حتى دعا له رسول الله ﷺ بذلك، فاتخذ غنماً فنمت كما ينمو الدود حتى ضاقت به المدينة، فتنحى عنها وكثرت غنمه، فكان لا يصلي إلا الجمعة، ثم كثرت حتى تنحى بعيداً [فترك الصلاة](٣) ونجم نفاقُه، ونزل خلال ذلك فرض الزكاة على رسول الله ﷺ، فبعث مصدِّقين بكتابه في أخذ زكاة الغنم، فلما بلغوا ثعلبة وقرأ الكتاب قال: هذه أخت الجزية، ثم قال لهم: دعوني حتى أرى رأيي.

فلما أتوا رسول الله ﷺ وأخبروه، قال: «ويح ثعلبة» ثلاثاً، ونزلت الآية فيه، فحضر القصة قريب لثعلبة، فخرج إليه، فقال: أدرك أمرك، فقد نزل كذا وكذا، فخرج ثعلبة حتى أتى رسول الله ﷺ فرغب أن يؤدي زكاته، فأعرض عنه رسول الله ﷺ، وقال: «إن الله أمرني أن لا آخذ زكاتك».

---

(١) هو ثعلبة بن حاطب، أو ابن أبي حاطب الأنصاري، ذكره ابن إسحاق فيمن بنى مسجد الضرار، ومات في خلافة عثمان. الإصابة (١/ ٥١٦)، قال: وأما ثعلبة بن حاطب بن عمرو بن عبيد الأوسي الأنصاري البدري، فإنه استشهد بأحد.

(٢) انظر كل هذا في: تفسير الطبري (١٤/ ٣٧٠)، ومعتب تقدم التعريف به آل عمران، الآية (١٥٥).

(٣) زيادة من نور العثمانة ونجيبويه.

فبقي كذلك حتى توفي رسول الله ﷺ، ثم ورد ثعلبة على أبي بكر، ثم على عمر، ثم على عثمان يرغب إلى كل واحد منهم أن يأخذ منه الزكاة، فكلهم رد ذلك وأباه اقتداء برسول الله ﷺ.

فبقي ثعلبة كذلك حتى هلك في مدة عثمان[1].

وفي قوله تعالى: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ﴾ نصُّ المعاقبة على الذنب بما هو أشد منه.

وقوله: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ﴾ يقتضي موافاتهم على النفاق، ولذلك لم يقبل الخلفاء رضي الله عنهم رجوع ثعلبة لشهادة القرآن عليه بالموافاة، ولولا الاحتمال في أنه نفاق معصية لوجب قتله.

وقرأ الأعمش: (لنصدقنَّ) بالنون الثقيلة مثل الجماعة: (ولنكوننْ) خفيفة النون[2].

والضمير الذي في قوله: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ﴾ يعود على الله عز وجل، ويحتمل أن يعود على البخل المضمن في الآية، ويضعِّف ذلك الضميرُ في ﴿يَلْقَوْنَهُۥ﴾.

وقوله: ﴿نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ يحتمل أن يكون نفاق كفر، ويكون تقريرُ ثعلبة بعد هذا النصِّ والإبقاءُ عليه لمكان إظهاره الإسلام وتعلقه بما فيه احتمال، ويحتمل أن يكون قوله: ﴿نِفَاقًا﴾ يريد به نفاق معصية وقلة استقامة، فيكون تقريره صحيحاً، ويكون ترك [قبول النبي ﷺ][3] الزكاةَ منه عقاباً له ونكالاً.

---

(١) ضعيف جداً، أخرجه ابن جرير (١٤/ ٣٧٠)، وابن أبي حاتم (١٠٤٠٦) من طريق هشام بن عمار، ثنا معان بن رفاعة السلمي، عن علي بن يزيد الألهاني، عن القاسم بن عبد الرحمن، عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه، مرفوعاً به، وهذا إسناد ضعيف جداً من أجل علي بن يزيد الألهاني، وهو متروك الحديث.

(٢) وهي قراءة شاذة، عزاها له مختصر الشواذ (ص: ٥٨)، والشواذ للكرماني (ص: ٢١٨)، في الحرفين، ولم أجد أحداً تابع المصنف.

(٣) من الأسدية وفي المطبوع: «في أول».

وهذا نحو ما روي أن عاملاً[(١)] كتب إلى عمر بن عبد العزيز: إن فلاناً يمنع الزكاة، فكتب إليه أن دعه واجعل عقوبته أن لا يؤدي الزكاة مع المسلمين[(٢)]، يريد لما يلحقه من المقت في ذلك.

وقرأ الحسن والأعرج، وأبو عمرو، وعاصم، ونافع وسائرهم: ﴿يَكْذِبُونَ﴾ خفيفة.

وقرأ أبو رجاء: (يُكَذِّبون) مشددة[(٣)].

وذكر الطبري في هذه الآية ما يناسبها من حديث رسول الله ﷺ: «ثلاث من كن فيه كان منافقاً خالصاً: إذا وعد أخلف، وإذا حدَّث كَذَب، وإذا اؤتمن خان»، وفي حديث آخر: «و إذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر[(٤)]»، / ونحو هذا من الأحاديث[(٥)]. [٢/ ٢٥٤]

ويظهر من مذهب البخاري وغيره [من أهل العلم أن هذه الخلال][(٦)] الذميمةَ منافقٌ من اتصف بها إلى يوم القيامة[(٧)].

وروي أن عمرو بن العاص لما احتُضر قال: «زوِّجوا فلاناً فإني قد وعدته، لا ألقى الله بثلث النفاق»[(٨)]، وهذا ظاهر كلام الحسن بن أبي الحسن.

---

(١) في الأسدية: «غلاماً».

(٢) أخرجه مالك في: الموطأ (باب ما جاء في أخذ الصدقات والتشديد فيها ـ ٦٠٧)، (١/ ٢٧٠).

(٣) من المطبوع، وكذا خفيفة، وهي قراءة شاذة، انظر: مختصر الشواذ (ص: ٥٨)، وزاد الحسن، والأولى هي المتواترة.

(٤) متفق عليه، أما اللفظ الأول، فأخرجه البخاري (٣٣)، ومسلم (١٠٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، مرفوعاً به، وأما اللفظ الثاني، فأخرجه البخاري (٢٣٢٧)، ومسلم (١٠٦) من حديث عبد الله ابن عمرو رضي الله عنهما، مرفوعاً به.

(٥) انظر: تفسير الطبري (١٤/ ٣٧٦-٣٧٨).

(٦) في الأسدية: أن أهل هذه الحالة.

(٧) انظر في ذلك: صحيح البخاري (١/ ٢١)، وفتح الباري لابن حجر (١/ ٨٩).

(٨) ضعيف، هذا الأثر أخرجه الطبري (١٤/ ٣٧٨)، وابن عدي في كامله (٦/ ١٤٣)، كلاهما من طريق شبابة بن سوار، ثنا محمد المحرم، قال: سمعت الحسن، عن عبد الله بن عمرو، عن أبيه، =

وقال عطاء بن أبي رباح: «قد فعل هذه الخلالَ إخوةُ يوسف، ولم يكونوا منافقين، بل كانوا أنبياء، وهذه الأحاديث إنما هي في المنافقين في عصر النبي ﷺ الذين شهد الله عليهم»، وهي هذه الخصال في سائر الأمة معاصٍ لا نفاق، وذكر الطبري أن الحسن رجع إلى هذا[١].

قال القاضي أبو محمد: ولا محالة أنها كانت مع التوحيد والإيمان بمحمد ﷺ معاص، لكنها من قبيل النفاق اللغوي، وذكر الطبري عن فرقة أنها قالت: كان العهد الذي عاهد الله عليه هؤلاء المنافقُون شيئاً نووه في أنفسهم ولم يتكلموا به[٢].

قال القاضي أبو محمد: وهذا فيه نظر.

وقوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ﴾ الآية لفظ به تعلق من قال في الآية المتقدمة: إن العهد كان من المنافقين بالنية لا بالقول.

وقرأ الجمهور: ﴿يَعْلَمُوٓاْ﴾ بالياء من تحت.

وقرأ أبو عبد الرحمن والحسن: (ألم تعلموا) بالتاء من فوق[٣].

وهذه الآية تناسب حالهم؛ وذلك أنها تضمنت إحاطة علم الله بهم وحصره لهم، وفيها توبيخهم على ما كانوا عليه من التحدث في نفوسهم من الاجتماع على ثلب[٤]

= به، وهذا إسناد ضعيف جداً، محمد بن المحرم ترجم له البخاري في التاريخ الكبير (١/ ٢٤٨)، وقال: منكر الحديث، ثم أشار إلى حديثه هذا، وله طريق آخر من رواية الأوزاعي، عن هارون بن رئاب، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما عن أبيه به، أخرجه الطبري (١٤/ ٣٧٨)، والفريابي في صفة النفاق (١٨)، كلاهما من طريق الأوزاعي به، وهذا إسناد مرسل، قال الذهبي في السير (٨/ ٣٩٦): هارون ثقة، لكنه لم يلحق عبد الله بن عمرو.

(١) انظر ما عزاه المؤلف للحسن وعطاء في: تفسير الطبري (١٤/ ٣٧٨).

(٢) انظر تفسير الطبري (١٤/ ٣٨٠)، وفي نور العثمانية والأسدية: «المنافقين» بالنصب، على أن «الله» فاعل.

(٣) وهي قراءة شاذة، انظر عزوها للسلمي في مختصر الشواذ (ص: ٥٨)، وأما الحسن فسيأتي خلافه في الحرف الذي في آخر السورة.

(٤) سقطت من نور العثمانية وضبب عليها في أحمد٣، وفي الأسدية: «بيت»، وفي التركية: «ثلث».

الإسلام، وراحة بعضهم مع بعض في جهة النبي ﷺ وشرعه، فهي تعم المنافقين أجمع، وقائل المقالة المذكورة ذهب إلى أنها تختص بالفرقة التي عاهدت.

قوله عز وجل: ﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾﴾.

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ﴾ رد على الضمائر في قوله: ﴿يَكۡذِبُونَ﴾، وقوله: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ﴾ وقوله: ﴿سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۡ﴾، و﴿يَلۡمِزُونَ﴾ معناه: ينالون بألسنتهم.

وقرأ السبعة: ﴿يَلۡمِزُونَ﴾ بكسر الميم، وقرأ الحسن، وأبو رجاء، ويعقوب، وابن كثير فيما روي عنه: ﴿يلمُزون﴾ بضم الميم[(١)].

و﴿ٱلۡمُطَّوِّعِينَ﴾ لفظة عموم في كلِّ متصدقٍ، والمراد به الخصوص فيمن تصدق بكثير، دلَّ على ذلك قوله عطفاً على الْمُطَّوِّعِينَ: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ﴾ ولو كان الَّذِينَ لا يَجِدُونَ قد دخلوا في الْمُطَّوِّعِينَ لما ساغ عطف الشيء على نفسه، وهذا قول أبي علي الفارسي في قوله عز وجل: ﴿مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ [البقرة: ٩٨] فإنه قال: المراد بالملائكة: مَنْ عدا هذين[(٢)]، وكذلك قال في قوله: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٞ وَنَخۡلٞ وَرُمَّانٞ﴾ [الرحمن: ٦٨]، وفي هذا كلِّه نظر؛ لأن التكرار لقصد التشريف يسوِّغ هذا مع تجوُّز العرب في كلامها.

وأصل ﴿ٱلۡمُطَّوِّعِينَ﴾: المتطوعين، فأبدل التاء طاء وأدغم، وأما المتصدق بكثير الذي كان سبباً للآية فأكثر الروايات أنه عبد الرحمن بن عوف، تصدق بأربعة

---

(١) فهي عشرية قرأ بها يعقوب، كما في النشر (٢/ ٢٨٠) وعزاها في السبعة (ص: ٣١٥) لشبل عن ابن كثير وأهل مكة، وفي إتحاف فضلاء البشر (ص: ٣٠٤) للحسن، ولم أجدها لأبي رجاء.

(٢) لم أجده له بهذا اللفظ، وانظر كلامه على هذه الآية في الحجة له (٢/ ١٦٣).

آلاف وأمسك مثلها، فقال له النبي ﷺ: «بارك الله لك فيما أمسكت وفيما أنفقت»[(١)].

وقيل: هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه تصدق بنصف ماله[(٢)].

وقيل: عاصم بن عدي تصدق بمئة وسق[(٣)].

وأما المتصدق بقليل فهو أبو عقيل حبحاب[(٤)] الأراشي، تصدق بصاع من تمر، وقال: «يا رسول الله، جررت البارحة بالجرير[(٥)] وأخذت صاعين تركت أحدهما لعيالي وأتيت بالآخر صدقة، فقال المنافقون: «الله غني عن صدقة هذا».

وقال بعضهم: إن الله غني عن صاع أبي عقيل[(٦)].

وقيل: إن الذي لُمِز في القليل أبو خيثمة[(٧)]، قاله كعب بن مالك صاحب النبي ﷺ[(٨)].

وتصدق عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف، وقيل: بأربع مئة أوقية من فضة،

---

(١) مرسل، هذا الحديث أخرجه الطبري (١٤/ ٣٨٣) من طريق عطية بن سعد العوفي، عن ابن عباس رضي الله عنهما به، وعطية ضعيف الحديث، شيعي مدلس، وقد عنعنه، وأخرجه البزار في مسنده (١٥/ ٢٣٤)، قال: حدثنا طالوت بن عباد، قال: نا أبو عوانة، عن عمر بن أبي سلمة، عن أبيه، عن أبي هريرة، قال البزار: هكذا قال طالوت، وحدثناه أبو كامل قال: نا أبو عوانة، عن عمر بن أبي سلمة، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ...فذكره مرسلاً، قال البزار: وهذا الحديث لا نعلمه يروى عن أبي هريرة إلا من هذا الوجه، ولم نسمع أحداً أسنده من حديث عمر بن أبي سلمة إلا طالوت عن أبي عوانة.

(٢) ضعيف، هذا الحديث أخرجه الطبري (١٤/ ٣٩٢)، من طريق عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، معضلاً به.

(٣) ضعيف، هذا الحديث أخرجه الطبري (١٤/ ٣٨٧)، من طريق ابن إسحاق، معضلاً به.

(٤) في الأسدية ونجيبويه: «حنحاب»، وهو أبو عقيل الأنصاري صاحب الصاع، ويقال له: الحثحاث. الإصابة (٧/ ٢٣٣)، ثم ترجم بعده لأبي عقيل البلوي الذي شهد بدراً، وذلك يقتضي أنه ليس هو.

(٥) في المطبوع: «الحرير»، والجرير: الحبل.

(٦) ضعيف، هذا الحديث أخرجه الطبري (١٤/ ٣٨٨) بإسناد فيه موسى بن عبيدة الربذي، وهو متروك الحديث.

(٧) هو أبو خيثمة الأنصاري، اسمه مالك بن قيس، قيل: هو أحد من تصدَّق بصاع، فلمزه المنافقون. الإصابة (٧/ ٩٣)

(٨) مسلم، أخرجه (٢٧٦٩) من حديث كعب بن مالك رضي الله عنه، مرفوعاً به.

وقيل: أقل من هذا، فقال المنافقون: ما هذا إلا رياء، فنزلت الآية في هذا كله[١].

وقولـه: ﴿فَيَسْخَرُونَ﴾ معنـاه: يسـتهزئون ويسـتخفُّون، وهـو معطـوف علـى ﴿يَلْمِزُونَ﴾. واعتـرض ذلـك بأن المعطوف على الصلة فهو مـن الصلة، وقد دخل بيـن هذا المعطوف والمعطوف عليـه قوله: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ﴾ وهذا لا يلزم؛ لأن قوله: ﴿وَالَّذِينَ﴾ معمول للذي عمل في ﴿الْمُطَّوِّعِينَ﴾ فهو بمنزلة قوله: جاءني الذي ضرب زيداً وعمراً فقتلهما.

وقوله: ﴿سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾ تسمية العقوبة باسم الذنب، وهي عبارة عمَّا حل بهم من المقت والذل في نفوسهم، وقوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ معناه: مؤلم، وهي آيةُ وعيدٍ محضٍ.

وقرأ جمهور الناس: ﴿جُهْدَهُمْ﴾ بضم الجيم، وقرأ الأعرج، وجماعة معه: (جَهدهم) بالفتح[٢].

وقيل: هما بمعنًى واحد، وقاله أبو عبيدة[٣].

وقيل: هما لمعنيين: الضم في المال والفتح في تعب الجسم، ونحوه عن الشعبي[٤].

وقوله: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ﴾ يصح أن يكون خبر ابتداء تقديره: هم الذين، ويصح أن يكون ابتداء وخبره: ﴿سَخِرَ﴾، وفي ﴿سَخِرَ﴾ معنى الدعاء عليهم، ويحتمل أن يكون خبراً مجرداً عن الدعاء، ويحتمل أن يكون ﴿الَّذِينَ﴾ صفةً جاريةً على ما قبلُ كما ذكرت أول الترجمة.

وقوله تعالى: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ يحتمل معنيين:

أحدهما: أن يكون لفظ أمر ومعناه الشرط، بمعنى: إن تستغفر أو لم تستغفر

---

(١) وقد سبق تخريج الأحاديث والآثار في ذلك كله.

(٢) وكذا عطاء ومجاهد وهي قراءة شاذة، انظر: مختصر الشواذ (ص: ٥٩).

(٣) مجاز القرآن (١/ ٤٧).

(٤) تفسير الطبري (١٤/ ٣٩٣).

لن يغفر الله لهم، فيكون مثل قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ﴾ [التوبة: ٥٣] وبمنزلة قول الشاعر:

أَسِيئي لَنَا أَوْ أَحْسِنِي لَا مَلُومَةً لَدَيْنَا وَلَا مَقْلِيَّةً إِنْ تَقَلَّتِ[1] [الطويل]

وإلى هذا المعنى ذهب الطبري وغيره في معنى الآية[2].

والمعنى الثاني الذي يحتمله اللفظ: أن يكون تخييراً، كأنه قال له: إن شئت فاستغفر، وإن شئت لا تستغفر، ثم أعلمه أنه لا يغفر لهم وإن استغفر سَبْعِينَ مَرَّةً.

وهذا هو الصحيح، لقول رسول الله ﷺ وتبيينه ذلك، وذلك أن عمر بن الخطاب سمعه بعد نزول هذه الآية يستغفر لهم، فقال له: يا رسول الله، أتستغفر للمنافقين وقد أعلمك الله أنه لا يغفر لهم؟ ، فقال له / : «يا عمر، إن الله قد خيَّرني فاخترت، ولو علمتُ أني إذا زدت على السبعين يغفر لهم لزدت»[3]، ونحو هذا من مقاولة[4] عمر في وقت إرادة النبي ﷺ الصلاة على عبد الله بن أبي ابن سلول، وظاهر صلاته عليه أن كفره لم يكن يقيناً عنده، ومحال أن يصلي على كافر، ولكنه راعى ظواهره من الإقرار ووكَلَ سريرته إلى الله عز وجل، وعلى هذا كان ستر المنافقين من أجل عدم التعيين بالكفر. [٢/ ٢٥٥]

وفي هذه الألفاظ التي لرسول الله ﷺ رفض إلزام دليل الخطاب، وذلك أن دليلَ الخطابِ يقتضي أنَّ الزيادةَ على السبعين يغفر معها، فقال رسول الله ﷺ: «ولو علمتُ...»، فجعل ذلك مما لا يعلمه، ومما ينبغي أن يتعلم ويطلب علمه من الله عز وجل، ففي هذا حجة عظيمة للقول برفض دليل الخطاب، وإذا ترتب كما قلنا التخيير في هذه الآية صح أن ذلك التخيير هو الذي نسخ بقوله تعالى في سورة المنافقون:

---

(١) لكثير عزة، كما في الشعر والشعراء (١/ ٥٠٥)، وأمالي القالي (٢/ ١٠٩)، والعقد الفريد (٣/ ١٢٥)، والأغاني (٩/ ٣٨).

(٢) انظر: تفسير الطبري (١٤/ ٣٩٤).

(٣) البخاري، أخرجه (١٣٠٠) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه مرفوعاً به.

(٤) في الأسدية: «مقالة».

﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [المنافقون: ٦].

ولمالك رحمه الله مسائل تقتضي القول بدليل الخطاب:

منها: قوله: إن المدرك للتشهد وحده لا تلزمه أحكام الإمام(١)، لأنَّ النبيَّ ﷺ، قال: «من أدرك ركعة من الصلاة فقد أدرك الصلاة»(٢)، فاقتضى دليلُ الخطاب أن من لم يدرك ركعة فليس بمدرك.

وله مسائل تقتضي رفضَ دليل الخطاب:

منها: قول النبي ﷺ: «وفي سائمة الغنم الزكاة»(٣)، فدليل الخطاب أن لا زكاة في غير السائمة، ومالك يرى الزكاة في غير السائمة(٤).

ومنها: أن الله عزَّ وجلَّ يقول في الصيد: ﴿وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا﴾ [المائدة: ٩٥]، فقال مالك: حكم المخطئ والمتعمد سواء(٥)، ودليل الخطاب يقتضي غير هذا(٦).

وأما تمثيله بالسبعين دون غيرها من الأعداد؛ فلأنه عددٌ كثيراً ما يجيء غاية وتحقيقاً(٧) في الكثرة، ألا ترى إلى القوم الذين اختارهم موسى، وإلى أصحاب العقبة.

---

(١) انظر قول مالك في: البيان والتحصيل (٢/ ١٧٠-١٧١).

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري (٥٥٥)، ومسلم (٦٠٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، مرفوعاً به.

(٣) لفظه عند أبي داود (١٥٦٩): وفي سائمة الغنم إذا كانت أربعين ففيها شاة إلى عشرين ومئة فإذا زادت على عشرين ومئة ففيها شاتان إلى أن تبلغ مئتين فإذا زادت على مئتين ففيها ثلاث شياه إلى أن تبلغ ثلاث مئة فإذا زادت على ثلاث مئة ففي كل مئة شاة شاة.

(٤) انظر: شرح صحيح البخاري لابن بطال (٣/ ٤٦٨-٤٦٩).

(٥) انظر: الاستذكار (٤/ ٣٧٩-٣٨٠).

(٦) انظر مذهب مالك في المقدمة لابن القصار (ص٢٣١).

(٧) في الأسدية، والتركية، والمطبوع: «مقنعاً»، ومثله في «البحر المحيط» (٥/ ٤٧٢) نقلاً عن ابن عطية، وستتكرر بهذا اللفظ قريباً، ولعلها من قولهم: شاهد مقنع كمُقْعد، أي: عدل يُقنع به. انظر: «تاج العروس» (قنع).

وقد قال بعض اللغويين[1]: إنَّ التصريفَ الذي يكون من السين والباء والعين فهو شديد الأمر[2]، ومن ذلك السبعة فإنها عدد مقنع، هي في السماوات وفي الأرض وفي خلق الإنسان وفي رزقه وفي أعضائه التي بها يطيع الله وبها يعصيه، وبها ترتبت أبواب جهنم فيما ذكر بعض الناس، وهي عيناه وأذناه ولسانه وبطنه وفرجه ويداه ورجلاه، وفي سهام الميسر وفي الأقاليم، وغير ذلك، ومن ذلك السَّبعُ والعَبوس والعنبس[3] ونحو هذا من القول.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى امتناع الغفران.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ إما من حيث هم فاسقون، وإما أنه لفظ عموم يراد به الخصوص فيمن يوافي على كفره.

قوله عز وجل: ﴿فَرِحَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ بِمَقۡعَدِهِمۡ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّۗ قُلۡ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّٗاۚ لَّوۡ كَانُواْ يَفۡقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلۡيَضۡحَكُواْ قَلِيلٗا وَلۡيَبۡكُواْ كَثِيرٗا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٖ مِّنۡهُمۡ فَٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِلۡخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخۡرُجُواْ مَعِيَ أَبَدٗا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّاۖ إِنَّكُمۡ رَضِيتُم بِٱلۡقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٖ فَٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾.

هذه آية تتضمن وصف حالهم على جهة التوبيخ لهم وفي ضمنها وعيد.

وقوله: ﴿ٱلۡمُخَلَّفُونَ﴾ لفظٌ يقتضي تحقيرهم، وأنهم الذين أبعدهم الله من رضاه، فهي أمكَنُ في هذا من أن يقال: «المتخلفون»، ولم يفرح إلا منافق، فخرج من ذلك الثلاثة وأصحاب العذر، و«مقعد» مصدر بمعنى القعود، ومثله:

مَنْ كَانَ مَسْرُوراً بِمَقْتَلِ مَالِكٍ[4] .... [الكامل]

---

(١) في الأسدية: «المفسرين».

(٢) في الأسدية والتركية: «الأسر».

(٣) وهو الأسد، وفي الأسدية: «العنبوس»، وفي التركية: «وجهه»، بدل «فرجه».

(٤) البيت للربيع بن زياد العبسي، كما تقدم في أول تفسير سورة آل عمران.

وقوله: ﴿خِلَٰفَ﴾ معناه: بَعْدَ، وأنشد أبو عبيدة في ذلك:

[الكامل] عَقَبَ الرَّبِيعُ خِلَافَهُمْ فَكَأَنَّمَا بَسَطَ الشَّوَاطِبُ بَيْنَهُنَّ حَصِيرا[١]

يريد: بعدهم، ومنه قول الشاعر:

[الطويل] فَقُلْ لِلَّذِي يَبْقَى خِلَافَ الَّذِي مَضَى تَأَهَّبْ لِأُخْرَى مِثْلِهَا فَكَأَنْ قَدِ[٢]

وقال الطبري: هو مصدر خالف يخالف[٣].

قال القاضي أبو محمد: فعلى هذا هو مفعول له، والمعنى: فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ لخلاف رسول الله ﷺ، أو مصدر ونَصْبُه في القول الأول كأنه على الظرف، وكراهيتهم لما ذكر هي شحٌّ[٤]، إذ لا يؤمنون بالثواب في سبيل الله فهم يَضنُّون[٥] بالدنيا.

وقولهم: ﴿لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّۗ﴾ كان لأن غزوة تبوك كانت في وقت شدة الحرِّ وطيب الثمار والظلال، قاله ابن عباس[٦] وكعب بن مالك[٧]، والناس، فأقيمت عليهم الحجة بأن قيل لهم: فإذا كنتم تجزعون من حرِّ القيظِ فنارُ جهنَّمَ هي التي أشد أحرى أن تجزعوا منها، لو قد فقهتم.

---

(١) مجاز القرآن (١/ ٢٦٤) ونسبه للحارث بن خالد، وكذا تفسير الثعلبي (٥/ ٧٨)، وفي المطبوع: «نشط»، بدل بسط.

(٢) ورد هذا البيت في قصيدة لمالك بن القين الخزرجي في الاختيارين (ص: ١٦١)، وفي عيون الأخبار (٣/ ١٣١) من أبيات ليزيد بن عبدالملك، وفي الجليس الصالح الكافي (ص: ٦٧٣)، وتاريخ دمشق لابن عساكر (١٦/ ٢٧٩) أنه لرجل من تميم.

(٣) انظر قول الطبري في: تفسيره (١٤/ ٣٩٨).

(٤) تحرفت في الأسدية إلى: «نسخ».

(٥) في العثمانية: «يظنون».

(٦) أخرجه ابن جرير (١٤/ ٤٠٠)، وابن أبي حاتم (١٠٥٠٤) من طريق عطية بن سعد العوفي عنه.

(٧) متفق عليه، أخرجه البخاري (٢٧٨٨)، ومسلم (٢٧٦٩).

وقرأ ابن عباس وأبو حيوة: (خَلْف) وذكرها يعقوب ولم ينسبها[١]، وقرئ: (خُلْف) بضم الخاء[٢].

ويقوي قول الطبري: إن لفظةَ الخلافِ هي مصدرٌ من خالف، ما تظاهرت به الرواياتُ من أنَّ رسول الله ﷺ أمرهم بالنفر فعصوا وخالفوا وقعدوا مستأذنين، وغير مستأذنين[٣].

وقال محمد بن كعب: قال: ﴿لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾ رجل من بني سلمة[٤].

وقال ابن عباس: قال رجل: يا رسول الله، الحر شديد فلا تنفر في الحر[٥].

قال النقاش: وفي قراءة عبد الله: (يعلمون) بدل ﴿يَفْقَهُونَ﴾[٦].

وقال ابن عباس[٧]، وأبو رَزينٍ والربيع بن خُثَيمٍ وقتادة وابن زيد: قوله: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا﴾ إشارة إلى مدة العمر في الدنيا، وقوله: ﴿وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا﴾ إشارة إلى تأبيد الخلود في النار[٨].

فجاء بلفظ الأمر ومعناه الخبر عن حالهم، ويحتمل أن يكون صفةَ حالهم، أي: هم لمَا هم عليه من الخطر مع الله، وسوء الحال، بحيث ينبغي أن يكون ضحكهم قليلاً وبكاؤهم من أجل ذلك كثيراً، وهذا يقتضي أن يكون وقت الضحك والبكاء في الدنيا

---

(١) وهي شاذة، انظر عزوها لأبي حيوة في مختصر الشواذ (ص: ٥٩)، وعزاها في تفسير الثعلبي (٥/ ٧٨) لعمرو بن ميمون.

(٢) وهي أيضاً شاذة انظر: البحر المحيط لأبي حيان (٥/ ٤٧٤) ولم ينسبها لقارئ معين، وفي نجيبويه: وقرأ خلف.

(٣) ساقط من المطبوع ونور العثمانية.

(٤) انظر قول محمد بن كعب في تفسير الطبري (١٤/ ٤٠٠).

(٥) أخرجه الطبري (١٤/ ٤٠٠) من طريق العوفي عن ابن عباس.

(٦) وهي شاذة، انظر تفسير الثعلبي (٥/ ٧٨).

(٧) أخرجه الطبري (١٤/ ٤٠٣) من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس.

(٨) انظر أقوالهم في: تفسير الطبري (١٤/ ٤٠١-٤٠٣)، وفي نجيبويه: «وأبو زيد»، بدل «وأبو رزين».

[٢٥٦] / على نحو قوله ﷺ، لأمته: «لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيراً ولضحكتم قليلاً»[(١)].

وروي أن رسول الله ﷺ لما قال هذا الكلام أوحى الله إليه: «يا محمد، لا تُقنط عبادي»[(٢)].

و﴿جَزَآءَۢ﴾ متعلقٌ بالمعنى الذي تقديره: وَلْيَبْكُوا كَثِيراً إذ هم معذَّبون جَزاءً.

وقوله: ﴿يَكۡسِبُونَ﴾ نص في أنَّ التكسب هو الذي يتعلق به العقاب والثواب.

وقوله: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٖ مِّنۡهُمۡ﴾ الآية، «رجع» يستوي مجاوزه وغير مجاوزه[(٣)]، وقوله تعالى: (إِنْ) مبيِّنةٌ أن النبي ﷺ لا يعلم بمستقبلات أمره من أَجَلٍ وسواه، وأيضاً فيحتمل أن يموتوا هم قبل رجوعه. وأمرُ الله عز وجل لنبيه ﷺ بأن يقول لهم: ﴿لَّن تَخۡرُجُواْ مَعِيَ﴾ هو عقوبة لهم، وإظهارٌ لدناءة منزلتهم وسوء حالهم، وهذا هو المقصود في قصة ثعلبة بن حاطب التي تقدمت في الامتناع من أخذ صدقته، ولا خزي أعظم من أن يكون إنسان قد رفضه الشرع ورده كالجمل الأجرب.

وقوله: ﴿إِلَىٰ طَآئِفَةٖ﴾ يقتضي عندي أن المراد: رؤوسهم والمتبوعون، وعليها وقع التشديد بأنها لا تخرج ولا تقاتل عدوّاً، وكرر معنى قتال العدو؛ لأنه عُظْمُ الجهاد وموضع بارقة السيوف التي تحتها الجنة، ولولا تخصيص الطائفة لكان الكلام: فإن رجعك الله إليهم، ويشبه أن تكون هذه الطائفة قد حُتم عليها بالموافاة على النفاق، وعيِّنوا للنبي ﷺ، وإلا فكيف يترتب ألا يصلي على موتاهم إن لم يعينهم الله؟

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري (٦٦٣١) ومسلم (٩٠١) من حديث عائشة، والبخاري (٦٦٣٧) من حديث أبي هريرة.

(٢) ضعيف جداً، هذا الحديث أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط (٣/ ٨٩) من طريق سلام الطويل، عن الأجلح بن عبد الله الكندي، عن عدي بن عدي الكندي، قال: قال عمر بن الخطاب، فذكره مرفوعاً، قلت: وهذا إسناد ضعيف جداً، ففيه سلام الطويل، وهو ابن سلم السعدي، متروك الحديث.

(٣) «وغير مجاوزه» ساقط من المطبوع.

وقوله: ﴿وَمَاتُواْ وَهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ نصٌّ في موافاتهم، ومما يؤيد هذا ما روي أن النبي ﷺ، عيَّنهم لحذيفة بن اليمان[(١)] وكانت الصحابة إذا رأوا حذيفة تأخر عن الصلاة على جنازة رجل تأخروا هم عنها[(٢)].

وروي عن حذيفة أنه قال يوماً: بقي من المنافقين كذا وكذا، فقال له عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «أَنشدك الله أنا منهم؟». فقال: لا، ووالله لا أَمَّنتُ منها أحداً بعدك[(٣)].

---

(١) أخرج مسلم (٢٧٧٩) من حديث قيس بن عباد عن حذيفة عن عمار قال: حذيفة أخبرني عن النبي ﷺ، قال: قال النبي ﷺ: «في أصحابي اثنا عشر منافقاً..» لكن ليس فيه تعيينهم، وأخرج البخاري (٤٦٥٨) من طريق: زيد بن وهب قال: كنا عند حذيفة فقال ما بقي من المنافقين إلا أربعة... فهذا يدل أنه يعرفهم بأعيانهم.

(٢) أخرج أبو داود الطيالسي في مسنده (١/ ١٤٩) قال: حدثنا قيس، عن أبي إسحاق، عن هبيرة، قال: شهدت عليًّا رضي الله عنه وسئل عن حذيفة، فقال: سأل عن أسماء المنافقين فأخبر بهم، وإسناده لين بسبب هبيرة، وروى عبد الرزاق عن معمر عن الزهري قال حذيفة بن اليمان: فقال النبي ﷺ: «فإني مسر إليك سرّاً لا تحدثن به أحداً أبداً، أني نهيت أن أصلي على فلان وفلان» رهط ذوي عدد من المنافقين، قال: فلما توفي رسول الله ﷺ واستخلف عمر رضي الله عنه كان إذا مات الرجل من صحابة النبي ﷺ ممن يظن عمر أنه من أولئك الرهط أخذ بيد حذيفة فقاده، فإن مشى معه صلى عليه، وإن انتزع من يده لم يصل عليه وأمر من يصلي عليه. وهذا مرسل، ورواه الليث عن عقيل عن ابن شهاب أنه قال: أخبرني عروة بن الزبير قال بلغنا: أن رسول الله ﷺ حين غزا تبوك... بمعنى السابق، وهو مرسل أيضاً. كلاهما في السنن الكبرى للبيهقي (٨/ ٢٠٠-٢٠١)، وأخرج الطبري (١٤/ ٤٣٣) من طريق قتادة قال: ذكر لنا أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان إذا مات رجل يرى أنه منهم، نظر إلى حذيفة، فإن صلى عليه، وإلا تركه، وهذا منقطع.

(٣) صحيح، أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (١٢/ ٢٧٦) من طريق: وكيع نبأنا ابن أبي خالد قال: سمعت زيد بن وهب الجهني يحدث عن حذيفة قال: مر بي عمر بن الخطاب بنحوه، وأخرجه ابن زنجويه في الأموال (٧٧١) من طريق صدقة بن خالد، حدثني زيد بن واقد، عن بسر بن عبيد الله، يرويه عن عائذ الله أبي إدريس، أن عمر بن الخطاب قال لحذيفة بنحوه، قال البخارى: لم يسمع أبو إدريس من عمر. كما في تهذيب التهذيب (٥/ ٨٦)، وقاله قتادة مرسلاً بلفظ: ذكر لنا، أخرجه الطبري (١٤/ ٤٤٣).

وقرأ جمهور الناس: ﴿معيْ﴾ بسكون الياء في الموضعين، وقرأ عاصم فيما قال المفضل: ﴿مَعِىَ﴾ بحركة الياء في الموضعين[١].

وقوله: ﴿أَوَّلَ﴾ هو بالإضافة[٢] إلى وقت الاستئذان.

والخالفون: جميع من تخلف من نساء وصبيان وأهلِ عذرٍ غُلِّب المذكَّر فجمع بالياء والنون وإن كان ثَمَّ نساء، وهو جمع خالف، وقال قتادة: «الخالفون: النساء»، وهذا مردودٌ.

وقال ابن عباس: «هم الرجال»[٣].

وقال الطبري: يحتمل قوله: ﴿مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ﴾ أن يريد: مع الفاسدين، فيكون ذلك مأخوذاً من خَلَف الشيءُ: إذا فسد، ومنه: خُلوف فم الصائم[٤].

قال القاضي أبو محمد: وهذا تأويلٌ مقحَمٌ، والأول أفصح وأجرى على اللفظة.

وقرأ مالك بن دينار وعكرمة: (مع الخَلِفين)[٥] وهو مقصورٌ[٦] من ﴿ٱلْخَٰلِفِينَ﴾، كما قال: «عَرِدَا وبَرِدَا»[٧] يريد: عَارداً وبارداً، وكما قال الآخر:

[الرجز] .... مِثْـلُ النَّـقَـا لَبَّـدَهُ بَـرْدُ الظِّلَـلِ[٨]

يريد: الظلال.

---

(١) في المطبوع «الفضل»، وفيه تخليط، فقد انفرد بفتح الثانية حفص، وبتسكين الأولى شعبة والأخوان، انظر: التيسير (ص: ١٢٠).

(٢) «بالإضافة» من نجيبويه، وفي الباقي: «الإضافة».

(٣) أخرجه الطبري (١٤/ ٤٠٤) من طريق علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما به.

(٤) انظر قول قتادة والطبري في: تفسير الطبري (١٤/ ٤٠٣-٤٠٥).

(٥) وهي قراءة شاذة، انظر عزوها لمالك في المحتسب (١/ ٢٩٨)، مختصر الشواذ (ص: ٥٩)، ولهما في البحر المحيط (٥/ ٤٧٧).

(٦) في المطبوع: مقصود.

(٧) يشير بهذا إلى الأبيات التي تقدمت في تفسير سورة آل عمران: (١٤٥) وهي: أَصْبَحَ قَـلْبي صَـرِدا... إلخ.

(٨) استشهد به بلا نسبة أبو حيان في «البحر» (٥/ ٤٧٧)، والسمين في الدر المصون (٦/ ٩٣)، وأورده =

قوله عز وجل: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾.

هذه الآية نزلت في شأن عبد الله بن أبيٍّ ابنِ سَلُولَ وصلاةِ رسول الله ﷺ عليه.

فروى أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ لما تقدم ليصلي عليه جاءه جبريلُ عليه السلام، فجذبه بثوبه وتلا عليه: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا ﴾ الآية فانصرف رسول الله ﷺ، ولم يصل عليه[١]، وتظاهرت الروايات أن رسول الله ﷺ صلى عليه، وأن الآية نزلت بعد ذلك[٢]، وفي كتاب الجنائز من البخاري من حديث جابر، قال: أتى رسولُ الله ﷺ عبدَ الله ابن أبيٍّ بعد ما أدخل حفرته، فأمر به فأخرج ووضعه على ركبته ونفث عليه من ريقه، وألبسه قميصه[٣]، وروي في ذلك أنَّ عبد الله بنَ أبي بعث إلى رسول الله ﷺ في مرضه ورغب إليه أن يستغفر له وأن يصلي عليه[٤].

= ابن جني في «المحتسب» (١/ ٢٩٩)، والخصائص (٣/ ١٣٤)، والمظفر العلوي في نضرة الإغريض (ص ٤٨)، وصاحب اللسان: (طلل) بلفظ: «الطِّلل»، والشاهد باق فيه، وانظر كلام صاحب اللسان.

(١) ضعيف، هذا الحديث أخرجه الطبري (١٤/ ٤٠٧)، وأبو يعلى في مسنده (٧/ ١٤٤)، كلاهما من طريق يزيد الرقاشي، عن أنس بن مالك رضي الله عنه مرفوعاً به، ويزيد الرقاشي هو ابن أبان، متفق على تضعيفه.

(٢) البخاري، أخرجه (١٣٠٠) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه به.

(٣) البخاري، أخرجه (١٢٨٥) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه به.

(٤) مسلم، أخرجه (٢٤٠٠) من حديث عبد الله بن عمر، إلا أن فيه أن عبد الله بن عبد الله دعا رسول الله ﷺ بعد وفاة أبيه، وأما الرواية التي فيها أنه في مرضه فرواها الطبري (١٤/ ٤٠٩)، من طريق قتادة، معضلاً، به.

وروي أنَّ ابنه عبد الله بن عبد الله[1] جاء رسول الله ﷺ بعد موت أبيه فرغب في ذلك، وفي أن يكسوه قميصه الذي يلي بدنه ففعل، فلما جاء رسول الله ﷺ ليصلي عليه قام إليه عمر رضي الله عنه، فقال: يا رسول الله، أتصلي عليه وقد نهاك الله عن الاستغفار لهم؟ وجعل يعدِّد أفعال عبد الله، فقال له رسول الله ﷺ: «أخِّر عني يا عمر، فإني خُيرت، ولو أعلم أني إن زدت على السبعين غفر له لزدت»[2]، وفي حديث آخر: «إن قميصي لا يغني عنه من الله شيئاً، وإني لأرجو أن يُسْلِم بفعلي هذا ألف رجل من قومي»[3]، كذا في بعض الروايات، يريد: من منافقي العرب، والصحيح أنه قال: «رجال من قومه»[4].

فسكت عمر وصلى رسول الله ﷺ على عبد الله، ثم نزلت هذه الآية بعد ذلك، وصلى عليه رسول الله ﷺ لموضع إظهاره الإيمان، ومُحال أن يصلي عليه وهو يتحقق كفره، وبعد هذا والله أعلم عيِّن له من لا يصلي عليه.

ووقع في «معاني» أبي إسحاق[5] وفي بعض كتب التفسير: «فأسلم وتاب بهذه الفعلة من رسول الله ﷺ والرغبةِ من عبد الله ألفُ رجل من الخزرج»[6].

قال القاضي أبو محمد: وهذا ضعيفٌ، قاله من لم يعرف عِدَّة الأنصار.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ﴾ الآية، تقدَّم تفسير مثل هذه الآية، والخطاب للنبي ﷺ والمراد أمته؛ إذ هو بإجماع ممن لا تفتنه زخارف الدنيا.

(١) عبد الله بن عبد الله بن أبي ابن سلول، كان أبوه رأس المنافقين، وكان اسمه الحباب، وبه يكنى أبوه، فسمَّاه النبيُّ ﷺ عبد الله، قيل: إنه شهد بدراً وأحداً والمشاهد، وقد استشهد باليمامة سنة (١٢هـ). الإصابة (٤/ ١٣٣).

(٢) البخاري، أخرجه (١٣٠٠) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه به.

(٣) لم أقف عليه مسنداً بهذا اللفظ.

(٤) معضل، هذا الحديث أخرجه الطبري (١٤/ ٤٠٩)، من طريق قتادة، معضلاً به.

(٥) في المطبوع: مغازي، وهو خطأ، والمقصود معاني القرآن وإعرابه لأبي إسحاق الزجاج، انظره (٢/ ٤٦٣).

(٦) انظر تفسير السمعاني (٢/ ٣٣٥)، وأحكام القرآن لابن العربي (٢/ ٥٦٠).

ويحتمل أن يكون معنى / الآية: ولا تعجبك أيها الإنسان، والمراد الجنس، [٢/ ٢٥٧] ووجه تكريرها تأكيد هذا المعنى وإيضاحه؛ لأنَّ الناسَ كانوا يُفتنون بصلاح حال المنافقين في دنياهم.

وقوله: ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ الآية، العاملُ في (إِذا): ﴿ٱسْتَـْٔذَنَكَ﴾، والسورة المشار إليها هي براءة فيما قال بعضهم، ويحتمل أن يكون إلى كل سورة فيها الأمر بالإيمان والجهاد مع الرسول، وسورة القرآن أُجمِع على ترك همزها في الاستعمال.

واختلف هل أصلها الهمز أم لا:

فقيل: أصلها الهمز، فهي من أسأر: إذا بقيت له قطعة من الشيء، فالسورة: قطعة من القرآن.

وقيل: أصلها أن لا تُهمز، فهي كسورة البناء، وهي ما يبنى منه شيئاً بعد شيء، فهي الرتبة بعد الرتبة، ومن هذا قول النابغة:

أَلَـمْ تَـرَ أَنَّ الله أَعْطَـاكَ سُـورَةً تَرَى كُلَّ مَلْـكٍ دُونَهَا يَتَذَبْذَبُ[١] [الطويل]

وقد مضى هذا كله مستوعَباً في صدر هذا الكتاب.

و﴿أَنْ﴾ في قوله: ﴿أَنْ ءَامِنُواْ﴾ يحتمل أن تكون مفسِّرة بمعنى: «أي» فهي على هذا لا موضع لها، ويحتمل أن يكون التقدير: بأنْ، فهي في موضع نصب.

و﴿ٱلطَّوْلِ﴾ في هذه الآية: المال، قاله ابن عباس[٢] وابن إسحاق وغيرهما[٣].

والإشارة بهذه الآية إلى الجَد بن قيس وعبدالله بن أبيٍّ ومعتِّب بن قُشيرٍ ونظرائهم.

---

(١) تقدم في الكلام على تعريف السورة أول الكتاب.

(٢) أخرجه الطبري (١٤/ ٤١٢) من طريق علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما به، وأخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٠٦٨٣) من طريق الضحاك بن مزاحم، عن ابن عباس، به. وكلاهما فيه مقال معروف.

(٣) انظر قول ابن إسحاق في: تفسير الطبري (١٤/ ٤١١-٤١٢).

والقاعدون: الزَّمْنَى وأهل العذر في الجملة، ومن تُرك لضبط المدينة؛ لأن ذلك عذر.

وقوله: ﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾ الآية، تقريع وإظهارُ شُنعة، كما يقال على وجه التعيير: رضيت يا فلان كذا[١].

و﴿ٱلْخَوَالِفِ﴾: النساء، جمع خالفة، هذا قول جمهور المفسرين.

وقال أبو جعفر النحاس: يقال للرجل الذي لا خير فيه: خالفة[٢]، فهذا جمعه بحسب اللفظ، والمراد: أَخِسَّة الناس وأخلافهم.

وقال النضر بن شميل في كتاب النقاش: الْخَوالِف: من لا خير فيه[٣].

وقالت فرقة: الْخَوالِف جمع خالف، فهو جارٍ مجرى فوارس ونواكس وهوالك.

﴿وَطُبِعَ﴾ في هذه الآية مستعار، ولما كان الطبع على الصَّوَّان والكتاب مانعاً منه وحفاظاً عليه، شبِّه القلب الذي قد غشيه الكفر والضلال حتى منع الإيمان والهدى منه بالصَّوان المطبوع عليه، ومن هذا استعارة القفل[٤] والكنان للقلب.

و﴿لَا يَفْقَهُونَ﴾ معناه: لا يفهمون.

قوله عز وجل: ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ (٨٨) أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ (٨٩) وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٩٠)﴾.

---

(١) في الأسدية والتركية: «بكذا».

(٢) إعراب القرآن للنحاس (٢/ ١٢٩).

(٣) نقله في البحر المحيط (٥/ ٤٨٠).

(٤) في التركية: «العقل»، وفي نور العثمانية: «القلب»، وفي المطبوع: «الغفل»، وكلها تحريف، وأراد بالقفل قوله تعالى: ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾.

الأكثر في «لكِنْ» أن تجيء بعد نفي، وهو هاهنا في المعنى؛ وذلك أن الآية السالفةَ معناها أن المنافقين لم يجاهدوا، فحسُن بعدها: لكن الرسولُ والمؤمنون جاهدوا.

و﴿ٱلۡخَيۡرَٰتُ﴾ جمع خَيرة: وهو المستحسن من كلِّ شيءٍ، وكثر استعماله في النساء، فمن ذلك قوله عز وجل: ﴿فِيهِنَّ خَيۡرَٰتٌ حِسَانٞ﴾ [الرحمن: ٧٠] ومن ذلك قول الشاعر أنشده الطبري:

وَلَقَدْ طَعَنْتُ مَجَامِعَ الرَّبَلاتِ ربلات هِنْدٍ خَيْرَةِ الْمَلِكَاتِ[1] [الكامل]

و﴿ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾: الذين أدركوا بغيتهم من الجنة، والفلاح يأتي بمعنى إدراك البغية، من ذلك قول عبيد:

أَفْلِحْ بِمَا شِئْتَ فَقَدْ يُبْلَغُ بِالضْـ ـضَعَفِ وَقَدْ يُخْدَعُ الأَرِيبُ[2] [مخلع البسيط]

ويأتي بمعنى البقاء، ومن ذلك قول الشاعر:

لِكُلِّ هَمٍّ مِنَ الْهُمُومِ سَعَهْ والْمُسْيُ وَالصُّبْحُ لَا فَلَاحَ مَعَهْ[3] [المنسرح]

أي: لا بقاء.

قال القاضي أبو محمد: وبلوغ البغية يعم لفظة الفلاح حيث وقعت، فتأملْه.

و﴿أَعَدَّ﴾ معناه: يسَّر وهيأ، وقوله: ﴿مِن تَحۡتِهَا﴾ يريد: من تحت مبانيها وأعاليها.

والْفَوْزُ: حصول الإنسان على أمله، وظفره ببغيته، ومن ذلك فوز سهام الأيسار.

وقوله تعالى: ﴿وَجَآءَ ٱلۡمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ﴾ الآية، اختلف المتأولون في هؤلاء الذين جاءوا: هل كانوا مؤمنين أو كافرين؟:

---

(١) عزاه في مجاز القرآن (١/ ٢٦٧) لرجل جاهلي من بني عدي عدي تميم، وسقط الشطر الأول من الأصل.

(٢) ورد منسوبا في المطبوع وأكثر النسخ هنا للبيد، والصواب أنه لعبيد بن الأبرص كما تقدم للمؤلف في الآية (٢٢) من سورة الأنعام.

(٣) تقدم في أول سورة البقرة.

فقال ابن عباس وقومٌ معه منهم مجاهد: كانوا مؤمنين وكانت أعذارهم صادقةً، وقرأ: ﴿وجاء المُعْذِرون﴾ بسكون العين[(١)]، وهي قراءة الضحاك وحميد الأعرج وأبي صالح وعيسى بن هلال[(٢)].

وقرأ بعض قائلي هذه المقالة: (المعذِّرون) بشد الذال، قالوا: وأصله: المعتذرون، فقلبت التاء ذالاً وأدغمت.

ويحتمل المعتذرون في هذا القول معنيين: أحدهما: المعتذرون بأعذار حق، والآخر أن يكون: الذين قد بلغوا عذرهم من الاجتهاد في طلب الغزو معك فلم يقدروا، فيكون مثلَ قول لبيد:

[الطويل] .... وَمَنْ يَبْكِ حَوْلاً كَامِلاً فَقَدِ اعْتَذَرْ[(٣)]

وقال قتادة وفرقة معه: بل الذين جاؤوا كفرة، وقولُهم وعذرهم كذب[(٤)].

وكل هذه الفرقة قرأ: ﴿ٱلْمُعَذِّرُونَ﴾ بشد الذال[(٥)]، فمنهم من قال: أصله: المعتذِرون، نقلت حركة التاء إلى العين وأدغمت التاء في الذال، والمعنى: معتذِرون بكذب.

---

(١) أخرجه ابن جرير (١٤/ ٤١٦)، وابن أبي حاتم (١٠٦٩٢) من طريق الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما، به. وهي قراءة عشرية قرأ بها يعقوب النشر (٢/ ٣١٥)، وانظر عزوها لبعض من ذكر في تفسير الثعلبي (٥/ ٨٠)، وإعراب القرآن للنحاس (٢/ ١٣٠)، ولكلهم في البحر المحيط (٥/ ٤٨١).

(٢) عيسى بن هلال الصدفي المصري، روى عن: عبد الله بن عمرو، وعنه: دراج أبو السمح، وكعب بن علقمة، ويزيد بن أبي، وعياش بن عباس المصريون، توفي قبيل المئة. تاريخ الإسلام (٦/ ٤٤٩).

(٣) صدره: إلى الحول ثم اسم السلام عليكما، تقدم أول الكتاب، وفي التركية ونور العثمانية: «عروة ابن الورد»، بدل لبيد وهو خطأ.

(٤) انظر: تفسير الطبري (١٤/ ٤١٧-٤١٨).

(٥) ضبطت قراءة قتادة في مختصر الشواذ (ص: ٥٩) بفتح الذال وشدها، وهي قراءة شاذة، أما المقصودة هنا فهي قراءة الجماعة كما يظهر من سياق الكلام، وانظر كلام الآلوسي في شرح هذه الآية.

ومنهم من قال: هو من التعذير؛ أي: الذين يعذِّرون الغزو ويدفعون في وجه الشرع. فالآية إلى آخرها في هذا القول[1] إنما وصفت صنفاً واحداً في الكفر ينقسم إلى أعرابي وحضري، وعلى القول الأول وصفت صنفين: مؤمناً وكافراً.

قال أبو حاتم: وقال بعضهم: سألت مسلمة فقال: «المعَّذِّرون» بشد العين والذال[2].

قال أبو حاتم: «أراد: المعتذرين[3]. والتاء لا تدغم في العين؛ لبعد المخارج، وهي غلطٌ عنه أو عليه». قال أبو عمرو: «وقرأ سعيد بن جبير: (المعتذرون) بزيادة تاء»[4].

وقرأ الحسن بخلاف عنه وأبو عمرو ونافع والناس: ﴿كَذَبُواْ﴾ بتخفيف الذال.

وقرأ الحسن ـ وهو المشهور عنه ـ وأُبَيٌّ بن كعب ونوحٌ وإسماعيل[5]: (كذَّبوا) بتشديد الذال[6]، والمعنى: لم يصدِّقوه تعالى ولا رسولَه وردوا عليه أمره.

ثم توعد في آخر الآية الكافرين بـ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، فيحتمل أن يريد: في الدنيا بالقتل والأسر، ويحتمل أن يريد: في الآخرة بالنار.

وقوله: ﴿مِنْهُمْ﴾ يريد أن المعذِّرين كانوا مؤمنين، ويرجحه بعضَ / الترجيح فتأمله. [٢/ ٢٥٨]

---

(١) أي: على قول قتادة ومن معه بأن الجائين كفرة.

(٢) وهي شاذة، انظر عزوها لمسلمة في تفسير الثعلبي (٥/ ٨٠)، وقد ذكر في غاية النهاية (٢/ ٢٩٨): مسلمة بن عبد الله بن محارب، أبو عبد الله الفهري البصري النحوي، له اختيار في القراءة، ومسلمة ابن محارب بن دثار السدوسي الكوفي، الذي تقدم.

(٣) في نجيبويه: «المتعذرون»، انظر كلامه في البحر المحيط (٥/ ٤٨١).

(٤) وهي شاذة، انظر عزوها له في الشواذ للكرماني (ص: ٢١٩).

(٥) إسماعيل إن كان راوي نافع فقد تقدم، وأما نوح فلعله نوح القارئ، ذكره الحافظ أبو عمرو وقال: قال محمد بن الحسن النقاش: ثم كان بعد أبي عمرو بن العلاء ـ يعني من رواة الحروف المتصدرين ـ نوح القارئ، وذكر جماعةً، غاية النهاية (٢/ ٣٤٣).

(٦) وهي شاذة، انظر عزوها لأُبيٍّ والحسن في تفسير الثعلبي (٥/ ٨٠)، وللباقيَيْنِ في البحر المحيط (٥/ ٤٨٢).

وضعَّف الطبري قول من قال: إن (المعذِّرين) من التعذير، وأنحى عليه، والقولُ منصوص ووجهه بيِّن والله المعين.

وقال ابن إسحاق: «المعذِّرون نفر من بني غِفارٍ منهم خُفُاف بن إيماء بن رَحَضَةَ»[(١)].

قال القاضي أبو محمد: وهذا يقتضي أنهم مؤمنون.

قوله عز وجل: ﴿ لَّيۡسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرۡضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ مِن سَبِيلٖۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ قُلۡتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾.

يقول تعالى: ليس على أهل الأعذار الصحيحة من ضعف أبدان أو مرض أو زمانة أو عدم نفقة إثم، والحرج: الإثم.

وقوله: ﴿إِذَا نَصَحُواْ﴾ يريد: بنياتهم وأقوالهم سرّاً وجهراً.

وقرأ أبو حيوة: (نصحوا الله ورسولَه) بغير لام وبنصب الهاء من المكتوبة[(٢)].

وقوله تعالى: ﴿مَا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ مِن سَبِيلٖ﴾ في لائمةٍ تناط بهم، أو تذنيب أو عقوبة، ثم أكد الرجاء بقوله: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

وقرأ ابن عباس: (والله لأهل الإساءة غفور رحيم)[(٣)].

قال القاضي أبو محمد: وهذا على جهة التفسير أشبهُ منه على جهة التلاوة؛ لخلافه المصحف.

---

(١) انظر تضعيف الطبري وقول ابن إسحاق؛ في تفسير الطبري (١٤/ ٤١٦-٤١٨)، وخفاف، مشهور، وله ولأبيه صحبة، كان إمام بني غفار وخطيبهم، وشهد الحديبية، مات في زمن عمر الإصابة (٢/ ٢٨٢).

(٢) وهي قراءة شاذة، فيها مخالفة للمصحف، تابعه عليها في البحر المحيط (٥/ ٤٨٢)، ويعني بالمكتوبة اسم الجلالة.

(٣) وهي شاذة، انظرها في تفسير السمعاني (٢/ ٣٣٨): هي على وجه التفسير.

واختلف فيمَنِ المرادُ بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ﴾:

فقالت فرقة: نزلت في بني مُقَرِّن.

قال القاضي أبو محمد: وبنو مقرِّنٍ ستةُ إخوة صحبوا النبي ﷺ، وليس في الصحابة ستة إخوة غيرهم، [وقيل: كانوا سبعة][(١)].

[وقيل: نزلت في عائذ بن عمرو][(٢)].

وقيل: نزلت في عبد الله بن مغفَّلٍ المزني[(٣)]، قاله ابن عباس[(٤)].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ﴾ الآية، اختلف فيمن نزلت هذه الآية:

فقيل: نزلت في عِرْباض بن ساريةَ[(٥)]، وقيل: نزلت في عبد الله بن مغفَّلٍ، وقيل: في عائذ بن عمرو، وقيل: في أبي موسى الأشعري ورهطِه.

وقيل: في بني مقرِّنٍ، وعلى هذا جمهور المفسرين.

وقيل: نزلت في سبعة نفر من بطون شتى، فهم البكاؤون؛ وهم: سالم بن عمير

---

(١) ساقط من نور العثمانية.

(٢) زيادة من نجيبويه والتركية وأحمد٣، وهو عائذ بن عمرو بن هلال المزني، أبو هبيرة، كان ممن بايع تحت الشجرة كما ثبت في البخاري، وله عند مسلم في الصحيح حديثان غير هذا، وسكن البصرة، ومات في إمارة ابن زياد. الإصابة (٣/ ٤٩٤).

(٣) عبد الله بن مغفَّل بن عبد غنم المزني، سكن البصرة، وهو أحد البكاءين في غزوة تبوك، وشهد بيعة الشجرة، ثبت ذلك في الصحيح. وهو أحد العشرة الذين بعثهم عمر ليفقِّهوا الناس بالبصرة، ومات بالبصرة سنة (٥٥هـ)، وقيل: بعدها. الإصابة (٤/ ٢٠٦).

(٤) أخرجه ابن جرير (١٤/ ٤٢٠)، وابن أبي حاتم (١٠٧١٢)، في تفسيرهما من طريق عطية العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما به، وأخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٠٢٠٢) بإسناد فيه أبو جعفر الرازي، وهو ضعيف.

(٥) هو العرباض بن سارية السلمي أبو نجيح، صحابي مشهور من أهل الصفَّة، روى عن النبيِّ ﷺ، وعن أبي عبيدة بن الجراح، وعنه أبو أمامة الباهلي، وآخرون، كان قديم الإسلام جدّاً، توفي في فتنة ابن الزبير، أو بعدها سنة (٧٥هـ). الإصابة (٤/ ٣٩٩).

من بني عمرو بن عوف[(١)]، وحرمي بن عمرو[(٢)] من بني واقف، وأبو ليلى عبد الرحمن [بن كعب][(٣)] من بني مازن بن النجار، وسليمان بن صخر[(٤)] من بني المعلى، وأبو رعيلة عبد الرحمن بن زيد[(٥)] من بني حارثة، وهو الذي تصدق بعِرضه فقبل الله منه، وعمرو بن غنمة[(٦)] من بني سلمة، وعائذ[(٧)] بن عمرو المزني، وقيل: عبد الله بن عمرو المزني[(٨)]، قال هذا كلَّه محمد بنُ كعب القرظي، وقال مجاهد: «البكاؤون: هم بنو مكدر[(٩)] من مزينة»[(١٠)].

---

(١) هو سالم بن عمير، ويقال: ابن عمرو، بن ثابت بن النّعمان بن أميّة الأنصاريّ الأوسيّ، أحد البكّاءين، شهد العقبة وبدراً وما بعدها، ومات في خلافة معاوية، الإصابة (٣/ ٨).

(٢) في نجيبويه: «حرمي بن عوف»، وفي الطبقات الكبرى (٢/ ١٢٥): «هرمي بن عمرو»، وفي الإصابة (٦/ ٤١٩): هرم، أو هرمي بن عبد الله الأنصاري أحد البكّاءين من بني مالك بن الأوس، كان قديم الإسلام، شهد الخندق والمشاهد بعدها.

(٣) من الأسدية ونور العثمانية والتركية ونجيبويه، وهو عبد الرحمن بن كعب بن عمرو بن عوف بن مبذول الأنصاري المازني، أبو ليلى، شهد أحداً والخندق وما بعدها، وهو أحد البكاءين، مات في آخر زمن عمر. الإصابة (٤/ ٢٩٧).

(٤) لم أجد من ذكره إلا تفسير السمرقندي (٢/ ٨١)، وفي نور العثمانية وتفسير الطبري (١٤/ ٤٢٣): «سلمان بن صخر»، وفي الإصابة (٣/ ١٢٦) في ترجمة سلمة بن صخر: يقال فيه: سلمان، ولم يذكر أنه من البكائين.

(٥) في تفسير الطبري (١٤/ ٤٢٣): «عبد الرحمن بن يزيد، أبو عبلة»، ولا ذكر لأحد منهما في الإصابة، لكن ذكر (٤/ ٤٤٩) أن المتصدق بعرضه: علبة بن زيد بن عمرو الأنصاري الأوسي، قال: ذكره ابن إسحاق وابن حبيب في البكّاءين، وفي نور العثمانية: «أبو زغيلة».

(٦) كذا في تفسير الطبري (١٤/ ٤٢٣)، وفي الإصابة (٤/ ٥٥٢) أنه عمرو بن عنمة بمهملة ونون مفتوحتين، ابن عدي بن نابي بن عمرو بن سواد بن غنم بن كعب بن سلمة الأنصاري، ذكره موسى ابن عقبة وغيره فيمن شهد بدراً، وفي البكاءين، وكذا ابن إسحاق.

(٧) في نجيبويه: «عائد».

(٨) هو عبد الله بن عمرو بن هلال المزني قال البخاريّ: له صحبة، وهو والد علقمة وبكر، وذكره ابن جرير من طريق أبي معشر، عن محمد بن كعب وغيره في تسمية البكّاءين. الإصابة (٤/ ١٦٩).

(٩) في نجيبويه: «مكذر»، وفي نور العثمانية: «مكرر»، ولفظ الطبري (١٤/ ٤٢١): «بنو مقرن»، وهو الموافق لما تقدم قريباً.

(١٠) انظر القولين في تفسير الطبري (١٤/ ٤٢٠-٤٢٣).

ومعنى قوله: ﴿لِتَحۡمِلَهُمۡ﴾ أي: على ظهرٍ يُركب ويُحمل عليه الأثاث، وقال بعض الناس: «إنما استحملوه النعال»، ذكره النقاش عن الحسن بن صالح[١]، وهذا بعيدٌ شاذٌّ.

والعامل في ﴿إِذَا﴾ يحتمل أن يكون: ﴿قُلۡتَ﴾، ويكونُ قوله: ﴿تَوَلَّواْ﴾ مقطوعاً، ويحتمل أن يكون العامل ﴿تَوَلَّواْ﴾، ويكون تقدير الكلام: فقلت، أو يكون قوله: ﴿قُلۡتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ﴾ بمنزلة: وجدوك في هذه الحال.

وفي الكلام اختصارٌ وإيجازٌ ولا بدَّ، [يدل ظاهر الكلام][٢] على ما اختصر منه.

وقال الجرجاني في «النظم» له: إن قوله: ﴿قُلۡتَ﴾ في حكم المعطوف، تقديره: وقلتَ[٣].

و﴿حَزَنًا﴾ نصب على المصدر.

وقرأ معقل بن هارون: (لنحملهم) بنون الجماعة[٤].

قوله عز وجل: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ وَهُمۡ أَغۡنِيَآءُۚ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٩٣﴾ يَعۡتَذِرُونَ إِلَيۡكُمۡ إِذَا رَجَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡۚ قُل لَّا تَعۡتَذِرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكُمۡ قَدۡ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنۡ أَخۡبَارِكُمۡۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٩٤﴾﴾.

قوله في هذه الآية: ﴿إِنَّمَا﴾ ليس بحصرٍ، وإنما هي للمبالغة فيما يريد تقريره،

---

(١) انظر قول الحسن بن صالح في: تفسير ابن أبي حاتم (٧/ ٣٧٦)، وهو الحسن بن صالح بن حي الفقيه، أبو عبد الله الهمداني الكوفي العابد، أحد الأعلام، أخو علي، مات سنة (١٦٩هـ). وكان من كبار الفقهاء، تاريخ الإسلام (١٠/ ١٣١).

(٢) في الأسدية: «يدل أعني ظاهر هذا الكلام».

(٣) نقله في البحر المحيط (٥/ ٤٨٤).

(٤) وهي شاذة، تابعه عليها في البحر المحيط (٥/ ٤٨٤)، وتابِعوه، ولم أجد لمعقل هذا ذكراً، والذي في مختصر الشواذ (ص: ٥٩): عزوها لعبد الله بن معقل.

على نحو قولك: إنما الشجاع عنترة، ويقضي بذلك أنا نجد السبيل في الشرع على غير هذه الفرقة موجوداً.

و﴿ٱلسَّبِيلُ﴾ قد توصَل بـ«عَلَى» و«إِلى»، فتقول: لا سبيل على فلان، ولا سبيل إلى فلان، غير أن وصولها بـ«عَلَى» يقتضي أحياناً ضُعف[١] المتوصل إليه وقلة منعته؛ فلذلك حَسُنت في هذه الآية، وليس ذلك في (إلى)، ألا ترى أنك تقول: فلانٌ لا سبيل له إلى الأمر[٢] ولا إلى طاعة الله، ولا يحسن في شبه هذا «على».

و﴿ٱلسَّبِيلُ﴾ في هذه الآية سبيل العاقبة[٣]. وهذه الآية نزلت في المنافقين المتقدم ذكرُهم: عبدالله بن أبيٍّ، والجَدُّ بن قيس، ومعتِّب وغيرهم، وقد تقدَّم نظير تفسير الآية.

وقوله: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ﴾ الآية، هذه المخاطبة للنبي ﷺ، وشُرِك معه المسلمون في بعض؛ لأن المنافقين كانوا يعتذرون أيضاً إلى المؤمنين، ولأن إنباء الله أيضاً تحصَّل للمؤمنين، وقوله: ﴿رَجَعْتُمْ﴾ يريد من غزوة تبوك.

وقوله: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ﴾ معناه: لن نصدِّقكم، ولكن لفظة ﴿نُّؤْمِنَ﴾ تتصل بلام أحياناً كما تقدم في قوله: ﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ٦١].

و(نبَّأ) في هذه الآية قيل: هي بمعنى عرَّف لا تحتاج إلى أكثر من مفعولين، فالضمير مفعولٌ أول[٤]، وقوله: ﴿مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ مفعول ثان على مذهب أبي الحسن في زيادة (مِنْ) في الواجب، فالتقدير: قد نبأنا الله أخبارَكم[٥].

---

(١) في أحمد٣: «ضعة»، وفي الأسدية: «صيغة»، وفي نور العثمانية والتركية: «صفة»، وكذا في الأصل، مع الإشارة في هامشه للمثبت.
(٢) في الأسدية ونور العثمانية والتركية: «الأمير».
(٣) في الأصل ونور العثمانية: «المعاقبة».
(٤) في الأصل هنا زيادة: «نعت لمحذوف»، وعليها تضبيب وتصحيح.
(٥) انظر: الحجة للفارسي (٢/ ٩).

وهو على مذهب سيبويه نعت لمحذوف هو المفعول الثاني، تقديره: قد نبأنا الله جُملةً من أخباركم.

وقيل: (نبَّأ) بمعنى: أَعْلَم، يحتاج إلى ثلاثة مفاعيل، فالضمير واحد، و﴿مِنۡ أَخۡبَارِكُمۡ﴾ ثانٍ حسب ما تقدم من القولين، والثالث محذوف يدل الكلام عليه، تقديره: قد نبأنا الله من أخباركم كذباً، أو نحوه، وحذف هذا المفعول مع الدلالة عليه جائزٌ بخلاف الاقتصار، وذلك أن الاقتصار إنما يجوز إما على المفعول الأول ويسقط الاثنان إذ هما الابتداء والخبر، وإما على الاثنين الأخيرين ويسقط الأول، وأما أن يقتصر على المفعولين الأولين ويسقط الثالث دون دلالة عليه، فذلك لا يجوز، ويجوز حذفه مع الدلالة عليه.

والإشارة بقوله: ﴿قَدۡ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ﴾ إلى قوله: ﴿مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا وَلَأَوۡضَعُواْ خِلَٰلَكُمۡ يَبۡغُونَكُمُ ٱلۡفِتۡنَةَ﴾ [التوبة: ٤٧] ونحوِ هذا / ، وقوله: ﴿وَسَيَرَى ٱللَّهُ﴾ توعُّد معناه: [٢/ ٢٥٩] وسيراه في حال وجوده، ويقع الجزاء منه عليه إن خيراً فخير وإن شرّاً فشر.

وقوله: ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ﴾ يريد: البعث من القبور، والْغَيْب والشهادة يعمان جميع الأشياء، وقوله: ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾ معناه: التخويف ممن لا تخفى عليه خافية.

قوله عز وجل: ﴿سَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ إِذَا ٱنقَلَبۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ لِتُعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ إِنَّهُمۡ رِجۡسٞۖ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٩٥ يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ لِتَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡۖ فَإِن تَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرۡضَىٰ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٩٦ ٱلۡأَعۡرَابُ أَشَدُّ كُفۡرٗا وَنِفَاقٗا وَأَجۡدَرُ أَلَّا يَعۡلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٩٧﴾.

قيل: إن هذه الآية من أول ما نزل في شأن المنافقين في غزوة تبوك، وذلك أن بعض المنافقين اعتذروا إلى النبي ﷺ، واستأذنوه في القعود قبل مسيره فأذن لهم، فخرجوا من عنده وقال أحدهم: والله ما هو إلا شحمةٌ لأول آكلٍ، فلما خرج رسول الله ﷺ نزل فيهم القرآن، فانصرف رجل من القوم، فقال للمنافقين في مجلس منهم: والله لقد

نزل على محمد ﷺ فيكم قرآن، فقالوا له: وما ذلك؟ فقال: لا أحفظ إلا أني سمعت وصفكم فيه بالرجس، فقال لهم مَخْشيٌّ[١]: والله لوددت أن أجلد مئة جلدة ولا أكون معكم، فخرج حتى لحق برسول الله ﷺ، فقال له: «ما جاء بك؟» فقال: وجهُ رسول الله ﷺ تسفعه الريح وأنا في الكنِّ، فروي أنه ممن تاب[٢].

وقوله: ﴿فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡ﴾ أمرنا بانتهارهم وعقوبتِهم بالإعراض والوصمِ بالنفاق.

وهذا مع إجمالٍ لا مع تعيين مصرِّح من الله ولا من رسوله، بل كان لكل واحد منهم ميدان المغالطة مبسوطاً.

وقوله: ﴿رِجۡسٌ﴾ أي: نَتْنٌ وقَذَرٌ، وناهيك بهذا الوصف محطة دنياوية، ثم عطف بمحطة الآخرة فقال: ﴿وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ﴾ أي: مسكنهم، ثم جعل ذلك جزاء بتكسبهم المعاصي والكفر مع أن ذلك مما قدَّره الله وقضاه لا رب غيره ولا معبود سواه.

وأسند الطبري عن كعب بن مالك أنه قال: «لما قدم رسول الله ﷺ من تبوك جلس للناس، فجاءه المخلَّفون يعتذرون إليه ويحلفون، وكانوا بضعةً وثمانين رجلاً، فقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم، ووَكَل سرائرهم إلى الله تعالى»[٣].

وقوله: ﴿يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ لِتَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡ﴾ هذه الآية والتي قبلها مخاطَبَةٌ للمؤمنين مع الرسول، والمعنى: يحلفون لكم مُبْطِلين ومقصدهم أن ترضوا، لا أنهم يفعلون ذلك لوجه الله ولا للبر.

وقوله: ﴿فَإِن تَرۡضَوۡاْ﴾ إلى آخر الآية شرط يتضمن النهي عن الرضى عنهم،

(١) في الأسدية: «محشي»، وفي نجيبويه: «مخشن»، وقد تقدم ذكر الخلاف في اسمه قريباً.

(٢) هذا الأثر أخرجه الطبري (١٤/ ٤٢٦) من طريق عطية العوفي، عن ابن عباس رضي الله عنهما، مرفوعاً به.

(٣) متفق عليه، أخرجه البخاري (٤١٥٦) ومسلم (٢٧٦٩) من حديث كعب بن مالك رضي الله عنه، مرفوعاً.

وحكم هذه الآية يستمر في كل مغموصٍ[١] عليه ببدعة ونحوها، فإن المؤمن ينبغي أن يبغضه ولا يرضى عنه لسبب من أسباب الدنيا.

وقوله: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ الآية، ﴿ٱلْأَعْرَابُ﴾ لفظة عامة ومعناها الخصوص فيمن استثناه الله عز وجل، وهذا معلومٌ بالوجود وكيف كان الأمر، وإنما انطلق عليهم هذا الوصف بحسب بعدهم عن الحواضر ومواضع العلم والأحكام والشرع.

وهذه الآية إنما نزلت في منافقين كانوا في البوادي، ولا محالة أن خوفهم هناك أقل من خوف منافقي المدينة، فألسنتهم لذلك مطلَقةٌ ونفاقهم أنجمُ.

وأسند الطبري: أن زيد بن صُوحان[٢] كان يحدث أصحابه بالعلم وعنده أعرابي، وكان زيد قد أصيبت يده اليسرى يوم نهاوند، فقال الأعرابي: والله إن حديثك ليعجبني، وإن يدك لتَرِيبُني، وقال زيد: وما يَرِيبُك من يدي وهي الشمال؟ فقال الأعرابي: والله ما أدري اليمين تقطعون أم الشمال؟ فقال زيد: صدق الله: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾[٣].

﴿وَأَجْدَرُ﴾ معناه: أحرى وأَقْمَنُ، والحدود هنا: السنن والأحكام ومعالم الشريعة.

قوله عز وجل: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾﴾.

هذا نصٌّ في المنافقين منهم، ومعنى ﴿يَتَّخِذُ﴾ في هذه الآيات، أي: يجعل

(١) في نجيبويه: «مغموض».
(٢) في الأسدية ونجيبويه: «مرجان»، وقد تقدم في سورة الأنعام.
(٣) انظر تفسير الطبري (١٤/ ٤٢٩).

مقصده ولا ينوي فيه غير ذلك، وأصل المغرم: الدَّين، ومنه تعوُّذ رسول الله ﷺ من المغرم والمأثم[(١)]، ولكن كثر استعمال المغرم فيما يؤديه الإنسان مما لا يلزمه بحق، وفي اللفظ معنى اللزوم، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [الفرقان: ٦٥] أي: مكروهاً لازماً.

و﴿ٱلدَّوَآئِرَ﴾: المصائب التي لا مخلص للإنسان منها، فهي تحيط به كما تحيط الدائرة، وقد يحتمل أن تشتق من دَور الزمان، والمعنى: ينتظر بكم ما تأتي به الأيام وتدور به.

ثم قال على جهة الدعاء: ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ وكل ما كان بلفظ دعاء من جهة الله عز وجل فإنما هو بمعنى إيجاب الشيء، لأنَّ الله لا يدعو على مخلوقاته وهي في قبضته، ومن هذا: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة: ١] ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ [المطففين: ١]، فهي كلها أحكام تامة تضمنها خبره تعالى.

وقرأ الجمهور من السبعة وغيرهم: ﴿دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ بفتح السين.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن محيصن ـ واختلف عنه ـ وعاصم والأعمش بخلاف عنهما: ﴿دائرة السُّوء﴾ بضم السين، واختلف عن ابن كثير[(٢)].

وقيل: الفتح المصدر، والضم الاسم، واختلف الناس فيهما، وهو اختلاف يَقْرُبُ بعضُه من بعض، والفتح في السين يقتضي وصف الدائرة بأنها سيئة.

وقال أبوعلي: معنى الدائرة يقتضي معنى السوء، فإنما هي إضافةُ بيانٍ وتأكيد، كما قالوا: شمس النهار، ولحيا رأسه[(٣)].

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري (٧٩٨) ومسلم (٥٨٩) من حديث عائشة، رضي الله عنها، مرفوعاً به.

(٢) فيه تخليط، فالقراءتان سبعيتان، والثانية لابن كثير وأبي عمرو خاصة كما في التيسير (ص: ١١٩)، وانظر موافقة ابن محيصن والوجه الثاني لابن كثير من رواية شبل في السبعة لابن مجاهد (ص: ٣١٦)، والخلاف فيها عن عاصم ليس من طرق التيسير ولا النشر.

(٣) في الحجة لأبي علي الفارسي (٤/ ٢٠٧).

قال القاضي أبو محمد: / ولا يقال: رجل سَوء، إلا بفتح السين، هذا قول أكثرهم، وقد حكي: رجل سُوء، بضم السين، وقد قال الشاعر: [٢/ ٢٦٠]

وَكُنْتَ كَذِئْبِ السَّوْءِ لَمَّا رَأَى دَماً   بِصَاحِبِهِ يَوماً أَحَالَ عَلَى الدَّمِ[١] [الطويل]

ولم يختلف القراء في فتح السين من قوله: ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ﴾ [مريم: ٢٨][٢].

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ﴾ الآية، قال قتادة: هذه ثَنِيَّةُ الله تعالى من الأعراب[٣].

﴿وَيَتَّخِذُ﴾ في هذه الآية أيضاً هي بمعنى: يجعله مقصداً، والمعنى: ينوي بنفقته في سبيل الله القربةَ عند الله عز وجل، واستغنامَ دعاء الرسول ﷺ، ففي دعائه لهم خير الآخرة في النجاة من النار وخير الدنيا في أرزاقهم ومنح الله لهم، فـ(صَلَوات) على هذا عطف على (قُرُبات).

ويحتمل أن يكون عطفاً على﴿مَا يُنفِقُ﴾ أي: ويتخذ بالأعمال الصالحة صلوات الرسول قربةً، والأول أبين.

و﴿قُرُبَٰتٍ﴾ جمع قُرْبة أو قُرُبة بسكون الراء وضمها وهما لغتان، والصلاة في هذه الآية: الدعاء إجماعا، وقال بعض العلماء: الصلاة من الله رحمة، ومن النبي والملائكة دعاء، ومن الناس عبادة.

والضمير في قوله: ﴿إِنَّهَا﴾ يحتمل أن يعود على النفقة، وهذا في انعطاف الصلوات على القربات، ويحتمل أن يعود على الصلوات، وهذا في انعطافه على ﴿مَا يُنفِقُ﴾.

---

(١) البيت للفرزدق كما في طبقات فحول الشعراء (٢/ ٣٦٢)، والحيوان (٦/ ٤٧١)، والمعاني الكبير (١/ ١٨٥)، الأغاني (٦/ ٨٢).

(٢) انظر: إعراب القرآن للنحاس (٢/ ٢٣٢) حيث ذكر أنهم أجمعوا على فتح السين.

(٣) انظر قول قتادة في: تفسير الطبري (١٤/ ٤٣٣)، وفي أحمد٣: «هذا تنبيه من الله أن من الأعراب من يتخذ...»، ولعله خطأ.

وقرأ نافع: ﴿قرُبة﴾ بضم الراء، واختلف عنه، وعن عاصم والأعمش.

وقرأ الباقون: ﴿قُرْبَةٌ﴾ بسكون الراء[١] ولم يختلف في (قُرُبات).

ثم وعد تعالى بقوله: ﴿سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ﴾ الآية، وروي أن هذه الآية نزلت في بني مقرِّنٍ من مزينة، وقاله مجاهد[٢].

وأسند الطبري إلى عبد الرحمن بن مغفل بن مقرن[٣] أنه قال: كنا عشرة ولد مقرن، فنزلت فينا: ﴿ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ...﴾ إلى آخر الآية[٤].

قال القاضي أبو محمد: وقوله: عشرة ولد مقرن يريد الستة أولاد مقرن لصلبه، أو السبعة على ما في الاستيعاب من قول سويد بن مقرن[٥]، وَبَنِيهِم؛ لأن هذا هو الذي في مشهور دواوين أهل العلم.

قوله عز وجل: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾.

---

(١) فهما سبعيتان، والضم لنافع في التيسير (ص: ١١٩)، من رواية ورش، ولعاصم في جامع البيان (٣/ ١١٥٦) من رواية المفضل.

(٢) انظر قول مجاهد في تفسير الطبري (١٤/ ٤٣٣).

(٣) هو عبد الرحمن بن مغفّل بن مقرّن المزني، استدركه ابن الأثير على الاستيعاب لأن ظاهر سياق الطبري يقتضي أن يكون له صحبة، وهذا صحيح في نزولها في بني مقرن، وأما عبد الرحمن فلا صحبة له ولا رؤية، بل هو تابعي، يكنى أبا عاصم. الإصابة (٥/ ١٨٧)

(٤) لا بأس به، أخرجه الطبري (١٤/ ٤٣٣) من طريق: البختري بن المختار العبدي قال: سمعت عبد الرحمن بن معقل، وهذا هو الصواب وليس: ابن مغفل كما أثبت هنا.

(٥) الاستيعاب (٢/ ٦٨٠)، قال: وهو سويد بن مقرن بن عائذ المزني، أخو النعمان بن مقرن، يكنى أبا عدي، وقيل: أبا عمرو، يعد في الكوفيين، وبالكوفة مات، روى عنه الكوفيون، وانظر أيضاً: الإصابة (٣/ ١٩٠).

قال أبو موسى الأشعري[١] وابن المسيب وابن سيرين وقتادة: (السَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ): من صلى القبلتين[٢]، وقال عطاء: (السَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ): من شهد بدراً[٣].

قال القاضي أبو محمد: وحوِّلت القبلة قبل بدر بشهرين.

وقال عامر بن شراحيل الشعبي: (السَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ) من أدرك بيعة الرضوان، ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ﴾ يريد سائر الصحابة[٤].

ويدخل في هذا اللفظ التابعون وسائر الأمة لكن بشريطة الإحسان، وقد لزم هذا الاسم الطبقة التي رأت من رأى النبي ﷺ، ولو قال قائل: إن السابقين الأولين هم جميع من هاجر إلى أن انقطعت الهجرة لكان قولاً يقتضيه اللفظ، وتكون ﴿مِنَ﴾ لبيان الجنس.

﴿وَٱلَّذِينَ﴾ في هذه الآية عطف على قوله: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ﴾.

وقرأ عمر بن الخطاب والحسن بن أبي الحسن، وقتادة، وسلام، وسعيد، ويعقوب ابن طلحة[٥] وعيسى الكوفي: ﴿والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصارُ﴾ برفع الراء[٦] عطفاً على ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ﴾، وكذلك ينعطف على كلتا القراءتين قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ﴾ وجعل الأتباع عديلاً[٧] للأنصار.

وأسند الطبري أنَّ زيدَ بنَ ثابت سمعه فرادَّه [فبعث عمر في [طلب] أبي بن كعب

---

(١) ضعيف، هذا الأثر أخرجه ابن جرير (١٤/ ٤٣٦)، وابن أبي حاتم (١٠٣٠٠)، في تفسيريهما، كلاهما من طريق عثمان بن المغيرة، عن مولى لأبي موسي، عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، به، وهذا إسناد ضعيف، من أجل إبهام اسم راويه عن أبي موسى.

(٢) تفسير الطبري (١٤/ ٤٣٥).

(٣) النكت والعيون (٢/ ٣٩٥).

(٤) تفسير الطبري (١٤/ ٤٣٥).

(٥) لم أقف على ترجمة لهذا الاسم إلا أن يكون ابن طلحة بن عبيد الله، والظاهر أن الأصل: يعقوب وطلحة، بالعطف فتصحف.

(٦) وهي عشرية ليعقوب كما في النشر (٢/ ٢٨٠)، وانظر عزوها لمن ذكر في المحتسب (١/ ٣٠٠).

(٧) في التركية ونجيبويه ونور العثمانية: «صفة».

فسأله فقال أُبيُّ بنُ كعب: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾][١]، فقال عمر: ما كنا نرى إلا أنّا قد رُفِعنا رفعة لا ينالها معنا أحد، فقال أبي: إن مصداق هذا في كتاب الله في أول سورة الجمعة: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ﴾ [الجمعة: ٣] وفي سورة الحشر: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [الحشر: ١٠] وفي سورة الأنفال في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنكُمْ﴾ [الأنفال: ٧٥] فرجع عمر إلى قول أُبيّ[٢].

ونبَّهتْ هذه الآية من التابعين وهم الذين أدركوا أصحاب رسول الله ﷺ كما نبَّه من ذكرهم قوله ﷺ: «اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار»[٣]، فتأمله.

وقرأ ابن كثير: ﴿من تحتها الأنهار﴾، وقرأ الباقون: ﴿تَحْتَهَا﴾ بإسقاط من[٤].

ومعنى هذه الآية: الحكم بالرضى عنهم بإدخالهم الجنة وغفر ذنوبهم، والحكم برضاهم عنه في شكرهم وحمدهم على نعمه وإيمانهم به وطاعتهم له، جعلنا الله من الفائزين برحمته ومَنِّه[٥].

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ الآية، مخاطَبةٌ للنبي ﷺ شُرك في بعضها أمته، والإشارة بقوله: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ هي إلى جُهينة ومُزينة وأَسْلَم وغِفار

---

(١) ساقط من الأصل. وثمة إشكال في هذا السياق وما بعده لعل سببه سقط أو تحريف، وتوضيح هذا في «تفسير القرطبي» حيث قال: «قرأ عمر: «والأنصارُ» رفعاً، «الذين» بإسقاط الواو نعتاً للأنصار، فراجعه زيد بن ثابت فسأل عمر أبي بن كعب...».

(٢) منقطع، هذا الأثر أخرجه الطبري (١٨/ ٤٣٨، ٤٣٩)، من طريق محمد بن كعب القرظي، عن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه، به، ومحمد بن كعب، كثير الإرسال عن الصحابة، ولم أر من ذكر له رواية عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم، (٢٥٠٦) بنحوه من حديث زيد بن أرقم مرفوعاً بلفظ: «اللهم اغفر للأنصار»، وأما بلفظ: «اللهم ارحم الأنصار».. فأخرجه أحمد (١٨/ ٢٥٣٢٥٥) من طريق محمد بن إسحاق، قال: وحدثني عاصم بن عمر بن قتادة، عن محمود بن لبيد، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، مرفوعاً به.

(٤) وهي سبعية متواترة، انظر: التيسير (ص: ١١٩)، والسبعة لابن مجاهد (١/ ٣١٧).

(٥) من نور العثمانية والأسدية والتركية والمطبوع.

وعُصية ولحْيان وغيرهم من القبائل المجاورة للمدينة، فأخبر الله عن منافقيهم، وتقدير الآية: ومن أهل المدينة قوم أو منافقون، هذا أحسن ما حمله اللفظ.

و﴿مَرَدُواْ﴾ قال أبو عبيدة: معناه: مَرَنوا عليه ولجُّوا فيه[١]، وقيل غيرُ هذا مما هو قريب منه، وقال ابن زيد: أقاموا عليه لم يتوبوا كما تاب الآخرون[٢].

والظاهر من معنى اللفظ أن التمرد في الشيء، أو المرود عليه، إنما هو اللَّجاج والاستهتار به، والعتوُّ على الزاجر، وركوبُ الرأس في ذلك، وهو مستعمل في الشر لا في الخير، ومن ذلك قولهم: شيطان مارد ومَرِيد، ومن هذا سميت مراد لأنها تمردت.

وقال بعض الناس: يقال: تمرَّد الرجل في أمر كذا: إذا تجرد له، وهو من قولهم: شجرةٌ مَرْداءُ؛ إذا لم يكن عليها ورق، ومنه: ﴿صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ﴾ [النمل: ٤٤] ومنه قولهم: تَمرَّدَ ماردٌ وعَزَّ الأَبْلَق[٣]، ومنه: الأمرد الذي لا لحية له، فمعنى ﴿مَرَدُواْ﴾ في هذه الآية: لجُّوا فيه واستهتروا[٤] به وعتوا على زاجرهم، ثم نفى عز وجل علم نبيه بهم على التعيين.

وأسند الطبري عن قتادة في قوله: ﴿لَا تَعْلَمُهُمْۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ قال: فما بال أقوام يتكلفون عِلْمَ الناس فلانٌ في الجنة فلان في النار، فإذا سألت أحدهم عن نفسه قال: لا أدري، أنت لعمري بنفسك أعلم منك بأعمال الناس، ولقد تكلفت شيئاً ما تكلفه الرسل، قال نبي الله نوح ﷺ: ﴿وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١٢] وقال نبي الله شعيب / ﷺ: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ [هود: ٨٦]، وقال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿لَا تَعْلَمُهُمْۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾[٥]. [٢/ ٢٦١]

---

(١) انظر: مجاز القرآن (١/ ٢٦٨) بتصرف، وانظر أيضاً زاد المسير (٢/ ٢٩٢)، وفي أحمد٣: «ثبتوا عليه»، مع الإشارة للنسخة الأخرى.

(٢) انظر قول ابن زيد في: تفسير الطبري (١٤/ ٤٤٠).

(٣) مثل قالته الزباء لما حاصرت مارداً حصنَ دومة الجندل فامتنع منها، والأبلقَ حصنَ تيماء فامتنع منها. الأمثال للضبي (ص: ١٤٣).

(٤) في نجيبويه: «واشتهروا»، وفي نور العثمانية: «واستهزؤوا».

(٥) انظر: تفسير الطبري (١٤/ ٤٤١).

قال القاضي أبو محمد: وقوله تعالى: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾، في مصحف أنس بن مالك: (سيعذبهم) بالياء[١]، والكلام على القراءتين وعيدٌ.

واللفظ يقتضي ثلاثة مواطن من العذاب، ولا خلاف بين المتأولين أن العذاب العظيم الذي يردُّون إليه هو عذاب الآخرة، وأكثر الناس أن العذاب المتوسط هو عذاب القبر[٢].

واختلف في عذاب المرة الأولى:

فقال مجاهد وغيره: هو عذابهم بالقتل والجوع[٣]، وهذا بعيدٌ؛ لأنَّ منهم من لم يصبه هذا.

وقال ابن عباس أيضاً: «عذابهم هو بإقامة حدود الشرع عليهم مع كراهيتهم فيه»[٤].

وقال ابن إسحاق: عذابهم هو همهم بظهور الإسلام وعلوِّ كلمته[٥].

وقال ابن عباس وهو الأشهر عنه: «عذابهم هو فضيحتهم ووصمهم بالنفاق»[٦].

وروي في هذا التأويل أن رسول الله ﷺ خطب يوم جمعة فندد بالمنافقين وصرح، وقال: «اخرج يا فلان من المسجد فإنك منافق، [واخرج أنت يا فلان، واخرج أنت يا فلان»، حتى أخرج جماعة منهم، فرآهم عمر يخرجون من المسجد][٧] وهو مقبل إلى الجمعة، فظن أن الناس انتشروا وأن الجمعة فاتته، فاختبأ منهم حياء، ثم وصل إلى

---

(١) وهي شاذة، تابعه عليها في البحر المحيط (٥/ ٤٩٨)، ولا يسمى مثل هذا مصحفاً، لأنه موافق للرسم.

(٢) انظر: تفسير الطبري (١٤/ ٤٤١).

(٣) وقال بهذا يحيى بن آدم، انظر قولهما في: تفسير الطبري (١٤/ ٤٤٢).

(٤) هذا الأثر ذكره الطبري (١٤/ ٤٤٤)، فقال: ذكر ذلك عن ابن عباس من وجه غير مرتضًى، ولم يذكر له إسناداً.

(٥) انظر قول ابن إسحاق في: تفسير الطبري (١٤/ ٤٤٤).

(٦) روي عنه مرفوعاً، وهو الحديث الآتي.

(٧) سقط من الأصل.

المسجد فرأى أن الصلاة لم تُقض وفهم الأمر[١].

قال القاضي أبو محمد: وفعلُ النبيِّ ﷺ هذا بهم هو على جهة التأديب اجتهاداً منه فيهم، ولم يسلخهم ذلك من الإسلام وإنما هو كما يُخرج العصاة والمتهمون، ولا عذاب لهم[٢] أعظم من هذا، وكان رسول الله ﷺ كثيراً ما يتكلم فيهم على الإجمال دون تعيين، فهذا أيضاً من العذاب.

وقال قتادة وغيره: العذاب الأول هي علل وأدواءٌ أخبر الله نبيه ﷺ أنه يصيبهم بها[٣].

وأسند الطبري في ذلك عن قتادة أنه قال: ذكر لنا أن نبي الله ﷺ أسرَّ إلى حذيفة باثني عشر رجلاً من المنافقين، وقال: «ستة منهم تكفيهم[٤] الدُّبيلة؛ سراج من نار جهنم تأخذ في كتف أحدهم حتى تفضي إلى صدره، وستة يموتون موتاً»[٥]، ذكر لنا أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان إذا مات رجل ممن يظن أنه منهم نظر إلى حذيفة فإن صلَّى صلى عمرُ عليه وإلا ترك، وذكر لنا أن عمر رضي الله عنه قال لحذيفة: أنشدك بالله أمنهم أنا؟ قال: لا والله، ولا أؤمِّن منها أحداً بعدك؟[٦].

وقال ابن زيد في قوله تعالى: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾: أما عذاب الدنيا: فالأموال والأولاد، لكل صنفٍ عذابٌ، فهو مرتان، وقرأ قول الله تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [التوبة: ٥٥].

---

(١) ضعيف، هذا الحديث أخرجه ابن جرير (١٤/ ٤٤١)، وابن أبي حاتم (١٠٣٠٣)، في تفسيرهما، والطبراني في الأوسط (١/ ٢٤١)، كلهم من طريق أسباط، عن السدي، عن أبي مالك، عن ابن عباس رضي الله عنهما، مرفوعاً به، قال الطبراني: لم يرو هذا الحديث عن السدي إلا أسباط بن نصر، وهذا إسناد ضعيف من أجل أسباط بن نصر، وهوضعيف الحديث.

(٢) من الأسدية.

(٣) انظر قول قتادة في تفسير الطبري (١٤/ ٤٤٣)

(٤) في الأصل: «تكفهم»، وفي أحمد٣ ونجيبويه: «تكفيكهم».

(٥) هو جزء من من مرسل قتادة الآتي ذكره.

(٦) سبق تخريجه قريباً.

وقال ابن زيد أيضاً: المرتان هي في الدنيا: الأولى: القتل والجوع[(١)] والمصائب، والثانية: الموت؛ إذ هو للكفار عذاب.

وقال الحسن: الأولى: هي أخذ الزكاة من أموالهم، والعذاب العظيم هو جميع ما بعد الموت[(٢)]، وأظن الزجَّاج أشار إليه[(٣)].

قوله عز وجل: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾﴾.

المعنى: ومن هذه الطوائف آخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ، واختلف في تأويل هذه الآية، فقال ابن عباس فيما روي عنه[(٤)]، وأبو عثمان: هي في الأعراب، وهي عامة في الأمة إلى يوم القيامة فيمن له أعمال صالحة وسيئة، فهي آيةُ ترجٍّ على هذا، وأسند الطبري في[(٥)] هذا عن حَجَّاج بن أبي زينب[(٦)] قال: سمعت أبا عثمان يقول: ما في القرآن آيةٌ أرجى عندي لهذه الأمة من قوله: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ﴾[(٧)].

وقال قتادة[(٨)]: بل نزلت هذه الآية في أبي لُبابة الأنصاري خاصةً في شأنه مع بني قريظة، وذلك أنه كلمهم في النزول على حكم الله ورسوله فأشار هو لهم إلى حلقه،

---

(١) في نجيبويه: «والجرح».

(٢) انظر قول ابن زيد في: تفسير الطبري (١٤/ ٤٤٤)، وقول الحسن في: النكت والعيون (٢/ ٣٩٧).

(٣) انظر: معاني القرآن للزجاج وإعرابه (٢/ ٤٦٧).

(٤) أخرجه الطبري (١٤/ ٤٥٢) من طريق عطية العوفي عن ابن عباس.

(٥) من الأسدية والتركية.

(٦) هو حجاج بن أبي زينب الواسطي صدوق. يروي عن أبي عثمان النهدي، روى عنه: هشيم ويزيد، وحديثه حسن فقد لين، ولكن روى له مسلم، مات في حدود (١٤٠هـ)، سير أعلام النبلاء (٦/ ٥٢٠).

(٧) انظر قول أبي عثمان في تفسير الطبري (١٤/ ٤٥٢).

(٨) في التركية ونجيبويه: «مجاهد»، وهو مروي من قولهما معاً.

يريد أن النبي ﷺ يذبحهم إن نزلوا، فلما افتَضَح تاب وندم وربط نفسه في سارية من سواري المسجد، وأقسم أن لا يَطعم ولا يشرب حتى يعفو الله عنه أو يموت، فمكث كذلك حتى عفا الله عنه ونزلت هذه الآية، وأمر رسول الله ﷺ بحله[١]، ذكر هذا القول الطبري عن مجاهد[٢]، وذكره ابن إسحاق في كتاب السير أوعب وأتقن[٣].

وقالت فرقة عظيمة: بل نزلت هذه الآية في شأن المتخلفين عن غزوة تبوك، فكان عملهم السيِّئُ التخلُّفَ بإجماع من أهل هذه المقالة[٤].

واختلفوا في الصالح، فقال الطبري وغيره: الاعتراف والتوبة والندم، وقالت فرقة: بل الصالح غزوهم فيما سلف من غزو النبي ﷺ[٥].

ثم اختلف أهل هذه المقالة في عدد القوم الذين عُنوا بهذه الآية، فقال ابن عباس: كانوا عشرة رهط ربط منهم أنفسهم سبعة، وبقي الثلاثة الذين خلِّفوا دون ربط وهم المذكورون بعد هذا[٦].

وقال زيد بن أسلم: كانوا ثمانية منهم كَرْدَمٌ ومِرداسٌ[٧] وأبو قيس وأبو لبابة[٨]، وقال

---

(١) ضعيف، هذا الحديث أخرجه الطبري (١٤/ ٤٥١)، من طريق مجاهد معضلاً به.

(٢) انظر قول مجاهد وقول قتادة أن الآية نزلت في تخلف أبي لبابة عن غزوة تبوك في: تفسير الطبري (١٤/ ٤٥٠).

(٣) انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٢٣٨).

(٤) انظر: تفسير الطبري (١٤/ ٤٤٧ - ٤٥٣).

(٥) انظر قول الطبري في: تفسيره (١٤/ ٤٤٦)، وانظر القول الآخر المخالف له في النكت والعيون (٢/ ٣٩٨)، وهو قول السدي.

(٦) أخرجه ابن جرير (١٤/ ٤٤٧)، وابن أبي حاتم (١٠٣٠٣) من طريق علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما، به.

(٧) ذكرهما الطبري غير منسوبين، ولم يرد لأي منهما ذكر في الإصابة بهذا الوصف، وكذا أبو قيس.

(٨) انظر قول زيد بن أسلم في: تفسير الطبري (١٤/ ٤٤٩).

قتادة: كانوا سبعة[١]، وقال ابن عباس أيضاً وفرقة: كانوا خمسة[٢]، وكلهم قال: كان فيهم أبو لبابة، وذكر قتادة فيهم الجدَّ بن قيس[٣]، وهو فيما أعلم وهم لأن الجد لم تُرْوَ له توبة.

وأما قوله: ﴿وَءَاخَرَ﴾ فهو بمعنى: بآخر، وهما متقاربان، وعَسَى من الله واجبة.

وروي في خبر الذين ربطوا أنفسهم: أن رسول الله ﷺ لما دخل المسجد فرآهم، قال: «ما بال هؤلاء؟» فقيل له: إنهم تابوا وأقسموا أن لا ينحلوا حتى يحلهم رسول الله ﷺ ويعذرهم، فقال رسول الله ﷺ: «وأنا والله لا أحلهم ولا أعذرهم إلا أن يأمرني الله بذلك، فإنهم تخلفوا عني وتركوا جهاد الكفار مع المؤمنين»[٤].

وقوله: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ﴾ الآية، روي أن أبا لبابة والجماعة التائبة التي ربطت أنفسها، وهي المقصودة بقوله: ﴿خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾، جاءت رسول الله ﷺ لما تيب عليها فقالت: يا رسول الله، إنَّا نريد أن نتصدق بأموالنا زيادة في توبتنا، فقال رسول الله ﷺ: «إني لا أَعْرِضُ[٥] لأموالكم إلا بأمر من الله»، فتركهم حتى نزلت هذه الآية، فهم المراد بها، فروي أن رسول الله ﷺ / أخذ ثلث أموالهم مراعاة لقوله تعالى: ﴿مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ﴾، فهذا هو الذي تظاهرت به أقوال المتأولين، ابنُ عباس رضي الله عنه وغيره[٦]. [٢/ ٢٦٢]

وقالت جماعة من الفقهاء: المراد بهذه الآية الزكاة المفروضة[٧]، فقوله على هذا: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ﴾، ضميره لجميع الناس، وهو عموم يراد به الخصوص، إذ

(١) انظر قول قتادة في: تفسير الطبري (١٤/ ٤٥٠).

(٢) هذا الأثر أخرجه الطبري (١٤/ ٤٤٨)، من طريق عطية بن سعد العوفي، عن ابن عباس رضي الله عنهما، به.

(٣) انظر تفسير الطبري (١٤/ ٤٥٠).

(٤) أخرجه الطبري (١٤/ ٤٤٧) من طريق علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما، مرفوعاً به.

(٥) في الأسدية: «أعترض».

(٦) أخرجه الطبري (١٤/ ٤٥٤) من طريقين، أحدهما عن عطية العوفي، والآخر عن علي بن أبي طلحة، كلاهما عن ابن عباس.

(٧) الاستذكار (٣/ ١٢٦).

يخرج[١] من الأموال الأنواع التي لا زكاة فيها كالثياب والرباع ونحوه.

والضمير الذي في ﴿أَمْوَٰلِهِمْ﴾ أيضاً كذلك عموم يراد به خصوص، إذ يخرج منه العبيد وسواهم.

وقوله: ﴿صَدَقَةً﴾؛ مجمل يحتاج إلى تفسير، وهذا يقتضي أن الإمام يتولى أخذ الصدقات وينظر فيها، و﴿مِنْ﴾ في هذه الآية للتبعيض، هذا أقوى وجوهها.

وقوله: ﴿تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ أحسن ما يحتمل أن تكون هذه الأفعال مسندة إلى ضمير النبي ﷺ، ويحتمل أن تكون في موضع الحال من الضمير في ﴿خُذْ﴾.

ويحتمل أن تكون من صفة الصدقة، وهذا مترجح بحسب رفع الفعل، ويكون قوله ﴿بِهَا﴾ أي: بنفسها، أي: يقع تطهيرهم من ذنوبهم بها.

ويحتمل أن يكون ﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾ صفة للصدقة، وَ(تُزَكِّيهِمْ) مسنداً إلى النبي ﷺ.

ويحتمل أن يكون حالاً من الصدقة، وذلك ضعيف لأنها حال من[٢] نكرة.

وحكى مكي أن يكون ﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾ من صفة الصدقة، وقوله: ﴿وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ حالاً من الضمير في ﴿خُذْ﴾[٣].

قال القاضي أبو محمد: وهذا مردود لمكان واو العطف، لأن ذلك يتقدر: خذ من أموالهم صدقةً مطهِّرةً ومزكِّياً بها، وهذا فاسد المعنى، ولو لم يكن في الكلام واو العطف جاز.

وقرأ الحسن بن أبي الحسن: (تطْهرهم) بسكون الطاء[٤].

وقوله: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ معناه: ادع لهم فإن في دعائك لهم سكوناً لأنفسهم وطمأنينة ووقاراً، فهذه عبارة عن صلاح المعتقد، وحكى مكي والنحاس وغيرهما أنه

(١) في التركية: «إذ لا يخرج»، وهو خطأ.

(٢) «من» ساقطة من المطبوع.

(٣) انظر: مشكل إعراب القرآن لمكي (١/ ٣٣٥).

(٤) وهي قراءة شاذة، انظر: مختصر الشواذ (ص: ٥٩)، والمحتسب (١/ ٣٠١).

قيل: إن هذه الآية منسوخة بقوله: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٖ مِّنۡهُم مَّاتَ أَبَدٗا﴾ [التوبة: ٥٥][١].

قال القاضي أبو محمد: وهذا وهم بعيد، وذلك أن تلك في المنافقين الذين لهم حكم الكافرين، وهذه في التائبين من التخلف الذين لهم حكم المؤمنين فلا تناسخ بين الآيتين.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم ونافع وابن عامر: ﴿إن صلواتِك﴾ بالجمع، وكذلك في هود وفي المؤمنين[٢].

وقرأ حفص عن عاصم وحمزة والكسائي: ﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ﴾ بالإفراد، وكذلك قرأ حمزة والكسائي في هود وفي المؤمنين.

وقرأ عاصم في المؤمنين وحدها جمعاً، ولم يختلفوا في سورة الأنعام و﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ﴾[٣]، وهو مصدر أفردته فرقة [وجمعته فرقة][٤].

وقوله: ﴿سَمِيعٌ﴾ لدعائك ﴿عَلِيمٌ﴾ أي: بمن يهدي ويتوب عليه[٥]، وغير ذلك مما تقتضيه هاتان الصفتان.

وروي أن رسول الله ﷺ لما نزلت هذه الآية فعل ما أُمر به من الدعاء والاستغفار لهم[٦].

قال ابن عباس: ﴿سَكَنٌ لَّهُمۡ﴾: رحمة لهم[٧].

وقال قتادة: ﴿سَكَنٌ لَّهُمۡ﴾ أي: وقار لهم[٨].

---

(١) انظر: الناسخ والمنسوخ للنحاس (١/ ٥٢٣)، والهداية لمكي (٤/ ٣١٤٤).

(٢) الآيات (٨٧) من سورة هود، و(٢) من سورة المؤمنين.

(٣) الآيات رقم (٩٢) من سورة الأنعام، و(٢٣) من سورة المعارج.

(٤) سقط من الأصل ونجيبويه، وكلها سبعية، انظر السبعة لابن مجاهد (ص: ٣١٧).

(٥) في الأسدية: «بمن يهتدي ويتوب إليه».

(٦) ضعيف، هذا الحديث أخرجه الطبري (١٤/ ٤٥٦) من طريق الضحاك بن مزاحم، مرسلاً به.

(٧) هذا الأثر أخرجه الطبري (١٤/ ٤٥٧)، من طريق علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما، به.

(٨) تفسير الطبري (١٤/ ٤٥٧).

قال القاضي أبو محمد: وإنما معناه: أن من يدعو له النبي ﷺ فإنه تطيب نفسه ويقوى رجاؤه، ويروى[1] أنه قد صحت وسيلته إلى الله تعالى، وهذا بيِّن.

قوله عز وجل: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾.

قرأ جمهور الناس: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟﴾ على ذكر الغائب.

وقرأ الحسن بن أبي الحسن بخلاف عنه (ألم تعلموا) على معنى: قل لهم يا محمد: ألم تعلموا، وكذلك هي في مصحف أبي بن كعب بالتاء من فوق[2].

والضمير في ﴿يَعْلَمُوٓا۟﴾ قال ابن زيد: يراد به الذين لم يتوبوا من المتخلفين[3]، وذلك أنهم لما تيب على بعضهم قال الغير: ما هذه الخاصة التي خص بها هؤلاء؟ فنزلت هذه الآية، ويحتمل أن يكون الضمير في ﴿يَعْلَمُوٓا۟﴾ يراد به الذين تابوا وربطوا أنفسهم، وقوله ﴿هُوَ﴾ تأكيد لانفراد الله بهذه الأمور وتحقيق ذلك، لأنه لو قال: إن الله يقبل التوبة، لاحتمَل ذلك أن يكون قبولُ رسوله قبولاً منه، فبينت الآية أن ذلك مما لا يصل إليه نبي ولا ملك.

وقوله: ﴿وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ معناه: يأمر بها ويَشْرَعها، كما تقول: أخذ السلطان من الناس كذا، إذا حملهم على أدائه، وقال الزجَّاج: معناه: ويقبل الصدقات[4].

وقد وردت أحاديث في أخذ الله صدقة من[5] عبيده؛ منها: قوله ﷺ الذي رواه

---

(١) لعل الصواب: «ويرى».

(٢) وهي قراءة شاذة، انظر عزوها للحسن في الشواذ للكرماني (ص: ٢٢٠)، وزاد السلمي، ولأُبيٍّ في مختصر الشواذ (ص: ٥٩)، وزاد عليّاً وأنساً، ومثل هذا لا يسمى مصحفاً إذ لا مخالفة فيه للرسم، لأن المصاحف لم تكن منقوطة.

(٣) انظر قول ابن زيد في: تفسير الطبري (١٤/ ٤٥٩).

(٤) انظر قول الزجاج في معاني القرآن وإعرابه له (٢/ ٤٦٧).

(٥) من المطبوع.

عبد الله بن أبي قتادة المحاربي[١] عن ابن مسعود عنه: «إن العبد إذا تصدق بصدقة وقعت في يد الله قبل أن تقع في يد السائل»[٢]، ومنها: قوله ﷺ الذي رواه أبو هريرة: «إن الصدقة تكون قدر اللقمة يأخذها الله بيمينه فيُربِّيها لأحدكم كما يربِّي أحدكم فَلُوَّه أو فصيله، حتى تكون مثل الجبل»[٣]، ونحو هذا من الأحاديث التي هي عبارة عن القبول والتحفِّي بصدقة العبد، فقد يحتمل أن تخرج لفظة ﴿وَيَأۡخُذُ﴾ على هذا.

ويتعلق بهذه الآية القول في قبول التوبة، وتلخيص ذلك: أن قبول التوبة من الكفار يُقطع به عن الله عز وجل إجماعاً[٤]، وهذه نازلة هذه الآية، وهذه الفرقة التائبة من النفاق تائبة من كفر، وأما قبول التوبة من المعاصي فيُقطع بأن الله تعالى يقبل من طائفة من الأمة توبتهم، واختلف: هل تقبل توبة الجميع؟

وأما إذا عُيِّن إنسان تائب فيرجى قبولُ توبته ولا يقطع بها على الله.

وأما إذا فرضنا تائباً غير معيَّن صحيحَ التوبة، فهل يُقطع على الله بقبول توبته أم لا؟ فاختلف؛ فقالت فرقة فيها الفقهاء والمحدثون، وهو كان مذهبَ أبيٍّ رضي الله عنه: يقطع على الله بقول توبته؛ لأنه تعالى أخبر بذلك عن نفسه، وعلى هذا يلزم أن تُقبل توبة جميع التائبين.

---

(١) هو عبد الله بن قتادة ـ وقيل: ابن أبي قتادة، والأول أصح ـ المحاربي، الكوفي، من السابعة، سكت عنه البخاري، وابن أبي حاتم، وذكره ابن حبان في الثقات. المعجم الصغير لرواة الطبري (١/ ٣٢٣)، وتعجيل المنفعة (١/ ٧٦١).

(٢) هو موقوف، وفي إسناده جهالة، هذا الأثر أخرجه عبد الرزاق (٢/ ٨٥)، ومن طريقه ابن جرير (١٤/ ٤٦٠) عن الثوري، عن عبد الله بن السائب، عن عبد الله بن قتادة، عن ابن مسعود به من قوله، وعبد الله بن قتادة هذا هو المحاربي، لا يكاد يعرف إلا بهذا الإسناد، وهذا الأثرِ الموقوف، ذكره به البخاري في التاريخ الكبير (٥/ ١٧٥) ففيه جهالة، والأثر موقوف وليس بمرفوع.

(٣) متفق عليه، أخرجه بنحوه البخاري (١٤١٠) (٧٤٣٠)، ومسلم (١٠١٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، مرفوعاً به.

(٤) انظر الإجماع في: لوامع الأنوار البهية (١/ ٣٧٢)، وانظر القطع بذلك في: شرح النووي على مسلم (١٧/ ٦٠).

وذهب أبو المعالي وغيره من الأئمة إلى أن ذلك لا يُقطع به على الله تعالى، بل يقوى فيه الرجاء[١].

ومن حجتهم: أن الإنسان إذا قال في الجملة: إني أغفر[٢] لمن ظلمني، ثم جاء مَن قد سبَّه وآذاه، فله تعقُّب حقه، وبالغفران لقوم يصدق وعده ولا يلزمه الغفران لكل ظالم، ونحو هذا من القول، والقول الأول أرجح / والله الموفق للصواب. [٢/ ٢٦٣]

وقوله تعالى: ﴿عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ هي بمعنى (من)، وكثيراً ما يتوصَّل في موضع واحد بهذه وهذه، تقول: لا صدقة إلا عن غنًى، ومن غنى، وفعل فلان ذلك من أشره وبطره، [وعن أشره وبطره][٣].

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ﴾ تقرير، والمعنى: حق لهم أن يعلموا.

وقوله: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ﴾ الآية، صيغةُ أمر مضمنها الوعيد.

وقال الطبري: المراد بها الذين اعتذروا من المتخلفين وتابوا[٤].

والظاهر أن المراد بها الذين اعتذروا ولم يتوبوا وهم المتوعَّدون، وهم الذين في ضمير قوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ﴾ إلا على الاحتمال الثاني من أن الآيات كلَّها في الذين خَلَطُوا عَمَلاً صالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً. ومعنى[٥]: ﴿فَسَيَرَى ٱللَّهُ﴾، أي: موجوداً معرَّضاً[٦] للجزاء عليه بخير أو شر.

وأما الرسول والمؤمنون فرؤيتهم رؤيةُ حقيقةٍ لا تجوُّزٍ، وقال ابن المبارك: رؤية

(١) انظر قول أبي المعالي وقول مخالفيه في: شرح النووي على مسلم (١٧/ ٦٠).
(٢) في الأصل: «لا أغفر»، وهو خطأ.
(٣) ساقط من الأصل ونور العثمانية.
(٤) انظر: تفسير الطبري (١٤/ ٤٦٢).
(٥) في النسخ: «والمعنى»، والصواب المثبت. انظر: «تفسير الثعالبي» (٢/ ١٥٢).
(٦) في المطبوع وأحمد٣: «متعرضاً».

المؤمنين هي شهادتهم على المرء بعد موته، وهي ثناؤهم عند الجنائز، وقال الحسن ما معناه: أنهم حذروا من فراسة المؤمن[١] التي قال فيها النبي ﷺ: «اتقوا فراسة المؤمن، فإنه ينظر بنور الله»[٢].

وقوله تعالى: ﴿وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يريد البعث من القبور، و«الْغَيْبُ وَالشَّهادَةُ» معناه: ما غاب وما شوهد، وهي حالتان تعم كل شيء.

وقوله: ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾ عبارة عن حضور الأعمال وإظهارها للجزاء عليها وهذا وعيد.

قوله عز وجل: ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾﴾.

قوله: ﴿وَءَاخَرُونَ﴾ عطف على قوله أولاً: ﴿وَءَاخَرُونَ﴾ [التوبة: ٨٤].

---

(١) لم أقف عليهما، وانظر معنى قول ابن المبارك في تفسير ابن أبي حاتم (٦/ ١٨٧٧)، وقول الحسن في تفسير الهروي عند هذه الآية.

(٢) لا يصح مرفوعاً، هذا الحديث روي عن أبي سعيد الخدري وأبي أمامة الباهلي، أما حديث أبي سعيد فأخرجه البخاري في تاريخه الكبير (٧/ ٣٥٤)، وعنه الترمذي (٣٣٩٢)، والعقيلي في الضعفاء (٤/ ١٢٩)، من طريق عمرو بن قيس، عن عطية، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعاً به، قلت: وعطية هو العوفي، ضعيف، شيعي، مدلس، وقد عنعنه، ثم أخرجه العقيلي من طريق سفيان، عن عمرو بن قيس، قال: كان يقال: اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله عز وجل. قال العقيلي: وهذا أولى. وكذا أعله الخطيب في تاريخه (٣/ ١٩١).

وأما حديث أبي أمامة فأخرجه ابن عدي في كامله (٤/ ٢٠٧)، والطبراني في الأوسط (٣/ ٣١٢) كلاهما من طريق أبي صالح عبد الله بن صالح كاتب الليث، قال: حدثني معاوية بن صالح، عن راشد بن سعد، عن أبي أمامة، مرفوعاً به، قال ابن عدي: ولا أعلم يرويه عن راشد بن سعد غير معاوية بن صالح، وعن معاوية: أبو صالح، ومثله قال الطبراني في أوسطه، وعبد الله بن صالح، صدوق سيئ الحفظ، ولا يُعتمد عليه فيما تفرد فيه من مرويات، هذا، والحديث يُروى من طرق أخرى، كلها شديدة الضعف.

وقرأ نافع والأعرج وابن نِصَاح وأبو جعفر وطلحة والحسن وأهل الحجاز: ﴿مُرْجَوْنَ﴾ من أرجى يرجي دون همز.

وقرأ أبو عمرو وعمر[١] وعاصم وأهل البصرة: ﴿مرجؤون﴾ من أرجأ يُرْجِئ بالهمز، واختلف عن عاصم[٢]، وهما لغتان، ومعناهما التأخير، ومنه: المرجئة؛ لأنهم أخروا الأعمال، أي: أخروا حكمها ومرتبتها[٣]، وأنكر المبرد ترك الهمز في معنى التأخير[٤]، وليس كما قال.

والمراد بهذه الآية فيما قال ابن عباس[٥] وعكرمة ومجاهد والضحاك وقتادة وابن إسحاق: الثلاثة الذين خلِّفوا، وهم: هلال بن أمية الواقفي ومُرَارة بن الربيع العامري وكعب بن مالك[٦]، ونزلت هذه الآية قبل التوبة عليهم.

وقيل: إنها نزلت في غيرهم من المنافقين الذين كانوا معرضين للتوبة مع بنائهم مسجد الضرار، وعلى هذا يكون ﴿الذين اتخذوا﴾ بإسقاط واو العطف بدلاً من (آخَرُونَ)، أو خبر ابتداء تقديره: هم الذين، فالآية على هذا فيها[٧] ترجٍّ لهم واستدعاءٌ إلى الإيمان والتوبة.

---

(١) زيادة من نجيبويه.

(٢) فروى حفص عنه بدون همز، ومعه نافع والأخوان، وأبو بكر عنه والباقون بهمزة مضمومة، انظر: التيسير (ص: ١١٩).

(٣) انظر ذلك في: التبصير في الدين لأبي المظفر الإسفرائيني (١/ ٩٧)، والملل والنحل للشهرستاني (١/ ١٣٨).

(٤) انظر: الهداية لمكي (٤/ ٢٤٨٤).

(٥) هذا الأثر أخرجه الطبري (١٤/ ٤٦٥) من طريق عطية العوفي عن ابن عباس.

(٦) انظر قول ابن إسحاق في: السيرة النبوية لابن كثير (٤/ ١١)، وانظر قول الباقين في: تفسير الطبري (١٤/ ٤٦٥).

(٧) تحرفت في المطبوع إلى: «فيما».

و﴿عَلِيمٌ﴾ معناه: بمن يهدي إلى الرشد، و﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يُنْفِذه مَن تنعيم من شاء وتعذيب من شاء، لا رب غيره ولا معبود سواه.

وقرأ عاصم وعوام القراء والناس في كل قطر إلا بالمدينة: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ﴾.

وقرأ أهل المدينة نافع وأبو جعفر وشيبة وغيرهم: ﴿الذين اتخذوا﴾ بإسقاط الواو، وكذلك في مصحفهم، قاله أبو حاتم.

وقال الزهراوي: وهي قراءة ابن عامر، وهي في مصاحف أهل الشام بغير واو[١].

فأما من قرأ بالواو فذلك عطف على قوله: ﴿وَءَاخَرُونَ﴾ أي: ومنهم الذين اتخذوا، وأما من قرأ بإسقاطها فرفع ﴿الَّذِينَ﴾ بالابتداء.

واختلف في الخبر؛ فقيل الخبر: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾، قاله الكسائي، ويتجه بإضمارٍ إما في أول الآية وإما في آخرها، بتقدير: لا تقم في مسجدهم. وقيل: الخبر: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ﴾، قاله النحاس[٢] وهذا أفصح. وقد ذكرتُ كون ﴿الَّذِينَ﴾ بدلاً من (آخَرُونَ) آنفاً، وقال المهدوي: الخبر محذوف تقديره: معذَّبون، أو نحوه[٣].

وأما الجماعة المرادة بـ(الَّذِينَ اتَّخَذُوا) فهم: منافقو بني غَنْم بن عوف وبني سالم بن عوف، وأسند الطبري[٤] عن ابن إسحاق عن الزهري وغيره أنه قال: أقبل رسول الله ﷺ من غزوة تبوك حتى نزل بذي أوان بلدٍ بينه وبين المدينة ساعةٌ من نهار، وكان أصحاب مسجد الضرار قد كانوا أتوه وهو يتجهز إلى تبوك فقالوا: يا رسول الله، إنَّا قد بنينا مسجداً لذي العلة والحاجة والليلة المَطيرة، وإنَّا نحب أن

---

(١) في نجيبويه: «ابن عباس»، وهو خطأ، انظر العزو لابن عامر ونافع في التيسير (ص: ١١٩)، وانظر كتاب المصاحف (ص: ١٥٢).

(٢) انظر القولين في: إعراب القرآن للنحاس (٢/ ١٣٤).

(٣) انظر قول المهدوي في: التحصيل (٣/ ٣٠٤).

(٤) في تفسيره (١٤/ ٤٦٨).

تأتينا فتصليَ لنا فيه، فقال: «إني على جناح سفر وحال شغل، ولو قدمنا إن شاء الله أتيناكم فصلينا لكم فيه»، فلما قفل[١] ونزل بذي أوان، نزل عليه القرآن في شأن مسجد الضرار، فدعا رسول الله ﷺ مالك بن الدُّخْشُم[٢] ومعن بن عدي[٣] أو أخاه عاصم بن عدي، فقال: «انطلقا إلى هذا المسجد الظالمِ أهلُه، فاهدماه وحرِّقاه»، فانطلَقا مسرعين ففعلا وحرَّقاه بنارِ سَعَفٍ[٤].

وذكر النقاش «أن رسول الله ﷺ بعث لهدمه وتحريقه عمار بن ياسر ووحشيّاً[٥] مولى المطعم بن عدي»[٦].

وكان بانوه اثني عشر رجلاً: خِذَام بن خالد[٧]، ومن داره أُخرج مسجد الشقاق، وثعلبة بن حاطب، ومعتِّب بن قشير، وأبو حبيبة بن الأزعر[٨]، وعبَّاد بن حُنيف أخو

---

(١) في الأصل والمطبوع: «أقبل».

(٢) مالك بن الدخشم الأنصاري الأوسي، من بني عوف بن عمرو بن عوف، شهد بدراً عند الجميع، وهو الذي أسر سهيل بن عمرو يومئذ، ثم أرسله النبيّ ﷺ مع معن بن عدي فأحرقا مسجد الضرار. الإصابة (٥/ ٥٣٤).

(٣) معن بن عدي بن الجدّ بن العجلان البلوي، حليف الأنصار، شهد أحداً، وقتل يوم اليمامة شهيداً. الإصابة (٦/ ١٥١).

(٤) هذا الحديث أخرجه الطبري (١٤/ ٤٦٨)، من طريق الزهري، وغيره معضلاً به.

(٥) وحشي بن حرب الحبشي، مولى بني نوفل، قاتل حمزة، أسلم وشارك في قتل مسيلمة، وشهد اليرموك، ثم سكن حمص، ومات بها، روى عنه ابنه حرب، وعبد الله بن عدي بن الخيار، وجعفر ابن عمرو الضّمريّ، وعاش إلى خلافة عثمان. الإصابة (٦/ ٤٧٠).

(٦) لم أجده.

(٧) خذام بن خالد، من بني عبيد بن زيد، أحد بني عمرو بن عوف، سيرة ابن هشام (٢/ ٥٣٠).

(٨) هو أبو حبيبة الأدرع بن الأزعر بن زيد بن العطاف بن ضبيعة الأنصاري، ذكره منهم ابن هشام (٢/ ٥٣٠)، وفي الإصابة (٧/ ٧٢): استدركه يحيى بن عبد الوهّاب بن منده على جده، وقال: إنه ممن شهد أحداً.

سهل بن حُنيف[١]، وجارية بن عامر[٢] وابناه مجمِّع بن جارية[٣]، وهو كان إمَامهم، وحلف لعمر بن الخطاب في خلافته أنه لم يشعر بأمرهم، وزيد بن جارية[٤]، ونَبتل بن الحارث، وبَحْزَج[٥] وهو من بني ضُبيعة، وبِجَاد بن عثمان[٦]، وودیعة بن ثابت.

وبحزج منهم هو الذي حلف لرسول الله ﷺ: ما أردت إلا الحسنى والتوسعة علينا وعلى من عجز أو ضَعُفَ عن المسير إلى مسجد قباء[٧].

وقرأ ابن أبي عبلة: (ما أردنا إلا الحسنى)[٨].

والآية تقتضي شرح شيء من أمر هذه المساجد، فروي أن رسول الله ﷺ لما قدم

---

(١) عبّاد بن حنيف بن واهب بن العكيم، أخو عثمان وسهل الأنصاريّ الأوسيّ، ذكره أبو عبيد مع إخوته. الإصابة (٣/ ٤٩٧)، وفي الأسدية: «وأخوه»، وأما سهل فهو من السّابقين وشهد بدراً، والمشاهد كلَّها، وثبت يوم أحد واستخلفه عليٌّ على البصرة بعد الجمل، ثم شهد معه صِفّين، مات سنة (٣٨هـ). الإصابة (٣/ ١٦٥).

(٢) في الأصل ونجيبويه والمطبوع: «ابن عمرو»، وفي التركية: «حارثة»، والمثبت هو الموافق لما في سيرة ابن هشام (٢/ ٥٣٠).

(٣) مجمّع بن جارية بن عامر بن مجمّع بن العطّاف بن ضبيعة الأنصاري الأوسي، كان حدَثاً قد جمع القرآن، وكان أبوه ممن اتخذ مسجد الضّرار، فكان مجمع يصلّي بهم فيه، ثم إنه حلف بعد ذلك لعمر: ما علمت بشيء من أمرهم. الإصابة (٥/ ٥٧٧).

(٤) هو زيد بن جارية بن عامر بن مجمّع الأوسي، روى ابن مندة أنّه ممن استصغرهم النبي ﷺ يوم أحد. الإصابة (٢/ ٤٩٣).

(٥) في الأسدية: «خرج»، وفي نجيبويه: و«مخرج»، والمثبت هو الموافق لما في سيرة ابن هشام (٢/ ٥٣٠)، وذكر أنه من بني ضبيعة.

(٦) هو بجاد بن عثمان بن عامر بن مجمّع الأوسي من بني ضبيعة، ذكره منهم ابن هشام في السيرة (٢/ ٥٣٠).

(٧) ضعيف، هذا الحديث أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٠٠٦٦)، بإسناد فيه عطية العوفي، عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً به، وعطية العوفي ضعيف الحديث، شيعي، مدلس، وقد عنعنه.

(٨) في المطبوع: «إن أردنا»، وهو خطأ، وهي مخالفة للرسم، لم أجد من ذكرها، ولو رويت عنه فإنما هي تفسير.

المدينة وقت الهجرة بنى مسجداً في بني عمرو بن عوف وهو مسجد قُباء، وقيل: وجده مبنيّاً قبل وروده، وقيل: وجده موضع صلاة فبناه وتشرَّف القوم / بذلك، فحسدهم من [٢/ ٢٦٤] حينئذ رجال من بني عمهم من بني غَنْم بن عوف وبني سالم بن عوف، فكان فيهم نفاق.

وكان موضع مسجد قباء مربطاً لحمار امرأة من الأنصار اسمها لية[١]، فكان المنافقون يقولون: والله لا نصبر على الصلاة في مربط حمار لية، ونحو هذا من الأقوال.

وكان أبو عامر عبد عمرو المعروف بالراهب منهم، وكانت أمه من الروم، فكان يتعبد في الجاهلية فسمي الراهب، وهو أبو حنظلة غسيلِ الملائكة، وكان سيداً نظيراً وقريباً من عبد الله بن أبيٍّ ابنِ سلولَ، فلما جاء الله بالإسلام نافق ولم يزل مجاهراً بذلك، فسماه رسول الله ﷺ «الفاسق»، ثم خرج في جماعة من المنافقين فحزَّب على رسول الله ﷺ الأحزاب، فلما ردهم الله بغيظهم أقام أبو عامر بمكة مُظهِراً لعداوته، فلما فتح الله مكة هرب إلى الطائف، فلما أسلم أهل الطائف خرج هارباً إلى الشام يريد قيصر مستنصراً به على رسول الله ﷺ، وكتب إلى قومه المنافقين منهم أن ابنوا مسجداً مقاومة لمسجد قباء وتحقيراً له، فإني سآتي بجيش من الروم أخرج به محمداً وأصحابه من المدينة، فبنوه، وقالوا: سيأتي أبو عامر ويصلي فيه ويتخذه متعبداً ويسرُّ به، ثم إن أبا عامر هلك عند قيصر ونزل القرآن في أمر مسجد الضرار، فذلك قوله: ﴿وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ يعني: أبا عامر، وقولهم: سيأتي أبو عامر[٢].

وقرأ الأعمش: (للذين حاربوا الله)[٣].

---

(١) في نجيبويه: «لبة»، وفي الإصابة (٨/ ٣٠٨) أن اسمها «لينة»، ولم يترجم لها بأكثر من أنها صاحبة مكان قباء.

(٢) انظر تفسير الآية في: تفسير الطبري (١٤/ ٤٦٨)، وانظر قصة أبي عامر في: السيرة النبوية لابن كثير (٤/ ٣٨).

(٣) كذا في تفسير الثعلبي (٥/ ٩٤)، وفي مختصر الشواذ (ص: ٥٩)، والشواذ للكرماني (ص: ٢١٩): «لمن حاربوا»، وكلاهما شاذة.

وقوله: ﴿ضِرَارًا﴾ أي: داعيةً للتضارِّ من جماعتين، فلذلك قال: ﴿ضِرَارًا﴾، وهو في الأكثر[١] مصدرُ ما يكون من اثنين وإن كان المصدر الملازم لذلك مفاعَلةً كما قال سيبويه، ونصب ﴿ضِرَارًا﴾ وما بعده على المصدر في موضع الحال، ويجوز أن يكون على المفعول من أجله.

وقوله: ﴿بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يريد: بين الجماعة التي كانت تصلي في مسجد قباء، فإن من جاوز[٢] مسجدهم كانوا يصرِفونه إليه، وذلك داعية إلى صرفه عن الإيمان.

وقيل: أراد بقوله: ﴿بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ جماعةَ مسجد رسول الله ﷺ، وهذا بحسب الخلاف في المسجد المؤسس على التقوى وسيأتي ذلك.

قال النقاش: يلزم من هذا أن لا يصلَّى[٣] في كنيسة ونحوها؛ لأنها بنيت على شرٍّ من هذا كله[٤]، وقد قيل في هذا: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾.

قال القاضي أبو محمد: وهذا تفقُّهٌ غير قوي.

والإرصاد: الإعداد والتهيئة، والذي حارب الله ورسوله هو أبو عامر الفاسق.

وقوله: ﴿مِن قَبْلُ﴾ يريد في غزوة الأحزاب وغيرها، والحالف المراد في قوله: ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ﴾ هو بحزج ومن حلف من أصحابه.

وكسرت الألف من قوله: ﴿إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ لأن الشهادة في معنى القول.

وأسند الطبري عن شقيق أنه جاء ليصلي في مسجد بني غاضرة فوجد الصلاة قد فاتته، فقيل له: إن مسجد بني فلان لم يصلَّ فيه بعد، فقال: لا أحب أن أصلي فيه فإنه بني على ضرار، وكل مسجد بني ضراراً ورياء وسمعةً فهو في حكم مسجد الضرار[٥].

---

(١) في المطبوع: «الأصل».

(٢) في نجيبويه: «جاور».

(٣) في المطبوع زيادة: «عليه»، وهو خطأ.

(٤) انظر قول النقاش في: تفسير القرطبي (٨/ ٢٥٤).

(٥) انظر الرواية عن شقيق في: تفسير الطبري (١٤/ ٤٧٤)، وفي التركية: «سفيان».

وروي أن مسجد الضرار لما هُدم وأحرق اتُّخذ مزبلة ترمى فيه الأقذار والقمامات[١].

قوله عز وجل: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾.

روي أن رسول الله ﷺ لما نزلت: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ كان لا يمر بالطريق التي فيها المسجد، وهذا النهي إنما هو لأن البانين لمسجد الضرار قد كانوا خادعوا رسول الله ﷺ وقالوا: بنينا مسجداً للضرورات والسيل الحائل بيننا وبين قومنا، فنريد أن تصلي لنا فيه وتدعو بالبركة، فهمَّ رسول الله ﷺ بالمشي معهم إلى ذلك، واستدعى قميصه لينهض، فنزلت الآية ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾[٢].

وقوله: ﴿لَّمَسْجِدٌ﴾؛ قيل إن اللام لام قسم، وقيل: هي لام الابتداء، كما تقول: لَزيدٌ أحسن الناس فعلاً، وهي مقتضيةٌ تأكيداً.

وقال ابن عباس وفرقة من الصحابة والتابعين: المراد بالمسجد الذي أُسس على التقوى هو مسجد قُباء[٣].

وروي عن ابن عمر[٤] وأبي سعيد الخدري[٥] وزيد بن ثابت: أنه مسجد رسول الله ﷺ

(١) انظر رواية ذلك في: تفسير الطبري (١٤/ ٤٧٤).
(٢) منقطع، هذا الحديث أخرجه الطبري (١٤/ ٤٧٠) من طريق علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً به.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم (١٠٠٧٦)، وابن جرير (١٤/ ٤٧٨)، في تفسيريهما بنفس الإسناد السابق.
(٤) في الأصل والمطبوع: عن عمر، وهو خطأ، فالأثر لا يعرف إلا من طريق ابن عمر، كما ذكره البخاري في التاريخ الكبير (٦/ ٧٠)، والطبري (١١/ ٢٠٠) ولم أقف على من عزاه لعمر.
(٥) ضعيف، أثر أبي سعيد أخرجه الطبري (١٤/ ٤٧٦) بإسناد فيه سفيان بن وكيع، وهو متفق على تضعيفه، ويغني عنه ما أخرجه مسلم في صحيحه (١٣٩٨) عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً، =

بالمدينة[١]، ويليق القول الأول بالقصة، إلا أن القول الثاني روي عن رسول الله ﷺ، ولا نظر مع الحديث.

وأسند الطبري في ذلك عن أبي سعيد الخدري أنه قال: اختلف رجل من بني خدرة[٢] ورجل من بني عمرو بن عوف، فقال الخُدْري: هو مسجد الرسول، وقال الآخر: هو مسجد قباء، فأتيا رسول الله ﷺ فسألاه، فقال: «هو مسجدي هذا، وفي الآخَر خيرٌ كثير»[٣].

إلى كثير من الآثار في هذا عن أبي بن كعب[٤] وسهل بن سعد[٥].

= وستأتي الإشارة إليه، وكذلك أخرجه البخاري (٣٦٩٤) من حديث الزبير بن العوام رضي الله عنه، وفي كليهما أن المسجد الذي أسس على التقوى هو مسجد الرسول ﷺ..

(١) أثر ابن عمر أخرجه الطبري (١٤/ ٤٧٦) عن سفيان بن وكيع قال، حدثنا أبو معاوية، عن إبراهيم ابن طهمان، عن عثمان بن عبيد الله قال: أرسلني محمد (كذا وصوابه محرر) بن أبي هريرة إلى ابن عمر أسأله، ثم أخرجه من طريق الدراوردي، عن عثمان بن عبيد الله، عن ابن عمر، وزيد بن ثابت، وأبي سعيد قالوا: المسجد الذي أسس على التقوى مسجد الرسول ﷺ.

(٢) في نجيبويه: «خزرة»، وفيه: «الخزري»، والمثبت هو الموافق لما في المصدر.

(٣) أصله في مسلم بغير هذا السياق، هذا الحديث أخرجه بهذا اللفظ الطبري (١٤/ ٤٨١) بإسناد صحيح إلى أبي سعيد الخدري مرفوعاً به، وأصله عند مسلم في صحيحه (١٣٩٨) بدون ذكر هذين الرجلين والخلاف بينهما.

(٤) ضعيف، أخرجه الطبري (١٤/ ٤٨٠) مرفوعاً بإسناد فيه عبد الله بن عامر الأسلمي، وهو ضعيف متفق على تضعيفه.

(٥) غير محفوظ، أخرجه الإمام أحمد (٣٧/ ٤٦٤) مرفوعاً أيضاً من طريق ربيعة بن عثمان التيمي، وذكره الدارقطني في علله (١١/ ٢٧٢)، من طريق أسامة بن زيد، كلاهما عن عمران بن أبي أنس، عن سهل ابن سعد رضي الله عنه، مرفوعاً به، وكل من ربيعة بن عثمان التيمي، وأسامة بن زيد ضعيفا الحديث، وإن كان ربيعة أحسن حالاً منه، وقد خالفهما الليث بن سعد، فرواه عن عمران بن أبي أنس، عن عبد الرحمن بن أبي سعيد الخدري، عن أبيه، مرفوعاً به، رواه الطبري (١٤/ ٤٨١)، وذكره الدارقطني في علله (١١/ ٢٧٢)، قال الدارقطني: ويشبه أن يكون القول قول ا لليث، عن عمران بن أبي أنس، والله أعلم.

ومسجد رسول الله ﷺ، كان في بقعته نخل وقبور مشركين ومربد ليتيمين كانا في حِجْر أسعد بن زرارة، وبناه رسول الله ﷺ ثلاث مرات، الأولى بالسميط وهي لبنة أمام لبنة، والثانية بالصَّعيدة، وهي لبنة ونصفٌ في عرض الحائط، والثالثة بالأنثى والذكر، وهي لبنتان تعرض عليهما لبنتان، وكان في طوله سبعون ذراعاً، وكان عَمَدُه النخل، وكان عريشاً يَكِفُ في المطر، وعُرض على رسول الله ﷺ بنيانه ورفعه فقال: «لا، بل يكون عريشاً كعريش أخي موسى، كان إذا قام ضرب رأسه في سقفه»[١].

وكان رسول الله ﷺ ينقل فيه اللَّبِن على صدره، ويقال: إن أول من وضع في أساسه حجراً رسول الله ﷺ، ثم وضع أبو بكر حجراً، ثم وضع عمر حجراً، ثم وضع عثمان حجراً، ثم رمى الناس بالحجارة، فتفاءل بذلك بعض الصحابة في أنها الخلافة فصدق فألُه[٢].

قوله: ﴿مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ قيل: معناه: منذ أول يوم، وقيل: معناه: من تأسيس أول يوم، وإنما دعا إلى هذا الاختلاف أن من أصول النحويين أن (مِن) لا تجرُّ بها الأزمان، وإنما تجر الأزمان / بمنذ، تقول: ما رأيته منذ يومين أو سنة أو يوم، ولا تقول: من شهر، ولا: من سنة، ولا: من يوم، فإذا وقعت «من» في الكلام وهي تلي زمناً فيقدر مضمر يليق أن تجره «مِن» كقول الشاعر: [٢/ ٢٦٥]

[الكامل]

لِمَنِ الدِّيارُ بقُنَّةِ الحِجْرِ أَقْوَيْنَ من حِجَجٍ ومن دَهْرِ[٣]

ومن شهر روايةٌ، فقدَّروه: من مرِّ حجج، ومن مرِّ دهر.

---

(١) لم أقف عليه مسنداً، هذا الحديث بهذا اللفظ لم أقف له على إسناد، بل ذكره بعضهم عن شهر بن حوشب، معضلاً به، وأخرجه بنحوه البيهقي في الدلائل (٢/ ٥٤٢) من طريق الحسن البصري، مرسلاً به.

(٢) لم أجده.

(٣) البيت لزهير كما في البيان والتبيين (٢/ ١٧٧)، الشعر والشعراء (١/ ١٣٩)، معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٤٧٨).

ولما كان قوله: ﴿أَوَّلِ يَوْمٍ﴾؛ يوماً، وهو اسم زمان، احتاجوا فيه إلى تقديرٍ: من تأسيسٍ، ويحسن عندي أن يُستغنى في هذه الآية عن تقديرٍ، وأن تكون ﴿مِنْ﴾ تجر لفظة ﴿أَوَّلِ﴾ لأنها بمعنى البداءة، كأنه قال: من مبتدأ الأيام، وهي هاهنا تقوم مقام المَرِّ في البيت المتقدم، وهي كما تقول: جئت من قبلك ومن بعدك، وأنت لا تدل بهاتين اللفظتين إلا على الزمن، وقد حكي لي هذا الذي اخترته عن بعض أئمة النحو[١].

ومعنى ﴿أَن تَقُومَ فِيهِ﴾ أي: بصلاتك وعبادتك.

وقرأ جمهور الناس: ﴿أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٌ﴾ بكسر الهاء.

وقرأ عبد الله بن زيد: (أن تقوم فيهِ فيهُ) بضم الهاء الثانية[٢] على الأصل، ويحسِّنه تجنُّبُ تكرار لفظ واحد، وقال قتادة وغيره: الضمير عائد على مسجد الرسول، والرجال جماعة الأنصار[٣].

وروي أن رسول الله ﷺ قال لهم: «يا معشر الأنصار، إني رأيت الله أثنى عليكم بالطهور فماذا تفعلون؟»، فقالوا: يا رسول الله، إنا رأينا جيراننا من اليهود يتطهرون بالماء ـ يريدون الاستنجاء بالماء ـ ففعلنا نحن ذلك، فلما جاء الإسلام لم ندعه، فقال رسول الله ﷺ: «فلا تَدَعوه أبدا»[٤].

---

(١) هذا مذهب البصريين وأما الكوفيون فيجيزون ذلك، انظر: الإنصاف في مسائل الخلاف (١/ ٣٧٠)

(٢) وهي شاذة، انظر: المحتسب (١/ ٣٠١).

(٣) انظر قول قتادة في: تفسير الطبري (١٤/ ٤٨٣).

(٤) في إسناده اضطراب ولين، هذا الحديث رواه شهر بن حوشب، واختلف عليه، فرواه سلمة بن رجاء عن مالك بن مغول، عن سيار أبي الحكم، عن شهر، عن محمد بن عبد الله بن سلام، عن أبيه، به، ورواه غير سلمة عن مالك بدون ذكر: أبيه. أخرج هذا أحمد (٣٩/ ٢٥٤)، والبخاري في التاريخ الكبير (١/ ١٨) في ترجمة محمد، ونعت الدارقطني هذا بالإرسال؛ لأن محمد بن عبد الله ابن سلام إنما له رؤية فقط، ورواه عبيد الله بن تمام، عن داود بن أبي هند، عن شهر، عن أبي هريرة، وغيره يرويه عن داود عن شهر مرسلاً، وشهر تكلِّم فيه، ويكثر الاختلاف عليه والاضطراب منه، وينظر: العلل للدارقطني (٨/ ٣٣٤)، وتعجيل المنفعة (٢/ ١٨٦).

وقال عبد الله بن سلام وغيره ما معناه: «إن الضمير عائد على مسجد قباء»[١] والمراد بنو عمرو بن عوف، وروي أن رسول الله ﷺ إنما قال المقالة المتقدمة لبني عمرو ابن عوف[٢].

والأول أكثر.

واختلف أهل العلم في الأفضل بين الاستنجاء بالماء أو بالحجارة، فقيل هذا، وقيل هذا.

ورأت فرقة من أهل العلم الجمع بينهما فينقي بالحجارة ثم يُتبع بالماء[٣].

وحدثني أبي رضي الله عنه أنه بلغه أن بعض علماء القيروان كانوا يتخذون في متوضياتهم أحجاراً في تراب ينقون بها، ثم يستنجون بالماء أخذاً بهذا القول.

قال القاضي أبو محمد: وإنما يتصور الخلاف في البلاد التي يمكن فيها أن تنقي الحجارة، وابن حبيب لا يجيز الاستنجاء بالحجارة حيث يوجد الماء[٤]، وهو قول شذ فيه.

وقرأ جمهور الناس: ﴿يَتَطَهَّرُواْ﴾.

وقرأ طلحة بن مصرف والأعمش: (يطَّهَّروا) بالإدغام.

وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه: (المتطهِّرين) بالتاء[٥].

وأسند الطبري عن عطاء أنه قال: أحدثَ قوم من أهل قباء الاستنجاء بالماء، فنزلت الآية فيهم[٦].

---

(١) انظر قول ابن سلام ومن معه في: تفسير الطبري (١٤/ ٤٨٤).

(٢) مرسل، هذا الحديث أخرجه الطبري (١٤/ ٤٨٨) من طريق عروة بن الزبير مرسلاً به.

(٣) وهو اختيار أكثر الفقهاء، انظر البحر الرائق (١/ ٢٥٤)، وشرح الخرشي (١/ ١٤٨)، والمجموع (٢/ ١٠٠)، والمغني (١/ ١٥٩).

(٤) انظر قول ابن حبيب في: النوادر (١/ ٢٥).

(٥) وهما شاذتان، تابعه عليهما في البحر المحيط (٥/ ٥٠٥)، وعزا الكرماني (ص: ٢٢٠) الإدغام فيهما لطلحة، والإظهار فيهما لأبي.

(٦) انظر: تفسير الطبري (١٤/ ٤٩٠)، وفيه «الوضوء» بدل: «الاستنجاء».

وروي أن رسول الله ﷺ قال: «منهم عويم بن ساعدة»[١] ولم يسمَّ أحدٌ منهم غير عويم.

وقوله: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ﴾ الآية، استفهام بمعنى تقرير، وقرأ نافع وابن عامر وجماعة: ﴿أُسِّس بنيانُه﴾ على بناء ﴿أسس﴾ للمفعول ورفع (بنيان) فيهما، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم وحمزة والكسائي وجماعة: ﴿أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ﴾ على بناء الفعل للفاعل ونصب (بنيان) فيهما[٢].

وقرأ عمارة بن ضبا[٣] ـ رواه يعقوب ـ الأول على بناء الفعل للمفعول، والثاني على بنائه للفاعل، والآية تتضمن معادَلةً بين شيئين، فإما بين البناءين وإما بين البانين[٤]، فالمعادلة الأولى هي بتقدير: أَبِنَاءُ مَن أسس.

وقرأ نصر بن علي[٥]، ورويت عن نصر بن عاصم: (أ فمَن أسُّ بنيانِه) على إضافة (أس) إلى (بنيان).

وقرأ نصر بن عاصم وأبو حيوة أيضاً: (أَسَاسُ بنيانِه)[٦].

---

(١) مرسل، هذا الحديث أخرجه الطبري (١٤/ ٤٨٨) من طريق عروة بن الزبير مرسلاً به.

(٢) وهما سبعيتان، انظر التيسير (ص: ١١٩).

(٣) في التركية: «حنباء»، وفي أحمد٣: «ابن ضب»، وفي تفسير الثعلبي (٥/ ٩٥): «بن صايد»، وفي البحر المحيط (٥/ ٥٠٥) وتابعيه: «بن عائذ»، وفي الشواذ للكرماني (ص: ٢٢٠): «عبادة بن عبد الله بن صياد»، مع اختلاف بينهم في ضبط قراءته، ولم أقف على ترجمة لأحد ممن ذكر إلا أنه يتلفق منها: عمارة بن عبد الله ابن صياد ويكنى أبا أيوب، وكان ثقة قليل الحديث، وكان مالك بن أنس لا يقدم عليه أحداً في الفضل، وروى عنه، توفي في خلافة مروان بن محمد، انظر: الطبقات الكبرى متمم التابعين (ص: ٣٠٢).

(٤) لعل الصواب: «البانِيَيْن».

(٥) لعله نصر بن علي بن صهبان الجهضمي بصري صدوق، روى عن جده لأمه أشعث بن عبد الله الحداني والنضر بن شيبان، وعنه أبو داود وأبو نعيم وعبيد الله بن موسى، وهو مقل. تاريخ الإسلام (٩/ ٦٤٩)، أو حفيده نصر بن علي الجهضمي شيخ السنة.

(٦) وهي قراءة شاذة، انظر: البحر المحيط لأبي حيان (٥/ ١٠٣)، وفي مختصر الشواذ (ص: ٥٩) منسوبة لليماني.

وقرأ نصر بن عاصم أيضاً: (أُسُسُ بنيانِه) على وزن فُعُل بضم الفاء والعين، وهو جمع أساس، كقَذَالٍ وقُذُل، حكى ذلك أبو الفتح[١].

وذكر أبو حاتم أن هذه القراءة لنصر إنما هي: (أَسَسُ) بهمزة مفتوحة وسين مفتوحة وسين مضمومة[٢]، وعلى الحكايتين فالإضافة إلى البنيان.

وقرأ نصر بن علي أيضا: (آساس)[٣] على جمع أُسٍّ.

والبنيان مصدر، يقال: بنى يبني بناءً وبنياناً، كالغفران والطغيان، فسمي به المبنيُّ مثل الخلق إذا أردت به المخلوق، وقيل: هو جمع واحدُه بنيانة، وأنشد في ذلك أبو علي:

كبُنْيانـةِ القـاريِّ موضـعُ رحلهـا وآثـارُ نِسْـعَيْها مـن الـدَّفِّ أَبْلَـقُ[٤] [الطويل]

وقرأ الجمهور: ﴿عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ﴾، وقرأ عيسى بن عمر: (على تقوًى) بتنوين الواو[٥]، حكى هذه القراءة سيبويه، وردها الناس، قال أبو الفتح: قياسها أن تكون الألف للإلحاق كأرطىً ونحوه[٦].

وأما المراد بالبنيان الذي أسس على التقوى والرضوان، فهو في ظاهر اللفظ وقولِ الجمهور: المسجد المذكور قبل، ويطرد فيه الخلاف المتقدم.

وروي عن عبد الله بن عمر أنه قال: المراد بالمسجد المؤسس على التقوى هو مسجد رسول الله ﷺ، والمراد بأنه أسس على تقوى من الله وَرِضْوانٍ[٧] هو مسجد قباء[٨].

---

(١) انظره مع قراءة النصرين في المحتسب (١/ ٣٠٣) وهي شاذة.

(٢) انظر قول أبي حاتم في إعراب القرآن للنحاس (٢/ ١٣٥)، وهي شاذة.

(٣) وهي شاذة، انظر: المحتسب (١/ ٣٠٣).

(٤) البيت لكعب بن زهير كما في الأغاني (١٧/ ٨٩)، ونسبه الفارسي في الحجة (٤/ ٢١٩) لأوس، وفيهما: «كبنيانة القرئي».

(٥) وهي قراءة شاذة، انظر: المحتسب (١/ ٣٠٤)، وتفسير الثعلبي (٥/ ٩٥).

(٦) انظر قول سيبويه وقول أبي الفتح في المحتسب (١/ ٣٠٤).

(٧) في الأصل هنا زيادة: «خير».

(٨) لم أقف عليه.

وأما البنيان الذي أسس عَلى شَفا جُرُفٍ هارٍ فهو مسجد الضرار بإجماع.

والشَّفا: الحاشية والشفير.

والجُرف حول البئر ونحوِه مما جرفته السيولُ والنُّدْوَّةُ والبِلَى.

وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو والكسائي وجماعة: ﴿جُرُفٍ﴾ بضم الراء.

وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة وجماعة: ﴿جرْف﴾ بسكون الراء، واختلف عن عاصم[١].

وهما لغتان، وقيل: الأصل ضم الراء، وتخفيفها بعد ذلك مستعمل.

و﴿هَـارٍ﴾ معناه: متهدم منهال، وهو من هارَ يَهُور، ويقال: هارَ يَهار ويَهير، وأصله: هائر أو هاور، فقيل: قلبت راؤه[٢] قبل حرف العلة فجاء: هارو أو هاري، فصنع به ما صنع بقاضٍ وغازٍ، وعلى هذا يقال في حال النصب: هارياً، ومثله: في يومٍ راحٍ، أصله: رائحٌ، ومثله: شاكي السلاح، أصله: شائكٌ، ومثله قول العجَّاج:

[الرجز] لَاثٍ بِــهِ الْأَشَـاءُ وَالْـعُـبْرِيُّ[٣]

أصله: لائثٌ، ومثله قول الشاعر

[الكامل] خَفَضُـوا أَسِـنَّتَهم فـكلٌّ نـاعِ[٤] ....

على أحد الوجهين: فإنه يحتمل أنه من نَعَى يَنْعَى، والمراد أنهم يقولون: يا ثارات فلان، ويحتمل أن يريد فكلهم نائع، أي: عاطش كما قال عُمير بن شُييم:

---

(١) فروى عنه حفص ضم الراء وأبو بكر إسكانه، وهما سبعيتان. انظر: التيسير (ص: ١١٩).

(٢) في نجيبويه: «واوه».

(٣) للعجاج كما في الكتاب لسيبويه (٣/ ٤٦٦)، ومجاز القرآن (١/ ٢٦٩)، والكنز اللغوي (ص: ١٤)، وتهذيب اللغة (٣/ ١٩).

(٤) للأجدع بن مالك بن أمية الهمداني كما في التنبيه على أوهام أبي علي (ص: ٢٥)، وسمط اللآلي (١/ ١٠٩). وصدره: خيلان من قومي ومن أعدائهم.

.... والأسَـلَ النِّـيَاعـا[١] [الوافر]

وقيل في ﴿هارٍ﴾: إن / حرف علته حذف حذفاً، فعلى هذا يجري بوجوه [٢/ ٢٦٦] الإعراب، فتقول: جرفٌ هارٌ، ورأيت جرفاً هاراً، ومررت بجرفٍ هارٍ.

واختلف القراء في إمالة ﴿هَـارٍ﴾[٢] و(انهار).

وتأسيس البناء على تقوى إنما هو بحسن النية فيه، وقصدِ وجه الله تعالى وإظهار شرعه، كما صنع بمسجد النبي ﷺ وفي مسجد قباء.

والتأسيس عَلى شَفا جُرُفٍ هارٍ، إنما هو بفساد النية، وقصد الرياءِ والتفريقِ بين المؤمنين.

فهذه تشبيهاتٌ صحيحة بارعة.

و﴿خَيْرٌ﴾ في هذه الآية تفضيل، ولا شركة بين الأمرين في خير إلا على معتقد باني مسجد الضرار، فبحسب ذلك المعتقدِ صح التفضيل.

وقوله: ﴿فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾ الظاهر منه وما صح من خبرهم وهدم رسول الله ﷺ مسجدهم أنه خارجٌ مخرجَ المثل، أي: مَثَلُ هؤلاء المضارِّين من المنافقين في قصدهم معصيةَ الله وحصولِهم من ذلك على سخطه كمن ينهار بنيانه في نار جهنم، ثم اقتضب الكلام اقتضاباً يدل عليه ظاهره، وقيل: بل ذلك حقيقةٌ، وإن ذلك المسجد بعينه انهار في نار جهنم، قاله قتادة وابن جريج[٣].

---

(١) عمير هو القطامي، وفي الأصل: عامر، وهو خطأ، وأوله: «لعَمْرُ بني شهاب ما أقاموا صدورَ الخيل...» إلخ، انظر عزوه له في المخصص (٤/ ٢١٨)، وعزاه الجوهري في الصحاح (٣/ ١٢٩٤)، والبكري في سمط اللآلي (١/ ٨٣٦) لدريد ابن الصمة، وهو الصواب.

(٢) قال في التيسير (ص: ١١٩): «ابن كثير وحمزة وحفص وهشام والنقاش عن الأخفش: بالفتح، وورش بين اللفظين، والباقون بالإمالة»، وأما «انهار» فلم يُملها أحد، ولعلها وردت خطأ أو بدل كلمة أخرى.

(٣) انظر قول قتادة وابن جريج في: تفسير الطبري (١٤/ ٤٩٢).

وروي عن جابر بن عبد الله وغيره أنه قال: رأيتُ الدخان يخرج منه على عهد رسول الله ﷺ[(١)]، وروي في بعض الكتب أن رسول الله ﷺ رآه حين انهار حتى بلغ الأرض السابعة، ففزع لذلك رسول الله ﷺ [(٢)].

وروي أنهم لم يصلُّوا فيه أكثر من ثلاثة أيام؛ أكملوه يوم الجمعة وصلَّوا فيه يوم الجمعة وليلة السبت، وانهار يوم الاثنين، وهذا كله بإسناد لين[(٣)]، وما قدمناه أصوبُ وأصح، وكذلك بقي أمره والصلاة فيه من قَبْل سفر رسول الله ﷺ إلى تبوك إلى أن قفل ﷺ.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾: طعنٌ على هؤلاء المنافقين وإشارة إليهم، والمعنى: لا يهديهم من حيث هم الظالمون، أو يكون المراد الخصوص فيمن يوافي على ظلمه.

وأسند الطبري عن خلف بن ياسين[(٤)] أنه قال: «رأيت مسجد المنافقين الذي ذكر الله في القرآن، فرأيت فيه مكاناً يخرج منه الدخان، وذلك في زمن أبي جعفر المنصور»[(٥)]، وروي شبيهٌ بهذا أو نحوه عن ابن جريج أسنده الطبري[(٦)].

---

(١) إسناده مستقيم، أخرجه ابن جرير (٤/ ٤٩٣) والحاكم في المستدرك (٤/ ٦٣٨) من طريق عبد العزيز ابن المختار، عن عبد الله بن داناج، عن طلق بن حبيب، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، به، قال الحاكم: هذا إسناد صحيح، وعنده تصريح طلق بالسماع من جابر.

(٢) لم أقف عليه مسنداً، ولا إخاله إلا منكراً.

(٣) الطبري (١٤/ ٤٩٣) من قول ابن جريج بلا إسناد.

(٤) خلف بن ياسين بن معاذ الزيات، الكوفي، الواسطي، قليل الحديث، يروي عن المجاهيل. المعجم الصغير لرواة الطبري (١/ ١٥٤).

(٥) أبو جعفر المنصور عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس القرشي الهاشمي العباسي، أمير المؤمنين، روى عن أبيه ورأى جده، كان كامل العقل، جيد المشاركة في العلم والأدب، فقيه النفس، خليقاً للإمارة، توفي سنة (١٥٨هـ). تاريخ الإسلام (٩/ ٤٦٥).

(٦) انظر ما أسنده الطبري عن خلف وابن جريج في: تفسير الطبري (١٤/ ٤٩٣).

قوله عز وجل: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١١٠) إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١١)﴾.

الضمير في ﴿بُنْيَانُهُمُ﴾ عائد على المنافقين البانين للمسجد ومَن شاركهم في غرضهم.

وقوله: ﴿الَّذِي بَنَوْا﴾ تأكيد وتصريحٌ بأمر المسجد ورفعٌ للإشكال، والريبة: الشك، وقد يسمى ريبةً فسادُ المعتقَد واضطرابُه والاعتراض في الشيء والتحفظ[1] فيه والحزازة من أجله وإن لم يكن شكّاً، فقد يرتاب مَن لا يشك، ولكنها في معتاد اللغة تجري مع الشك، ومعنى الريبة في هذه الآية أمر يعم الغيظ والحنق ويعم اعتقاد صواب فعلهم، ونحو هذا مما يؤدي كله إلى الريبة في الإسلام، فمقصد الكلام: لا يزال هذا البنيان الذي هدم لهم يُبْقي في قلوبهم حزازة وأثرَ سوء، وبالشك فسر ابن عباس الريبة هنا، وفسرها السدي بالكفر، وقيل له: أفكَفَر مجمَّع بن جارية؟ قال: لا، ولكنها حزازة[2].

قال القاضي أبو محمد: ومجمع رحمه الله قد أقسم لعمر أنه ما علم باطن القوم ولا قصد سوءاً، والآية إنما عنت مَن أبطن سوءاً، فليس مجمعٌ منهم، ويحتمل أن يكون المعنى: لا يزالون مريبين بسبب بنائهم الذي اتضح فيه نفاقهم، وجملة هذا: أن الريبة في الآية تعم معاني كثيرةً يأخذ كل منافق منها بحسب قَدْره من النفاق.

وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو والكسائي: ﴿إلا أن تُقَطَّع قلوبهم﴾، بضم التاء وبناء الفعل للمفعول.

---

(١) في الأسدية والتركية والمطبوع: «التخبط».

(٢) أخرجه الطبري (١٤/ ٤٩٥) من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، وانظر فيه قول السدي أيضاً.

وقرأ ابن عامر وحمزة وعاصم بخلاف عنه: ﴿إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ﴾ بفتح التاء على أنها فاعلة[١].

وقرأ الحسن بن أبي الحسن ومجاهد وقتادة ويعقوب: ﴿إلى أن تَقَطَّع﴾[٢] على معنى: إلى أن يموتوا.

وقرأ بعضهم: (إلى أن تُقْطَع)[٣]، وقرأ أبو حيوة: (إلا أن يُقَطِّع) بالياء مضمومة وكسر الطاء ونصب «القلوب»[٤]، أي: بالقتل.

وأما على القراءة الأولى فقيل: بالموت، قاله ابن عباس[٥] وقتادة وابن زيد وغيرهم[٦].

وقيل: بالتوبة، وليس هذا بالظاهر إلا أن يتأول: أو يتوبوا توبةً نصوحاً يكون معها من الندم والحسرة على الذنب ما يقطِّع القلوبَ همّاً وفكرةً.

وفي مصحف ابن مسعود: (ولو قطِّعت قلوبهم)، وكذلك قرأها أصحابه[٧].

وحكاها أبو عمرو: (وإن قطعت) بتخفيف الطاء.

وفي مصحف أبيٍّ: (حتى الممات)، وفيه: (حتى تقطَّع قلوبهم)[٨].

---

(١) انظر: التيسير فى القراءات السبع (ص: ١٢٠) إلا أن شعبة عن عاصم وافق الأولين وحفص الأخيرين.

(٢) وهي عشرية ليعقوب، انظر: النشر (٢/ ٣١٦)، وانظر قراءة الباقين في تفسير القرطبي (٨/ ٢٦٦)، ويعقوب ليس في المطبوع.

(٣) وهي شاذة عزاها في تفسير الثعلبي (٥/ ٩٦) ليعقوب، وليست من طرق النشر.

(٤) عزاها له في البحر المحيط (٥/ ٥٠٨)، وعزاها له الكرماني في الشواذ (ص: ٢٢١) بالتاء.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٠٨٣٢) من طريق علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما، به.

(٦) انظر: تفسير الطبري (١٤/ ٤٩٥).

(٧) وهي قراءة شاذة، انظر عزوها لهم في تفسير الثعلبي (٥/ ٩٦) وكتاب المصاحف (١/ ١٧٧)، وتفسير الطبري (١٤/ ٤٩٧).

(٨) من أحمد٣، وكلها شاذة، انظر قراءة أبي الأولى في الحجة للفارسي (٤/ ٢٣١)، والثانية ونقل أبي عمرو في البحر المحيط (٥/ ٥٠٨).

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ﴾ الآية، هذه الآية نزلت في البيعة الثالثة وهي بيعة العقبة الكبرى، وهي التي أناف فيها رجال الأنصار على السبعين، وكان أصغرَهم سنّاً عقبةُ بن عمرو، وذلك أنهم اجتمعوا مع رسول الله ﷺ عند العقبة فقالوا: «اشترِطْ لك ولربك»، والمتكلِّم بذلك عبد الله بن رواحة، فاشترط رسول الله ﷺ حمايته مما يحمون منه أنفسهم، واشترط لربه التزام الشريعة وقتال الأحمر والأسود في الدفع عن الحوزة، فقالوا: ما لنا على ذلك؟ قال: «الجنة»، فقالوا: «نعم، ربح البيع لا نُقيل ولا نقال»، وفي بعض الروايات: «ولا نستقيل» فنزلت الآية في ذلك(١).

ثم الآية بعد ذلك عامة في كلِّ مَن جاهد في سبيل الله من أمة محمد ﷺ إلى يوم القيامة، وقال بعض العلماء: ما من مسلم إلا ولله في عنقه هذه البيعة وفَى بها أو لم يفِ(٢)، وفي الحديث: «إن فوق كل بِرٍّ بِرّاً، حتى يبذل العبد دمه، فإذا فعل ذلك فلا بِرَّ فوق ذلك»(٣).

وهذا تمثيل من الله عز وجل جميلَ صنعه بالمبايعة، وذلك أن حقيقة المبايعة أن تقع بين نفسين بقصدٍ منهما وتملك صحيح، وهذه القصةُ وهب الله عباده أنفسَهم وأموالهم ثم أمرهم ببذلها في ذاته، ووعدهم على ذلك ما هو خير/ منها، فهذا غاية التفضل، ثم شبه القصة بالمبايعة. [٢/ ٢٦٧]

وأسند الطبري عن كثير من أهل العلم أنهم قالوا: ثامَنَ الله تعالى في هذه الآية عباده فأعلى لهم، وقاله ابن عباس والحسن بن أبي الحسن(٤).

وقال ابن عيينة: معنى الآية: اشترى منهم أنفسهم ألا يُعْمِلوها إلا في طاعة الله،

---

(١) مرسل، هذا الحديث أخرجه الطبري (١٤/ ٤٩٩)، من طريق محمد بن كعب القرظي، مرسلاً، به.
(٢) هو قول شمر بن عطية، كما في تفسير الطبري (١٤/ ٤٩٩).
(٣) ضعيف مرسل، هذا الحديث أخرجه هناد في الزهد (٩٧٩)، بإسناد ضعيف إلى الحسن البصري، مرسلاً به.
(٤) انظر إسناد الطبري للقول عن ابن عباس والحسن، في: تفسير الطبري (١٤/ ٤٩٩).

وأموالَهم أن لا ينفقوها إلا في سبيل الله[١]، فالآية على هذا أعم من القتل في سبيل الله، ومبايعةُ الخلفاء هي منتزعة من هذه الآية، كان الناس يعطون الخلفاء طاعتهم ونصائحهم وجِدَّهم، ويعطيهم الخلفاء عدلهم ونظرهم والقيام بأمورهم، وحدثني أبي رضي الله عنه أنه سمع الواعظ أبا الفضل بن الجوهري يقول على المنبر بمصر: ناهيك من صفقةٍ البائعُ فيها رب العلى، والثمن جنة المأوى، والواسطة محمد المصطفى ﷺ.

وقوله: ﴿يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ مقطوعٌ ومستأنف، وذلك على تأويل سفيان ابن عيينة.

وأما على تأويل الجمهور من أن الشراء والبيع إنما هو مع المجاهدين فهو في موضع الحال.

وقرأ ابن كثير ونافع وعاصم وابن عامر وأبو عمرو والحسن وقتادة وأبو رجاء وغيرهم: ﴿فَيَقْتُلُونَ﴾ على البناء للفاعل، ﴿وَيُقْتَلُونَ﴾ على البناء للمفعول.

وقرأ حمزة والكسائي والنخعي وابن وثاب وطلحة والأعمش بعكس ذلك[٢].

والمعنى واحدٌ، إذ الغرض أن المؤمنين يقاتلون فيوجد فيهم مَن يَقتل، وفيهم من يُقتل وفيهم من يجتمع له، وفيهم من لا تقع له واحدة منهما، وليس الغرض أن يجتمع ولا بد لكل واحد واحد، وإذا اعتبر هذا بان.

وقوله سبحانه: ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ مصدر مؤكِّد؛ لأن ما تقدم من الآية هو في معنى الوعد[٣]، فجاء هو مؤكِّداً لما تقدم من قوله: ﴿بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾.

وقال المفسرون: يظهر من قوله: ﴿فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ﴾ أن كل أمة أمرت بالجهاد ووعدت عليه.

---

(١) انظر قول ابن عيينة في تفسير الآية في: البحر المحيط (٥/ ٥٠٩).

(٢) وهما سبعيتان، انظر: التيسير (ص: ١٢٠)، وانظر قراءة النخعي ومن معه في تفسير الثعلبي (٥/ ٩٧).

(٣) في الأسدية: «الدعاء».

قال القاضي أبو محمد: ويحتمل أن ميعاد أمة محمد ﷺ تقدم ذكره في هذه الكتب.

وقوله: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾ استفهام على جهة التقرير، أي: لا أحد أوفى بعهده من الله، وقوله: ﴿فَٱسْتَبْشِرُواْ﴾ فعل جاء فيه استفعل بمعنى أَفْعَلَ وليس هذا من معنى طلب الشيء، كما تقول: استوقد ناراً، واستهدى مالاً، واستدعى نصرا بل هو كعجب واستعجَبَ، ثم وصف تعالى ذلك البيع بأنه الْفَوْزُ الْعَظِيمُ، أي: أنه الحصول على الحظ الأغبط من حط الذنوب ودخول الجنة بلا حساب.

قوله عز وجل: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْأَٰمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾.

هذه الأوصاف هي من صفات المؤمنين الذين ذكر الله أنه اشترى منهم أنفسهم(١)، وارتفعت هذه الصفات لما جاءت مقطوعة في ابتداء آية على معنى: هم التائبون، ومعنى الآية على ما تقتضيه أقوال العلماء والشرع: أنها أوصاف الكَمَلة من المؤمنين ذكرها الله تعالى ليستبِق إليها(٢) أهل التوحيد حتى يكونوا في أعلى رتبة، والآية الأولى مستقلة بنفسها يقع تحت تلك المبايعة كلُّ موحِّد قاتل في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا، وإن لم يتصف بهذه الصفات التي هي في هذه الآية الثانية أو بأكثرها.

وقالت فرقة: بل هذه الأوصاف جاءت على جهة الشرط، والآيتان مرتبطتان، فلا يدخل في المبايعة إلا المؤمنون الذين هم على هذه الأوصاف ويبذلون أنفسهم في سبيل الله.

وأسند الطبري في ذلك عن الضحاك بن مزاحم: أن رجلاً سأله عن قول الله عز وجل:

---

(١) المثبت من المطبوع.

(٢) تحرفت في التركية إلى: «ليستبين إليه».

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ﴾، وقال الرجل: ألا أحمل على المشركين فأقاتلَ حتى أقتل، فقال الضحاك: ويلك، أين الشرط ﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلۡعَـٰبِدُونَ﴾ الآية؟ [١].

وهذا القول تحريج وتضييق والله أعلم، والأول أصوب.

والشهادة ماحية لكل ذنب إلا لمظالم العباد، وقد روي أن الله تعالى يحمل عن الشهيد مظالم العباد ويجازيهم عنه، ختم الله لنا بالحسنى.

وقالت فرقة: إن رفع «التائبين» إنما هو على الابتداء وما بعده صفة، إلا[٢] قوله: ﴿ٱلۡأَـٰمِرُونَ﴾ فإنه خبر الابتداء، كأنه قال: هم الآمرون، وهذا حسن إلا أن معنى الآية ينفصل[٣] من معنى التي قبلها، وذلك قلق فتأمله.

وفي مصحف عبد الله بن مسعود: (التائبين العابدين) إلى آخرها[٤].

ولذلك وجهان: أحدهما: الصفة للمؤمنين على إتباع اللفظ، والآخر: النصب على المدح.

و﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ﴾: لفظ يعم الرجوع من الشر إلى الخير كان ذلك من كفر أو معصية، والرجوع من حالة إلى ما هي أحسن منها، وإن لم تكن الأولى شرّاً بل خيراً، وهكذا كانت توبة النبي ﷺ واستغفاره سبعين مرة في اليوم[٥].

والتائب هو المقلع عن الذنب، العازم على التمادي على الإقلاع، النادمُ على ما سلف.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١٤/ ٥٠٠).

(٢) في نجيبويه: «إلى».

(٣) في التركية: يتفصَّل.

(٤) وهي قراءة شاذة، انظر: تفسير الثعلبي (٥/ ٩٨)، والمحتسب (١/ ٣٠٤)، وإعراب القرآن للنحاس (٢/ ٢٣٨).

(٥) البخاري، أخرجه (٥٩٤٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً به.

والتائب عن ذنب يسمى تائباً وإن قام على غيره، إلا أن يكون من نوعه فليس بتائب، والتوبة ونقضها دائباً[١] خير من الإصرار، ومن تاب ثم نقض ووافى على النقض فإن ذنوبه الأولى تبقى عليه؛ لأن توبته منها عَلِمَ الله أنها منقوضة، ويحتمل الأمر غير ذلك، والله أعلم.

وقال الحسن في تفسير الآية: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ﴾ معناه: من الشرك[٢].

و﴿ٱلۡعَٰبِدُونَ﴾: لفظ يعم القيامَ بعبادة الله والتزام شرعه وملازمةَ ذلك والمثابرةَ عليه والدوام، والعابد هو المحسن الذي فسَّر رسول الله ﷺ في قوله: «أن تعبد الله كأنك تراه»[٣] الحديث، وبأدنى عبادة يؤديها المرء المسلم يقع عليه اسم عابد ويحصل في أدنى رتبته، وعلى قدْر زيادته في العبادة يحصل الوصف.

و﴿ٱلۡحَٰمِدُونَ﴾: معناه: الذاكرون لله بأوصافه الحسنى في كل حال وعلى السراء والضراء، وحمدُه[٤] لأنه أهل لذلك، وهو أعم من الشكر، إذ الشكر إنما هو على النعم الخاصة بالشاكر.

و﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾: معناه: الصائمون، وروي عن عائشة أنها قالت: سياحة هذه الأمة / الصيام، وأسنده الطبري[٥]، وروي أنه من كلام النبي ﷺ[٦]. [٢/ ٢٦٨]

---

(١) في التركية: «دائماً».

(٢) انظر: تفسير الطبري (١٤/ ٥٠١).

(٣) متفق عليه، أخرجه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ومسلم (٨) من حديث عمر رضي الله عنه، مرفوعاً به.

(٤) في نجيبويه: «وحده».

(٥) انظر: تفسير الطبري (١٤/ ٥٠٦).

(٦) المحفوظ مرسل، هذا الحديث أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٣/ ٢٩٣) من طريق جنيد بن حكيم الدقاق، ثنا حامد بن يحيى البلخي، ثنا سفيان بن عيينة، عن عمرو بن دينار، عن عبيد بن عمير، عن أبي هريرة رضي الله عنه، مرفوعاً به، وهذا إسناد ضعيف من أجل جنيد بن حكيم الدقاق، قال الدارقطني (رواية الحاكم ٧٣): «ليس بالقوي»، ثم إنه خولف فيه، فقد رُوي عن ابن عيينة، عن عمرو، عن عبيد ابن عمير عن النبي ﷺ مرسلاً، ذكره البيهقي في الشعب (٣/ ٢٩٣)، وقال: وهو المحفوظ.

وفي الحديث: «إن لله ملائكةً سيَّاحين مشَّائين في الآفاق يبلِّغوني صلاة أمتي عليَّ»[١]، ويروى الحديث: «صيَّاحين»[٢] بالصاد من الصياح.

والسياحة في الأرض مأخوذ من السيح، وهو الماء الجاري على الأرض إلى غير غاية.

وقال بعض الناس ـ وهو في كتاب النقاش ـ : ﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾ هم الجائلون بأفكارهم في قدرة الله وملكوته[٣]، وهذا قول حسن، وهي من أفضل العبادات.

ومن ذلك قول معاذ بن جبل: اقعد بنا نؤمنْ ساعة[٤].

ويروى أن بعض العبَّاد أخذ القدح ليتوضأ لصلاة الليل فأدخل أصبعه في أذن القدح وجعل يفكر حتى طلع الفجر، فقيل له في ذلك، فقال: أدخلت أصبعي في أذن القدح فتذكرت قول الله تعالى: ﴿إِذِ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ وَٱلسَّلَٰسِلُ﴾ [غافر: ٧١] وفكرت: كيف أتلقى الغُلَّ؟ وبقيت في ذلك ليلي أجمع[٥].

[ويروى أمر الرجل في مسجد الإقدام والشعر الذي أنشده ما ذكره][٦].

و﴿ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ﴾ هم المصلُّون الصلواتِ الخمسَ، كذا قال أهل العلم، ولكن لا يختلف في أن مَن يُكثر النوافل هو أدخلُ في الاسم وأغرق في الاتصاف.

(١) إسناده لا بأس به، هذا الحديث أخرجه الإمام أحمد (٧/ ٣٤٣)، والنسائي (٣/ ٤٣) من طريق الثوري، عن عبد الله بن السائب، عن زاذان، عن ابن مسعود رضي الله عنه، مرفوعاً، به.

(٢) لم أقف عليه بهذا اللفظ.

(٣) انظر قول النقاش في: تفسير القرطبي (٨/ ٢٧٠).

(٤) صحيح، هذا الأثر أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٣٠٣٦٥) من طريق الأعمش، عن جامع بن شداد، عن الأسود بن هلال المحاربي قال: قال لي معاذ: اجلس بنا نؤمن ساعة، وجزم به البخاري تعليقاً في أول كتاب الإيمان.

(٥) تقدم آخر سورة آل عمران.

(٦) ما بين معقوفين زيادة من نور العثمانية ونجيبويه، وقد تقدم كذلك.

وقوله: ﴿ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ هو أمر فُرض على أمة محمد ﷺ بالجملة[1]، ثم يفترق الناس فيه مع[2] التعيين:

فأما ولاة الأمر والرؤساء فهو فرض عليهم في كل حال.

وأما سائر الناس فهو فرض عليهم بشروط: منها أن لا تَلحقه مَضرةٌ، وأن يعلم أن قوله يسمع ويعمل به ونحو هذا، ثم مَن تحمَّل بعدُ في ذات الله مشقةً فهو أعظم أجراً.

وأسند الطبري عن بعض العلماء أنه قال: حيثما ذكَر الله الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهو الأمر بالإسلام والنهي عن الكفر[3].

قال القاضي أبو محمد: ولا شك أنه يتناول هذا، وهو أحرى أن يتناول ما دونه، فتعميم اللفظ أولى.

وأما هذه الواو التي في قوله: ﴿وَٱلنَّاهُونَ﴾ ولم يتقدم في واحدة من الصفات قبلُ، فقيل: معناها الربطُ بين هاتين الصفتين وهي: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إذ هما من غير قبيل الصفات الأُوَل.

قال القاضي أبو محمد: لأن الأُوَل فيما يخص المرء، وهاتان فيما بينه وبين غيره، ووجب الربط بينهما لتلازمهما وتناسبهما، وقيل: هي زائدة، وهذا قول ضعيف لا معنى له.

وقيل: هي واو الثمانية لأن هذه الصفة جاءت ثامنة في الرتبة، ومن هذا قوله في أبواب الجنة: ﴿وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ [الزمر: ٧٣]، وقوله: ﴿وَثَامِنُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ﴾ [الكهف: ٢٢]، ومن هذا قوله: ﴿ثَيِّبَٰتٖ وَأَبۡكَارٗا﴾ [التحريم: ٥].

قال القاضي أبو محمد: على أن هذه تُعترض حتى لا يلزمُ أن يكون واوَ ثمانية،

---

(١) انظر حكاية الإجماع على ذلك في: الاستذكار (٥/ ١٧)، وشرح النووي على مسلم (٢/ ٢٢).

(٢) في التركية: «على».

(٣) انظر: تفسير الطبري (١٤/ ٥٠٧).

لأنها[1] فرقت بين فصلين يعمان بمجموعهما جميع النساء، ولا يصح أن يكون: ثَـيِّباتٍ أبكَاراً، فهي فاصلةٌ ضرورةً، وواو الثمانية قد ذكرها ابن خالويه، في مناظرته لأبي علي الفارسي في معنى قوله: ﴿وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ [الزمر: ٧٣] وأنكرها أبو علي[2].

وحدثني أبي رضي الله عنه عن الأستاذ النحوي أبي عبد الله الكفيف المالقي ـ وكان ممن استوطن غرناطة وأقرأ فيها في مدة ابن حبُّوس[3] ـ أنه قال: هي لغة فصيحة لبعض العرب، من شأنهم أن يقولوا إذا عدُّوا: واحد اثنان ثلاثة أربعة خمسة ستة سبعة وثمانية تسعة عشرة، فهكذا هي لغتهم، ومتى ما جاء في كلامهم أمر ثمانية أدخلوا الواو[4].

وقوله: ﴿وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾ لفظٌ عام تحته إلزام[5] الشريعة والانتهاء عما نهى الله عنه في كل شيء وفي كل فن.

وقوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ قيل: هو لفظ عام أمر به النبي ﷺ أن يبشر أمته جميعاً بالخير من الله، وقيل: بل هذه الألفاظ خاصةٌ لمن لم يَغْزُ، أي: لمَّا تقدم في الآية وعد المجاهدين وفضلهم أُمر أن يبشر سائر الناس ممن لم يغز بأن الإيمان مخلِّص من النار، والحمد لله رب العالمين.

وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ﴾ الآية، يقتضي التأنيبَ ومنع الاستغفار للمشركين مع اليأس عن إيمانهم: إما بموافاتهم على الكفر وموتهم، ومنه قول عمر بن الخطاب

---

(١) في المطبوع: «أنها».
(٢) لم أقف على هذه المناقشات.
(٣) في الأسدية: «عبوس»، وفي التركية: «حبوش»، ولعله باديس بن حبوس صاحب غرناطة الذي أخذ مالقة من بني علي بن حمود سنة (٤٤٧هـ)، فانقضى بذلك أمر العلويين بالأندلس، انظر: الكامل في التاريخ (٧/ ٦٣٧).
(٤) انظر: تفسير القرطبي (٨/ ٢٧٢).
(٥) في الأسدية ونور العثمانية والتركية: «التزام».

في العاصي بن وائل: «لا جزاه الله خيراً»[١]، وإما بنص من الله تعالى على أحد كأبي لهب وغيره فيمتنع الاستغفار له وهو حي.

واختلف المفسرون في سبب هذه الآية، فقال الجمهور ومداره على ابن المسيب وعمرو بن دينار: «نزلت في شأن أبي طالب، وذلك أن رسول الله ﷺ دخل عليه حين احتُضر ووعظه وقال: «أي عم، قل: لا إله إلا الله، كلمة أحاجُّ لك بها عند الله تعالى»، وكان بالحضرة أبو جهل وعبد الله بن أبي[٢] أمية، فقالا له: يا أبا طالب، أترغب عن ملة عبد المطلب، فقال أبو طالب: يا محمد، والله لولا أني أخاف أن يعيَّر بها ولدي من بعدي لأقررت بها عينَك، ثم قال: أنا على ملة عبد المطلب، ومات على ذلك، إذ لم يَسمع منه النبي ﷺ ما قال للعباس، فنزلت: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦] فقال رسول الله ﷺ: «والله لأستغفرن لك ما لم أُنْهَ عنك»، فكان يستغفر له حتى نزلت هذه الآية، فترك رسول الله ﷺ الاستغفار لأبي طالب»[٣].

وروي أن المؤمنين لما رأوا رسول الله ﷺ يستغفر لأبي طالب جعلوا يستغفرون لموتاهم[٤]، فلذلك دخلوا في التأنيب والنهي.

والآية على هذا ناسخةٌ لفعل النبي ﷺ، إذ أفعاله في حكم الشرع المستقر.

---

(١) ضعيف، هذا الأثر ذكره ابن هشام في السيرة ص (٣٠٨)، قال: «وحدثني بعض أهل العلم...»، فذكره، وهذا معضل.

(٢) في الأصل والمطبوع: «بن أمية» وهو خطأ.

(٣) ضعيف، هذا الحديث أخرجه ابن إسحاق في السيرة ص (٣٦٣ ابن هشام)، بإسناد فيه من لم يسم، والحديث أصله من غير ذكر قصة العباس، ونفي سماع النبي ﷺ له، عند البخاري في صحيحه (١٢٩٤)، من حديث المسيب بن حزن رضي الله عنه، مرفوعاً به.

(٤) معضل، هذا الحديث أخرجه ابن سعد في طبقاته الكبرى (١/ ١٢٣١٢٤) من طريق عمرو بن دينار، معضلاً به.

وقال فضيل بن عطية[١] وغيره: «إن رسول الله ﷺ لما فتح مكة أتى قبر أمه فوقف عليه حتى سخنت عليه الشمس، وجعل يرغب في أن يؤذَن له في الاستغفار لها، فلم يؤذن له، فأخبر أصحابه أنه أُذن له في زيارة قبرها، ومُنع أن يستغفر لها»، فما رُئي باكياً أكثر من يومئذ، ونزلت الآية في ذلك[٢].

وقالت فرقة: «إنما[٣] نزلت بسبب قول رسول الله ﷺ في المنافقين: «والله لأزيدن على السبعين»[٤]، وقال ابن عباس[٥] وقتادة وغيرهما: إنما نزلت الآية بسبب جماعة من المؤمنين قالوا: نستغفر لموتانا كما استغفر إبراهيم ﷺ لأبيه، فنزلت الآية في ذلك[٦].

وعلى كل حال ففي ورود النهي عن الاستغفار للمشركين موضع اعتراض بقصة إبراهيم صلى الله على نبينا وعليه، فنزل رفع ذلك الاعتراض في الآية التي بعدها.

---

(١) مثله في البحر المحيط (٥/ ٥١٢) عن فضيل هكذا، ولم أجد له ذكراً، وفي أحمد٣: «فضل»، وهو الفضل ابن عطية بن عمرو بن خالد المروزي مولى بني عبس، روى عن سالم وعطاء، وعنه ابنه محمد وغيره، وثقه بن معين وأبو داود وإسحاق وأبو زرعة وابن حبان، وقال: إلا من رواية ابنه عنه لأن ابنه في الحديث ليس بشيء. وقال ابن عدي: روى عنه ابنه مناكير، والبلاء منه، تهذيب التهذيب (٨/ ٢٨١)، ولعل الصواب كما سيأتي في التخريج: فضيل عن عطية، وفضيل هذا هو فضيل بن مرزوق، أبو عبد الرحمن، الكوفي، العنزي مولاهم، الأغر، روى عن: عدي بن ثابت، وعطية العوفي، وروى عنه: أبو أسامة، ووكيع، وجماعة، وثقه ابن عيينة، وابن معين، وضعفه النسائي وغيره، وقال الهيثم بن جميل: كان من أئمة الهدى زهداً وفضلاً، توفي قبل (١٧٠هـ). تاريخ الإسلام (١٠/ ٣٩٦).

(٢) ضعيف، أخرجه الطبري (١٤/ ٥١١) عن أحمد بن إسحاق قال: حدثنا أبو أحمد قال: حدثنا فضيل عن عطية قال: لما قدم رسول الله ﷺ مكة وقف على قبر أمه، وفضيل هو ابن مرزوق كما للحافظ في الفتح (٨/ ٥٠٨) وعطية هو العوفي، وهذا مرسل على ضعفه.

(٣) في الأسدية، والتركية: إنها.

(٤) البخاري، أخرجه (١٣٠٠) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه مرفوعاً به.

(٥) هذا الأثر أخرجه الطبري (١٤/ ٥١٣) من طريق علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس به.

(٦) انظر هذه الأقوال في: تفسير الطبري (١٤/ ٥١١).

وقوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ﴾ يريد: من بعد الموت على الكفر، فحينئذ تبيَّن أنهم أصحاب الجحيم، أي: سكانها وعَمَرتها، والاستغفار للمشرك الحي جائز إذ يرجى إسلامه.

/ ومن هذا قول أبي هريرة رضي الله عنه: «رحم الله رجلاً استغفر لأبي هريرة ولأمه، قيل له: ولأبيه، قال: لا، إن أبي مات كافراً»(١). [٢/ ٢٦٩]

وقال عطاء بن أبي رباح: «الآية في النهي عن الصلاة على المشركين، والاستغفار هاهنا يراد به الصلاة»(٢).

قوله عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ ١١٤ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوۡمَۢا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰهُمۡ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ١١٥ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ١١٦﴾.

المعنى: لا حجة أيها المؤمنون في استغفار إبراهيم الخليل لأبيه، فإن ذلك لم يكن إلا عن موعدة، واختلف في ذلك فقيل: عن موعدة من إبراهيم في أن يستغفر لأبيه، وذلك قوله: ﴿سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا﴾ [مريم: ٤٧]، وقيل: عن موعدة من أبيه له في(٣) أنه سيؤمن، فكان إبراهيم قد قَوِيَ طمعه في إيمانه، فحمله على الاستغفار له حتى نهي عنه.

وقرأ طلحة: (وما يستغفر إبراهيم) وروي عنه: (وما استغفر إبراهيم)(٤).

---

(١) ضعيف، هذا الأثر أخرجه الطبري (١٤/ ٥١٧)، عن ابن وكيع، عن أبيه، عن عصمة بن زامل، عن أبيه، عن أبي هريرة رضي الله عنه، به، وهذا إسناد ضعيف، فابن وكيع، هو سفيان، متفق على تضعيفه، وكذلك عصمة بن زامل، عن أبيه، قال الدارقطني (رواية البرقاني ٧٢): هذا إسناد بدوي، يخرج اعتباراً.

(٢) انظر قول عطاء في: تفسير الطبري (١٤/ ٥١٦).

(٣) في المطبوع: «من».

(٤) وكلاهما قراءة شاذة، مخالفة للرسم، انظر: المحتسب (١/ ٣٠٥)، والكشاف (٢/ ٣١٥).

و﴿مَّوۡعِدَةٍ﴾ مفعلة من الوعد، وأما تبينه أنه عدو لله قيل: ذلك بموت آزر على الكفر، وقيل: ذلك بأنه نهي عنه وهو حي، وقال سعيد بن جبير: ذلك كله يوم القيامة[١]، وذلك أن في الحديث: «أن إبراهيم يلقاه فيعرفه ويتذكر قوله: ﴿سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓ﴾، فيقول له: الزم حقوي فلن أدعك اليوم لشيء، فيلزمه حتى يأتي إلى الصراط، فيلتفت إليه فإذا هو قد مسخ ضِبْعاناً أمذرَ[٢] فيتبرأ منه حينئذ[٣]، وربطُ أمر الاستغفار بالآخرة ضعيف.

وقوله: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ ثناء من الله تعالى على إبراهيم، و«الأواه»:

قال ابن مسعود: هو الدَّعّاء[٤].

وقيل: هو الداعي بتضرع.

وقيل: هو الموقن، قاله ابن عباس[٥].

وقيل: هو الفقيه[٦]، وقيل: هو الرحيم، قاله ابن مسعود أيضاً[٧].

وقيل: هو المؤمن التواب، وقيل: هو المسبِّح، وقيل: هو الكثير الذكر لله عز وجل.

وقيل: هو التلَّاء للقرآن.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١٤/ ٥١٨).

(٢) «أمدر» من الأسدية والمطبوع: وفي باقي النسخ: «أمذر»، وهو خطأ، والضبعان ذكر الضبع، والأمدر من الضباع: الذي في جسده لُسحٌ من سَلْحه.

(٣) مرسل، هذا الحديث أخرجه الطبري (١٤/ ٥٢١)، من طريق سعيد بن جبير، مرسلاً به.

(٤) أخرجه الطبري (١٤/ ٥٢٣)، من طريق عاصم بن بهدلة، عن زر بن حبيش، عن ابن مسعود به، وعاصم ضعيف الحديث، إنما خرج له الشيخان مقروناً أو متابعة.

(٥) أخرجه ابن جرير (٤/ ٥٢٧-٥٢٨) من طريق مسلم، عن مجاهد، عن ابن عباس به، مسلم هو ابن كيسان الضبي الملائي، ضعيف الحديث، وأخرجه الطبري (١٤/ ٥٢٨) من طريق قابوس بن أبي ظبيان، عن أبيه، عن ابن عباس به. وقابوس أيضاً ضعيف.

(٦) «وقيل هو الفقيه» ساقطة من المطبوع.

(٧) أخرجه الطبري (١٤/ ٥٢٤) من طريق سفيان، عن مسلم البطين، عن أبي العبيدين، عن ابن مسعود رضي الله عنه، به. وهذا إسناد صالح.

وقيل: هو الذي يقول من خوفه لله عز وجل أبداً: أَوَّاه، [ويكثر ذلك][١].

وروي أن أبا ذر سمع رجلاً يكثر ذلك في طوافه، فشكاه إلى رسول الله ﷺ، فقال: «دعه فإنه أوَّاه»[٢].

والتأوه: التفجُّع الذي يَكثُر حتى ينطق[٣] الإنسان معه بـ«أَوَّهْ»، ويقال: أَوْهِ، فمن الأول قول رسول الله ﷺ لبلال في بيع أو شراء أنكره عليه: «أوه، ذلك الربا بعينه»[٤] ومن الثاني قول الشاعر:

فَأَوْهِ لِذِكْرَاها إِذَا مَا ذَكَرْتُها ... ومِنْ بُعْدِ أَرْضٍ بيننا وسَمَاءِ[٥] [الطويل]

ومن هذا المعنى قول المثقِّب العبدي[٦]:

إذا ما قمتُ أَرْحَلُها بلَيْلٍ ... تَأَوَّهُ آهَةَ الرجلِ الحزينِ[٧] [الوافر]

ويروى: أَهَّة، ومن ذلك قول النبي ﷺ: «أَوَّهْ لأفراخ محمد»[٨].

و﴿حَلِيمٌ﴾ معناه: صابر محتمل عظيم العقل، والحلم: العقل.

---

(١) زيادة من الأسدية والتركية والمطبوع ونجيبويه، وانظر هذه الأقوال في تفسير الطبري (١٤/ ٥٢٣-٥٣١).

(٢) ضعيف، هذا الحديث أخرجه الطبري (١٤/ ٥٣٠) وفي إسناده من لم يُسم.

(٣) في التركية: «ينطق به».

(٤) متفق عليه، هذا الحديث أخرجه البخاري (٢١٨٨) ومسلم (١٥٩٤) من حديث أبي سعيد الخدري مرفوعاً به.

(٥) البيت في الأصول في النحو (٣/ ٣٣٠)، والمحتسب (١/ ٣٩)، والصحاح للجوهري (٦/ ٢٢٢٥)، بلا نسبة.

(٦) اسمه عائذ بن محصن بن ثعلبة بن واثلة بن عدي بن زهر بن منبه بن نكرة بن لكيز بن أفصى بن عبد القيس، وقيل: اسمه شأس بن عائذ، وقيل: نهار بن شأس، وسمي المثقب ببيت قاله، ويكنى أبا ماثلة، وهو جاهلي من شعراء البحرين. معجم الشعراء (ص: ٣٠٣)

(٧) انظر عزوه له في المفضليات (ص: ٢٨٧)، والعين (٤/ ١٠٤)، ومجاز القرآن (١/ ٢٧٠)، وإصلاح المنطق (ص: ٢٢٨).

(٨) ضعيف، هذا الحديث أخرجه الخطابي في غريب الحديث (١/ ٢٥٠) من حديث معاذ بن جبل، وفيه ابن لهيعة، وهو ضعيف.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوۡمَۢا﴾ الآية، معناه التأنيس للمؤمنين، وقيل: إن بعضهم خاف على نفسه من الاستغفار للمشركين دون أمر من الله تعالى فنزلت الآية مؤنسة، أي: ما كان الله بعد أن هدى إلى الإسلام وأنقذ من النار ليحبط ذلك ويضل أهله لمواقعتهم ذنباً لم يتقدم منه نهي عنه، فأما إذا بيَّن لهم ما يتقون من الأمور ويتجنبون من الأشياء فحينئذ مَن واقَعَ بعد النهي استوجب العقوبة، وقيل: إن هذه الآية إنما نزلت بسبب قوم من أصحاب رسول الله ﷺ كانوا غيَّباً فحولت القبلة فصلوا قبل أن يصلهم ذلك إلى بيت المقدس، وآخرين شربوا الخمر بعد تحريمها قبل أن يصل إليهم، فخافوا على أنفسهم وتكلموا في ذلك فنزلت الآية[١]، والقول الأول أصوب وأليق بالآية.

وذهب الطبري إلى أن قوله: ﴿يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾ إشارة إلى أنه يجب أيها المؤمنون ألا تجزعوا من عدو وإن كثر، ولا تهابوا أحداً، فإن الموت المَخُوف والحياة المحبوبة إنما هما بيد الله تعالى[٢].

والمعنى الذي قال صحيح في نفسه، ولكن قوله إن القصد بالآية إنما هو لهذا قول يبعد.

والظاهر في الآية إنما هو: لمَّا نصَّ في الآية المتقدمة نعمته وفضلَه على عبيده في أنه متى منَّ عليهم بهداية ففضلُه أسبغ من أن يصرفهم ويضلهم قبل أن تقع منهم معصية ومخالفةُ أمرٍ، أتبع ذلك بأوصاف فيها تمجيد الله عز وجل وتعظيمه وبعث النفوس على إدمان شكره والإقرار بعبوديته.

قوله عز وجل: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ (١١٧) وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ

(١) لم أقف عليه مسنداً.
(٢) انظر: تفسير الطبري (١٤/ ٥٣٨).

﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾.

التوبة من الله: رجوعه بعبده من حالة إلى أرفع منها، فقد تكون في الأكثر [رجوعاً من حالة المعصية إلى حالة الطاعة، وقد تكون][1] رجوعاً من حالة طاعة إلى أكمل منها، وهذه توبته في هذه الآية على النبي ﷺ؛ لأنه رجع به من حاله قبل تحصيل الغزوة وأجرها وتحمل مشقاتها إلى حاله بعد ذلك كله، وأما توبته على المهاجرين والأنصار فحالها معرَّضة لأن تكون من تقصير إلى طاعة وجِدٍّ في الغزو ونصرة الدين، وأما توبته على الفريق الذي كاد أن يزيغ فرجوع من حالة محطوطة إلى حال غفرانٍ ورضاً.

و﴿ٱتَّبَعُوهُ﴾ معناه: دخلوا في أمره وانبعاثه، ولم يرغبوا بأنفسهم عن نفسه.

وقوله: ﴿فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾، يريد: في وقت العسرة، فأنزل الساعة منزلة المدة والوقت والزمن، وإن كان عرف الساعة في اللغة أنه لمَا قلَّ من الزمن كالقطعة من النهار، ألا ترى قوله ﷺ في رواح يوم الجمعة: في الساعة الأولى، وفي الثانية، الحديث[2]، فهي هنا بتجوُّز، ويمكن أن يريد بقوله: ﴿فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾: الساعة التي وقع فيها عزمهم وانقيادهم لتحمل المشقة، إذ السفرة كلها تَبَعٌ لتلك الساعة، وبها وفيها يقع الأجر على الله، وترتبط النية، فمن اعتزم على الغزو وهو معسر فقد اتبع في ساعة العسرة، ولو اتفق أن يطرأ لهم غنًى في سائر / سفرتهم لمَا اختل كونهم متَّبِعين في ساعة عسرة. [٢/ ٢٧٠]

والْعُسْرَة: الشدة وضيق الحال والعدم، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ﴾ [البقرة: ٢٨٠]، وهذا هو جيش العسرة الذي قال رسول الله ﷺ فيه: «من جهز جيش العسرة فله الجنة»[3]، فجهزه عثمان بن عفان رضي الله عنه بألف جمل وألف دينار.

---

(١) ساقط من الأصل.

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري (٨٤١) ومسلم (٨٥٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، مرفوعاً به.

(٣) البخاري، علقه (٢٧٧٨) من طريق أبي عبد الرحمن: أن عثمان رضي الله عنه حين حوصر أشرف عليهم وقال: أنشدكم الله...، ووصله الدارقطني والبيهقي. انظر: «فتح الباري» (٥/ ٤٠٧).

وروي أن رسول الله ﷺ، قلَّب الدنانير بيده وقال: «وما على عثمان ما عمل بعد هذا»[(١)].

وجاء أيضاً رجل من الأنصار بسبع مئة وسق من تمر[(٢)].

وقال مجاهد وقتادة: إن العسرة بلغت بهم في تلك الغزوة ـ وهي غزوة تبوك ـ إلى أن قسموا التمرة بين رجلين، ثم كان النفر يأخذون التمرة الواحدة فيمضغها[(٣)] أحدهم ويشرب عليها الماء ثم يفعل كلهم بها ذلك[(٤)].

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «وأصابهم في بعضها عطش شديد حتى جعلوا ينحرون الإبل ويشربون ما في كروشها من الماء، ويعصرون الفرث، حتى استسقى لهم رسول الله ﷺ، فرفع يديه يدعو فما رجعهما حتى انسكبت سحابة

---

(١) إسناده ليس بالقائم، أخرجه بهذا اللفظ الإمام أحمد (٣٤/ ٢٣١)، والترمذي (٤٠٣٤)، والطبراني في الأوسط (٩/ ٩٤) وغيرهم من طرق عن ضمرة بن ربيعة، عن عبد الله بن شوذب، عن عبد الله بن القاسم، عن كثير مولى عبد الرحمن بن سمرة، عن عبد الرحمن بن سمرة رضي الله عنه، مرفوعاً به، قال الترمذي: «حديث حسن غريب من هذا الوجه»، وقال الطبراني: «لم يروِ هذا الحديث عن ابن شوذب إلا ضمرة، ولا يروى عن عبد الرحمن بن سمرة إلا بهذا الإسناد»، وضمرة له مناكير، وعبد الله بن القاسم مختلف في تعيينه، وكثير لم يوثق توثيقاً معتبراً، وأخرجه الترمذي قبله والطبراني في الأوسط (٦/ ٩٧) وغيرهما بغير قصة الدنانير من حديث: السكن بن المغيرة ويكنى أبا محمد مولى لآل عثمان، حدثنا الوليد بن أبي هشام، عن فرقد أبي طلحة، عن عبد الرحمن بن خباب به مرفوعاً. وقال الترمذي: هذا حديث غريب من هذا الوجه لا نعرفه إلا من حديث السكن ابن المغيرة. ونحوه قال الطبراني. وأيضاً فرقد أبو طلحة مجهول.

(٢) ضعيف، هذا الحديث أخرجه ابن عساكر في تاريخه (٢/ ٢٨)، من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، مرفوعاً به، وفي إسناده عثمان بن عطاء بن أبي مسلم الخراساني، عن أبيه، وكلاهما ضعيفان، تنبيه: الحديث جاء فيه أن الأنصاري، وهو عاصم الأنصاري، تصدق بتسعين وسقاً، وليس كما أورده المصنف هاهنا: سبع مئة وسق.

(٣) في الأسدية والتركية ونور العثمانية: «فيمصها».

(٤) انظر قول مجاهد وقتادة في: تفسير الطبري (١٤/ ٥٤٠-٥٤١).

فشربوا وادخروا ثم ارتحلوا، فإذا السحابة لم تخرج عن العسكر، وحينئذ قال رجل من المنافقين: وهل هذه إلا سحابة مرت»[١].

وكانت الغزوة في شدة الحر، وكان الناس كثيراً، فقلَّ الظَّهر، فجاءتهم العسرة من جهات، ووصل رسول الله ﷺ إلى أوائل بلد العدو فصالحه أهل أذرح[٢] وأيلة وغيرهما على الجزية ونحوها، وانصرف[٣].

وأما الزيغ الذي كادت قلوب فريق منهم أن تواقعه فقيل: همت فرقة بالانصراف لمَا لقوا من المشقة والعسرة، قاله الحسن[٤].

وقيل: زيغها إنما كان بظنون لها ساءت في معنى عزم رسول الله ﷺ على تلك الغزوة لمَا رأته من شدة العسرة، وقلة الوفر، وبُعد الشُّقة، وقوة العدو المقصود.

وقرأ جمهور السبعة وأبو بكر عن عاصم: ﴿تَزيغ﴾ بالتاء من فوق على لفظ القلوب، وروي عن أبي عمرو أنه كان يدغم الدال في التاء، وقرأ حمزة وحفص عن عاصم والأعمش والجحدري: ﴿يَزِيغُ﴾ بالياء[٥] على معنى جمع القلوب.

---

(١) هذا الحديث أخرجه ابن إسحاق في السيرة ص (١٠٢٨)، من طريق محمود بن لبيد، عن رجال من بني عبد الأشهل، به.

(٢) في المطبوع: «أذرج» بالذال، وفي أحمد٣: «أحرح»، وفي أكثر النسخ الخطية: «أدرج»، وفي معجم البلدان (١/ ١٢٩): أذرح: اسم بلد في أطراف الشام من أعمال الشراة، ثم من نواحي البلقاء وعمَّان مجاورة لأرض الحجاز.

(٣) معضل، هذا الحديث أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٥/ ٢٨٠)، من طريق موسى بن عقبة، معضلاً به.

(٤) نقله عنه في البحر المحيط (٥/ ٥١٨).

(٥) فهما سبعيتان، انظر: التيسير (ص: ١٢٠)، وموافقة الأعمش في إتحاف فضلاء البشر (ص: ٣٠٨) والجحدري في تفسير الثعلبي (٥/ ١٠٥)، وانظر إدغام أبي عمرو للكبير على قاعدته في التيسير (ص: ٢٥).

وقرأ ابن مسعود: (من بعد ما زاغت قلوب فريق)، وقرأ أبي بن كعب: (من بعد ما كادت تزيغ)[1].

وأما ﴿كَادَ﴾ فيحتمل أن يرتفع بها ثلاثة أشياء:

أولها وأقواها: القصة والشأن، هذا مذهب سيبويه، وترتفع القلوب على هذا بـ﴿تزيغ﴾.

والثاني: أن يرتفع بها ما يقتضيه ذكر المهاجرين والأنصار أولاً، ويقدر ذلك: القوم، فكأنه قال: من بعد ما كاد القوم تزيغ قلوب فريق منهم.

والثالث: أن يرتفع بها القلوب، ويكون في قوله: ﴿تزيغ﴾ ضمير القلوب، وجاز ذلك تشبيهاً بـ﴿كَانَ﴾ في قوله: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧] وأيضاً فلأن هذا التقديمَ للخبر يراد به التأخير، وشبِّهت ﴿كَادَ﴾ بـ﴿كَانَ﴾ للُزوم الخبر لها، قال أبو علي: ولا يجوز ذلك في عسى[2].

ثم أخبر عز وجل أنه تاب أيضاً على هذا الفريق وراجع به، وآنس بإعلامه للأمة بأنه رَؤُوفٌ رَحِيمٌ، والثلاثة هم كعب بن مالك وهلال بن أمية الواقفي ومُرارة ابن الربيع العامري، ويقال: ابن ربيعة، ويقال: ابن ربعي، وقد خرَّج حديثهم بكماله البخاري ومسلم[3]وهو في السِّير[4]، فلذلك اختصرنا سَوقه، وهم الذين تقدم فيهم: ﴿ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ﴾ [التوبة: ١٠٦].

ومعنى ﴿خُلِّفُوا۟﴾: أخروا وتُرك أمرهم ولم تقبل منهم معذرة ولا ردت عليهم، فكأنهم خلفوا عن المعتذرين، وقيل: معنى ﴿خُلِّفُوا۟﴾: أي عن غزوة تبوك، قاله قتادة[5]،

---

(١) وهما شاذتان، انظر الأولى في كتاب المصاحف (ص: ١٧٧)، والثانية في البحر المحيط (٥/ ٥١٩).

(٢) انظره مع جميع ما ذكر من أحوال كاد في الحجة للفارسي (٤/ ٢٣٥).

(٣) البخاري (٤١٥٦) ومسلم (٢٧٦٩) من حديث كعب بن مالك رضي الله عنه.

(٤) انظر سيرة ابن هشام (٥/ ٢١٣).

(٥) تفسير الطبري (١٤/ ٥٤٦).

وهذا ضعيف وقد رده كعب بن مالك بنفسه وقال: «معنى خُلِّفُوا تركوا عن قبول العذر وليس بتخلفنا عن الغزو»[١]، ويقوي ذلك من اللفظة[٢] جعلُه ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ﴾ غايةً للتخليف ولم يكن ذلك عن تخليفهم عن الغزو، وإنما ضاقت عليهم الأرض عن تخليفهم عن قبول العذر.

وقرأ الجمهور: ﴿خُلِّفُواْ﴾ بضم الخاء وشد اللام المكسورة.

وقرأ عكرمة بن هارون المخزومي[٣] وزر بن حبيش وعمرو بن عبيد وأبو عمرو أيضا: (خَلَفوا) بفتح الخاء واللام غير مشددة[٤].

وقرأ أبو مالك: (خُلِفوا) بضم الخاء وتخفيف اللام المكسورة[٥].

وقرأ أبو جعفر محمد بن علي وعلي بن الحسين وجعفر بن محمد وأبو عبد الرحمن: (خالفوا) والمعنى قريب من التي قبلها[٦]، وقال أبو جعفر: ولو خلَّفوا لم يكن لهم ذنب[٧].

وقرأ الأعمش: (وعلى الثلاثة المخلفين)[٨].

---

(١) في الحديث المشار له سابقاً، وانظر هذه اللفظة في البخاري (٤١٥٦)، ومسلم (٢٧٦٩).

(٢) «من اللفظة» ساقطة من المطبوع.

(٣) كذا في جميع النسخ، وتابعه في البحر المحيط (٥/ ٥١٩)، وتابعيه، والصواب: عكرمة بن خالد بن العاص، أبو خالد المخزومي المكي، كما في مختصر الشواذ (ص: ٦٠)، ومعاني القرآن للنحاس (٣/ ٢٦٥)، وهو تابعي ثقة جليل حجة، روى القراءة عرضاً عن أصحاب ابن عباس ولا يبعد أن يكون عرض عليه فقد روى عنه كثيراً، توفي سنة (١١٥هـ). غاية النهاية (١/ ٥١٥).

(٤) وهي قراءة شاذة، انظر عزوها لهم في المحتسب (١/ ٣٠٥)، ومختصر الشواذ (ص: ٦٠)، وفي نجيبويه: «وزيد»، بدل «زر».

(٥) وهي شاذة، تابعه في البحر المحيط (٥/ ٥١٩)، وفي معاني القرآن للنحاس (٣/ ٢٦٤): كان أبو مالك يقول: خلفوا عن التوبة.

(٦) وهي شاذة، انظر عزوها للأربعة في المحتسب (١/ ٣٠٥).

(٧) نقله عنه في البحر المحيط (٥/ ٥١٩).

(٨) وهي شاذة مخالفة للرسم، انظر عزوها له في تفسير الثعلبي (٥/ ١٠٥)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٣١٨).

وقوله: ﴿بِمَا رَحُبَتْ﴾ معناه: بِرُحْبها، كأنه قال: على ما هي في نفسها رحبة، فـ(ما) مصدرية، ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ﴾ استعارة لأن الغم والهم ملأها، وَ(ظَنُّوا) في هذه الآية بمعنى: أيقنوا وحصل علم لهم[١].

وقوله: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾ لما كان هذا القول في تعديد نعمه بدأ في ترتيبه بالجهة التي هي عن الله عز وجل ليكون ذلك منبهاً على تلقِّي النعمة من عنده لا رب غيره، ولو كان القول في تعديد ذنب لكان الابتداء بالجهة[٢] التي هي عن المذنب[٣] كما قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥] ليكون هذا أشدَّ تقريراً للذنب عليهم، وهذا من فصاحة القرآن وبديع نظمه ومعجز اتساقه.

وبيان هذه الآية ومواقع ألفاظها إنما يكمل مع مطالعة حديث الثلاثة الذين خلِّفوا في الكتب التي ذكرنا، وإنما عظُم ذنبهم واستحقوا عليه ذلك لأن الشرع يطلبهم[٤] من الجد فيه بحسب منازلهم منه وتقدمهم فيه إذ هم أسوة وحجة للمنافقين والطاعنين[٥]، إذ كان كعب من أهل العقبة وصاحباه من أهل بدر.

وفي هذا ما يقتضي أن الرجل العالم والمقتدى به أقلُّ عذراً في السقوط من سواه، وكتب الأوزاعي رحمه الله إلى المنصور أبي جعفر في آخر رسالة: «واعلم أن قرابتك من رسول الله ﷺ لن تزيد حق الله عليك إلا عظماً، ولا طاعته إلا وجوباً، ولا الناسَ فيما خالف ذلك منك إلا إنكاراً، والسلام»[٦]، ولقد أحسن القاضي التنوخي في قوله:

[الكامل] .... وَالْعَيْبُ يَعْلَقُ بالكبير كبير[٧]

---

(١) في أحمد٣ والمطبوع: «علما لهم»، بالنصب.

(٢) في نجيبويه: «بالجملة».

(٣) في الأسدية: «الموت»، وفي نجيبويه وأحمد٣: «الذنب».

(٤) في المطبوع: «يطالبهم».

(٥) في التركية: «الطاغين».

(٦) انظر رسالة الأوزاعي في: تاريخ ابن عساكر (٣٥/ ٢١٣)، وسير أعلام النبلاء (٧/ ١٢٥).

(٧) صدره: لولا الحياء وأنني مشهور، انظر عزوه له البحر في المحيط (٥/ ٥٢١)، ونسبه في زهر =

وفي بعض طرق حديث الثلاثة: أن رسول الله ﷺ كان ليلة نزول توبتهم في بيت أم سلمة، وكانت لهم صالحةً، فقال لها رسول الله ﷺ: «يا أمَّ سلمة: تيب على كعب بن مالك وصاحبيه»، فقالت: يا رسول الله، ألا أبعث إليهم؟ فقال: «إذاً يَحطمكم الناس سائر الليلة فيمنعوكم النوم»[١].

وقوله تعالى / : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، هذا [٢/ ٢٧١] الأمر بالكون مع أهل الصدق حسن بعد قصة الثلاثة حين نفعهم الصدق، وذهب بهم عن منازل المنافقين، فجاء هذا الأمر اعتراضاً في أثناء الكلام إذ عنَّ في القصة ما يجب التنبيه على امتثاله، وقال ابن جريج وغيره: الصدق في هذه الآية هو صدق الحديث[٢]، وقال نافع والضحاك ما معناه: أن اللفظ أعم من صدق الحديث[٣]، وهو بمعنى الصحة في الدين والتمكن في الخير، كما تقول العرب: عُود صدقٍ، ورجل صدق، وقالت هذه الفرقة: كونوا مع محمد وأبي بكر وعمر وأخيار المهاجرين الذين صدَقوا الله في الإسلام، و﴿مَعَ﴾ في هذه الآية تقتضي الصحبة في الحال والمشاركة في الوصف المقتضي للمدح.

وقرأ ابن مسعود وابن عباس: و(كونوا من الصادقين)[٤]، ورويت عن النبي ﷺ[٥].

وكان ابن مسعود رضي الله عنه يتأوله في صدق الحديث، وروي عنه أنه قال:

= الآداب وثمر الألباب (٣/ ٨٨٣) للفقيه منصور بن إسماعيل بن عيسى بن عمر التيمي، قال: على أنّ أكثر الناس يرويه لإبراهيم بن المهدي، وهو الصحيح.

(١) البخاري، أخرجه (٤٤٠٠) من حديث كعب بن مالك رضي الله عنه، مرفوعاً به.

(٢) انظر قول ابن جريج في: النكت والعيون (٢/ ٤١٤).

(٣) انظر قول نافع والضحاك في: تفسير الطبري (١٤/ ٥٥٨).

(٤) وهي شاذة، انظر عزوها لابن مسعود في تفسير الطبري (١٤/ ٥٥٩)، ولابن عباس في البحر المحيط (٥/ ٥٢٢).

(٥) لم أجده.

«الكذب لا يصلح منه جدٌّ ولا هزل، اقرؤوا إن شئتم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾»[١].

قوله عز وجل: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾﴾.

هذه معاتبة للمؤمنين من أهل يثرب وقبائل العرب المجاورة لها على التخلف عن رسول الله ﷺ في غزوه، وقوة الكلام تعطي الأمر بصحبته أنَّى توجَّهَ[٢] غازياً، وبذلَ النفوس دونه.

واختلف المتأولون فقال قتادة: كان هذا الإلزام خاصّاً مع النبي ﷺ ووجوب النفر إلى الغزو إذا خرج هو بنفسه، ولم يبق هذا الحكم مع غيره من الخلفاء[٣].

وقال زيد بن أسلم: كان هذا الأمر والإلزام في قلة الإسلام والاحتياج إلى اتصال الأيدي، ثم نسخ عند قوة الإسلام بقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً﴾[٤].

قال القاضي أبو محمد: وهذا كله في الانبعاث إلى غزو العدو على الدخول في الإسلام، وأما إذا ألَمَّ العدو بجهة فمتعيِّن على كل أحد القيامُ بذبه ومكافحته[٥].

وأما قوله تعالى: ﴿وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ﴾ فمعناه: أن لا يتحمل رسول الله ﷺ في الله

---

(١) فيه انقطاع، هذا الأثر أخرجه الطبري (١٤/ ٥٥٩-٥٦٠)، من طريق أبي عبيدة بن عبد الله بن مسعود، عن أبيه رضي الله عنه، به. وأبو عبيدة لم يسمع من أبيه على الراجح، انظر: جامع التحصيل (٣٢٤).

(٢) في المطبوع: «إلى توجُّهه».

(٣) انظر قول قتادة في تفسير الطبري (١٤/ ٥٦٢).

(٤) انظر قول زيد بن أسلم في: تفسير ابن أبي حاتم (٦/ ١٩٠٧).

(٥) انظر حكاية الإجماع على ذلك في: الإقناع (٣/ ١٠١٥).

مشقة ويجودَ بنفسه في سبيل الله فيقعَ منهم شح على أنفسهم ويكعُّون[١] عما دخل هو فيه.

ثم ذكر تعالى لِم لَم يكن لهم التخلف عن رسول الله ﷺ، بقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ﴾ الآية.

والنصَب: التعب، ومنه قول النابغة:

كِلِينِي لِهَمٍّ يا أُمَيْمَةَ نَاصِبِ[٢] .... [الطويل]

أي: ذي نَصَبٍ، ومنه قوله تعالى: ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ [الكهف: ٦٢].

والمخمصة مفعلة من خموص[٣] البطن وهي ضموره، واستعير ذلك لحالة الجوع إذ الخموص ملازم له، ومن ذلك قول الأعشى:

تَبِيتُونَ فِي المَشْتَى مِلاءً بُطُونُكُمْ وَجَارَاتُكُمْ غَرْثَى يَبِتْنَ خَمَائِصَا[٤] [الطويل]

ومنه أخمص القدم، والخمصانة من النساء.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا﴾ أي: ولا ينتهون من الأرض منتهًى مؤذياً للكفار، وذلك هو الغائظ[٥]، ومنه في «المدونة»: «كنا لا نتوضأ من موطئ» من قول ابن مسعود[٦].

---

(١) في الأسدية ونجيبويه: «يكفون».

(٢) تمامه: وليل أقاسيه بطيء الكواكب، انظر عزوه له في مجاز القرآن (٢/ ١٨٤)، والعين (١/ ١٣٧)، والكتاب لسيبويه (٢/ ٢٠٧).

(٣) في المطبوع: «خمص».

(٤) تقدم في تفسير الآية (٣) من سورة المائدة.

(٥) في المطبوع: الغائط.

(٦) المدونة (١/ ١٢٧)، والأثر منقطع، أخرجه أبو داود (٢٠٤)، وابن ماجه (١٠٤١) وابن خزيمة (٣٧) من طريق أبي معاوية، وشريك، وجرير، وعبد الله بن إدريس، وسفيان - مفرقين ـ عن الأعمش، عن شقيق أبي وائل، عن ابن مسعود به، قال أبو داود: قال إبراهيم بن أبي معاوية فيه: عن الأعمش، عن شقيق، عن مسروق، أو حدثه عنه. قال: قال عبد الله. وقال هناد: عن شقيق، أو حدثه عنه، وفي رواية أبي معاوية عند ابن خزيمة: حدثنا الأعمش قال: حدثني شقيق أو حدثت عنه، عن عبد الله، قال ابن خزيمة: وهذا الخبر له علة: لم يسمعه الأعمش عن شقيق.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا﴾ لفظ عام لقليلِ ما يصنعه المؤمنون بالكفرة من أخذِ مال أو إيرادِ هوان وكثيرِه، والنيل مصدر نال ينال وليس من قولهم: نُلت أنوله نولاً ونوالاً، وقيل: هو منه، وبدلت الواو ياء لخفتها هنا وهذا ضعيف، والطبري قد ذكر نحوه وضعفه وقال: ليس ذلك المعروفَ من كلام العرب(١).

وقوله: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ﴾ الآية، قدم الصغيرة للاهتمام، أي: إذا كتبت الصغيرة فالكبيرة أحرى، والوادي: ما بين جبلين كان فيه ماءٌ أو لم يكن، وجمعه أودية، وليس في كلام العرب فاعل وأفعلة إلا في هذا الحرف وحده، وفي الحديث: «ما ازداد قوم من أهليهم في سبيل الله بعدا إلا ازدادوا من الله قرباً»(٢).

قوله عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾﴾.

قالت فرقة: سبب هذه الآية أن المؤمنين الذين كانوا بالبادية سكاناً ومبعوثين لتعليم الشرع لما سمعوا قول الله عز وجل: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ أهمهم ذلك، فنفروا إلى المدينة إلى رسول الله ﷺ خشيةَ أن يكونوا مذنبين في التخلف عن الغزو، فنزلت هذه الآية في نفرهم ذلك.

وقالت فرقة: سبب هذه الآية أن المنافقين لما نزلت الآيات في المتخلفين(٣) قالوا: هلك أهل البوادي، فنزلت هذه الآية مقيمةً لعذر أهل البوادي(٤)، فيجيء قوله

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١٤/ ٥٦٤).

(٢) هذا الأثر ورد من قول قتادة، ولم أقف عليه مرفوعاً، انظر تفسيري ابن جرير (١٤/ ٥٦٥) وابن أبي حاتم (١٠١١٣).

(٣) في الأسدية: «المنافقين».

(٤) مرسل، هذا الحديث أخرجه الطبري (١٤/ ٥٧٠) من طريق عكرمة، مرسلاً به.

تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم﴾ عموم في اللفظ والمراد به في المعنى الجمهور والأكثر، وتجيء هذه الآية مبينة لذلك مطردة الألفاظ متصلة المعنى من قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ﴾ إلى قوله: ﴿يَحْذَرُونَ﴾ بيّن في آخر الآية العموم الذي في أولها إذ هو معرَّض أن يُتأول فيه ألا يتخلف بشر.

والتفقه هو من النافرين، والإنذار هو منهم، والضمير في ﴿رَجَعُوا﴾ لهم أيضاً.

وقالت فرقة: هذه الآية ليست في معنى الغزو، وإنما سببها أن قبائل من العرب لما دعا رسول الله ﷺ على مضر بالسنين أصابتهم مجاعة وشدة، فنفروا إلى المدينة لمعنى المعاش، فكادوا أن يفسدوها، وكان أكثرهم غير صحيح الإيمان وإنما أضرعه الجوع، فنزلت الآية في ذلك، فقال: وما كان مَنْ صفتُه الإيمان لينفر مثل هذا النفر[1]، أي: ليس هؤلاء المؤمنين[2]/ . [٢/ ٢٧٢]

وقال ابن عباس ما معناه: إن هذه الآية مختصة بالبعوث والسرايا، والآية المتقدمة ثابتة الحكم مع خروج رسول الله ﷺ في الغزو، وهذه ثابتة الحكم مع تخلفه، أي: يجب إذا تخلف ألا ينفر الناس كافة فيبقى هو منفرداً، وإنما ينبغي أن تنفر طائفة وتبقى طائفة لتتفقه هذه الباقية في الدين، وينذروا النافرين إذا رجع النافرون إليهم[3].

وقالت فرقة: هذه الآية ناسخة لكل ما ورد من إلزام الكافة النفير والقتال.

والضمير في قوله: ﴿لِيَتَفَقَّهُوا﴾ عائد أيضاً على هذا التأويل على الطائفة المتخلفة مع النبي ﷺ، وهو على القول الأول في ترتيبنا هذا عائد على الطائفة النافرة، وكذلك يترتب عوده مع بعض الأقوال على هذه ومع بعضها على هذه.

والجمهور على أن التفقه إنما هو بمشاهدة رسول الله ﷺ وصحبته.

---

(١) في الأسدية والتركية ونجيبويه: «النفير».

(٢) انظر الأقوال الثلاثة المذكورة في سبب نزول الآية والقول المنسوب لابن عباس في: تفسير الطبري (١٤/ ٥٦٦-٥٧٠).

(٣) هذا الأثر أخرجه الطبري (١٤/ ٥٦٩) من طريق: عطية العوفي، عن ابن عباس رضي الله عنهما به.

وقالت فرقة: يشبه أن يكون التفقه في الغزو في السرايا لما يرون من نصرة الله لدينه، وإظهاره العدد القليل من المؤمنين على الكثير من الكافرين، وعلمِهم بذلك صحة دين الإسلام ومكانته من الله تعالى، ورجحه الطبري وقوّاه[١]، والآخر أيضاً قوي.

والضمير في قوله: ﴿وَلِيُنذِرُواْ﴾ عائد على المتفقهين بحسب الخلاف، والإنذار عامٌّ للكفر والمعاصي والحذر منها أيضاً كذلك.

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ﴾ الآية، قيل: هذه الآية نزلت قبل الأمر بقتال الكفار كافة فهي من التدريج الذي كان في أول الإسلام، وهذا قول يضعفه أن هذه الآية من آخر ما نزل.

وقالت فرقة: إنما كان رسول الله ﷺ ربما تجاوز قوماً من الكفار غازياً لقوم آخرين أبعد منهم، فأمر الله تعالى بغزو الأدنى فالأدنى إلى المدينة[٢]، وقالت فرقة: الآية مبينة صورة القتال كافة وهي مترتبة مع الأمر بقتال الكفار كافة، ومعناها: أن الله تبارك وتعالى أمر فيها المؤمنين أن يقاتل كل فريق منهم الجنس الذي يصاقبه[٣] من الكفرة، وهذا هو القتال لكلمة الله وردّ الناس إلى الإسلام، وأما إذا مال العدو إلى صقع من أصقاع المسلمين ففرضٌ على من اتصل به من المسلمين كفاية عدو ذلك الصقع وإن بعدت الدار ونأت البلاد، وقال قائلو هذه المقالة: نزلت الآية مشيرة إلى قتال الروم بالشام؛ لأنهم كانوا يومئذ العدو الذي يلي ويقرُب، إذ كانت العرب قد عمها الإسلام وكانت العراق بعيدة، ثم لما اتسع نطاق الإسلام توجه الفرض في قتال الفرس والديلم وغيرهما من الأمم، وسأل ابنَ عمر رجلٌ عن قتال الديلم فقال: عليك بالروم[٤].

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١٤/ ٥٧١).

(٢) لم أجد هذا القول بهذا السياق.

(٣) أي: يجاوره، وفي التركية: «يعاقبه».

(٤) أخرجه الطبري (١٤/ ٥٧٥) وفي إسناده من لم يُسم.

وقال الحسن: هم الروم والديلم، يعني في زمنه ذلك، وقاله علي بن الحسين.

وقال ابن زيد: المراد بهذه الآية وقت نزولها العرب، فلما فرغ منهم نزلت في الروم وغيرهم: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩][١].

وقرأ جمهور الناس: ﴿غِلْظَةً﴾ بكسر الغين.

وقرأ المفضل عن عاصم والأعمش: (غَلظة) بفتحها[٢].

وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي وأبان بن تغلب وابن أبي عبلة: (غُلظة) بضمها، وهي قراءة أبي حيوة، ورواها المفضل عن عاصم أيضا[٣].

قال أبو حاتم: رويت الوجوه الثلاثة عن أبي عمرو[٤]، وفي هاتين القراءتين شذوذ، وهي لغات[٥].

ومعنى الكلام: وليجدوا فيكم خشونة وبأساً، وذلك مقصود به القتال، ومنه العَذاب الغَلِيظ، و﴿غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ﴾، و﴿غِلَاظٌ شِدَادٌ﴾[٦] في صفة الزبانية، و«غلظت علينا كدية في حفر الخندق»[٧] إلى غير ذلك.

---

(١) انظر الأقوال الثلاثة في: تفسير الطبري (١٤/ ٥٧٤-٥٧٦).

(٢) وهي قراءة شاذة، انظرها في إعراب القرآن للنحاس (٢/ ١٣٨)، مختصر الشواذ (ص: ٦٠).

(٣) وهي قراءة شاذة، انظر عزوها لأبان في مختصر الشواذ (ص: ٦٠)، وإعراب القرآن للنحاس (٢/ ١٣٨)، وللسلمي في الشواذ للكرماني (ص: ٢٢٣)، وللأربعة في البحر المحيط (٥/ ٥٢٨).

(٤) انظر الوجوه الثلاثة لأبي عمرو في البحر المحيط (٥/ ٥٢٨)، دون ذكر لأبي حاتم.

(٥) قال الفراء: لغة أهل الحجاز وبني أسد «غلظة» بكسر الغين، ولغة تميم «غلظة» بضم الغين. إعراب القرآن للنحاس (٢/ ١٣٨).

(٦) الأولى في آل عمران: (١٢٩)، والثانية في التحريم (٦)، والعذاب الغليظ في إبراهيم: (١٧)، ولقمان: (٢٤)، وفصلت: (٥٠)، وهود: (٥٨).

(٧) البخاري، أخرجه (٣٨٧٦) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، مرفوعاً به.

ثم وعد تعالى في آخر الآية وحض على التقوى التي هي ملاك الدين والدنيا وبها يلقى العدو، وقد قال بعض الصحابة: «إنما تقاتلون الناس بأعمالكم»[١]، وأهلها هم المجدُّون في طرق الحق، فوعد تعالى أنه مع أهل التقوى ومن كان الله معه فلن يُغلب.

قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ١٢٤ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ١٢٥ أَوَلَا يَرَوۡنَ أَنَّهُمۡ يُفۡتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٖ مَّرَّةً أَوۡ مَرَّتَيۡنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمۡ يَذَّكَّرُونَ ١٢٦﴾.

هذه الآية نزلت في شأن المنافقين، والضمير في قوله: ﴿فَمِنۡهُم﴾ عائد على المنافقين.

وقوله تعالى: ﴿أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗا﴾ يحتمل أن يكون لمنافقين مثلهم، ويحتمل أن يكون لقوم من قراباتهم من المؤمنين يستنيمون إليهم ويثقون بسترهم عليهم ويطمعون في ردهم إلى النفاق، ومعنى ﴿أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗا﴾ الاستخفاف والتحقير لشأن السورة كما تقول أي غريب في هذا أو أي دليل، ثم ابتدأ عز وجل الرد عليهم والحكم بما يهدم لبسهم فأخبر أن المؤمنين الموقنين[٢] قد زادتهم إيماناً وأنهم يَسْتَبْشِرُونَ من ألفاظها ومعانيها برحمة الله ورضوانه.

والزيادة في الإيمان موضع تخبط للناس وتطويل، وتلخيص القول فيه أن الإيمان الذي هو نفس التصديق ليس مما يقبل الزيادة والنقص في نفسه، وإنما تقع الزيادة في المصدق به، فإذا نزلت سورة من الله تعالى، حدث للمؤمنين بها تصديق خاص لم يكن

---

(١) في صحة إسناده نظر، هذا الأثر أخرجه ابن المبارك في كتاب الجهاد (٥)، من طريق سعيد بن عبد العزيز، عن ربيعة بن يزيد، أو ابن حلبس، عن أبي الدرداء رضي الله عنه به، قلت: فإن كان من طريق ربيعة، فهو منقطع، نص عليه ابن حجر في الفتح (٦/ ٣٠)، وإن كان من طريق ابن حلبس، وهو يونس بن ميسرة بن حلبس، فلم أجد من نص على روايته عن أبي الدرداء، وإنما عن أم الدرداء.

(٢) الموقنين ساقطة من المطبوع وأحمد٣.

قبل [فزاد ذلك فيما صدقوا به من قبل][١]، فتصديقهم بما تضمنته السورة من إخبار وأمر ونهي أمر زائد على الذي كان عندهم قبل، فهذا وجه من زيادة الإيمان.

ووجه آخر أن السورة ربما تضمنت دليلاً أو تنبيهاً عليه فيكون المؤمن قد عرف الله بعدة أدلة، فإذا نزلت السورة زادت في أدلته، وهذه أيضا جهة أخرى من الزيادة، وكلها خارجة عن نفس التصديق إذا حصل تاماً، فإنه ليس يبقى فيه موضع زيادة.

ووجه آخر من وجوه الزيادة أن الرجل ربما عارضه شك يسير أو لاحت له شبهة مشغبة فإذا نزلت السورة ارتفعت تلك الشبهة واستراح منها، / فهذا أيضاً زيادة في [٢/ ٢٧٣] الإيمان إذ يرتقي اعتقاده عن مرتبة معارضة تلك الشبهة إلى الخلوص منها.

وأما على قول من يسمي الطاعات إيماناً وذلك مجاز عند أهل السنة[٢] فتترتب الزيادة بالسورة إذ تتضمن أوامر ونواهي وأحكاماً، وهذا حكم من يتعلم العلم في معنى زيادة الإيمان ونقصانه إلى يوم القيامة، فإن تعلم الإنسان العلم بمنزلة نزول سورة القرآن.

و﴿ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ هم المنافقون، وهذا تشبيه، وذلك أن السالم المعتقَدِ المنشرح الصدر بالإيمان يشبهه الصحيح، والفاسد المعتقد يشبهه المريض، ففي العبارة مجاز فصيح لأن المرض والصحة إنما هي خاصة في الأعضاء، فهي في المعتقدات مجاز.

والرجس في هذه الآية عبارة عن حالهم التي جمعت معنى الرجس في اللغة، وذلك أن الرجس في اللغة يجيء بمعنى القذر ويجيء بمعنى العذاب، وحال هؤلاء المنافقين هي قذر وهي عذاب عاجل كفيل بآجل، وزيادة الرجس إلى الرجس هي عمههم[٣] في الكفر وخبطهم في الضلال، يعاقبهم الله على الكفر والإعراض بالختم

(١) ما بين معقوفين زيادة من نجيبويه، وكذا نور العثمانية، إلا أن فيها: فزاد ذلك فيما... إلخ.
(٢) الصحيح أن الأعمال جزء من مسمى الإيمان حقيقة انظر «الإيمان» الأبي عبيد (ص١٠).
(٣) في الأسدية: «عمهم»، وفي التركية ونجيبويه: «غمهم».

على قلوبهم والحتم[١] بالنار عليهم، وإذ[٢] كفروا بسورة فقد زاد كفرهم فذلك زيادة رجس إلى رجسهم.

وقوله: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ﴾ الآية، قرأ الجمهور: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ﴾ بالياء على معنى: أولا يرى المنافقون، وقرأ حمزة وحده: ﴿أولا ترون﴾ بالتاء[٣] على معنى: أولا ترون أيها المؤمنون، فهذا تنبيه للمؤمنين.

وقرأ ابن مسعود وأبي بن كعب والأعمش: (أولا ترى)[٤] أي: أنت يا محمد.

وروي عن الأعمش أيضا أنه قرأ: (أولم تروا)[٥]، وذكر عنه أبو حاتم: (أولم يروا)[٦].

وقال مجاهد: ﴿يُفْتَنُونَ﴾ معناه: يُختبرون بالسَّنة والجوع، وحكى عنه النقاش أنه قال[٧]: مرضة أو مرضتين، وقال الحسن بن أبي الحسن وقتادة: معناه: يختبرون بالأمر بالجهاد[٨]، والذي يظهر مما قبل الآية ومما بعدها أن الفتنة والاختبار إنما هي بكشف الله تعالى أسرارَهم وإفشائه عقائدهم، فهذا هو الاختبار الذي تقوم عليه الحجة برؤيته وترك التوبة، وأما الجهاد أو الجوع فلا يترقب[٩] معهما ما ذكرناه، فمعنى الآية على هذا: أفلا[١٠] يزدجر هؤلاء الذين تفضح سرائرهم كل سنة مرة أو مرتين

---

(١) في نجيبويه: «الختم».

(٢) في الأسدية والتركية وأحمد٣ ونجيبويه: «إذا».

(٣) وهما سبعيتان. انظر: التيسير (ص: ١٢٠).

(٤) وهي شاذة، انظر عزوها لابن مسعود في معاني القرآن للفراء (١/ ٤٥٥)، وللباقين في البحر المحيط (٥/ ٥٣٠).

(٥) انظر هذه القراءة عن الأعمش في: تفسير الثعلبي (٥/ ١١٣)، وهي قراءة شاذة.

(٦) في الأصل ونجيبويه والتركية: «أولم تر»، والمثبت هو الموافق لما في البحر المحيط (٥/ ٥٣٠).

(٧) سقطت من الأصل، وفي نجيبويه وأحمد٣: «قرأ».

(٨) انظر قول مجاهد والحسن وقتادة في: تفسير الطبري (١٤/ ٥٨٠)، وانظر ما حكاه النقاش عن مجاهد في: البحر المحيط (٥/ ٥٣٠).

(٩) في نجيبويه: «يترتب».

(١٠) أي: «أفلا».

بحسب واحد واحد[١]، ويعلمون أن ذلك من عند الله فيتوبون ويتذكرون وعد الله ووعيده، وأما الاختبار بالمرض فهو في المؤمنين، وقد كان الحسن ينشد:

أَفِي كُلِّ عَامٍ مَرْضَةٌ ثُمَّ نَقْهَةٌ   فَحَتَّى مَتَى حَتَّى مَتَى وَإِلَى مَتَى[٢]   [الطويل]

وقالت فرقة: معنى ﴿يُفْتَنُونَ﴾ بما يشيعه المشركون على رسول الله ﷺ من الأكاذيب، فكان الذين في قلوبهم مرض يفتنون في ذلك، وحكى الطبري هذا القول عن حذيفة[٣]، وهو غريب[٤] من المعنى.

قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾.

الضمير في قوله: ﴿بَعْضُهُمْ﴾ عائد على المنافقين، والمعنى: وإذا ما أنزلت سورة فيها فضيحة أسرارهم نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ على جهة التقرير[٥]، يفهم من تلك النظرة التقرير: هل معكم من ينقل عنكم؟ هل يراكم من أحد حين تدبرون أموركم؟.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟﴾ معناه: عن طريق الاهتداء، وذلك أنهم حين ما يبيَّن لهم كشف أسرارهم والإعلام بمغيبات أمورهم يقع لهم لا محالة تعجب

(١) «واحد» الثانية من الأسدية والتركية.

(٢) البيت لعمران بن حطّان كما في أساس البلاغة (٢/ ٢٠٦)، ومحاضرات الأدباء (١/ ٥٠٨)، وتاريخ دمشق (٥/ ١٤٦)، وعجزه عندهم: وتنعى ولا تُنعَى فكم ذا إلى متى، وجاء في الأغاني (١٨/ ١٥٨) أن أبا العيص أنشده في مرضه.

(٣) ضعيف، هذا الأثر أخرجه الطبري (١٤/ ٥٨١)، من طريق شريك، عن جابر، عن أبي الضحى، عن حذيفة، به، وشريك، هو النخعي، وشيخه جابر هو الجعفي، وكلاهما ضعيف الحديث.

(٤) في التركية: «قريب».

(٥) في الأصل: «التقريب».

وتوقف ونظرٌ[١]، فلو اهتدوا لكان ذلك الوقتُ مظنة ذلك، فهم إذ يصممون على الكفر ويرتبكون[٢] فيه كأنهم انصرفوا عن تلك الحال التي كانت مظنة النظر الصحيح والاهتداء، وابتدئ بالفعل المسند إليهم إذ هو تعديد ذنب على ما قد بيناه.

وقوله: ﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ يحتمل أن يكون دعاء عليهم، ويحتمل أن يكون خبراً، أي: استوجبوا ذلك ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾، أي: لا يفهمون عن الله ولا عن رسوله.

وأسند الطبري في تفسير هذه الآية عن ابن عباس أنه قال: «لا تقولوا انصرفنا من الصلاة، فإن قوماً انصرفوا فصرف الله قلوبهم، ولكن قولوا: قضينا الصلاة»[٣].

قال القاضي أبو محمد: فهذا النظر الذي في هذه الآية هو إيماء، وحكى الطبري عن بعضهم أنه قال: ﴿نَّظَرَ﴾ في هذه الآية في موضع قال[٤].

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ﴾ مخاطبة للعرب في قول الجمهور، وهذا على جهة تعديد النعمة عليهم في ذلك، إذ جاء بلسانهم وبما يفهمونه من الأغراض والفصاحة وشرفوا به غابر الأيام، وقال الزجَّاج: هي مخاطبة لجميع العالم، والمعنى: لقد جاءكم رسول من البشر[٥]، والأول أصوب.

---

(١) في المطبوع: «وتوقف نظر».

(٢) في الأسدية، ونور العثمانية والمطبوع: «يرتكبون».

(٣) ضعيف، هذا الأثر أخرجه ابن أبي شيبة (٣/ ٣٧٨)، والبخاري في الكبير (٦/ ٥٣٧) كلاهما من طريق أبي إسحاق السبيعي، قال: أخبرني أبو هلال التغلبي، عن ابن عباس رضي الله عنه، به، وهذا إسناد ضعيف، من أجل أبي هلال، وهو عمير بن تميم بن يريم، ففيه جهالة، وأخرجه الطبري (١٤/ ٥٨٤) بإسناد فيه من لم يُسم، وأخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٠١٥٧) من طريق الأعمش، عن مسلم أبي الضحى، عن ابن عباس، به، وهذا إسناد ضعيف من أجل الأعمش، فهو مدلس، وقد عنعنه.

(٤) تفسير الطبري (١٤/ ٥٨٢-٥٨٣).

(٥) انظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٤٧٧).

وقوله: ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ يقتضي مدحاً لنسب النبي ﷺ، وأنه من صميم العرب وشرفها، وينظر إلى هذا المعنى قوله ﷺ: «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى بني هاشم من قريش، واصطفاني من بني هاشم»[1].

ومنه قوله ﷺ: «إني من نكاح ولست من سفاح»[2]، معناه أن نسبه ﷺ إلى آدم عليه السلام لم يكن النسل فيه إلا من نكاح ولم يكن فيه زنى.

وقرأ عبد الله بن قُسيطٍ المكي: (من أنفَسكم) بفتح الفاء[3] من النفاسة، ورويت عن النبي ﷺ، وعن فاطمة رضي الله عنها[4]، ذكر أبو عمرو أن ابن عباس رواها عن النبي ﷺ[5].

وقوله: ﴿مَا عَنِتُّمْ﴾ معناه: عنتُكم، فـ﴿مَا﴾ مصدرية وهي ابتداء، و﴿عَزِيزٌ﴾ خبر مقدم، ويجوز أن يكون ﴿مَا عَنِتُّمْ﴾ فاعلا بـ﴿عَزِيزٌ﴾، / و﴿عَزِيزٌ﴾ صفة للرسول، [٢/ ٢٧٤] وهذا أصوب من الأول.

والعنت: المشقة، وهي هنا لفظة عامة، أي: ما شق عليكم من كفر وضلال بحسب[6] الحق، ومن قتلٍ أو[7] إسار وامتحان بسبب الحق واعتقادكم أيضاً معه.

---

(١) مسلم، أخرجه (٢٢٧٦) من حديث واثلة بن الأسقع رضي الله عنه، مرفوعاً، به.

(٢) لا يثبت، روي من عدة طرق، عن ابن عباس وعائشة وعلي وأبي هريرة وأنس، وبعضها واهي الإسناد وبعضها ضعيف، وأمثلها ما رواه عبد الرزاق (٧/ ٣٠٣) عن ابن جريج عن جعفر بن محمد عن أبيه أبي جعفر الباقر به مرسلاً. انظر: البدر المنير لابن الملقن (٧/ ٦٣٤).

(٣) وهي شاذة، انظر: المحتسب (١/ ٣٠٦)، وعبد الله هذا هو والد يزيد بن عبد الله بن قسيط المدني الإمام المشهور.

(٤) انظر: مختصر الشواذ (ص: ٦١).

(٥) لم أقف عليه مسنداً.

(٦) في المطبوع والحمزاوية: «بسبب».

(٧) في الأسدية، والتركية: «و».

وقال قتادة: المعنى: عنت مؤمنيكم[(١)].

قال القاضي أبو محمد: وتعميم عنت الجميع أوجه.

وقوله: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ يريد: على إيمانكم وهداكم.

وقوله: ﴿رَءُوفٌ﴾ معناه: مبالغ في الشفقة، قال أبو عبيدة: الرأفة أرق الرحمة[(٢)].

وقرأ: ﴿رؤف﴾ دون مد الأعمش وأهل الكوفة وأبو عمرو[(٣)].

ثم خاطب النبي ﷺ، بعد تقريره عليهم هذه النعمة فقال: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ يا محمد أي: أعرضوا بعد هذه الحال المتقررة التي منَّ الله عليهم بها ﴿فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ﴾ معناه: وأعمالك بحسب قولك من التفويض إلى الله والتوكل عليه والجد في قتالهم، وليست بآية موادعة لأنها من آخر ما نزل، وخصص الْعَرْش بالذكر إذ هو أعظم المخلوقات.

وقرأ ابن محيصن: (العظيمُ) برفع الميم صفة للرب، ورويت عن ابن كثير[(٤)].

وهاتان الآيتان لم توجدا حين جمع المصحف إلا في حفظ خزيمة بن ثابت ـ ووقع في البخاري: أو أبي خزيمة ـ فلما جاء بهما تذكرهما كثير من الصحابة، وقد كان زيد يعرفهما ولذلك قال: «فقدت آيتين من آخر سورة التوبة»[(٥)]، ولو لم يعرفهما لم يدر هل فقد شيئا أم لا؟ فإنما ثبتت الآية بالإجماع لا بخزيمة وحده.

وأسند الطبري في كتابه قال: «كان عمر لا يثبت آية في المصحف إلا أن يشهد

(١) انظر: قول قتادة في: تفسير الطبري (١٤/ ٥٨٦).

(٢) في المطبوع: «من الرحمة»، ولفظه في مجاز القرآن (١/ ٥٩): وهي أشدّ الرحمة.

(٣) فهي قراءة نصف السبعة: أبي عمرو وشعبة وحمزة والكسائي، كما تقدم بيانه في تفسير الآية (١٤٣) من سورة البقرة.

(٤) وهي شاذة، انظر عزوها لابن محيصن في إتحاف فضلاء البشر (١/ ٣٠٨)، ولرواية ابن كثير في مختصر الشواذ (ص: ٦١).

(٥) البخاري، أخرجه في صحيحه (٤٤٠٢).

عليها رجلان، فلما جاء خزيمة بهاتين الآيتين قال: والله لا أسألك عليهما بينة أبداً فإنه هكذا كان ﷺ»[١].

قال القاضي أبو محمد: يعني صفة النبي ﷺ التي تضمنتها الآية، وهذا والله أعلم قاله عمر بن الخطاب رضي الله عنه في مدة أبي بكر حين الجمع الأول، وحينئذ فقدت الآيتان، ولم يجمع من القرآن شيء في خلافة عمر.

وخزيمة بن ثابت هو المعروف بذي الشهادتين، وعرف بذلك لأن رسول الله ﷺ أمضى شهادته وحده في ابتياع فرس وحكم بها لنفسه ﷺ [٢]، وهذا خصوص لرسول الله ﷺ.

وذكر النقاش عن أبيّ بن كعب أنه قال: أقرب القرآن عهداً بالله تعالى هاتان الآيتان ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ﴾ إلى آخر الآية[٣].

---

(١) في اتصاله نظر، هذا الأثر أخرجه الطبري (١٤/ ٥٨٨)، عن ابن وكيع، عن سفيان، عن عمرو، عن عبيد بن عمير، عن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، به. وابن وكيع هو سفيان، متفق علي ضعفه، وقد خالفه سعيد بن منصور، فرواه في تفسيره (٥/ ٣٠٢)، عن سفيان، عن عمرو بن دينار، عن يحيى بن جعدة، عن عمر رضي الله عنه، به. وهذا أصح، ويحيى بن جعدة لم أجد من نص على روايته عن عمر، وهو يرسل عمن دونه، كابن مسعود، وغيره، انظر: جامع التحصيل (٨٧٠).

(٢) صحيح، هذا الحديث أخرجه أبو داود (٣٦٠٢)، والنسائي في المجتبى (٤٦٤٧)، كلاهما من طريقين صحيحين، عن الزهري، عن عمارة بن خزيمة، عن عمه رضي الله عنه، مرفوعاً به، وأصله في صحيح البخاري بدون قصة الفرس (٢٦٥٢).

(٣) في نجيبويه: «إلى آخر السورة»، وكذا أحمد٣، وفي هامشه: «بلغ»، والأثر لم أقف عليه مسنداً، وفي نجيبويه: «والله سبحانه وتعالى المستعان وعليه التكلان لا رب غيره ولا معبود سواه»، وفي الأسدية: «كملت سورة التوبة»، وفي المطبوع: «انتهى بعون الله وتوفيقه تفسير سورة التوبة، والحمد لله رب العالمين»، وفي الأصل: «كمل تفسير سورة التوبة وبكمالها نجز الجزء الثاني من المحرر الوجيز في تفسير كتاب الله العزيز تأليف الشيخ الإمام القاضي أبي محمد بن عطية رضي الله عنه بين ظهري يوم الاثنين السادس والعشرين من ذي الحجة الحرام سنة ١١٠٣هـ ويتلوه في أول الثالث إن شاء الله سورة يونس عليه السلام، وعلى الله إكماله».



[٣/ ١]

/ بسم الله الرَّحمن الرَّحيم وصلى الله على سيدنا محمد نبيه الكريم

تفسير سورة يونس عليه السَّلام

هذه السورة هي مكيّة، قال مقاتل: إلا آيتين وهي قوله تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ﴾ [يونس: ٩٤] نزلت بالمدينة، وقال الكلبي: هي مكية إلا قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ [يونس: ٤٠] نزلت في اليهود بالمدينة، وقالت فرقة: نزل من أولها نحو من أربعين آية بمكة وباقيها بالمدينة(١).

قوله عز وجل: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾﴾.

تقدم في أول سورة البقرة ذكر الاختلاف في فواتح السور، وتلك الأقوال كلها تترتب هنا، وفي هذا الموضع قول يختص به، قال ابن عباس(٢) وسالم بن عبد الله وابن

---

(١) انظر قول مقاتل في تفسيره (٢/ ٢٢٤)، وقول الكلبي في: تفسير القرطبي (٨/ ٣٠٤).

(٢) إسناده لين، هذا الأثر أخرجه ابن جرير (١٥/ ٩-١٠)، وابن أبي حاتم (١٠١٨٦) في تفسيريهما من طريق علي بن الحسين بن واقد، عن أبيه، عن يزيد النحوي، عن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنهما، به، وهذا إسناد لين لحال علي بن الحسين.

جبير والشعبي: (الر) و(حم)[١] و(ن)[٢] هو الرحمن قطِّع اللفظ في أوائل هذه السور[٣].

واختلف عن نافع في إمالة الراء والقياسُ أن لا يمال، وكذلك اختلف القرّاء[٤].

وعلة من أمال الراء أن يدل بذلك على أنها اسم للحرف وليست بحرف في نفسها، وإنما الحرف (ر)[٥].

وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ﴾ قيل: هو بمعنى: هذه، وقد[٦] يشبه أن يتصل المعنى بـ﴿تِلْكَ﴾ دون أن نقدرها بدل غيرها، والنظر في هذه اللفظة إنما يتركب على الخلاف في فواتح السور فتدبره.

﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ قال مجاهد وقتادة: المراد به التوراة والإنجيل، وقال مجاهد أيضاً وغيره: المراد به القرآن[٧]، وهو الأظهر.

و﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ فعيل بمعنى: محكَم، كما قال تعالى: ﴿هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ [ق: ٢٣] أي: معتدٌ معدّ.

ويمكن أن يكون حكيم بمعنى: ذو حكمة، فهو على النسب، وقال الطبري: فهو مثل أليم بمعنى مؤلم، ثم قال: هو الذي أحكمه وبيَّنه[٨].

قال القاضي أبو محمد: فساق قولين على أنهما واحد.

---

(١) بدأت بهذه اللفظة سور الحواميم وهي: غافر، فصلت، الشورى، الزخرف، الدخان، الجاثية، الأحقاف.

(٢) القلم: ١.

(٣) انظر أقوالهم في: تفسير الطبري (١٥/ ١٠). وفي النسخ: «السورة».

(٤) حاصله كما في التيسير (ص: ١٢٠) أن ابن كثير وقالون وحفصاً قرؤوا بالفتح، وورشاً بين اللفظين، والباقين بالإمالة.

(٥) انظر: الحجة لأبي علي الفارسي (٤/ ٢٤٤).

(٦) في التركية: «وقيل».

(٧) انظر: تفسير الطبري (١٥/ ١١)

(٨) انظر: تفسير الطبري (١٥/ ١٢).

وقوله: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾ الآية، قال ابن عباس[١] وابن جريج وغيرهما: سبب[٢] هذه الآية أن قريشاً استبعدوا أن يبعث الله رسولاً من البشر[٣].

وقال الزجاج: إنما عجبوا من إخباره أنهم يبعثون من القبور، إذ النذارة والبشارة تتضمنان ذلك، وكثر كلامهم في ذلك حتى قال بعضهم: أما وجد الله من يبعث إلا يتيم أبي طالب[٤]، ونحو هذا من الأقاويل التي اختصرتها لشهرتها، فنزلت الآية.

وقوله: ﴿أَكَانَ﴾ تقرير والمراد بـ(الناس) قائلو هذه المقالة، و﴿عَجَبًا﴾ خبر (كان) واسمها ﴿أَنْ أَوْحَيْنَآ﴾.

وفي مصحف ابن مسعود: (أكان للناس عجب)[٥]، وجعل الخبر في قوله: ﴿أَنْ أَوْحَيْنَآ﴾.

والأول أصوب، لأن الاسم معرفة والخبر نكرة، وهذا القلب لا يصح ولا يجيء إلا شاذّاً، ومنه قول حسان:

.... يَكُونُ مِزاجَها عَسَلٌ ومَاءُ[٦] [الوافر]

ولفظة العجب هنا ليست بمعنى التعجب فقط، بل معناه: أوصَلَ إنكارهم وتعجبهم إلى التكذيب؟

وقرأت فرقة: (إلى رجْل) بسكون الجيم[٧].

---

(١) هذا الأثر أخرجه ابن جرير (١٥/ ١٣)، وابن أبي حاتم (١٠١٩٣) من طريق الضحاك بن مزاحم، عن ابن عباس رضي الله عنهما به.

(٢) في المطبوع: «نسبت»، ولعله خطأ.

(٣) انظر: تفسير الطبري (١٥/ ١٣).

(٤) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٣/ ٥).

(٥) وهي شاذة، انظر: إعراب القرآن للنحاس (٢/ ١٤٠)، والهداية لمكي (٥/ ٣٢٠٩)، وتفسير الثعلبي (٥/ ١١٧).

(٦) تقدم في تفسير الآية (٣٥) من سورة الأنفال.

(٧) تفسير القرطبي (٨/ ٣٠٦) بلا نسبة.

ثم فسر الوحي وقسمه على النذارة للكافرين والبشارة للمؤمنين، والقدم هنا: ما قدّم، واختلف في المراد بها هاهنا، فقال ابن عباس[١] ومجاهد والضحاك والربيع بن أنس وابن زيد: هي الأعمال الصالحة من العبادات، وقال الحسن بن أبي الحسن وقتادة: هي شفاعة محمد ﷺ، وقال زيد بن أسلم وغيره: هي المصيبة بمحمد ﷺ في موته[٢].

وقال ابن عباس أيضاً وغيره: هي السعادة السابقة لهم في اللوح المحفوظ[٣]، وهذا أليق الأقوال بالآية، ومن هذه اللفظة قول حسان:

[الطويل] لَنَا القَدَمُ الأُولَى إِلَيْكَ وَخَلْفُنَا لأَوَّلِنَا فِي طَاعَةِ الله تَابِعُ[٤]

وقول ذي الرُّمة:

[الطويل] لَكُمْ قَدَمٌ لا يُنْكِرُ النَّاسُ أَنَّهَا مَعَ الحَسَبِ العَادِيِّ طَمَّتْ عَلَى البَحْرِ[٥]

ومن هذه اللفظة قول النبي ﷺ في صفة جهنم: «حتى يضع الجبار فيها قدمه فتقول: قَطْ قَطْ»[٦]، أي: ما قدَّم لها من خلقه[٧]، هذا على أن الجبار اسم الله تعالى، ومن جعله اسم جنس كأنه أراد الجبارين من بني آدم، فالقدم على هذا التأويل الجارحة.

والصدق في هذه الآية بمعنى الصلاح، كما تقول: رجل صدق، ورجل سوء.

وقوله: ﴿قَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ يحتمل أن يكون تفسيراً لقوله: أكان للناس[٨] وحينا إلى بشر عجباً قال الكافرون عنه كذا وكذا.

---

(١) هذا الأثر أخرجه الطبري (١٥/ ١٤) من طريق: عطية العوفي، عن ابن عباس رضي الله عنهما، به.

(٢) انظر أقوالهم في: تفسير الطبري (١٥/ ١٤-١٦).

(٣) هذا الأثر أخرجه ابن جرير (١٥/ ١٥) وابن أبي حاتم (١٠١٩٦) من طريق علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس به.

(٤) تقدم في تفسير الآية (١٦٩) من سورة الأعراف، وفي المطبوع: «العالي».

(٥) انظر عزوه له في تفسير الطبري (١٥/ ١٦)، وتفسير ابن أبي زمنين (٢/ ٢٤٤)، وتفسير الثعلبي (٥/ ١١٨).

(٦) متفق عليه، أخرجه البخاري (٤٥٦٩) ومسلم (٢٨٤٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٧) تقدم مذهب السلف في إثبات الصفات، وقد ردَّ على هذا التأويل الدارمي في النقض على المريسي (١/ ٣٩٤- ٤٠٩).

(٨) من الأسدية والتركية ونجيبويه.

وذهب الطبري إلى أن في الكلام حذفاً يدل الظاهر عليه، تقديره: فلما أنذر وبشَّر قال الكافرون كذا وكذا[١].

وقرأ جمهور الناس وهي قراءة نافع وأبي عمرو وابن عامر: ﴿إن هذا لسِحْر مبين﴾.

وقرأ مسروق بن الأجدع وابن جبير والباقون من السبعة وابن مسعود وأبو رزين ومجاهد وابن وثاب وطلحة والأعمش وعيسى بن عمر بخلاف، وابن محيصن وابن كثير بخلاف عنه: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ﴾[٢]، والمعنى متقارب.

وفي مصحف أُبَيّ: (قال الكافرون ما هذا إلا سحر مبين)، [وقال الأعمش: (ما هذا إلا ساحر مبين)][٣].

وقولهم في الإنذار والبشارة: سحر، إنما هو بسبب أنه فرَّق بذلك كلمتهم وحال بين القريب وقريبه، فأشبه ذلك ما يفعله الساحر فظنوه من ذلك الباب.

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ / ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾﴾. [٣/ ٢]

هذا ابتداء دعاء إلى عبادة الله عز وجل وإعلام بصفاته، والخطاب بها لجميع الناس، وخَلْقُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ هو على ما تقرر أن الله عز وجل خلق الأرض ثُمَّ اسْتَوى إلى السماء وهي دخان فخلقها، ثم دحا الأرض بعد ذلك.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١٥/ ١٧).

(٢) وهما سبعيتان، انظر التيسير (ص: ١٢٠)، السبعة (ص: ٣٢٢)، وخلاف ابن كثير خارج الطرق.

(٣) زيادة من نجيبويه، وهما شاذتان، انظر الأولى في الكشاف للزمخشري (٢/ ٣٢٨) والثانية في البحر المحيط (٦/ ١٠).

وقوله: ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ قيل: هي من أيام الآخرة، وقال الجمهور، وهو الصواب: بل من أيام الدنيا.

قال القاضي أبو محمد: وذلك في التقدير لأن الشمس وجريها لم يتقدم حينئذ، وقول النبي ﷺ في خلق الله المخلوقات: إن الله ابتدأ يوم الأحد كذا [ويوم كذا كذا][١]، إنما هو على أن نقدر ذلك الزمان ونعكس إليه التجربة من حين ابتدأ ترتيب اليوم والليلة.

والمشهور[٢] أن الله ابتدأ بالخلق يوم الأحد، ووقع في بعض الأحاديث في كتاب مسلم، وبعضُه[٣] في الدلائل، أن البداءة وقعت يوم السبت[٤].

وذكر بعض الناس أن الحكمة في خلق الله تعالى هذه الأشياء في مدة محدودة ممتدة وفي القدرة أن يقول: كن، فيكون، إنما هو ليعلِّم عباده التؤدة والتماهل في الأمور.

قال القاضي أبو محمد: وهذا مما لا يوصل تعليله، وعلى هذا هي الأجنة في البطون وخلق الثمار وغير ذلك، والله عز وجل قد جعل لكل شيء قَدراً وهو أعلم بوجه الحكمة في ذلك.

وقوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ قد تقدم القول فيه في «المص»[٥].

وقوله: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ يصح أن يريد بالْأَمْرِ اسم الجنس من الأمور، ويحتمل أن يريد الْأَمْرَ الذي هو مصدر أمر يأمر أمراً، وتدبيره[٦] لا إله إلا هو إنما هو الإنفاذ لأنه قد أحاط بكل شيء علماً، وقال مجاهد: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ معناه: يقضيه وحده[٧].

---

(١) ساقط من الأصل.

(٢) تحرفت في نجيبويه وأحمد٣ إلى: «الشهور».

(٣) زيادة من نجيبويه.

(٤) أخرجه مسلم (٢٧٨٩) من حديث أبي هريرة مرفوعاً، وليس في القسم المطبوع من الدلائل.

(٥) أول سورة الأعراف.

(٦) في الأصل: «تقديره»، و«أمراً» زيادة من المطبوع.

(٧) انظر قول مجاهد في: تفسير الطبري (١٥/ ١٩).

وقوله: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦ﴾ رد على العرب في اعتقادها أن الأصنام تشفع لها.

وقوله: ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ إشارة إلى الله تعالى، أي: هذا الذي هذه صفاته فاعبدوه، ثم قررهم على هذه الآيات والعبر فقال: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: فيكون التذكر سبباً للاهتداء.

واختصار القول في قوله: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ إما أن يكون: اسْتَوى بقهره وغلبته، وإما أن يكون ﴿ٱسۡتَوَىٰ﴾ بمعنى استولى إن صحت اللفظة في اللسان، فقد قيل في قول الشاعر:

قَـدِ اسْـتَوَى بِشْـرٌ عَلَـى الْعِـرَاقِ ... مِـنْ غَيْـرِ سَـيْفٍ وَدَمٍ مِهْـرَاقِ[1] [مخلع البسيط]

إنه بيت مصنوع، وإما أن يكون فعل فعلاً في العرش سماه اسْتَوى[2]، واستيعاب القول قد تقدم.

وقوله: ﴿إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا﴾ الآية، آية إنباء بالبعث من القبور، وهي من الأمور التي جوَّزها العقل وأثبت وقوعها الشرع.

وقوله: ﴿جَمِيعٗا﴾ حال من الضمير في ﴿مَرۡجِعُكُمۡ﴾، ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ﴾ نصب على المصدر، وكذلك قوله: ﴿حَقًّا﴾، وقال أبو الفتح: ﴿حَقًّا﴾ نعت[3].

وقرأ الجمهور: ﴿إِنَّهُۥ﴾ بكسر الألف على القطع والاستئناف، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع والأعمش وسهل بن شعيب وعبد الله: ﴿أنه﴾ بفتح الألف[4]، وموضعها النصب على تقدير: أَحُقُّ أنه، وقال الفراء: موضعها رفع على تقدير: يَحِق أنه[5].

---

(١) تقدم في تفسير الآية (٢٩) من سورة البقرة.

(٢) تقدم التنبيه على مذهب السلف في إثبات الصفات في موضع سورة البقرة.

(٣) المحتسب (١/ ٣٠٧).

(٤) فهي عشرية، انظر عزوها لأبي جعفر في النشر (٢/ ٢٨٢)، وللأعمش وسهل في المحتسب (١/ ٣٠٧)، ومختصر الشواذ (ص: ٦١)، ولعبد الله في البحر المحيط (٦/ ١٢).

(٥) معاني القرآن للفراء (١/ ٤٥٧).

قال القاضي أبو محمد: يجوز عندي أن يكون ﴿أَنَّهُۥ﴾ بدلاً من قوله: ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ﴾.

قال أبو الفتح: إن شئت قدرت: لأنه يبدأ الخلق؛ أي: فمن في قدرته هذا فهو غني عن إخلاف الوعد، وإن شئت قدرته وَعَد الله وعداً[١] حقّاً أنه، ولا يعمل فيه المصدر الذي هو ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ﴾ لأنه قد وُصف فأَذِنَ ذلك بتمامه وقطع عمله[٢].

وقرأ ابن أبي عبلة: (حقٌّ) بالرفع[٣]، فهو ابتداء وخبره ﴿أنه﴾.

وقوله: ﴿يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ﴾ يريد النشأة الأولى، والإعادةُ هي البعث من القبور.

وقرأ طلحة: (يبدئ الخلق) بضم الياء وكسر الدال[٤].

وقوله: ﴿لِيَجۡزِيَ﴾؛ هي لام كي، والمعنى: أن الإعادة إنما هي ليقع الجزاء على الأعمال.

وقوله: ﴿بِٱلۡقِسۡطِ﴾؛ أي: بالعدل في رحمتهم وحسن جزائهم.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ ابتداء.

والحميم: الحار المسخن، وهو فعيل بمعنى مفعول، ومنه الحمَّام والحَمَّة، ومنه قول المرقِّش[٥]:

[مجزوء البسيط]

فـي كـلِّ مُمْسـىً لَهـا مِـقْطَـرَةٌ فـيهـا كِـبـاءٌ مُـعَـدٌّ وحَـمِيـمْ[٦]

---

(١) سقطت «وعداً» من الأصل والمطبوع.

(٢) المحتسب (١/ ٣٠٧).

(٣) وهي شاذة، انظر: تفسير الثعلبي (٥/ ١١٨).

(٤) وهي شاذة، انظر: مختصر الشواذ (ص: ٦١).

(٥) هو المرقش الأصغر، عم طرفة، ابن أخي الأكبر، وقيل: أخوه، واسمه عمرو بن حرملة، وقيل: ربيعة ابن سفيان، وهو من بني سعد بن مالك بن ضبيعة، وأحد عشّاق العرب، وصاحبته فاطمة بنت المنذر، وكانت لها خادمة تجمع بينهما. الشعر والشعراء (١/ ٢٠٩).

(٦) البيت للمرقش الأصغر كما في المفضليات (ص: ٢٤٨)، مجاز القرآن (١/ ٢٧٤)، تهذيب اللغة (٤/ ١٢)، وجاء البيت في المطبوع وجميع النسخ الخطية: في كل يوم، لها مقطرة وكباء معدة وحميم، وقد أصلحناه من المصادر، لأنه هكذا غير مستقيم.

وحميم النار فيما ذكر عن رسول الله ﷺ إذا أدناه الكافر من فيه تساقطت فروة رأسه، وهو كما وصفه تعالى: ﴿يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ﴾ [الكهف: ٢٩].

قوله عز وجل: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٥ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ۝٦﴾.

هذا استمرار على وصف آيات الله والتنبيه عل صنعته الدالة على الصانع، وهذه الآية تقتضي أن الضياء أعظم من النور وأبهى بحسب الشَّمْس وَالْقَمَر، ويلحق هاهنا اعتراض، وهو أنَّا وجدنا الله تعالى شبَّه هداه ولطفه بخلقه بالنور فقال: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الآية [النور: ٣٥]، وسأل رسول الله ﷺ النور[1]][2]، وهذا يقتضي أن النور أعظم هذه الأشياء وأبلغها في الشروق، وإلا فلمَ ترك التشبيه الأعلى الذي هو الضياء، وعدل إلى الأقل الذي هو النور؟

فالجواب عن هذا والانفصال أن تقول: إن لفظة النور أحكم وأبلغ في قوله: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، وذلك [لا يراد به نور محسوس بالعين كالقمر، فلم يبق إلا][3] أنه تعالى شبه هداه ولطفه الذي نصبه لقوم يهتدون وآخرين يضلون معه بالنور الذي هو أبداً موجود في الليل وأثناء الظلام، ولو شبهه بالضياء لوجب أن لا يضل أحد، إذ كان الهدى يكون مثل الشمس التي لا تبقى معها ظلمة، فمعنى الآية أن الله تعالى قد جعل هداه في الكفر كالنور في الظلام فيهتدي قوم ويضل آخرون، ولو جعله كالضياء لوجب أن لا يضل أحد وبقي الضياء على هذا الانفصال أبلغ في الشروق كما اقتضت

(١) كقوله ﷺ في دعائه: «اللهم اجعل في قلبي نوراً وفي بصري نوراً وفي سمعي نوراً»، أخرجه البخاري (٦٣١٦) ومسلم (٧٦٣).

(٢) زيادة من نجيبويه.

(٣) زيادة من نجيبويه.

[٣/ ٣] آيتنا هذه، والله عز وجل هو ضياء السماوات والأرض ونورها وقيومها، ويحتمل أن / يعترض هذا الانفصال والله المستعان.

وقوله: ﴿وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ﴾ يريد البروج المذكورة في غير[١] هذه الآية، وأما الضمير الذي رده على الْقَمَرِ، وقد تقدم ذكر الشَّمْس معه، فيحتمل أن يريد بالضمير القمر وحده لأنه هو المراعى في معرفة عَدَد السِّنِينَ وَالْحِساب عند العرب، ويحتمل أن يريدهما معاً بحسب أنهما يتصرفان في معرفة عدد السنين والحساب عند العرب[٢]، لكنه اجتزأ بذكر الواحد كما قال: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ﴾ [التوبة: ٦٢] وكما قال الشاعر

[الطويل] رَمانـي بذنب كنتُ منـه ووالِدِي   بَرِيئاً ومن أَجْلِ الطوِيِّ رَمانِي[٣]

قال الزجَّاج: وكما قال الآخر:

[المنسرح] نَحـنُ بمـا عندَنـا وأنـتَ بمـا   عندَكَ راضٍ، والرّأْيُ مُختلفُ[٤]

وقوله: ﴿لِتَعۡلَمُواْ﴾ المعنى: قدر هذين النيِّرين مَنازِلَ لكي تعلموا بها عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسابَ رفقاً بكم ورفعاً للالتباس في معاشكم وتجركم وإجاراتكم وغير ذلك مما يضطر فيه إلى معرفة التواريخ.

وقوله: ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾ أي: للفائدة لا للَّعب والإهمال، فهي إذا يحق أن تكون كما هي.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم في رواية حفص: ﴿يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾، وقرأ ابن

---

(١) «غير»، ساقطة من نجيبويه.

(٢) قوله: «ويحتمل أن يريدهما معا بحسب أنهما يتصرفان في معرفة عدد السنين والحساب عند العرب» ساقط من المطبوع.

(٣) البيت لابن أحمر، كما في الكتاب لسيبويه (١/ ٧٥)، ومعاني القرآن للأخفش (١/ ٨٨)، ونسبه في مجاز القرآن (٢/ ١٦١) للأزرق بن طرفة بن العمرّد الفراصي، واعترض به في شرح أبيات سيبويه (١/ ١٦٩)، وعندهم: «بأمر» بدل «بذنب».

(٤) تقدم في تفسير الآية (٣٦) من سورة التوبة، وانظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٣/ ٧).

كثير أيضاً وعاصم والباقون والأعرج وأبو جعفر وشيبة وأهل مكة والحسن والأعمش: ﴿نُفَصِّلُ﴾ بنون العظمة[1].

وقوله: ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ إنما خصهم لأن نفع التفصيل فيهم ظهر وعليهم أضاء، وإن كان التفصيل إنما وقع مجملاً للكل معدّاً ليحصِّله الجميع.

وقرأ جمهور السبعة وقد رويت عن ابن كثير: ﴿ضِيَآءً﴾، وقرأ ابن كثير وحده فيما روي أيضاً عنه: ﴿ضئاء﴾ بهمزتين[2]، وأصله: ضياء، فقلبت فجاءت ضئاياً، فقلبت الياء همزة لوقوعها بين ألفين، قال أبو علي: وهي غلط[3].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [الآية، آية اعتبار وتنبيه، ولفظة الاختلاف تعم تعاقب الليل والنهار][4] وكونهما خلفة وما يتعاورانه من الزيادة والنقص، وغير ذلك من لواحق سير الشمس وبحسب أقطار الأرض.

قوله: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لفظ عام لجميع المخلوقات، والآيات: العلامات والدلائل، وخصص القوم المتقين تشريفاً لهم إذ الاعتبار فيهم يقع، ونسبتهم إلى هذه الأشياء المنظور فيها أفضل من نسبة من لم يهتد ولا اتقى.

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۝٧ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝٨ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٩ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٠﴾.

---

(١) فهما سبعيتان، ووجه ابن كثير الثاني من راوية محمد بن صالح عن شبل، ومضر بن محمد عن البزي انظر السبعة (ص: ٣٢٣).

(٢) فهي أيضاً سبعية وهي رواية قنبل عنه، انظر: السبعة (١/ ٣٢٣)، والتيسير (ص: ١٢١).

(٣) الحجة لأبي علي الفارسي (٤/ ٢٥٨).

(٤) ساقط من الأصل ونجيبويه.

قال أبو عبيدة وتابعه القتبي وغيره: ﴿يَرۡجُونَ﴾ في هذه الآية بمعنى: يخافون[١]، واحتجوا ببيت أبي ذؤيب:

[الطويل] إذا لَسَعَتْهُ النّحْلُ لم يَرجُ لَسعَها وخالفَها في بيتِ نُوبٍ عَوَاسِلِ[٢]

وحكى المهدوي عن بعض أهل اللغة ـ قال ابن سيده: هو الفراء ـ : أن لفظة الرجاء إذا جاءت منفية فإنها تكون بمعنى الخوف[٣]، وحكي عن بعضهم أنها تكون بمعناها في كل موضع يدل عليه قرائن ما قبله وما بعده، فعلى هذا التأويل معنى الآية: إن الذين لا يخافون لقاءنا، وقال ابن زيد: هذه الآية في الكفار، وقال بعض أهل العلم: الرجاء في هذه الآية على بابه، وذلك أن الكافر المكذِّب بالبعث ليس يرجو رحمة في الآخرة، ولا يحسن ظنّاً بأنه يلقى الله، ولا له في الآخرة أمل، فإنه لو كان له فيها أمل لقارنه لا محالة خوف، وهذه الحال من الخوف المقارن هي القائدة إلى النجاة، والذي أقول: إن الرجاء في كل موضع على بابه، وإن بيت الهذلي معناه: لم يرج فَقْدَ لسعها، فهو يبني عليه ويصبر إذ يعلم أنه لا بد منه.

وقوله: ﴿وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ يريد كانت آخر همهم ومنتهى غرضهم، وأسند الطبري عن قتادة قال في تفسير هذه الآية: إذا شئتُ رأيت هذا الموصوف، صاحب دنيا لها يغضب ولها يرضى ولها يفرح ولها يهتم ويحزن[٤]، فكأن قتادة صورها في العصاة، ولا يترتب ذلك إلا مع تأول الرجاء على بابه، إذ قد يكون العاصي المجلح مستوحشاً من آخرته، فأما على التأويل الأول فمن لا يخاف لقاء الله فهو كافر.

---

(١) مجاز القرآن (١/ ٢٧٥)، وغريب القرآن لابن قتيبة (ص: ١٩٤).

(٢) تقدم في تفسير الآية (٢١٨) من سور البقرة.

(٣) معاني القرآن للفراء (٢/ ٢٦٥)، قال: وهي لغة تِهامية، وانظر: المحكم لابن سيده (٧/ ٥٤٥)، والتحصيل للمهدوي (٣/ ٣٢٥)، وفي الأصل: «وقال ابن سيده والفراء»، بالعطف.

(٤) انظر قول ابن زيد وقول قتادة في: تفسير الطبري (١٥/ ٢٦-٢٧).

وقوله: ﴿وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا﴾ تكميل في معنى القناعة بها والرفض لغيرها؛ لأن الطمأنينة بالشيء هي زوال التحرُّك إلى غيره.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ﴾ يحتمل أن يكون ابتداء إشارة إلى فرقة أخرى من الكفار، وهؤلاء على هذا التأويل أضل صفقةً لأنهم ليسوا أهل دنيا بل غفلة فقط، ثم حتم عليهم بالنار وجعلها مَأْواهُمْ، وهو حيث يأوي الإنسان ويستقر، ثم جعل ذلك بسبب كسبهم واجتراحهم، وفي هذه اللفظة رد على الجبرية ونص على تعلُّق العقاب بالتكسب الذي للإنسان.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ الآية، لمَّا قرر تبارك وتعالى حالة الفرقة الهالكة عقَّب ذلك بذكر حالة الفرقة الناجية؛ ليتضح الطريقان ويرى الناظر فرق ما بين الهدى والضلال، وهذا كله لطف منه بعباده.

وقوله: ﴿يَهْدِيهِمْ﴾ لا يترتب أن يكون معناه: يرشدهم إلى الإيمان؛ لأنه قد قررهم مؤمنين، فإنما الهدى في هذه الآية[(١)] على أحد وجهين:

إما أن يريد أنه يديمهم ويثبتهم، كما قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ﴾ [النساء: ١٣٦] فإنما معناه: اثبتوا.

وإما أن يريد: يرشدهم إلى طرق الجنان في الآخرة.

وقوله: ﴿بِإِيمَٰنِهِمْ﴾ يحتمل أن يريد: بسبب إيمانهم، ويكون مقابلاً لقوله قبل: ﴿مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾، ويحتمل أن يكون الإيمان هو نفس الهدى، أي: يهديهم إلى طرق الجنة بنور إيمانهم، قال مجاهد: يكون لهم إيمانهم نوراً يمشون به[(٢)].

ويتركب هذا التأويل على ما روي عن النبي ﷺ: «إن العبد المؤمن إذا قام من قبره للحشر تمثل له رجل جميل الوجه طيّب الرائحة، فيقول: من أنت؟ فيقول:

---

(١) تكررت هنا في المطبوع لفظة إنما خطأ.

(٢) انظر قول مجاهد والآثار المسندة في الموضوع؛ في: تفسير الطبري (١٥/ ٢٧-٢٨).

[٣/ ٤] أنا عملك الصالح / ، فيقوده إلى الجنة»[١]، وبعكس هذا في الكافر، ونحو هذا مما أسنده الطبري وغيره.

وقوله: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ يريد: من تحت عِلِّياتهم وغرفهم، وليس التحتَ الذي هو بالمماسة بل يكون إلى[٢] ناحية من الإنسان كما قال تعالى: ﴿قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا﴾ [مريم: ٢٤] وكما قال حكاية عن فرعون: ﴿وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓ﴾ [الزخرف: ٥١].

وقوله: ﴿دَعۡوَىٰهُمۡ﴾ الآية، الدعوى بمعنى الدعاء، يقال: دعا الرجل وادعى بمعنًى واحد، قاله سيبويه[٣].

و﴿سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ تقديس وتسبيح وتنزيه لجلاله عن كل ما لا يليق به.

وقال علي بن أبي طالب في ذلك: «هي كلمات رضيها الله تعالى لنفسه»[٤].

وقال طلحة بن عبيد الله: قلت: يا رسول الله، ما معنى سبحان الله؟ فقال: «معناها: تنزيه الله من السوء»[٥].

وقد تقدم ذكر خلاف النحاة في اللهمَّ.

وحكي عن بعض المفسرين أنهم رأوا أن هذه الكلمة إنما يقولها المؤمن في

---

(١) غريب، هذا الحديث أخرجه الإمام أحمد (٣٠/ ٤٩٩-٥٠٣) والحاكم في المستدرك (١/ ٩٣) من طريق: الأعمش ثنا المنهال بن عمرو عن زاذان أبي عمر قال: سمعت البراء بن عازب به مرفوعاً، والمنهال تكلم فيه ابن حزم، ولم يحتج بحديثه هذا، وقال الذهبي في ترجمة المنهال من سير أعلام النبلاء (٩/ ٢١١): حديثه في شأن القبر بطوله فيه نكارة وغرابة، يرويه عن: زاذان، عن البراء.

(٢) المثبت في المطبوع «من» بدل «إلى».

(٣) نقله عنه في المخصص (٤/ ٥٧).

(٤) هذا الأثر أخرجه الطبري (١٥/ ٣١) بإسناد فيه قابوس بن أبي ظبيان، وهو ضعيف الحديث.

(٥) منكر، هذا الحديث أخرجه ابن حبان في المجروحين (٢/ ٦٠) من طريق عبد الرحمن بن حماد الطلحي، عن طلحة بن يحيى، عن أبيه،، عن طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه، مرفوعاً به، وعبد الرحمن متروك الحديث، وذكر له ابن حبان هذا الحديث في مناكيره.

الجنة عند ما يشتهي الطعام، فإنه إذا رأى طائراً أو غير ذلك قال: سُبْحانَكَ اللهمَّ، فنزلت تلك الإرادة بين يديه فوق ما اشتهى، رواه ابن جريج وسفيان بن عيينة(١).

وقوله: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ يريد تسليم بعضهم على بعض، والتحية مأخوذة من تمني الحياة للإنسان والدعاء بها، يقال: حيَّاه يحييه، ومنه قول زهير بن جناب:

مِـــنْ كُـــلِّ مَـــا نَـــالَ الفَتَى   قَـــدْ نِـلْـتُـهُ إلا الـتَّـحِـيَّـهْ(٢)   [مجزوء الكامل]

يريد دعاء الناس للملوك بالحياة، وقد سمي المُلك تحيةً بهذا التدريج، ومنه قول عمرو بن معديكرب:

أَزُورُ بِـهَـا أَبَـا قَـابُـوسَ حَـتَّـى   أُنِيخَ عَلَـى تَحِيَّتِهِ بِجُنْـدِي(٣)   [الوافر]

أراد: على مملكته، وقال بعض العلماء: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ﴾ يريد تسليم الله عز وجل عليهم، والسلام مأخوذ من السلامة.

وقوله: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ﴾ يريد: وخاتمة دعائهم(٤) في كل موطن وكلامهم شكر الله تعالى وحمده على سابغ نعمه، وكانت بدأتهم بالتنزيه والتعظيم.

وقرأ جمهور الناس: ﴿أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ وهي عند سيبويه «أنْ» المخففة من الثقيلة.

وقرأ ابن محيصن وبلال بن أبي بردة(٥) ويعقوب وأبو حيوة: (أنَّ الحمد لله)(٦).

---

(١) انظر رواية ابن جريج وسفيان في: تفسير الطبري (١٥/ ٣٠).

(٢) انظر عزوه له في طبقات فحول الشعراء (١/ ٣٦)، وإصلاح المنطق (ص: ٢٢٥)، والشعر والشعراء (١/ ٣٦٧)،

(٣) انظر عزوه له في تفسير الطبري (١٥/ ٣٢)، وإصلاح المنطق (ص: ٢٢٥)، وتهذيب اللغة (٥/ ١٨٨).

(٤) في الأصل والمطبوع: «دعواهم».

(٥) بلال بن أبي بردة عامر بن أبي موسى الأشعري أمير البصرة، روى عن أبيه وعمه أبي بكر وأنس بن مالك، وعنه قتادة وثابت البناني وآخرون، وكان ذا رأي ودهاء، وقد ولي أيضاً قضاء البصرة مدة، مات بعد (١٢٠هـ)، تاريخ الإسلام (٨/ ٤٩).

(٦) انظر عزوها لهم مع التوجيه في المحتسب (١/ ٣٠٨)، إلا أبا حيوة ففي الشواذ للكرماني (ص: ٢٢٤).

وهي على الوجهين رفع على خبر الابتداء، قال أبو الفتح: هذه القراءة تدل على أن قراءة الجماعة هي «أنْ» المخففة من الثقيلة بمنزلة قول الأعشى:

[البسيط] فِي فِتْيَـةٍ كَسُـيوفِ الهِنْدِ قَـدْ عَلِمُوا   أنْ هالِكٌ كُلُّ مَنْ يَحْفى وَيـنْـتَعِلُ[1]

قوله عز وجل: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾﴾.

هذه الآية قال مجاهد: نزلت في دعاء الرجل على نفسه أو ماله أو ولده ونحو هذا[2]، فأخبر الله تعالى أنه لو فعل مع الناس في إجابته إلى المكروه مثل ما يريدون فعله معهم في إجابته إلى الخير لأهلكهم، ثم حذف بعد ذلك من القول جملة يتضمنها الظاهر، تقديرها: ولا يفعل ذلك ولكن يذر الذين لا يرجون، فاقتضب القول وتوصَّل إلى هذا المعنى بقوله: ﴿فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ فتأمل هذا التقدير تجدْه صحيحاً.

و﴿ٱسْتِعْجَالَهُم﴾: نصب على المصدر، والتقدير: مثلَ استعجالهم، وقيل: التقدير: تعجيلاً مثل استعجالهم، وهذا قريب من الأول، وقيل: إن هذه الآية نزلت في قوله: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنفال: ٣٢] وقيل: نزلت في قوله: ﴿ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ [الأعراف: ٧٧] وما جرى مجراه.

وقرأ جمهور القراء: ﴿لَقُضِىَ﴾ على بناء الفعل للمفعول ورفع الأجل، وقرأ ابن عامر وحده وعوف وعيسى بن عمر ويعقوب: ﴿لقضَى﴾ على بناء الفعل للفاعل ونصب الأجل[3].

---

(١) تقدم في تفسير الآية (٤٤) من سورة الأعراف.

(٢) انظر قول مجاهد في: تفسير الطبري (١٥/ ٣٤).

(٣) فهما سبعيتان، انظر قراءة ابن عامر ويعقوب في النشر (٢/ ٢٨٢)، وانظر قراءة عوف وعيسى في تفسير الثعلبي (٥/ ١٢٢).

وقرأ الأعمش: (لقضينا)[١].

والأجل في هذا الموضع أجل الموت، ومعنى (قضى) في هذه الآية: أكمل وفرغ، ومنه قول أبي ذؤيب:

وعليهما مَسْرُودَتانِ قَضَاهُما ... دَاوُودُ أَو صَنَعُ السَّوَابِغِ تُبَّعُ[٢] [الكامل]

وأنشد أبو علي في هذا المعنى:

قَضَيْتَ أُمُوراً ثُمَّ غَادَرْتَ بَعْدَهَا ... نَوَائِحَ فِي أَكْمَامِهَا لَمْ تُفَتَّقِ[٣] [الطويل]

وتعدّى (قضى) في هذه الآية بـ(إلى) لما كان بمعنى: فرغ، وفرغ يتعدى بإلى ويتعدى باللام، فمن ذلك قول جرير:

ألانَ وقد فَرَغْتُ إلى نُمَيْرٍ ... فصِرْتُ عَلى جَمَاعتِها عَذابا[٤] [الوافر]

ومن الآخر قوله عز وجل: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ [الرحمن: ٣١].

وقرأ الأعمش: (فنذرَ الذين لا يرجون لقاءنا)[٥].

و﴿يَرْجُونَ﴾ في هذا الموضع على بابها والمراد: الذين لا يؤمنون بالبعث،

---

(١) وهي قراءة شاذة، انظرها في تفسير الثعلبي (٥/ ١٢٢)، قال: وكذا هي في مصحف ابن مسعود.

(٢) انظر عزوه له في المفضليات (ص: ٤٢٨)، وجمهرة أشعار العرب (ص: ٢٦)، ومجاز القرآن (١/ ٥٢)، والمعاني الكبير (٢/ ١٠٣٩).

(٣) الحجة للفارسي (٤/ ٢٥٤) بلا نسبة، وهو لمزرّد بن ضرار يرثي عمر كما في البيان والتبيين (٣/ ٢٣٦)، وطبقات فحول الشعراء (١/ ١٣٣)، وعزاه في الحماسة بشرح التبريزي (١/ ٤٥٢)، الاشتقاق (ص: ١٩٩)، وجمهرة اللغة (٢/ ١٠١٧)، وتهذيب اللغة (١١/ ١٥١)، والصحاح للجوهري (١/ ٣٠١)، لأخيه الشماخ، وفي الأغاني (٩/ ١٨٥) لأخيهما جزء بن ضرار، وفي العقد الفريد (٣/ ٢٣٨) لحسان، وفي الاستيعاب (٣/ ١١٥٨) عن عائشة أن الجن ناحت به على عُمَر قبل أن يقتل بثلاث.

(٤) انظر عزوه له في الحجة للفارسي (٦/ ٢٤٩) والحجة لابن خالويه (ص: ٣٣٩)، عجزه عندهما: فهذا حين صرت لهم عذابا.

(٥) لعلها بالنصب كما ضبطت في المطبوع، ولم أجد من ذكرها.

فهم لا يرجون لقاء الله، والرجاء مقترن أبداً بخوف، والطغيان: الغلو في الأمر وتجاوز الحد، والعمه: الخبط في ضلال، فهذه الآية نزلت ذامةً لخلق ذميم هو في الناس، يَدْعون في الخير فيريدون تعجيل الإجابة، فيحملهم أحياناً سوء الخلق على الدعاء في الشر، فلو عجّل لهم لهلكوا.

وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ ﴾ الآية، هذه الآية أيضاً عتاب على سوء الخلق من بعض الناس، ومضمنه النهي عن مثل هذا، والأمر بالتسليم إلى الله تعالى والضراعة إليه في كل حال، والعلم بأن الخير والشر منه لا رب غيره.

وقوله: ﴿لِجَنۢبِهِۦٓ﴾ في موضع حال، كأنه قال: مضطجعاً، ويجوز أن يكون حالاً من ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ والعامل فيه ﴿مَسَّ﴾، ويجوز أن يكون حالاً من ضمير الفاعل في ﴿دَعَانَا﴾ والعامل فيه دعا، وهما معنيان متباينان.

و﴿ٱلضُّرُّ﴾ لفظ عام لجميع الأمراض[1] والرزايا في النفس والمال والأحبة، هذا قول اللغويين، وقيل: هو مختص برزايا البدن: الهزال والمرض.

وقوله: ﴿مَرَّ﴾ يقتضي أن نزولها في الكفار ثم هي بعدُ تتناول كل من دخل تحت معناها من كافر أو عاص، فمعنى الآية: مَرَّ في إشراكه بالله وقلة توكله عليه.

وقوله: ﴿زُيِّنَ﴾؛ إن قدرناه من الله تعالى فهو خَلْقُه الكفر لهم واختراعه في نفوسهم محبة[2] أعمالهم الفاسدة ومثابرتهم عليها، وإن قدرنا ذلك من الشيطان فهو بمعنى الوسوسة والمخادعة، ولفظة التزيين / قد جاءت في القرآن بهذين المعنيين مرة من فعل الله تعالى ومرة من فعل الشياطين. [٣/ ٥]

قوله عز وجل: ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ

(١) في الأسدية: «الآدميين».

(٢) في المطبوع: «صحبة».

مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لِنَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿١٥﴾﴾.

هذه آية وعيد للكفار وضرب أمثال لهم، أي: كما فَعَل هؤلاء فعلكم[١] فكذلك يُفعل بكم ما فُعل بهم.

وقوله: ﴿وَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ﴾ إخبار عن قسوة قلوبهم وشدّة كفرهم.

وقرأ جمهور السبعة وغيرهم: ﴿نَجۡزِي﴾ بنون الجماعة[٢]، وفرقة: (يجزي) بالياء[٣] على معنى: يجزي الله.

و﴿خَلَٰٓئِفَ﴾ جمع خليفة، وقوله: ﴿لِنَنظُرَ﴾ معناه: لنبين في الوجود ما علمناه أزلاً، لكن جرى القول على طريق الإيجاز والفصاحة والمجاز[٤].

وقرأ يحيى بن الحارث[٥] ـ وقال: رأيتها في الإمام مصحف عثمان ـ: (لنَظُّر) بإدغام النون في الظاء[٦]، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «إن الله تعالى إنما جعلنا خلفاء لينظر كيف عملنا، فأروا الله حسن أعمالكم في السر والعلانية»[٧]، وكان

---

(١) في نجيبويه: قبلكم».

(٢) وهي قراءة القراء العشرة، كلهم، وفي نجيبويه: «نون العظمة»، بدل: «الجماعة».

(٣) وهي شاذة، عزاها الكرماني في الشواذ (ص: ٢٢٤)، للحسن بن عمران.

(٤) «المجاز» ساقطة من المطبوع.

(٥) هو يحيى بن الحارث بن عمرو الغساني الذماري ثم الدمشقي، إمام الجامع الأموي وشيخ القراءة بدمشق بعد ابن عامر، يعدّ من التابعين، لقي واثلة بن الأسقع وروى عنه وقرأ عليه، توفي سنة (١٤٥هـ). غاية النهاية (٢/ ٣٦٧)

(٦) وهي قراءة شاذة، انظر: المحتسب (١/ ٣٠٩).

(٧) في إسناده مبهم، هذا الأثر أخرجه الطبري (١٥/ ٣٨-٣٩) من طريق قتادة، قال: ذكر لنا أن عمر... فذكره.

أيضاً يقول: «قد استُخلفت يا ابن الخطاب فانظر كيف تعمل؟»[١]، وأحياناً كان يقول: «قد استخلفت يا ابن أم عمر»[٢].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ الآية، هذه الآية نزلت في قريش[٣]؛ لأن بعض كفارهم قال هذه المقالة على معنى: ساهِلْنا يا محمد، واجعل هذا الكلام الذي هو من قِبَلك على اختيارنا، وأحِلَّ ما حرمته وحرِّم ما حللته ليكون أمرنا حينئذ واحداً وكلمتنا متصلة، فذمَّ الله هذه الصنعة[٤]، وذكَّرهم بأنهم يقولون هذا للآيات البيّنات، ووصفهم بأنهم لا يؤمنون بالبعث.

ثم أمر الله نبيه ﷺ أن يرد عليهم بالحق الواضح، وأن يستسلم ويتبع حكم الله تعالى ويُعْلم بخوفه ربه.

واليوم العظيم يوم القيامة.

قوله عز وجل: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾.

هذه من كمال الحجة، أي: هذا الكلام ليس من قِبَلي ولا من عندي وإنما هو من عند الله، ولو شاء ما بعثني به ولا تلوته عليكم ولا أعلمتكم به.

---

(١) لم أقف عليه بهذا اللفظ مسنداً.

(٢) ضعيف جداً، هذا الأثر أخرجه الطبري (١٥/ ٣٩) بإسناد فيه زيد بن عوف أبو ربيعة، ولقبه: فهد، متروك الحديث، واتهمه أبو زرعة بسرقة حديثين، ينظر: ميزان الاعتدال (٢/ ١٠٥).

(٣) تفسير الطبري (١٥/ ٤١-٤٢).

(٤) في الأسدية والتركية: «الصنيعة».

و﴿أَدۡرَىٰكُم﴾ بمعنى: أعلمكم، يقال: دريت بالأمر وأدريت به غيري، وهذه قراءة الجمهور.

وقرأ ابن كثير في بعض ما روي عنه: ﴿ولأدراكم به﴾[١] وهي لام تأكيد دخلت على (أدرى)، والمعنى على هذا: ولأَعْلمكم به من غير طريقي.

وقرأ ابن عباس وابن سيرين وأبو رجاء والحسن: (ولا أدرأْتُكم به)[٢].

وقرأ ابن عباس أيضاً وشهر بن حوشب: (ولا أنذرتكم به)[٣]، وخرَّج الفراء قراءة ابن عباس والحسن على لغة لبعض العرب منها قولهم: لبَّأت بمعنى: لبيت، ومنها قول امرأة منهم: رثأت زوجي بأبيات، أي: رثيت[٤].

قال أبو الفتح: «إنما هي «أدريتكم» قلبت الياء ألفاً لانفتاح ما قبلها، وروينا عن قطرب: أن لغة عقيل في أعطيتك أعطأتك»[٥]، قال أبو حاتم: قلبت الياء[٦] ألفاً كما في لغة بني الحارث بن كعب: السلام علاك.

ثم قال: ﴿فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا مِّن قَبۡلِهِۦٓ﴾ أي: الأربعين سنة قبل بعثته عليه السلام، ويريد: لم تجربوني في كذب ولا تكلمت في شيء من هذا، ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ أن من كان على هذه الصفة لا يصح منه كذب بعد أن كلَّ عمره وتقاصر أمله[٧] واشتدت حنكته وخوفُه لربه.

وقرأ الجمهور بالبيان في ﴿لَبِثۡتُ﴾، وقرأ أبو عمرو: ﴿لبتُّ﴾ بإدغام الثاء في التاء[٨].

---

(١) عزاها في التيسير لقنبل عنه (ص: ١٢١)، ورويت عن البزي، وروي عنه كقراءة الجمهور.

(٢) وهي شاذة، عزاها لهم إلا أبا رجاء في المحتسب (١/ ٣٠٩)، ولأبي رجاء في البحر المحيط (٦/ ٢٥).

(٣) وهي شاذة، انظر: مختصر الشواذ (ص: ٦١).

(٤) معاني القرآن للفراء (١/ ٤٥٩).

(٥) في المحتسب (١/ ٣٠٩).

(٦) «قلبت الياء»: ورد مكانها في نجيبويه: «قلب الحسن الياء»، وكذا في البحر المحيط (٦/ ٢٥) عن أبي حاتم.

(٧) في التركية: «أجله».

(٨) وافقه حمزة والكسائي وابن عامر، وهما سبعيتان، انظر: التيسير (١/ ٤٤).

وقوله: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ الآية، جاء في هذه الآية التوقيف على عظم جرم المفتري على الله بعد تقدم التنصل من ذلك قبل، فاتسق القول واطردت فصاحته.

وقوله: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ استفهام وتقرير، أي: لا أحد أظلم ﴿مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ﴾ ممن ﴿ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ﴾ بعد بيانها، وذلك أعظم جرمٍ على الله وأكثر استشراف إلى عذابه، ثم قرر ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ﴾ أهل الجرم، و﴿يُفْلِحُ﴾ معناه: يظفر ببغيته.

وقوله: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ ﴾ الآية، الضمير في (يَعْبُدُونَ) عائد على الكفار من قريش الذين تقدّمت محاورتهم، و﴿مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ﴾ هي الأصنام، وقولهم: ﴿هَـٰٓؤُلَآءِ شُفَعَـٰٓؤُنَا﴾ هو مذهب النبلاء منهم، فأمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يقررهم ويوبخهم: أهم يُعْلمون الله بأنباء من السماوات والأرض لا يعلمها هو؟

وذكر السَّماواتِ لأن من العرب من يعبد الملائكة والشعرى، وبحسب هذا حسُن أن يقول: ﴿هَـٰٓؤُلَآءِ ﴾، وقيل: ذلك على تجوُّز في[1] الأصنام التي لا تعقل، وفي التوقيف على هذا أعظم غلبة لهم، ولا يمكنهم إلا أن يقولوا: لا نفعل ولا نقدر، وذلك لهم لازم من قولهم: ﴿هَـٰٓؤُلَآءِ شُفَعَـٰٓؤُنَا﴾، و﴿سُبْحَـٰنَهُۥ﴾ استئناف تنزيه لله عز وجل.

وقرأ أبو عمرو وعاصم وابن عامر هنا: ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾، بالياء على الغيبة، وفي حرفين في النحل وحرف في الروم وحرف في النمل، وذكر أبو حاتم أنه قرأها كذلك نافع والحسن والأعرج وابن القعقاع وشيبة وحميد وطلحة والأعمش[2].

وقرأ ابن كثير ونافع هنا وفي النمل فقط: ﴿تشركون﴾ بالتاء على مخاطبة الحاضر، وقرأ حمزة والكسائي الخمسةَ الأحرف بالتاء، وهي قراءة أبي عبد الرحمن[3].

---

(١) في ساقطة من المطبوع.

(٢) انظر ما ذكره أبو حاتم في البحر المحيط (٦/ ٢٨).

(٣) فهما سبعيتان، والياء هنا لحمزة والكسائي، كما في التيسير (ص: ١٢١)، وانظر: السبعة (ص: ٣٢٤)، وتفسير الثعلبي (٥/ ١٢٥).

قوله عز وجل: ﴿ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾.

قالت فرقة: المراد آدم كان أمة واحدة ثم اختلف الناس بعدُ في أمر ابنيه، وقالت فرقة: المراد نَسَم بنيه إذ استخرجهم الله من ظهره وأشهدهم على أنفسهم، وقالت فرقة: المراد آدم وبنوه من لدن نزوله إلى قتل أحد ابنيه الآخر، وقالت فرقة: المراد: وَما كانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً واحِدَةً في الضلالة والجهل بالله، فاختلفوا فرقاً في ذلك بحسب الجهالة، ويحتمل أن يكون المعنى كان الناس صنفاً واحداً بالفطرة[1] معدّاً للاهتداء، واستيفاءُ القول في هذا متقدم في سورة البقرة في قوله: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ [البقرة: ٢١٣].

وقرأ الحسن بن أبي الحسن وأبو جعفر ونافع وشيبة وأبو عمرو: ﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ بضم القاف وكسر الضاد، وقرأ عيسى بن عمر: (لقَضَى) بفتحهما على الفعل الماضي[2].

وقوله: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ ﴾ يريد قضاءه وتقديره لبني آدم بالآجال المؤقتة، ويحتمل أن يريد الكلمة في أمر القيامة وأن العقاب والثواب إنما يكون حينئذ.

وقوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ الآية، يريدون بقولهم: ﴿ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ آيةٌ تضطر الناس إلى الإيمان، وهذا النوع من الآيات لم يأت بها نبي قط، ولا هي معجزات اضطرارية، وإنما هي معرضة للنظر ليهتدي قوم ويضل آخرون.

---

(١) من الأسدية والتركية ونجيبويه نور العثمانية.

(٢) وهي شاذة، انظر عزوها له في الشواذ للكرماني (ص: ٢٢٥)، وتفسير الثعلبي (٥/ ١٢٦)، أما الأولى فهي قراءة العشرة كلهم.

وقوله: ﴿فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ إن شاء فعل وإن شاء لم يفعل، لا يطَّلع على غيبه أحد.

وقوله: ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾ وعيد قد صدَّقه الله تعالى بنصرته محمداً ﷺ، قال الطبري: «في بدر وغيره»[١].

وقوله: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ﴾ الآية، المراد بالنَّاس في هذه الآية الكفار، وهي بعدُ تتناول من العاصين من لا يؤدي شكر الله تعالى عند زوال المكروه عنه ولا يرتدع بذلك عن معاصيه، وذلك في الناس كثير، والرحمة هنا بعد الضراء، كالمطر بعد القحط، والأمن بعد الخوف، والصحة بعد المرض، ونحو هذا مما لا ينحصر، والمكر: الاستهزاء والطعن عليها من الكفار، واطِّراح الشكر والخوف من العصاة، ووصف مكر الله بالسرعة وإن كان الاستدراج يمهلهم لأنه متيقن به واقع لا محالة، وكل آت قريب.

قال أبو حاتم: قرأ الناس: ﴿إِنَّ رُسُلَنَا﴾ بضم السين، وخفف السين الحسن وابن أبي إسحاق وأبو عمرو[٢].

وقال أبو علي: «أَسْرَعُ» من سَرُع، ولا يكون من أسرع يُسرع، قال: ولو كان من أسرع لكان شاذّاً[٣].

قال القاضي أبو محمد: وقد قال رسول الله ﷺ في نار جهنم: «لهي أسود من القار»[٤]، وما حفظ للنبي ﷺ فليس بشاذٍّ.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١٥/ ٤٨).

(٢) فهما سبعيتان، كما في السبعة (ص: ١٩٥)، وانظر الباقين في البحر المحيط (٦/ ٣١)، وفي المطبوع: «أبي الحسن»، بدل «أبي إسحاق».

(٣) لم أجده في الحجة ولا غيرها من كتبه المتوفرة، وقد نقله عنه أيضاً في البحر المحيط (٦/ ٣١).

(٤) الصحيح أنه موقوف على أبي هريرة، أخرجه مالك في الموطأ (١٨٠٥) عن عمه أبي سهيل بن مالك عن أبيه عن أبي هريرة من قوله، وأخرج الترمذي (٢٥٩١) من طريق يحيى بن أبي بكير حدثنا شريك عن عاصم هو ابن بهدلة عن أبي صالح عن أبي هريرة: عن النبي ﷺ قال: «أوقد على النار=

وقرأ الحسن والأعرج ونافع وقتادة ومجاهد: ﴿يمكرون﴾ [بياء، وقرأ أبو جعفر وشيبة وأبو رجاء وابن أبي إسحاق وابن كثير وابن محيصن][١] ﴿تَمۡكُرُونَ﴾ بتاء على المخاطبة، وهي قراءة أهل مكة وشبل وأبي عمرو وعيسى وطلحة وعاصم والأعمش والجحدري وأيوب بن المتوكل[٢]، ورويت أيضاً عن نافع والأعرج[٣].

قال أبو حاتم: قال أيوب بن المتوكل: في مصحف أبيّ (يا أيها الناس إن الله أسرع مكرا وإن رسله لديكم يكتبون ما تمكرون)[٤].

قوله عز وجل: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمۡ فِى ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِى ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ٢٢﴾.

هذه الآية تتضمن تعديد النعمة فيما هي الحال بسبيله من ركوب البحر، وركوبُه وقتَ حسن الظن به للجهاد والحج متفق على جوازه، وكذلك لضرورة المعاش بالصيد فيه أو لتصرف التجر[٥]، وأما ركوبه لطلب الغنى والاستكثار فمكروه

= ألف سنة حتى احمرت، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضت، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسودت، فهي سوداء مظلمة» ثم قال الترمذي: حديث أبي هريرة في هذا موقوف أصح، ولا أعلم أحدا رفعه غير يحيى بن أبي بكير عن شريك.

(١) سقط من المطبوع، وفيه قبل «رويت عن نافع» زيادة: «وقرأ الحسن وقتادة ومجاهد»، وذكر في الحاشية أنه زادها من البحر المحيط.

(٢) هو أيوب بن المتوكل الأنصاري البصري إمام ثقة ضابط له اختيار تبع فيه الأثر، قرأ على سلام والكسائي ويعقوب الحضرمي وبكار الأعرج، روى عنه اختياره محمد بن يحيى القطيعي وهو أجل أصحابه، توفي سنة مئتين، غاية النهاية (١/ ١٧٢).

(٣) وهو المعروف عنهما، وهي قراءة العشرة إلا روحاً عن يعقوب فالياءكما في النشر (٢/ ٢٨٢)، وعزاها للحسن ومجاهد وقتادة في مختصر الشواذ (ص: ٦١)، ولم أجدها لنافع إلا في البحر المحيط (٦/ ٣١)، ولو كانا قالا: ورويت عن عاصم وأبي عمرو لوافقا النقل.

(٤) مثله في البحر المحيط (٦/ ٣١) عن أبي حاتم وهي شاذة، مخالفة للرسم.

(٥) انظر شرح صحيح البخاري لابن بطال (٥/ ٨٨-٨٩، ٦/ ٢٠٤).

عند الأكثر، وغاية مُبيحِهِ أن يقول: وتركه أحسن، وأما ركوبه في ارتجاجه فمكروه ممنوع[١]، وفي الحديث: «من ركب البحر في ارتجاجه فقد برئت منه الذمة»[٢]، وقال النبي ﷺ: «البحر[٣] لا أركبه أبداً»[٤].

وقرأ جمهور القراء من السبعة وغيرهم: ﴿يُسَيِّرُكُمْ﴾، قال أبو علي: «وهو تضعيفُ مبالغة لا تضعيف تعدية، لأن العرب تقول: سِرْتُ الرجلَ وسيَّرته»[٥]، ومنه قول الهذلي:

[الطويل] فَلَا تَجْزَعَنْ من سُنَّة أنتَ سِرْتَها فأوّلُ راضٍ سُنَّةً مَن يسيرُها[٦]

قال القاضي أبو محمد: وعلى هذا البيت اعتراض حتى لا يكون شاهداً في هذا، وهو أن يجعل الضمير كالظرف، كما تقول: سرت الطريقَ، وهذه قراءة الجمهور من سيَّر.

---

(١) نقل ابن عبد البر في الاستذكار؛ اتفاق العلماء على المنع من ركوبه وقت الارتجاج، انظر: الاستذكار ٥/ ١٢٨.

(٢) ضعيف مرسل، أخرجه البخاري في تاريخه الكبير (٣/ ٣٢٦)، قال: قال موسى: حدثنا الحارث ابن عبيد، قال: حدثني أبو عمران، عن زهير، عن رجل من أصحاب النبي ﷺ...فذكره مرفوعاً به، قال البخاري: وقال إبراهيم بن مختار: حدثنا شعبة، قال: عن أبي عمران سمعت محمد بن زهير بن أبي جبل، عن النبي ﷺ.اهـ، وهذا أصح، فالحارث بن عبيد، وهو أبو قدامة الإيادي، ليس بالقوي، ومحمد بن زهير بن أبي جبل، قال الذهبي في الميزان (٣/ ٥٥١): «تابعي، لا يعرف، أرسل حديث: من ركب البحر حتى يرتج».

(٣) من الأسديه والمطبوع.

(٤) روي عن يعلى بن أمية قوله، ولا يصح، رفع هذا القول من أوهام المصنف، فقد ورد عن يعلى بن أمية قوله، أخرجه الإمام أحمد (٢٩/ ٤٧٨-٤٧٩)، قال: حدثنا أبو عاصم، قال: حدثنا عبد الله بن أمية، قال: حدثني محمد بن حيي، قال: حدثني صفوان بن يعلى، عن أبيه، فذكره من قوله موقوفاً عليه، وهذا إسناد ضعيف، فمحمد بن حيي، فيه جهالة، ولم أجد من وثقه غير ابن حبان (٧/ ٣٦٦) على قاعدته في توثيق من لا يُعرف، ثم إنه قد اضطرب فيه، فرواه الإمام البخاري في تاريخه الكبير (٨/ ٤١٤)، قال: قال لنا أبو عاصم: نا عبد الله بن أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد، عن محمد بن حيي، عن صفوان بن يعلى به. ولم يذكر أباه في السند.

(٥) الحجة لأبي علي الفارسي (٤/ ٢٦٥).

(٦) تقدم في تفسير الآية (١٣٧) من سورة آل عمران.

وكذلك هي في مصحف ابن مسعود، وفي مصحف أبي شيخ[١].

وقال عوف بن أبي جميلة[٢]: قد كان يقرأ: ﴿يَنْشُركم﴾ فغيَّرها الحجاج بن يوسف ﴿يُسَيِّرُكُمْ﴾[٣]، قال سفيان بن أبي الزعل: كانوا يقرؤون: ﴿ينشركم﴾ فنظروا في مصحف ابن عفان فوجدوها: ﴿يُسَيِّرُكُمْ﴾، فأول من كتبها كذلك الحجاج[٤].

وقرأ ابن كثير في بعض طرقه: (يُسِيْركم)[٥] من أسار.

وقرأ ابن عامر وحده من السبعة: ﴿ينشركم﴾ بفتح الياء وضم الشين[٦] من النشر والبث، وهي قراءة زيد بن ثابت والحسن وأبي العالية وأبي جعفر وعبد الله بن جبير بن الفصيح[٧] وأبي عبد الرحمن وشيبة[٨].

وروي عن الحسن أنه قرأ (يُنشِركم) بضم الياء وكسر الشين[٩]، وقال: هي قراءة عبد الله[١٠]، قال أبو حاتم: أظنه غلِط.

---

(١) هو أبو شيخ الهنائي حيوان ـ وقيل: خيوان ـ المقرئ، حدث عن ابن عمر، ومعاوية، وعنه: قتادة، ومطر الوراق، ويحيى بن أبي كثير، ويونس بن مهران، قال شباب: هو بصري، مات بعد المئة. تاريخ الإسلام (٧/ ٢٩٢).

(٢) عوف بن أبي جميلة الأعرابي، أبو سهل مولى لطيئ، وكان ثقة كثير الحديث، مات سنة (١٤٦هـ). الطبقات الكبرى (٧/ ١٩١).

(٣) انظر كتاب المصاحف (١/ ١٥٧).

(٤) في الأسدية: «الدغل»، وفي التحرير والتنوير (١١/ ١٣٦) عن ابن عطية: «الزغل»، ولم أقف له على ترجمة، ولم أجد من نقل هذا عنه.

(٥) وهي شاذة ليست من الطرق، ولم أجدها في شيء من المصادر المتوفرة.

(٦) فهما سبعيتان، انظر: التيسير (ص: ١٢١)، وكذا أبو جعفر كما في النشر (٢/ ٣١٨).

(٧) لعله عبد الله بن جبير الهاشمي المكي، روى الحروف عن أحمد بن القواس وعرض على قنبل، روى عنه الحروف إسحاق بن أحمد الخزاعي، وعرض عليه أبو بكر الداجوني. غاية النهاية (١/ ٤١٢)، ولم أجد ذكراً للفصيح في نسبه.

(٨) انظر عزوها لهم في البحر المحيط (٦/ ٣٢)، ونسبت للحسن في إتحاف فضلاء البشر (١/ ٣١١).

(٩) وهي قراءة شاذة، انظر: مختصر الشواذ (ص: ٦١)، والشواذ للكرماني (ص: ٢٢٥).

(١٠) انظر: البحر المحيط لأبي حيان (٦/ ٣٢)، ولم أقف على اعتراض أبي حاتم، إلا أنه تقدم قريباً أنها في مصحف عبد الله ﴿يُسَيِّرُكُمْ﴾.

و﴿ٱلۡفُلۡكِ﴾ جمع فُلْك، وليس باسم واحد للجميع والفرد، ولكنه فُعْلٌ جُمع على فُعْلٍ، ومما يدل على ذلك قولهم: فُلْكان في التثنية.

وقراءة أبي الدرداء وأم الدرداء: (في الفُلْكيّ)[١] على وزن فُعْليّ بياء نسب، وذلك كقولهم: أشقري، وكدَوَّاري في دور الدهر، وكقول الصَّلَتان: أنا الصَّلَتاني[٢].

وقوله: ﴿وَجَرَيۡنَ﴾ علامة قليل العدد.

وقوله: ﴿بِهِم﴾ خروج من الحضور إلى الغيبة، وحسُن ذلك لأن قوله: ﴿كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ﴾ هو بالمعنى المعقول: حتى إذا حصل بعضكم في السفن، والريح إذا أفردت فعُرفها أن تستعمل في العذاب والمكروه، لكنها لا يحسن في البحر أن تكون إلا واحدة متصلة لا نشراً، فقيدت المفردة بالطيب فخرجت عن ذلك / العرف وبرع المعنى. [٣/ ٧]

وقرأ ابن أبي عبلة: (جاءتهم ريح عاصف)[٣].

والعاصف: الشديدة من الريح، يقال: أعصفت الريح.

وقوله: ﴿وَظَنُّوٓاْ﴾ على بابه في الظن، لكنه ظن غالب مفزع بحسب أنه في محذور.

وقوله: ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ﴾ أي: نسوا الأصنام والشركاء وجردوا الدعاء لله، وذكر الطبري في ذلك عن بعض العلماء حكاية قول العجم: «هيا شراهيا» ومعناه: يا حي يا قيوم، قال الطبري: جواب قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ﴾: ﴿جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾، وجواب قوله: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ﴾: ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ﴾[٤].

---

(١) وهي قراءة شاذة، انظر عزوها لأم الدرداء في المحتسب (١/ ٣١٠)، وتابعه على أبي الدرداء في البحر المحيط (٦/ ٣٣).

(٢) إشارة إلى قول الصلتان العبدي ـ وهو قثم بن خبيئة، من عبد القيس ـ حين اجتُمع إليه في الحكم بين الفرزدق وجرير: أنا الصّلتانيّ الذي قد علمتمُ... متى ما يحكّم فهو بالحقّ صادع، الشعر والشعراء (١/ ٤٩١).

(٣) وهي مخالفة للرسم، تابعه عليه في البحر المحيط (٦/ ٣٤).

(٤) انظر تفسير الطبري (١٥/ ٥١، ٥٣) فقد حكاه عن أبي عبيدة.

قوله عز وجل: ﴿ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾.

﴿يَبْغُونَ﴾ أي: يفسدون ويكفرون، والبغي: التعدي والأعمال الفاسدة، ووكد ذلك بقوله: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾، ثم ابتدأ بالزجر وذم البغي في أوجز لفظ.

وقوله: ﴿متاعُ الحياة﴾ رفعٌ، وهذه قراءة الجمهور، وذلك على خبر الابتداء، والمبتدأ: ﴿بَغْيُكُمْ﴾، ويصح أن يرتفع ﴿مَتاعُ﴾ على خبر ابتداء مضمر تقديره: ذلك متاع، أو هو متاع، وخبر البغي قوله: ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾.

وقرأ حفص عن عاصم، وهارون عن ابن كثير، وابنُ أبي إسحاق: ﴿مَّتَٰعَ﴾ بالنصب[1]، وهو مصدر في موضع الحال من (البغي)، وخبر البغي على هذا محذوف تقديره: مذموم أو مكروه ونحو هذا، ولا يجوز أن يكون الخبر قوله: ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ لأنه كان يحول بين المصدر وما عَمل فيه بأجنبي، ويصح أن ينتصب ﴿مَّتَٰعَ﴾ بفعل مضمر تقديره: تمتعون متاع الحياة الدنيا، وقرأ ابن أبي إسحاق: (متاعاً الحياةَ الدنيا) بالنصب فيهما[2].

ومعنى الآية: إنما بغيكم وإفسادكم مضرٌّ لكم وهو في حالة الدنيا ثم تلقون عقابه في الآخرة، قال سفيان بن عيينة: ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، أي: تعجل لكم عقوبته في الحياة الدنيا[3]، وعلى هذا قالوا: البغي يصرع أهله[4].

قال القاضي أبو محمد: وقالوا: الباغي مصروع، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ

---

(١) فهما سبعيتان، انظر رواية حفص في التيسير (ص: ١٢١)، وهارون عن ابن كثير في السبعة (ص: ٣٢٥)، وابن أبي إسحاق في إعراب القرآن للنحاس (٢/ ١٤٤)، وهي رواية محبوب عن أبي عمرو كما في الكامل للهذلي (ص: ٥٦٧).

(٢) وهي شاذة، تابعه عليها في البحر المحيط (٦/ ٣٦).

(٣) انظر قول سفيان بن عيينة في تفسير القرطبي (٨/ ٣٢٦).

(٤) إشارة إلى قول يزيد بن الحكم الثقفي يعظ ابنه: والبغي يصرع أهله* والظلم مرتعه وخيم، انظر: الحماسة بشرح التبريزي (٢/ ٤٥).

﴿لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ﴾ [الحج: ٦٠]، وقال النبي ﷺ: «ما من ذنب أسرع عقوبة من بغي»[(١)].

وقرأت فرقة: ﴿فَنُنَبِّئُكُم﴾ على ضمير المعظم المتكلم.

وقرأت فرقة: (فينبئكم) على ضمير الغائب[(٢)]، والمراد الله عز وجل.

قوله عز وجل: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

المعنى: إِنَّما مَثَلُ تفاخر الحياة الدنيا وزينتها بالمال والبنين إذ يصير ذلك إلى الفناء، كمطرٍ نزل من السماء ﴿فَٱخْتَلَطَ﴾، ووقف هنا بعض القراء على معنى: فاختلط الماء بالأرض، ثم استأنف به ﴿نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾ على الابتداء والخبر المقدم، ويحتمل على هذا أن يعود الضمير في ﴿بِهِۦ﴾ على الماء أو على الاختلاط الذي يتضمنه القول. ووصلت فرقة فرفعُ النبات على ذلك بقوله: (اختلط) أي: اختلط النبات بعضه ببعض بسبب الماء.

وقوله: ﴿مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ﴾، يريد الزروع والأشجار ونحو ذلك.

وقوله: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمُ﴾ يريد سائر العشب المرعي، و﴿أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ لفظةٌ كثرت في مثل هذا كقوله: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمْ﴾ [الأعراف: ٣١].

والزخرف: التزين بالألوان، وقد يجيء الزخرف بمعنى الذهب إذ الذهب منه.

وقرأ مروان بن الحكم وأبو جعفر والسبعة وشيبة ومجاهد والجمهور: ﴿وَٱزَّيَّنَتْ﴾، أصله: تزينت، سكنت التاء لتدغم فاحتيج إلى ألف الوصل.

---

(١) إسناده لا بأس به، وقد ذكره المصنف بالمعنى، أخرجه أحمد في مسنده (٣٤/ ٨)، والبخاري في الأدب المفرد (٦٧)، وأبو داود (٤٩٠٢)، والترمذي (٢٥١١) وصححه، وابن ماجه (٤٢١١)، كلهم من طريق عيينة بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن أبي بكرة، مرفوعاً بلفظ: «ما من ذنب أجدر أن يعجل الله لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يدخر له في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم». اهـ.

(٢) وهي شاذة، تابعه عليه في البحر المحيط (٦/ ٣٦)، ولم ينسبها لمعين، والأولى هي المتواترة.

وقرأ ابن مسعود والأعمش وأبيّ بن كعب: (وتزينت)[١]، وهذه أصل قراءة الجمهور.

وقرأ الحسن وأبو العالية والشعبي وقتادة ونصر بن عاصم وعيسى: (وأَزْيَنَت)[٢] على معنى: حضرت زينتُها، كما تقول: أحصد الزرع.

[وقرأت فرقة][٣]: (وأزينت)[٤] على مثل أفعلت.

وقال عوف بن أبي جميلة: كان أشياخنا يقرؤونها: (وازْيانَّت)، النونُ شديدةٌ والألفُ ساكنة قبلها، وهي قراءة أبي عثمان النهدي[٥].

وقرأت فرقة: (وازْيَأنتْ)[٦]، وهي لغة منها قول الشاعر:

.... إِذَامَاالْعَوَالِي بِالْعَبِيطِ احْمَأَرَّتِ[٧] [الطويل]

وقرأت فرقة: (وازَّاينت)[٨]، والمعنى في هذا كله: ظهرت زينتها.

وقوله: ﴿وَظَنَّ أَهْلُهَآ﴾ على بابها.

والضمير في ﴿عَلَيْهَآ﴾ عائد على ﴿ٱلْأَرْضُ﴾، والمراد ما فيها من نعمة ونبات، وهذا

---

(١) وهي شاذة، انظر عزوها لعبد الله في تفسير الثعلبي (٥/ ١٢٧)، وللثلاثة وآخرين في البحر المحيط (٦/ ٣٨).

(٢) وهي شاذة، انظر عزوها لهم في المحتسب (١/ ٣١١).

(٣) زيادة من أحمد٣ ونجيبويه والتركية والأسدية ونور العثمانية، ويحتاج إلى تفريق بينها وبين التي قبلها.

(٤) من الأسدية والتركية والحمزاوية والمطبوع ونور العثمانية.

(٥) انظر قول عوف في إعراب القرآن للنحاس (٢/ ١٤٥)، وتابعه على عزوها للنهدي في البحر المحيط (٦/ ٣٨).

(٦) شاذة، وهي قراءة النهدي كما في المحتسب (١/ ٣١١)، مختصر الشواذ (ص: ٦١)، ونقل عنه تفسير الثعلبي (٥/ ١٢٧): وازّانت.

(٧) في المطبوع: «العبيط»، والبيت تقدم في آخر تفسير سورة البقرة.

(٨) وهي شاذة، عزاها مكي في الهداية (٥/ ٣٢٤٧)، والنحاس في إعراب القرآن (٢/ ١٤٥) لرواية المقدّمي.

الكلام فيه تشبيه جملةِ أمر الحياة الدنيا بهذه الجملة الموصوفة أحوالُها، و﴿حَتَّىٰٓ﴾ غاية، وهي حرف ابتداء لدخولها على ﴿إِذَآ﴾ ومعناها متصل إلى قوله: ﴿قَـٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ﴾، ومن بعد ذلك بدأ الجواب، و(الأمر الآتي): واحد الأمور كالريح والصر والسموم ونحو ذلك، وتقسيمه ليلاً أو نهاراً؛ تنبيه على الخوف وارتفاع الأمن[1] في كل وقت.

و﴿حَصِيدًا﴾: فعيل بمعنى مفعول، وعبر بـ(حصيد) عن التالف الهالك من النبات وإن لم يهلك بحصاد إذ الحكم فيهما واحد، وكأن الآفة حصدته قبل أوانه.

وقوله: ﴿كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ﴾ أي: كأنْ لم تنعم ولم تنضر ولم تعمر[2] بغضارتها.

وقرأ قتادة: (يغن) بالياء من تحت يعني الحصيد، وقرأ مروان: (كأن لم تتغنَّ) بتائين[3]، مثل تتفعل، والمغاني: المنازل المعمورة، ومنه قول الشاعر:

[الوافر] وقـد نَغْنَـى بهـا ونـرى عُصـوراً بهـا يَقْتَدْنَنَـا الخُـرُدَ الخِـدالا[4]

وفي مصحف أبي بن كعب: (كأن لم تغن بالأمس وما كنا لنهلكها إلا بذنوب أهلها كذلك نفصل الآيات)، رواها عنه ابن عباس، وقيل: إن فيه: (ما كان الله ليهلكها إلا بذنوب أهلها)[5].

وقرأ أبو الدرداء: (لقوم يتذكرون)[6].

---

(١) في الأصل والأسدية: «الأمر».

(٢) في المطبوع: «تغر» بدل «تعمر».

(٣) وهما شاذتان، انظرهما في الشواذ للكرماني (ص: ٢٢٦)، والأولى في المحتسب (١/ ٣١٢)، والثانية في مختصر الشواذ (ص: ٦١).

(٤) تقدم في تفسير الآية (٩٠) من سورة الأعراف.

(٥) وكل ذلك مخالف للمصحف، ولم نجد شيئاً منه إلا في البحر المحيط (٦/ ٣٩)، ونقل عن التحرير عزو الثانية لرواية أبي سلمة بن عبد الرحمن عن أبي، وأنه قال: ولا يحسن أن يقرأ أحد بهذه القراءة لأنها مخالفة لخط المصحف الذي أجمع عليه الصحابة والتابعون.

(٦) وهي أيضاً مخالفة للمصحف لم يتابعه عليها إلا صاحب البحر المحيط (٦/ ٤٠).

ومعنى الآية: التحذير من الاغترار بالدنيا، إذ هي معرضة للتلف وأن يصيبها ما أصاب هذه الأرض / المذكورة بموت أو غيره من رزايا الدنيا، وخص المتفكرين [٣/ ٨] بالذكر تشريفاً للمنزلة وليقع التسابق إلى هذه الرتبة.

قوله عز وجل: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٢٥ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٢٦ وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٢٧﴾.

نصت هذه الآية أن الدعاء إلى[١] الشرع عام في كل بشر، والهداية التي هي الإرشاد مختصة بمن قدِّر إيمانه، و﴿ٱلسَّلَٰمِ﴾ قيل: هو اسم الله عز وجل، فالمعنى: يدعو إلى داره التي هي الجنة، وإضافتها إليه إضافة ملْك إلى مالك، وقيل: ﴿ٱلسَّلَٰمِ﴾ بمعنى السلامة، أي: من دخلها ظفر بالسلامة وأمن الفناء والآفات، وهذه الآية رادة على المعتزلة[٢].

وقد وردت في دعوة الله تعالى عباده أحاديث منها رؤيا النبي ﷺ [إذ رأى في نومه][٣] جبريل وميكائيل ومثّلا دعوة الله، ومحمداً الداعي، والملة المدعوَّ إليها، والجنة التي هي ثمرة الغفران، بالمأدبة يدعو إليها مَلِك إلى منزله[٤].

وقال قتادة في كلامه على هذه الآية: ذكر لنا أن في التوراة مكتوباً: «يا باغي الخير هلم ويا باغي الشر انته»[٥].

---

(١) في المطبوع: «على».

(٢) انظر قول المعتزلة والاستدلال على رده بالآية في: الفرق بين الفرق (١/ ٣٢٩-٣٣٠).

(٣) إذ رأى في نومه ساقطة من المطبوع وأحمد٣.

(٤) أخرجه البخاري (٧٢٨١) من حديث جابر بلفظ: «جاءت ملائكة إلى النبي ﷺ وهو نائم فقال بعضهم: إنه نائم، وقال بعضهم: إن العين نائمة والقلب يقظان، فقالوا: إن لصاحبكم هذا مثلاً فاضربوا له مثلاً»، وعند غير البخاري أن الذي أتاه جبريل وميكائيل.

(٥) انظر تفسير الطبري (١٥/ ٦٠)، وفي الأسدية والتركية: «أقصر»، بدل «انته»، والمثبت هو الموافق للمصدر.

وقوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ الآية، قالت فرقة وهي الجمهور: ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾: الجنة، والزيادة: النظر إلى وجه الله عز وجل.

وروي في نحو ذلك حديث عن النبي ﷺ رواه صهيب[١].

وروي هذا القول عن أبي بكر الصديق[٢] وحذيفة[٣] وأبي موسى الأشعري[٤]

---

(١) لا يصح مرفوعاً بهذا اللفظ، هذا الحديث روي بهذا اللفظ مرفوعاً عن أبي موسى وكعب بن عجرة وأبي بن كعب وابن عمر وأنس، أما حديث كعب بن عجرة فأخرجه الطبري (١٥/ ٦٨) عن: ابن حميد قال: حدثنا إبراهيم بن المختار، عن ابن جريج، عن عطاء، عن كعب بن عجرة، مرفوعاً. وهذا إسناد تالف، إبراهيم بن المختار هو التميمي، قال البخاري: «فيه نظر»، وقال ابن حبان: «يتقي حديثه من رواية ابن حميد عنه»، وأخرجه الطبري أيضاً (١٥/ ٦٩) من طريق: عمرو بن أبي سلمة قال: سمعت زهيراً، عمن سمع أبا العالية قال: حدثنا أبيّ بن كعب به مرفوعاً. وفيه جهالة شيخ زهير، وحديث أبي موسى روي مرفوعاً وموقوفاً، والموقوف أصح وأكثر، وحديث ابن عمر رواه ابن مردويه في تفسيره من حديث الهيثم بن جميل حدثنا أبو معشر عن نافع عن ابن عمر مرفوعاً. وأبو معشر هو نجيح السندي ضعيف لا يقيم الإسناد، وحديث أنس رواه ابن مردويه أيضاً من حديث نوح بن أبي مريم عن ثابت عن أنس بن مالك مرفوعاً، ونوح يضع الحديث، ينظر تخريج الزيلعي لأحاديث الكشاف (٢/ ١٢٥)، وقد روي هذا اللفظ عن جماعة كثيرة من الصحابة والتابعين، وسيأتي بعضها، وهذا هو الأشبه، ولا يصح هذا اللفظ مرفوعاً، وأخرج مسلم في صحيحه (١٨١) من حديث صهيب الرومي رضي الله عنه، مرفوعاً: «إذا دخل أهل الجنة الجنة، قال: يقول الله تبارك وتعالى: تريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل».

(٢) حسن، هذا الأثر أخرجه الطبري (١٥/ ٦٣)، وابن أبي عاصم في السنة (١/ ٢٠٦)، والآجري في التصديق بالنظر إلى الله تعالى (٢٠)، كلهم من طريق إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن عامر بن سعد، عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه به، وهذا إسناد حسن، رواته كلهم ثقات، سوى عامر بن سعد، فهو من رجال مسلم، وقد خولف أبو إسحاق في حديثه هذا، إلا أن هذه الطريق هي المحفوظة، نص عليه الدارقطني في علله (١/ ٢٨٣).

(٣) حسن، هذا الأثر أخرجه الطبري (١٥/ ٦٤)، وابن أبي عاصم في السنة (١/ ٢٠٦) من طريقين صحيحين، عن أبي إسحاق، عن مسلم بن نذير، عن حذيفة بن اليمان، رضي الله عنه، به، وهذا إسناد حسن، مسلم بن نذير، قال فيه أبو حاتم: «لا بأس به».

(٤) ضعيف جداً، أخرجه ابن جرير (١٥/ ٦٤)، وابن أبي حاتم (١١١٧٥) من طريق أبي بكر الهذلي، ثنا أبو تميمة، سمعت أبا موسى، فذكره، وهذا إسناد ضعيف جدّاً، من أجل أبي بكر الهذلي، فهو =

وعامر بن سعد[١] وعبد الرحمن بن أبي ليلى[٢].

وروي عن علي بن أبي طالب أنه قال: «الزيادة: غرفة من لؤلؤة واحدة»[٣].

وقالت فرقة: ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ هي الحسنة، والزيادة هي تضعيف الحسنات إلى سبع مئة فدونها، حسبما روي في نص الحديث[٤]، وتفسِير قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٦١]، وهذا قول يعضده النظر، ولولا عِظم القائلين بالقول الأول لترجح هذا القول.

وطريق ترجيحه: أن الآية تتضمن اقتراناً بين ذكر عُمَّال الحسنات وعُمَّال السيئات، فوصف المحسنين بأن لهم على إحسانهم حسنى وزيادة[٥] من جنسها، ووصف المسيئين بأن لهم بالسيئة مثلها، فتعادل الكلامان، وعبر عن الحسنات بالْحُسْنى مبالغة، إذ هي عشرة.

وقال الطبري: ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ عامٌّ في كل حسنى، فهي تعم جميع ما قيل، ووعد الله تعالى على جميعها بالزيادة[٦]، ويؤيد ذلك أيضاً قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾، ولو كان معنى الْحُسْنى الجنة لكان في القول تكرير بالمعنى، على أن هذا ينفصل عنه بأنه وصف المحسنين بأن لهم الجنة وأنهم لا يرهق وجوهم قتر ولا ذلة، ثم قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ

= متروك الحديث، وانظر قول عامر بن سعد في: تفسير الطبري (١٥/ ٦٤)، وقول عبد الرحمن بن أبي ليلى فيه (١٥/ ٦٦).

(١) عامر بن سعد بن أبي وقاص الزهري المدني، سمع: أباه، وأسامة بن زيد، وأبا هريرة، وعائشة، وعنه: ابنه داود، وابنا أخويه، والزهري، وعمرو بن دينار، وموسى بن عقبة، وكان ثقة شريفاً، كثير الحديث. توفي سنة (١٠٤هـ). تاريخ الإسلام (٧/ ١٢٣).

(٢) انظر قولهما في تفسير الطبري (١٥/ ٦٤-٦٦).

(٣) منقطع، هذا الأثر أخرجه سعيد بن منصور في سننه (٥/ ٣١٠)، والطبري (١٥/ ٦٩)، كلاهما من طريق جرير، عن منصور، عن الحكم بن عتيبة، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه به، والحكم لم يدرك علياً.

(٤) متفق عليه، أخرجه البخاري (٦١٢٦) ومسلم (١٣١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً.

(٥) في المطبوع: «حسنى زيادة»، دون عطف.

(٦) انظر: تفسير الطبري (١٥/ ٦٢).

﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ﴾ على جهة المدح لهم، أي: أولئك مستحقوها وأصحابها حقّاً وباستيجاب.

و﴿يَرۡهَقُ﴾ معناه: يغشى مع ذلة[1] وتضييق، والقتر: الغبار المسودّ، ومنه قول الشاعر:

مُتَـوَّجٌ بِـرِداءِ المُلْـكِ يَتْبَـعُـهُ مَـوْجٌ تَرى فَوْقَهُ الرَّاياتِ وَالْقَتَرا[2] [البسيط]

وقرأ الحسن وعيسى بن عمر والأعمش وأبو رجاء: (قتْر) بسكون التاء[3].

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ الآية، اختلف النحويون في رفع الجزاء بم هو؟ فقالت فرقة: التقدير: لهم جزاء سيئة بمثلها، وقالت فرقة: التقدير: جزاء سيئة مثلُها[4]، والباء زائدة.

قال القاضي أبو محمد: ويتوجه أن يكون رفع الجزاء على المبتدأ وخبره في (الَّذِينَ) لأن (الَّذِينَ) معطوف على قوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ﴾، فكأنه قال: وللذين[5] كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها، وعلى الوجه الآخر فقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ رفع بالابتداء، وتعم ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ هاهنا الكفر والمعاصي، فمثل سيئة الكفر التخليد في النار، ومثل سيئة المعاصي مصروف إلى مشيئة الله تعالى.

والعاصم: المنجي، ومنه قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِ﴾ [هود: ٤٣].

و﴿أُغۡشِيَتۡ﴾: كسيت، ومنه الغشاوة، والقطع جمع قطعة.

---

(١) في نجيبويه: «غلبة».

(٢) البيت للفرزدق، كما في مجاز القرآن (١/ ٢٧٧)، والصحاح للجوهري (٢/ ٧٨٥).

(٣) وهي قراءة شاذة، انظر عزوها للحسن والأعمش في مختصر الشواذ (ص: ٦١)، وللأربعة في البحر المحيط (٦/ ٤٤).

(٤) في الأسدية والتركية ونور العثمانية ونجيبويه: «كائن بمثلها»، والصواب المثبت. انظر: البحر المحيط (٦/ ٤٥).

(٥) «وللذين» من نجيبويه، وفي باقي النسخ: «والذين»، وهو خطأ. انظر: البحر المحيط (٦/ ٤٥).

وقرأ ابن كثير والكسائي: ﴿قطْعاً﴾ من الليل بسكون الطاء، وقرأ الباقون بفتح الطاء[1].

والقِطْع: الجزء من الليل، ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ [هود: ٨١]، وهذا يراد به الجزء من زمان الليل، وفي هذه الآية يراد الجزء من سواده.

و﴿مُظْلِمًا﴾، نعت لـ(قطْع)، ويجوز أن يكون حالاً من الذكر الذي في قوله: ﴿مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾، فإذا كان نعتاً فكان حقه أن يكون قبل الجملة، ولكن قد يجيء بعدها، وتقدير الجملة: قطعْاً استقرَّ من الليل مظلماً، على نحو قوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ [الأنعام: ١٥٥].

ومن قرأ: ﴿قِطَعًا﴾ على جمع قطعة فنصبُ ﴿مُظْلِمًا﴾ على الحال مِنَ ﴿ٱلَّيْلِ﴾، والعامل في الحال ﴿مِّنَ﴾ إذ هي العامل في ذي الحال.

وقرأ أبي بن كعب: (كأنما يَغْشَى وجوهَهم قطعٌ من الليل وظُلم)[2].

وقرأ ابن أبي عبلة: (قطع من الليل مظلم) بتحريك الطاء في (قطع)[3].

قوله عز وجل: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ ۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ ۚ وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

---

(١) وهما سبعيتان، انظر: التيسير (ص: ١٢١) والكسائي ساقط من المطبوع، وقد وافقهما يعقوب كما في النشر (٢/ ٣١٨).

(٢) وهي شاذة، انظر عزوها له في معاني القرآن للفراء (١/ ٤٦٢)، وتفسير الثعلبي (٥/ ١٣٠)، والهداية لمكي (٥/ ٣٢٥٧)، وتفسير الطبري (١٥/ ٧٦)، ومختصر الشواذ (ص: ٦١)، وفي أحمد٣ والمطبوع: «مظلم» بدل «وظلم»، وهو الموافق لما في المصادر.

(٣) وهي شاذة تابعه عليها في البحر المحيط (٦/ ٤٨).

قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وعاصم والحسن وشيبة وغيرهم: ﴿نَحْشُرُهُمْ﴾ بالنون، وقرأت فرقة: (يحشرهم) بالياء[(١)].

والضمير في ﴿نَحْشُرُهُمْ﴾ عائد على جميع الناس محسنين ومسيئين.

و﴿مَكَانَكُمْ﴾ نصب على تقدير: لازموا مكانكم، وذلك مقترن بحال شدة وخزي.

و﴿مَكَانَكُمْ﴾ في هذا الموضع من أسماء الأفعال، إذ معناه: قفوا واسكنوا، وهذا خبر من الله تعالى عن حالةٍ / تكون لعبدة الأوثان يوم القيامة، يؤمرون بالإقامة في موقف الخزي مع أصنامهم ثم يُنطق الله الأصنام بالتبري منهم. [٣/ ٩]

وقوله: ﴿وَشُرَكَآؤُكُمْ﴾، أي: الذين تزعمون أنتم أنهم شركاء لله، فأضافهم إليهم لأن كونهم شركاءَ إنما هو بزعم هؤلاء، وقوله: ﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ معناه: فرقنا في الحجة والمذهب، وهو من زِلْتُ الشيءَ عن الشيء أَزيله، وهو تضعيف مبالغة لا تعدية، وكون مصدر (زيَّل) تزييلاً، يدل على أن (زيل) إنما هو فعَّل لا فَيْعَلَ، لأن مصدره كان يجيء على فَيْعَلة.

وقرأت فرقة: (فزايلنا)[(٢)].

وروي عن النبي ﷺ أن الكفار إذا رأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب قيل لهم: اتبعوا ما كنتم تعبدون، فيقولون: كنا نعبد هؤلاء، فتقول الأصنام: والله ما كنا نسمع ولا نعقل وما كُنتُمْ إِيَّانا تَعْبُدُونَ، فيقولون: والله لإياكم كنا نعبد، فتقول الآلهة: ﴿فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ الآية[(٣)].

وظاهر هذه الآية أن محاورتهم إنما هي مع الأصنام دون الملائكة وعيسى ابنِ

---

(١) وهي شاذة، وبالنون قراءة العشرة. انظر: النشر (٢/ ٢٦٢).

(٢) وهي شاذة، انظرها بلا نسبة في معاني القرآن للفراء (١/ ٤٦٢)، وتفسير الطبري (١٥/ ٧٨)، والهداية لمكي (٥/ ٣٢٥٨)، وإعراب القرآن للنحاس (٢/ ١٤٥)، وعزاها الهذلي في الكامل (ص: ٥٦٧)، والكرماني في الشواذ (ص: ٢٢٦) لابن أبي عبلة.

(٣) لم أجده مرفوعاً إلى رسول الله ﷺ، بل أخرجه ابن جرير (١٥/ ٧٨)، وابن أبي حاتم (١٠٣٦٢)، في تفسيريهما من قول مجاهد به.

مريم، بدليل القول لهم: ﴿مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ﴾ ودون فرعون ومَن عُبد من الجن، بدليل قولهم: ﴿إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ﴾، وهؤلاء لم يغفلوا قط عن عبادةِ مَن عبدهم.

و﴿أَنتُمْ﴾ رفع بالابتداء، والخبر: موبَّخون أو مهانون، ويجوز أن يكون ﴿أَنتُمْ﴾ تأكيداً للضمير الذي في الفعل المقدر الذي هو قفوا أو نحوه.

و﴿شَهِيدًا﴾ نصب على التمييز، وقيل: على الحال.

و﴿إِن﴾ هذه عند سيبويه هي مخففة موجبةٌ حرفَ ابتداء، ولزمتها اللام فرقاً بينها وبين «إنْ» النافية، وقال الفراء: ﴿إِن﴾ بمعنى «ما» واللام بمعنى «إلا»[1]. و﴿هُنَالِكَ﴾ نصب على الظرف.

وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وعاصم وابن عامر: ﴿تَبْلُواْ﴾ بالباء بواحدة بمعنى: تختبر، وقرأ حمزة والكسائي: ﴿تتلوا﴾ بالتاء بنقطتين من فوق[2] بمعنى تتبع، أي: تطلب وتتبع ما أسلفت من أعمالها، ويصح أن يكون بمعنى: تقرأ كتبها التي ترفع إليها.

وقرأ يحيى بن وثاب (ورِدُّوا) بكسر الراء[3]، والجمهور: ﴿وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾، أي: ردوا إلى عقاب مالكهم وشديد بأسه، فهو مولاهم في الملك والإحاطة لا في الرحمة والنصر ونحوه.

قوله عز وجل: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

---

(١) هذا مذهبهما في مثل هذا، وليس في هذه الآية خاصة.

(٢) وهما سَبْعيتان، انظر: التيسير (ص: ١٢١).

(٣) وهي شاذة، انظر عزوها له في البحر المحيط (٦/ ٥٢)، وتقدم في الآية (٢٨) من سورة الأنعام عزوها له ولإبراهيم والأعمش.

هذا توقيف وتوبيخ واحتجاج لا محيد عن التزامه، و﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ يريد: بالمطر، ومن (الْأَرْضِ) يريد بالإنبات ونحو ذلك.

و﴿يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾، لفظ يعم جملة الإنسان ومعظمه، حتى إن ما عداهما من الحواس[1] تبع.

و﴿يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾: الجنين من النطفة، والطائر من البيضة، والنبات من الأرض، إذ له نمو شبيه بالحياة، ﴿وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ﴾، مثل البيضة من الطائر ونحو ذلك، وقد تقدم فيما سلف إيعاب القول في هذه المعاني.

وتدبير الأمر عام لهذا وغيره من جميع الأشياء، وذلك استقامة الأمور كلها عن إرادته عز وجل، وليس تدبيره بفكر ولا روية وتغيرات تعالى عن ذلك، بل علمه محيط كامل دائم، ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ لا مندوحة لهم عن ذلك، ولا تُمْكنهم المباهتة بسواه، فإذا أقروا بذلك ﴿فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ في افترائكم وجَعْلكم الأصنام آلهة.

وقوله تعالى: ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ﴾ الآية، يقول: فهذا الذي هذه صفاته ﴿رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ﴾: أي: المستوجب للعبادة والألوهية، وإذا كان ذلك فتشريك غيره ضلال وغير حق.

وعبارة القرآن في سَوق هذه المعاني تفوت كل تفسير براعة وإيجازاً وإيضاحاً.

وحكمت هذه الآية بأنه ليس بين الحق والضلال منزلة ثالثة في هذه المسألة التي هي توحيد الله، وكذلك هو الأمر في نظائرها، وهي مسائل الأصول التي الحقُّ فيها في طرف واحد، لأن الكلام فيها إنما هو في تقرير وجود ذات كيف هي.

وذلك بخلاف مسائل الفروع التي قال الله تعالى فيها: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]، وقال النبي ﷺ: «الحلال بيّن والحرام بيّن وبينهما أمور متشابهات»[2].

---

(١) «من الحواس» ساقطة من المطبوع.

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري (٥٢) ومسلم (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه مرفوعاً به.

والْحَقُّ في هذه في الطرفين لأن المتعبدين إنما طلبوا بالاجتهاد لا بعين[1] في كل نازلة، ويدلك على أن الحق في الطرفين اختلاف الشرائع بتحليل وتحريم في شيء واحد، والكلام في مسائل الفروع إنما هو في أحكام طارئة على وجود ذات متقرِّرة لا يُختلف فيها، وإنما يختلف في الأحكام المتعلقة بالمتشرع.

وقوله: ﴿فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ﴾ تقرير كما قال: ﴿فَأَيۡنَ تَذۡهَبُونَ﴾ [التكوير: ٢٦].

ثم قال: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتۡ﴾ أي: كما كانت صفات الله كما وصف، وعبادته واجبة كما تقرَّر، وانصراف هؤلاء كما قدر عليهم وتكسبوا ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتۡ﴾.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم وحمزة والكسائي هنا وفي آخر السورة: ﴿كَلِمَةُ﴾ على الإفراد الذي يراد به الجمع، كما يقال للقصيدة: كلمةٌ، فعبَّر عن وعيد الله تعالى بكلمته.

وقرأ نافع وابن عامر في الموضعين المذكورين: ﴿كلمات﴾، وهي قراءة أبي جعفر وشيبة بن نصاح[2]، وهذه الآية إخبار أن في الكفار من حتم الله بكفره وقضى بتخليده.

وقرأ ابن أبي عبلة: (إِنهم) بكسر الألف[3].

قوله عز وجل: ﴿قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ (٣٤) قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهۡدِي لِلۡحَقِّۗ أَفَمَن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهۡدَىٰۖ فَمَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ (٣٥) وَمَا يَتَّبِعُ أَكۡثَرُهُمۡ إِلَّا ظَنًّاۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ (٣٦)﴾.

هذا توقيف أيضاً على قصور الأصنام وعجزها، وتنبيه على قدرة / الله عز وجل، [٣/ ١٠] وبدءُ الخلق يريد به إنشاء الإنسان في أول أمره، وإعادتُه هي البعث من القبور.

---

(١) في أحمد٣ والمطبوع: لا بالتعيين.

(٢) وهما سبعيتان، انظر التيسير (ص: ١٢٢)، والنشر (٢/ ٢٦٢).

(٣) وهي شاذة، انظر: البحر المحيط (٦/ ٥٤).

و﴿تُؤۡفَكُونَ﴾ معناه: تصرفون وتحرمون، تقول العرب: أرض مأفوكة، إذا لم يصبها مطر فهي بمعنى الخيبة والقلب[1]، كما قال: ﴿وَٱلۡمُؤۡتَفِكَةَ أَهۡوَىٰ﴾ [النجم: ٥٣].

وقوله تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهۡدِيٓ﴾ الآية، ﴿يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ﴾ يريد به: يبين طرق الصواب، ويدعو إلى العدل، ويفصح بالآيات ونحو هذا، ووصف الأصنام بأنها لا تهدي إلا أن تُهدى، ونحن نجدها لا تهتدي وإن هديت، فوجه ذلك أنه عامَلَ في العبارة عنها معاملتهم في وصفها بأوصافِ مَن يعقل، وذلك مجاز وموجود في كثير من القرآن، وذكر ذلك أبو علي الفارسي[2].

والذي أقول: إن قراءة حمزة والكسائي تحتمل أن يكون المعنى: أمَّن لا يهدي أحداً إلا أن يُهدى ذلك الأحدُ بهداية من عند الله، وأما على غيرها من القراءات التي مقتضاها: أمَّن لا يهتدي إلا أن يُهدى، فيتجه المعنى على ما تقدم لأبي علي الفارسي، وفيه تجوُّز كثير.

وقال بعضهم: هي عبارة عن أنها لا تنتقل إلا أن تنقل، ويحتمل أن يكون ما ذكر الله من تسبيح الجمادات هو اهتداؤها، ويحتمل أن يكون الاستثناء في اهتدائها إشارةً[3] إلى مناكرة الكفار يوم القيامة، حسبما مضى في هذه السورة.

وقراءة حمزة[4] والكسائي هي: ﴿يَهْدي﴾ بفتح الياء وسكون الهاء.

وقرأ نافع وأبو عمرو وشيبة والأعرج وأبو جعفر: ﴿يهْدّي﴾ بسكون الهاء وتشديد الدال، وقرأ ابن كثير وابن عامر: ﴿يهدِّي﴾ بفتح الياء والهاء، وهذه أفصح القراءات، نقلت حركة تاء (يهتدي) إلى الهاء وأدغمت التاء في الدال، وهذه رواية ورش عن نافع.

وقرأ عاصم في رواية حفص: ﴿يَهِدِّيٓ﴾ بفتح الياء وكسر الهاء وشد الدال، [أتبع الكسرة الكسرة.

(١) في المطبوع: «التلف»، وهي محتملة في أحمد٣.
(٢) في الحجة (٤/ ٢٧٦).
(٣) زيادة من نجيبويه.
(٤) في المطبوع «الحمزة» بدلا من «حمزة».

وقرأ عاصم في رواية أبي بكر: ﴿يِهِدّي﴾، بكسر الياء والهاء وشد الدال][١] وهذا أيضاً إتباع[٢]، وقال مجاهد: الله يهدي من الأوثان وغيرها ما شاء[٣].

قال القاضي أبو محمد: وهذا ضعيف.

وقرأ يحيى بن الحارث الذِّمَاري: (إلا أن يهَدِّي) بفتح الهاء وشد الدال[٤].

ووقف القراء على ﴿فَمَا لَكُمْ﴾، ثم يبدأ: ﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾[٥].

وقوله: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ﴾، إخبار عن فساد طرائقهم وضعف نظرهم وأنه ظن، ثم بيَّن منزلة الظن من المعارف وبُعده من الحق.

والظَّنّ في هذه الآية على بابه في أنه معتقَد أحد جائزَيْن، لكن ثَم ميلٌ إلى أحدهما دون حجة تبطل الآخر، وجواز ما اعتقده هؤلاء إنما هو بزعمهم لا في نفسه، بل ظنهم محال في ذاته، و﴿الْحَقِّ﴾ أيضاً على بابه في أنه معرفة المعلوم على ما هو به [ذا حقيقة بينة للعقل][٦]، وبهذه الشروط لا يغني الظن من الحق شيئاً.

وأما في طريق الأحكام التي تعبِّد الناس بظواهرها فيغني الظن في تلك الحقائق ويصرف من طريق إلى طريق، والشهادة إنما هي مظنونة، وكذلك التهم في الشهادات وغيرها[٧] تغني. وليس المراد في هذه الآية هذا النمط.

وقرأ جمهور الناس: ﴿يَفْعَلُونَ﴾.

---

(١) من الأسدية والتركية والمطبوع ونجيبويه.

(٢) هذه خمس قراءات سبعية، انظرها في التيسير (ص: ١٢٢)، إلا أنه صدر لقالون وأبي عمرو بالإخفاء، وانظر النشر (٢/ ٢٨٤).

(٣) انظر: تفسير مجاهد (ص: ٣٨١)، وتفسير الطبري (١٥/ ٨٩)، وفي نجيبويه: «وقرأ مجاهد»، وهو خطأ واضح.

(٤) وهي شاذة، انظر: مختصر الشواذ (ص: ٦١).

(٥) انظر: الهداية لمكي (٥/ ٣٢٦٦).

(٦) زيادة من نجيبويه.

(٧) «غيرها» ساقطة من المطبوع.

وقرأ عبد الله بن مسعود: (تفعلون) بالتاء[١] على مخاطبة الحاضر.

قوله عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾.

هذا نفي قول من قال من قريش: إن محمداً يفتري القرآن وينسبه إلى الله تعالى، وعبر عن ذلك بهذه الألفاظ التي تتضمن تشنيع قولهم وإعظام الأمر، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ﴾ [آل عمران: ١٦١] وكما قال حكاية عن عيسى عليه السلام: ﴿مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ﴾ [المائدة: ١١٦] ونحو هذا مما يعطي المعنى والقرائنُ والبراهين استحالتَه.

و﴿يُفْتَرَىٰ﴾ معناه: يختلق وينشأ، وكأن المرء يفريه من حديثه، أي: يقطعه ويَسِمه سمة، فهو مشتق من فريت: إذا قطعت لإصلاح.

و﴿تَصْدِيقَ﴾ نصب على المصدر والعامل فيه فعل مضمر، وقال الزجّاج: هو خبر «كان» مضمرة، والتقدير: ولكن كان تصديق الذي بين يديه[٢].

وقوله: ﴿ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ يريد التوراة والإنجيل، والذي بين اليد هو المتقدم للشيء، وقالت فرقة في هذه الآية: إن الذي بين يديه هي أشراط الساعة وما يأتي من الأمور.

قال القاضي أبو محمد: وهذا خطأ، والأمر بالعكس، كتاب الله تعالى بين يدي تلك، أما إن الزجّاج تحفَّظ فقال: الضمير يعود على الأشراط، والتقدير: ولكن تصديق الذي بين يديه القرآن.

قال القاضي أبو محمد: وهذا أيضاً قلِقٌ، وقيام البرهان على قريش حينئذ إنما كان في أن يصدق القرآنُ ما في التوراة والإنجيل، مع أن الآتي بالقرآن ممن يقطعون أنه لم يطالع تلك الكتب ولا هي في بلده ولا في قومه.

---

(١) وهي شاذة، انظر: مختصر الشواذ (ص: ٦٢).

(٢) انظره مع ما سيأتي عنه بعده في معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٣/ ٢٠).

و﴿وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾: هو تبيينه، و﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ يريد: هو في نفسه على هذه الحالة، وإن ارتاب مبطل فذلك لا يلتفت إليه.

وقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ الآية، ﴿أَمْ﴾ هذه ليست بالمعادِلة لألف الاستفهام التي في قولك: أزيد قام أم عمرو؟ ، وإنما هي التي تتوسط الكلام.

ومذهب سيبويه أنها بمنزلة الألف و«بل» لأنها تتضمن استفهاماً وإضراباً عما تقدم، وهي كقولهم: إنها لإبل أم شاء[1].

وقالت فرقة في ﴿أَمْ﴾ هذه: هي بمنزلة ألف الاستفهام.

ثم عجَّزهم في قوله: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾ والسورة مأخوذة من سورة البناء، وهي من القرآن هذه القطعة التي لها مبدأ وختم، والتحدي في هذه الآية وقع بجهتي الإعجاز اللتين في القرآن: إحداهما النظم والرصف والإيجاز والجزالة، كل ذلك في التعريف بالحقائق، والأخرى المعاني من الغيب لما مضى ولما يستقبل، وحين تحداهم بعشرٍ مفتريات إنما تحداهم بالنظم وحده.

قال القاضي أبو محمد: هكذا قول جماعة من المتكلمين، وفيه عندي نظر، وكيف يجيء التحدي بمماثلة في الغيوب ردّاً على قولهم: افْتراهُ، وما وقع التحدي في الآيتين ـ هذه وآية العشر السور ـ إلا بالنظم والرصف والإيجاز في التعريف بالحقائق، وما أُلزموا قط إتياناً بغيب، لأن التحدي بالإعلام بالغيوب / كقوله: ﴿وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ [الروم: ٣]، وكقوله: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾ [الفتح: ٢٧] ونحو ذلك من غيوب القرآن فبين أن البشر مقصر عن ذلك. [٣/ ١١]

وأما التحدي بالنظم فبيِّنٌ أيضاً أن البشر مقصر عن نظم القرآن، إذ الله عز وجل قد أحاط بكل شيء علماً، فإذا قدر[2] الله اللفظة في القرآن عَلِم بالإحاطة اللفظة التي

---

(١) الكتاب لسيبويه (٣/ ١٧٢).

(٢) في الأسدية ونجيبويه والتركية: «قرر».

هي أليق بها في جميع كلام العرب في المعنى المقصود، حتى كمل القرآن على هذا النظام الأول فالأول[١].

[والبشر مع أن يُفرض أفصح العالم، محفوف بنسيان وجهل بالألفاظ والحق، وبغلط وآفات بشرية، فمحال أن يمشي في اختياره على الأَوْلَى فالأولى][٢].

ونحن نجد العربي ينقح قصيدته، وهي الحوليات[٣]، يبدل فيها ويقدم ويؤخر، ثم يدفع تلك القصيدة إلى أفصح منه فيزيد في التنقيح، ومذهب أهل الصِّرفة مكسور بهذا الدليل[٤]، فما كان قط في العالم إلا من كان فيه تقصير سوى من يوحي إليه الله تعالى، وميّزت فصحاء العرب هذا القدر من القرآن وأذعنت له لصحة فطرتها وخلوص سليقتها، وأنهم يعرف بعضهم كلام بعض ويميزه من غيره، كفعل الفرزدق في أبيات جرير، والجارية في شعر الأعشى، وقول الأعرابي في: «عزَّ فحكم[٥] فقطع»[٦]، ونحو ذلك مما إذا تُتبع بان.

والقدر المعجز من القرآن ما جمع الجهتين: اطراد النظم والسرد، وتحصيل المعاني وتركيب الكثير منها في اللفظ القليل، فأما مثل قوله تعالى: ﴿مُدْهَآمَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٤] وقوله: ﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ [المدثر: ٢١] فلا يصح التحدي بالإتيان بمثله، لكن بانتظامه واتصاله يقع العجز عنه.

---

(١) في المطبوع وأحمد٣ ونجيبويه: «الأولى فالأولى».

(٢) ساقط من الأصل، في التركية: «يعرض»، بدل «يفرض»، و«إخباره» بدل «اختياره».

(٣) هي قصائد لزهير، قال في الصناعتين (ص: ١٤١): كان يعمل القصيدة في ستة أشهر ويهذّبها في ستة أشهر، ثم يظهرها، فتسمّى قصائده الحوليات لذلك، وفي البيان والتبيين (٢/ ٨): وكانوا يسمون تلك القصائد: الحوليات، والمقلّدات، والمنقّحات، والمحكّمات.

(٤) أهل الصرفة هم القائلون بأن الله منع العرب وصرفهم عن الإتيان بمثل القرآن، انظر: تفسير القرطبي (١/ ٧٥).

(٥) كتبت في المطبوع: «في عرْفجِكم»، وشرح العرفج في الحاشية بأنه نبات طيب...!

(٦) تقدم الكلام على هذه الألفاظ في الباب الذي عقده المؤلف لإعجاز القرآن في مقدماته.

وقوله: ﴿مِّثۡلِهِۦ﴾ صفة للسورة، والضمير عائد على القرآن المتقدم الذكر، كأنه قال: فأتوا بسورة مثل القرآن، أي: في معانيه وألفاظه، وخلطت فرق في قوله: ﴿مِّثۡلِهِۦ﴾ من جهة اللسان، كقول الطبري: ذلك على المعنى، ولو كان على اللفظ لقال: «مثلها»[١]، وهذا وهم بيّن لا يحتاج إليه.

وقرأ عمرو بن فائد: (بسورةِ مثله)[٢]، على الإضافة، قال أبو الفتح: «التقدير: بسورةِ كلامٍ مثله»، قال أبو حاتم: أمر عبدُ الله الأسودَ أن يسأل عمرَ عن إضافة (سورة) أو تنوينها فقال له عمر: كيف شئت.

وقوله: ﴿وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم﴾ إحالة على شركائهم وجنهم وغير ذلك، وهو كقوله في الآية الأخرى: ﴿لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا﴾ [الإسراء: ٨٨] أي: مُعِيناً، وهذا أشد إقامة لنفوسهم وأوضح تعجيزاً لهم.

قوله عز وجل: ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ وَلَمَّا يَأۡتِهِمۡ تَأۡوِيلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنۡهُم مَّن يُؤۡمِنُ بِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن لَّا يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمۡ عَمَلُكُمۡۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعۡمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَۚ أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوۡ كَانُواْ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنۡهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيۡكَۚ أَفَأَنتَ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ وَلَوۡ كَانُواْ لَا يُبۡصِرُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

المعنى: ليس الأمر كما قالوا في أنه مفترى ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ﴾، وهذا اللفظ يحتمل معنيين:

أحدهما: أن يريد به الوعيد الذي توعدهم الله عز وجل على الكفر، و﴿تَأۡوِيلُهُۥ﴾ على هذا يراد به ما يؤُول إليه أمره، كما هو في قوله: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥ﴾ [الأعراف: ٥٣]، والآية بجملتها على هذا التأويل تتضمن وعيداً.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١٥/ ٩٢).

(٢) وهي شاذة، انظرها مع التوجيه في المحتسب (١/ ٣١٢)، ومختصر الشواذ (ص: ٦٢)، وكلام أبي حاتم لم أجد من نقله.

والمعنى الثاني: أنه أراد: بل كذبوا بهذا القرآن العظيم المنبئ [بالحق و][(١)] بالغيوب الذي لم تتقدم لهم به معرفة، ولا أحاطوا بعلم غيوبه وحقائقه[(٢)] وحُسن نظمه، ولا جاءهم تفسير ذلك وبيانه.

و﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ يريد من سلف من أمم الأنبياء، قال الزجّاج: ﴿كَيۡفَ﴾ في موضع نصب على خبر ﴿كَانَ﴾ ولا يجوز أن يعمل فيها ﴿فَٱنظُرۡ﴾ لأن ما قبل الاستفهام لا يعمل فيه[(٣)].

قال القاضي أبو محمد: هذا قانون النحويين لأنهم عاملوا «كيف» في كل مكان معاملة الاستفهام المحض في قولك: كيف زيد؟ ولكيف تصرفاتٌ غير هذا، تحل محل المصدر الذي هو كيفية وتخلع معنى الاستفهام، ويحتمل هذا أن يكون منها، ومن تصرفاتها قولهم: كن كيف شئت، وانظر قول البخاري: «كيف كان بدء الوحي»[(٤)] فإنه لم يستفهم.

وذكَّر الفعل المسند إلى العاقبة لما كانت بمعنى المآل ونحوِه، وليس تأنيثها بحقيقي.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يُؤۡمِنُ بِهِۦ﴾ الآية، الضمير في (مِنْهُمْ) عائد على قريش.

ولهذا الكلام معنيان:

قالت فرقة: معناه: من هؤلاء القوم من سيؤمن في المستقبل ومنهم من حتم[(٥)] الله أنه لا يؤمن به أبداً.

---

(١) زيادة من نجيبويه.

(٢) زيادة من نجيبويه، وهي في أحمد٣ ملحقة في الهامش.

(٣) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٣/ ٢١).

(٤) صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، باب: كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، (١/ ١٣).

(٥) في نجيبويه: ختم.

وقالت فرقة: معناه من هؤلاء القوم من هو مؤمن بهذا الرسول، إلا أنه يكتم إيمانه وعلمه بأن نبوة محمد ﷺ وإعجاز القرآن حقٌّ، حفظاً لرياسته أو خوفاً من قومه، كالفتية الذين خرجوا إلى بدر مع الكفار فقتلوا فنزل فيهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [النساء: ٩٧] وكالعباس ونحو هذا، ومنهم من ليس بمؤمن[1].

وفائدة الآية على هذا التأويل: التفريق[2] لكلمة الكفار، وإضعاف نفوسهم، وأن يكون بعضهم على وجل من بعض.

وفي قوله: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾، تهديد ووعيد، وقوله: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ﴾، آية منابذة[3] لهم ومتاركةٍ[4]، وفي ضمنها وعيد وتهديد، وهذه الآية نحوُ قوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [الكافرون: ١] إلى آخر السورة، وقال كثير من المفسرين منهم ابن زيد: «هذه الآية منسوخة بالقتال»[5] لأن هذه مكية، وهذا صحيح.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾، جمع ﴿يَسْتَمِعُونَ﴾ على معنى ﴿مَّن﴾ لا على لفظها، ومعنى الآية: ومن هؤلاء الكفار من يستمع إلى ما يأتي به من القرآن بأُذنه، ولكنه حين لا يؤمن ولا يحصِّل فكأنه لا يسمع، ثم قال على وجه التسلية للنبي ﷺ: أفأنت يا محمد تريد أن تسمع الصم، أي: لا تكترثْ بذلك.

وقوله: ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ﴾ معناه: ولو كانوا من[6] أشد حالات الأصم، والأصم[7] الذي لا يسمع شيئاً بحال، فذلك لا يكون في الأغلب إلا مع فساد العقل

(١) انظر: زاد المسير (٢/ ٣٣٢).
(٢) في الأصل: «التفرق».
(٣) في الأصل والمطبوع: «مناجزة».
(٤) في أحمد٣: مشاركة، وكذا في الأصل مع الإشارة للنسخة الأخرى في الهامش.
(٥) انظر قول ابن زيد في: تفسير الطبري (١٥/ ٩٥).
(٦) في الأسدية والتركية ونجيبويه: «في»، وفي المطبوع: «إلى».
(٧) في المطبوع: «لأن الأصم».

والدماغ، فلا سبيل أن يعقل حجةً ولا دليلاً[١] أبداً، وَ(لَوْ) هذه بمعنى «إنْ»، وهذا توقيف للنبي ﷺ، أي: ألزم نفسك هذا.

وقوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ﴾ الآية، هي نحوُ الأولى في المعنى، وجاء ﴿يَنظُرُ﴾ على لفظ ﴿مَّن﴾، وإذا جاء الفعل على لفظها / فجائز أن يعطف عليه آخر على المعنى، وإذا جاء أولاً على معناها فلا يجوز أن يعطف عليه آخر على اللفظ، لأن الكلام يُلْبِس حينئذ، وهذه الآية نحو الأولى في المعنى، كأنه قال: ومنهم من ينظر إليك ببصره لكنه لا يعتبر ولا ينظر ببصيرته، فهو لذلك كالأعمى، فهوِّن ذلك عليك، أفتريد أن تهدي العمي، والهداية أجمع إنما هي بيد الله عز وجل.

[٣/ ١٢]

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

قرأت فرقة: ﴿ولكن الناس﴾، بتخفيف «لكن» ورفع «الناس».

وقرأت فرقة: ﴿وَلَكِنَّ﴾ بتشديد (لكنّ) ونصب ﴿النَّاسَ﴾[٢].

وظلم الناس لأنفسهم إنما هو بالتكسب منهم الذي يقارن اختراع الله تعالى لأفعالهم، وعُرْف «لكن» إذا كان قبلها واو أن تثقَّل وإذا عريت من الواو أن تخفف، وقد ينخرم هذا، وقال الكوفيون: قد يدخل اللام في خبر «لكنَّ» المشددة على حد دخولها في «إنَّ» ومنع ذلك البصريون[٣].

وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ الآية، وعيد بالحشر وخزيهم فيه وتعارفهم في

(١) في المطبوع: «دليل».
(٢) وهما سبعيتان، الأولى لحمزة والكسائي، والثانية للباقين، انظر: التيسير (ص: ١٢٢).
(٣) انظر: مشكل إعراب القرآن لمكي (١/ ٣٤٦)

التلاوم بعضهم لبعض، و(يَوْمَ) ظرف ونصبه يصح بفعل مضمر تقديره: واذكر يوم، ويصح أن ينتصب بالفعل الذي يتضمنه قوله: ﴿ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ ﴾ ويصح نصبه بـ﴿يَتَعَارَفُونَ ﴾، والكاف من قوله: ﴿كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ ﴾ يصح أن تكون في معنى الصفة لليوم، ويصح أن تكون في موضع نصب[1] للمصدر، كأنه قال: ويوم نحشرهم حشراً كأن لم يلبثوا، ويصح أن يكون قوله: ﴿كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ ﴾ في موضع الحال من الضمير في ﴿يَحْشُرُهُمْ ﴾ وخصص النَّهارَ بالذكر لأن ساعاته وقسمه معروفة بيّنة للجميع، فكأن هؤلاء متحققون قلة ما لبثوا، إذ كل أمد طويل إذا انقضى فهو واليسير سواء.

وأما قوله: ﴿يَتَعَارَفُونَ ﴾: فيحتمل أن يكون معادلة لقوله: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ ﴾ كأنه أخبر أنهم [يوم الحشر][2] يَتَعارَفُونَ، وهذا التعارف على جهة التلاوم والخزي من بعضهم لبعض.

ويحتمل أن يكون في موضع الحال من الضمير في ﴿نحْشُرُهُمْ﴾ ويكون معنى التعارف كالذي قبله، ويحتمل أن يكون حالاً من الضمير في ﴿يَلْبَثُوٓاْ ﴾ ويكون التعارف في الدنيا، ويجيء معنى الآية: ويوم نحشرهم للقيامة فتنقطع المعرفة بينهم والأسباب ويصير تعارفهم في الدنيا كساعة من النهار لا قدْر لها، وبنحو هذا المعنى فسر الطبري[3].

وقرأ السبعة وجمهور الناس: ﴿نَحشرهم﴾، بالنون، وقرأ الأعمش فيما روي عنه: ﴿يَحْشُرُهُمْ ﴾ بالياء[4].

وقوله: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ ﴾ إلى آخرها حكم على المكذبين بالخسار، وفي اللفظ إغلاظ على المحشورين من إظهارٍ لما هم عليه من الغرر مع الله تعالى، وهذا على أن الكلام إخبار من الله تعالى وقيل: إنه من كلام المحشورين على جهة التوبيخ لأنفسهم.

---

(١) في المطبوع وأحمد٣: «نعت».

(٢) من الأسدية والتركية والمطبوع.

(٣) انظر: تفسير الطبري (١٥/ ٩٧).

(٤) بل هما سبعيتان، والثانية لحفص عن عاصم. انظر: التيسير (ص ١٠٧).

وقوله تعالى: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾ الآية، (إِمَّا) شرط وجوابه ﴿فَإِلَيْنَا﴾، والرؤية في قوله: ﴿نُرِيَنَّكَ﴾ رؤية بصر، وقد عدي الفعل بالهمزة فلذلك تعدى إلى مفعولين: أحدهما الكاف، والآخر ﴿بَعْضَ﴾، والإشارة بقوله ﴿بَعْضَ ٱلَّذِى﴾ إلى عقوبة الله لهم في بدر وغيرها.

ومعنى هذه الآية الوعيد بالرجوع إلى الله تعالى؛ أي: إن أريناك عقوبتهم أو لم نُرِكَها، فهم على كل حال راجعون إلينا إلى الحساب والعذاب، ثم مع ذلك فالله شهيد من أول تكليفهم على جميع أعمالهم فـ﴿ثُمَّ﴾ هاهنا لترتيب الإخبار لا لترتيب القصص في أنفسها.

و(إما) هي: (إن) زيدت عليها (ما)، ولأجلها جاز دخول النون الثقيلة، ولو كانت (إنْ) وحدها لم يجز.

قوله عز وجل: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ﴾، إخبار، مثل قوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ [الملك: ٨].

وقال مجاهد وغيره: المعنى: فإذا جاء رسولهم يوم القيامة للشهادة عليهم صُيِّر قوم للجنة وقوم للنار، فذلك القضاء بينهم بالقسط(١)، وقيل: المعنى: فإذا جاء رسولهم في الدنيا وبعث صاروا مِن حتم الله بالعذاب لقوم والمغفرة لآخرين لغاياتهم، فذلك قضاء بينهم بالقسط.

وقرن بعض المتأولين هذه الآية بقوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾(٢)، وذلك يتفق إما بأن نجعل ﴿مُعَذِّبِينَ﴾ في الآخرة، وإما بأن نجعل القضاء بينهم في الدنيا بحيث يصح اشتباه الآيتين.

---

(١) انظر تفسير مجاهد (ص: ٣٨١)، تفسير الطبري (١٥/ ٩٩).

(٢) الإسراء: ١٥، وانظر ذلك في: مفاتيح الغيب (١٧/ ٨٦).

وقوله: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٤٨ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾، الضمير في (يَقُولُونَ) يراد به الكفار، وسؤالهم عن الوعد تحرير بزعمهم في الحجة، أي: هذا العذاب الذي توعدنا حدِّدْ لنا فيه وقته لنعلم الصدق في ذلك من الكذب، وقال بعض المفسرين: قولهم هذا على جهة الاستخفاف.

قال القاضي أبو محمد: وهذا لا يظهر من اللفظة.

ثم أمره تعالى أن يقول لهم: ﴿لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾، المعنى: قل لهم يا محمد ردّاً للحجة إني لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي من دون الله ضَرّاً وَلا نَفْعاً، ولا أنا[1] إلا في قبضة سلطانه وبضمن الحاجة إلى لطفه، فإذا كنت هكذا فأحرى أن لا أعرف غيبه ولا أتعاطى[2] شيئاً من أمره، ولكن لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ انفرد الله تعالى بعلم حده ووقته، فإذا جاء ذلك الأجل في موت أو هلاكِ أمة لم يتأخروا ساعة، ولا أمكنهم التقدم عن حد الله عز وجل.

وقرأ ابن سيرين: آجالهم بالجمع[3].

قوله عز وجل: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٥٠ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ۚ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ۝٥١ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ / ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ۝٥٢ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ۝٥٣﴾. [٣/ ١٣]

المعنى: ﴿قُلْ﴾: يأَيُّها الكفرة المستعجلون[4] عذابَ الله عزَّ وجلَّ ﴿أَرَءَيْتُمْ إِنْ

(١) «ولا أنا»، سقطت من الأصل، وكذا: «من دون الله».

(٢) كتبت في الأصل: «أتعاصى».

(٣) وهي شاذة، انظر: الشواذ للكرماني (ص: ٢٢٧)، وقد تقدم مثلها في الآية (**٣٣**) من سورة الأعراف.

(٤) في المصرية ونور العثمانية: «أتستعجلون».

أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ﴾ ليلاً وقت المبيت؟ يقال: بيّت القومُ القومَ: إذا طرقوهم ليلاً بحربٍ أو نحوها، ﴿أَوْ نَهَارًا﴾ لكم منه مَنَعَة أو به طاقة؟ فماذا تستعجلون منه وأنتم لا قِبَلَ لكم به؟ و(مَا) ابتداءٌ، و(ذَا) خبره، ويصح أن تكون ﴿مَّاذَا﴾ بمنزلة اسم واحد في موضع رفع بالابتداءِ وخبره الجملة التي بعده، وضعف هذا أبو علي وقال: إنما يجوز ذلك على تقدير إضمارٍ في ﴿يَسْتَعْجِلُ﴾ وحَذْفِهِ، كما قال:

[الرجز] قَدْ أَصْبَحَتْ أُمُّ الخِيارِ تَدَّعي عَلَيَّ ذَنْباً كُلُّهُ لَمْ أَصْنَعِ[1]

و: زيدٌ ضربْتُ[2]، قال: ويصحُّ أن تكون ﴿مَّاذَا﴾ في حال نصب لـ﴿يَسْتَعْجِلُ﴾[3].

والضمير في ﴿مِنْهُ﴾ يحتمل أن يعود على الله عزَّ وجلَّ، ويحتمل أن يعود على العذاب.

وقوله تعالى: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ﴾ الآية، عطف بقوله: ﴿ثُمَّ﴾ جملةَ القول على ما تقدم، ثم أدخل على الجميع ألف التقرير[4]، ومعنى الآية: إذا وقع العذاب وعاينتموه آمنتم به حينئذ، وذلك غير نافعكم، بل جوابكم الآن، وقد كنتم تستعجلونه مكذبين به.

وقرأ طلحة بن مصرف: (أَثَمَّ) بفتح الثاءِ[5]، وقال الطبري في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ﴾ بضم الثاءِ: معناه: هنالك، وقال: ليست ﴿ثُمَّ﴾ هذه التي تأْتي بمعنى العطف[6].

قال القاضي أبو محمد: والمعنى الصحيح على أنها «ثُمَّ» المعروفة، ولكن إِطباقه على لفظ التنزيل هو كما قلنا، وما ادعاه الطبري غير معروف.

---

(١) هذا جزءٌ من بيت لأبي النجم، وقد سبق الاستشهاد به عند تفسير الآية (٥٠) من سورة المائدة، وأوله زيادة من نجيبويه.
(٢) في المصرية: لم أضربه.
(٣) لم أجده في كتبه المتوفرة، وقد تكلم على هذه الآية في الحجة (٢/ ٢١٤).
(٤) في المصرية والأسدية١: التقدير.
(٥) وهي شاذة عزاها الهذلي في الكامل (ص: ٥٦٨) للسمان عن طلحة، وقتادة، وابن أبي عبلة.
(٦) تفسير الطبري (١٥/ ١٠١).

و(الآنَ) أَصله عند بعض النحاة «آنَ» فعل ماض دخلت عليه الأَلف واللام، على حدّها في قوله: الحِمَارِ الْيُجَدَّعُ[١]، ولم يتعرف بذلك كل التعريف، ولكنها لفظة مضمنة معنى حرف التعريف، ولذلك بُنيت على الفتح لتضمنها معنى الحرف، ولوقوعها موقع المبهم، لأن معناها: هذا الوقت.

وقرأَ الأَعمش، وأَبو عمرو، وعاصم، والجمهور: ﴿ ءَآلْـَٔنَ ﴾ بالمد والاستفهام على حد التوبيخ، وكذلك: ﴿ ءَآلْـَٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ ﴾ [يونس: ٩١]، وقرأها باستفهام بغير مدّ طلحة والأعرج[٢].

وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾ الآية، هو[٣] الوعيد الأعظم بالخلود لأهل الظلم الأَخصِّ الذي هو ظلم الكفر لا ظلم المعصية.

وقوله تعالى: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ ﴾ توقيف وتوبيخ، ونصت هذه الآية على أَن الجزاءَ في الآخرة هو[٤] على تكسّب العبد.

وقوله: ﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ﴾ معناه: يستخبرونك، وهي على هذا تتعدى إلى مفعولين: أحدهما الكاف، والآخر في الابتداء والخبر، وقيل: هي بمعنى: يستعلمونك، فهي على هذا تحتاج إلى مفعولِينَ[٥] ثلاثةٍ: أحدها الكاف، والابتداءُ والخبر سدّ مسَدَّ المفعولين.

و﴿أَحَقٌّ هُوَ﴾ قيل: الإشارة إلى الشرع والقرآن، وقيل: إلى الوعيد وهو الأظهر.

وقرأ الأعمش: (آلحق هو) بمدة وبلام التعريف[٦].

---

(١) من بيت ذي الخِرَق الطُّهَوي تقدم في الآية (١٥٧) من آل عمران.

(٢) تابعه عليها في البحر المحيط (٦/ ٧٠)، والأولى هي المتواترة، إلا أن فيها وجهاً آخر للجميع، بالتسهيل.

(٣) في المصرية والأسدية١ والتركية: «هذا».

(٤) في الأصل: «وهو»، على العطف.

(٥) كذا في الأصل والحمزوية، ويضبط بكسر اللام جمع مفعول، وفي المطبوع: «مفاعيل» وهو أوضح.

(٦) وهي شاذة، انظر عزوها له في المحتسب (١/ ٣١١)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٣٥٢).

وقوله: ﴿إِي﴾ هي لفظة تتقدم القَسَم، وهو بمعنى نعم، ويجيءُ بعدها حرف القسم وقد لا يجيءُ، تقول: إِي وربي، و: إِي ربِّي[١].

و(معجزين) معناه: مُفْلتين، وهذا الفعل أَصله تعدية «عجز» لكن كثر فيه حذف المفعول حتى قالت العرب: أَعْجَزَ فلانٌ، إِذا ذهب في الأَرض فلم يُقدر عليه.

قوله عز وجل: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٥٤) أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٥٥) هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٥٦)﴾.

[هذا إِخبارٌ للكفار في سياق إِخبارهم بأَن ذلك الوعد حق][٢].

(وَأَسَرُّوا): لفظة تجيءُ بمعنى: أَخْفَوْا، وهي حينئذ من السّر، وتجيءُ بمعنى: أَظهروا، وهي حينئذ من أَسارير الوجه.

قال الطبري: المعنى: وأخفى رؤَساءُ هؤلاءِ الكفار الندامة عن سفلتهم ووضعائهم[٣].

قال القاضي أبو محمد: بل هو[٤] عام في جميعهم.

و﴿أَلَا﴾ استفتاح وتنبيه، ثم أَوجب أَن جميع ما في السَّماواتِ وَالْأَرْضِ مِلك لله تعالى، قال الطبري: يقول: فليس لهذا الكافر يومئذ شيءٌ يفتدي به[٥].

قال القاضي أبو محمد: وربط الآيتين هكذا يتجه على بُعدٍ، وليس هذا من فصيح المقاصد.

وقوله: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ قيّد بالأَكثر لأَن بعض الناس يؤمن، فهم

---

(١) في المصرية: «وإي وأيَّ وربي» والصواب المثبت. انظر: مغني اللبيب (ص١٠٦).
(٢) ساقط من نور العثمانية، وفي المصرية وأحمد٣: الوعيد، بدل الوعد.
(٣) تفسير الطبري (١٥/ ١٠٣)، بتصرف.
(٤) في الحمزوية: «والظاهر أنه».
(٥) تفسير الطبري (١٥/ ١٠٣)، بتصرف.

يعلمون حقيقة وعد الله تعالى، وأَكثرهم لا يعلمون فهم لأَجل ذلك يكذبون.

وقوله تعالى: ﴿هُوَ يُحْيِۦ﴾ يريد: يُحْيي من النطفة، ﴿وَيُمِيتُ﴾ بالأَجل، ثم يَجعل المرجع إِليه بالحشر يوم القيامة، وفي قوة هذه الآيات ما يستدعي الإِيمان وإِجابة دعوة الله.

وقرأَ ﴿تُرْجَعُونَ﴾ بالتاءِ من فوق الأَعرج، وأَبو عمرو، وعاصم، ونافع، والناس.

وقرأَ عيسى بن عمر: (يُرْجعُونَ) بالياءِ من تحت، واختلف عن الحسن[1].

قوله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

هذه آية خوطب بها جميع العالم، والموعظة: القرآن؛ لأن الوعظ إنما هو بقولٍ يأمر بالمعروف ويزجُر ويرقِّق ويُوْعِد ويَعد، وهذه صفة الكتاب العزيز.

وقوله: ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ يريد: لم يختلقها محمد ﷺ ولا غيره، بل هي من عند الله عزَّ وجلَّ.

و﴿لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ يريد به الجهل والعُتُوّ عن النظر في آيات الله تبارك وتعالى، ونحو هذا مما يدفع[2] الإيمان، وجعَلَه موعظة بحسب الناس أجمع[3]، وجعله هُدىً وَرَحْمَة بحسب المؤمنين فقط، وهذا تفسير[4] صحيح المعنى إِذا تُؤُمّل بان وجهه.

وقوله سبحانه: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ﴾ الباءُ متعلقة بمحذوف استغني عن ذكره، يدل عليه قوله: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾، قال بعض المتأَولين وهو هلال بن يِساف[5] وقتادة

---

(١) وهي شاذة انظر عزوها له في الشواذ للكرماني (ص: ٢٢٧)، وفي نجيبويه: «عن عاصم».

(٢) في المطبوع ونجيبويه: «يدافع».

(٣) في المطبوع: «جميعاً».

(٤) في المصرية: «تقسيم».

(٥) في القاموس أنه بالكسر وقد يفتح.

والحسن[١] وابن عباس: «الفضل: الإسلام، والرحمة: القرآن»[٢].

وقال أبو سعيد الخدري: «الفضل: القرآن، والرحمة أن جعلهم من أهله»[٣].

وقال زيد بن أسلم والضحاك «الفضل: القرآن، والرحمة: الإسلام»[٤].

وقالت فرقة: الفضل: محمد ﷺ، والرحمة: القرآن.

[٣/ ١٤] قال القاضي أبو محمد: ولا وجه عندي لشيءٍ من هذا / التخصيص إلا أن يستند منه شيءٌ إلى النبي ﷺ، وإنما الذي يقتضيه اللفظ ويلزم منه أن الفضل هو هداية الله تعالى إلى دينه، والتوفيقُ إلى اتباع شريعته، والرحمة هي عفوه وسُكنى جنته التي جعلها جزاءً على التَّشرع بالإسلام والإيمان به، ومعنى الآية: قل يا محمد لجميع الناس: بِفَضْلِ الله وَبِرَحْمَتِهِ فليقع الفرح منكم، لا بأُمور الدنيا وما يجمع من حطامها، فالمؤمنون يقال

(١) تفسير الطبري (١٥/ ١٠٧)، وتفسير ابن أبي حاتم (٦/ ١٩٥٩)، وتفسير ابن أبي زمنين (١/ ٢٧٧).

(٢) صحيح، أثر ابن عباس أخرجه سعيد بن منصور في تفسيره (١٠٦٣) عن جرير بن عبد الحميد، عن منصور، عن مجاهد، عن ابن عباس، وأخرجه الطبري (١٧٦٨٠)، وابن أبي حاتم (١٠٤٢٨) من طريق علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما به.

(٣) ضعيف، هذا الأثر أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٣٠٦٨٩)، وسعيد بن منصور في تفسيره (١٠٦٤)، وابن جرير الطبري (١٢/ ١٩٤ـ ١٩٥)، وابن أبي حاتم (١٠٤٢٤) والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢٣٦٠) من طريق أبي معاوية، عن حجاج بن أرطاة، عن عطية العوفي، عن أبي سعيد الخدري به، وحجاج بن أرطاة صدوق كثير الخطأ والتدليس، وعطية بن سعيد العوفي ضعيف ويدلس تدليس الشيوخ؛ فيحدث عن أبي سعيد موهماً أنه الخدري وهو يعني محمد بن السائب الكلبي.

وأخرجه الطبراني في «الأوسط» (٥٥١٢) من طريق أبي مالك الجَنْبي، عن حجاج، عن عطية، عن أبي سعيد، عن البراء ابن عازب به، وأبو مالك الجَنْبي هو: عمرو بن هاشم لين الحديث، وقال الطبراني: لم يرو هذا الحديث عن الحجاج إلا أبو مالك الجَنْبي.

وقد اختلف على عطية فيه، فأخرجه أبو عبيد القاسم ابن سلام في فضائل القرآن (ص٥٩)، وابن أبي شيبة في المصنف (٣٠٦٩١)، وابن جرير الطبري (١٢/ ١٩٧)، وابن أبي حاتم (١٠٤٢٧) والبيهقي في شعب الإيمان (٢٣٥٩) من طريق آخر عن عطية العوفي، عن ابن عباس رضي الله عنه بمثله.

(٤) تفسير الطبري (١٥/ ١٠٨).

لهم: فَلْتَفْرَحُوا، وهم مُتَلَبّسُونَ بعلة الفرح وسببه، ومُحَصِّلون[١] لفضل الله منتظرون الرحمة. والكافرون يقال لهم: بِفَضْلِ الله وَبِرَحْمَتِهِ فلْتَفرحوا، على معنى: أَنْ لو اتفق لكم، أَو لو سعدتم بالهداية إِلى تحصيل ذلك.

وقرأَ أُبيّ بن كعب، وابن القعقاع، وابن عامر، والحسن على ما زعم هارون، ورويت عن النبي ﷺ[٢]: ﴿فَلْتَفْرَحُوا﴾، و﴿تَجْمَعُونَ﴾ بالتاءِ فيهما على المخاطبة، وهي قراءَة جماعة من السلف كبيرة[٣]، وعن أَكثرهم خلاف.

وقرأَ السبعة سوى ابن عامر وأَهلُ المدينة، والأَعرج، ومجاهد، وابن أَبي إسحاق، وقتادة، وطلحة، والأَعمش بالياءِ فيهما على ذكر الغائب، ورويت عن الحسن بالتاءِ من فوق فيهما.

---

(١) في المصرية والتركية ونور العثمانية وأحمد٣ والحمزوية: «مخلصون».

(٢) حسن وقد روي موقوفاً، هذا الحديث أخرجه الطيالسي في مسنده (٥٤٧)، وسعيد بن منصور في تفسيره (١٠٦٢)، والبخاري في خلق أفعال العباد (ص ١٠٧)، وأبو داود (٣٩٨٣)، والطحاوي في شرح المشكل (٣٦٢٠-٥٥٨٥)، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٠٤٣١) من طريق عبد الله بن المبارك، عن أجلح بن عبد الله بن حُجَية، عن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبزى، عن أبيه، عن أُبي ابن كعب رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «أمرت أن أقرأ عليك القرآن» قال: قلت: سماني لك ربك؟ قال: «نعم» فقرأ عليَّ: ﴿قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فلتفرحوا هو خير مما تجمعون﴾.

وقد روي من طرق أخرى عن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبزى به، وأجلح بن عبد الله بن حجية صدوق، وعبد الله هذا صدوق حسن الحديث، وأخرجه محمد بن يحيى العدني في مسنده كما في إتحاف الخيرة (٥٧٢٦) من طريق عطية العوفي، عن ابن عمر رضي الله عنه: أن النَّبِيَّ ﷺ: كَانَ يَقْرَأُ: ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلتَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا تَجْمَعُونَ﴾.

وقد روي موقوفاً على أبي بن كعب رضي الله عنه كما أخرجه أبو داود (٣٩٨١)، وابن جرير الطبري (١٢/ ١٩٨).

(٣) وهي عشرية عن رويس، وقراءة ابن عامر بالياء في الاولى، وبالتاء في الثانية، وسيذكر ذلك المصنفُ قريباً، وهو خلاف ما يوهمه السياق هنا. انظر: النشر (٢/ ٢٨٥)، والكامل للهذلي (ص: ٥٦٨) ونقلها عن الحسن، وقتادة، والوليد، والزعفراني، وابن مقسم، وأبي خليد عن نافع، وزكريا عن علي، وقتيبة وعيسى عن أبي بكر وإسحاق، ونقلها الطبري (١٥/ ١٠٩) عن أبي جعفر.

وقرأَ أَبو التيَّاح[١]، وأَبو جعفر، وقتادة، بخلاف عنهم، وابن عامر بالياءِ في الأُولى وبالتاءِ في الآخرة[٢].

وقرأَ الحسن بن أَبي الحسن، وجماعة من السلف، ورويت عن النبي ﷺ بالتاء في الأُولى وبالياء في الآخرة، ورويت عن أَبي التياح[٣].

وإِذا تأَملت وجوه ذلك بانت على مَهْيَع الفصيح من كلام العرب، ولذلك كثر الخلاف من كل قارئ.

وفي مصحف أُبي بن كعب: (فبذلك فافرَحوا)[٤]، وأَما من قرأَ: ﴿فَلْتَفْرَحُوا﴾ فأَدخل اللام في أَمر المخاطب فذلك على لغة قليلة، حكى ذلك أَبو علي في «الحجة»[٥].

وقال أَبو حاتم وغيره: «الأَصل في كل أَمر إِدخال اللام إِذا كان النهي بحرف، فكذلك الأَمر إِذا كان أَمراً لغائب بلام»[٦].

قال أَبو الفتح: إِلا أَن العرب رفضت إِدخال اللام في أَمر المخاطب لكثرة ترداده[٧].

وقرأَ أَبو التياح، والحسن بكسر اللام من (فَلِتَفْرَحُوا)[٨].

---

(١) هو يزيد بن حميد، أبو التياح الضبعي البصري أحد العلماء الزهاد، روى عن أنس ومطرف وجماعة، وعنه شعبة والحمادان وآخرون، قال أحمد: ثبت ثقة، وقال أبو إياس: ما أحد أحب أن ألقى الله بمثل عمله منه، توفي سنة (١٢٨هـ). تاريخ الإسلام (٨/ ٣٠٦).

(٢) هاتان سبعيتان، والثانية لابن عامر، كما في التيسير (ص: ١٢٢)، ووافقه أبو جعفر كما في النشر (٢/ ٢٨٥).

(٣) وهي شاذة عزاها في الكامل (ص: ٥٦٨) لزيد وروح، والذي في مختصر الشواذ (ص: ٦٢) عن أبي التياح بالتاء فيهما.

(٤) وهي شاذة، انظر عزوها له في المحتسب (١/ ٣١٢).

(٥) الحجة للفارسي (٤/ ٢٨٢).

(٦) ليست في نور العثمانية وأحمد٣، وفي نجيبويه: «أمراً من الغائب».

(٧) المحتسب (١/ ٣١٢).

(٨) تفسير البحر المحيط (٥/ ١٧٠)، والدر المصون (١/ ٢٣٣٣).

فإن قيل: كيف أمر الله بالفرح في هذه الآية وقد ورد ذمُّه في قوله: ﴿لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ [هود: ١٠]، وفي قوله: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦]؟ قيل: إن الفرح إذا ورد مقيّداً في خير فليس بمذموم، وكذلك هو في هذه الآية، وإذا ورد مقيداً في شرّ أو مطلقاً لحَقه ذمٌّ إذ ليس من أفعال الآخرة، بل ينبغي أن يغلب على الإنسان حزنه على ذنبه وخوفه لربّه.

وقوله: ﴿مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ يريد: من مال الدنيا وحطامها الفاني المؤذي في الآخرة.

قوله عز وجل: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ۝٥٩ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ۝٦٠﴾.

هذه المخاطبة لكفار العرب الذين جعلوا البحائر والسوائب والنصيب من الحرث والأنعام وغير ذلك مما لم يأْذن الله به، وإنما اختلقوه برأيهم[1].

وقوله تعالى: ﴿أَنزَلَ﴾ لفظة فيها تجوُّز، وإنزال الرزق إما أن يكون في ضمن إنزال المطر بالمآل[2]، أو نزول الأمر به الذي هو ظهور الأثر في المخلوق منه المخترع، ثم أمر الله نبيّه بتوقيفهم على أحد القسمين، وهم لا يمكنهم ادعاءُ إذن الله تعالى في ذلك، فلم يبق إلا أنهم افتروْه، وهذه الآية نحو قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ﴾ [الأعراف: ٣٢]، ذكر ذلك الطبري عن ابن عباس[3].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ آية وعيد، لمَّا تحقق عليهم بتقسيم

---

(١) في الأصل والمطبوع: «بأمرهم».

(٢) سقطت من نور العثمانية، وفي الأسدية١: «بالماء».

(٣) هذا الأثر أخرجه الطبري (١٢/ ٢٠١) من طريق علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما بلفظ: إن أهل الجاهلية كانوا يحرمون أشياء أحلها الله من الثياب وغيرها، وهو قول الله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا﴾ وهو هذا. فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ﴾.

الآية التي قبلها أَنهم مفترون على الله، عظَّم في هذه الآية جرم الافتراءِ، أي: ظنُّهم في غاية الرداءَة بحسب سوءِ أَفعالهم، ثم ثنَّى بِإِيجاب الفضل على الناس في الإِمهال لهم مع الافتراءِ والعصيان، والإِمهال داعية إِلى التوبة والإِنابة، ثم استدرك ذكر من لا يرى حق الإِمهال ولا يشكره ولا يبادر[١] فيه على جهة الذمِّ لهم، والآية بعد هذا تعُمُّ جميع فضل الله وجميع تقصير الخلق في شكره لا ربّ غيره.

قوله عز وجل: ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾.

قصد الآية وصف إِحاطة الله بكل شيءٍ، ومعنى اللفظ: ﴿ وَمَا تَكُونُ ﴾ يا محمد ـ والمراد هو وغيره ـ ﴿فِي شَأْنٍ﴾ من جميع الشؤون، ﴿وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ﴾ الضمير عائد على ﴿شَأْنٍ﴾، أَي: فيه وبسببه ﴿مِن قُرْءَانٍ﴾، ويحتمل أَن يعود الضمير على جميع القرآن، ثم عمَّ بقوله: ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾. وفي قوله: ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾ تحذير وتنبيه.

و﴿تُفِيضُونَ﴾: معناه: تأَخذون[٢] وتنْهضُونَ بجدّ، يقال: أَفاض الرجل في سيره وفي حديثه، ومنه الإِفاضة في الحج، ومفيض القِداح[٣]، ويحتمل أَن (فاض) عُدّي بالهمزة.

و﴿يَعْزُبُ﴾ معناه: يغيب حتى يخفى، حتى قالوا للبعيد: عازب، ومنه قول الشاعر:

[الطويل] عـوازبُ لم تسـمَعْ نُبُـوحَ مُقَامَةٍ ... ولمْ تَـرَ نَاراً تِـمَّ حَـوْلٍ مُجَرَّم[٤]

---

(١) في التركية والمصرية والحمزوية وأحمد٣ ونور العثمانية: «ويبادر»، بدون: «لا».

(٢) ساقطة من الأصل.

(٣) القِداح: جمع قَدَح. يقال: أفاض الرجل بالقداح إفاضة: ضرب بها، لأنها تقع منبثة متفرقة، ويجوز: أفاض على القِداح.

(٤) البيت لطفيل الغنوي كما في الحيوان (١/ ٣٤٨)، والأمالي للقالي (٢/ ٨٥)، والشعر والشعراء =

وقيل للغائب عن أَهله: عازب، حتى قالوه لمن لا زوجة له، وفي السِّيَر أَن بيت سعد بن خيثمة كان يقال له: بيت العُزَّاب[١].

وقرأَ جمهور السبعة والناسُ: ﴿يَعۡزُبُ﴾ بضم الزاي.

وقرأَ الكسائي وحده منهم: ﴿يَعْزِب﴾ بكسرها، وهي قراءَة ابن وثاب، والأَعمش، وطلحة بن مصرف[٢].

قال أَبو حاتم: القراءَة بالضم، والكسرُ لغة[٣].

والْمِثْقَالُ: الوزن، وهو اسم لا صفة، كمعطار ومضراب.

والذَّرّ: صغار النمل، جعلها الله مثالاً إذ لا يُعرف في الحيوان المتغذي المتناسل المشهورِ النوع والموضع أَصغرُ منه.

وقرأَ جمهور الناس/، وأَكثر السبعة: ﴿وَلَآ أَصۡغَرَ﴾، ﴿وَلَآ أَكۡبَرَ﴾ بفتح الراءِ [٣/ ١٦] عطفاً على ﴿ذَرَّةٍ﴾ في موضع خفض لكنْ مَنَع من ظهوره امتناع الصرف.

وقرأَ حمزة وحده: ﴿وَلاَ أَصْغَرُ﴾، ﴿وَلاَ أَكْبَرُ﴾[٤] عطفاً على موضع قوله: ﴿مِّثۡقَالِ﴾ لأَن التقدير: وما يعزب عن ربِّك مثقالُ ذرّة.

والكتاب المبين: اللَّوح المحفوظ، كذا قال بعض المفسرين، ويحتمل أَن يريد تحصيل الكَتَبَة، ويكون القصد ذكر الأَعمال المذكورة قبلُ، وتقديم الأَصغر في

= (١/ ٤٤٥) وورد فيه (١/ ٣١٦) معزواً لابن مقبل، والنُّبُوح: ضجَّةُ الحيّ وأصواتُ كلابهم، وتِمُّ الشيءِ بكسر التاءِ: تمامه وكماله، والحول المُجرَّمُ: الذي كمل وانقضى.

(١) الاكتفاء للكلاعي (١/ ٢٩٢)، والروض الأنف (٤/ ١٥٣).

(٢) فهما سبعيتان، انظرهما في التيسير للداني (ص: ١٢٢)، وعزو الثانية للأعمش ويحيى في تفسير الثعلبي (٥/ ١٣٦).

(٣) لم أجد من نقله.

(٤) فهما سبعيتان، انظر التيسير للداني (ص: ١٢٢)، والسبعة لابن مجاهد (ص: ٣٢٨).

الترتيب جرْيٌ على قولهم: القمريْن والعمريْن، ومنه قوله تعالى: ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ [الكهف: ٤٩]، والقصد بذلك كله تنبيه الأَقل، وأَن الحكم المقصود إِذا وقع على الأَقل فأَحرى أَن يقع على الأَعظم.

و﴿أَلَآ﴾: استفتاح وتنبيه، وأَولياءُ الله هم المؤمنون الذين والَوْه بالطاعة والعبادة، وهذه الآية يعطي ظاهرها أَن من آمن واتقى فهو داخل في أَولياءِ الله، وهذا هو الذي تقتضيه الشريعة في الوليّ، وإِنما نبّهنا هذا التنبيه حذراً من مذهب الصوفية[1] وبعض الملحدين في الوليّ[2].

وروي عن النبي ﷺ أَنه سُئِل: من أَولياءُ الله؟ فقال: «الذين إذا رأيتهم ذكرت الله»[3].

قال القاضي أبو محمد: وهذا وصف لازم للمتقين لأَنهم يَخْشعون ويُخَشِّعون.

---

(١) في المطبوع والأصل ونجيبويه: «من بعض الصوفية».

(٢) يشير بذلك إلى ما يرويه بعض الناس من أن الوليَّ أفضل من النبي ﷺ، وهناك عبارات نقلت عن بعض المتصوفين تحمل مثل هذه المعاني، ولا يخفى ما في هذا من حرص المؤلف رحمه الله تعالى على اتباع السنة والجماعة والوقوف مع الحق.

(٣) هذا الحديث روي نحوه موصولاً ومرسلاً والإرسال أشبه بالصواب، فقد أخرجه النسائي في الكبرى (٦/ ٣٦٢)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٨/ ٥٨)، والطبراني في الكبير (١٢/ ١٣)، ومن طريقه أبو نعيم في أخبار أصبهان (١/ ٢٧٦) من طريق جعفر بن أبي مغيرة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، قال: «يذكَر الله عز وجل برؤيتهم».

وقد اختلف فيه على جعفر بن أبي مغيرة، فروي عنه، عن سعيد بن جبير، عن النبي ﷺ مرسلاً، أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٣٥٤٧٧)، والطبري (١٥/ ١١٩)، وجعفر بن أبي مغيرة الخزاعي القمي صدوق يهم وليس بالقوي في سعيد بن جبير، وقد تابع على هذه الرواية المرسلة: سهلٌ أبو الأسد كما عند ابن جرير الطبري (١٥/ ١٢٠)، والدولابي في «الكنى» (١/ ٣٢٤) وهذا أشبه بالصواب.

وأخرجه الطبري (١٢/ ٢٠٩)، وابن أبي حاتم (١٠٤٥٤) من طريق محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن الحكم بن عتيبة، عن مقسم، وسعيد بن جبير، عن ابن عباس، موقوفاً عليه، بنحوه. وعند ابن أبي حاتم بدون ذكر سعيد بن جبير، وابن أبي ليلى ضعيف.

وروي عن النبي ﷺ أَيضاً أَنه قال: «أولياء الله قوم تحابوا في الله واجتمعوا في ذاته، لم تجمعهم قرابة ولا مال يتعاطونه»[١].

وقوله: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ يحتمل أَن يكون في الآخرة، أَي: لا يهتمون بهمّها، ولا يخافون عذاباً ولا عقاباً ولا يحزنون لذلك، ويحتمل أَن يكون ذلك في الدنيا، أَي: لا يخافون أَحداً من أَهل الدنيا ولا من أَعراضها، ولا يحزنون على ما فاتهم منها، والأَول أَظهر، والعموم في ذلك صحيح، لا يخافون في الآخرة جملة، ولا في الدنيا الخوف الدنياوي الذي هو فوت آمالها، وزوال منازلها، وكذلك في الحزن.

وذكر الطبري عن جماعة من العلماءِ مثل ما في الحديث في الأَولياءِ أنهم الذين إذا رآهم أَحدٌ ذَكَر الله[٢]، وروى فيهم حديث: «إن أولياء الله هم قوم يتحابون في الله وتجعل لهم يوم القيامة منابر من نور وتُنير وجوههم، فهم في عرصة القيامة لا يخافون ولا يحزنون»[٣].

---

(١) مرسل، هذا الحديث بنحو هذا اللفظ أخرجه الطبري (١٥/ ١٢١) والبيهقي في الشعب (٦/ ٤٨٥-٤٨٦) من طريق جرير، عن عمارة بن القعقاع، عن أبي زرعة، عن عمر بن الخطاب مرفوعاً به مطولاً، وهذا هو المحفوظ في هذا الحديث ـ كما قاله البيهقي ـ لكن أبو زرعة عن عمر مرسل، وقد روي الحديث عن عمارة بن القعقاع عن أبي زرعة عن أبي هريرة به مرفوعا، قال البيهقي في الشعب (٦/ ٤٨٥-٤٨٦) هو وهم، ومع ذلك فقد اختلف في إسناده، راجع: النسائي في الكبرى (١١١٧٢)، وأبا يعلى في مسنده (٦١١٠)، والطبري (١٢/ ٢١١)، وابن حبان في صحيحه (٥٧٣).

(٢) أخرج الطبري في تفسيره (١٧٧٠٤-١٧٧٠٨-١٧٧١٠) من طرق عن سعيد بن جبير قال: سُئل رسول الله ﷺ عن أولياء الله، فقال: «الذين إذا رُؤُوا ذُكر الله». وهو مرسل.

(٣) أخرج ابن المبارك في الزهد (٧١٤)، وأحمد (٥/ ٣٤٣)، وابن أبي الدنيا في الإخوان (٦)، وابن جرير الطبري (١٧٧١٥)، وابن أبي حاتم (١٠٤٥٢) من طريق عبد الحميد بن بهرام، عن شهر بن حوشب، عن عبد الرحمن بن غنم، عن أبي مالك الأشعري قال: إن رسول الله ﷺ لما قضى صلاته أقبل على الناس، فقال: «إن لله عباداً، ليسوا بأنبياء ولا شهداء، يغبطهم النبيون والشهداء على =

وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أَن رسول الله ﷺ قال: «إن من عباد الله عباداً ما هم بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء بمكانهم من الله»، قالوا: ومن هم يا رسول الله؟ قال: «قوم تحابُّوا بروح الله على غير أرحام ولا أموال»، الحديث، ثم قرأ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾[(١)].

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ يصح أَن يكون في موضع نصب على البدل من الأَولياءِ، ويصح أَن يكون في موضع رفع على الابتداءِ، على تقدير: هم الذين، وكثيراً ما يفعل ذلك بنعت ما عملت فيه «إِنَّ» إِذا جاءَ بعد خبرها، ويصح أَن يكون ﴿ٱلَّذِينَ﴾ ابتداءً وخبره في قوله: ﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ﴾.

وقوله: ﴿وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ لفظ عام في تقوى الشرك والمعاصي.

قوله عز وجل: ﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ وَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡۘ إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

أَما بشرى الآخرة فهي بالجنة قولاً واحداً، وتلك هي الفضل الكبير الذي في قوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضۡلٗا كَبِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٤٧].

وأَما بشرى الدنيا فتظاهرت الأَحاديث عن رسول الله ﷺ أَنها الرؤْيا الصالحة

= مجالسهم وقربهم من الله»، فجثى رجل من الأعراب فقال: يا نبي الله انعتهم لنا، جَلّهم لنا، شكلهم لنا، فسر وجه رسول الله ﷺ لسؤال الأعرابي، فقال رسول الله ﷺ: «هم ناس من الناس ونوازع القبائل لم تصل بينهم أرحام متقاربة تحابوا في الله وتصافوا بصفو الله لهم يوم القيامة منابر من نور فيجلسون عليها، وجوههم نور وثيابهم نور يفزع الناس يوم القيامة، ولا يفزعون وهم أولياء الله، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون»، وأخرجه أحمد (٥/ ٣٤٢)، وأبو يعلى (٦٨٤٢)، الطبراني في الكبير (٣٤٣٣-٣٤٣٥)، والبغوي في تفسيره (٤/ ١٣٩)، والبيهقي في الشعب (٩٠٠١) من طريق شهر بن حوشب، عن أبي مالك بدون ذكر عبد الرحمن بن غنم.

(١) انظر حديث عمر بن الخطاب السابق.

يراها المؤمن أَو تُرَى له، وروى ذلك عن رسول الله ﷺ: أَبو الدرداءِ[(١)]، وعمران بن حُصَين[(٢)]، وعبد الله بن عباس[(٣)]، وأبو هريرة[(٤)] وعبد الله بن عمر[(٥)] رضي الله عنهم جميعاً، وغيرهم على أَنه سُئل عن ذلك ففسّره بالرُّؤْيا.

وعن النبي ﷺ في صحيح مسلم أَنه [قال: «لم يبق من المبشرات إِلا الرؤْيا الصالحة»[(٦)].

وروت عنه أُم كرز[(٧)] الكعبية أَنه][(٨)] قال: «ذهبت النبوة وبقيت المبشرات»[(٩)]،

---

(١) في إسناده مبهم، حديث أبي الدرداء أخرجه أحمد (٦/ ٤٤٧) والترمذي (٢٢٧٣-٣١٠٦) والطبري (١٢/ ٢١٦-٢١٧) والإسماعيلي في معجم شيوخه (١/ ٤٢٥) والبيهقي في الشعب (٤٧٥٢) من طريق سفيان بن عيينة، عن محمد بن المنكدر، عن عطاء بن يسار، عن رجل من أهل مصر قال: سألت أبا الدرداء عن قول الله تعالى، فذكره مرفوعاً. وهذا إسناد ضعيف لإبهام الراوي عن أبي الدرداء، وخالف ابن جريج، فرواه عن ابن المنكدر، عن عطاء بن يسار، عن أبي الدرداء به، بدون واسطة، أخرجه الطبري (١٢/ ٢٢٢)، لكن أخرجه الحميدي في مسنده (٣٩١)، والترمذي بإثر حديث (٣١٠٦)، والطبري (١٢/ ٢٢٠)، والحاكم (٤/ ٣٩١) من طريق سفيان بن عيينة، عن عبد العزيز بن رفيع، عن أبي صالح ذكوان السمان، عن عطاء بن يسار، عن رجل من أهل مصر، عن أبي الدرداء به. فهذا هو الأشبه.

(٢) لم أقف عليه.

(٣) أخرجه مسلم (٤٧٩) وغيره.

(٤) أخرجه البخاري (٦٩٩٠)، وهو ساقط من الأصل والمطبوع.

(٥) أخرجه مسلم (٢٢٦٥) بلفظ غير هذا.

(٦) مسلم (٤٧٩) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٧) في: الأصل والمطبوع: «أم كند»، وهو خطأ، وفي الإصابة (٨/ ٤٥٨): أم كرز الخزاعيّة، ثم الكعبيّة، قال ابن سعد: المكية، أسلمت يوم الحديبية والنبيُّ ﷺ يقسم لحوم بُدنه، فأسلمت، ولها حديث في العقيقة، رواه الأربعة.

(٨) ساقط من أحمد٣.

(٩) إسناده لا بأس به، هذا الحديث أخرجه الدارمي (٢١٨٤)، وابن ماجه (٣٨٩٦)، وابن حبان في صحيحه (٦٠٤٧) من طريق سفيان بن عيينة، عن عبيد الله بن أبي يزيد، عن أبيه، عن سباع بن ثابت، عن أم كرز الكعبية به.

قال قتادة، والضحاك: «البشرى في الدنيا هي ما يُبَشر به المؤمن عند موته وهو حيٌّ عند المعاينة»[١].

قال القاضي أبو محمد: ويصح أَن تكون بشرى الدنيا ما في القرآن من الآيات المبشرات، ويَقْوَى ذلك بقوله تعالى في هذه الآية: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ وإِن كان ذلك كله يعارضه قول النبي ﷺ: «هي الرؤيا»، إِلا إِن قلنا: إِن النبي ﷺ أَعطى مثالاً من البشرى، وهي تعم جميع الناس.

وقوله: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ يريد: لا خُلفَ لمواعيده ولا رَدَّ في أَمره.

قال القاضي أبو محمد: وقد أَخذ ذلك عبدُ الله بن عمر على نحوٍ غير هذا، وجعل التبديل المنفي في الأَلفاظ، وذلك أَنه رُوي أَن الحجاج بن يوسف خطب فأَطال خطبته حتى قال: إِن عبد الله بن الزبير قد بدَّل كتاب الله، فقال له عبد الله بن عمر: إِنك لا تطيق ذلك أَنت ولا ابن الزبير: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾، فقال له الحجاج: لقد أُعطيتَ علماً، فلما انصرف إِليه في خاصته سكت عنه[٢].

وقد رُوي هذا النظر عن ابن عباس في غير مقاولة الحجاج، ذكره البخاري[٣].

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ إِشارة إِلى النعيم الذي وقعت به البشرى.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ﴾ الآية، هذه آية تسلية لمحمد ﷺ، والمعنى: ولا يحزنك يا محمد ويهمك قولهم، أَي: قول كفار قريش، ولفظة القول تعم جحودهم واستهزاءَهم وخداعهم وغير ذلك.

---

(١) انظر قولهما في تفسير الطبري (١٥/ ١٤٠)، وفي نجيبويه: «الموت»، بدل «المعاينة».

(٢) صحيح، هذا الأثر أخرجه الطبري (١٢/ ٢٢٦)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٣٧٠) من طريق إسماعيل بن علية، عن أيوب، عن نافع، عن ابن عمر رضي الله عنهما به، وأخرجه البيهقي في «الأسماء والصفات» (٥٢٨) من طريق جويرية بن أسماء عن نافع به.

(٣) لم أقف عليه.

ثم ابتدأ بوجوب[(١)] ﴿إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾، أي: فهم لا يقدرون لك على شيءٍ ولا يؤذونك[(٢)] إلا بما شاءَ الله، وهو القادر على عقابهم، لا يُعَازُّه شيءٌ، ففي الآية وعيد لهم.

وكسر ﴿إِنَّ﴾ في الابتداءِ ولا ارتباط لها بالقول المتقدم لها.

وقال ابن قتيبة: لا يجوز فتح «إِنَّ» في هذا الموضع، وهو كفر[(٣)].

قال القاضي أبو محمد: وقوله: هو كفر؛ غُلُوٌّ، وكأَن ذلك خرج على تقدير: لأَجل أَن العزة لله[(٤)].

وقوله: ﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ أَي: لجميع ما يقولونه، ﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾ بما في نفوسهم من ذلك، وفي ضمن هذه الصفات تهديد.

ثم استفتح بقوله: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أَي: بالملك والإِحاطة، وغلَّب من يعقل في قوله: ﴿مَن﴾ إذ له ملك الجميع: ما فيها ومَن فيها، وإِذا جاءَت العبارة بِـ«مَا» فذلك تغليب للكثرة، إِذ الأكثر عدداً / من المخلوقات لا يعقل، [٣/ ١٦] فـ«مَنْ» تقع للصنفين بمجموعهما، و«ما» كذلك، ولا تقع «ما» لما يعقل إِذا تجرد من الصفات والأَحوال، أَلا ترى لو ذُكِرتْ لك قولةٌ في مسأَلة، فأَردتَ أَن تسأَل عن قائلها، أَيجوز في كلام العرب أَن تقول: ما قائل هذا القول؟ هذا ما يتقلده من يفهم كلام العرب.

وقوله: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ﴾، يصح أَن يكون (مَا) استفهاماً بمعنى التقرير وتوقيف نظر المخاطب، ويعمل ﴿يَدۡعُونَ﴾ في قوله: ﴿شُرَكَآءَ﴾.

---

(١) في نجيبويه ونور العثمانية: «يوجب».

(٢) في نجيبويه: «يؤذونه».

(٣) لم أجده في كتبه، وقد نقله عنه في مختصر الشواذ (ص: ٦٢)، وفي البحر المحيط (٦/ ٨٣) عن القاضي أنه شاذ يقارب الكفر.

(٤) قال في البحر المحيط (٦/ ٨٣): «وقرأ أبو حيوة: «أنّ العزة» بفتح الهمزة وليس معمولاً لـ﴿قَوۡلُهُمۡ﴾؛ لأن ذلك لا يحزن الرسول ﷺ إذ هو حق، وخرِّجت على التعليل، أي: لا يقع منك حزن لما يقولون، لأجل أنّ العزة لله جميعاً، وعلى أن يكون «أنّ العزة» بدلاً من ﴿قَوۡلُهُمۡ﴾، ولا يظهر هذا التوجيه.

[ويصح أن تكون نافية ويكون مفعول ﴿يَتَّبِعُ﴾ محذوفاً، تقديره: حقيقةً أو برهاناً، ويعمل ﴿يَدْعُونَ﴾ في قوله ﴿شُرَكَآءَ﴾][(١)].

ويصح أَن تكون نافية، ويعمل ﴿يَتَّبِعُ﴾ في ﴿شُرَكَآءَ﴾، على معنى أَنهم لا يتبعون شركاءَ حقّاً، ويكون مفعول ﴿يَدْعُونَ﴾ محذوفاً، وفي هذا الوجه عندي تكلف.

وقرأَ أَبو عبد الرحمن السُّلمي: (تَدْعُونَ) بالتاءِ [من فوق][(٢)]، وهي قراءَة غير متجهة.

وقوله: ﴿إِن﴾ نافية و﴿يَخْرُصُونَ﴾ معناه: يحدسون ويخمنون لا يقولون بقياس ولا نظر.

وقرأت فرقة: ﴿ولا يُحْزِنْكَ﴾ من أحزن، وقرأت فرقة: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ﴾ من حزن[(٣)].

قوله عز وجل: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

لما نصّ على عظمة الله تبارك وتعالى في الآية المتقدمة عقَّب ذلك في هذه بالتنبيه على أَفعاله لتبيّن العظمة المحكوم بها قبلُ.

وقوله: ﴿لِتَسْكُنُوا۟﴾ دال على أَن النهار للحركة والتصرف، وكذلك هو في الوجود، وذلك أَن حركة الليل متعذرة بفقد الضوءِ.

---

(١) ما بين معقوفين: زيادة من المصرية والتركية والحمزوية ونور العثمانية.

(٢) سقطت من الأصل والمطبوع، وهي شاذة، انظر عزوها له في تفسير الثعلبي (٥/ ١٣٩).

(٣) وهما سبعيتان، الأولى لنافع والثانية للباقين، انظر التيسير (ص٧٠)، وقد تقدم في تفسير الآية (١٧٦) من آل عمران.

وقوله: ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ مجازٌ، لأَن النهار لا يُبصر، ولكنه ظرف للإِبصار، وهذا موجود في كلام العرب، إِذ المقصود من ذلك مفهوم، فمِن ذلك قول ذي الرمّة:

لَقَدْ لُمْتِنَا يَا أُمَّ غَيْلانَ فِي السُّرَى وَنِمتِ وَمَا لَيْلُ الْمَطِيِّ بِنَائِمِ[1] [الطويل]

وليس هذا من باب النسب كعيشةٍ راضيةٍ ونحوها، وإِنما ذلك مثل قول الشاعر:

أَمَّا النَّهَارُ فَفِي قَيْد وَسِلْسِلَةٍ وَاللَّيْلُ فِي بَطْنِ مَنْحُوتٍ مِنَ السَّاجِ[2] [البسيط]

فجعل الليل والنهار بهاتين الحالتين، وليس يريد إلا أنه هو فيهما كذلك، وهذا البيت لمسجون كان يبيت في خشبة السجن، وعلى أَن هذا البيت قد ينشد: «أما النهارَ» بالنصب، وفي هذه الأَلفاظ إِيجاز وإِحالة[3] على ذهن السامع؛ لأَن العبرة هي في أَن الليل مظلم يُسكن فيه، والنهار مبصر يُتصرف فيه، فذُكِر طرفٌ من هذا، والطرفُ الآخر من الجهة الثانية، ودلَّ المذكوران على المتروكين، وهذا كما في قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ﴾ [البقرة: ١٧١][4].

وقوله: ﴿يَسْمَعُونَ﴾ يريد: ويَعُون.

والضمير في ﴿قَالُواْ﴾ لكفار العرب، وذلك قول طائفة منهم: الملائكة بنات الله، والآية بعدُ تعُمّ كل من قال نحو هذا القول، كالنصارى ومن يمكن أَن يعتقد ذلك من الكفرة.

---

(١) البيت لجرير كما في الكتاب لسيبويه (١/ ١٦٠)، ومجاز القرآن (١/ ٢٧٩)، والكامل للمبرد (١/ ١١٣)، وتفسير الطبري (١٥/ ١٤٤)، والمحتسب (٢/ ١٨٣)، وما هنا من نسبته لذي الرمة خطأ لعل سببه أن اسمه غيلان، وأُم غَيْلان: ابنة جرير.

(٢) عزاه في الحيوان (٧/ ١٥٨) للجرنفس اللص، وهو بالجيم والراء المفتوحتين كما في الاشتقاق (ص: ٢٣٣)، والرواية في الكتاب لسيبويه (١/ ١٦٠): «قَعْرِ»، وفي الجمل للخليل (١/ ٧٢) والمقتضب (٤/ ٣٣١): «جوف»، والسّاج: خشب أسود لا تكاد الأرض تبليه.

(٣) في المطبوع: «وإِحاطة».

(٤) ويسمى هذا النوع من البديع: الاحتباك، قال الجرجاني في التعريفات (ص ٢٥): هو أن يجتمع في الكلام متقابلان ويحذف من كل واحد منهما مقابِلَه لدلالة الآخر عليه، كقوله: علفتها تبناً وماء بارداً، أي: علفتها تبناً وسقيتها ماء بارداً.

و﴿سُبۡحَـٰنَهُۥ﴾ مصدر معناه: تنزيهاً له وبراءَة من ذلك، فسّره بهذا النبي ﷺ[١].

وقوله: ﴿هُوَ ٱلۡغَنِيُّ﴾ صفة على الإِطلاق، أَي: لا يفتقر إِلى شيءٍ بجهةٍ من الجهات، والولد جزءٌ مما هو غني عنه، [وإذا سمي إنسان غنيّاً، فذلك مجاز بل هو فقير، وإن كان عنده ما يسد مفاقره في بعض الجهات دون بعض][٢]، والحق هو قول الله تعالى: ﴿أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [فاطر ١٥].

وقوله: ﴿مَا فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ﴾ أي: بالمِلْك والإِحاطة والخلق، و﴿إِنۡ﴾ نافية، والسلطان: الحجة، وكذلك معناه حيث تكرَّر من القرآن

ثم وقفهم موبّخاً بقوله: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ الآية، هذا توعُّد لهم بأَنهم لا يظفرون ببغية ولا يبقون في نعمة، إِذ هذه حال من يصير إِلى العذاب وإِن نُعّم في دنياه يسيراً.

وقوله: ﴿مَتَـٰعٞ﴾ مرفوع على خبر ابتداءٍ، أَي: ذلك متاع، أَو: هو متاع، أَو على الابتداءِ بتقدير: لهم متاع.

وقوله: ﴿ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ﴾ إِلى آخر الآية توعُّدٌ بحق.

قوله عز وجل: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَـٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾﴾.

تقدم في الأَعراف الكلام على لفظة ﴿نُوحٍ﴾.

و«الـمَقَام»: وقوف الرجل لكلام أَو لخطبة أَو نحوه، والـمُقَام[٣] بضم الميم:

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) ما بين معقوفين: ساقط من الأصل والمطبوع.

(٣) في المطبوع زيادة: «أَيضاً»، ولم يتضح وجهها.

إِقامته ساكناً في موضع أَو بلد، ولم يُقرأ هنا بضم الميم[١].

وتذكيرُه: وعظه وزجْرُهُ، والمعنى: يا قوم، إِن كنتم تستصعبون[٢] حالي ودعائي لكم إِلى الله فإِني لا أُبالي عنكم؛ لتوكلي على الله تعالى، فافعلوا ما قدرتم عليه.

وقرأَ السبعة، وجمهور الناس: الحسن، وابن أَبي إسحاق، وعيسى: ﴿فَأَجْمِعُوٓاْ﴾ من أَجمع الرجل على شيءٍ: إِذا عزم عليه، ومنه قول الشاعر:

هـلْ أَغْدُونْ يوْماً وأمْـري مُجْمَعُ[٣] [الرجز]

ومنه قول الآخر:

أجْمَعُـوا أَمْرَهُـمْ بِليْـلٍ فلمَّـا … أَصْبَحُوا أَصْبَحَتْ لَهُمْ ضَوْضَاءُ[٤] [الخفيف]

ومنه الحديث: «ما لم يُجمع مكثاً»[٥]، ومنه قول أبي ذؤيب:

ذَكَـر الـوُرودَ بهـا فأجمـع أمْـرَه … شَـوْقـاً وأَقْبل حَيْـنُـه يَتَـتَـبَّـعُ[٦] [الكامل]

وقرأَ نافع فيما روى عنه الأَصمعي، وهي قراءَة الأَعرج، وابن أَبي رجاءٍ، وعاصم الجحدري، والزهري، والأَعمش: ﴿فَاجْمَعُوا﴾ بفتح الميم[٧]، من جَمَع: إِذا ضمَّ شيئاً إِلى شيءٍ.

---

(١) قال في البحر المحيط (٦/ ٨٧) والدر المصون (٦/ ٢٣٩) واللباب (١٠/ ٣٧٥): بل قرأ به أبو مجلز وأبو رجاء وأبو الجوزاء.

(٢) في المطبوع: «تستضعفون»، وفي نور العثمانية: «تستصحبون».

(٣) البيت في معاني القرآن للفراء (١/ ٤٧٣)، والحجة لابن خالويه (ص: ١٨٣)، وإصلاح المنطق (ص: ١٩٠)، وغيرهم بلا نسبة.

(٤) البيت من معلقة الحارث ابن حِلِّـزَة، انظر عزوه له في تهذيب اللغة (١٢/ ٦٨)، وشرح المعلقات التسع (ص: ٣٥٥).

(٥) صحيح، هذا الأثر أخرجه مالك في الموطأ (٣٤٣) من طريق سالم بن عبد الله أن عبد الله بن عمر كان يقول: أصلي صلاة المسافر مالم أُجمع مُكثاً، وإن حبسني ذلك اثنتي عشرة ليلة.

(٦) انظر عزوه له في المفضليات (ص: ٤٢٣)، وجمهرة أشعار العرب (ص: ٥٤٠)، والحيوان (٦/ ٣٤٩)، مع اختلاف بعض الألفاظ.

(٧) وهي رواية رويس عن يعقوب بخُلفٍ عنه. انظر: النشر (٢/ ٢٨٥)، وانظر عزوها لرواية الأصمعي =

و﴿أَمْرَكُمْ﴾ يريد به: قدرَتكم وحياتكم، ويؤيد هذه القراءَة قوله تعالى: ﴿ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ﴾ [طه: ٦٠].

وكل هؤلاءِ نَصَب «الشركاءَ»، ونَصْبُ قوله: ﴿شُرَكَآءَكُمْ﴾ يحتمل أَن يعطف على قوله: ﴿أَمْرَكُمْ﴾، وهذا على قراءَة ﴿فاجمعوا﴾ بالوصل.

وأَما من قرأَ: ﴿فَأَجْمِعُوٓاْ﴾ بقطع الأَلف فنصب «الشركاء» بفعل مضمر، كأَنه قال: وادعوا شركاءَكم، فهو من باب قول الشاعر:

[الرجز] شـرَّابُ أَلْبَـانٍ وتَمْـرٍ وأَقِـط[1] ....

ومن قول الآخر:

[مجزوء الكامل] ورأَيْـت زوْجَـكِ فـي الْوَغَـى مُـتَـقَـلِّـداً سَـيْـفـاً وَرُمْحـــاً[2]

ومن قول الآخر:

[الرجز] عَـلَـفْـتُـهَــــا تِـبْـنـاً وَمَـاءً بَـارِداً حتَّـى شَـتَـتْ هَمَّالَـة عَيْنَاهَـا[3]

وفي مصحف أُبي بن كعب: (فأَجمعوا أَمركم وادعوا شركاءَكم)[4].

قال أَبو علي: وقد ينتصبُ (الشركاءُ) بواو «مَعْ»، كما قالوا: جاءَ البردُ والطيالسةَ[5].

[٣/ ١٧] وقرأَ أَبو عبد الرحمن، والحسن، وابن أَبي إسحاق، وعيسى، وسلام / ويعقوب، وأَبو عمرو فيما رُوي عنه: ﴿وشُرَكَاؤُكُم﴾ بالرفع[6]، عطفاً على الضمير في: (أَجمعوا).

= في السبعة (ص ٣٢٨)، وللباقين في المحتسب (١/ ٣١٤).

(١) البيت بلا نسبة في الكامل للمبرد (١/ ٢٦٤)، وإعراب القرآن للنحاس (٤/ ٢٠٩)، وغيرهما.

(٢) تقدم في تفسير الآية (٨) من سورة البقرة.

(٣) تقدم في تفسير الآية (٨) من سورة البقرة.

(٤) الحجة للفارسي (٤/ ٢٨٩)، والمحتسب (١/ ٣١٤).

(٥) تحرفت في المطبوع إلى: «البريد»، وانظر الحجة للفارسي (١/ ١٥٨)، والخصائص (٢/ ٣٨٥).

(٦) وهي عشرية، انظر عزوها ليعقوب في النشر (٢/ ٢٨٦)، وللباقين في المحتسب (١/ ٣١٤).

وعُطِف على الضمير قبل تأكيده لأَن الكاف والميم في ﴿أَمْرَكُمْ﴾ ناب مناب «أَنتم» المؤكد للضمير، ولطول الكلام أَيضاً، وهذه العبارة أَحسن من أَن يطول الكلام بغير ضمير، ويصح أَن يرتفع بالابتداءِ والخبرُ مُقدّر، تقديره: «وشركاؤُكم فليجمعوا».

وقرأَت فرقة: (وشُرَكَائِكُم) بالخفض[١] على العطف على الضمير في قوله تعالى: ﴿أَمْرَكُمْ﴾، والتقدير: وأَمر شركائكم فهو كقول الشاعر:

أَكُــلَّ امْـرِئٍ تَحْـسَـبِيـنَ امْــرَأً ... وَنَــارٍ تَـوَقَّـدُ بِـالَّلَيْــلِ نَــارَا[٢] [المتقارب]

أَي: وكلَّ نار، والمراد بالشركاءِ في هذه الآية: الأَنداد من دون الله، فأَضافهم إِليه إِذ هم يجعلونهم شركاءَ بزعمهم.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ أَي: ملتبساً مُشْكلاً، ومنه قوله ﷺ في الهلال: «فإِنْ غُمّ عليكم»[٣]، ومنه قول الراجز:

بَـلْ لَوْ شَـهِدْتِ النَّـاسَ إِذْ تُكُمُّوا ... بِغُمّـةٍ لَـوْ لَـمْ تُفَـرَّجْ غُمُّـوا[٤] [الرجز]

وقوله: ﴿ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ﴾ معناه: أَنفذوا قضاءكم نحوي.

وقرأَ السَّريُّ بن ينْعُم[٥]: (ثُمَّ أَفْضُوا) بالفاءِ وقطع الأَلف[٦]، ومعناه: أَسرعوا،

---

(١) وهي شاذة تابعه عليها في البحر المحيط (٦/ ٨٨).

(٢) تقدم في تفسير الآية (٦٥) من سورة الأنفال.

(٣) متفق عليه، هذا الحديث أخرجه البخاري (١٩٠٠)، ومسلم (١٠٨٠) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(٤) البيت للعجاج كما في العين (٥/ ٢٨٦)، ومجاز القرآن (١/ ٢٧٩)، وعزاه الزجاج في معاني القرآن وإعرابه (٣/ ٢٨) لرؤبة.

(٥) في المصرية والحمزوية والأسدية١ ونور العثمانية والتركية: «السدي»، وهو السري بن ينعم، الجبلاني، الحمصي روى عن: أبيه، وعامر بن جشيب، وحميد بن ربيعة، وعنه: إسماعيل بن عياش، ومحمد بن حرب، وكان من العابدين، تاريخ الإسلام (١٠/ ٢٠٤).

(٦) وهي شاذة، انظر عزوها له في المحتسب (١/ ٣١٥).

وهو مأْخوذ من الأَرض الفضاءِ، أَي: اسلكوا إِليَّ بكيدكم واخرجوا معي وبي إِلى سعة وجلية[١].

وقوله: ﴿وَلَا تُنظِرُونِ﴾ أي: لا تؤخرون، والنَّظِرة: التأْخير.

قوله عز وجل: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٧٢) فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ (٧٣)﴾.

المعنى: فإِن لم تُقبِلوا على دعوتي وكفرتم بها وتوليتم عنها، والتولِّي أَصله بالبدن[٢]، ويستعمل في الإِعراض عن المعاني، يقول: فأَنا لم أَسأَلكم أَجراً على ذلك ولا مالاً فيقعَ منكم قطع بي وتقصير بإِرادتي وإِنما أَجري على الذي بعثني.

وقرأَ نافع، وأَبو عمرو بخلاف عنه: ﴿أَجْرِيْ﴾ بسكون الياءِ.

وقرأَ: ﴿أَجْرِيَ﴾ بفتح الياءِ الأَعرجُ، وطلحة بن مصرف، وعيسى، وأَبو عمرو[٣].

وقال أَبو حاتم: «هما لغتان، والقراءَة بالإِسكان في كل القرآن»[٤].

ثم أَخبرهم أَن الله أَمره بالإِسلام والدين الحنيف الذي هو توحيد الله والعمل بطاعته والإِعداد للقائه.

وقوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ الآية، إِخبار من الله عزَّ وجلَّ عن حال قوم نوح المكذبين له، وفي ضمن ذلك الإِخبارِ توعُّد للكفار بمحمد ﷺ وضرب المثال لهم، أَي: أَنتم بحال هؤلاءِ من التكذيب فستكونون بحالهم من النقمة والتعذيب.

---

(١) كلمة: «جلية»، ساقطة من المطبوع.

(٢) في نور العثمانية: «بالبدل»، ولعله خطأ.

(٣) هكذا في النسخ وفيه من التخليط ما لا يخفى، قال في التيسير (ص: ١٢٤): فتحها نافع وابن عامر وأبو عمرو وحفص حيث وقع.

(٤) لم أقف عليه.

و﴿ٱلْفُلْكِ﴾: السفينة، والمفسرون وأَهل الآثار مجمعون على أَن سفينة نوح كانت واحدة، والفلك لفظ الواحد منه ولفظ الجمع مستوٍ، وليس به، وقد مضى شرح هذا في الأَعراف، و﴿خَلَٰٓئِفَ﴾ حمع خليفة، وقوله: ﴿فَٱنظُرْ﴾ مخاطبة للنبي ﷺ يشاركه في معناها جميع الخلق، وفي هذه الآية أَنه أَغرق جميع من كذَّب بآيات الله التي جاءَ بها نوح، وهي مقتضية أَيضاً أَنه أَنذرهم فكانوا منذرين، فلو كانوا جميع أَهل الأَرض كما قال بعض الناس لاستوى نوحٌ ومحمدٌ ﷺ في البعث إِلى أَهل الأَرض، ويردُّ ذلك قول النبي ﷺ: «أُعطيت خمْساً لم يُعطهن أَحدٌ قبلي»[1] الحديث، ويترجح بهذا النظر أَن بعثة نوح عليه السلام والغرق إِنما كان في أَهل صُقع لا في جميع الأَرض.

قوله عز وجل: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾.

الضمير في قوله: ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ عائد على نوح عليه السلام، والضمير في ﴿قَوْمِهِمْ﴾ عائد على الرسل، ومعنى هذه الآيات كلها ضرب المثل لحاضري محمد ﷺ، أَي: كما حلَّ بهؤلاءِ يحِلُّ بكم، و(البيِّنَات): المعجزات والبراهين الواضحة.

والضمير في قوله: ﴿كَانُوا۟﴾ وفي ﴿لِيُؤْمِنُوا۟﴾ عائد على قوم الرسل، والضمير في ﴿كَذَّبُوا۟﴾[2] عائد على قوم نوح، وهذا قول بعض المتأولين، وقال بعضهم: بل تَعود الثلاثة على قوم الرسل على معنى أَنهم بادروا رسلهم بالتكذيب كلما جاءَ رسول، ثم لجُّوا في الكفر وتمادوا فلم يكونوا ليؤمنوا بما سبق به تكذيبهم.

وقال يحيى بن سلام: «﴿مِن قَبْلُ﴾ معناه: من قبل العذاب»[3].

---

(١) متفق عليه، هذا الحديث أخرجه البخاري (٣٣٥)، ومسلم (٥٢١) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

(٢) في الأصل: «كانوا».

(٣) نقله في البحر المحيط (٦/ ٩٠).

قال القاضي أبو محمد: وفي هذا القول بُعد، ويحتمل اللفظ عندي معنًى آخر وهو أَن تكون (ما) مصدرية، والمعنى: فكذبوا رسلهم فكان عقابهم من الله أَن لم يكونوا ليؤمنوا بتكذيبهم من قبل، أَي: من سببه ومن جرَّائه، ويؤيد هذا التأْويلَ قوله: ﴿كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ﴾.

وقال بعض العلماءِ: عقوبة التكذيب الطبْعُ على القلوب.

وقرأَ جمهور الناس: ﴿نَطْبَعُ﴾ بالنون، وقرأَ العباس بن الفضل: (يَطْبَعُ) بالياءِ[(١)].

وقولـه: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أَي: هـذا فعلنا بهؤلاء، ثم ابتـدأ: ﴿كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ﴾ أي: كفعلنا هذا.

و﴿ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ هم الذين تجاوزوا طورهم، واجترحوا ما لا يجوز لهم وهي ها هنا في الكفر.

والضمير في ﴿بَعْدِهِم﴾ عائد على الرسل، والضمير في ﴿وَمَلَإِيْهِۦ﴾ عائد على فرعون.

والملأُ: جمع[(٢)] الجماعة من قبيلة وأَهل مدينة، ثم يقال للأَشراف والأَعيان من القبيلة أَو البلد: ملأٌ، أَي: هم يقومون مقام الملأ، وعلى هذا الحدّ هي في قول رسول الله ﷺ في قريش بدرٍ: «أولئك الملأُ»[(٣)]، وكذلك هي في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ﴾ [القصص: ٢٠].

وأَما في هذه الآية فهي عامة، لأَن بعثة موسى وهارون كانت إِلى فرعون وجميع قومه من شريف ومشروف، وقد مضى في ﴿الٓمٓصٓ﴾[(٤)] ذكر ما[(٥)] بُعثا إِليهم فيه.

و«الآيات»: البراهين والمعجزات وما في معناها.

---

(١) وهي شاذة، انظر عزوها له في مختصر الشواذ (ص: ٦٢).

(٢) ساقطة من المطبوع، وفي أكثر النسخ الخطية: «جميع»، وفي أحمد٣: «جمع»، كما هو مثبت.

(٣) ذكره ابن هشام في السيرة (١/ ٦٤٤) مرسلاً.

(٤) أي: سورة الأعراف.

(٥) في المطبوع: ذكرهما وما.

وقوله: ﴿فَٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾ أي: تعظَّموا وكفروا بها، و﴿مُّجۡرِمِينَ﴾ معناه: يرتكبون ما لم يُبح الله، ويجسرون من ذلك على الخطر الصعب.

قوله عز وجل: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحۡرٞ مُّبِينٞ ٧٦ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمۡۖ أَسِحۡرٌ هَٰذَا وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ٧٧ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا عَمَّا / وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا نَحۡنُ لَكُمَا بِمُؤۡمِنِينَ ٧٨﴾. [٣/ ١٨]

يريد بالحق آيتي العصا واليد، ويدل على ذلك قولهم عندهما: هذا سحر، ولم يقولوا ذلك إلا عندهما، ولم يتعاطوا إلا مقاومة العصا فهي معجزة موسى عليه السلام التي وقع فيها عجز المُعارض.

وقرأ جمهور الناس: ﴿لَسِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾، وقرأ سعيد بن جُبَيْر والأعمش: (لَسَاحِرٌ مُبِين)(١).

[ثم حكى عن موسى أنه وقَفهم ووبَّخهم بقوله: ﴿أَتَقُولُونَ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمۡ﴾](٢).

ثم اختلف المتأولون في قوله: ﴿أَسِحۡرٌ﴾ فقالت فرقة: هو حكاية من موسى عنهم على معنى أَن قولهم كان: ﴿أَسِحۡرٌ هَٰذَا﴾؟ ثم اختلف في معنى قول قوم فرعون: ﴿أَسِحۡرٌ هَٰذَا﴾؟ فقال بعضهم: قالها منهم كل مستفهم جاهل بالأَمر فهو يسأَل عنه.

قال القاضي أبو محمد: هذا التأْويل يضعفه ما ذكر الله قبلُ عنهم من أَنهم صمموا على أَنه سحرٌ بقولهم: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾.

وقال بعضهم: بل قالوا ذلك على معنى التعظيم للسحر الذي رأَوه بزعمهم، كما تقول لفرس تراه يجيد الجري: أَفرسٌ هذا؟ على معنى التعجب منه والاستغراب

---

(١) وهي شاذة عزاها لهما الكرماني في الشواذ (ص: ٢٢٩)، وزاد ابن مجاهد، وانظر البحر المحيط (٦/ ٩١).

(٢) ساقط من المطبوع.

وأَنت قد علمت أَنه فرس، وقالت فرقة غير هاتين: ليس ذلك حكاية من موسى عنهم، بل القول الذي حكاه عنهم مقدر تقديره: أَتقولون للحق لما جاءَكم سحرٌ؟ ـ قال القاضي أبو محمد: أَو نحو هذا من التقدير ـ ثم ابتدأَ يوقفهم بقوله: ﴿أَسِحْرٌ هَٰذَا﴾؟ على جهة التوبيخ، ثم أَخبرهم عن الله تعالى أَن السَّاحرين لا يفلحون ولا يظفرون ببغية، ومثل هذا التقدير المحذوف على هذا التأْويل موجود في كلام العرب، ومنه قول ذي الرمّة:

[الطويل] فَلَمَّا لَبِسْـنَ اللَّيْلَ أَوْ حينَ نصَّبَتْ ... لـهُ مِنْ خَذا آذانِهَـا وهو جَانحُ[(١)]

يريد: أَو حين قاربن ذلك، ومنه قول الله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ لِيَسُـٔۥُواْ وُجُوهَكُمۡ﴾ [الإسراء: ٧]، المعنى: بعثناهم لِيَسوُؤوا، ومثل هذا كثير شائع.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا﴾ الآية، المعنى: قال قوم فرعون لموسى: أَجئتنا لتصرفنا وتلْوينا وتردّنا عن دين آبائنا؟ يقال: لفت الرجل عنق[(٢)] الآخر، إذا لواه، ومنه قولهم: الْتفت، فإِنه افتعل من لفت عنقه [إذا لواه][(٣)]، ومنه قول رؤْبة:

[الرجز] لفْتـاً وَتَهْزِيعاً سَـواءَ اللَّفْـتِ[(٤)]

وقرأَ السبعة سوى أَبي عمرو ـ فإِنه اختلف عنه ـ: ﴿وَتَكُونَ﴾ بالتاءِ من فوق، وهي قراءَة جمهور الناس.

وقرأَ الحسن بن أَبي الحسن ـ فيما زعم خارجة وإِسماعيل ـ: ﴿وَيَكُونَ﴾ بالياءِ من تحت، ورويت عن أَبي عمرو، وعن عاصم، وهي قراءَة ابن مسعود[(٥)].

---

(١) انظر عزوه له في أدب الكاتب (ص: ٢١٤)، وتفسير الطبري (١/ ٣٢٧)، والخصائص (٢/ ٣٦٥)، وخذا آذانها: استرخاؤها.

(٢) في المطبوع ونجيبويه والأصل: عن.

(٣) ساقط من الأصل والمطبوع.

(٤) انظر عزوه له في تفسير الطبري (١٥/ ١٥٧)، مجاز القرآن (١/ ٢٨٠)، والتهزيع: التكسير أو دقّ العنق.

(٥) ليست في شيء من طرق التيسير، لكنها رواية العليمي عن شعبة في النشر (٢/ ٢٨٦)، وجامع البيان

و﴿ٱلۡكِبۡرِيَآءُ﴾ مصدر مبالغ من الكبر، والمراد به ـ في هذا الموضع ـ الملك، وكذلك قال فيه مجاهد والضحاك وأكثر المتأولين[١]، لأنه أعظم تكبر الدنيا، ومنه قول الشاعر [وهو ابن الرقاع][٢]:

سُـؤْدَداً غَيْـرَ فَاحِـش لا يُدَانيــ ـــهِ تِـجـِبَّـارَةٌ وَلا كِـبْـرِيـاءُ[٣] [الخفيف]

وقوله: ﴿بِمُؤۡمِنِينَ﴾: بمصدقين.

قوله عز وجل: ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ٱئۡتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٖ (٧٩) فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ (٨٠) فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئۡتُم بِهِ ٱلسِّحۡرُۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبۡطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ (٨١) وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ (٨٢)﴾.

يخبر أن فرعون قال لخدمته ومتصرفيه: ﴿ٱئۡتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ﴾، هذه قراءة جمهور الناس.

وقرأ طلحة بن مصرف، ويحيى بن وثاب، وعيسى: ﴿بِكُلِّ سَحَّارٍ﴾، على المبالغة.

قال أبو حاتم: لسنا نقرأ: ﴿سَحَّار﴾ إلا في سورة الشعراء[٤].

فروي أنهم أتوه بسحرة الفرما[٥] وغيرها من بلاد مصر حسبما قد ذُكر قبلُ في غير هذه الآية، فلما ورد[٦] السحرة باستعدادهم للمعارضة خيَّروا موسى كما ذكر في غير هذه الآية، فقال لهم عن أمر الله: ﴿أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ﴾.

(٣/ ١١٨٥)، وانظر عزوها للحسن في إعراب القرآن للنحاس (٢/ ١٥٤)، وللباقين في البحر المحيط في التفسير (٦/ ٩٢).

(١) تفسير الطبري (١٥/ ١٥٨)، وتفسير ابن أبي حاتم (٦/ ١٩٧٣).

(٢) ساقط من الأصل والمطبوع.

(٣) البيت لعديّ بن الرِّقاع كما في تفسير الطبري (١٥/ ١٥٧)، والتّجبارة: مصدر بمعنى الجبر والقهر.

(٤) اتفق القراء على حرف الشعراء أنه «سَحّار»، واختلفوا في التي في «الأعراف» (١١٢)، كما تقدم في الآية (١١٢)، والتي هنا، فقرأ حمزة والكسائي: «سَحَّار». وانظر التيسير (ص: ١١٢)، ونشر (٢/ ٢٧٠).

(٥) قرية في مصر كما تقدم.

(٦) في الأسدية١ والتركية: «رأوا».

وقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ ﴾ الآية، المعنى: فلما أَلقوا حبالهم وعصيهم وخيَّلوا بها وظنوا أَنهم قد ظهروا قال لهم موسى هذه المقالة.

وقرأَ السبعة سوى أَبي عمرو: ﴿ٱلسِّحْرُ﴾ وهي قراءَة جمهور الناس.

وقرأَ أَبو عمرو، ومجاهد، وأَصحابه، وابن القعقاع: ﴿بِهِ آلسِّحْرُ﴾ بأَلف الاستفهام ممدودة قبل ﴿ٱلسِّحْرُ﴾[1].

فأَما من قرأَ: ﴿ٱلسِّحْرُ﴾ بغير أَلف استفهام قبله فـ﴿مَا﴾ في موضع رفع على الابتداءِ، وهي بمعنى الذي وصلَتُها قوله: ﴿جِئْتُم بِهِ﴾، والعائد الضمير في ﴿بِهِ﴾، وخبرها ﴿ٱلسِّحْرُ﴾.

ويؤيد هذه القراءَة والتأْويلَ أَنَّ في مصحف ابن مسعود: (ما جئتم به سحر)، وكذلك قرأَها الأَعمش، وفي[2] قراءَة أُبي بن كعب: (مَا أَتَيْتُم به سِحْرٌ)[3].

والتعريف هنا في ﴿ٱلسِّحْرُ﴾ أَرتب لأَنه تقدم مُنكَّراً في قولهم: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ﴾، فجاءَ هنا بلام العهد، كما يقال في أَول الرسالة: سلام عليك، وفي آخرها: والسلام عليك[4].

ويجوز أَن تكون ﴿مَا﴾ استفهاماً في موضع رفع بالابتداءِ، و﴿جِئْتُم بِهِ﴾ الخبر، و﴿ٱلسِّحْرُ﴾ خبر ابتداءٍ مضمر تقديره: هو السحر إِن الله سيبطله، ووجه استفهامه هذا هو التقرير والتوبيخ، ويجوز أَن تكون ﴿مَا﴾ في موضع نصب على معنى: أَيَّ شيءٍ

---

(١) فهما سبعيتان، انظر لقراءة أبي عمرو في التيسير (ص: ١٢٣)، وأبي جعفر في النشر (١/ ٣٧٨)، ومجاهد في تفسير الثعلبي (٥/ ١٤٢).

(٢) في الأصل: «وهي»، وفي المطبوع: «وقي» بالقاف.

(٣) وهما شاذتان انظرهما في تفسير الطبري (١٥/ ١٦٢)، ومعاني القرآن للفراء (١/ ٤٧٥)، وإعراب القرآن للنحاس (٢/ ١٥٤)، والكشاف للزمخشري (٢/ ٣٦٣)، وتابعه على الأعمش في اللباب في علوم الكتاب (١٠/ ٣٨٧).

(٤) في نجيبويه: «مرتفع».

جئتم به، و﴿ٱلسِّحۡرُ﴾ مرفوع على خبر الابتداءِ، تقدير الكلام: أَيَّ شيءٍ جئتم به هو السحر إِنَّ الله سَيُبْطِلُهُ.

وأَما من قرأَ بأَلف الاستفهام والمدّ قبل ﴿ٱلسِّحۡرُ﴾ فـ﴿مَا﴾ استفهام رفع بالابتداءِ، و﴿جِئۡتُم بِهِ﴾ الخبر، وهذا على جهة التقرير، وقوله[1]: ﴿آلسِّحْرُ﴾ استفهام أَيضاً كذلك، وهو بدل من الاستفهام الأول، ويجوز أَن تكون ﴿مَا﴾ في موضع نصب بمضمر تفسيره[2]: ﴿جِئۡتُم بِهِ﴾، تقديره: أَيَّ شيءٍ جئتم به السحر.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبۡطِلُهُۥٓ﴾ إِيجاب عن عِدَةٍ من الله تعالى. [وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾، يصح أن يكون من كلام موسى عليه السلام، ويصح أن يكون ابتداء خبر من الله تعالى][3].

وقوله تعالى: ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ﴾ الآية، يحتمل أَن يكون من كلام موسى عليه السلام.

ويحتمل أَن يكون من إِخبار الله عزَّ وجلَّ، وكون ذلك كله من كلام موسى أَقرب، وهو الذي ذكره الطبري.

وأَما قوله: ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ فمعناه: بكلماته السابقة الأَزلية في الوعد بذلك[4].

قال ابن سلام: «﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾: بقوله: ﴿لَا تَخَفۡ﴾ [النمل: ١٠]»[5].

[ومعنى ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾: وإِن كره المجرمون، والمجرِم: المجترم الراكب للخطر][6].

---

(١) في المصرية: «وقرآة».

(٢) في المطبوع زيادة: «في قوله».

(٣) ما بين المعكوفتين ساقط من المطبوع.

(٤) انظر تفسير الطبري (١٥/ ١٦٣).

(٥) نقله عنه في البحر المحيط (٦/ ٩٣)، وانظر: تفسير ابن أبي زمنين (٢/ ٢٦٩).

(٦) ساقط من الحمزوية.

قوله عز وجل: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ / إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾. [٣/ ١٩]

المعنى: فما صدَّق موسى، ولفظة ﴿ءَامَنَ﴾ تتعدى بالباءِ، وتتعدى باللام وفي ضمن المعنى الباءُ، واختلف المتأولون في عود الضمير الذي في ﴿قَوْمِهِۦ﴾، قالت فرقة: هو عائد على موسى، وقالت فرقة: هو عائد على فِرْعَوْنَ، فمن قال إِن العود على موسى قال: معنى الآية وصف حال موسى في أَول مبعثه أَنه لم يؤمن به إِلا فتيان وشباب أَكثرهم أُولو آباءٍ كانوا تحت خوف من فرعون ومن ملأ بني إِسرائيل، فالضمير في المَلأَ عائد على الذرية، وتكون الفاءُ ـ على هذا التأْويل ـ عاطفة جملة على جملة لا مرتِّبة.

وقال بعض القائلين بعود الضمير على موسى عليه السلام: إِن معنى الآية: أَن قوماً أَدركهم موسى عليه السلام ولم يؤمنوا، وإِنما آمن ذرياتهم بعد هلاكهم لطول الزمان، قاله مجاهد، والأَعمش[١]، وهذا قول غير واضح[٢]، وإِذا آمن قوم بعد موت آبائهم فلا معنى لتخصيصهم باسم الذرية، وأَيضاً فما روي من أَخبار بني إِسرائيل لا يعطي هذا.

وهيئة قوله: ﴿فَمَآ ءَامَنَ﴾ تعطي تقليل المؤمنين به، لأَنه نفى الإِيمان ثم أَوجبه للبعض، ولو كان الأَكثر مؤمناً لأَوجب الإِيمان أَولاً ثم نفاه عن الأَقل، وعلى هذا الوجه يتخرج[٣] قول ابن عباس في الذرية: إِنه القليل[٤]، لا أَنه أَراد أَن لفظة الذرية هي بمعنى القليل كما ظن مكي وغيره[٥].

---

(١) تفسير الطبري (١٥/ ١٦٤).

(٢) في المصرية: «غير صحيح».

(٣) في نجيبويه: يترجح.

(٤) منقطع، هذا الأثر أخرجه الطبري (١٢/ ٢٤٥)، وابن أبي حاتم (١٠٥١٧) في تفسيريهما من طريق قتادة، عن ابن عباس رضي الله عنه، وقتادة لم يسمع من ابن عباس.

(٥) الهداية لمكي (٥/ ٣٣٠٨).

وقالت فرقة: إِنما سمّاهم ذُرّية لأَن أُمهاتهم كانت من بني إِسرائيل وآباؤُهم[١] من القبط، فكان يقال لهم: الذُّرّية، كما قيل لِفُرْس اليمن: الأَبناءُ، وهم الفُرْس المنتقلون مع[٢] وهرز بسعاية سيف بن ذي يزن، والأمر بكماله في السير[٣].

وقال السُّدي: «كانوا سبعين أَهل بيت من قوم فرعون»[٤].

قال القاضي أبو محمد: ومما يضعف عود الضمير على موسى أَن المعروف من أَخبار بني إِسرائيل أَنهم كانوا قوماً قد تقدمت فيهم النبوات، وكانوا في مدة فرعون قد نالهم ذُلٌّ مفرط، وقد رجَوا كشفه على يدي مولود يخرج فيهم يكون نبياً، فلما جاءَهم موسى عليه السلام أَصفقوا عليه واتبعوه، ولم يحفظ قط أَن طائفة من بني إِسرائيل كفرت به، فكيف تعطي هذه الآية أَن الأَقل منهم كان الذي آمن؟.

فالذي يترجح بحسب هذا أَن الضمير عائد على فرعون، ويؤيد ذلك أَيضاً ما تقدم من محاورة موسى وردّه عليهم وتوبيخهم على قولهم: هذا سحر، فذكر الله ذلك عنهم ثم قال: فَمَا آمَنَ لِمُوسى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ من قوم فرعون الذين هذه أَقوالهم، وروي في ذلك أَنه آمنت زوجة فرعون وخازنه وامرأَة خازنه وشباب من قومه، قاله ابن عباس[٥]، والسَّحرةُ أَيضاً فإِنهم معدودون في قوم فرعون، وتكون القصة ـ على هذا التأْويل ـ بعد ظهور الآيةِ والتعجيز بالعصا، وتكون الفاءُ مرتِّبة للمعاني التي عُطفت، [ويعود الضمير في (ملئهم) على الذرية][٦].

---

(١) بالرفع على الاستئناف بعد استكمال عمل «إن»، وفي المطبوع: «وآباءَهم» بالنصب عطفاً على معمول «إن».

(٢) في المطبوع: «من».

(٣) سيرة ابن هشام (١/ ٦٣)، وخلاصته أن وهْرز كان ذا حسب ونسب وفضل وسِنّ بين قومه، فلما استنجد سيف بن ذي يزن بكسرى ضد مسروق بن أبرهة ملك الحبشة بعد أن غلب وتسلط على أرض اليمن أمده كسرى بجيش، فكان وهرز على رأسهم.

(٤) نقله عنه في البحر المحيط (٦/ ٩٤).

(٥) هذا الأثر أخرجه الطبري (١٢/ ٢٤٦) من طريق عطية العوفي، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٦) ساقط من المطبوع.

ولاعتقاد الفراءِ وغيره عود الضمير على موسى عليه السلام تخبطوا في عود الضمير في ﴿وَمَلَإِيْهِمْ﴾ فقال بعضهم: ذِكْر فرعون وهو الملك[١] يتضمن الجماعة والجنود، كما تقول: «جاء الخليفة، وسافر الملك» وأَنت تريد جيوشه معه، وقال الفراءُ: المعنى: على خوف من آل فرعون وملئهم، وهو من باب: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾[٢].

قال القاضي أبو محمد: وهذا التنظير غير جيد؛ لأَن إِسقاط المضاف في قوله: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ هو سائغ بسبب ما يعقل من أَن القرية لا تسأَل، ففي الظاهر دليل على ما أُضمر، وأَما ها هنا فالخوف من فرعون متمكن لا يحتاج معه إِلى إِضمار[٣]، أَما إِنه ربما احتج بأَن الضمير المجموع في ﴿وَمَلَإِيْهِمْ﴾ يقتضي ذلك، والخوف إِنما يكون من الأَفعال والأَحداث التي للجثة، ولكن لكثرة استعماله ولقصد الإِيجاز أُضيف إِلى الأَشخاص.

وقوله: ﴿أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ بدل من ﴿فِرْعَوْنَ﴾ وهو بدل الاشتمال، فـ﴿أَن﴾ في موضع خفض، ويصح أَن تكون في موضع نصب على المفعول من أَجله.

وقرأَ الحسن، والجراح، ونبيح[٤]: (أَن يُفتنهم) بضم الياءِ[٥].

ثم أَخبر عن فرعون بالعلوّ في الأَرض والإِسراف في الأَفعال والقتل والدعاوي ليتبيّن عذر الخائفين.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ إِلى ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾؛ ابتداءُ حكاية قول موسى لجماعة

---

(١) في الأسدية١: «وهو الملأ».

(٢) يوسف: (٨٢)، انظر تمثيل الفراء بها وكلامه على الآية في معاني القرآن له (١/ ٤٧٦)، وانظر: إعراب القرآن للنحاس (٢/ ١٥٥).

(٣) قال النحاس في إعراب القرآن (٢/ ١٥٥): وهذا على مذهب الخليل وسيبويه خطأ، لا يجوز عندهما: قامت هند، وأنت تريد غلامها.

(٤) سقط من المطبوع.

(٥) وهي شاذة انظر عزوها لهم في البحر المحيط (٦/ ٩٦)، وعزاها الكرماني في الشواذ (ص: ٢٢٩) للحسن بن عمران وأصحابه..

بني إِسرائيل المؤمنين منهم مؤنساً لهم ونادباً إِلى التوكل على الله الذي بيده النصر.

ومسأَلة التوكل متشعبة للناس فيها خوضات، والذي أَقول: إِن التوكل الذي أُمر به هو مقترن بتسبب جميل على مقتضى الشرع، وهو الذي في قوله ﷺ: «قَيِّدها وتَوَكَّلْ»[1]، فقد جعله متوكلًا مع التقييد، والنبي ﷺ رأْس المتوكلين، وقد تسبَّب عمرَه كلَّه، وكذلك السلف كله، فإِن شذَّ متوكل فترك التسبب جملة فهي رتبة رفيعة ما لم يُسرف بها إِلى حد قتل نفسه وإِهلاكها، كمن يدخل غاراً خفيّاً يتوكل فيه، فهذا أَو نحوه مكروه عند جماعة من العلماءِ.

وما رُوي من إِقدام عامر بن قيس[2] على الأَسد[3] ونحو ذلك كله ضعيف، وللصحيح منه قرائن تسهله، وللمسلمين أَجمعين قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾، ولهم قال: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[4].

وقول النبي ﷺ في مدح السبعين أَلفاً من أُمته: «وعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ»[5]، ليس فيه أَنهم يتركون التَّسَبُّب جملة واحدة، ولا حفظ عن عكاشة أَنه ترك التَّسبب، بل كان

---

(١) إسناده جيد هذا الحديث أخرجه ابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٩٧١)، وابن حبان في صحيحه (٧٣١)، والحاكم في المستدرك (٣/ ٧٢٢)، والبيهقي في شعب الإيمان (١١٥٨) وغيرهم من طرق عن يعقوب بن عبد الله بن عمرو بن أمية، عن جعفر بن عمرو بن أمية، عن أبيه عمرو رضي الله عنه قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، أُرْسِلُ نَاقَتِي وأَتَوَكَّلُ؟ قَالَ: «بَلْ قَيِّدْهَا وَتَوَكَّلْ».

(٢) هو عامر بن عبد الله المعروف بابن عبد قيس ابن ناشب بن أسامة التميمي العنبري البصري الزاهد قدم دمشق في خلافة عثمان، روى عن عمر وسلمان الفارسي روى عنه محمد بن سيرين والحسن البصري، مات في خلافة معاوية، تاريخ دمشق (٢٦/ ٣).

(٣) في تاريخ دمشق (٢٦/ ٢٣) أنه كان إذا غزا فيقال له: إن هذه الأجمة يُخاف عليك فيها الأسد، فيقول: إني لأستحي من ربي أن أخشى غيره، وفي أسد الغابة (٢/ ٥٩٨): شهد سويد بن غفلة القادسية فصاح الناس: الأسد الأسد. فذكر نحواً منه.

(٤) هما الآيتان: البقرة: (١٩٨)، الأنفال: (٢).

(٥) متفق عليه، هذا الحديث أخرجه البخاري (٥٧٠٥) (٥٧٥٢) (٦٤٧٢) (٦٥٤١) ومسلم (٢١٨) من حديث عمران بن حصين.

يغزو ويأْخذ سهمه(١)، وأَعني بذلك ترك التسبب في الغذاءِ، وأَما ترك التسبب في الطب فسهلٌ، وكثير من الناس جُبِل عليه دون نيّة وحسبة، فكيف بمن يحتسب؟.

وقال لهم: ﴿إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم﴾ ـ مع علمه بإِيمانهم ـ على جهة إِقامة الحجة وتنبيه الأَنفس وإِثارة الأَنَفة، كما تقول: إن كنت رجلاً فقاتل، تخاطب بذلك رجلاً تريد إِقامة نفسه.

وقوله: ﴿إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ﴾ يريد: أَهل الطاعة منضافة إِلى الإِيمان المشروط، فَذِكْرُ الإِسلام فيه زيادة معنى، ثم ذكر أَنه أَجاب بنو إِسرائيل بنيّة التوكل على الله والنطق بذلك، ثم دعوا في أَلا يجعلهم فتنة للظَّلَمة، والمعنى: لا تنزل بنا بلاءً بأَيديهم أَو بغير ذلك مدة مجاورتنا لهم فيُفتنون ويعتقدون أَن إِهلاكنا إِنما هو بقصد منك لسوءِ ديننا / [٣/ ٢٠] وصلاح دينهم، وأَنهم أَهل الحق، قاله مجاهد وغيره(٢).

قال القاضي أبو محمد: فهذا الدعاءُ على هذا التأْويل يتضمن دفع فصلين، أَحدهما: القتل والبلاءُ الذي توقعه المؤمنون، والآخر: ظهور الشرك باعتقاد أَهله أَنهم أَهل الحق، وفي ذلك فساد الأَرض، ونحو هذا المعنى قول النبي ﷺ: «بئس الميت أَبو أُمامة ليهود والمشركين، يقولون: لو كان نبيّاً لم يمت صاحبه»(٣).

ويحتمل اللفظ من التأْويل ـ وقد قالته فرقة ـ أن المعنى: لا تفتنهم وتبتلهم بقتلنا فتعذبهم على ذلك في الآخرة، وفي هذا التأْويل قلق، [وباقي الآية](٤) بيِّن.

---

(١) في المطبوع: «سهامه»، بالجمع، وهذا إشارة إلى قوله ﷺ: «إنه من السبعين ألفاً المتوكلين».

(٢) راجع تفسير الطبري (١٥/ ١٦٩)، وتفسير الماوردي (٢/ ٤٤٦)، وتفسير ابن أبي حاتم (٦/ ١٩٧٦).

(٣) مرسل، أخرجه ابن إسحاق (سيرة ابن هشام ١/ ٥٠٧) قال: حدثني عبد الله بن أبي بكر بن محمد ابن عمرو بن حزم عن يحيى بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أسعد بن زرارة أن رسول الله ﷺ قال... وهذا مرسل.

(٤) ساقط من المطبوع.

قوله عز وجل: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾.

روي أَن فرعون أَخاف بني إِسرائيل وهدم لهم مواضع كانوا اتخذوها للصلاة ونحو هذا، فأَوحى الله إِلى موسى وهارون أَن اتَّخذا وتخيّرا لبني إِسرائيل بيوتاً بمصر، قال مجاهد: «مصر في هذه الآية الإسكندرية»[1]، ومصرُ ما بين البحر إِلى أَسوان، والإِسكندرية من أَرض مصر.

و﴿تَبَوَّءَا﴾: معناه كما قلنا: تخيّرا واتَّخذا، وهي لفظة مستعملة في الأَماكن وما يشبَّه بها، ومن ذلك قول الشاعر:

لهـا أَمْرُهـا حتّـى إذا مَـا تبـوَّأَتْ ... بأَخْفَافِهـا مَـأْوًى تبـوَّأَ مَضْجَعـا [الطويل]

وهذا البيت للراعي، وبه سُمِّي الراعي[2]، ومنه قول امرئ القيس:

يَتَبـوَّءُونَ مَـقَـاعِـداً لِـقِتَـالِـكُمْ ... كَلُيُـوثِ غَـابٍ لَيْلُهُـنَّ زَئِيـرُ[3] [الكامل]

وقرأَ الناس: ﴿تَبَوَّءَا﴾ بهمزة على تقدير تبوَّعا[4].

---

(١) تفسير الطبري (١٥/ ١٧٥)، تفسير الماوردي (٢/ ٤٤٦)، تفسير ابن أبي حاتم (٦/ ١٩٧٦).

(٢) انظر عزوه له مع سبب التسمية في الاشتقاق (١/ ٢٩٥)، والأمالي للقالي (٢/ ١٤٢)، وفي ذلك أقوال أخرى.

(٣) عزاه المصنف لامرئ القيس ولم أجده في غيره، وتَبَوَّأَ فلانٌ منزلاً: اتخذه، ومعنى يتبوءُون في البيت: ينزلونها ويتخذونها مقاعد للقتال. والزئير: صوت الأسد يكون من صدره. وفي الحمزوية: «قتالهم» بدل «قتالكم».

(٤) جاء في هامش المطبوع: «يوجد بياض بالأصل في أكثر النسخ».

وقرأ حفص في رواية هبيرة: (تَـبَوَّيَا)[١]، وهذا تسهيل ليس بقياسي، ولو جرى على القياس لكان بين الهمزةِ والألَف.

وقوله: ﴿قِبۡلَةٗ﴾ معناه: مساجد، قاله ابن عباس[٢]، والربيع، والضحاك، والنخعي، وغيرهم، قالوا: «خافوا فأُمروا بالصلاة في بيوتهم».

وقيل: يقابل بعضها بعضاً، قاله سعيد بن جبير[٣].

والأَول أَصوب.

وقيل: معناه: موجهة إِلى القبلة، قاله ابن عباس[٤].

ومن هذا حديث عن النبي ﷺ أَنه قال: «خير بيوتكم ما استقبل به القبلة»[٥].

---

(١) نقلها في السبعة (ص: ٣٢٩) عن حفص، وفي التيسير (ص: ١٢٣) عن هبيرة عنه أنه وقف بها، وليست من طرق الشاطبية.

(٢) أخرجه الطبري (١٢/ ٢٤٦) من طريق عطية العوفي، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) انظر هذه الأقوال في تفسير الطبري (١٥/ ١٧٣، ١٧٥)، وتفسير الماوردي (٢/ ٤٤٨)، وتفسير ابن أبي حاتم (٦/ ١٩٧٧،١٩٧٦).

(٤) صحيح، هذا الأثر أخرجه الطبري (١٢/ ٢٥٧) من طريق محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَٱجۡعَلُواْ بُيُوتَكُمۡ قِبۡلَةٗ﴾ قال: إلى الكعبة، ثم أخرجه (١٢/ ٢٥٧-٢٥٨) من طريق عطية العوفي، عن ابن عباس رضي الله عنه في قوله: ﴿وَٱجۡعَلُواْ بُيُوتَكُمۡ قِبۡلَةٗ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، قال: قالت بنو إسرائيل لموسى: لا نستطيع أن نظْهرَ صلاتنا مع الفراعنة، فأذن الله لهم أن يصلوا في بيوتهم، وأمروا أن يجعلوا بيوتهم قِبَل القبلة، وأخرجه أيضاً (١٢/ ٢٥٨) من طريق مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما، بنحوه.

(٥) لم أجده بهذا اللفظ، لكن جاء بلفظ: خير المجالس ما استقبل به القبلة، وقد ورد من طرق شتى كلها واه أو ضعيف، منها ما أخرجه ابن سعد في الطبقات (٥/ ٣٧٠)، وعبد بن حميد في مسنده (٦٧٥)، وابن ماجه (٩٥٩) مختصراً، والشهاب في مسنده (١٠٢٠)، وابن جرير الطبري في «تهذيب الآثار» (٢/ ٥٣٨)، والطبراني في الكبير (١٠٧٨١)، وابن عدي في الكامل (٧/ ١٠٦)، والخطيب في الجامع لأخلاق الراوي (٢/ ٦١) من طريق هشام بن زياد أبي المقداد، عن محمد بن كعب القرظي، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لكل شيء شرفاً، وإن شرف المجالس ما استقبل به القبلة..» =

وقوله: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ خطاب لبني إِسرائيل، وهذا قبل نزول التوراة لأَنها لم تنزل إِلا بعد إِجازة البحر.

وقوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أَمرٌ لموسى عليه السلام.

وقال مكي والطبري: «هو أمر لمحمد ﷺ»[١]، وهذا غير متمكن.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ الآية، غضبٌ من موسى على القبط ودعاءٌ عليهم، فقدَّم للدعاءِ تقريرَ نعم الله عليهم وكفرهم بها.

و﴿ءَاتَيْتَ﴾ معناه: أَعطيت وملَّكت، وتكرر قوله: ﴿رَبَّنَآ﴾ استغاثة، كما يقول الداعي: يا أَلله[٢].

وقوله: ﴿لِيُضِلُّوا۟﴾ يحتمل أَن تكون لام «كي» على بابها، على معنى: آتيتهم الأَموال إِملاءً لهم واستدراجاً، فكان الإِيتاءُ كي يضلوا، ويحتمل أَن تكون لام الصيرورة والعاقبة، كما قال: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨]، والمعنى: آتيتهم ذلك فصار أَمرهم إِلى كذا.

ورُوي عن الحسن أَنه قال: «هو دعاءٌ عليهم»[٣].

= الحديث، والروايات مطولة ومختصرة، وهشام بن زياد أبو المقداد متروك، وقد تابعه عيسى بن ميمون كما عند العقيلي في الضعفاء (٣/ ٣٨٧)، وصالح بن حسان الأنصاري عند ابن ماجه (١١٨١)، وابن عدي في الكامل (٤/ ٥١)، والخطيب في «الجامع لأخلاق الراوي (٢/ ٦٢)، ومصادف بن زياد المدني عند الحاكم في «المستدرك» (٤/ ٣٠٠) من طريق محمد بن معاوية، عن مصادف به، وعيسى ابن ميمون قال فيه ابن معين: ليس حديثه بشيء، وقال البخاري: منكر الحديث، وصالح بن حسان قال فيه ابن عدي: بعض حديثه فيه إنكار وهو إلى الضعف أقرب منه إلى الصدق، ومحمد بن معاوية ابن أعين النيسابوري متروك، وقال البيهقي في الكبرى (٧/ ٢٧٢): لم يثبت في ذلك إسناد.اهـ.

(١) انظر تفسير الطبري (١٥/ ١٧٦)، والهداية لمكي (٥/ ٣٣١٣).

(٢) كتبت في المطبوع: «بالله».

(٣) «عليهم» زيادة من المصرية والأسدية ١ والتركية، وانظر قول الحسن في البحر المحيط (٦/ ٩٩).

ويحتمل أَن يكون المعنى على جهة الاستفهام، أَي: ربنا ليضلوا فعلت ذلك؟ وفي هذا تقرير الشنعة عليهم.

وقرأَ ابن كثير، ونافع، وأَبو عمرو، وابن عامر، والحسن، والأَعرج، وشيبة، وأَبو جعفر، ومجاهد، وأَبو رجاءٍ، وأَهل مكة: ﴿لِيَضِلُّوا﴾ بفتح الياءِ على معنى: ليَضِلُّوا في أَنفسهم.

وقرأَ عاصم، وحمزة، والكسائي، والأَعمش، وقتادة، وعيسى، والحسن، والأَعرج بخلاف عنه[1]: ﴿لِيُضِلُّواْ﴾ بضم الياءِ، على معنى: لِيُضِلُّوا غيرهم.

وقرأَ الشعبي: (لِيضِلُّوا) بكسر الياءِ[2].

وقرأَ الشعبي أَيضاً، وغيره: (اطمُسْ) بضم الميم، وقرأَت فرقة: ﴿ٱطۡمِسۡ﴾ بكسر الميم[3].

وهما لغتان، ويقال: طمَس يطمِس ويطمُس، قال أَبو حاتم: «وقراءَة الناس بكسر الميم، والضم لغة مشهورة»[4]، ومعناه: عفَّ[5] وغيَّر، وهو من طموس الأَثر والعين وطمْس الوجوه، ومنه قول كعب بن زهير:

[البسيط] مِـنْ كُلِّ نَضَّاحةِ الذِّفْـرَى إذَا عَرِقَتْ عُرْضَتُهَا طَامِسُ الأَعْلَامِ مَجْهُولُ[6]

(١) في الحمزوية: «عنهما».

(٢) القراءتان الأوليان سبعيتان، انظر عزوهما لمن ذكر من السبعة في التيسير (ص: ١٢٣)، وموافقة أبي جعفر في النشر (٢/ ٢٦٢)، وانظر عزوهما للباقين مع قراءة الشعبي الشاذة في البحر المحيط (٦/ ٩٩).

(٣) وهي المتواترة، وقراءة الشعبي الشاذة في مختصر الشواذ (ص: ٦٣)، وعزاها أيضاً لعمر بن علي ابن الحسين، وجابر عن عاصم.

(٤) لم أجد من نقله عنه.

(٥) كذا في كافة النسخ: عف، ولعل أصله عفّى.

(٦) البيت لكعب بن زهير رضي الله عنه من قصيدته المشهورة بانت سعادكما تقدم في الآية (٢٢٣) من سورة البقرة.

وروي أَنهم حين دعا موسى بهذه الدعوة رجع سكَّرهم حجارة، وزادهم[١] ودنانيرهم وحبوبهم من الأَطعمة رجعت حجارة، قاله محمد بن كعب القرظي، وقتادة، وابن زيد، وقال مجاهد وغيره: «معناه: أهلكها ودمرها»[٢].

وروي أَن الطمسة كانت من آيات موسى التسع.

وقوله: ﴿وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ بمعنى: اطبع واختم عليهم بالكفر، قاله مجاهد والضحاك[٣].

ولما أَشار عمر بن الخطاب على رسول الله ﷺ بقتل أَسرى بدر شبَّهه بموسى في دعائه على قومه الذين بُعث إِليهم في هذه الآية، وبنوح في قوله: ﴿لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾[٤].

وقوله: ﴿فَلَا يُؤۡمِنُواْ﴾ مذهب الأَخفش وغيره أَن الفعل منصوب عطفاً على قوله: ﴿لِيُضِلُّواْ﴾[٥]، وقيل: هو منصوب في[٦] جواب الأَمر.

---

(١) في الحمزوية: «دراهمهم».

(٢) انظر هذه الأقوال في تفسير الطبري (١٥/ ١٧٩-١٨١)، وانظر تفسير ابن أبي حاتم (٦/ ١٩٧٩)، وتفسير الثعلبي (٥/ ١٤٥).

(٣) تفسير الطبري (١٥/ ١٨٢)، وتفسير الماوردي (٢/ ٤٤٨)، وتفسير ابن أبي حاتم (٦/ ١٩٧٩).

(٤) نوح: ٢٦، والحديث منقطع، أخرجه أبو عبيد في الأموال (٢٧٥)، وابن أبي شيبة في مسنده (٣٦٦) وفي المصنف (٣٧٨٤٥)، وأحمد (١/ ٣٨٣)، والترمذي (١٧١٤) مختصراً، وأبو يعلى في مسنده (٥١٨٧)، وابن المنذر في «الأوسط» (١١/ ٢٢٧)، والطبري (١١/ ٢٧٣-٢٧٤)، وابن أبي حاتم (٩١٥١) في تفسيريهما، والطبراني في الكبير (١٠٢٥٨)، والحاكم في المستدرك (٣/ ٢١)، والبيهقي في الكبرى (٦/ ٣٢١)، وغيرهم من طرق عن الأعمش، عن عمرو بن مرة، عن أبي عبيدة بن عبد الله ابن مسعود، عن، أبيه به، ورواية أبي عبيدة بن عبد الله بن مسعود عن أبيه منقطعة على الراجح.

ورواه الطبراني في المعجم الكبير (١٠٢٥٧) من طريق موسى بن مطير، عن عاصم بن أبي النجود، عن زر بن حبيش، عن عبد الله بن مسعود به. وموسى بن مطير متروك. وروي من طرق أخرى لا تصح.

(٥) معاني القرآن للأخفش (١/ ٣٧٨).

(٦) في المطبوع: «على».

وقال الفراءُ والكسائي: هو مجزوم[١] على الدعاءِ[٢]، ومنه قول الشاعر[٣]:

[الطويل] فَلاَ يَنْبَسِطْ مِنْ بَيْنِ عَيْنَيْكَ ما انْزَوَى ... وَلاَ تَلْقَنِي إِلاَّ وَأَنْفُكَ رَاغِمُ[٤]

وجعَل رؤْية العذاب نهاية وغاية، وذلك لِعِلْمِه من قِبَل الله أَن المؤمن عند رؤْية العذاب لا ينفعه إِيمانه في ذلك الوقت ولا يخرجه من كفره، ثم أَجاب الله هذه الدعوة في فرعون نفسه، قال ابن عباس: العذاب هنا: الغرق[٥].

وقرأَ الناس: ﴿دَّعْوَتُكُمَا﴾، وقرأَ السُّلمي[٦]، والضحاك: (دَعَوَاتكُمَا)[٧].

وروي عن ابن جريج، ومحمد بن علي، والضحاك: «أَن الدعوة لم تظهر إِجابتها إِلا بعد أَربعين سنة»[٨]، وحينئذ كان[٩] الغرق.

قال القاضي أبو محمد: وأُعلما أَن دعاءَهما صادف مقدوراً، وهذا معنى إِجابة الدعاء، وقيل لهما: ﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾،/ أَي: في أَن تستعجلا قضائي فإِن وعدي لا خُلف له. [٣/ ٢١]

---

(١) في المصرية: «منصوب».

(٢) معاني القرآن للفراء (١/ ٤٧٨)، ونقله النحاس في إعراب القرآن (٢/ ١٦٥) عن أبي عبيدة والكسائي.

(٣) في الحمزوية: «الأعشى»، ولعله إيضاح من الكاتب.

(٤) البيت لأعشى بنى قيس بن ثعلبة، كما في الزاهر للأنباري (٢/ ١٦)، والكامل للمبرد (٢/ ١٩٨)، والمحكم لابن سيده (٩/ ١١٨).

(٥) هذا الأثر أخرجه الطبري (١٢/ ٢٦٧)، وابن أبي حاتم (١٠٥٥٠) في تفسيريهما من طريق عطية العوفي، عن ابن عباس، وأخرجه الطبري (١٢/ ٢٧٠) من طريق ابن جريج، عن ابن عباس، وفي الأول مقال معروف، وفي الثاني انقطاع.

(٦) في الأصل والمطبوع ونجيبويه: السدي، المثبت هو الموافق للمصادر.

(٧) وهي شاذة، انظر عزوها للسلمي في المحتسب (١/ ٣١٥)، ومختصر الشواذ (ص: ٦٣)، ولهما في البحر المحيط (٦/ ١٠١).

(٨) تفسير الطبري (١٥/ ١٨٧)، وتفسير الماوردي (٢/ ٤٤٨)، وتفسير ابن أبي حاتم (٦/ ١٩٨٠).

(٩) في المطبوع والحمزوية زيادة: «أمر».

وقوله: ﴿دَّعْوَتُكُمَا﴾ ولم يتقدم الدعاءُ إِلا لموسى، وروي أَن هارون كان يُؤَمِّن على دعاءِ موسى عليه السلام، قاله محمد بن كعب القرظي[١]، فلذلك نسب الدعوة إِليهما، وقيل: كنى عن الواحد بلفظ التثنية، كما قال: قِفَا نَبْكِ[٢]، ونحو هذا.

قال القاضي أبو محمد: وهذا ضعيف لأَن الآية تتضمن بعْدُ مخاطبتَهما من غير شيءٍ.

قال علي بن سليمان: قول موسى: ﴿رَبَّنَآ﴾ دالٌّ على أنهما دعوا معاً[٣].

وقوله: ﴿فَٱسْتَقِيمَا﴾ أَي: على ما أُمِرْتُمَا بِهِ من الدعاءِ إِلى الله، وأُمِرا بالاستقامة وهما عليها للإِدامة والتمادي.

وقرأَ نافع والناس: ﴿تَتَّبِعَآنِّ﴾ بتشديد التاءِ والنون على النهي.

وقرأَ ابن عامر، وابن ذكوان: (تَتْبعانِّ) بتخفيف التاءِ وشدّ النون.

وقرأَ ابن ذكوان أَيضاً: ﴿تَتَّبعانِ﴾ بشدِّ التاءِ وتخفيف النون وكسرها.

وقرأَت فرقة: (تَتْبعانْ) بتخفيفها وسكون النون، رواه الأَخفش الدمشقي عن أَصحابه عن ابن عامر[٤].

فأَما شدُّ النون فهي النون الثقيلة حذفت معها نون التثنية للجزم، كما تحذف معها الضمة في «لتفعلنَّ» حيث بُني الفعل معها على الفتح، وإِنما كسرت هذه النون الثقيلة بعد أَلف التثنية [في نحو هذه الآية وما أشبهها لشبهها بنون الرجلان والزيدان في الوقوع بعد ألف التثنية][٥].

---

(١) تفسير الطبري (١٥/ ١٨٦)، وتفسير ابن أبي حاتم (٦/ ١٩٨٠).

(٢) إشارة إلى مطلع معلقة امرئ القيس.

(٣) لم أجده في معاني القرآن للأخفش، وقد نقله القرطبي (٨/ ٣٧٦).

(٤) أربع قراءات، الأولى بتشديدهما للجمهور، والثانية بتخفيف النون لابن ذكوان، سبعيتان، في التيسير (ص: ١٢٣)، والثالثة له بتخفيف التاء في السبعة (ص: ٣٢٩)، والرابعة بتخفيفهما في جامع البيان (٣/ ١١٨٩) عن هشام.

(٥) ما بين معقوفين: زيادة من التركية والأسدية١ والمصرية.

وأَما تخفيفها فيصح أَن تكون الثقيلةَ خففت، ويصح أَن تكون نونَ التثنية، ويكون الكلام خبراً معناه الأَمر، أَي: لا ينبغي أَن تتَّبعا.

قال أَبو علي: «إن شئت جعلته حالاً من ﴿فَٱسْتَقِيمَا﴾ كأنه قال: غير متَّبعين»[1].

قال القاضي أبو محمد: والعطف يمانع في هذا فتأَمله.

قوله عز وجل: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةًۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾.

قرأَ الحسن بن أَبي الحسن: (وَجَوَّزْنَا) بشد الواو[2] وطرح الأَلف، ويشبه عندي أَن يكون «جاوَزْنَا» كتب في بعض المصاحف بغير أَلف[3].

وتقدم القول في صورة جوازهم البحر في البقرة والأَعراف.

وقرأَ جمهور الناس: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ﴾ لأَنَّه يقال: تَبعَ وأَتْبع بمعنًى واحد، وقرأَ قتادة، والحسن: (فَاتَّبَعَهُمْ) بشد التاءِ[4]، قال أَبو حاتم: «القراءَة: أَتْبع بقطع الأَلف لأَنها تتضمن الإِدراك، واتَّبع بشد التاءِ هي طلب الأَثر سواءٌ أَدرك أَو لم يُدرك»[5].

وروي أَن بني إِسرائيل الذين جاوزوا البحر كانوا ست مئة أَلف، وكان يعقوب قد استقر أَولاً بمصر في نيف على السبعين أَلفاً[6] من ذريته فتناسلوا حتى بلغوا وقت

---

(١) الحجة للفارسي (٤/ ٢٩٤).

(٢) وهي شاذة، انظر عزوها له في تفسير الثعلبي (٥/ ١٤٧)، ومختصر الشواذ (ص: ٦٣).

(٣) هكذا رسمت في المصحف العثماني بدون ألف، كما هو مشاهد.

(٤) وهي شاذة، انظر عزوها لقتادة في معاني القرآن للنحاس (٣/ ٣١٣)، وللحسن في مختصر الشواذ (ص: ٦٣).

(٥) لم أجد من نقله عنه.

(٦) ليست في نور العثمانية وأحمد٣.

موسى العدد المذكور، ورُوي أَن فرعون كان في ثمان مئة أَلف أَدهم حاشا ما يناسبها[١] من أَلوان الخيل، وروي أَقل من هذه الأَعداد[٢].

قال القاضي أبو محمد: وهذا كله ضعيف، والذي تقتضيه أَلفاظ القرآن أَن بني إِسرائيل كان لهم جمع كثير في نفسه قليل بالإِضافة إِلى قوم فرعون المتَّبِعين.

وقرأَ نافع، وابن كثير، وأَبو عمرو، والكوفيون، وجماعة: ﴿وَعَدْوًا﴾ على مثال: غزا غَزْواً، وقرأَ الحسن، وقتادة: (وعُدُوّاً) على مثال: علا عُلُوّاً[٣].

وقوله: ﴿أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ﴾ أَي: في البحر.

وروي في ذلك أَن فرعون لما انتهى إِلى البحر فوجده قد انفرق ومشى فيه بنو إِسرائيل قال لقومه: إِنما انفلق بأَمري، وكان على فرس ذكر، فبعث الله تعالى جبريل على فرس أُنثى وديقٍ[٤]، فدخل بها البحر، ولج[٥] فرس فرعون وراءَه وحثت الجيوش خلفه، فلما رأَى الانفراق يثبت له استمر، وبعث الله تعالى ميكائيل يسوق الناس حتى حصل جميعهم في البحر، فانطبق عليهم حينئذ، فلما عاين فرعون قال ما حُكي عنه في هذه الآية[٦].

وقرأَ جمهور الناس: ﴿أَنَّهُ﴾ بفتح الأَلف، ويحتمل أَن تكون في موضع نصب، ويحتمل أَن تكون في موضع خفض على إِسقاط الباءِ.

---

(١) في المطبوع: «بقي»، وكذا في أحمد٣ مع التنبيه في هامشه على المثبت.

(٢) انظر: تفسير الثعلبي (٦/ ٢٥٥).

(٣) وهي شاذة انظر عزوها لقتادة في معاني القرآن للنحاس (٣/ ٣١٣)، ولهما في مختصر الشواذ (ص: ٦٣).

(٤) في القاموس المحيط (ص: ٩٢٧): ودقت الفرس وذات الحافر، مثلثة الدال، وداقاً ودقاناً وودقاً، محركتين: أرادت الفحل.

(٥) في المطبوع وأحمد٣: فولج.

(٦) تفسير الطبري (١٩/ ٣٦٠).

وقرأ حمزة، والكسائي، وأبو عمرو: ﴿إِنَّهُ﴾ بكسر الألف[١]، إِما على إِضمار الفعل، أَي: آمنت فقلت: إِنه، وإِما على أَن يتم الكلام في قوله: ﴿ءَامَنتُ﴾ ثم يبتدئ إِيجاب: إِنَّهُ.

ورُوي عن النبي ﷺ أَن جبريل عليه السلام قال: «ما أَبغضت أَحداً قط بغضي لفرعون، ولقد سمعته يقول: ﴿ءَامَنتُ﴾ الآية، فأَخذت من حال[٢] البحر فملأْت فمه مخافة أَن تلحقه رحمة الله»، وفي بعض الطرق: «مخافة أَن يقول لا إِله إِلاَّ الله فتلحقه الرحمة»[٣].

قال القاضي أبو محمد: فانظر إِلى كلام فرعون ففيه مجهلة وتلعثم، ولا عذر لأَحد في جهل هذا، وإِنما العذر فيما لا سبيل إِلى علمه، كقول علي رضي الله عنه: أَهللت بإِهلال كإِهلال النبي ﷺ[٤].

والحال: الطين، كذا في «الغريب المصنف» وغيره[٥]، والأثر بهذا كثير مختلف اللفظ والمعنى واحد، وفعل جبريل عليه السلام هذا يشبه أَن يكون لأَنه اعتقد تجويز المغفرة للتائب وإِن عاين، ولم يكن عنده قبلُ إِعلام من الله تعالى أَن التوبة بعد[٦] المعاينة غير نافعة.

---

(١) هكذا ورد ذكر أبي عمرو هنا، وهو خطأ لا وجه له، والقراءتان سبعيتان، انظر: السبعة لابن مجاهد (ص: ٣٣٠).

(٢) حالُ البحر: الطين الأسود الذي يكون في أرضه كما سيأتي للمؤلف، وفي نجيبويه: «من طين حال البحر».

(٣) اختلف فيه رفعاً ووقفاً، والوقف أكثر، هذا الحديث أخرجه أبو داود الطيالسي (٢٧٤٠)، وأحمد (٤/ ٤٥-٥/ ٢٤٥)، والترمذي (٣١٠٨) وقال: حسن صحيح غريب من هذا الوجه، والنسائي في «الكبرى» (١١٢٣٨)، والطبري (١٢/ ٢٧٧)، وابن أبي حاتم (١٠٥٦٢)، من طرق عن شعبة، عن عطاء بن السائب، وعدي بن ثابت، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنه مرفوعاً، وفي بعض الروايات عن شعبة، عن عطاء بن السائب فقط، وعن شعبة به موقوفاً.
وأخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٣٤٠)، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه إلا أن أكثر أصحاب شعبة أوقفوه على ابن عباس». اهـ.
وقد روي من أوجه أخرى لا تصح عن ابن عباس، وفي الباب عن أبي هريرة رضي الله عنه، وفي إسناده جهالة.

(٤) متفق عليه، هذا الحديث أخرجه البخاري (١٥٥٨)، ومسلم (١٢١٦).

(٥) الغريب لابن سلام ولم أجده في المتوفر منه، وانظر هذا المعنى في سيرة ابن هشام (١/ ٥٣٩).

(٦) في التركية: «عند».

وقوله تعالى: ﴿ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ ﴾ الآية، قال أَبو علي: «اعلم أَن لام المعرفة إِذا دخلت على كلمة أَولها الهمزة فخففت الهمزة فإِن في تخفيفها وجهين، أَحدهما: أَن تحذف وتُلْقَى حركتها على اللام وتقر[1] همزة الوصل فيه فيقال: اَلَحْمَر، وقد حكى ذلك سيبويه.

وحكى أَبو عثمان عن أَبي الحسن أَن ناساً يقولون: لَحْمَر، فيحذفون الهمزة التي للوصل»[2].

فمن ذلك قول الشاعر:

[الطويل]

وَقَدْ كُنْتَ تُخْفِي حُبَّ سَمْرَاءَ حقْبَةً فَبُحْ لَانَ مِنْهَا بالَّذِي أَنْتَ بَائِحُ[3]

قرأَ نافع في رواية ورش لم يختلف عنه: ﴿آلانَ﴾ بمد الهمزة وفتح اللام.

وقرأَ الباقون بمدّ الهمزة[4] وسكون اللام وهمز الثانية[5].

وقرأَت فرقة: «أَلَانَ» بقصر الهمزة وفتح اللام وتخفيف الثانية.

وقرأَ جمهور الناس: ﴿ءالآنَ﴾ بقصر الأُولى وسكون اللام وهمز الثانية[6].

قال القاضي أبو محمد: وقراءَات التخفيف في الهمزة تترتب على ما قال أَبو علي، فتأَمله، فإِن الأُولى على لغة من يقول: اَلَحمر، وهذا على جهة التوبيخ له والإِعلان بالنقمة منه.

وهذا اللفظ يحتمل أَن يكون مسموعاً لفرعون من قول مَلَك مُوَصِّلٍ عن الله

---

(١) في نجيبويه: «وتقدر».

(٢) الحجة للفارسي (٤/ ٢٩٦).

(٣) البيت بلا نسبة في الحجة للفارسي (٤/ ٢٩٧)، والخصائص (٣/ ٩٢)، والصحاح للجوهري (٥/ ٢٠٧٦).

(٤) في نجيبويه زيادة: «الأولى».

(٥) هاتان قراءتان متواتران، وهما بمد الهمزة الأولى على الاستفهام، كما تقدم في الحرف الأول.

(٦) لعله يقصد بالقصر التسهيل فهما وجهان للقراءتين المتواترتين، أما إن أراد الخبر فهما شاذتان إن كان قرئ بهما.

وكيف شاءَ الله، ويحتمل أَن يكون هذا الكلام معنى حاله وصورة خزيه، وهذه الآية نصٌّ في ردّ توبة المُعَاين.

[٣/ ٢٢] وقوله تعالى: ﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ ﴾ الآية، يُقَوّي ما ذكرناه / من أَنها صورة الحال، لأَن هذه الأَلفاظ إِنما يظهر أَنها قيلت بعد غرقه، وسبب هذه المقالة ـ على ما رُوي ـ أَن بني إِسرائيل بَعُدَ عندهم غرقُ فرعون وهلاكه لعظَمِهِ عندهم، وكذَّب بعضهم أَن يكون فرعون يموت، فنُجِّي على نجوة من الأَرض حتى رآه جميعهم ميتاً كأَنه ثور أَحمر، وتحققوا غرقَه.

وقرأَت فرقة: ﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ ﴾.

وقالت فرقة: معناه: من النجاة، أَي: من غمرات البحر والماءِ، وقال جماعة: معناه: نلقيك على نجوة من الأَرض وهي ما ارتفع منها، ومنه قول أَوس بن حجر:

[البسيط] فَمَنْ بِعَقْوَتِهِ كمن بِنَجْوَتِهِ والمُسْتَكِنُّ كمَنْ يَمْشي بِقِرْوَاح[1]

وقرأَ يعقوب: ﴿نُنْجِيكَ﴾ بسكون النون وتخفيف الجيم[2].

وقرأَ أُبي ابن كعب: (نُنَحِّيكَ) بالحاءِ المشددة من التنحية، وهي قراءَة محمد بن السميفع اليماني، ويزيد البريدي[3].

وقالت فرقة: معنى ﴿بِبَدَنِكَ ﴾: بدرعك، وقالت فرقة: معناه: بشخصك.

وقرأَت فرقة: (بنِدَائك)[4] أَي: بقولك: ﴿ءَامَنتُ﴾ إِلى آخر الآية، ويشبه أَن

---

(١) انظر عزوه له في تفسير الثعلبي (٥/ ١٤٨)، وتفسير الطبري (١٥/ ١٩٥)، والشعر والشعراء (١/ ٢٠٣)، وعزاه في العين (٣/ ٤٤) لعبيد بن الأبرص، وهو في الأغاني (١١/ ٧٤)، والحيوان (٦/ ٣٨٣)، على الخلاف بينهما، والقرواح: البارز الذي ليس يستره شيء.

(٢) فهي عشرية، انظرها في النشر (٢/ ٢٥٨).

(٣) وهي شاذة، نقلها عنهم في المحتسب (١/ ٣١٥).

(٤) وهي شاذة، عزاها القرطبي (٨/ ٣٧٩): لعلقمة عن عبدالله، والبحر المحيط (٦/ ١٠٣) لابن مسعود، وابن السميفع.

يكتب (بندائك) بغير أَلف في بعض المصاحف[١]، ومعنى الآية: إِنا نجعلك آية مع ندائك الذي لا ينفع.

وقرأت فرقة: [هي الجمهور][٢]: ﴿خَلْفَكَ﴾ أَيْ: من أَتى بعدك.

وقرأت فرقة: (خَلَقَك)[٣]، والمعنى: يجعلك الله آية له في عباده.

ثم بيّن عزَّ وجلَّ العظة[٤] لعباده بقوله: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾، وهذا خبر في ضمنه توعّد.

قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ الطَّيِّبَٰتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَآءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾ فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَآءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾﴾.

المعنى: لقد اخترنا لبني إِسرائيل أَحسن اختيار، وأحللناهم من الأماكن أحسن محل و﴿مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ أَي: يَصْدُق فيه ظن قاصده وساكنِهِ وأَهله، ويعني بهذه الآية: إِحلالهم بلاد الشام وبيت المقدس، قاله قتادة، وابن زيد، وقيل: بلاد مصر والشام، قاله الضحاك[٥].

---

(١) قاله أبو بكر الأنباري، كما نقله عنه القرطبي (٨/ ٣٧٩).

(٢) ساقط من المطبوع، وضبطت فيه بفتح اللام، وهي شاذة، أشار لها أبو حيان (٦/ ١٠٤) وقال: أي: من الجبابرة والفراعنة ليتعظوا.

(٣) وهي شاذة، نقلها الثعلبي (٥/ ١٤٨) عن علي، وضبطت في المطبوع بالفاء وسكون اللام على أنها قراءة الجمهور.

(٤) سقطت من الأصل والمطبوع.

(٥) انظر عزو القولين في تفسير الطبري (١٥/ ١٩٨)، تفسير الماوردي (٢/ ٤٤٩)، تفسير ابن أبي حاتم (٦/ ١٩٨٥).

والأَول أَصح بحسب ما حفظ من أَنهم لن يعودوا إِلى مصر، على أَن في القرآن: ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ٥٩]، يعني ما ترك القبط من جنات وعيون وغير ذلك.

وقد يحتمل أَن يكون ﴿وَأَوۡرَثۡنَٰهَا﴾ معناه: الحالة من النِّعمة، وإِنْ لم يكن في قطر واحد.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا ٱخۡتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ﴾ يحتمل معنيين:

أَحدهما: فما اختلفوا في نبوة محمد وانتظاره[1] حتى جاءَهم وبان علمُه وأَمْرُه، فاختلفوا حينئذ.

قال القاضي أبو محمد: وهذا التخصيص هو الذي وقع في كتب المتأَولين كلهم[2]، وهذا تأْويل يحتاج إِلى سند.

والتأْويل الآخر الذي يحتمله اللفظ: أَن بني إِسرائيل لم يكن لهم اختلاف على موسى في أَول حاله، فلما جاءَهم العلم والأَوامر وغرق فرعون اختلفوا.

قال القاضي أبو محمد: فمعنى الآية [على هذا][3] مذمة ذلك الصدر من بني إِسرائيل، ثم أَوجب الله عزَّ وجلَّ بعد ذلك أَنه يَقْضِي بَيْنَهُمْ ويفصل بعقاب من يعاقب ورحمة من يرحم.

وقوله تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكّٖ﴾ الآية، قال بعض المتأَولين ـ ورُوي ذلك عن الحسن ـ: إِنَّ (إِنْ) نافية بمعنى (وما)[4]، والجمهور على أَنَّ (إِنْ) شرطية.

والصواب في معنى الآية أَنها مخاطبة للنبي ﷺ، والمراد بها سواه من كل من

---

(١) ساقط من الأصل والمطبوع.

(٢) ساقط من الأصل والمطبوع.

(٣) ساقط من الأصل والمطبوع.

(٤) انظر: تفسير الطبري (١٥/ ٢٠٢).

يمكن أَن يشك أَو يعارض. وقال قوم: الكلام بمنزلة قولك: إِن كنت ابني فبِرَّني.

قال القاضي أبو محمد: وليس هذا المثال بجيد، وإِنما مثال هذا قوله تعالى لعيسى: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى﴾، وروي أَن رجلاً سأَل ابن عباس عما يحيك في الصدر من الشك، فقال له: ما نجا من ذلك أَحد ولا النبي ﷺ حتى أُنزل عليه: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾[1].

قال القاضي أبو محمد: وذكر الزهراوي أَن هذه المقالة أُنكِرت أَن يقولها ابن عباس[2]، وبذلك أَقول، لأَن الخواطر لا ينجو منها أَحد، وهي خلاف الشك الذي يحال[3] فيه على الاستشفاءِ بالسؤال.

و﴿ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ هم من أَسلم من بني إِسرائيل كعبد الله ابن سلام، وغيره[4].

وروي أَن رسول الله ﷺ قال لما نزلت هذه الآية: «أَنا لا أَشك ولا أَسأَل»[5].

وقرأَ: ﴿فَسَلْ﴾ دون همز: الحسنُ، وأَبو جعفر، وأَهل المدينة، وأَبو عمرو، وعيسى، وعاصم.

---

(١) لا بأس به، هذا الأثر أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠٥٨٢) من طريق عكرمة بن عمار، عن أبي زميل سماك الحنفي، عن ابن عباس وقلت له: إني أجد في نفسي شيئاً لا أستطيع أن أتكلم به، قال: لعله شك أو شيء من شك، قلت: نعم، قال: ما نجا من هذا أحد حتى نزل على النبي ﷺ ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ ثم قال: إذا وجدت من ذلك فقل: هو الأول والآخر والظاهر والباطن.

(٢) لم أقف عليه.

(٣) في المطبوع: «يجال فيه».

(٤) سقطت من المطبوع.

(٥) مرسل، هذا الحديث أخرجه عبد الرزاق (١/ ٢٩٨) من طريق معمر، والطبري (١٢/ ٢٨٨) من طريق معمر وسعيد بن أبي عروبة كلاهما، عن قتادة مرسلاً.

وقرأ جمهور عظيم بالهمز(١)، [قال أبو حاتم: قراءتنا بالهمز](٢).

ثم جزم الله الخبر بقوله: ﴿لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾، واللام في ﴿لَقَدْ﴾ لام القسم، و﴿ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ معناه: الشَّاكِّين الذين يحتاجون في اعتقادهم إِلى المماراة فيها، وقوله: ﴿مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ يريد به: من أَن بني إِسرائيل لم يختلفوا في أَمره إِلاَّ مِن بعد مجيئه، [فـ(من) زائدة](٣)، وهذا قول أَهل التأْويل قاطبة.

قال القاضي أبو محمد: وهذا هو الذي يشبه أَن ترتجى إِزالة الشك فيه من قِبَل أَهل الكتاب، ويحتمل اللفظ أَن يريد بـ(ما أَنزلنا) جميع الشرع، ولكنه بعيد بالمعنى؛ لأَن ذلك لا يعرف ويزول الشك فيه إِلا بأَدلة العقل، لا بالسماع من مؤمني بني إِسرائيل.

وقوله: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ﴾ الآية، مما خوطب به النبي ﷺ والمراد سواه.

قال القاضي أبو محمد: ولهذا فائدة ليست في مخاطبة الناس به، وذلك شِدَّة التخويف، لأَنه إِذا كان رسول الله ﷺ يحذر من مثل هذا فغيرُه من الناس أَولى أَن يحذر ويتقي على نفسه.

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾.

جاءَ هذا تحذير مُرَدَّد وإِعلام(٤) بسوءِ حال [هؤلاء القوم](٥) المحتوم عليهم،

---

(١) غير دقيق، والقراءة بالنقل في «فسل» ونحوها سبعية لابن كثير والكسائي خاصة، كما تقدم في تفسير الآية **٣٢** من سورة النساء، وفي السبعة (ص: **٢٣٢**): وروى الكسائي عن إسماعيل بن جعفر عن أبي جعفر وشيبة أنهما لم يهمزا «وسل» ولا «فسل» كقراءة الكسائي.

(٢) ساقط من الأصل والمطبوع، ولم أجده.

(٣) زيادة من نجيبويه.

(٤) جاءت الألفاظ الثلاث في المطبوع وأحمد**٣** منصوبة.

(٥) «هؤلاء»: زيادة من المصرية والتركية وأحمد**٣** والحمزوية والأسدية**١**، و«القوم» زيادة من المصرية فقط، وفي الأسدية**١**: المحكوم عليهم.

والمعنى: إن الله أَوجب لهم سخطه في الأَزل وخلقهم لعذابه، فلايؤمنون ولو جاءَهم كل بيان وكل وضوح إلا في الوقت الذي لا ينفعهم فيه إيمان، كما صنع فرعون وأَشباهه من الخلق، وذلك وقتَ المعاينة، وفي ضمن الأَلفاظ التحذير من هذه الحال، وبَعْثُ الكل على المبادرة [إلى الإيمان][1]، والفرار من سخط الله.

وقرأَ أَبو عمرو، وعاصم، والحسن، وأَبو رجاءٍ:/ ﴿كَلِمَتُ﴾ بالإفراد. [٣/ ٢٣]

وقرأَ نافع، وأَهل المدينة: ﴿كَلِمَات﴾ بالجمع، وقد تقدم ذكر هذه الترجمة[2].

وقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ﴾ الآية، في مصحف أُبيٍّ، وابن مسعود: (فَهَلا)[3].

والمعنى فيهما واحد، وأَصل «لولا» في الكلام التحضيض أَو الدلالة على منع أَمر لوجود[4] غيره، فأَما هذه فبعيدة عن هذه الآية، لكنها من جملة التي هي للتحضيض، [وحقيقة التحضيض][5] بها أَن يكون المحضِّض يريد من المخاطب فعل ذلك الشيءِ الذي يحضه عليه. وقد تجيءُ «لولا» وليس من قصد المخاطب أَن يحضّ المخاطب على فعل ذلك الشيءِ فيكون حينئذ المعنى توبيخاً، كقول جرير:

.... لولا الكَمِيَّ المُقَنَّعَا[6] [الطويل]

وذلك أَنه لم يقصد حضَّهم على عقر الكميّ، كقولك لرجل قد وقع في أَمر صعب: لولا تحرَّزْتَ، وهذه الآية من هذا القبيل.

---

(١) ساقط من نجيبويه.

(٢) في تفسير الآية (١١٥) من سورة الأنعام أكثر تحريراً مما هنا، وهما سبعيتان، الجمع لنافع وابن عامر.

(٣) وهي شاذة، انظر تفسير الثعلبي (٥/ ١٥١)، ومعاني القرآن للفراء (١/ ٤٧٩)، وإعراب القرآن للنحاس (٢/ ١٥٧).

(٤) في نجيبويه: «لوجوب».

(٥) ساقط من الأصل ونجيبويه.

(٦) أوله: تَعُدّون عقر النّيب أفضل مجدكم * بني ضوطرى.. كما تقدم في تفسير الآية (١١٥) من سورة البقرة.

قال القاضي أبو محمد: ومفهوم من معنى الآية نفيُ إِيمان أَهل القُرى، ومعنى الآية: فَهَلاَّ آمن أَهل القرية وهم على مهل لم يلتبس العذاب بهم فيكون الإِيمان نافعاً لهم في هذه الحالة، ثم استثنى قوم يونس، فهو بحسب اللفظ استثناءٌ منقطع، وكذلك رسمه[١] النحويون أَجمع، وهو بحسب المعنى متصل لأَن تقديره: ما آمن مِنْ أَهل قرية إِلا قوم يونس، والنصب في قوله: ﴿إِلَّا قَوۡمَ﴾ هو الوجْهُ، ولذلك[٢] أَدخله سيبويه في باب ما لا يكون فيه إلا النصب[٣]، وكذلك مع انقطاع الاستثناء، ويشبه الآيةَ قولُ النابغة: إلا الأواري[٤]، وذلك هو حكم لفظ الآية، وقالت فرقة: يجوز فيه الرفع، وهذا مع اتصال الاستثناءِ.

وقال المهدوي: «والرفع على البدل من ﴿قَرۡيَةٌ﴾»[٥].

ورُوي في قصة يونس أَن القوم لما كفروا أَوحى الله إِليه أَن أَنذرهم بالعذاب لثلاثة، ففعل فقالوا: هو رجل لا يكذب فارقبوه، فإِن أَقام بين أَظهُركم فلا عليكم، وإِن ارتحل[٦] فهو نزول العذاب لاشك، فلما كان الليل تزود يونس وخرج عنهم، فأَصبحوا فلم يجدوه، فتابوا ودعوا الله وآمنوا ولبسوا الْمُسُوح وفرّقوا بين الأُمّهات والأَولاد من الناس والبهائمِ، والعذابُ منهم فيما رُوي عن ابن عباس على ثلثي ميل[٧]، وروي:

---

(١) في التركية وأحمد٣ والمصرية الأسدية١: «وسمه».

(٢) في نجيبويه ونور العثمانية: «وكذلك».

(٣) الكتاب لسيبويه (١/ ٢٦٩)

(٤) تمامه: إلّا الأواري لأياً ما أبينها * والنؤي كالحوض بالمظلومة الجلد، من معلقته، انظر عزوه له في معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٧٢)، ومجاز القرآن (٢/ ٣١٠)، والأغاني (١١/ ٣٣)، والأواري: جمع آري وهو عود أعلاه معوج يدق لتشد فيه حبال الخيمة.

(٥) انظر التحصيل (٣/ ٣٧٥)، ونقله عنه تفسير البحر المحيط (٥/ ١٩٢).

(٦) في نجيبويه زيادة: «عنكم».

(٧) منقطع، هذا الأثر أخرجه الطبري (١٢/ ٢٩٤) من طريق قتادة، عن ابن عباس رضي الله عنهما، وهو منقطع.

على ميل[١]، وقال ابن جبير: «غشيهم العذاب كما يغشى الثوب القبر، فرفع الله عنهم العذاب، فلما مضت الثلاثة وعلم يونس عليه السلام أَن العذاب لم ينزل قال: كيف أَتصرف وقد وجدوني في كذب؟ فذهب مغاضباً كما ذكر الله تعالى في هذه الآية»[٢].

قال القاضي أبو محمد: وذهب الطبري إِلى أَن قوم يونس عليه السلام خُصُّوا من بين الأُمم بأَن تيب عليهم من بعد معاينة العذاب[٣]، ذكر ذلك عن جماعة من المفسرين.

قال القاضي أبو محمد: وليس كذلك، والمعاينة التي لا تنفع التوبة معها هي تلبُّس العذاب أَو الموت بشخص الإِنسان كقصة فرعون، وأَما قوم يونس فلم يصلوا هذا الحدّ.

وقرأَ الحسن، وطلحة بن مصرف، وعيسى بن عمر، وابن وثاب، والأَعمش: «يُونِس» بكسر النون[٤].

وفيه للعرب ثلاث لغات: ضم النون وفتحها وكسرها، وكذلك في يوسف.

وقوله: ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ يريد: إِلى آجالهم المفروضة في الأَزل.

وروي أَن قوم يونس كانوا بـ«نِينَوَى» من أَرض الموصل، ويقتضي ذلك قول النبي ﷺ لِعَدَّاس حين قال له إِنه من أَهل نينوى: «من قرية الرجل الصالح يونس بن متَّى؟» الحديث الذي في السيرة لابن إسحاق[٥].

---

(١) روي هذا عن قتادة كما عند ابن أبي حاتم (١٠٥٩٨)

(٢) تفسير الطبري (١٥/ ١٠٩-١١٠).

(٣) راجع تفسير الطبري (١٥/ ١٠٥-١٠٦).

(٤) وهي شاذة، انظر عزوها للحسن في إعراب القرآن للنحاس (١/ ٢٥٠)، ولطلحة والأعمش وعيسى في الثعلبي (٥/ ١٥١)، وانظر ما تقدم للمؤلف في الآية (١٦٣) من سورة النساء والآية (٨٦) من الأنعام، من ذكر بقية القراءات واللغات فيها وفي يوسف.

(٥) ذكره ابن هشام في السيرة (٢/ ٢٦٦-٢٦٧) عن ابن إسحاق.

قوله عز وجل: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَمَا تُغْنِي ٱلْأَيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾.

المعنى: إِن هذا الذي تقدم إنما كان جميعه بقضاء الله عليهم ومشيئته فيهم، ولو شاءَ الله لكان الجميع مؤمناً، فلا تأْسف أَنت يا محمد على كفر من لم يؤمن بك، وادع ولا عليك، فالأَمر محتوم، أَفتريد أَنت أَن تُكْرِه الناس بِإدخال الإِيمان في قلوبهم وتضطرهم إِلى ذلك والله عزَّ وجلَّ قد شاءَ غيره؟

قال القاضي أبو محمد: فهذا التأْويلُ الآيةُ عليه محكمة، أَي: ادع وقاتل من خالفك، وإِيمانُ من آمن مصروف إِلى المشيئة.

وقالت فرقة: المعنى: أَفأَنت تكره الناس بالقتال حتى يدخلوا في الإِيمان؟ وزعمت أَن هذه الآية في صدر الإِسلام وأَنها منسوخة بآية السيف.

قال القاضي أبو محمد: والآية على كلا التأْويلين رادَّة على المعتزلة.

وقوله تعالى: ﴿كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ تأْكيد وهو من فصيح الكلام، و﴿جَمِيعًا﴾ حال مؤكدة، ونحوه قوله سبحانه: ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ الآية، ردّ إِلى الله تعالى، وإِلى أَن الحول والقوة لله في إِيمان من يؤمن، وكونِ الرجس على الكفار.

وقرأَ عاصم في رواية أَبي بكر: ﴿وَنَجْعَلُ الرِّجْسَ﴾ بنون العظمة.

وقرأَ الباقون، وحفص عن عاصم: ﴿وَيَجْعَلُ﴾ بالياءِ[1].

وقرأَ الأَعمش: (ويجْعَلُ الله الرجْسَ)[2].

---

(١) وهما سبعيتان متواترتان، التيسير للداني (ص: ١٢٣)

(٢) وهي شاذة لمخالفتها الرسم، تابعه عليها هكذا في البحر المحيط (٦/ ١٠٩) وتابعوه، والذي في =

والرِّجْس يكون بمعنى العذاب كالرجز، ويكون في معنى القذر والنجاسة كالركْس[١]، ذكره أَبو علي هنا وغيره، وهو في هذه الآية بمعنى العذاب[٢].

و﴿لَا يَعۡقِلُونَ﴾ يريد: آياتِ الله وحجج الشرع، ومعنى الإِذن في هذه الآية: الإِرادةُ والتقديرُ لذلك، فهو العلم والتمكين.

وقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ هذه الآية أَمْرٌ للكفار بالاعتبار والنظر في المصنوعات الدالة على الصانع، وغير ذلك من آيات السماوات وأَفلاكها وكواكبها وسحابها ونحو ذلك، والأَرض ونباتها ومعادنها وغير ذلك، المعنى: انظروا في ذلك بالواجب يُنَبِّهكم[٣] إِلى المعرفة بالله والإِيمان بوحدانيته.

وقرأَ أَبو عبد الرحمن والعامّةُ بالبصرة: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ﴾ بكسر اللام، وقرأَ نافع وأَهل المدينة: ﴿قُلُ انْظُرُوا﴾ بضم اللام[٤].

ثم أَعلَم في آخر الآية أَن النظر في الآيات والسماع من النُّذر وهم الأَنبياءُ لا يُغني إِلا بمشيئة الله، وأَن ذلك غير نافع لقوم قد قضى الله أَنهم لا يؤمنون، وهذا على أَن تكون (مَا) نافية، ويجوز أَن تُعَدّ استفهاماً على جهة التقرير الذي في ضمنه نفْيُ وقوع الغَناءِ، وفي الآية ـ على هذا ـ توبيخ لحاضري رسول الله ﷺ من المشركين.

= تفسير الثعلبي (٥/ ١٥٣) عنه: «الرجز» بالزاي دون زيادة لفظ الجلالة، وكذا أشار لها الزمخشري في الكشاف (٢/ ٣٧٣).

(١) في الأصل ونجيبويه: «كالرجس».

(٢) الحجة للفارسي (٤/ ٣٠٧).

(٣) من المطبوع، وهي ظاهر نور العثمانية وأحمد٣، وفي العلمية «ينهاكم»، وكأنها كذلك في الأصل إلا أن الألف بعد الهاء كتبت بالياء (على الإمالة)، وفي التركية والأسدية١: «ينهيكم»، وفي المصرية: «فهو يهديكم».

(٤) وهما سبعيتان، الكسر لعاصم وحمزة خاصة على قاعدتهما، انظر: التيسير (ص: ٧٨)، والسبعة لابن مجاهد (ص: ١٧٥).

وقوله: ﴿ٱلْأَيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ﴾ حصر طريقي تعريف الله تعالى عباده. ويحتمل أن تكون (مَا) في قوله: ﴿وَمَا تُغْنِى﴾ مفعولة بقوله: ﴿ٱنظُرُواْ﴾ معطوفة على قوله: ﴿مَاذَا﴾، أي: تأَمَّلُوا قَدْرَ غَناءِ الآيات والنذر عن الكفار إِذ قبلوا ذلك كفعل قوم يونس فإِنه يرفع العذاب في الدنيا والآخرة، ويُنَجِّي من الهلكات، فالآية ـ على هذا ـ تحريض على الإِيمان.

قال القاضي أبو محمد: وتجوُّز اللفظ ـ على هذا التأْويل ـ إِنما هو في قوله: ﴿لَّا يُؤْمِنُونَ﴾.

[٣/ ٢٤] / قوله عز وجل: ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾﴾.

هذا وعيد [من الله][1] وحضّ على الإيمان، أَي: إِذا لجُّوا في الكفر حلَّ بهم العذاب، وإِذا آمنوا نجوا، هذه سنة الله في الأُمم الخالية، فهل عند هؤلاءِ غير ذلك؟ وهو استفهام بمعنى التوقيف.

وفي قوله تعالى: ﴿قُلْ فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾ مهادنة مّا، وهي من جملة ما نسخه القتال.

وقوله تعالى: ﴿نُنَجِّى رُسُلَنَا﴾ الآية، لما كان العذاب لم تحصر مدته، وكان النبي والمؤمنون بين أَظهر الكفرة وقع التصريح بأَن عادة الله سلَفَت بإِنجاءِ رسله ومُتَّبعيهم، فالتخويف على هذا أَشد.

وكلُّهم قرأَ: ﴿نُنَجِّي﴾ مشددة الجيم إِلا الكسائي وحفصاً عن عاصم فإِنهما قرأا: ﴿نُنجِ﴾ بسكون النون وتخفيف الجيم[2].

وقرأَ عاصم في سورة الأَنبياءِ في بعض ما روي عنه: ﴿نُجِّي﴾ بضم النون

---

(١) زيادة من نجيبويه.

(٢) فهما سبعيتان، انظر: التيسير للداني (ص: ١٢٣).

وحذف الثانية وشد الجيم[١]، كأَن النون أُدغمت فيها، وهي قراءَة لا وجه لها، ذكر ذلك الزجاج[٢]، وحكى أَبو حاتم نحوها عن الأعمش[٣].

وخط المصحف في هذه اللفظة ﴿نُجِ﴾ بجيم مطلقة دون ياءٍ.

وكذلك قرأَ الكسائي في سورة مريم: ﴿ثُمَّ نُنْجي الَّذِينَ اتَّقَوا﴾ [مريم: ٧٢][٤]، بسكون النون وتخفيف الجيم، والباقون بفتح النون وشدّ الجيم.

والكاف في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ يصح أَن تكون في موضع رفع، ويصح أَن تكون في موضع نصب نعتاً لمصدر محذوف.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ الآية، مخاطبة عامة للناس أَجمعين إِلى يوم القيامة، يدخل تحتها كل من اتصف بالشك[٥] في دين الإِسلام، وهذه الآية يتسق معناها بمحذوفات يدل عليها هذا الظاهر الوجيز[٦]، والمعنى: إِنْ كنتم في شك من ديني فأَنتم لا تعبدون الله وحده كذلك[٧]، [فليس هو بأَهل أَن يُشك فيه، وإِنما يُشَكُّ في دينكم ويُرفض، وأَنا[٨] لا أَعبد أَحَداً غيره]، فاقتضت فصاحة الكلام وإِيجازه اختصار هذا كله، ثم صرّح بمعبوده وخصّ من أَوصافه ﴿ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾ لما فيها من التذكير للموت وقرع[٩] النفوس به، والمصير إِلى الله بعده، والفقد[١٠] للأَصنام التي كانوا يعتقدونها ضارة ونافعة.

---

(١) الآية (٨٨)، وهي سبعية من قراءة ابن عامر ورواية شعبة عن عاصم، انظر: التيسير (ص: ١٥٥).
(٢) في معاني القرآن وإعرابه (٣/ ٣٦).
(٣) لم أقف عليه.
(٤) فهما سبعيتان، انظر التيسير (ص: ١٤٩).
(٥) في نور العثمانية: «بالنسك».
(٦) في الأسدية ونور العثمانية ١: «الوحي»، بدل: «الوجيز».
(٧) في أحمد٣ ونور العثمانية: «لذلك»، وسقطت الكلمتان من الأصل والأولى من المطبوع.
(٨) في المطبوع: «وأما».
(٩) في المطبوع والمصرية ونجيبويه: «وفزع».
(١٠) في المطبوع: «والنقد».

قوله عز وجل: ﴿ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ ﴾.

المعنى: قيل لي: كن من المؤمنين وأَقم وجهك للدين، ثم جاءَت العبارة بهذا الترتيب، والوَجْهُ في هذه الآية بمعنى المنْحَى والمقصد، أَي: اجعل طريقك واعتمادك للدين والشرع.

و﴿حَنِيفًا﴾ معناه: مستقيماً، على قول من قال: الحنف: الاستقامة، وجعل تسمية المعوجِّ القدمِ أَحنفَ على وجه التفاؤُل، ومن قال: الحنف الميل؛ جعل ﴿حَنِيفًا﴾ ها هنا مائلاً عن حال الكفرة وطريقهم، و﴿حَنِيفًا﴾ نصب على الحال.

وقوله: ﴿ وَلَا تَدْعُ ﴾ معناه: قيل لي: وَلا تَدْعُ، فهو عطف على ﴿أَقِمْ ﴾، وهذا الأَمر والمخاطبة للنبي ﷺ إِذا كانت هكذا فأَحرى أَن يتحرز من ذلك غيره، وما لا ينفع ولا يضر هو الأَصنام والأَوثان، والظالم: الذي يضع الشيءَ في غير موضعه.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ الآية، مقصد هذه الآية أَن الحول والقوة لله، ويبين ذلك للناس بما يحسونه من أَنفسهم، والضُّر لفظ جامع لكل ما يكرهه الإِنسان كان ذلك في ماله أَو في بدنه، وهذه الآية مظهرة فساد حال الأَصنام، لكن[1] كل مُمَيِّزٍ أَدنى ميز يعرف يقيناً أَنها لا تكشف ضرّاً ولا تجلب نفعاً.

وقوله: ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾ لفظ تام العموم، وخصَّص النبي ﷺ الفقه بالذكر في قوله: «مَنْ يرد الله به خيراً يفقهه في الدين»[2]، وهذا على جهة التشريف للفقه.

(١) في الحمزوية ونور العثمانية وأحمد٣ ونجيبويه: «لأن».

(٢) متفق عليه، هذا الحديث أخرجه البخاري (٧١)، ومسلم (١٠٣٧) من حديث معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ ترجية وبسط ووعد ما.

قوله عز وجل: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾.

هذه مخاطبة لجميع الكفار مستمرة مدى الدهر، و﴿ٱلْحَقُّ﴾ هو القرآن والشرع الذي جاءَ به محمد ﷺ، ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ أي: اتبع الحق وأذعن به[1] فإنما يسعى لنفسه لأَنه يوجب لها رحمة الله ويدفع عذابه، ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ أَي: حادَ عن طريق الحق ولم ينظر بعين الحقيقة، وكفر بالله عزَّ وجلَّ فبِضِدّ ذلك.

وقوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ أَي: لست بآخذكم ولابُدّ بالإِيمان، وإِنما أَنا مبلغ، وهذه الآية منسوخة بالقتال.

وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ﴾ الآية، معناه: اتَّبع ما رسمه لك شرعك، وما أَعلمك الله به من نُصْرَته لك، وَاصْبِرْ على شقاءِ الرسالة وما ينالك في الله من الأَذى.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ﴾ وعدٌ للنبي ﷺ بأَن يغلبهم، كما وقع، تقتضيه قوة اللفظ، وهذا الصبر منسوخ بالقتال[2]، وهذه السورة مكيّة، وقد تقدم ذكْر هذا في أَولها.



(١) في العلمية: وتدين، وكتبت في الأصل: والدين فكأن أصلها وادَّين بالإدغام وأضيفت اللام سهواً.
(٢) انظر تفسير الطبري (١٥/ ٢٢١).



هذه السورة مكية إِلاَّ قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ﴾ [هود: ١٢]، وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ [هود: ١٧]، ونزلت في ابن سلام وأَصحابه، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤] الآية، نزلت في شأْن التَّمَّارِ[١]، وهذه الثلاث مدنية، قاله مقاتل[٢]، عَلَى أَنَّ الأُولى تشبه المكي.

وإِذا أَردت بـ«هود» اسم السورة لم ينصرف، كما تفعل إِذا سميت امرأَةً بعمرو وزيْد، وإِذا أَردت سورة هود صرفت.

قوله عز وجل: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ١ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ٢ / وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ ٣ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٤﴾. [٣/ ٢٥]

تقدم استيعاب القول في الحروف المقطعة في أَوائل السور، وتختص هذه بأَن قيل: إِن «الرَّحْمن» فرِّقت حروفه فيها، وفي ﴿حمٓ﴾[٣]، وفي ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ﴾ [القلم: ١].

---

(١) أي: بائع التمر كما سيأتي في تفسيرها، وفي المطبوع: «الثمار»، ولعله خطأ، وفي الحمزوية: «نبهان» وهي أوضح لأن ذلك اسمه.

(٢) انظر: تفسير مقاتل (٢/ ٢٦٩).

(٣) غافر: ١، فصلت: ١، الشورى: ١، الزخرف: ١، الدخان: ١، الجاثية: ١، الأحقاف: ١.

و﴿كِتَٰبٌ﴾ مرتفع على خبر الابتداءِ، فمن قال: الحروف إِشارة إِلى حروف المعجم كانت الحروف المبتدأ، ومن تأَول الحروف غير ذلك كان المبتدأ: هذا كتاب، والمراد بالكتاب القرآن.

و﴿أُحۡكِمَتۡ﴾ معناه: أُتقنت وأُجيدت شبه ما تُحْكِم من الأُمور المتقنة الكاملة، وبهذه الصفة كان القرآن في الأَزل[1]، ثم فصل بتقطيعه وتنويع[2] أَحكامه وأَوامره على محمد ﷺ في أَزمنة مختلفة، فـ﴿ثُمَّ﴾ على بابها، وهذه طريقة الإِحكام والتفصيل، إِذ الإِحكام صفة ذاتية، والتفصيل إِنما هو بحسب من يُفصَّل له، والكتاب بأَجمعه مُحْكم ومُفْصل، والإِحكام الذي هو ضد النسخ والتفصيلُ الذي هو خلاف الإِجمال إِنما يقالان مع ما ذكرناه باشتراك، وحكى الطبري عن بعض المتأَولين: «أُحْكمت بالأَمر والنهي، وفُصّلت بالثواب والعقاب، وعن بعضهم: أُحكمت من الباطل، وفصلت بالحلال والحرام»[3]، ونحو هذا من التخصيص الذي هو صحيح المعنى ولكن لا يقتضيه اللفظ، وقال قوم: ﴿فُصِّلَتۡ﴾ معناه: فُسّرت.

وقرأَ عكرمة، والضحاك، والجحدري، وابن كثير فيما روي عنه: (ثُمَّ فَصَلَت) بفتح الفاءِ والصاد واللام[4]، ويحتمل ذلك معنيين:

أَحدهما: فَصَلَتْ، أَي: نزلت إِلى الناس، كما تقول: فَصَلَ فلان لسفره، ونحو هذا من[5] المعنى.

والثاني: فَصَلَت بين المحِقِّ والمُبْطِل من الناس.

---

(١) في المصرية ونور العثمانية وأحمد٣ والتركية والأسدية١: «في الأول».

(٢) في أحمد٣ ونور العثمانية: وتبيين.

(٣) راجع تفسير الطبري (١٥/ ٢٢٤ و٢٤٦).

(٤) وهي شاذة نقلها عنهم في المحتسب (١/ ٣١٧)، ولم ترد في شيء من طرق التيسير ولا النشر.

(٥) «من» زيادة من المطبوع.

و﴿مِن لَّدُنْ﴾ معناها: من حيث ابتدئت الغاية، كذا قال سيبويه[١]، وفيها لغات: يقال: «لَدْن»، و«لُدْن» بسكون الدال، وقرئ بهما: (مِنْ لَدْن)[٢].

ويقال: «لَدُ» بفتح اللام وضم الدال دون نون، ويقال: «لَدىً» بدال منونة مقصورة.

ويقال: «لَدٍ» بدال مكسورة منونة. حكى ذلك أَبو عبيدة[٣].

و﴿حَكِيمٍ﴾ أَي: مُحْكِم، و﴿خَبِيرٍ﴾ أَي: ذو خبرة بالأُمور أَجمع.

﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ﴾، (أن): في موضع نصب، إِما على إِضمار فعل، وإِمَّا على تقدير: بأَنْ وإِسقاط الخافض، وقيل: على البدل من موضع «الآيات»، وهذا معترض ضعيف لأَنه لا موضع للآيات، وإِن نظر موضع[٤] الجملة فهو رفع.

ويحتمل أَن تكون في موضع رفع على تقدير: تفصيله أَلا تعبدوا، وقيل: على البدل من لفظ الآيات.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ أَي: من عقابه وبثوابه، وإِذا أُطلقت هاتان اللفظتان فالنذارة في المكروه والبشارة في المحبوب، وقدم النذير لأَن التحذير من النار هو الأَهم.

و﴿أَنِ﴾ معطوفة على التي قبلها، ومعنى الآية: استغفروا ربكم، أَي: اطلبوا مغفرته لكم وذلك بطلب دخولكم في الإِسلام، ثم توبوا من الكفر، أَي: انسلخوا منه واندموا على سالفه، و﴿ثُمَّ﴾ مرتِّبة لأَن الكافر أَول ما ينيب فإِنه في طلب مغفرة ربه، فإِذا تاب وتجرد من الكفر تمَّ إِيمانه.

---

(١) في الكتاب (٤/ ٢٣٣) ثم قال: يدلك على أنه اسمٌ قولهم: من لدن، وقد يحذف بعض العرب النون حتى يصير على حرفين.

(٢) أما مع الضم فلم أجدها، وأما مع الفتح فهي رواية الكسائي عن شعبة هنا وفي النمل كما في جامع البيان (٣/ ١٠١٢).

(٣) ولفظه في مجاز القرآن (١/ ٢٨٥): ولدن ولداً سواء ولدٌ.

(٤) في المطبوع: «موضوع».

وقرأ الجمهور: ﴿يُمَتِّعْكُم﴾ بشد التاءِ، وقرأ ابن محيصن: (يُمْتِعْكُمْ) بسكون الميم وتخفيف التاءِ[١]، وفي كتاب أَبي حاتم أن هذه القراءَات بالنون[٢]، وفي هذا نظر.

و﴿مَّتَٰعًا﴾ مصدرٌ جارٍ على غير الفعل المتقدم مثل قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا﴾ [نوح: ١٧]، وقيل: نصب بتعدي ﴿يُمَتِّعۡكُم﴾ لأَنك تقول: متَّعتُ زيداً ثوباً.

ووَصْف المتاع بالحُسْن إِنما هو لطيب عيش المؤمن برجائه في الله عزَّ وجلَّ وفي ثوابه، وفرحه بالتقرب إِليه بمفترضاته، والسرور بمواعيده، والكافرُ ليس في شيءٍ من هذا، وأَما من قال بأَن المتاع الحسن هو فوائد الدنيا وزينتها، فيضعف بأَن الكفرة يشاركون في ذلك أَعظم مشاركة.

والأَجل المسمّى: هو أَجل الموت، معناه: إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى لكل واحد منكم، وهذا ظاهر الآية، واليوم[٣] الكبير على هذا هو يوم القيامة، وتحتمل الآية أَن يكون التوعد بتعجيل العذاب إِن كفروا، والوعد بتمتيعهم إِن آمنوا، فتشبه ما قاله نوح عليه السلام، واليوم الكبير على هذا كيوم بدر ونحوه، والمجهلة في أَي الأَمرين يكون، إِنما هي بحسب البشر، والأَمر عند الله تعالى معلوم مُحَصَّل[٤]، والأَجل واحد.

وقوله تعالى: ﴿وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥ﴾ أَي: كل ذي إِحسان بقوله أَو بفعله أَو بقوّته أَو بماله أَو غير ذلك مما يمكن أَن يتقرب به.

و﴿فَضۡلَهُۥ﴾: يحتمل أَن يعود الضمير فيه على ﴿ذِي فَضۡلٖ﴾ أَي: ثواب فضله وجزاءَه. ويحتمل أَن يعود الضمير فيه على الله عزَّ وجلَّ، أَي: يؤتي الله فضْلَه كلَّ ذي فضل

(١) وهي شاذة، عزاها له ولآخرين الهذلي في الكامل (ص: ٥٧٠).

(٢) لم أجد من نقله عنه، والقراءة بالنون شاذة عزاها الكرماني في الشواذ (ص: ٢٣١) للحسن بالتشديد والتخفيف.

(٣) في المطبوع: «والأجل».

(٤) في المصرية وأحمد٣: مجمل، وفي نور العثمانية: «متحصل».

وعملٍ صالح من المؤمنين، ونحو[١] هذا المعنى ما وعد به تعالى من تضعيف الحسنة بعشر أمثالها، ومن التضعيف الغير محصور لمن شاءَ.

وهذا التأْويل تأَوله ابن مسعود وقال: «ويلٌ لمن غلبت آحادُه عشراتِه»[٢].

ويحتمل أَن يكون قول ابن مسعود موافقاً للمعنى الأَول.

وقرأَ الجمهور: ﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ بفتح التاءِ واللام:

فبعضهم قال: معناه: الغيبة، أَي: فقل لهم: إِني أَخاف عليكم.

وقال بعضهم: معناه: فإِن تَتَوَلّوا، فحذفت التاءُ، والآية كلها على مخاطبة الحاضر.

وقرأَ اليماني وعيسى بن عمر: (وَإِنْ تُوَلُّوا) بضم التاءِ واللام وفتح الواو.

وقرأَ الأعرج: (تولُوا) بضم التاء واللام وإسكان الواو[٣].

وقوله تعالى: ﴿فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ﴾ توعُّد بيوم القيامة، ويحتمل أَن يريد به يوماً من الدنيا كبدر وغيره.

وقوله تعالى: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ﴾ توعُّد، وهو يؤيد أَن اليوم الكبير يوم القيامة لأَنه توعَّد به، ثم ذكر الطريق إِليه من الرجوع إِلى الله، والمعنى: إِلى عقابه وجزائه لكم رجوعُكُم، وهو القادر الذي لا يضره شيءٌ، ولا يجير عليه مجير، ولا تنفع من قضائه واقية.

---

(١) زيادة من أحمد٣ والمطبوع.

(٢) ضعيف، هذا الأثر أخرجه الطبري (١٢/ ٣١٥) عن المسيب بن شريك، عن أبي بكر، عن سعيد ابن جبير، عن ابن مسعود، به مطولاً، وهذا إسناد ضعيف؛ من أجل المسيب بن شريك أبي سعيد التميمي الشقري.

(٣) وهما شاذتان، وقد عزا ضم التاء للثلاثة في مختصر الشواذ (ص: ٦٣)، وفتح الواو وضمها للأولين في الشواذ للكرماني (ص: ٢٣١). وسقط الأعرج مع ضبط القراءة الأولى من المطبوع، ومع الثانية من الأصل.

وقوله: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ عموم يراد به الخصوص، دون ما لا يوصف الله بالقدرة عليه من المحالات وغيرها التي هي أَشياء.

[والشيءُ في اللغة: الموجود، وما يتحقق أَنه يوجد كزلزلة الساعة وغيرها][1].

قوله عز وجل: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٥ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٦﴾.

قيل: إِن هذه الآية نزلت في الكفار الذين كانوا إِذا لقيهم رسول الله ﷺ تطامنوا وثَنَوْا صدورهم كالمستتر، / وردُّوا إِليه ظهورهم، وغشَّوا وجوههم بثيابهم تباعداً منه وكراهة للقائه، وهم يظنون أَن ذلك يخفى عليه وعلى الله عزَّ وجلَّ، فنزلت الآية في ذلك[2]. [٣/ ٢٦]

و﴿صُدُورَهُمْ﴾ منصوبة على هذا بـ﴿يَثْنُونَ﴾، وقيل: هي استعارة للغل والحقد الذي كانوا ينطوون عليه، كما تقول: فلان يطوي كشحه على عداوته ويَثني صدره عليها، فمعنى الآية: أَلا إِنهم يُسرون العداوة ويتكتمون بها لتخفى ـ في ظنهم ـ عن الله، وهو تعالى حين تَغَشِّيهم بثيابهم[3] وإِبلاغهم في التَّستُّر، يعلم ما يُسرون.

وقرأَ سعيد بن جبير: (يُثْنُونَ) بضم الياءِ والنون، من أَثْنى.

وقرأَ ابن عباس: (لَيَثْنون).

وقرأَ ابن عباس أَيضاً، ومجاهد، وابن يَعْمَر، وابن أَبزى، ونصر بن عاصم، والجحدري، وابن أبي إسحاق، وأَبو رزين، وعليّ بن الحسين، وأَبو جعفر محمد بن عليّ، وزيد بن عليّ، وجعفر بن محمد، وأَبو الأَسود، والضحاك: (تَثْنَوْني صُدُورُهُمْ)[4] برفع الصدور.

---

(١) سقط من نور العثمانية مع بعض كلمات النص الذي فوقه.

(٢) انظر: تفسير الطبري (١٢/ ٣١٦-٣١٧).

(٣) في المطبوع: «تغشاهم»، بدل الكلمتين.

(٤) هذه ثلاث قراءات شاذة، انظر عزو الأولى والثانية في الشواذ للكرماني (ص: ٢٣٢)، وعزو الأولى =

وهي تحتمل المعنيَيْن المتقدمين في ﴿يَثْنُونَ﴾، وزنها تَفْعَوْعِل على بناءِ مبالغة لتكرار الأَمر، كما تقول: اعشَوْشَبَت الأَرض، واحْلَوْلَت الدنيا، ونحو ذلك.

وحكى الطبري عن ابن عباس، على هذه القراءَة، أَن هذه الآية نزلت في أَن قوماً كانوا لا يأْتون النساءَ والحدث إِلا ويتغَشَّون ثيابهم كراهية أَن يُفضوا بفروجهم إِلى السماءِ[١].

وقرأَ ابن عباس فيما روى ابن عُيَيْنة: (تَثْنَوي) بتقديم الثاءِ على النون وبغير نون بعد الواو، قال أَبو حاتم: هذه القراءَة غلط لا تتَّجه[٢].

وقرأَ نصر بن عاصم، ويحيى بن يَعْمَر، وابن أَبي إسحاق: (تَنْثَوِي) بتقديم النون على الثاءِ[٣].

وقرأَ عروة، وابن أَبزى، والأَعشى: «تَثْنَوِنّ» بثاءٍ مثلثة بعدها نون مفتوحة بعدها واو مكسورة، وقرأا أَيضاً هما ومجاهد فيما روي عنه: (تَثْنَئِنّ) بهمزة بدل الواو[٤].

وهاتان مشتقتان من الثِّنِّ وهو العشب المثني بسهولة، فشبه صدورهم به إِذ هي مجيبة إِلى هذا الانطواءِ على المكر والخداع، وأَصل (تَثْنَوِنّ): تَثْنَوْنِن، سُكنت النون المكسورة، ونقلت حركتها إِلى الواو التي قبلها، وأُدغمت في النون التي بعدها.

= أيضاً في المحتسب (١/ ٣١٩)، وقال: وأحسبها وهماً، والثالثة لأصحابها فيه أيضاً، وفي المطبوع ونور العثمانية: يزيد بن علي.

(١) صحيح، أخرجه البخاري (٤٦٨١) من طريق حجاج، عن ابن جريج، عن محمد بن عباد بن جعفر، عن ابن عباس رضي الله عنهما به.

(٢) وهي شاذة، عزاها في تفسير القرطبي (٩/ ٥)، لرواية غير محمد بن عباد عن ابن عباس، وقول أبي حاتم لم أقف عليه.

(٣) وهي شاذة عزاها في الهداية إلى بلوغ النهاية (٥/ ٣٣٤٨) لابن عباس، وفي المطبوع والأصل: «تثنوي»، وهو خلاف الضبط.

(٤) وهما شاذتان، عزا في المحتسب (١/ ٣١٩) الأولى لابن عباس، والثانية لعروة الأعشى، وزاد له ولمجاهد وجهاً آخر ظاهره همز الواو مضمومة، وفي الأصل والمطبوع: «الأعمش»، بدل «الأعشى».

وأَما (تَثْنَئِنُّ) فأَصلها: تَثْنَانّ مثل تَحْمَارّ، ثم قالوا: اثْنَأَنَّ كما قالوا: احْمَأَرَّ وابْيَأَضَّ.

والضمير في ﴿مِنۡهُۚ﴾ عائد على الله تعالى، هذا هو الأَفصح الأَجزل في المعنى، وعلى بعض التأْويلات يمكن أَن يعود على محمد ﷺ.

و﴿يَسۡتَغۡشُونَ﴾ معناه: يجعلونها أَغشية وأَغطية، ومنه قول الخنساءِ:

[البسيط] أَرْعَى النُّجومَ وما كُلِّفتُ رعْيَتَهَا وتارَةً أَتغَشَّى فضْلَ أَطْمَارِي[1]

وقرأَ ابن عباس: (عَلَى حينَ يَسْتَغْشونَ)[2]، ومن هذا الاستعمال قول النابغة:

[الطويل] عَلَى حِينَ عاتَبْتُ الْمَشيبَ علَى الصبَا وقلْتُ أَلَمَّا أَصْحُ والشَّيْبُ وازِعُ[3]

وذات الصُّدُورِ: مافيها، والذَّات تتصرف في الكلام على وجوه هذا أَحدها، كقول العرب: «الذئب مغبوط بذي بطنه»[4]، أَي: بالذي فيه من النفخ، وكقول أَبي بكر الصديق رضي الله عنه: إِنما هو ذو بطن بنت[5] خارجة[6].

والذاتُ التي هي حقيقة الشيءِ ونفسُه قلقة في هذا الموضع، ويحتمل أَن يفرق بين «ذي بطنه» وبين الذات، وإِنما يجمع بينهما المعنى.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ﴾ الآية، تماد في وصف الله تبارك وتعالى بنحو قوله: ﴿يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ﴾، والدَّابة: ما دبَّ من الحيوان، والمراد جميع الحيوان

---

(١) انظر عزوه لها في العين (٢/ ٢٤١)، وتفسير الطبري (١٥/ ٢٣٨)، والأطمار: جمع طِمْر، وهو الثوب الخلق.

(٢) وهي شاذة، تابعه عليها في البحر المحيط (٦/ ١٢٤).

(٣) انظر عزوه له في الكتاب لسيبويه (٢/ ٣٣٠)، وقد تقدم في تفسير الآية ١١٨ من سورة المائدة.

(٤) مثل مشهور تقدم التعليق عليه في تفسير الآية (١٢٠) من آل عمران.

(٥) «بنت»، سقطت من المطبوع، ويروى أم خارجة.

(٦) صحيح، هذا الأثر أخرجه مالك في الموطأ (١٤٣٨) من طريق الزهري، عن عروة، عن عائشة أن أبا بكر... في حديث طويل.

الذي يحتاج إِلى رزق، ويدخل في ذلك الطائر والهَوَامّ وغير ذلك، كلها دواب، وقد قال الأَعشى:

نِيَافٌ كغُصْنِ البَانِ تَرْتَجُّ إِنْ مَشَتْ دَبيبَ قَطَا البَطْحَاءِ في كلِّ مَنْهَلِ[1] [الطويل]

وقال علقمة بن عبدة لطير: لِطَيْرِهِنَّ دَبيبُ[2].

وفي حديث أَبي عبيدة: فإِذا دابة مثل الظَّرِبِ[3]، يريد: من حيوان البحر.

وتخصيصه بقوله: ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ إِنما هو لأَنه الأَقرب لحِسِّهِم، والطائر والعائم إِنما هو في الأَرض، وما مات من الحيوان قبل أَن يتغذى فقد اغتذى في بطن أُمه بوجه ما.

وهذه الآية تعطي أَن الرزق: كل ما صحّ الانتفاع به، خلافاً للمعتزلة في قولهم: إِنه الحلالُ الممتلك.

وقوله تعالى: ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ إِيجابُ تفضُّلٍ لأَنه تعالى لا يجب عليه شيءٌ عقلاً.

والْمُسْتَقَرّ: صلْب الأَب، والمُسْتَوْدَع: بطن الأُم.

وقيل: المسْتَقَر: المأْوى، والمُسْتَوْدَع: القبر، وهما على هذا ظرفان.

وقيل: المُسْتَقَر: ما حصل موجوداً من الحيوان، والمُسْتَوْدَع: ما يوجد بعْدُ.

قال القاضي أبو محمد: والمسْتَقَرّ ـ على هذا ـ مصدر استَقَرّ، وليس بمفعول كمُسْتَوْدع، لأَن استَقَرّ لا يتعدى.

وقوله: ﴿فِي كِتَٰبٍ﴾ إِشارةٌ إِلى اللوح المحفوظ، وقال بعض الناس: هذا مجازٌ، وهي إِشارة إِلى علم الله.

قال القاضي أبو محمد: وهذا ضعيف، وحَمْلُه على الظاهر أَولى.

---

(١) تقدم في تفسير الآية (١٦١) من سورة البقرة.

(٢) الدبيب: المشي الضعيف الخفيف، والبيت تقدم في تفسير الآية (١٩) من سورة البقرة.

(٣) صحيح، هذا الحديث أخرجه البخاري (٢٤٨٣) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، والظَّرِبُ: الجبل المنبسط، أو الجُبَيْل.

قوله عز وجل: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾﴾.

قال أَكثر أَهل التفسير: الأَيام هي من أَيام الدنيا، وقالت فرقة: هي من أَيام الآخرة، يومٌ من أَلف سنة، قاله كعب الأَحبار[1]، والأَول أَرجح.

وأَجزأَ ذكر السماوت والأَرض عن كل[2] ما فيها، إِذ كل ذلك خُلِقَ في تلك الستة الأَيام.

واختلفت الأَحاديث في يوم بداية الخلق:

فروى أَبو هريرة فيما أَسند الطبري أَن رسول الله ﷺ أَخذ بيده وقال: «خلق الله التربة يوم السبت، والجبال يوم الأَحد، والشجر يوم الاثنين، والمكروه يوم الثلاثاء، والنور يوم الأَربعاءِ، وبث الدواب يوم الخميس، وخلق آدم بعد العصر من يوم الجمعة»[3].

ونحو هذا من أَن البداءَة يوم السبت في كتاب مسلم، وفي «الدلائل» لثابت: «وكان خلق آدم في يوم الجمعة»[4]، لا يعتَدّ به إِذ هو بشر كسائر بنيه، ولو اعتُدّ به لكانت الأَيامَ سبعة خلاف ما في كتاب الله.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١٥/ ٢٤٥).

(٢) في نجيبويه ونور العثمانية وأحمد٣: ذكر.

(٣) هذا الحديث أخرجه أحمد (١٤/ ٨٢)، ومسلم (٢٧٨٩)، والنسائي في الكبرى (١١٠١٠)، وأبو يعلى في مسنده (٦١٣٢)، وابن جرير الطبري في التفسير (١٢/ ٣٢٨-٣٢٩)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٨١٢) من طريق حجاج، عن ابن جريج، عن إسماعيل بن أمية، عن أيوب بن خالد، عن عبد الله بن رافع، مولى أم سلمة، عن أبي هريرة به.

(٤) صحيح مسلم (٢٧٨٩)، وليس في القسم المطبوع من كتاب الدلائل.

وروي عن كعب الأَحبار أَنه قال: «بدأَ الله خلق السماوات والأَرض يوم الأَحد، وفرغ يوم الجمعة، وخلق آدم في آخر ساعة منه»[١].

ونحو هذا في جل الدواوين أَن البدأَة يوم الأَحد.

وقال قوم: خلق الله تعالى هذه المخلوقات في ستة أَيام مع قدرته على خلقها في لحظة، نهجاً إِلى طريق / التؤدة والمهلة في الأَعمال لِيُحكم البشر أَعمالهم. [٣/ ٢٧]

وروي عن ابن عباس أنّه قال: «كان العرش على الماءِ، وكان الماءُ على الريح»[٢].

وقوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ متعلق بـ﴿خَلَقَ﴾، والمعنى أَن خلقه إِياها كان لهذا، وقال بعض الناس: هو متعلق بفعل مضمر تقديره: أَعلم بذلك ليبلوكم، ومقصد هذا القائل أَن هذه المخلوقات لم تكن لسبب البشر.

وقرأَ عيسى الثقفي: (وَلَئِن قُلْتُ)[٣]، بضم التاءِ، وقرأَ الجمهور: ﴿قُلْتَ﴾ بفتح التاءِ.

ومعنى الآية: إِن الله عزَّ وجلَّ هذه صفاته، وهؤلاء بكفرهم في حيز إِن قلت لهم: إِنهم مبعوثون، كذَّبوا، وقالوا: هذا سحر، أَي: فهذا تناقض منكم، إِذ كل مفطور يقر بأَن الله خالق السماوات والأَرض، فهم من جملة المقرين بهذا، ومع ذلك ينكرون ما هو

---

(١) علقه البخاري في التاريخ الكبير (١/ ٤١٣) عن إسماعيل به، وقال بعضهم: عن أبي هريرة، عن كعب، قال: وهو أصح.

(٢) في إسناده لين، هذا الأثر أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (١/ ٣٠٢) وفي المصنف (٩٠٨٩)، وعثمان بن أبي شيبة في العرش (ص: ٢)، والدارمي في الرد على بشر المريسي (ص: ٨٧)، وابن جرير الطبري (١٢/ ٣٣٣)، وابن أبي حاتم (١٠٦٩٧) في تفسيريهما، وأبو الشيخ في العظمة (٢١٢)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٣٣٨-٣٤٢) وغيرهم من طريق الأعمش، عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهما به، والمنهال فيه مقال.

(٣) وهي شاذة انظر عزوها له في الشواذ للكرماني (ص: ٢٣٢)، وفي مختصر الشواذ (ص: ٦٤) عنه: «ولئن قلت أنكم» بفتح الهمزة.

أَيسر منه بكثير، وهو البعث من القبور، إِذ البداءَة أَعسر من الإِعادة، وإِذ خلق السماوات والأَرض أَكبر من خلق الناس.

واللام في ﴿لَئِن﴾ مؤذنة بأَن اللام في ﴿لَيَقُولَنَّ﴾ لام قسم لا جواب شرط.

وقرأَ الأَعرج، والحسن، وأَبو جعفر، وشيبة، وفرقة من السبعة: ﴿سِحْرٌ﴾، وقرأَت فرقة: ﴿سَاحِرٌ﴾، وقد تقدم[1].

وقوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ﴾ الآية، المعنى: ولئن تأَخر العذاب الذي تَوعدتهم[2] به عن الله قالوا: ما هذا الحابس لهذا العذاب؟ على جهة التكذيب، و(الأُمَّةُ) في هذه الآية: الـمُدّةُ، كما قال: ﴿وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف: ٤٥].

قال الطبري: «سميت بذلك المُدّةُ لأَنها تمضي فيها أُمة من الناس وتحدث فيها أُخرى، فهي على هذا: المدة الطويلة»[3].

ثم استفتح بالإِخبار عن أَن العذاب يوم يأْتي لا يردّه شيءٌ ولا يصرفه، ﴿وَحَاقَ﴾ معناه: حلَّ وأَحاط، وهي مستعملة في المكروه، و﴿يَوْمَ﴾ منتصب بقوله: ﴿مَصْرُوفًا﴾.

قوله عز وجل: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ (٩) وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ (١٠) إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (١١)﴾.

﴿أَذَقْنَا﴾ هاهنا مستعارة، لأَن الرحمة هاهنا تعم جميع ما يُنتفع به من مطعوم وملبوس وجاهٍ وغير ذلك، والإنسان هاهنا اسم الجنس، والمعنى: إِن هذا الخُلُق في سجية الناس، ثم استثنى منهم الذين ردتهم الشرائع والإِيمانُ إِلى الصبر والعمل الصالح [على هداية][4].

---

(١) في الآية (١١٠) من المائدة، وهما سبعيتان، الثانية لحمزة والكسائي، والأولى للباقين.

(٢) في المطبوع والأصل: «توعدتم»، وفي نجيبويه: «وعدتم».

(٣) تفسير الطبري (١٥/ ٢٥٢-٢٥٣)، بالمعنى.

(٤) سقط من الأصل والمطبوع.

و(يئُوس)، و﴿كَفُورٌ﴾ بناءَان للمبالغة، و﴿كَفُورٌ﴾ هاهنا من كُفْر النعمة، والمعنى: إِنه ييأَس ويتحرج ويتسخط، ولو نظر إِلى نعمة الله الباقية عليه في عقله وحواسه وغير ذلك، ولم يكفرها، لم يكن[1] ذلك، فإِن اتفق هذا أَن يكون في كافر أَيضاً بالشرع صحّ ذلك ولكن ليس من لفظ الآية.

وقال بعض الناس في هذه الآية: ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ إِنما يراد به الكافر، وحَمَلَه على ذلك لفظة ﴿كَفُورٌ﴾، وهذا عندي مردودٌ، لأَن صفة الكفر لا تطلق على جميع الناس كما تقتضي لفظة الإِنسان.

والنَّعْمَاءُ: تشمل الصحة والمال ونحو ذلك، والضَّرَّاءُ من الضُّر، وهو أَيضاً شامل، وقد يكثر استعمال الضراءِ فيما يخص البدن.

ولفظ ﴿ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ﴾ تقتضي بطراً وجهلاً أَن ذلك بإِنعام[2] من الله، واعتقادُ أَن ذلك باتِّفاق أَو بسعد[3] من الاعتقادات الفاسدة، وإِلا فلو قالها من يعتقد أَن ذهابها بإِنعام من الله وفضل لم يقع ذلك، و﴿ٱلسَّيِّـَٔاتُ﴾ هاهنا: كلُّ ما يسوءُ في الدنيا.

وقرأَت فرقة: ﴿لَفَرِحٌ﴾ بكسر الراءِ، وقرأَت فرقة: (لَفَرُحٌ) بضمها[4].

وهذا الفرح مطلق، ولذلك ذُمّ، إِذ الفرح انهمال النفس، ولا يأْتي الفرح في القرآن ممدوحاً إِلا إِذا قُيّد بأَنه في خير.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ الآية، هذا الاستثناءُ متصل على ما قدمناه من أَن الإِنسان عام يراد به الجنس، ومن قال: إِنه مخصَّص بالكافر، قال هاهنا: إِن الاستثناءَ

---

(١) في نجيبويه زيادة: «غير».

(٢) في نجيبويه: «بمنع إنعام».

(٣) في المطبوع وأحمد٣: «بعقد».

(٤) الأولى هي المتواترة، وسقطت من الحمزوية، والثانية شاذة، عزاها النحاس في إعراب القرآن (٢/ ١٦٢) لبعض أهل المدينة.

منقطع، وهو قول ضعيف من جهة المعنى، وأَما من جهة اللفظ فجيّد، وكذلك قاله من النُّحاة قومٌ، واستثنى الله من الماشين على سجيّة الإِنسان هؤلاءِ الذين حملتهم الأَديان على الصبر على المكاره ومثابرة عبادة الله، وليس شيءٌ من ذلك في سجية البشر، وإِنما حَمَل على ذلك حب الله وخوفُ الدار[1] الآخرة والصبر، والعملُ الصالح لا ينفع إِلا مع هداية وإِيمان.

ثم وعدَ تعالى أَهل هذه الصفة، تحريضاً عليها وحضّاً، بالمغفرة للذنوب والتفضل بالأَجر والنعيم.

قوله عز وجل: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾﴾.

سبب هذه الآية أَن كفار قريش قالوا: يا محمد لو تركت سبّ آلهتنا وتسفيه آبائنا لجالسناك واتَّبعناك، وقالوا: ﴿ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ﴾ [يونس: ١٥][2]، ونحو هذا من الأَقوال، فخاطب الله تعالى نبيّه ﷺ على هذه الصورة من المخاطبة، ووقفه بها توقيفاً رادّاً على أَقوالهم ومبطلاً لها، وليس المعنى أَنه ﷺ همّ بشيءٍ من هذا فزُجر عنه، فإِنه لم يُرد قط ترك شيءٍ مما أُوحي إِليه، ولا ضاق صدره، وإِنما كان يضيق صدره بأَقوالهم وأَفعالهم وبُعدهم عن الإِيمان.

و(لعلّك) ها هنا بمعنى التوقيف والتقرير، و﴿مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ﴾ هو القرآن والشريعة والدعاءُ إِلى الله تعالى، كان في ذلك سبُّ آلهتهم وتسفيه آبائهم أَو غيره[3].

---

(١) في الحمزوية: «خوف الله وحب الدار الآخرة».

(٢) ذكره الواحدي في الوجيز (١/ ٥١٤) بغير إسناد.

(٣) في نجيبويه زيادة: «من الاعتقادات».

ويحتمل أَن يكون النبي ﷺ قد عَظُم عليه ما يلقى من الشدة فمال إِلى أَن يكون من الله تعالى إِذْنٌ في مساهلة الكفار بعض المساهلة، ونحو هذا من الاعتقادات التي تليق به ﷺ كما جاءَت آيات الموادعة.

وعبّر بـ﴿وَضَآئِقُۢ﴾ دون ضَيّق للمناسبة في اللفظ مع ﴿تَارِكُۢ﴾، وإِن كان ضيّق أَكثر استعمالاً لأَنه وصف لازم، و﴿وَضَآئِقُۢ﴾ وصف عارض، فهو الذي يصلح هنا.

والضمير في ﴿بِهِۦ﴾ عائد على البعض، ويحتمل أَن يعود على ﴿مَا﴾، و﴿أَن﴾ في موضع نصب على تقدير: «كراهة أَنْ»، والكنزُ ها هنا: المالُ، وهذا هو طلبهم آية تضطر إِلى الإِيمان، والله تعالى لم يبعث الأَنبياءَ بآيات اضطرار، وإِنما بعثهم بآيات النظر والاستدلال، ولم يجعل آية الاضطرار إِلا للأُمم التي قدّر تعذيبها بكفرها بعد آية الاضطرار، / كالناقة لثمود. [٣/ ٢٨]

ثم آنسَهُ تعالى بقوله: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ﴾، أَي: هذا القدر هو الذي فُوّض إِليك، والله تعالى بعد ذلك هو الوكيل الممضي لإِيمان من شاءَ وكفر من شاءَ.

وقوله تعالى: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ﴾ الآية، هذه «أَمْ» التي عند سيبويه بمعنى «بل» وأَلف الاستفهام، كأَنه أَضرب عن الكلام الأَول واستفهم في الثاني على معنى التقرير، كقولهم: إِنها لإبلٌ أَمْ شَاءٌ.

والافتراءُ أَخصّ من الكذب، ولا يستعمل إِلا فيما بهت به المرءُ وكابر وجاءَ بأَمر عظيم منكر، ووقع التحدي في هذه الآية بِعَشْرٍ لأَنه قيدها بالافتراءِ، فوسَّع عليهم القدْر لتقوم الحجة غاية القيام، إِذْ قَدْ عَجَّزهم في غير هذه الآية بسورة من مثله[١] دون تقييد، فهذه مماثلة تامة في غيوب القرآن ومعانيه الجمة[٢] ونظمه ووعده ووعيده.

وَعُجِّزوا في هذه الآية بأَنْ قيل لهم: عارضوا القدْر منه بعشر أَمثاله في التقدير

---

(١) البقرة: (٢٣)، يونس: (٣٨).

(٢) ساقط من المطبوع، وكتبت في العلمية: «الحجة»، وفي الحمزوية: «الحقة».

والغرضُ واحد، واجعلوه مفترًى لا يبقى لكم إِلا نظمه، فهذه غاية التوسعة، وليس المعنى: عارضوا عشر سور بعشر، لأَن هذه إِنما كانت تجيءُ معارضةَ سورة بسورة مفتراة، ولا يُبالى عن تقديم نزول هذه على هذه.

ويؤيد هذا النظر أَن التكليف في آية البقرة إِنما هو بسبب الريب، ولا يزيلُ الريب إِلا العلم بأَنهم لا يقدرون على المماثلة التامة، وفي هذه الآية إِنما التكليف بسبب قولهم: ﴿ٱفۡتَرَىٰهُۖ﴾، فكلفوا نحو ما قالوا، ولا يطَّرد هذا في آية يونس.

وقال بعض الناس: هذه مقدَّمة في النزول على تلك، ولا يصح أَن يُعَجَّزوا في[1] واحدة فيكلفوا عشراً والتكليفان سواء، ولا يصح أَن تكون السورة الواحدة إِلا مفتراة، وآية سورة يونس في تكليف سورة متركبةٌ على قولهم: ﴿ٱفۡتَرَىٰهُۖ﴾، وكذلك آية البقرة، إِنما ريبُهم بأَن القرآن مفترى.

قال القاضي أبو محمد: وقائل هذا القول لم يلحظ الفرق بين التكليفين، في كمال المماثلة مرة، ووقوفها على النظم مرة.

و﴿مَنِ﴾ في قوله: ﴿مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم﴾ يراد بها الآلهة والأَصنام والشياطين وكل ما كانوا يعظمونه، وقوله: ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ يريد: في أَن القرآن مفترى.

قوله عز وجل: ﴿فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٤ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ ١٥ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٦﴾.

لهذه الآية تأْويلان: أَحدهما: أَن تكون المخاطبة من النبي ﷺ للكفار، أَي: فإِن لم يستجب مَن تدعونه[2] إِلى شيءٍ من المعارضة، ولا قدر جميعكم عليها، فأَذعِنُوا

---

(١) سقطت من المطبوع.

(٢) في الحمزوية زيادة: «من دون الله».

حينئذ واعلموا أَنه من عند الله، ويأْتي قوله: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ متمكناً.

والثاني: أَن تكون مخاطبة من الله تعالى للمؤمنين، أَي: فإِن لم يستجب الكفار إِلى ما دُعوا إِليه من المعارضة فاعلموا أَن ذلك من عند الله، وهذا على معنى: دوموا على علمكم، لأنهم[١] كانوا عالمين بذلك.

قال مجاهد: «قوله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ هو لأَصحاب محمد ﷺ»[٢].

وقوله تعالى: ﴿بِعِلْمِ اللَّهِ﴾ يحتمل معنيين. أَحدهما: بإِذنه وعلى علم منه، والثاني: أَنه أُنزل بما علمه الله تعالى من الغيوب، فكأَنه أَراد: المعلومات له، وقوله: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ تقرير.

وقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ الآية، قالت فرقة: ظاهرها العموم ومعناها الخصوص في الكفرة، هذا قول قتادة والضحاك، وقال مجاهد: هي في الكفرة وفي أَهل الرياءِ من المؤمنين[٣].

وإِلى هذا ذهب معاوية حين حدثه سَيَّافُه شُفي بن ماتع الأَصبحي[٤] عن أَبي هريرة بقول رسول الله ﷺ في الرجل المتصدق، والمجاهد المقتول، والقائم بالقرآن ليلَه ونهاره، وكل ذلك رياءً، أَنهم أَول من تُسَعَّر به النار يوم القيامة، فلما حدّثه شُفي بهذا الحديث بكى معاوية وقال: صدق الله ورسوله، وتلا: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ الآية، إلى قوله: ﴿وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[٥].

---

(١) في المطبوع: «فإِنهم».

(٢) تفسير الطبري (١٥/ ٢٦٢)، وتفسير ابن أبي حاتم (٦/ ٢٠١٠)، وفي أحمد٣: «هؤلاء أصحاب».

(٣) انظر القولين في تفسير الطبري (١٥/ ٢٦٤).

(٤) شفي بن ماتع الأصبحي المصري، روى عن أبي هريرة، وعبد الله بن عمرو، وعنه: ابنه حسين، وأبو قبيل المعافري، وآخرون، وثقه النسائي، وكان عالماً حكيماً، توفي سنة (١٠٥هـ). تاريخ الإسلام (٧/ ١٠٧).

(٥) إسناده لا بأس به، لكن وقع فيه اختلاف، هذا الحديث أخرجه الترمذي (٢٣٨٢) وقال: حسن =

فأَما من ذهب في أَنها في الكفرة فمعنى قوله: ﴿يُرِيدُ﴾: يقصد ويعتمد، أَي: هي وجهُهُ ومقصدُه لا مقصد له غيرها، فالمعنى: من كان يريد بأَعماله الدنيا فقط إِذ لا يعتقد الآخرة فإِن الله يجازيه على حُسْن أَعماله، في الدنيا، بالنعم والحواسّ وغير ذلك، فمنهم مُضَيّق عليه، ومنهم مُوَسَّع له، ثم حكم عليهم [بعد ذلك][(١)] بأَنهم لا يحصل لهم يوم القيامة إِلا النار، ولا تكون لهم حالٌ سواها.

قال القاضي أبو محمد: فاستقام هذا المعنى على لفظ الآية، وهو عندي أَرجح التأْويلات بحسب تقدم ذكر الكفار المناقضين[(٢)] في القرآن، فإِنما قصد بهذه الآية أُولئِكَ.

وأَما من ذهب إِلى أَنها في العصاة من المؤمنين فمعنى ﴿يُرِيدُ﴾ عنده: يُحب ويُؤْثر ويُفَضّل ويقصد وإِن كان له مقصد آخر بإِيمانه، فإِن الله يجازيه على تلك الأَعمال الحسان التي لم يعملها لله بالنِّعم في الدنيا، ثم يأْتي قوله: ﴿لَيْسَ لَهُمْ﴾ بمعنى: ليس يجب لهم أَو يحق لهم إِلاَّ النار، وجائز أَن يتغمدهم الله برحمته، وهذا هو ظاهر أَلفاظ ابن عباس[(٣)] وسعيد بن جبير[(٤)]، وقال أنس بن مالك: هي في أهل الكتاب[(٥)].

قال القاضي أبو محمد: ومعنى هذا أن أَهل الكتاب الكفرة يدخلون في هذه الآية، لا أَنها ليست في غيرهم.

وقرأَ جمهور الناس: ﴿نُوَفِّ﴾ بنون العظمة.

= غريب، وابن خزيمة (٢٤٨٢)، وابن حبان (٤٠٨)، والطبري (١٢/ ٣٥٠-٣٥١-٣٥٢). ووقع في إسناده اختلاف، ذكره البيهقي في شعب الإيمان (٥/ ٣٢٦)، وحديث هؤلاء الثلاثة أصله في مسلم (١٩٠٥) من طريق آخر، وليس فيه معاوية ولا ذكر الآيات.

(١) ساقط من الأصل والمطبوع.

(٢) في المطبوع: «والمنافقين».

(٣) لم أقف عليه.

(٤) انظر: تفسير الطبري (١٥/ ٢٦٣).

(٥) صحيح إن سلم من تدليس قتادة أخرجه الطبري (١٥/ ٢٦٥) من طريق همام بن يحيى، عن قتادة، عن أنس بن مالك رضي الله عنه به.

وقرأ طلحة وميمون بن مهران: (يُوَفّ) بياءِ الغائب[١].

و﴿يُبْخَسُونَ﴾ معناه: يعطون أقل من ثوابهم، و﴿وَحَبِطَ﴾ معناه: بطل وسقط، منه قول النبي ﷺ: «يقتل حَبَطاً أو يُلِمّ»[٢]، وهي مستعملة في فساد الأعمال.

والضمير في قوله: ﴿فِيهَا﴾ عائد على الدنيا في الأُولَيين، وفي الثالثة عائد على الآخرة، ويحتمل أن يعود في الثلاثة على الدنيا، ويحتمل أن تعود الثانية على الأعمال.

وقرأ جمهور الناس: ﴿وَبَاطِلٌ﴾ بالرفع على الابتداءِ والخبر، وقرأ أُبيّ وابن مسعود: (وَبَاطلاً) بالنصب[٣]، قال أبو حاتم: ثبتت في أربعة مصاحف[٤]، والعامل فيه ﴿يَعْمَلُونَ﴾، و﴿مَّا﴾ زائدة[٥]، والتقدير: وباطلًا كانوا يعملون.

والباطل: كل ما تقتضي ذاته ألاَّ تُنال به غاية في ثواب ونحوه، [وبالله التوفيق][٦].

قوله عز وجل: / ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾﴾. [٣/ ٢٩]

اختلف المتأولون في المراد بقوله: ﴿أَفَمَن﴾، فقالت فرقة: المراد بذلك المؤمنون بمحمد ﷺ. وقالت فرقة: المراد محمد ﷺ خاصة، وقال[٧] علي بن أبي طالب[٨]، والحسن،

---

(١) وهي شاذة، انظر عزوها لميمون في مختصر الشواذ (ص: ٦٤)، وانظر الشواذ للكرماني (ص: ٢٢٣)، فقد ذكر له أوجهاً أخرى.

(٢) متفق عليه، هذا الحديث أخرجه البخاري (٢٨٤٢)، ومسلم (١٠٥٢) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٣) وهي شاذة، انظر عزوهما له في إعراب القرآن للنحاس (٢/ ١٦٣)، والمحتسب (١/ ٣٢٠).

(٤) لم أقف عليه.

(٥) ساقطة من المطبوع.

(٦) ليست في أحمد٣.

(٧) سقطت «قال» من المطبوع.

(٨) مرسل ضعيف هذا الأثر أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٠٧٦٥) من طريق أصبغ بن الفرج =

وقتادة، ومجاهد، والضحاك[١]، وابن عباس: «المراد بذلك محمد ﷺ والمؤمنون جميعاً»[٢].

وكذلك اختلف في المراد بـالبيِّنة:

فقالت فرقة: المراد بذلك القرآن، أَي: على جَلِيَّة بسبب القرآن. وقالت فرقة: المراد محمد ﷺ، [أَي: على جليَّة بسبب محمد ﷺ][٣]، والهاءُ في البيّنة للمبالغة كهاءِ علّامة ونسّابة.

وكذلك اختلف في المراد بالشَّاهد، فقال ابن عباس[٤]، وإبراهيم النَّخَعي، ومجاهد، والضحاك، وأَبو صالح، وعكرمة: «هو جبريل»[٥].

وقال الحسين[٦] بن علي: هو محمد ﷺ[٧].

وقال مجاهد أيضاً: «هو ملَك وكَّلَه الله بحفظ القرآن»[٨].

= قال: سمعت عبد الرحمن بن زيد بن أسلم يقول في قول الله: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ ﴾ قال: رسول الله ﷺ: «كان على بينة من ربه والقرآن يتلوه شاهدا أيضا لأنه من رسول الله ﷺ»، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ضعيف.

(١) تفسير الطبري (١٥/ ٢٧٠، و٢٧٤-٢٧٥).

(٢) أثر ابن عباس أخرجه الطبري (١٨٠٦٤) من طريق عطية العوفي عن ابن عباس قوله: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾، يعني محمداً، على بينة من ربه ﴿ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ ﴾، فهو.

(٣) من نجيبويه وأحمد٣ والمطبوع.

(٤) حسن هذا الأثر أخرجه ابن جرير الطبري (١٨٠٤٩)، وابن أبي حاتم (١٠٧٦٠) في تفسيرهما من طريق قتادة عن عكرمة بنحوه.

(٥) تفسير الطبري (١٥/ ٢٧٣-٢٧٤)، وتفسير ابن أبي حاتم (٦/ ٢٠١٤).

(٦) في المطبوع وأحمد٣ ونور العثمانية والتركية والحمزوية: «الحسن».

(٧) مرسل هذا الأثر أخرجه ابن أبي شيبة (٣١٧٧٦) عن أبي أسامة، وابن جرير الطبري (١٨٠٤٢)، وابن أبي حاتم (١٠٧٥٨) من طريق أبي أسامة، عن عوف، عن سليمان العلاف، عن الحسين، وفي بعض وعند ابن أبي شيبة الحسن به، وسليمان العلاف ذكره البخاري في التاريخ (٤/ ٣٠)، وابن أبي حاتم في الجرح والتعديل (٤/ ١٥٣) ولم يذكرا فيه جرحاً، وقالا: إنه بلغه عن الحسن، روى عنه عوف، وقال البخاري: مرسل.

(٨) تفسير الطبري (١٥/ ٢٧٥)، وتفسير ابن أبي حاتم (٦/ ٢٠١٤).

قال القاضي أبو محمد: ويحتمل أَن يريد بهذه الألفاظ: جبريل.

وقال علي بن أبي طالب[١]، والحسن، وقتادة: «هو لسان النبي ﷺ»[٢]، وقالت فرقة: هو علي بن أَبي طالب رضي الله عنه، وروي ذلك عنه[٣]، وقالت فرقة: هو الإِنجيل، وقالت فرقة: هو القرآن، وقالت فرقة: هو إعجاز القرآن.

قال القاضي أبو محمد: ويتصرف قوله: ﴿وَيَتْلُوهُ﴾ على معنيين: بمعنى: يقرؤُه، وبمعنى: يتْبَعه، وتصرُّفه بحسب الخلاف المذكور في الشاهد، ولْنُرَتِّب الآن اطراد كل قول وما يحتمل:

فإذا قلنا: إن قوله: ﴿أَفَمَن﴾ يراد به المؤمنون، فإذا جعلت بعد ذلك البَيِّنَة محمداً ﷺ، صحَّ أن يترتب الشَّاهد الإِنجيل، ويكون ﴿وَيَتْلُوهُ﴾ بمعنى يقرؤُه، لأَن الإِنجيل يقرأُ[٤] شأْن محمد ﷺ، وأَن يترتب جبريل عليه السلام، ويكون ﴿وَيَتْلُوهُ﴾ بمعنى: يَتْبَعه، أَي: في تبليغ الشرع والمعونة فيه، وأن يترتب الملَك، ويكون الضمير في ﴿مِّنْهُ﴾ عائداً على البينة التي قدرناها محمداً ﷺ، وأَن يترتب القرآن، ويكون ﴿وَيَتْلُوهُ﴾ بمعنى: يتْبَعه، ويعود الضمير في ﴿مِّنْهُ﴾ على الربّ.

وإِن جعلنا البيِّنة القرآن على أن ﴿أَفَمَن﴾ هم المؤْمنون، صح أَن يترتب الشَّاهد

---

(١) منقطع، هذا الأثر أخرجه ابن جرير الطبري (١٨٠٣٠)، وابن أبي حاتم (١٠٧٥٩)، والطبراني في الأوسط (٦٨٢٨) من طريق قتادة، عن عروة، عن محمد بن علي قال: قلت لأبي: يا أبه ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ إن الناس يقولون: إنك أنت هو، قال: وددت أني أنا هو لكنه لسانه، وقتادة لم يسمع من عروة بن الزبير، قاله أحمد كما في جامع التحصيل (ص ٢٥٥).

(٢) تفسير الطبري (١٥/ ٢٧٠)، وتفسير ابن أبي حاتم (٦/ ٢٠١٤).

(٣) ضعيف، هذا الأثر أخرجه الطبري (١٨٠٤٨) من طريق جابر الجعفي عن عبد الله بن نجي قال: قال علي رضي الله عنه: ما من رجل من قريش إلا وقد نزلت فيه الآية والآيتان. فقال له رجُل: فأنتَ فأي شيء نزل فيك؟ فقال علي: أما تقرأ الآية التي في هود: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾.

(٤) في نجيبويه: «يقوي».

محمد ﷺ، وصح أَن يترتب الإِنجيل، وصح أَن يترتب جبريل والملَك، ويكون ﴿وَيَتْلُوهُ﴾ بمعنى: يقرؤُه، وصحّ أَن يترتب الشَّاهد الإِعجاز، ويكون ﴿وَيَتْلُوهُ﴾ بمعنى: يتْبَعه، ويعود الضمير في ﴿مِّنْهُ﴾ على القرآن.

وإِذاجعلنا ﴿أَفَمَن﴾ للنبي ﷺ، كانت البَيِّنَةُ القرآنَ، وترتب الشَّاهد لسان محمد النبي ﷺ، وترتب الإِنجيل، وترتب جبريل والملَك، وترتب عليّ بن أَبي طالب رضي الله عنه، وترتب الإِعجاز، ويُتَأَول ﴿وَيَتْلُوهُ﴾ بحسب الشاهد كما قلنا، ولكن هذا القول يضعفه قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾، فإِنا إِذا جعلنا قوله: ﴿أَفَمَن﴾ للنبي ﷺ وحده لم نجد في الآية مذكورين يشارُ إِليهم بذلك، ونحتاج في الآية إِلى تجوُّز وتشبيهٍ بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [الطلاق: ١]، وهو شَبَه ليس بالقوي.

والأَصح في الآية أَن يكون قوله: ﴿أَفَمَن﴾ للمؤمنين، أَو لهم والنبي ﷺ معهم بأَلا يترتب الشاهد بعد ذلك يراد به النبي ﷺ [إذا قدرناه](١) داخلاً في قوله: ﴿أَفَمَن﴾، وما تركناه من بَسْطِ هذا الترتيب يخرجه التدبر بسرعة فتأَمله.

وقرأَ جمهور الناس: ﴿كِتَٰبُ﴾ بالرفع، وقرأَ الكلبي وغيره: (كِتَابَ) بالنصب(٢).

فمن رفع قدَّر الشاهد الإِنجيل(٣)، معناه: يقرأُ القرآن، أَو محمد ﷺ، بحسب الخلاف، والإِنجيل، ومِنْ قبل الإِنجيل كتابُ موسى، إِذ في الكتابين ذكْرُ القرآن وذكْرُ محمد ﷺ.

ويصحُّ أَن يُقَدِّرَ الرافعُ الشاهدَ القرآنَ، وتطرد الأَلفاظ بعد ذلك.

ومن نصب (كتابَ) قدّر الشاهدَ جبريل عليه السلام، أَي: يتلو القرآنَ جبريلُ، ومن قبلِ القرآن كتابَ موسى(٤).

---

(١) ساقط من المطبوع.

(٢) وهي شاذة، انظرها في مختصر الشواذ (ص: ٦٤).

(٣) في حاشية المطبوع: «لَعَلَّ الصواب (جبريل) بدلاً من (الإِنجيل)، لأنه هو الذي يقرأ».

(٤) وقع في المطبوع تقديم وتأخير بين الجملتين الأخيرتين.

قال القاضي أبو محمد: وهنا اعتراض؛ يقال: إذا قال: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ أَو (كتابَ) بالنصب على القراءتين، والضمير في ﴿قَبْلِهِۦ﴾ عائد على القرآن، فلِمَ لمْ يذكر الإِنجيل ـ وهو قبله ـ بينه وبين كتاب موسى؟

فالانفصال: أَنه خصَّ التوراة بالذكر لأَن المِلَّتين مجتمعتان أَنهما من عند الله، والإِنجيل ليس كذلك، فكان الاستشهاد بما تقوم به الحجة على الطائفتين أَوْلى، وهذا يجري مع قول الجِنِّ: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ [الأحقاف: ٣٠]، ومع قول النجاشيّ: «إِنَّ هذا والذي جاءَ به موسى لَيَخْرُجُ من مشكاةٍ واحدة»[1]، فإِنما اختصر الإِنجيل من جهة أَن مذهبهم فيه مخالف لحال القرآن والتوراة.

ونصب ﴿إِمَامًا﴾ على الحال من ﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾.

و﴿ٱلْأَحْزَابِ﴾ هاهنا يراد به جميعُ الأُمم.

وروى سعيد بن جبير عن أَبي موسى الأَشعري عن النبي ﷺ أَنه قال: «ما من أَحد يسمع بي من هذه الأمة، ولا من اليهود والنصارى، ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار» قال سعيد فقلت: أَين مصداق هذا من كتاب الله؟ حتى وجدته في هذه الآية، وكنت إِذا سمعت حديثاً عن النبي ﷺ طلبت مصداقه في كتاب الله[2].

---

(١) حسن، هذا الحديث أخرجه أحمد (٣/ ٢٦٣-٣٧/ ١٧٠)، والبيهقي في دلائل النبوة (٢/ ٣٠١) من طريق محمد بن إسحاق، عن الزهري، عن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، عن أم سلمة رضي الله عنها فذكرته.

(٢) الصحيح مرسل، هذا الحديث أخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده (٥١١)، والنسائي في الكبرى (١١١٧٧)، والبزار في «مسنده» (٣٠٥٠) من طريق شعبة، عن أبي بشر جعفر بن إياس، عن سعيد ابن جبير، عن أبي موسى الأشعري، مرفوعاً به، وقال البزار: وهذا الكلام لا نعلم رواه عن النبي إلا أبو موسى بهذا الإسناد ولا أحسب سمع سعيد بن جبير من أبي موسى. اهـ.
وخولف أبو بشر في إسناده، فأخرجه عبد الرزاق في تفسيره (١/ ٣٠٣) وغيره من طريق: أيوب عن سعيد ابن جبير مرسلاً، وروي أيضاً عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس مرفوعاً، أخرجه الحاكم في «المستدرك» =

قال القاضي أبو محمد: والراجح عندي من الأَقوال في هذه الآية أَن يكون ﴿أَفَمَن﴾ للمؤمنين، أَو لهم وللنبي ﷺ معهم، إِذ قد تقدم ذكر الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ، فعقَّب ذكرهم بذكر غيرهم[1]، والبَيِّـنَـة: القرآن وما تضمن، والشاهد محمد ﷺ أَو جبريل عليه السلام إِذا دخل النبي ﷺ في قوله: ﴿أَفَمَن﴾، أَو الإِنجيل، والضمير في ﴿وَيَتْلُوهُ﴾ للبَيِّنَة، وفي ﴿مِّنْهُ﴾ للربّ تعالى، والضمير في ﴿قَبْلِهِۦ﴾ للبينة أَيضاً، وغير هذا مما ذكرته آنفاً محتمل.

وقرأَ الجمهور: ﴿فِى مِرْيَةٍ﴾ بكسر [الميم، وقرأَ السلمي، وأَبو رجاءٍ، وأَبو الخطاب السَّدُوسي: (فِي مُرْيَةٍ) بضم الميم][2]، وهما لغتان في الشَّكِّ، والضمير في ﴿مِّنْهُ﴾ عائد على كون الكفرة موعدهم النار، وسائر الآية بيِّن.

وفي هذه الآية معادلة محذوفة يقتضيها ظاهر اللفظ تقديرها: أَفَمَنْ كان على بَيِّنة من ربّه كمن كفر بالله وكذَّب أَنبياءَه؟.

ونَحْوُ هذا في معنى الحذف قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [الرعد: ٣١]، لكان هذا القرآنُ ـ ومن ذلك قول الشاعر:

= (٢/ ٣٤٣) من طريق معمر، عن أبي عمرو البصري، عن سعيد بن جبير، به، وهو إسناد غير قائم، لم أعرف شيخ معمر، ثم إنه بصري، ورواية معمر بالبصرة ليست بعمدة، والمرسل هو الصحيح.
واللفظ المرفوع من هذا الحديث أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة (١٥٧)، ولفظة «قال سعيد» ليست في المطبوع.

(١) في المصرية والتركية: «ضدهم».

(٢) وهي شاذة عزاها للسلمي في إعراب القرآن للنحاس (٣/ ٧٤)، ولأبي رجاء وآخرين في الشواذ للكرماني (ص: ٢٢٣)، وللباقين في البحر المحيط (٦/ ١٣٦)، وأبو الخطاب يكنى بها قتادة، وكذلك محمد بن سواء بن عنبر السدوسي البصري المكفوف، روى عن حسين المعلم، وسعيد بن أبي عروبة، وطبقتهم، وكان ثقة، نبيلاً، صاحب حديث، توفي سنة ١٨٧ هـ تاريخ الإسلام (١٢/ ٣٦٧).

فَأُقْسِمُ لَوْ شَيْءٌ أَتَانَا رسولُهُ سِواك ولكنْ لم نَجِدْ لَك مَدْفَعَا[١] [الطويل]

التقدير: لردَدْنَاهُ ولم نُصغ إليه.

قوله عز وجل / : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾. [٣/ ٣٠]

قوله: ﴿وَمَنْ﴾ استفهام بمعنى التقرير، وكأنه قال: لا أَحد أَظلم ممن افترى على الله كذباً، والمراد بـ(مَن) الكفرة الذين يدعون مع الله إلهاً آخر، ويفترون في غير ما شيءٍ، وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ عبارة عن الإِشادة بهم والتشهير بخزيهم[٢]، وإِلا فكل بشر يعرضون على الله يوم القيامة.

وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾، قالت فرقة: يريد الشهداءَ من الأَنبياءِ والملائكة، فيجيءُ قوله: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ إِخباراً عنهم وشهادة عليهم.

وقالت فرقة: ﴿ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ بمعنى الشاهدين، ويريد جميعَ الخلائق، وفي ذلك إشادة بهم[٣]، وروي في نحو هذا حديث: «إِنَّه لا يخزى أَحدٌ يوم القيامة إِلاَّ ويعلم ذلك جميع من شهد المحشر»[٤]، فيجيءُ قوله: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ على هذا التأْويل استفهاماً عنهم

---

(١) البيت لامرئ القيس، كما في أمالي الزجاجي (ص: ٢٢٥)، والنكت في القرآن الكريم (ص: ٢١٤)، والديوان (ص: ١٢٦).

(٢) في الأصل: «والتشهي لخزيهم».

(٣) في المطبوع: «إشارة عليهم» وفي الحمزوية: «لهم».

(٤) موقوف على قتادة، أخرجه أحمد (١٠/ ٨٤)، والطبري (١٥/ ٢٨٤)، وأبو نعيم في الحلية (٢/ ٢١٦) من طريق سعيد عن قتادة قوله.

وتثبتاً فيهم، كما تقول إِذا رأَيت مجرماً قد عوقب: هذا هو الذي فعل كذا وكذا؟ وإِن كنت قد علمت ذلك، ويحتمل الإِخبار عنهم.

وقوله: ﴿أَلَا﴾ استفتاحُ كلام، واللَّعْنَةُ: الإِبعاد، و﴿ٱلَّذِينَ﴾ نعت لـ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، ويحتمل الرفع على تقدير: هم الذين، و﴿يَصُدُّونَ﴾ يحتمل أَن يقدر متعدياً على معنى: يَصُدّون الناس ويمنعونهم من سبيل الله، ويحتمل أَن يقدر غير متعد على معنى: يصُدّون هم، أَي: يُعْرضون.

و﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: شريعتُه.

﴿وَيَبۡغُونَهَا﴾: معناه: يطلبون لها، كما تقول: بغيتك خيراً أَو شرّاً، أَي: طلبت لك.

و﴿عِوَجًا﴾ على هذا مفعول، ويحتمل أَن يكون المعنى: ويبغون السبيل على عِوَج، أَي: فهم لا يهتدون أَبداً، فـ﴿عِوَجًا﴾ على هذا مصدر في موضع الحال.

والعِوَج: الانحراف والميل المؤَدِّي إِلى الفساد.

وكرر قوله: ﴿وَهُم﴾ على جهة التأْكيد، وهي جملة في موضع خبر الابتداءِ الأَول، وليس هذا موضع الفصل لأَن الفصل إِنما يكون بين معرفتين، أَو معرفة ونكرة تقارب المعرفة، لأَنها تفصل ما بين أَن يكون ما بعدها صفة أَو خبراً وتخلِّصه للخبر.

و﴿مُعۡجِزِينَ﴾ معناه: مُفْلتين لا يُقدر عليهم، وخصَّ ذكر الْأَرْضِ لأَن تصرف ابن آدم وتمتعه إِنما هو فيها، وهي قصاراه لا يستطيع النفوذ منها.

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ يحتمل معنيين:

أَحدهما: أَنه نفى أَن يكون لهم ولي أَو ناصر كائناً من كان.

والثاني: أَن يقصد وصف الأَصنام والآلهة بأَنهم لم يكونوا أَولياءَ حقيقة، وإِن كانوا هم يعتقدون أَنهم أَولياءُ.

ثم أَخبر أَنه يُضاعف لهم العذاب يوم القيامة، أَي: يُشَدَّدُ حتى يكون ضعفيْ ما كان، و﴿يُضَٰعَفُ﴾ فعل مستأْنف وليس بصفة.

وقوله: ﴿مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ﴾ يحتمل خمسة أَوجه:

أَحدها: أَن يصف هؤلاءِ الكفار بهذه الصفة على معنى أَن الله ختم عليهم بذلك، فهم لا يسمعون سماعاً ينتفعون به ولا يبصرون كذلك.

الثاني: أَن يكون وصفهم بذلك من أَجل بغضتهم في النبي ﷺ، فهم لا يستطيعون أَن يحملوا أَنفسهم على السمع منه والنظر إِليه، وينظر إِلى هذا حشو الطفيل بن عمرو أُذنيه بالكُرْسُف، وإِباية قريش وقت الحديبية أَن يسمعوا ما نقل إِليهم من كلام رسول الله ﷺ حتى ردّهم عن ذلك مشيختهم[(١)].

والثالث: أَن يكون وصف بذلك الأَصنام والآلهة التي نفى عنها ـ على التأْويل المتقدم ـ أَن تكون أَولياءَ، و﴿مَا﴾ في هذه الوجوه الثلاثة نافية.

والرابع: أَن يكون التقدير: يضاعف لهم العذاب بما كانوا، بحذف الجار وتكون ﴿مَا﴾ مصدرية، وهذا قولٌ فيه تحامل، قاله الفراءُ وقرنه بقوله: «أُجازيك ما صنعت بي»[(٢)].

والخامس: أَن تكون ﴿مَا﴾ ظرفية، أَي: أَن العذاب يضاعف لهم مدة استطاعتهم السمع والبصر، وقد أَعلمت الشريعة أَنهم لا يموتون فيها أَبداً، فالعذاب إِذاً مُتمادٍ أَبداً.

وقدم السَّمْعَ على البصر في هذه الآية لأن حاسَّته أَشرف من حاسة البصر، إِذ عليه تبنى في الأَطفال مَعْرِفَة دلالات الأَسماءِ، وإِذ هو كاف في أَكثر المعقولات دون البصر، إِلى غير ذلك.

---

(١) صحيح، أخرجه البخاري (٢٧٣٢) في كتاب الصلح/ بَاب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط.

(٢) لفظ الفراء في معاني القرآن (٢/ ٨): لأجزينَّـك بِما عملت.

قوله عز وجل: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ۝٢١ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ۝٢٢ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٢٣ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًاۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٢٤﴾.

﴿خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ بوجوب العذاب عليهم، ولا خسران أعظم من خسران النفس و﴿وَضَلَّ﴾ معناه: تَلِفَ ولم يجدوه حيث أمَّلوه.

و﴿لَا جَرَمَ﴾ لفظة مركبة من: (لا)، ومن: (جَرَم) بُنِيَتَا معاً، ومعنى ﴿لَا جَرَمَ﴾: حقَّ، هذا مذهب سيبويه والخليل[1]، وقال بعض النحويين: معناها: لا بُدّ ولا شكَّ ولا مَحَالة، وقد رُوي هذا عن الخليل، وقال الزجاج: ﴿لَا﴾ ردٌّ عليهم ولِمَا[2] تقدم من كل ما قبلها، و﴿جَرَمَ﴾ معناه: كَسَبَ، أَي: كَسَب فعْلُهم ﴿أَنَّهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾، فموضع ﴿أَنَّ﴾ على مذهب سيبويه رفعٌ، وموضعها على مذهب الزجاج نصب[3].

وقال الكسائي: معناها: لا صدَّ ولا مَنْع[4].

قال القاضي أبو محمد: فكأَن ﴿جَرَمَ﴾ على هذا من معنى القطع، تقول: جرَمْتُ، أَي: قطعت، وهي على منزع الزجاج من الكَسْب، ومنه قول الشاعر:

[الوافر] جَرِيمةَ ناهِضٍ في رَأْسِ نِيقٍ ... ترَى لعِظامِ ما جَمَعَتْ صَليبا[5]

وجريمةُ القوم: كاسِبُهم. وأَما قول الشاعر:

(١) انظر قول سيبويه ونقله عن الخليل في الكتاب لسيبويه (٣/ ١٣٨).
(٢) في نجيبويه: «ولكل ما».
(٣) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٣/ ٤٥).
(٤) نقله عنه النحاس في إعراب القرآن (٢/ ١٦٥).
(٥) البيت لأبي خراش الهُذَليِّ، وقد سبق الاستشهاد به في أول سورة المائدة، والنِّيق: الطويل من الجبال، ورأسُ النِّيق: أَعلى موضع فيه.

ولَـقَـدْ طعنْـتُ أَبـا أُمَـيْمَـةَ طَـعْنَـةً جَرَمَتْ فَـزَارَةُ بَعْدَها أَنْ يَغْضَبُوا[١] [الكامل]

فيحتمل الوجهين، ويختلف معنى البيت.

وفي «لاَ جرَمَ» لغاتٌ[٢]: يقول بعض العرب: لا ذَا جَرَمَ، وبعضهم: لا أَنْ ذَا جَرَمَ، وبعضهم: لا عَنْ ذَا جَرَمَ، وبعضهم: لاَ جَرَ، حذفوا الميم لكثرة استعماله[٣].

و﴿وَأَخْبَتُوٓاْ﴾، قيل: خشعوا، قاله قتادة[٤].

وقيل: أَنابوا، قاله ابن عباس[٥].

وقيل: اطمأنوا، قاله مجاهد[٦].

وقيل: خافوا، قاله ابن عباس أَيضاً[٧].

وهذه الأَقوال بعضها قريب من بعض، وأَصل اللفظ من الخَبْت وهو البراحُ القَفْر المستوي من الأرض، فكأَن الـمُخْبت في القفر قد انكشف/ واستسلم وبقي دون[٨] منعة، فشبه المتذلل الخاشع بذلك، وقيل: إِنما اشتق منه لاستوائه وطمأنينته. [٣/ ٣١]

وقوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ قيل: هي بمعنى اللام، أي: أخبتوا لربهم، وقيل: المعنى: جعلوا قصدهم بإخباتهم إلى ربهم، والفريقان: الكافرون والمؤمنون، شبَّه الكافر بالأَعمى وَالْأَصَمِّ، وشبه المؤمن بالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ، فهو على هذا تمثيل بمثالَيْن، وقال

---

(١) تقدم أيضاً في تفسير أول سورة المائدة.

(٢) في المطبوع: «ثلاث لغات»، وفي أحمد٣: «لغات ثلاث»، والظاهر أن اللغات أكثر من ذلك.

(٣) انظر هذه اللغات في إعراب القرآن للنحاس (٢/ ١٦٥).

(٤) تفسير الطبري (١٥/ ٢٩١)، تفسير ابن أبي حاتم (٦/ ٢٠٢٠).

(٥) هذا الأثر أخرجه الطبري في تفسيره (١٨٠٩٥) من طريق عطية العوفي، عن ابن عباس قال: الإخبات، الإنابة.

(٦) تفسير الطبري (١٥/ ٢٩٠)، وتفسير ابن أبي حاتم (٦/ ٢٠١٩).

(٧) هذا الأثر أخرجه الطبري (١٨٠٩٧) من طريق علي بن أبي طلحة، به.

(٨) كتبت في الأصل: «ذو»، وتم تصويبها في العلمية: «ذا».

بعض المتأولين: التقدير: كالأعمى الأصم، والبصير السميع، ودخلت واو العطف كما تقول: جاءَني زيد العاقل والكريم، وأَنت تريده بعينه، فهو على هذا تمثيل بمثال واحد.

و﴿مَثَلًا﴾ نصب على التمييز، ويجوز أَن يكون حالاً.

[وقدم الأعمى في هذه الآية لأنه أَشْيَع في الناس وليس بموضع معادلة بين الحواس كما في قوله: ﴿مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ﴾ [هود: ٢٠]][(١)].

قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

هذه آية قصص فيه تمثيل لقريش وكفار العرب، وإِعلام أَن محمداً ﷺ ليس ببدع من الرسل، وروي أَن نوحاً عليه السلام أَول رسول إِلى الناس[(٢)]، وروي أَن إِدريس أَول نبي من بني آدم إِلا أَنه لم يرسل[(٣)]، فرسالة نوح إِنما كانت إِلى قومه كسائر الأنبياءِ، وأَما الرسالة العامة فلم تكن إِلا لمحمد ﷺ.

وقرأَ نافع، وابن عامر، وعاصم، وحمزة: ﴿إِنِّى﴾ بكسر الأَلف.

وقرأَ ابن كثير، وأَبو عمرو، والكسائي: ﴿أَنّي﴾ بفتح الأَلف[(٤)].

فالكسر على إِضمار القول، والمعنى: قال لهم: ﴿إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾، ثم

---

(١) زيادة من الحمزوية ونجيبويه.

(٢) صحيح، هذا الحديث أخرجه البخاري (٤٤٧٦)، ومسلم (١٩٢) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٣) فيه روايات مقطوعة مرسلة، انظر: شرح مشكل الآثار (٥٦٩٥)، والدر المنثور (٢/ ٧٤٨)، وقصص الأنبياء لابن كثير (ص: ٧١).

(٤) فهما سبعيتان، انظر: التيسير (ص: ١٢٤)، والسبعة (ص: ٣٣٢).

يجيءُ قوله: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ﴾ معمولاً لِـ ﴿أَرْسَلْنَا﴾، أَي: أَرسلنا نوحاً بأَلَّا تعبدوا إِلا الله، واعترض أَثناءَ الكلام بقوله: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾، والفتح[١] على إِعمال ﴿أَرْسَلْنَا﴾ في ﴿أني﴾، أَي: بأَني لكم نذير، قال أَبو علي: وفي هذه القراءَة[٢] خروج من الغيبة إِلى المخاطبة[٣].

قال القاضي أبو محمد: وفي هذا نظر، وإِنما هي حكاية مخاطبته لقومه[٤]، وليس هذا حقيقة الخروج من غيبة إِلى خطاب، ولو كان الكلام: أَن أَنذرهم، أَو نحوه لصحّ ذلك.

والنذير: المحفظ[٥] من المكاره بأَن يُعَرفها ويُنَـبِّه عليها، و﴿مُّبِينٌ﴾ من: أَبان يُبين.

وقوله تعالى: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ ظاهر في أَنهم كانوا يعبدون الأَوثان ونحوها، وذلك بيِّن في غير هذه الآية.

و﴿أَلِيمٍ﴾ معناه: مؤلم، ووصف به اليوم ـ وحقه أَن يوصف به العذاب ـ تجوُّزاً، إِذ العذابُ في اليوم، فهو كقولهم: نهارٌ صائم وليلٌ قائم.

و﴿ٱلْمَلَأُ﴾ الجمع والأَكثر من القبيلة والمدينة ونحوه، ويُسَمى الأَشراف ملأً إِذْ هم عمدة الملأ والسَّادُّون مسَدَّه في الآراءِ والأُمور، وكل جماعة كبيرة ملأٌ.

ولـمَّا قال لهم نوح: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ﴾ قالوا: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾، أَي: والله لا يبعث رسولاً من البشر، فأَحالوا الجائز على الله تعالى.

والأَراذل جمع أَرْذَل، وقيل: جمع أَرْذال[٦]، وأَرْذَال جمع رَذْل، وكان اللازم على هذا

---

(١) في نجيبويه: «وفتح الألف».

(٢) في نجيبويه: «الآية».

(٣) الحجة للفارسي (٤/ ٣١٥).

(٤) في الأصل ونجيبويه: «لقوله».

(٥) في المطبوع وأحمد٣: «للتحفظ».

(٦) المثبت من نور العثمانية: «أرذال». انظر: البحر المحيط (٦/ ١٤٠).

أَن يقال: أَراذيل، وإِذا ثبتت الياءُ في جمع صَيْرف فأَحرى أَلا تُزال في موضع استحقاقها[١].

وهم سفلة الناس ومَنْ لا خَلاَقَ له ولا يبالي ما يقول ولا ما يقال له.

وقرأَ الجمهور: ﴿بَادِيَ ٱلرَّأْيِ﴾ بياءٍ دون همز، من: بَدَا يَبْدُو، ويحتمل أَن يكون من بدأَ مسَهَّلاً.

وقرأَ أَبو عمرو، وعيسى الثقفي: ﴿بادئَ الرَّأْي﴾ بالهمز[٢] مِن بدأَ يبدأُ.

قال القاضي أبو محمد: وبين القراءَتين اختلاف في المعنى يعطيه التدبّر فتركتُ التطويل ببسطه، والعرب تقول: أَما بادِئَ بدْءٍ فإِنِّي أَحمد الله، وأَمّا باديَ بدْيٍ، بغير همز فيهما، وقال الراجز:

[الرجز] أَضْحَى لِخالي شَبَهي بادِي بَدِي وصـارَ لِلْفَحْلِ لِسَـاني وَيَدِي[٣]

وقال الآخر:

[الرجز] .... وقَـدْ عَلَتْنـي ذُرْأَةٌ بـادِي بَدِي[٤]

وقرأَ الجمهور بهمز ﴿ٱلرَّأْيِ﴾، وقرأَ أَبو عمرو بترك همزه[٥].

و﴿بَادِيَ﴾ نصب على الظرف، وصحّ أَن يكون اسمُ الفاعل ظرفاً كما يصحّ في قريب ونحوه، وفعيلٌ وفاعلٌ متعاقبان أَبداً على معنًى واحد في المصدر، كقولك: جهد نفسي أحب[٦] كذا وكذا.

---

(١) في نجيبويه: «استخفافها».

(٢) فهي أيضاً سبعية، انظر عزوها لأبي عمرو في التيسير (ص: ١٢٤).

(٣) أنشده بلا نسبة في معاني القرآن للفراء (٢/ ١١)، وتفسير الطبري (١٥/ ٢٩٦)، وإصلاح المنطق (ص: ١٣١).

(٤) البيت لأبي نُخَيْلَة كما في الكتاب لسيبويه (٣/ ٣٠٤)، والمعاني الكبير (٣/ ١٢٢٣)، والمقتضب (٤/ ٢٧).

(٥) في المطبوع: «الهمز»، انظر السبعة لابن مجاهد (ص: ٣٣٢)، وهذا إنما هو على قاعدة السوسي في إبدال الهمز الساكن.

(٦) في أحمد٣ المطبوع: «محبٌّ لكذا».

وتعلُّق قوله: ﴿بَادِىَ ٱلرَّأْيِ﴾ يحتمل ستةَ أَوجه:

أَحدها: أَن يتعلق بـ﴿نَرَىٰكَ﴾، أَي: وما نراك بأَول نظر وأَقلِّ فكرة، وذلك هو ﴿بَادِىَ ٱلرَّأْيِ﴾ أَي: إِلاَّ ومُتَّبعوك أَراذلنا.

والثاني: أَن يتعلق بقوله: ﴿ٱتَّبَعَكَ﴾، أَي: وما نراك اتَّبعك بادي الرأْي إِلا الأَراذل، ثم يحتمل على هذا قوله: ﴿بَادِىَ ٱلرَّأْيِ﴾ معنيين: أَحدهما: أَن يريد: اتَّبعك في ظاهر أَمرهم، وعسى أَنَّ بواطنهم ليست معك، والثاني: أَن اتَّبعوك بأَول نظر وبالرأْي البادي دون تعقب، ولو تثبتوك لم يتبعوك، وفي هذا الوجه ذمُّ الرأْي الغير المروَّى.

والوجه الثالث من تعلق قوله: ﴿بَادِىَ ٱلرَّأْيِ﴾ أَن يتعلق بقوله: ﴿أَرَاذِلُنَا﴾، أَي: الذين هم أَراذلنا بأَول نظر فيهم، وببادي الرأْي يُعلم ذلك منهم.

ويحتمل أَن يكون قولهم: ﴿بَادِىَ ٱلرَّأْيِ﴾ وصفاً منهم لنوح، أَي: تَدَّعي عظيماً وأَنت مكشوف الرأْي لا حصافة[1] لك، ونصبه على الحال وعلى الصفة.

ويحتمل أَن يكون اعتراضاً في الكلام مخاطبة لمحمد ﷺ، ويجيءُ جميع هذا ستة معان[2]، ويجوز التعلق في هذا الوجه بـ«قال».

ومعنى ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾، أَي: ما ثَمَّ شيءٌ تستحقون به الاتباع والطاعة. ثم قال: ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾[3]، ويحتمل أَنهم خاطبوا نوحاً ومن آمن معه من قومه، أَي: أَنتم كاذبون في تصديقكم هذا الكاذب، وقولِكم: إِنه نبيٌّ مرسل، ويحتمل أَنهم خاطبوا نوحاً وحده فيكون من باب قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [الطلاق: ١].

---

(١) في الأسدية١: «حماية».

(٢) الثلاثة الأولى واضحة والرابع أن يكون صفة لنوح والخامس أن يكون اعتراضاً، أما السادس فلعله الطرف الثاني في الوجه الثاني.

(٣) جاء بعدها في نجيبويه: «ويحتمل أنهم خاطبوا نوحاً بهذا الخطاب فيكون من باب قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾».

قوله عز وجل: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

هذه الآية كأَنه قال: أَرأَيتم إِن هداني الله وأَضلكم، أَأُجبِركم على الهدى وأَنتم كارهون له معرضون عنه؟ واستفهامه في هذه الآية أَولاً وثانياً على جهة التقرير، وعبارة نوح عليه السلام كانت بِلُغَتِهِ دالة على المعنى القائم بنفسه، وهذا هو المفهوم من هذه العبارة العربية، فبهذا استقام أَن يقال كذا وكذا، إِذ القولُ ما أَفاد المعنى القائم بنفسه.

وقوله: ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾، أَي: على أَمرٍ بيِّن جليٍّ، والهاءُ في ﴿بَيِّنَةٍ﴾ للمبالغة كعلاَّمة ونسَّابة. وإِيتاؤُه الرَّحمةَ / هو هدايته للبيّنة، والمشار إِليه بهذا كله النبوةُ والشرعُ. [٣/ ٣٢]

وقوله: ﴿مِّنْ عِندِهِۦ﴾ تأْكيد، كما قال: ﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الأنعام: ٣٨]، ونحوه، وفائدته رفع الاشتراك ولو بالاستعارة.

وقرأَ جمهور الناس: ﴿فَعَمِيَتْ﴾، ولذلك وجهان من المعنى:

أَحدهما: خفِيَتْ، ولذلك يقال للسحاب: العماءُ؛ لأَنه يخفي ما فيه، كما يقال له: الغمام؛ لأَنه يغمه، ومنه قوله ﷺ: «كان الله قبل أَن يخلق الأَشياءَ في عماءٍ»(١).

والمعنى الثاني أَن تكون الإِرادة: فعَمِيتُم أَنتم عنها، لكنه قَلَب، كما تقول العرب: أَدخلتُ القلنسوةَ في رأْسي، ومنه قول الشاعر:

(١) ضعيف، أخرجه أبو داود الطيالسي (١١٨٩)، وأحمد (٤/ ١١)، والترمذي (٣١٠٩)، وابن ماجه (١٨٢)، والطبري (١٢/ ٣٣١-٣٣٢)، والطبراني في الكبير (٤٦٨)، وابن حبان في صحيحه (٦١٤١)، وأبو الشيخ في العظمة (٨٣)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٨٦٤)، وابن عبد البر في التمهيد (٧/ ١٣٧) وغيرهم من طرق عن حماد بن سلمة، عن يعلى بن عطاء، عن وكيع بن حُدُسٍ، عن عمه أبي رزين العقيلي مرفوعا، وهذا إسناد ضعيف من أجل جهالة وكيع بن حدس.

تَرَى الثَّوْرَ فيها مُدْخِلَ الظِّـلِّ رأْسَهُ وسائره بادٍ إلى الشَّمْس أَجْمَعُ[(١)] [الطويل]

قال أَبو عليّ: وهذا مما يقلب إِذْ ليس فيه إِشكال[(٢)]، وفي القرآن: ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ﴾ [إبراهيم: ٤٧].

وقرأَ حَفْصٌ، وحمزة، والكسائي: ﴿فَعُمِّيَتْ﴾ بضم العين وتشديد الميم على بناءِ الفعل للمفعول[(٣)]، وهذا إِنما يكون من الإِخفاءِ، ويحتمل[(٤)] القلبَ المذكور.

وقرأَ الأَعمش، وغيره: (فعمَّاها عليكم)[(٥)].

قال أَبو حاتم: روى الأَعمش عن ابن وثاب: (وَعمِيَتْ) بالواو خفيفة[(٦)].

وقوله: ﴿أَنُلۡزِمُكُمُوهَا﴾ يريد إِلزام جبر كالقتال ونحوه، وأَما إِلزام الإِيجاب فهو حاصل.

وقال النحاس: معناه: «أَنُـوجبها عليكم»[(٧)]؟ وقوله في ذلك خطأٌ.

وفي قراءَة أُبي بن كعب: (أَنُـلْزِمُكُمُوها من شطر أَنفسنا)[(٨)]، ومعناه: من تلقاءِ أَنفسنا، ورُوي عن ابن عباس أَنه قرأَ ذلك: (من شطر قلوبنا)[(٩)].

---

(١) البيت بلا نسبة في الجمل (ص: ١٢٧)، والكتاب لسيبويه (١/ ١٨١)، ومعاني القرآن للفراء (٢/ ٨٠)، وفي أحمد ٣ والمطبوع: «يدخل».

(٢) الحجة للفارسي (٤/ ٣٢٢).

(٣) فهي أيضاً سبعية انظر عزوها لهم في التيسير (ص: ١٢٤)، والسبعة لابن مجاهد (ص: ٣٣٢).

(٤) في المطبوع هنا زيادة: «أن»، ولا وجه لها.

(٥) وهي شاذة، عزاها له ولأبيٍّ في الحجة للفارسي (٤/ ٣٢٤)، ومشكل إعراب القرآن لمكي (١/ ٣٦١).

(٦) وهي شاذة، تابعه عليها في البحر المحيط (٦/ ١٤٣)، وعزاها في المصاحف لابن أبي داود (ص: ١٧٧) لابن مسعود.

(٧) انظر: معاني القرآن للنحاس (٣/ ٣٤٣).

(٨) وهي شاذة، انظرها في تفسير الطبري (١٥/ ٢٩٩).

(٩) وهي شاذة، تابعه عليه في البحر المحيط (٦/ ١٤٤)، وعزاها الطبري (١٥/ ٣٠٠) لأبي أيضاً، ونقل عن ابن عباس مثل الأولى.

وقوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ﴾ الآية، الضمير في ﴿عَلَيۡهِ﴾ عائد على التبليغ، وقوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ﴾ يقتضي أَنهم طلبوا منه طرد الضعفاءِ الذين بادروا إِلى الإِيمان به، نظير ما اقترحت قريش على رسول الله ﷺ بطرد تُبَّاعه[1] بمكة الذين لم يكونوا من قريش.

وقوله: ﴿إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ﴾ تنبيه على العودة إِلى الله ولقاءِ جزائه، المعنى: فيوصِّلهم إِلى حقهم عندي إِن ظلمتهم بالطرد، ثم وصفهم بالجهل في مثل هذا الاقتراح ونحوه.

وقوله: ﴿وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ﴾ الآية، هو استفهام بمعنى تقرير وتوقيف[2]، أَي: لا ناصر يدفع عني عقاب الله إِن ظلمتهم بالطرد عن الخير الذي قبلوه، ثم وقفهم بقوله: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾، وعرض عليهم النظر المؤدي إِلى صحة هذا الاحتجاج.

قوله عز وجل: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٣١ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٣٢﴾.

قوله: ﴿وَلَآ أَقُولُ﴾ عطف على قوله: ﴿لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ﴾، ومعنى هذه الآية: إِنِّي لا أُمَوِّه عليكم، ولا أَتعاطى غير ما أَهَّلني الله له، فلست أَقول: عِنْدِي خَزائِنُ الله، يريد: القدرة التي يوجد بها الشيءَ بعد حال عدمه، وقد يمكن أَن يكون من الموجودات كالرياح والماءِ ونحوه كثير باختراع[3] الله تعالى له، فإِن سمّي ذلك على جهة التجوُّز مختزناً فيشبه، أَلا ترى المروي في أَمر ريح عادٍ أَنه فتح عليهم من

---

(١) في المطبوع وأحمد٣: «أَتباعه».

(٢) في الأسدية١: «وتوبيخ».

(٣) في الأصل: «بإبداع».

الريح قدرحلقة الخاتم، ولو كان على قدر منخر الثور لأَهلك الأَرض[١]، ورُوي أَن الريح عتت على الملائكة الموكلين بتقديرها فلذلك وصفها الله تعالى بالعتو، وقال ابن عباس، وغيره: عَتَتْ على الخُزَّان[٢]، فهذا ونحوه يقتضي أَن ثَم خزائن[٣].

ثم قال: ﴿وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ﴾، ثم انحط عن هاتين فقال: ﴿وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ﴾، وظاهر هذه الآية فضل المَلَك على البشر وعلى النبي ﷺ، وهي مسأَلة اختلاف، وظاهر القرآن على ما قلنا[٤].

قال القاضي أبو محمد: وإن أخذنا قوله: ﴿وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ﴾ على حدّ أَن لو قال: ولا أَقول إِني كوكب، أَو نحوه، زالت طريقة التفضيل، ولكن الظاهر هو ما ذكرنا.

و﴿تَزۡدَرِيٓ﴾ أَصله: تزتري تفتعل من: زرى يزري، ومعنى ﴿تَزۡدَرِيٓ﴾: تحتقر، والخَيْر هنا يظهر فيه أَنه خير الآخرة، اللهم إِلا أَن يكون ازدراؤُهم من جهة الفقر، فيكون

---

(١) رفعه منكر، روي في هذا المعنى حديث أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٨٦٦٥)، والحاكم في «المستدرك» (٤/ ٥٩٣) من طريق عيسى بن هلال الصدفي، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «الريح مسخرة من الثانية ـ يعني من الأرض الثانية ـ فلما أراد الله أن يهلك عاداً أمر خازن الريح أن يرسل عليهم ريحاً تهلك عاداً، قال: أي رب، أرسل عليهم الريح قدر منخر الثور؟ قال له الجبار: لا، إذا تكفأ الأرض ومن عليها، ولكن أرسل بقدر خاتم، فهي التي يقول الله في كتابه ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيۡءٍ أَتَتۡ عَلَيۡهِ إِلَّا جَعَلَتۡهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾»، قال الذهبي: منكر، وقال ابن كثير: إنه موقوف على عبد الله بن عمرو، ورفعه منكر، وفي الباب عن ابن عباس رضي الله عنهما آثار تدل على هذا المعنى، انظر «التوحيد» لابن منده (٥٣).

(٢) الأصح موقوف على ابن عباس، هذا الأثر أخرجه أبو نعيم في الحلية (٦/ ٦٥) في ترجمة شهر بن حوشب عن الطبراني بسنده إلى موسى بن أعين عن سفيان عن موسى بن المسيب عن شهر ابن حوشب عن ابن عباس مرفوعاً، ثم قال أبو نعيم: رواه الفريابي والناس موقوفاً على سفيان، وتفرد برفعه موسى ابن أعين عن سفيان.اهـ، وكذلك أخرجه الطبري في تفسيره (٢٣/ ٥٧٢) عن ابن حميد ثنا مهران عن سفيان عن موسى بن المسيب عن شهر بن حوشب عن ابن عباس قال... فذكره موقوفاً.

(٣) في المطبوع وأحمد٣: «خزانين».

(٤) ولكن مذهب أهل السنة أن النبي ﷺ أفضل من جميع الملائكة وجميع الخلائق.

الخير: المال، وقد قال بعض المفسرين: حيثما ذكر الله الخير في القرآن فهو المال[1].

قال القاضي أبو محمد: وفي هذا الكلام تحامل، والذي يشبه أن يقال: إنه حيثما ذكر الخير فإن المال يدخل فيه.

وقوله: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ تسليم لله تعالى، أَي: لست أَحكم عليهم بشيءٍ من هذا، وإِنما يحكُم عليهم بذلك ويُخْرج حكمهُ إِلى حيّز الوجود الله تعالى الذي يعلم ما في نفوسهم ويجازيهم بذلك، وقد قال بعض المتأَولين: هي ردّ على قولهم: اتَّبعك أَراذلنا على ما يظهر منهم.

قال القاضي أبو محمد: حسبما تقدم في بعض تأْويلات الآية آنفاً، فالمعنى: لستُ أَنا أَحكم عليهم بأَلاَّ يكون لهم خير لظنكم بهم أَن بواطنهم ليست كظواهرهم، الله عز وجل أَعلم بما في نفوسهم. ثم قال: ﴿إِنِّيٓ إِذٗا﴾ لو فعلتُ ذلك ﴿لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الذين يضعون الشيءَ في غير موضعه.

وقوله تعالى: ﴿يَٰنُوحُ﴾ الآية، معناه: قد طال منك هذا الجدال، وهو المراجعة في الحُجَّة والمخاصمة والمقابلة بالأَقوال حتَّى تقع الغلبة، وهو مأْخوذ من الجَدْل، وهو شدة الفتل، ومنه: حبْلٌ مجدولٌ، أَي: مُمَرّ، ومنه قيل للصقر: أجدل، لشدة بِنْيته وفتل أَعضائه، والجدالُ: فِعالٌ مصدر فاعَلَ، وهو يقع من اثنين، ومصدر فاعَلَ يأْتي على فِعَالٍ وفِيعَالٍ ومفاعلة، فتركت الياءُ من فِيعَال ورفضت.

ومن الجدال ما هو محمود، وذلك إِذا كان مع كافر حربي في مَنَعته ويُطمع بالجدال أَن يهتدي، ومن ذلك هذه الآية، ومنه قوله تعالى: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، إِلى غير ذلك من الأَمثلة.

ومن الجدال ما هو مكروه، وهو ما يقع بين المسلمين بعضهم في بعض في

---

(١) هذا قول عكرمة كما تقدم في تفسير الآية (٢٧٣) من سورة البقرة، وسيأتي مكرراً.

طلب علل الشرائع، وتصوُّر ما يخبر به الشرع من قدرة الله، وقد نهى النبي ﷺ عن ذلك[١]، وكرهه العلماءُ، والله المستعان.

وقرأ ابن عباس: (جَدَلْنَا) بغير أَلف، وبفتح الجيم، ذكره أَبو حاتم[٢].

والمراد بقولهم: ﴿بِمَا تَعِدُنَآ﴾ العذاب والهلاك، والمفعول الثاني لـ﴿تَعِدُنَآ﴾ مضمر تقديره: بما تعدناه، ولما كان الكلام يقتضي العذاب جاز أَن يستعمل فيه الوعد.

قوله عز وجل: ﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ۝٣٣ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٣٤ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ/ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ۝٣٥﴾. [٣/ ٣٣]

المعنى: ليس ذلك بيدي ولا إِليَّ تَوْفيته، وإِنما ذلك بيد الله، وهو الآتي به إِن شاءَ وإذا شاء[٣]، ولستم من المنعة بحالِ مَن يفلت أَو يعتصم بمُنْج، وإِنما أَنتم في قبضة القدرة وتحت ذِلَّة التملك، وليس نصحي بنافع، ولا إِرادتي الخير لكم مغنيةً، إِذا كان الله تعالى قد أَراد بكم الإِغواءَ والإِضلال والإِهلاك.

والشرط الثاني اعتراضٌ بين الكلام، وفيه بلاغة في اقتران الإِرادتين، وأَن إِرادة البشر[٤] غير مُغْنية، وتعلقُ هذا الشرط هو بـ﴿نُصْحِىٓ﴾، وتعلق الآخر هو بـ(لَا يَنْفَعُ).

والنُّصْحُ هو سَدُّ ثَلْم الرأْي للمنصوح وترقيعُه، وهو مأْخوذ من: نَصَحَ الثوبَ إِذا خَاطَهُ. والمِنْصح: الإِبرة، والخَيْطُ يقال له: منْصَحٌ ونِصَاحٌ.

---

(١) من ذلك ما أخرجه البخاري (٧٢٨٨)، ومسلم (١٣٣٧) من حديث عن أبي هريرة قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: «... ذروني ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه»، واللفظ لمسلم.

(٢) وهي شاذة، عزاها له ولأيوب السختياني في مختصر الشواذ (ص: ٦٤)، والمحتسب (١/ ٣٢١).

(٣) «وإذا شاء» ساقط من المطبوع.

(٤) في المطبوع: «إرادة الشر».

وقالت فرقة: معنى قوله ﴿يُغْوِيَكُمْ﴾: يُضِلكم، من قولهم: غَوَى الرجلُ يَغْوِي.

ومنه قول الشاعر:

[الطويل] فَمَـنْ يَلْـقَ خَيْراً يَحْمَـدِ النَّـاسُ أمْرَهُ وَمَنْ يَغْـوِ لا يَعْدَمْ علَى الغَيِّ لائِماً(١)

وإذا كان هذا معنى اللفظة ففي الآية حجة على المعتزلة القائلين: إن الضلال إنما هو من العبد.

وقالت فرقة: معنى قوله: ﴿يُغْوِيَكُمْ﴾: يُهلكَكُم، والغَوَى: المرض والهلاك، وفي لغة طيء: أَصبح فلان غاوياً، أَي: مريضاً، والغَوَى: بَشَمُ الفصيل، قاله يعقوب في الإِصلاح(٢).

وقيل: فَقْده اللبن حتى يموت جوعاً، قاله الفراءُ، وحكاه الطبري(٣)، يقال: غَوِيَ يَغْوَى.

وحكى الزهراوي أَنه الذي قُطع عنه اللبن حتى كاد يهلك ولمَّا يهلِك بعد(٤).

فإذا كان هذا معنى اللفظة زال موضع النظر بين أَهل السُّنَّة والمعتزلة، وبقي الاحتجاج عليهم بما هو أَبْيَن من هذه الآية كقوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ [الأنعام ١٢٥] ونحوها.

قال القاضي أبو محمد: ومكي اعتقد أن للمعتزلة تعلقاً وحجة بالغة بهذا التأْويل، فردَّ عليه وأَفْرط حتى أَنكر أَن يكون الغوى بمعنى الهلاك موجوداً في لسان العرب(٥).

---

(١) البيت للمرقش الأصغركما في المفضليات (ص: ٢٤٧)، وإصلاح المنطق (ص: ١٥١)، والشعر والشعراء (١/ ٢١٠).

(٢) إصلاح المنطق (ص: ١٥١)، وانظر فيه قول الفراء الآتي.

(٣) تفسير الطبري (١٢/ ٣٣٣).

(٤) لم أقف عليه.

(٥) انظر قول مكي في الهداية (٦/ ٣٨٩٥).

وقوله: ﴿هُوَ رَبُّكُمْ﴾ تنبيه على المعرفة بالخالق.

وقوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ إِخبارٌ في ضمنه وعيد وتخويف.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ الآية، قال الطبري وغيره من المتأولين والمؤلفين في التفسير[1]: إن هذه الآية اعترضت في قصة نوح، وهي في شأن محمد ﷺ مع كفار قريش، وذلك أَنهم قالوا: افترى القرآن وافترى هذه القصة على نوح، فنزلت الآية في ذلك[2].

قال القاضي أبو محمد: وهذا لو صحّ بسند وجب الوقوف عنده، وإِلا فهو يحتمل أَن يكون في شأْن نوح عليه السلام ويبقى اتساق الآية مطرداً، ويكون الضمير في قوله: ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾ عائداً إِلى العذاب الذي توعدهم به، أَو على جميع أَخباره، وأُوقع الافتراءُ على العذاب من حيث يقع على الإِخبار به، والمعنى: أَم يقول هؤلاءِ الكفرة: افترى نوح هذا التَّوعُّد بالعذاب وأَراد الإِرهاب علينا بذلك، ثم يطرد باقي الآية على هذا.

و﴿أَمْ﴾ هي التي بمعنى «بل»[3]، والإِجْرَامُ: مصدر أَجْرَمَ يُجْرِمُ إِذا جنَى، يقال: جَرَمَ وأَجْرَمَ بمعنى، ومن ذلك قول الشاعر:

طَرِيدُ عَشِيرَةٍ ورَهِينُ ذَنْبٍ ... بِمَا جَرَمَتْ يَدِي وجَنَى لِسَانِي[4] [الوافر]

قوله عز وجل: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

---

(١) في حاشية المطبوع: «في بعض النسخ: والمؤلفين في السير».

(٢) الطبري (١٥/ ٣٠٥).

(٣) في نجيبويه زيادة: «يتقولون».

(٤) للهَيرَوَانِ أحد لصوص بني سعدٍ، كما في مجاز القرآن (١/ ٢٨٨)، وغيره، وفي مختارات ابن الشجري (٣/ ٦) أنه لدثار بن سنان.

قرأ أَبو البَـرَهْسَم: (وَأَوْحَى) بفتح الهمزة على إِسناد الفعل إِلى الله عزَّ وجلَّ، (إِنهُ) بكسر الهمزة[١].

وقيل لنوح هذا بعد أَن طال عليه كفر القرن بعد القرن به، وكان يأْتيه الرجل بابنه فيقول: يا بُنَيّ لا تُصَدق هذا الشيخ فهكذا عَهِدَه أَبي وجدي كذاباً مجنوناً، رواه عبيد بن عمير وغيره[٢].

وهذه الآية هي التي أَيْأَسَتْ نوحاً عليه السلام من قومه، فروي أَنه لما أُوحي إِليه ذلك دعا فقال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦].

وتَبْتَئِسْ من البؤس تَفْتعل، ومعناه: لا تحزن نفسك، ومنه قول الشاعر، وهو لبيد ابن ربيعة:

[مجزوء الكامل] فِـي مَـأْتَـمٍ كَـنِـعَـاجِ صَـا ... رَةَ يَـبْـتَـئِـسْـنَ بِـمَـا لَـقِـينَا[٣]

صَارَةُ: موضع.

قال القاضي أبو محمد: وفي أَمر نوح عليه السلام تدافُعٌ في ظاهر الآيات والأَحاديث ينبغي أَن نخلص[٤] القول فيه، وذلك أَن ظاهر أَمره أَنه عليه السلام دعا على الكافرين عامة من جميع الأُمم، ولم يخص قومه دون غيرهم، وتظاهرت الروايات وكتب التفاسير بأَن الغرق نال جميع أَهل الأَرض، وعمَّ الماءُ جميعها، قاله ابن عباس وغيره[٥].

---

(١) وهي شاذة، عزا له كسر الهمزة في الشواذ للكرماني (ص: ٢٣٥)، وفتح الحاء في البحر المحيط (٦/ ١٤٨)، وفي المطبوع: «قال».

(٢) ضعيف، هذا الأثر أخرجه الطبري (١٢/ ٣٩٦) من طريق محمد بن إسحاق، عن من لا يتهم، عن عبيد بن عمير، بنحوه.

(٣) البيت للبيد كما في تفسير الطبري (١٥/ ٣٠٧)، وتهذيب اللغة (١٣/ ٧٣).

(٤) في المطبوع ونور العثمانية: «نلخص».

(٥) ضعيف، أخرج الطبري (١٢/ ٣٩٨) من طريق علي بن زيد بن جدعان، عن يوسف بن مهران، عن ابن عباس رضي الله عنه، فذكر خبراً طويلاً فيه هذا المعنى، وعلي بن زيد ضعيف.

ويوجب ذلك أَمرُ نوح بحمل الأَزواج من الحيوان، ولولا خوف فناءِ أَجناسها من جميع الأَرض ما كان ذلك، فلا يتفق لنا أَن نقول: إِنه لم يكن في الأَرض غير قوم نوح في ذلك الوقت، لأَنه يجب أَن يكون نوح بعث إِلى جميع الناس، وقد صح أَن هذه الفضيلة خاصة لمحمد ﷺ بقوله: «أُوتيت خمْساً لَمْ يُؤْتَهُنَّ أَحدٌ قبلي»[١]، فلا بدَّ أَن نقدر[٢] كثيراً من الأُمم كان في ذلك الوقت، وإِذا كان ذلك فكيف استحقوا العقوبة في جمعهم ونوح عليه السلام لم يبعث إلى كلهم؟ وكنَّا[٣] نقدّر هنا أَن الله تعالى قد بعث إِليهم رسلاً قبل نوح فكفروا بهم واستمر كفرهم، لولا أَنَّا نجد الحديث ينطق بأَن نوحاً هو أَول الرسل إِلى أَهل الأَرض[٤]، ولا يمكن أَن نقول: عُذبوا دون رسالة، ونحن نجد في القرآن: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦].

والتأْويل المخلِّص من هذا كله هو أَن نقول: إِن نوحاً عليه السلام هو أَول رسول بعث إِلى كفارٍ من أهل الأَرض ليصلح الخلق ويبالغ في التبليغ ويتحمل المشقة من الناس ـ بحسب ما ثبت في الحديث ـ ثم نقول: إِنه بُعث إِلى قومه خاصة بالتبليغ والدعاء والتنبيه، وبقي أُمم في الأَرض كثير لم يكلف القول لهم، فتصح الخاصة لمحمد ﷺ.

ثم نقول: إِن الأُمم التي لم يُبعث ليخاطبها إِذا كانت بحال كفر وعبادة أَوثان، وكانت الأَدلة على الله تعالى منصوبة معرضة للنظر، وكانوا متمكنين[٥] من النظر من جهة إِدراكهم، وكان الشرع ببعث نوح موجوداً مستقرّاً، فقد وجب عليهم النظر، وصاروا بتركه بحالِ مَن يجب تعذيبه، فإِن هذا رسول مبعوث وإِن كان لم يبعث إِليهم معينين.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٣٨)، ومسلم (٥٢١) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

(٢) من المطبوع، وفي الأصل ونور العثمانية والأسدية٢: «نقرر».

(٣) في أحمد٣: «ولكنا»، وفي التركية: «وكما».

(٤) متفق عليه، هذا الحديث أخرجه البخاري (٤٤٧٦)، ومسلم (١٩٢) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٥) في الأسدية٢: «ممكنين».

أَلا ترى أَن لفظ الآية إِنما هو: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾، أَي: حتى نوجده، لأن بعثة الأنبياءِ إِلى قوم مخصوصين إِنما هو في معنى القتال والشدة، / وأَما [٣/ ٣٤] من جهة بذل النصيحة وقبول من آمن فالناسُ أَجمع في ذلك سواءٌ، ونوح عليه السلام قد لبث أَلف سنة إِلا خمسين عاماً يدعو إِلى الله، فغير ممكن أَن لم تبلغ نبوءته للقريب والبعيد، ويجيءُ تعذيب الكل بالغرق بعد بعثة رسول وهو نوح ﷺ، ولا يعارضنا مع هذه التأْويلات شيءٌ من الحديث ولا الآيات، والله الموفق للصواب.

وقوله تعالى: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ﴾ عطف على قوله: ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ﴾، والفُلْك: السفينة، وجمعها أَيضاً فُلْك، وليس هو لفظاً للواحد والجمع، وإِنما هو فُعْل وجمع على فُعْل، ومن حيث جاز أَن يُجمع فَعَلٌ على فُعْلٍ كأَسد وأُسْد جاز أَن يجمع فُعْلٌ على فُعْلٍ، فظاهر لفظ الجمع فيها كظاهر لفظ الواحد وليس به، تدل على ذلك درجة التثنية التي بينهما، لأَنك تقول: فُلْك وفُلْكان وفُلْك، فالحركة في الجمع نظير ضمة الصاد إذا ناديت: يا منصُو، تريد: يا منصور، فرخمت على لغة من يقول: يا حارُ بالضم، فإِن ضمة الصاد هي في اللفظ كضمة الأَصل، وليست بها في الحكم.

وقوله: ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ يمكن فيما يُتأَول أَن يريد به: بمرأَى مِنَّا وتحت إِدراك، فتكون عبارة عن الإِدراك والرعاية والحفظ، ويكون جمع الأَعين للعظمة لا للتكثير، كما قال تعالى: ﴿فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ﴾ [المرسلات: ٢٣]، فرجع معنى الأَعين في هذه وفي غيرها إلى معنى عَيْن في قوله: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾ [طه: ٣٩]، وذلك كله عبارة عن الإِدراك وإِحاطته بالمدركات، وهو تبارك وتعالى مُنَزَّه عن الحواسّ والتشبيه والتكييف لا رَبّ غيره.

ويحتمل قوله: ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ أَي: بملائكتنا الذين جعلناهم عيوناً على مواضع حفظك ومعونتك، فيكون الجمع على هذا[1] للتكثير.

وقرأَ طلحة بن مصرف: (بِأَعْيُنَّا) مدغماً[2].

---

(١) في نجيبويه زيادة: «التأويل».

(٢) وهي شاذة، انظر البحر المحيط (٦/ ١٤٩).

وقوله: ﴿وَوَحْيِنَا﴾ معناه: وتعليمنا لك صورة العمل بالوحي، وروي في ذلك أَن نوحاً عليه السلام لما جهل كيفية صنع السفينة أَوحى الله إِليه أَن اصنعها على مثال جؤجؤ الطير[١]، إِلى غير ذلك مما عُلِّمه نوح من عملها، فقد روي أَيضاً أَنها كانت مربعة الشكل طويلة في السماء ضيقة الأَعلى، وأَن الغرض منها إِنما كان الحفظ لا سرعة الجري.

والحديث الذي تضمن أَنها كجؤجؤ الطائر أَصح ومعناه أَظهر، لأَنها لو كانت مربعة لم تكن فُلْكاً، بل كانت وعاءً فقط، وقد وصفها الله تعالى بالجري في الموج[٢].

وفي الحديث: «كان رَازُ سفينة نوح عليه السلام جبريل عليه السلام»[٣].

والرّاز: القَيِّم بعمل[٤] السفن.

ومن فسّر قوله: ﴿وَوَحْيِنَا﴾ أَي: بِأَمرنا لك، فذلك ضعيف، لأَن قوله: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ﴾ مُغْنٍ عن ذلك.

و﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ هم قومه الذين أَعرضوا عن الهداية حتى عمَّتهم النقمة.

قال ابن جريج: «وهذه الآية تقدم الله فيها إِلى نوح أَلَّا يشفع فيهم»[٥].

قوله عز وجل: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾﴾.

التقدير: فشرع يصنع، فحكيت حال الاستقبال إِذ في خلالها وقع مرورهم، قال ابن

---

(١) أي: صدره، وهذه الرواية أخرجها الطبري (١٥/ ٣٠٨) بإسناده إلى العوفي عن ابن عباس من قوله.

(٢) في الأصل والمطبوع: «في البحر».

(٣) ذكره ابن الجوزي في غريب الحديث (١/ ٤٢٠) ولم أقف له على سند.

(٤) في المطبوع: «يعمل».

(٥) انظر: تفسير الطبري (١٥/ ٣٠٩).

عباس: صنع نوح الفلك ببقاع[١] دمشق، وأخذ عودَها من لبنان[٢]، وعودُها من الشمشاد وهو البقص[٣]، ورُوي أَن عودها من الساج، وأَن نوحاً عليه السلام اغترسه حتى كبر في أَربعين سنة، ورُوي أَن طول السفينة أَلف ذراع ومئتان، وعرضها ست مئة ذراع، ذكره الحسن بن أَبي الحسن، وقيل: طولها ثلاث مئة ذراع وعرضها خمسون ذراعاً وطولها في السماءِ ثلاثون ذراعاً، ذكره قتادة[٤]، ورُوي غير هذا مما لم يثبت فاختصرت ذكره.

وذكر الطبري حديث إِحياءِ عيسى بن مريم لِسام بن نوح وسؤاله إِياه عن أَمر السفينة، فذكر أَنها ثلاث طبقات: طبقة للناس، وطبقة للبهائم، وطبقة للطير، إلى غير ذلك في حديث طويل[٥].

والمَـلأُ هنا: الجماعة، و﴿سَخِرُواْ﴾ معناه: استجهلوه، وهذا الاستجهال إِن كان الأَمر كما ذكر أَنهم لم يكونوا قبْلُ رأَوا سفينة ولا كانت، فوجه الاستجهال واضح، وبذلك تظاهرت التفاسير، وإِن كانت السفائن حينئذ معروفة فاستجهلوه في أَن صَنَعَها في قرية[٦] لا قرب لها من البحر، ورُوي أَنهم كانوا يقولون له: صرتَ نجاراً بعد النبوة؟.

وقوله: ﴿فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ﴾ قال الطبري: «يريد: في الآخرة»[٧].

قال القاضي أبو محمد: ويحتمل الكلام ـ بل هو الأَرجح ـ أَن يريد: إِنا نسخر منكم

---

(١) في الأصل والمطبوع: «بيفاع»، واليفاع: المرتفع من كل شيء.
(٢) لم أقف عليه مسنداً.
(٣) لعلها البقس، ففي تاج العروس (١٥/ ٤٦١): البقس ـ ويقال بقسيس، وبقبيس ـ: شجر كالآس ورقاً وحبّاً، أو هو شجر الشمشاذ، منابته بلاد الروم، تتخذ منه المغالق والأبواب، لمتانته وصلابته.
(٤) انظرهما في تفسير الطبري (١٥/ ٣١١).
(٥) ضعيف، هذا الأثر أخرجه الطبري (١٥/ ٣١٤) من طريق علي بن زيد بن جدعان، عن يوسف بن مهران، عن ابن عباس رضي الله عنه، وفيه أن عيسى أحيا حام بن نوح عليه السلام، وعلي بن زيد ضعيف.
(٦) في المصرية والتركية: «برية»، وفي نجيبويه: «موضع».
(٧) تفسير الطبري (١٥/ ٣١٠).

الآن، أَي: نستجهلكم لعلمنا بما أَنتم عليه من الغَرَر مع الله تعالى والكون بمدرج عذابه.

ثم جاءَ قوله: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ تهديداً.

والسَّخرُ[(١)]: الاستجهال مع استهزاءٍ، ومصدره: سُخْرِيّ بضم السين، والمصدر من السُّخَرة والتَّسَخُّر: سِخْرِيّ بكسرها.

والعذاب المخزي هو الغَرق، والمقيم هو عذاب الآخرة.

وحكى الزهراوي أَنه يُقرأُ: (ويحُلُّ) [بضم الحاء][(٢)]، ويُقرأُ: ﴿وَيَحِلُّ﴾ بكسرها بمعنى: ويجب.

و﴿مَن﴾ في موضع نصب بـ﴿تَعْلَمُونَ﴾، وجائز أَن يكون ﴿تَعْلَمُونَ﴾ بمثابة تعرفون في التعدي إِلى مفعول واحد، وجائز أَن تكون التعدية إِلى مفعولين واقتصر على الواحد.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ الآية، الأَمْر ها هنا يحتمل أَن يكون واحد الأُمور، ويحتمل أَن يكون مصدر أَمَرَ، فمعناه: أَمْرُنا للماءِ بالفوران، أَو للسّحاب بالإِرسال، أَو للملائكة بالتصرف في ذلك، ونحو هذا مما يقدر في النازلة.

و﴿وَفَارَ﴾ معناه: انبعث بقوة، واختلف الناس في ﴿ٱلتَّنُّورُ﴾ فقالت فرقة وهي الأَكثر ـ منهم ابن عباس، ومجاهد، وغيرهما ـ: هو تنور الخبز الذي يوقد فيه[(٣)].

وقالت فرقة: كانت هذه أَمارةً جعلها الله لنوح، أَي: إِذا فار التَّـنُّور فاركب في السفينة، ويشبه أَن يكون وجه الأَمارة أَن مستوقَدَ النار إِذا فار بالماءِ فغَيْرُه أَشَدُّ فوراناً وأَحرى بذلك، ورُوي أَنه كان تَنُّور آدم خَلَص إِلى نوح فكان يوقد فيه، وقال النقاش:

---

(١) في أحمد٣: «السخرية»، وفي نجيبويه: «السخر والسِّخَر».

(٢) زيادة من التركية والأسدية١ وأحمد٣، وهي شاذة، نقلها عنه في البحر المحيط (٦/ ١٥١)، ولم أجدها هنا معزوة لأحد.

(٣) تفسير الطبري (١٥/ ٣٢٠)، وتفسير الماوردي (٢/ ٤٧٢)، ومعاني القرآن للنحاس (٣/ ٣٤٨).

اسم المستوقَد التَّنُّور بكل لغة، وذكر نحو ذلك ابن قتيبة في «الأَدب» عن ابن عباس[(١)].

قال القاضي أبو محمد: وهذا بعيد.

وقيل: إِن موضع تنُّور نوح عليه السلام كان بالهند، وقيل: كان في موضع مسجد الكوفة، وقيل: «كان في ناحية الكوفة»، قاله الشعبي ومجاهد[(٢)].

[٣/ ٣٥] وقيل: كان في الجهة الغربية / من قبلة المسجد بالكوفة.

وقال ابن عباس[(٣)]، وعكرمة: «التَّـنُّور: وجه الأرض»[(٤)]، ويقال له: تنُّور الأرض.

وقال قتادة: «التَّـنُّور: أَعالي الأَرض»[(٥)]، وقالت فرقة: التَّـنُّور: عين بناحية الجزيرة.

وقال الحسن بن أَبي الحسن: «التَّـنُّور: مجتمع ماءِ السفينة فار منه الماءُ وهي بعدُ في اليبس»[(٦)].

وقالت فرقة: التَّـنُّور هو الفجر، المعنى: إِذا طلع الفجر فاركب في السفينة، وهذا قولٌ روي عن علي بن أَبي طالب رضي الله عنه[(٧)]، إِلّا أَن التصريف يضعفه، وكان يلزم أَن يكون التنوُّر[(٨)].

---

(١) أدب الكاتب (ص: ٤٩٦) قال: وروي عن ابن عباس أنه قال: «التَّنُّور» بكل لسان عربيّ وعجميّ.

(٢) انظر تفسير الطبري (١٥/ ٣٢٠-٣٢١)، ومعاني القرآن للنحاس (٣/ ٣٤٨)، وتفسير ابن أبي حاتم (٦/ ٢٠٢٨).

(٣) ضعيف للانقطاع بين الضحاك وابن عباس، هذا الأثر أخرجه سعيد بن منصور في تفسيره (١٠٨٨) عن هشيم، وابن جرير (١٨١٤٣)، وابن أبي حاتم (١٠٨٥٨) من طريق هشيم، عن العوام بن حوشب عن الضحاك بن مزاحم، عن ابن عباس فذكره.

(٤) تفسير الطبري (١٥/ ٣١٨)، وتفسير ابن أبي حاتم (٦/ ٢٠٢٩).

(٥) تفسير الطبري (١٥/ ٣١٩)، وتفسير ابن ابي حاتم (٦/ ٢٠٢٩).

(٦) تفسير ابن أبي زمنين (١/ ٢٨٧).

(٧) ضعيف، هذا الأثر أخرجه الطبري (١١/ ٤٠٢-٤٠٣) من طريق محمد بن فضيل بن غزوان، عن عبد الرحمن بن إسحاق بن الحارث ـ أبي شيبة ـ الواسطي، عن زياد مولى أبي جحيفة، عن أبي جحيفة، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، به، وعبد الرحمن بن إسحاق ضعيف، وزياد بن زيد السوائي مولى أبي جحيفة مجهول.

(٨) يمكن ضبطها هكذا على مصدر تفعّل، وفي المطبوع: تنوير، قال في حاشيته: «في جميع النسخ =

وقالت فرقة: الكلام مجاز، وإنما أراد غلبة الماءِ وظهور العذاب، كما قال النبي ﷺ لشدة الحرب: «حمي الوطيس»[(١)]، والوَطيسُ أَيضاً مستوقد النار، فلا فرق بين حَمِيَ وفَار، إِذ يستعملان في النار، قال الله تعالى: ﴿سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ﴾ [الملك: ٧]، فلا فرق بين الوطيس والتَّنُّور.

وقرأَ حفص عن عاصم: ﴿مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ بتنوين ﴿كُلٍّ﴾.

وقرأَ الباقون: ﴿مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ﴾ بإِضافة ﴿كُل﴾ إِلى ﴿زَوْجَيْن﴾[(٢)]، فمن قرأَ بالتنوين حذف المضاف إِليه، التقدير: من كلِّ حيوانٍ أَو نحوه، وأعمل الحَمْلَ في ﴿زَوْجَيْنِ﴾، وجاءَ قوله: ﴿ٱثْنَيْنِ﴾ تأْكيداً، كما قال: ﴿إِلَـٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ [النحل: ٥١].

ومن قرأَ بالإِضافة فأَعمل الحَمْلَ في قوله: ﴿ٱثْنَيْنِ﴾، وجاءَ قوله: ﴿زَوْجَيْنِ﴾، بمعنى العموم، أَي: من كلِّ ما له ازدواجٌ، هذا معنى قوله: ﴿من كلِّ زوجين﴾، قاله أَبو علي وغيره[(٣)].

ولو قدرنا المعنى: احمل من كلِّ زوجين حاصلين اثنين، لوجب أَن يحمل من كل نوع أَربعة. والزوج يقال: في مشهور كلام العرب للواحد مما له ازدواج، فيقال: هذا زوج هذا، وهما زوجان، وهذا هو المهيع في القرآن في قوله تعالى: ﴿ثَمَـٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الأنعام: ١٤٣]، [الزمر: ٦]، ثم فسَّرها، وكذلك هو في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ﴾ [النجم: ٤٥].

= التَّـنُّور، والمعنى المراد لا يستقيم بها إذ لا فرق بينها وبين الكلمة الموجودة فعلاً، وفي أصل الحديث الذي رواه الطبري عن أبي جُحيفة عن عليّ قال: هو تنوير الصبح».

(١) هذا الحديث أخرجه مسلم (١٧٧٥) في غزوة حنيـن من حديث العباس بن عبد المطلب عم النبي ﷺ.

(٢) فهما سبعيتان، انظر التيسير (ص: ١٢٤).

(٣) الحجة للفارسي (٤/ ٣٢٥).

قال أَبو الحسن الأَخفش في كتاب «الحجة»: وقد يقال في كلام العرب للاثنين: زَوْجٌ[(١)]، ومن ذلك قول لبيد:

[الكامل]
مِـنْ كُلِّ مَحْفُـوفٍ يُظِـلُّ عِصِيَّـهُ زَوْجٌ عليـه كِلَّـةٌ وقِـرَامُـهَـا[(٢)]

وهكذا يأْخذ العدديون، والزوج أَيضاً في كلام العرب: النوع، كقوله تعالى: ﴿وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ﴾ [ق: ٧]، وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا﴾ [يس: ٣٦]، إلى غير ذلك.

وروي في قَصَص هذه الآية: أَن نوحاً عليه السلام كان يأْتيه الحيوان فيضع يمينه على الذكر ويساره على الأُنثى، وروي أَن أَول ما دخل في السفينة الذَّرّ، وآخر ما دخل الحمار، فتمسك الشيطان بذنبه، فزجره نوح عليه السلام فلم ينبعث، فقال له: ادخل ولو كان معك الشيطان، قال ابن عباس: زلت هذه الكلمة على لسانه، فدخل الشيطان حينئذ[(٣)]، وكان في كوثل السفينة ـ أَي: عند مؤخرها ـ وقيل: كان على ظهرها.

ورُوي أَن نوحاً عليه السلام آذاه نتن الزبل والعذرة، فأَوحى الله إِليه أَن امسح على ذنب الفيل ففعل، فخرج من الفيل ـ وقيل: من أَنفه ـ خنزير وخنزيرة، فكفيا نوحاً وأَهله ذلك الأَذى[(٤)]، وهذا يجيءُ منه أَن نوع الخنازير لم يكن قبل ذلك.

ورُوي أَن الفأْر آذى الناس في السفينة بقرض حبالها وغير ذلك، فأَمر الله نوحاً أَن

---

(١) غير متوفر، وذكر نحوه في معاني القرآن للأخفش (١/ ١٤٨)، ولفظه: وقد يقال أيضاً «هُما زَوْجٌ» للاثنين، ثم استشهد بالبيت.

(٢) انظر عزوه للبيد في جمهرة أشعار العرب (ص: ٢٤٢)، ومعاني القرآن للأخفش (١/ ٣١٥)، وإصلاح المنطق (ص: ٢٣٥)، والشعر والشعراء (١/ ٢٧٤)، والمحفوف: الهودج، والكِلَّة: الستر الرقيق المثقب الذي يتقى به من البعوض، والقِرَامُ: السّتْر يكون فيه نقوش.

(٣) ضعيف، هذا الأثر أخرجه الطبري بنفس الإسناد الذي فيه علي بن زيد بن جدعان، وقد مر قريباً.

(٤) ضعيف، بنفس الإسناد السابق.

يمسح على جبهة الأَسد ففعل، فعطس فخرج منه هرٌّ وهرَّة، فكفياهم الفأْر[١]، وروي أَيضاً أَن الفأْر خرج من أَنف الخنزير.

قال القاضي أبو محمد: وهذا كله قصص لا يصح إِلا لو استند، والله أعلم كيف كان.

وقوله: ﴿وَأَهْلَكَ﴾ عطف على ما عمل فيه ﴿ٱحْمِلْ﴾، والأهل هنا: القرابة[٢]، وبشرط من آمن منهم خُصصوا تشريفاً، ثم ذكر مَنْ آمَنَ وليس من الأَهل.

واختلف في الذي ﴿سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾ فقيل: هو ابنه يام، وقال النقاش: اسمه كنعان، وقيل: هي امرأَته والعة، هكذا اسمها بالعين غير منقوطة، وقيل: هو عموم فيمن لم يؤمن من أَهل نوح وعشيرته، و﴿ٱلْقَوْلُ﴾ ها هنا معناه: القول بأَن يعذب.

وقوله: ﴿وَمَنْ ءَامَنَ﴾ عطف على قوله: ﴿وَأَهْلَكَ﴾.

ثم قال إِخباراً عن حالهم: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ واختلف في ذلك القليل: فقيل: كانوا ثمانين رجلاً وثمانين امرأَة، وقيل: كان جميعهم ثلاثة وثمانين، وقيل: «كانوا ثمانين في الكل»، قاله السُّدي[٣]، وقيل: عشرة، وقيل: ثمانية، قاله قتادة[٤]، وقيل: سبعة، والله أَعلم.

وقيل: كان في السفينة جُرْهُم، وقيل: لم ينج من الغرق أَحد إِلا عوج بن عنق، وكان في السفينة مع نوح عليه السلام ثلاثة من بنيه: سام، وحام، ويافث، وغرق يام.

ورُوي عن النبي ﷺ أنه قال: «سام أَبو العرب، ويافث أَبو الروم، وحام أَبو الحبش»[٥].

---

(١) ضعيف، مثله.

(٢) في المطبوع: «القاربة».

(٣) تفسير ابن أبي زمنين (١/ ٢٨٨).

(٤) تفسير الطبري (١٥/ ٣٢٥)، وتفسير ابن أبي زمنين (١/ ٢٨٨).

(٥) ضعيف، هذا الحديث أخرجه ابن سعد في الطبقات (١/ ٤٢)، وأحمد في مسنده (٥/ ٩-١٠)، والترمذي (٣٢٣١-٣٩٣١)، والبزار في مسنده (٤٥٥٠)، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٠٨٧٦)، =

قوله عز وجل: ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

المعنى: وقال نوح حين أُمر بالحمل في السفينة لمن آمن معه: ﴿ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا﴾، فأَنَّث الضمير إِذ هي سفينة، لأَن الفُلْك المذكور مذكَّر.

وفي مصحف أُبَـي: (على اسْم الله)[١].

وقوله: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ يصحُّ أَن يكون في موضع الحال من الضمير الذي في قوله: ﴿ٱرْكَبُوا۟﴾، كما تقول: خرج زيد بثيابه وبسلاحه، أَي: اركبوا متبرِّكين بالله تعالى، ويكون قوله: ﴿مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ ظرفين، أَي: وقْتَ إِجرائها وإِرسائها، كما تقول العرب: «الحمد لله سِرَارَك وإِهْلالَك[٢]، وخفوقَ النجم، ومقدمَ الحاج، فهذه ظرفية زمان، والعامل في هذا الظرف ما في قوله: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ من معنى الفعل.

ويصح أَن يكون قوله: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ في موضع خبر، و﴿مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ ابتداءٌ مصدران، كأَنه قال: اركبوا فيها فإِن ببركة الله إِجراءَها وإِرساءَها، وتكون هذه الجملة على هذا في موضع حال من الضمير في قوله: ﴿فِيهَا﴾[٣]، ولا يصح أَن يكون حالاً من الضمير في قوله: ﴿ٱرْكَبُوا۟﴾[٤] لأَنه لا عائد في الجملة يعود عليه، وعلى هذا التأْويل قال الضحاك: «إِن نوحاً كان إِذا أَراد جري السفينة قال: «بِسْمِ الله» فتجري، وإِذا أَراد وقوفها قال: «بِسْمِ الله» فتقف»[٥].

= والطبراني في الكبير (٦٨٧١ـ ٦٢٧٢) وغيرهم من طريق الحسن البصري، عن سمرة بن جندب، مرفوعاً به، والحسن البصري لم يسمع من سمرة غير حديث العقيقة، على الراجح.

(١) وهي شاذة مخالفة للرسم، ولم أقف عليها.

(٢) ضبطا في المطبوع بالرفع، ورأينا أن النصب أظهر للظرفية، والله أعلم.

(٣) في النسخ: «اركبوا فيها»، والصواب المثبت. انظر: البحر المحيط (٦/ ١٥٥).

(٤) في النسخ: «بسم الله»، والصواب المثبت. انظر المصدر السابق.

(٥) انظر تفسير الطبري (١٥/ ٣٣٠)، تفسير الثعلبي (٥/ ١٧١).

وقرأَ ابن كثير، ونافع، وأَبو عمرو، وعاصم في رواية أَبي بكر، وابنُ عامر: ﴿مُجراها ومُرْساها﴾ بضم الميمين على معنى: إِجرائها وإِرسائها، وهي قراءة مجاهد، وأَبي رجاءٍ، والحسن، والأَعرج، وشيبة، وجمهور الناس، ومنه قول لبيد:

وَعمرتُ حَرْساً قَبْلَ مُجْرَى داحِسٍ   لـوْ كان لِلنَّفْسِ اللَّجُوج خُلُود[1]   [الكامل]

وقرأَ حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم: ﴿مَجْرِبْهَا﴾ بفتح الميم وكسر الراءِ، وكلهم ضمَّ الميم من ﴿مُرْسَاهَا﴾[2].

وقرأَ الأعمش، وابن مسعود: (مَجْراها ومَرْساها) بفتح الميمين[3]، وذلك من الجري والرسوّ، وهذه ظرفية مكان، ومن ذلك قول عنترة:

فَصَبَرْتُ نفساً عنْدَ ذَلِكَ حُرَّةً   تَرْسُو إِذَا نَفْسُ الْجَبَانِ تَطَلَّعُ[4]   [الكامل]

/ واختار الطبري قراءَة ﴿مَجْرِبْهَا﴾ بفتح الميم الأُولى وضمّ الثانية، ورجحها بقوله تعالى: ﴿وَهِىَ تَجْرِى﴾ ولم يقرأْ أَحد: «تُجْرى»[5]، وهي قراءَة ابن مسعود أَيضاً، رواها عنه أَبو وائل، ومسروق[6]. [٣/ ٣٦]

وقرأَ ابن وثاب، وأَبو رجاءٍ العطاردي، والنَّخَعي، والجحدري، والكلبيّ، والضحاك

---

(١) انظر عزوه له في جمهرة أشعار العرب (ص: ٨٥)، والعين (٧/ ٢٣٩)، ومجاز القرآن (١/ ٢٨٩)، وإصلاح المنطق (ص: ١٥).

(٢) فهما سبعيتان، ويعني بالكسر الإمالة الكبرى، انظر التيسير (ص: ١٢٤)، السبعة لابن مجاهد (ص: ٣٣٣).

(٣) وهي شاذة، انظر عزوها للأعمش في إعراب القرآن للنحاس (٢/ ١٦٩)، الشواذ للكرماني (ص: ٢٣٥)، وزاد آخرين.

(٤) انظر عزوه له في تفسير الطبري (١٥/ ٣٢٩)، وغريب الحديث لابن سلام (١/ ٢٥٥)، وتهذيب اللغة (٢/ ٢٠٧).

(٥) تفسير الطبري (١٥/ ٣٢٩).

(٦) انظر: معاني القرآن للفراء (٢/ ١٤).

ابن مُزاحم، ومسلم بن جُندب، وأَهل الشام: (مُجْرِيهَا ومُرْسِيهَا)[١]، وهما على هذه القراءَة صفتان لله تعالى عائدتان على ما ذكره في قوله ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾.

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ تنبيه لهم على قَدْر نعم الله عليهم، ورحمته لهم، وستره عليهم، وغفرانه ذنوبهم بتوبتهم وإِنابتهم.

وقوله تعالى: ﴿وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ﴾ الآية، رُوي أَن السماءَ أَمطرت بأَجمعها حتى لم يكن في الهواءِ جانب لا مطر فيه، وتفجرت الأَرض كلها بالنبع، فهكذا كان التقاءُ الماءِ.

ورُوي أَن الماءَ علاَ على الجبال وأَعالي الأَرض أَربعين ذراعاً، وقيل: خمسة عشر ذراعاً.

وأَشار الزجاج وغيره إِلى أَن الماءَ انطبق، ماءُ الأَرض وماءُ السماءِ، فصار الكل كالبحر[٢].

قال القاضي أبو محمد: وهذا ضعيف، وأَين كان الموج كالجبال على هذا؟ وكيف استقامت حياة من في السفينة على هذا؟.

وقرأَت فرقة: ﴿ٱبۡنَهُۥ﴾[٣] على إِضافة الابن إِلى نُوحٍ، وهذا قول من يقول: هو ابنه لصلبه.

وقد قال قوم: إِنه ابن قريب له، ودعاه بالبنوة حناناً منه وتلطفاً.

وقرأَ ابن عباس: (ابْنَهْ) بسكون الهاءِ، وهذا على لغةٍ لأَزْد السَّرَاةِ، ومنه قول الشاعر:

---

(١) وهي شاذة، انظر عزوها لبعضهم ولغيرهم في إعراب القرآن للنحاس (٢/ ١٦٩)، وتفسير الثعلبي (٥/ ١٧٠)، ومختصر الشواذ (ص: ٦٤)، والشواذ للكرماني (ص: ٢٣٥)، ولأكثرهم في البحر المحيط (٦/ ١٥٦).

(٢) معاني القرآن للزجاج (٣/ ٥٣).

(٣) هذه هي القراءة المتواترة بضم الهاء، مع فتح النون، وفيها أربع قراءات شاذة، كلها منقولة من المحتسب (١/ ٣٢٢) مع التوجيه.

[الطويل] .... ومِطْـوَايَ مُشْـتَاقَانِ لَـهُ أَرِقَانِ[١]

وقرأ السُّدِّي: (ابْنَاهْ) قال أَبو الفتح: ذلك على النداءِ، وذهبت فرقة إِلى أَن ذلك على جهة النُّدْبة مَحْكيَّـةً.

وقرأ عروة بن الزبير، [وعليّ بن أَبي طالب: (ابْنَها)، وتأَوَّلوا ذلك على أَنه دعا ابن امرأَته الكافرة إِذْ قد تقدم ذكرها في قوله: ﴿وَأَهْلَكَ﴾، وعلى هذه القراءَة يدخل تأْويل من قال: كانت خائنة فيه، وسيأْتي ذكر هذا بعد.

وقرأ علي بن أَبي طالب، وعروة بن الزبير][٢] أَيضاً، وأَبو جعفر، وجعفر بن محمد: (ابْنَهَ)، على تقدير: ابْنَهَا، فحذفت الأَلف تخفيفاً، وهي لغة، ومنها قول الشاعر:

[البسيط] إِمَّـا تَـقُـودُ بـه شـاةً فَـتـأْكُـلها أَوْ أَنْ تَبِيعَهَ في بعْضِ الأَرَاكِيبِ[٣]

وأَنشد ابن الأَعرابي على هذا:

[الوافر] فَلَسْـتُ بِمُـدْرِكٍ مـا فَـاتَ مِنِّـي بِلَهْـفَ ولاَ بِلَيْـتَ ولاَ لَـوَ انِّي[٤]

يريد: بِلَهْفَا[٥].

قال القاضي أبو محمد: وخطَّـأَ النحاس أَبا حاتم في حذف هذه الأَلف[٦]، وليس كما قال.

---

(١) وصدره: فَظَلْتُ لَدَى البَيْتِ العَتيقِ أُخِيلُهُ، وهو بلا نسبة في معاني القرآن للأخفش (١/ ٢٨)، والمقتضب (١/ ٣٩)، وفي الأصول في النحو (٣/ ٤٦١) أنه لرجل من أزْد السَّرَاة، وفي الأغاني (٢٢/ ١٥٢) أنه ليعْلَى بن الأحول اليشكري، وفي النسخ الخطية: «ونضواي».

(٢) ساقط من الأصل.

(٣) أنشده في سر صناعة الإعراب (٢/ ٣٥٨)، والعمدة في محاسن الشعر وآدابه (٢/ ٢٧٠)، عن قطرب وابن الأعرابي بلا نسبة.

(٤) أنشده في الحجة للفارسي (٤/ ٩٢)، المحتسب (١/ ٢٧٧)، وغيرهما بلا نسبة.

(٥) أي: بأن أقول: «والهفا». المحكم (٤/ ٣٢٠).

(٦) إعراب القرآن للنحاس (٢/ ١٦٩).

وقرأ وكيع بن الجراح: (وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ) بضم التنوين، وقال أَبو حاتم: هي لغة سوءٍ لا تعرف[١].

وقوله: ﴿فِي مَعْزِلٍ﴾، أَي: في ناحية، فيمكن أَن يريد: في معزل في الدين، ويمكن أَن يريد: في معزل في بُعْده عن السفينة، واللفظ يعمهما.

وقال مكي في «المشكل»: ومن قال: ﴿مَعْزِلٍ﴾ بكسر الزاي أَراد الموضع، ومن قال: «مَعزَل» بفتحها أَراد المصدر[٢]، فلم يصرح بأنها قراءَة، ولكن يقتضي ذلك لفْظُه.

وقرأَ السبعة: ﴿يا بُنَيِّ﴾ بكسر الياءِ المشددة، وهي ثلاث ياءَات:

أُولاها: ياءُ التصغير، وحقها السكون.

والثانية: لام الفعل، وحقها أَن تكسر بحسب ياءِ الإِضافة، إِذ ما قبل ياءِ الإِضافة مكسور.

والثالثة: ياءُ الإِضافة، فحذفت ياءُ الإِضافة إِما لسكونها وسكون الراءِ، وإِما إِذ هي بمثابة التنوين في الأَعلام وهو يحذف في النداءِ، فكذلك ياءُ الإِضافة، والحذف فيها كثير في كلام العرب، تقول: يا غلامِ، ويا عبيدِ، وتُبقي الكسرة دالة، ثم أُدغمت الياءُ الساكنة في الياءِ المكسورة.

وقد رَوى أَبو بكر وحفصٌ عن عاصم أَيضاً: ﴿يَٰبُنَيَّ﴾ بفتح الياءِ المشددة، وذكر أَبو حاتم أَن المفضل رواها عن عاصم[٣]، ولذلك وجهان:

أَحدهما: أَن يبدل من ياءِ الإِضافة أَلفاً، وهي لغة مشهورة، تقول: يا غلامَا،

---

(١) من المعلوم أن التنوين نون زائدة ساكنة، وهنا حركت بالكسر منعاً لالتقاء الساكنين، وأما وكيع فقد حركها بالرفع، واسترد لها أبو حاتم. وهي شاذة، انظر عزوها لوكيع وتخطئة أبي حاتم له في الدر المصون (٦/ ٣٢٨).

(٢) مشكل إعراب القرآن لمكي (١/ ٣٦٤).

(٣) انظر التيسير (ص: ١٢٤)، والسبعة (ص: ٣٣٤)، وهي من جميع طرق عاصم كما في جامع البيان (٣/ ١١٩٩).

ويا عيْنَا، فانفتحت الياءُ قبل الأَلف، ثم حذفت الأَلف استخفافاً، ولسكونها وسكون الراءِ من قوله: ﴿ٱرۡكَب﴾.

والثاني: أَن الياءَات لما اجتمعت استُثقل اجتماع المماثِلَة فخف ذلك الاستثقال بالفتح إِذ هو أَخف الحركات، هذا مذهب سيبويه، وعلى هذا حمل قوله ﷺ: «وحواريَّ الزُّبير»[1].

وروي عن ابن كثير أَنه قرأَ في سورة لقمان: ﴿يَا بُنَيْ لا تُشْرِكْ بالله﴾ بحذف ياءِ الإِضافة ويُسَكن الياءَ خفيفة، وقرأَ الثانية: ﴿يا بُنَيِّ إِنَّها﴾ كقراءَة الجماعة، وقرأَ الثالثة: ﴿يَا بُنَيْ أَقِم﴾ ساكنة كالأُولى[2].

وقوله: ﴿وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ يحتمل أَن يكون نهياً محضاً مع علمه أَنه كافر، ويحتمل أَن يكون خفي عليه كفره فناداه أَلا يبقى وهو مؤمن مع الكفرة فيهلِك بهلاكهم، والأَول أَبيَن.

قوله عز وجل: ﴿قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

ظن ابن نوح أَن ذلك المطر والماء على العادة، وقوله: ﴿لَا عَاصِمَ﴾، قيل فيه: إِنه على لفظة فاعل، وقوله: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ يريد: إِلا الله الراحم، فـ﴿مَن﴾ كناية عن اسم الله تبارك وتعالى، المعنى: لا عاصم اليوم إِلا الذي رحمنا، فـ﴿مَن﴾ في موضع رفع.

---

(١) هذا الحديث أخرجه البخاري (٢٨٤٦) عن جابر رضي الله عنه، قال: قال النبي ﷺ: «من يأتيني بخبر القوم يوم الأحزاب؟» قال الزبير: أنا، ثم قال: «من يأتيني بخبر القوم؟»، قال الزبير: أنا، فقال النبي ﷺ: «إن لكل نبي حواريا وحواري الزبير».

(٢) إشارة إلى الآيات ١٣، ١٦، ١٧ من سورة لقمان، وانظر الخلاف عن ابن كثير فيها في السبعة (ص: ٣٣٤).

وقيل: قوله: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ استثناءٌ منقطع كأَنه قال: لا عاصم اليوم موجود، لكن من رحم الله موجود، وحَسَّن هذا من جهة المعنى أَنَّ نفي العاصم يقتضي نفي المعصوم فهو حاصل بالمعنى، وأَما من جهة اللفظ فـ﴿مَن﴾ في موضع نصب على حد قول النابغة: إِلاَّ الأَوَاريَّ[1]، ولا يجوز أن تكون في موضع رفع على حَدِّ قول الشاعر:

[مخلع البسيط] وبَـلْـدةٍ لَـيْـسَ بـهـا أَنـيـس إِلَّا الْيَعَافيـرُ وإِلاَّ الْعِيسُ[2]

إِذْ هذان أَنيس ذلك الموضع القفر، والمعصوم هنا ليس بعاصم بوجه. وقيل: ﴿عَاصِمَ﴾ معناه: ذو اعتصام، فـ﴿عَاصِمَ﴾ على هذا في معنى معصوم، ويجيءُ الاستثناءُ مستقيماً، و﴿مَن﴾ في موضع رفع. و﴿ٱلْيَوْمَ﴾ ظرف، وهو متعلق بقوله: ﴿مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾، أَو بالخبر الذي تقديره: كائن اليوم، ولا يصح تعلقه بـ﴿عَاصِمَ﴾ لأَنه كان يجيءُ منوناً: لا عاصماً اليوم، يرجع إِلى أَصل النصب لئلا يرجع ثلاثة أَشياءٍ واحداً، وإِنما القانون أَن يكون الشيئان واحداً: «لا» وما عملت فيه، ومثال النحويين في هذه المسأَلة: لا أَمراً يوم الجمعة لك، فإِن أَعملت في «يَوْمَ»: لَكَ، قلتَ: لا أَمْرَ.

و﴿بَيْنَهُمَا﴾ يريد: بين نوح وابنه، فكان الابن ممن غرق.

وقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ﴾ الآية، بناءُ الفعل للمفعول أَبلغ في التعظيم والجبروت، وكذلك بناءُ الأَفعال بعد ذلك في سائر الآية.

وروي أَن أَعرابيّاً سمع هذه الآية فقال: هذا كلام القادرين[3].

والبَلْعُ هو تجرُّع الشيءِ وازدرادُه، فشبَّه قبض الأَرض للماءِ وتسَرُّبه فيها بذلك،

---

(١) البيت للنابغة وهو بتمامه: إلا الأوَارِيَّ لأياً مَّا أبَيِّـنُـهَا والنُّؤْي كالْحَوْضِ بالمظْلُومَةِ الْجَلَدِ، وقد تقدم في سورة يونس الآية: (٩٨).

(٢) البيت لِجِران العَوْد النُّمَيْري كما في شرح أبيات سيبويه (٢/ ١٣س٦)، وخزانة الأدب للبغدادي (١٠/ ١٧).

(٣) نقله السخاوي في جمال القراء وكمال الإقراء (ص: ١٢٨) عن ابن دريد.

وأُمِرت بالتشبيه، وأَضاف الماءَ إِليها إِذْ هو عليها وحاصل فيها، / والسماءُ في هذه الآية: إِما [٣/ ٣٧] السماءُ المُظِلَّة، وإِما السحاب، والإِقلاع عن الشيءِ: تركه. والمعنى: أَقلعي عن الإِمطار.

و﴿وَغِيضَ﴾ معناه: نقص، وأَكثر ما يجيءُ فيما هو بمعنى: جفوف، كقوله: ﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ﴾، وكقوله: ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾ [الرعد: ٨]، وأَكثر المفسرين على أَن ذلك في الحيض، وكذلك قول الأَسود بن يَعْفُر:

.... مَا غِيضَ مِنْ بصَرِي ومِنْ أَجْلاَدي[١] [الكامل]

وذلك أَن الإِنسان الهرم إِنما تَنَقُّصه بجُفوفٍ وقَضَافَة.

وقوله: ﴿وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ إِشارة إِلى جميع القصة: بعْث الماءِ، وإِهْلاك الأُمم، وإِنجاء أَهل السفينة، وروي أَن نوحاً عليه السلام ركب في السفينة من عين وردة بالشام أَول يوم من رجب، وقيل: في العاشر منه، وقيل: في الخامس عشر، وقيل: في السابع عشر، واستوت السفينة [على الجودي][٢] في ذي الحجة، وأَقامت على الجوديّ شهراً، وقيل له: اهبط يوم عاشوراءَ، فصامه وصامه من معه من أناس ووحوش.

وذكر الطبري عن ابن إِسحاق ما يقتضي أَنه أَقام على الماءِ نحو السنة[٣].

وذكر أَيضاً حديثاً عن النبي ﷺ: «إِن نوحاً ركب في السفينة أَول يوم من رجب، وصام الشهر أَجمع، وجرت بهم السفينة إِلى يوم عاشوراءَ، ففيه أَرست على الجوديّ فصامه نوح ومن معه»[٤].

---

(١) صدره: أما تريني قد بليت وشفني، انظر عزوه له في الكنز اللغوي (ص: ١٦٥)، وأمالي القالي (١/ ٢٥).

(٢) سقط من الأصل والمطبوع.

(٣) انظر تفسير الطبري (١٥/ ٣٣٨-٣٣٩).

(٤) تالف أخرجه الطبري (١٥/ ٣٣٥) بإسناد ساقط فيه كذاب، وروي بعض هذا الكلام من قول ابن جريج وقتادة.

ورُوي أَن نوحاً لما طال مقامه على الماء بعث الغراب ليأْتيه بخبر كمال الغرق، فوجد جيفة طافية، فبقي عليها فلم يرجع بخبر، فدعا عليه نوح فاسودّ لونه وخُوّف من الناس، فهو لذلك مستوحش، ثم بعث نوح الحمام فجاءَته بورق زيتونة في فمها ولم تجد تراباً تضع رجليها عليه، فبقي أَربعين يوماً ثم بعثها فوجدت الماءَ قد انحسر عن موضع الكعبة، وهي أَول بقعة انحسر الماءُ عنها، فمسّت الطين برجليها وجاءَته، فعلم أَن الماءَ قد أَخذ في النضوب، ودعا لها فطوِّقت وأَنِست، فهي لذلك تأْلف الناس، ثم أَوحى الله إِلى الجبال أَن السفينة ترسي على واحد منها، فتطاولت كلها وبقي الجوديّ ـ وهو جبل بالموصل في ناحية الجزيرة ـ ولم يتطاول تواضعاً لله، فاستوت السفينة بأَمر الله عليه، وبقيت عليه أَعوادها، وفي الحديث أَنَّ النبي ﷺ قال: «لقد بقي منها شيءٌ أَدركه أَوائل هذه الأُمة»[١].

وقال الزجاج: «الْجُودِيّ هو بناحية آمِد»[٢]، وقال قوم: هو عند باقِرْدَى[٣].

وروي أَن السفينة لما استقلت من عين وردة جرت حتى جاءَت الكعبة فوجدتها قد نَشَزَت من الأَرض فلم ينلها غرق، فطافت بها أُسبوعاً، ثم مضت إِلى اليمن، ورجعت إِلى الجوديّ.

قال القاضي أبو محمد: والقَصَص في هذه المعاني كثير صعب أَن يستوفى، فأَشرت منه إِلى نُبذ، ويدخله الاختلاف كما ترى في أَمر الكعبة، والله أَعلم كيف كان.

و﴿وَٱسۡتَوَتۡ﴾ معناه: تمكنت واستقرت.

وقرأَ جمهور الناس: ﴿عَلَى ٱلۡجُودِيِّ﴾ بكسر الياءِ وشدها.

---

(١) صح من قول قتادة، أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٢/ ٢٥٨)، والطبري (١٥/ ٣٣٨)، وعلقه البخاري مجزوماً به (٤٨٦٩).

(٢) معاني القرآن (٣/ ٥٥)، وآمِد: بلدٌ قديم حصين ركين مبني بالحجارة السود على نَشَز ودجلةُ محيطة بأكثره، مستديرة به كالهلال.

(٣) باقِرْدَى: بكسر القاف وفتح الدال: كورة في شرقي دجلة، وبالقرب منها جبل الجوديّ.

وقرأ الأَعمش وابن أَبي عبلة: (على الْجُودِيْ) بسكون الياءِ[١]، وهما لغتان.

وقوله: ﴿وَقِيلَ بُعۡدٗا﴾ يحتمل أَن يكون من قول الله تعالى عطفاً على: ﴿وَقِيلَ﴾ الأَول، ويحتمل أَن يكون من قول نوح والمؤمنين، والأَول أَظهر وأبلغ[٢].

قوله عز وجل: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٞ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ٤٥ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٤٦﴾.

هذه جملة معطوفة على التي قبلها دون ترتيب، وذلك أَن هذه القصة كانت في أَول ما ركب نوح في السفينة، ويظهر من كلام الطبري أَن ذلك كان بعد غرق الابن[٣]، وهو محتمل، والأَول أَليق.

وهذه الآية احتجاج من نوح عليه السلام، وذلك أَن الله أَمره بحمل أَهله، وابنُه من أَهله، فينبغي أَن يحمل، فأَظهر الله له أَن المراد مَنْ آمن مِنَ الأَهل.

ثم حسَّن المخاطبة بقوله: ﴿وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ﴾ وبقوله: ﴿وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾، فإِن هذه الأَقوال مُعينة في حُجّته، وهذه الآية تقتضي أَن نوحاً عليه السلام ظن أَن ابنه مؤمن، وذلك أَشد[٤] الاحتمالين.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰنُوحُ﴾ الآية، المعنى: قال الله تعالى: يا نوح.

وقالت فرقة: المراد بقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَ﴾: إنه ليس بولد لك، وزعمت أَنه كان لِغَيَّـة[٥]، وأَن امرأَته الكافرة خانته فيه، هذا قول الحسن، وابن سيرين، وعُبَيد بن

---

(١) وهي شاذة، انظر عزوها للأعمش في المحتسب (١/ ٣٢٣)، ولهما في الكامل للهذلي (ص: ٥٧١).
(٢) سقطت: وأبلغ، من المطبوع، وهي في أحمد٣ ملحقة في الهامش، وعليها تصحيح.
(٣) راجع تفسير الطبري (١٥/ ٣٣٩).
(٤) في نجيبويه: «أسد».
(٥) أي: ابن زناً، عكسه أن يكون لرشدة.

عُمَير[١]، وقال: نرى[٢]: إنما قضى رسول الله ﷺ بالولد للفراش[٣] من أَجل ابن نوح، وحلف الحسن أَنه ليس بابنه، وحلف عكرمة والضحاك أَنه ابنه[٤].

قال القاضي أبو محمد: عوّل الحسن على قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَ﴾، وعوّل الضحاك وعكرمة على قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ﴾.

وقرأَ الحسن ومنْ تأَوَّل تأْويله: ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖ﴾ على هذا المعنى، وهي قراءَة السبعة سوى الكسائي، وقراءَة جمهور الناس، وقال من خالف الحسن بن أَبي الحسن: المعنى: ليس من أَهلك الذين عمَّهم الوعدُ، لأَنه ليس على دينك وإِن كان ابنَك بالولاء[٥].

فمن قرأَ من هذه الفرقة: ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖ﴾ جعله وصفاً له بالمصدر على جهة المبالغة فوصفه بذلك، كما قالت الخنساءُ تصفُ ناقةً ذهب عنها ولدها:

[البسيط]

تَرْتَـعُ ما رَتَعَتْ حتَّـى إِذا ادّكَرَتْ فَإِنَّما هيَ إِقْبَـالٌ وإِدْبَـارُ[٦]

أَي: ذات إِقبال وإِدبار.

وقرأَ بعض هذه الفرقة: ﴿إِنَّهُ عَمِلَ غَيرَ صَالِحٍ﴾، وهي قراءَة الكسائي[٧].

---

(١) انظر تفسير الطبري (١٥/ ٣٤٠ و٣٤٢)، وتفسير ابن أبي حاتم (٦/ ٢٠٣٤).

(٢) القائل هو عمرو بن عبيد كما في تفسير الطبري (١٥/ ٣٤٢) وغيره، وفي المطبوع: «وقال ابن أبزى»، وهو تصحيف فاحش.

(٣) متفق عليه، هذا الحديث أخرجه البخاري (٢٠٥٣)، ومسلم (١٤٥٧) من حديث عائشة رضي الله عنه.

(٤) انظر القسمين في تفسير الطبري (١٥/ ٤٣٢، ٣٤٣).

(٥) في المطبوع والتركية والأسدية١ والمصرية بالولادة: بالولادة، وفي أحمد٣ ونور العثمانية: «بالولاد»، وفي الحمزوية: «فالأولاد».

(٦) انظر عزوه لها في الكتاب لسيبويه (١/ ٣٣٦)، ومعاني القرآن للأخفش (١/ ١٠٣)، والأغاني (١٥/ ٧٨).

(٧) فهي سبعية متواترة، انظر التيسير (ص: ١٢٥)، وفي ذلك ما يغني عن عزوها لغيره، وعن الرد على من أنكرها.

وروت هذه القراءَة أُمُّ سَلَمة وعائشةُ عن رسول الله ﷺ، ذكره أَبو حاتم[١].

وضعَّف الطبري هذه القراءَة، وطعن في الحديث بأَنه من طريق شهر بن حوشب[٢].

وهي قراءَة علي، وابن عباس، وعائشة، وأَنس بن مالك، ورجَّحها أَبو حاتم[٣].

وقرأَ بعضهم: (إِنَّه عَمِلَ عَملاً غيْرَ صَالحٍ)[٤].

وقالت فرقة: الضمير في قوله: ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٍ﴾ على قراءَة جمهور السبعة عائد على سؤال نوح الذي يتضمنه الكلام، وقد فسَّره آخِرَ الآية، ويُقَوِّي هذا التأْويلَ أَن في مصحف ابن مسعود: (إِنَّه عمَلٌ غيْرُ صالِح أَنْ تَسْأَلَني مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ)[٥].

وقالت فرقة: الضمير عائد على ركوب ولد نوح معهم الذي يتضمنه سؤال نوح، المعنى: إِن ركوب الكافر مع المؤمنين عملٌ غَيرُ صالح.

---

(١) في ثبوته نظر، حديث أم سلمة أخرجه أحمد (٦/ ٤٥٤-٤٥٩-٤٦٠)، وسعيد بن منصور في تفسيره (١٠٩١) وأبو داود (٣٩٨٤-٣٩٨٥)، والترمذي (٢٩٣١-٢٩٣٢) من طريق ثابت البناني، عن شهر بن حوشب، قال بعضهم: عن أسماء بنت يزيد، وقال بعضهم: عن أم سلمة، قال الترمذي: هو حديث ثابت البناني،... ثم قال: كلا الحديثين عندي واحد، وقد روى شهر بن حوشب غير حديث عن أم سلمة الأنصارية، وهي أسماء بنت يزيد، وقد روي عن عائشة عن النبي ﷺ نحو هذا. اهـ. وقال أبو زرعة: أم سلمة هذه هي أسماء بنت يزيد. العلل (٢٨٢٩) وهي مولاته، وقال الذهبي في ترجمة شهر من الميزان (٢/ ٢٨٥): تفرد ثابت عنه، عن أم سلمة بهذا الحديث.اهـ. وشهر: فيه لين، لا سيما إذا انفرد.

وأما حديث عائشة رضي الله عنها فقد أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٢/ ٢٤٢) من طريق محمد ابن جحادة، عن أبيه، عن عائشة رضي الله عنها، به، وجحادة أبو محمد الأيامي الكوفي، لم يوثق توثيقاً معتبراً، وذكره البخاري في «التاريخ الكبير» (١/ ٢٨٦) وذكر له هذا الخبر.

(٢) تفسير الطبري (١٥/ ٣٤٨)، وشهر تقدمت ترجمته في أول سورة البقرة.

(٣) نقله عنه وعنهم في البحر المحيط (٦/ ١٦٢).

(٤) وهي شاذة لمخالفة الرسم، نقل تفسير الطبري (١٥/ ٣٤٣) عن عكرمة أنها وردت في بعض الحروف.

(٥) وهي شاذة أيضاً، انظر عزوها له في معاني القرآن للنحاس (٣/ ٣٥٥)، الهداية لمكي (٥/ ٣٤٠٥).

وقال أَبو علي: ويحتمل أَن يكون التقدير: إِن كونك مع الكافرين وتركك الركوب معنا عملٌ غيْرُ صالح[١].

قال القاضي أبو محمد: وهذا تأْويل لا يتَّجه من جهة المعنى.

وكل هذه الفرق قال: إِن القول بأَن الولَد كان لِغَيَّةٍ وَوَلَدَ فراشٍ خطأٌ محض، وقالوا: إِنه رُوي عن النبي ﷺ أَنه: / «ما زنت امرأَة نبي قط»[٢]. [٣/ ٣٨]

قال القاضي أبو محمد: وهذا الحديث ليس بالمعروف، وإِنما هو من كلام ابن عباس رضي الله عنه[٣]، [ويُعضِّده شرف النبوة][٤].

وقالوا في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ [التحريم: ١٠]: إِن الواحدة كانت تقول للناس: هو مجنون، والأُخرى كانت تنبه على الأَضياف، وأَمَّا خيانة غير هذا فلا، وهذه منازع ابن عباس وحُجَجُه، وهو قوله وقول الجمهور من الناس.

وقرأَ ابن أَبي مليكة: (فَلا تَسَلْني) بتخفيف النون وإِثبات الياءِ وسكون اللام دون همز[٥].

وقرأَت فرقة بتخفيف النون وإِسقاط الياءِ وبالهمز: ﴿فَلَا تَسْئَلْنِ﴾[٦].

---

(١) الحجة للفارسي (٤/ ٣٤٢).

(٢) لم أقف عليه مرفوعاً للنبي ﷺ، وانظر ما سيأتي.

(٣) صحيح روي عن ابن عباس من عدة طرق، منها ما أخرجه الطبري (١٥/ ٣٤٣) من طريق الثوري، عن أبي عامر الهمداني، عن الضحاك بن مزاحم، عن ابن عباس، ومنها: ابن يمان، عن سعيد، عن موسى بن أبي عائشة، عن عبد الله بن شداد، عن ابن عباس، ومنها: عبد الرزاق قال، أخبرنا معمر، عن قتادة وغيره، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: هو ابنه: غير أنه خالفه في العمل والنية.

(٤) ساقط من أحمد٣ نور العثمانية.

(٥) وهي شاذة، انظر عزوها له في الشواذ للكرماني (ص: ٢٣٦)، وابن أبي مليكة تقدم في الآية (٢٢٢) من سورة البقرة.

(٦) وهي سبعية وسيعيد ذكرها على التفصيل قريباً. انظر: التيسير (ص: ١٢٥).

وقرأ أبو جعفر وشيبة بكسر النون وشدها والهمز وإثبات الياءِ: ﴿فَلاَ تَسْأَلَنِّي﴾[١].

[وقرأ نافع ذلك دون ياء: ﴿فلا تَسْأَلَنِّ﴾][٢].

وقرأ ابن كثير، وابن عامر: ﴿فَلاَ تَسْأَلَنَّ﴾ بفتح النون المشددة، وهي قراءة ابن عباس.

وقرأ أبو عمرو، وعاصم، وحمزة، والكسائي: ﴿فَلَا تَسْـَٔلۡنِ﴾ خفيفة النون ساكنة اللام[٣]. وكان أبو عمرو يثبت الياءَ في الوصل، وحذفها عاصم وحمزة في الوصل والوقف[٤].

ومعنى قوله: ﴿فَلَا تَسْـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ﴾، أَي: إذا وعدتك فاعلم يقيناً[٥] أَنه لا خُلْف في الوعد، فإذا رأَيتَ ولدك لم يُحْمل فكان الواجب عليك أَن تقف وتعلم أَن ذلك واجب بحق عند الله.

قال القاضي أبو محمد: ولكن نوحاً عليه السلام حملته شفقة البنوة[٦] وسجية البشَرِ على التعرض لنفحات الرحمة والتذكير، وعلى هذا القدر وقع عتابه، ولذلك جاءَ بتلَطف وترفيع في قوله: ﴿إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾، وقد قال الله تعالى لمحمد ﷺ: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ﴾ [البقرة: ١٤٧]، [الأنعام: ٣٤-١١٤]، [يونس: ٩٤]، وذلك هنا بحسب الأَمر الذي عوتب فيه وعظمته، فإنه لضيق صدره بتكاليف النبوة، وإلاَّ فمتقرر أَنَّ محمداً ﷺ أَفضل البشر وأَولاهم بلين المخاطبة، ولكن هذا بحسب الأَمرين لا بحسب النبيَّـيْن.

---

(١) هي متواترة عن أبي جعفر وصلاً، ويحذف الياء وقفاً.

(٢) ساقط من المطبوع، وهي والقراءتان بعدها سبعية، وهي قراءة ابن عامر كما في التيسير (ص: ١٢٥)، وأبي جعفر حال الوقف كما في النشر (٢/ ٢٨٩).

(٣) انظر التيسير (ص: ١٢٥)، وما ذكر لابن عامر ليس من طرقه، بل من رواية أبي عبيد عن هشام، كما في السبعة (ص: ٣٣٥)

(٤) فيه تقصير، والذي في التيسير (ص: ١٢٥، ١٢٧)، أثبتها وصلاً ورش وأبو عمرو وأبو جعفر، ويعقوب في الحالين، وحذفها الباقون في الحالين. انظر: النشر (٢/ ٢٩٢).

(٥) «يقيناً» ليست في المطبوع، وكتبت في نور العثمانية: «نفينا».

(٦) في المطبوع: «النبوة».

وقال قوم: إِنما وقَّر نوحاً لِسنِّه، وقال قوم: إِنما حمل اللفظ على محمد ﷺ كما يحمل الإِنسانُ على المختص به الحبيب إِليه.

قال القاضي أبو محمد: وهذا كله ضعيف.

ويحتمل قوله: ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أَي: لا تطلب مني أَمراً لا تعلم المصلحة فيه علم يقين، ونحا إِلى هذا أَبو علي الفارسي وقال: إِن ﴿بِهِۦ﴾ يجوز أَن يتعلق بلفظة ﴿عِلْمٌ﴾[1] كما قال الشاعر:

[الرجز] كَـانَ جَـزَائي بالْعصَـا أَنْ أُجْـلَدَا[2]

ويجوز أَن يكون ﴿بِهِۦ﴾ بمنزلة «فيه» فتتعلق الباءُ بالمستقر.

قال القاضي أبو محمد: واختلاف هذين الوجهين إِنما هو لفظي، والمعنى في الآية واحد. ورُوي أَن هذا الابن إِنما كان ربيبه، وهذا ضعيف.

وحكى الطبريّ عن ابن زيد أَن معنى قوله: ﴿إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾ في أَن تعتقد أَني لا أَفي لك بوعْدٍ وعدتك به[3].

قال القاضي أبو محمد: وهذا تأْويل بشع، وليس في الأَلفاظ ما يقتضي أَن نوحاً اعتقد هذا، وعياذاً بالله، وغاية ما وقع لنوح عليه السلام أَن رأَى ترك ابنه معارضاً للوعد فذكَّر به، ودعا بحسب الشفقة ليكشف له الوجه الذي استوجب به ابنه الترك في الغرقى.

قولـه عـز وجـل: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَـٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَـٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَـٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَـٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَـٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾.

---

(١) انظر كلامه على الآية في الحجة له (٤/ ٣٤٣).

(٢) البيت للعجاج، كما في المحتسب (٢/ ٣١٠)، وخزانة الأدب للبغدادي (٨/ ٤٣٠).

(٣) تفسير الطبري (١٥/ ٣٥٠)، بتصرف.

هذه الآية فيها إنابة نوح وتسليمُه لأَمر الله تعالى واستغفاره، والسؤال الذي وقع النهي عليه[١]، والاستعاذة والاستغفار منه هو سؤال العزم الذي معه محاجة وطلبة ملحّة فيما قد حجب وجه الحكمة فيه، وأَما السؤال في الأُمور على جهة التعلم والاسترشاد فغير داخل في هذا، وظاهر قوله: ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ يعم النحويْن من السؤال، فلذلك نبّهت على أَن المراد أَحدهما دون الآخر، والخاسرون: هم المغبونون حظوظَهم من الخير.

وقوله تعالى: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ﴾، كان هذا عند نزوله من السفينة مع أَصحابه للانتشار في الأَرض، والسَّلاَم هنا: السلامة والأَمن ونحوه، والبركات: الخير والنمو في كل الجهات، وهذه العِدَةُ تعم جميع المؤمنين إِلى يوم القيامة، قاله محمد بن كعب القرظي[٢].

وقوله: ﴿مِّمَّن مَّعَكَ﴾ أَي: من ذرية من معك ومِنْ نسلهم، فـ(مِن) على هذا هي لابتداءِ الغاية، أَي: مِنْ هؤلاءِ تكون هذه الأُمم، و(مَن) موصولة، وصلتُها ﴿مَّعَكَ﴾ وما يتَقَدَّر معها، نحو قولك: مِمَّن استقَرَّ معك، ونحوه، ثم قطع قوله: ﴿وَأُمَمٌ﴾ على وجه الابتداءِ إِذ كان أَمرهم مقطوعاً من الأَمر الأَول، وهؤلاءِ هم الكفار إِلى يوم القيامة.

وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾ الآية، إِشارة إِلى القصة، أَي: هذه من الغيوب التي تقادم عهدها ولم يبق علمها إِلا عند الله تعالى، ولم يكن علمها أَو علم أَشباهها عندك ولا عند قومك، ونحن نوحيها إِليك لتكون لك هداية وأُسوة فيما لقيه غيرك من الأَنبياءِ، وتكون لقومك مثالاً وتحذيراً، لئلا يصيبهم إِذا كذبوك مثل ما أَصاب هؤلاءِ وغيرهم من الأُمم المعذبة.

قال القاضي أبو محمد: وعلى هذا المعنى ظهرت فصاحة قوله: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾، أَي: فاجتهد في التبليغ وجِدَّ في الرسالة واصبر على الشدائد، واعلم أَن العاقبة لك كما كانت لنوح في هذه القصة.

---

(١) في الحمزوية وأحمد٣ ونور العثمانية: «عنه».

(٢) انظر: تفسير الطبري (١٥/ ٣٥٤)، وتفسير ابن أبي حاتم (٦/ ٢٠٤١).

وفي مصحف ابن مسعود: (منْ قَبْلِ هَذَا القُرْآنِ)(١).

قوله عز وجل: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ﴾ عطف على قوله: ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾ في قصة نوح، وعاد قبيلة، وكانت عرباً فيما يذكر، وهودٌ عليه السلام منهم، وجعله أَخاهُمْ بحسب النسب والقرابة، فإِن فرضناه ليس منهم فالأُخوة بحسب المنشأ واللسان والجيرة، وأَما قول من قال: هي أُخوة بحسب النسب الآدمي، فضعيف.

وقرأَ جمهور الناس: ﴿يَٰقَوْمِ﴾ بكسر الميم.

وقرأ ابن محيصن: (يَا قَوْمُ) برفع الميم(٢)، وهي لغة حكاها سيبويه(٣).

وقرأَ جمهور الناس: ﴿غَيْرُهُۥٓ﴾ بالرفع على النعت أَو البدل من موضع قوله: ﴿مِّنْ إِلَٰهٍ﴾.

وقرأَ الكسائي وحده بكسر الراءِ(٤) حملاً على لفظ ﴿إِلَٰهٍ﴾، وذلك أَيضاً على النعت أَو البدل، ويجوز «غيرَه» نصباً على الاستثناءِ.

[٣/ ٣٩] و﴿مُفْتَرُونَ﴾: معناه: كاذبون أَفحشَ كذب / في جعلكم الأُلوهية لغير الله تعالى. والضمير في قوله: ﴿عَلَيْهِ﴾ عائد على الدعاءِ إِلى الله تعالى، والمعنى: ما أَجري وجزائي إِلاَّ من عند الله، ثم وصفه بقوله: ﴿ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ﴾، فجعلها صفة رادَّة عليهم في

(١) وهي شاذة لمخالفة الرسم، بل أقرب للتفسير، وقد تابعه عليها في البحر المحيط (٦/ ١٦٦).
(٢) وهي شاذة، وقد تقدمت في سورة المائدة، وانظر عزوها في له الكامل (ص: ٥٣٣).
(٣) الكتاب لسيبويه (٢/ ٢٠٩).
(٤) فهما سبعيتان، كما تقدم في سورة الأعراف.

عبادتهم الأَصنام، واعتقادهم أَنها تفعل[١]، فجعل الوصف بذلك في درج كلامه منبهاً على أَفعال الله تعالى، وأَنه هو الذي يستحق العبادة.

و(فَطَرَ) معناه: اخترع وأَنشأَ.

وقوله: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ توقيف على مُحال القول بأَن غير الفاطر إله.

ويحتمل أَن يريد: أَفَلا تَعْقِلُونَ إِذا لم أَطلب عرضاً من أَعراض الدنيا أَنِّي إِنما أُريد النفع لكم والدَّار الآخرة، والأَول أَظهر.

والاستغفار: طلب المغفرة، وقد يكون ذلك باللسان، وقد يكون بإِنابة القلب وطلب الاسترشاد والحرص على وجود المحجة[٢] الواضحة، وهذه أَحوال يمكن أَن تقع من الكفار، فكأَنه قال لهم: اطلبوا غفران الله بالإِنابة وطلب الدليل في نبوتي، ثم توبوا بالإِيمان من كفركم، فيجيءُ الترتيب على هذا مستقيماً، وإِلا احتيج في ترتيب التوبة بعد الاستغفار إِلى تحيّل كثير، فإِما أَن يكون ﴿تُوبُوٓاْ﴾ أَمراً بالدوام، والاستغفارُ طلبَ المغفرة بالإِيمان، وإِلى هذا ذهب الطبري[٣].

وقال أَبو المعالي في الإِرشاد: «التوبة في اصطلاح المتكلمين هي الندم»، بعد أَن قال: «إِنها في اللغة الرجوعُ»، ثم ركَّبَ على هذا أَن قال: إِن الكافر إِذا آمن ليس إِيمانه توبة، وإِنما توبته ندمُه بعْدُ[٤].

قال القاضي أبو محمد: والذي أَقول: إِن التوبة عقد في تركِ متوبٍ منه يتقدمها علمٌ بفساد المتوب منه وصلاح ما يرجع إِليه، ويقترن بها ندمٌ على فارط المتوب منه لا ينفك

---

(١) في نجيبويه: «تعقل».

(٢) في المصرية: «التوبة»، وفي الأسدية١: «الحكمة»، وفي أحمد٣ ونور العثمانية ونجيبويه: «الحجة» وفي الحمزوية: «المحبة».

(٣) تفسير الطبري (١٥/ ٣٥٨).

(٤) الإرشاد للجويني (ص: ٤٠٨)، وما بعدها.

منه، وهو من شروطها، فأَقول: إِن إِيمان الكافر هو توبته من كفره لأَنه هو نفس رجوعه.

وتاب في كلام العرب معناه: رجع إِلى الطاعة والأَمثل من الأُمور، وتصَرُّفُ اللفظة في القرآن بـ«إلى» يقتضي أَنها الرجوع لا الندم، وإِنما الندم لاحق لازم للتوبة كما قلنا، وحقيقة التوبة ترك مثل ما تِيب منه عن عزْمة معتقدة على ما فسرناه، والله المستعان.

و﴿مِّدۡرَارٗا﴾ هو بناءُ تكثير[1]، وكان حقه أَن تلحقه هاءٌ، ولكن حذفت على نية النسب، وعلى أَن السَّماءَ المطرُ نفسه، وهو من: درَّ يَدُرُّ.

ومِفْعال قد يكون من اسم الفاعل الذي هو من ثُلاثيّ، ومن اسم الفاعل الذي هو رباعيّ، وقول من قال: إِنه أَلزمُ للرباعيّ غير لازم.

ويُروى أَن عَاداً كان الله تعالى قد حبس عنها المطر ثلاث سنين، وكانوا أَهل حرث وبساتين وثمارٍ، وكانت بلادهم شرق جزيرة العرب، فلهذا وعدهم بالمطر، ومن ذلك فرحهم حين رأَوا العارض وقولهم: ﴿هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَا﴾ [الأحقاف: ٢٤].

وحضهم على استنزال المطر بالإِيمان والإِنابة، وتلك عادة الله في عباده، ومنه قول نوح عليه السلام: ﴿فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا ١٠ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا﴾ [نوح ١٠-١١].

ومنه فعل عمر رضي الله عنه حين جعل جميع قوله في الاستسقاءِ ودعائِه استغفاراً فَسُقي، فَسُئِلَ عن ذلك فقال: «لقد استنزلت المطر بمجاديح السماء»[2].

---

(١) تحرفت في المطبوع إلى: «تكسير».

(٢) روي من طرق يقوي بعضها بعضاً، هذا الأثر أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» (٤٩٠٢) وابن أبي شيبة كذلك (٨٤٢٩-٣٠٠٩٩)، وسعيد بن منصور في «سننه» (١٠٩٥)، والطبري (٢٣/ ٢٩٣-٢٩٤)، والطبراني في «الدعاء» (٩٦٤)، والبيهقي في «الكبرى» (٣/ ٣٥١-٣٥٢) من طريق الشعبي، عن عمر رضي الله عنه، به، ورواية الشعبي عن عمر منقطعة كما في «المراسيل» لابن أبي حاتم (٥٩٢) نقلاً عن أبيه وأبي زرعة.

وتابع الشعبي عليه: أبو مروان الأسلمي المدني، اسمه مغيث بن عمرو، وقيل: معتب، ولا يعرف، =

وقوله: ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ ظاهره العموم في جميع ما يحسن الله تعالى فيه إِلى العباد، وقالت فرقة: كان الله تعالى قد حبس نسلهم، فمعنى قوله: ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ أي: الولد، ويحتمل أَن خصَّ القوة بالذكر إِذ كانوا أَقوى العوالم فوعدوا بالزيادة فيما بهروا فيه.

ثم نهاهم عن التولِّي عن الحق والإِعراض عن أَمر الله.

و﴿مُجْرِمِينَ﴾ حالٌ من الضمير[1] في ﴿تَتَوَلَّوْا﴾.

قوله عز وجل: ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ۗ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِ ۖ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾.

المعنى: ما جِئْتَنا بآية تَضْطَرُّنا إِلى الإِيمان بك، ونفوا أَن تكون معجزاته آية بحسب ظنهم وعماهم عن الحق، كما جعلت قريش القرآن سحراً وشعراً ونحو هذا، وقد قال رسول الله ﷺ: «مَا من نبي إِلا وقد أُوتي من الآيات ما مثلُه آمن عليه البشر» الحديث[2].

= وقيل: له صحبة، ولا يصح، أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٨٤٢٨)، وابن المنذر في «الأوسط» (٤/ ٣١٥) من طريق عيسى بن حفص بن عاصم بن عمر بن الخطاب، عن عطاء بن أبي مروان الأسلمي، عن أبيه، قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ نَسْتَسْقِي فَمَا زَادَ عَلَى الاسْتِغْفار.
وأخرجه ابن سعد (٣/ ٢٤٤-٢٤٥) والبيهقي (٣/ ٣٥١) من طريق أبي وجزة السعدي، عن أبيه، قال: خرج عمر رضي الله عنه يستسقي، فجعل لا يزيد على الاستغفار، فقلت: ألا يتكلم لما خرج له، ولا أعلم أن الاستسقاء هو الاستغفار، فمطرنا. ولم أر من ترجم لوالد أبي وجزة ولم أعرفه.
ومجاديح جمع مِجْدَح، وهو نجم من النجوم، وهو عند العرب من الأنواء الدالة على المطر، فجعل الاستغفار مشبهاً بالأنواء، مخاطبة لهم بما يعرفونه، لا قولاً بالأنواء.اهـ. من «النهاية في غريب الحديث» (١/ ٢٤٣).

(١) في المطبوع: «الضير»، وهو سبق قلم.

(٢) متفق عليه، هذا الحديث أخرجه البخاري (٤٩٨١)، ومسلم (١٥٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وهذا يقتضي بأَن هوداً وغيره من الرسل لهم معجزات وإِن لم يُعَيّن لنا بعضها.

وقولُهم: ﴿عَن قَوْلِكَ﴾، أَي: لا يكون قولك سبب تركنا إِذْ هو مجرد عن آية.

وقولُهم: ﴿إِن نَّقُولُ﴾ الآية، معناه: ما نقول إِلا أَن بعض الآلهة لما سَبَبْتَها وضلَّلْتَ عبدتها أَصابك بجنون، يقال: عَرَّ يَعُرُّ، واعْتَرى يعتَري: إِذا أَلَمَّ بالشيءِ، فحينئذ جاهرهم هود عليه السلام بالتبري من أَوثانهم، وحضَّهم على كيده هم وأَصنامُهم، ويُذكر أَن هذه كانت له معجزة، وذلك أَنه حرَّض جماعتهم عليه مع انفراده وقوّتهم وكفرهم، فلم يقدروا على نيله بسوءٍ.

و﴿تُنظِرُونِ﴾ معناه: تؤخروني، أَي: عاجلوني بما قدرتم عليه.

وقوله تعالى: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ﴾ الآية، المعنى: إن توكلي[1] على الله الذي هو ربِّي وربكم ـ مع ضعفي وانفرادي وقوتكم وكثرتكم[2] ـ يمنعني منكم ويحجز بيني وبينكم، ثم وصف قدرة الله تعالى وعظم ملكه بقوله: ﴿مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾، وعبَّر عن ذلك بالناصية إِذ هي في العرف حيث يَقبض القادر المالك ممن يقدر عليه، كما يقاد الأَسير والفرس ونحوه، حتى صار الأَخذ بالناصية عُرْفاً في القدرة على الحيوان، وكانت العرب تجزُّ ناصية الأَسير الممنون عليه لتكون تلك علامة أَنه قُدِر عليه وقُبض على ناصيته.

والدَّابة: جميع الحيوان، وخُص بالذكر إِذ هو صنف المخاطبين والمتكلم.

وقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ يريد أَن أَفعال الله عزَّ وجلَّ هي في غاية الإِحكام، وقوله الصدق، ووعده الحق، فجاءَت الاستقامة في كل ما ينضاف إِليه عزَّ وجلَّ، فعبّر عن ذلك بقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ على تقدير مضاف.

قوله عز وجل: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ

---

(١) في المطبوع: «إِني توكلت».

(٢) في المصرية: «وكفركم».

بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾﴾.

[٣/ ٤٠] / قرأ الجمهور: ﴿تَوَلَّوْا﴾ بفتح اللام والتاءِ على معنى: تَتَوَلَّوا.

وقرأ عيسى الثقفي والأعرج: (تُوَلُّوا) بضم التاءِ واللام[1].

و(إِنْ) شرط والجواب في الفاءِ وما بعدها من قوله: ﴿فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم﴾، والمعنى: إنه ما عليَّ كبيرُ هَمٍّ منكم إِن توليتم، فقد برئت ساحتي بالتبليغ، وأَنتم أَصحاب الذنب في الإِعراض عن الإيمان، ويحتمل أَن يكون ﴿تَوَلَّوْا﴾ فعلاً ماضياً، ويجيءُ في الكلام رجوع من غيبة إِلى خطاب، أَي: فقل: قد أَبلغتكم.

وقرأَ الجمهور: ﴿وَيَسْتَخْلِفُ﴾ بضم الفاءِ على معنى الخبر بذلك، وقرأَ عاصم فيما روى هُبيرة عن حفص: (وَيَسْتَخْلِفْ) بالجزم[2] عطفاً على موضع الفاءِ من قوله: ﴿فَقَدْ﴾.

وقوله: ﴿وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا﴾ يحتمل من المعنى وجهين:

أَحدهما: ولا تضُرُّونَهُ بذهابكم وهلاككم شيئاً، أَي: لا ينتقص ملكه ولا يختل أَمره، وعلى هذا المعنى قرأَ عبد الله بن مسعود: (ولا تنقصونه شيئاً)[3].

والمعنى الآخر: ﴿وَلَا تَضُرُّونَهُ﴾، أَي: ولا تقدرون إِذا أَهلككم على إِضراره بشيءٍ، ولا على الانتصار منه، ولا تقابلون فعله بكم بشيءٍ يضره.

ثم أَخبرهم أَن ربه حَفِيظٌ على كل شيء، عالم به، وفي ترديد هذه الصفات ونحوها تنبيه وتذكير.

---

(١) وهي شاذة وقد تقدم مثلها قريبا في قصة نوح.
(٢) انظر عزوها له في جامع البيان (٣/ ١٢٠٢)، وليست من طرق التيسير.
(٣) شاذة، ولفظها عند الثعلبي (٥/ ١٧٥): «ولا يضره هلاككم إذا أهلككم ولا تنقصونه شيئاً، لأنه سواء عنده كنتم أو لم تكونوا».

والأَمر: واحد الأُمور، ويحتمل أَن يكون مصدر أَمر يأْمُر، أَي: أَمْرُنا للريح أَو لخزنتها ونحو ذلك.

وقوله: ﴿بِرَحۡمَةٍ﴾ إما أَن يكون إِخباراً مجرداً عن رحمة من الله لحقتهم، وإِما أَن يكون قصداً إِلى الإِعلام أَن النجاة إِنما كملت[1] بمجرد رحمة الله لا بأعمالهم، فتكون الآية على هذا في معنى قول رسول الله ﷺ: «لا يدخُل أَحدٌ الجنة بعمله»، قالوا: ولا أَنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أَنا إِلا أن يتغمدني الله بفضل منه وبرحمته»[2].

وقوله: ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ﴾ يحتمل أَن يريد عذاب الآخرة، ويحتمل أَن يريد: وكانت النجاة المتقدمة من عذاب غليظ، يريد: الريح، فيكون المقصود ـ على هذا ـ تعديد النعمة. ومشهور عذابهم بالريح هو أَنها كانت تحملهم وتهدم مساكنهم وتنسفها، وتحمل الظعينة كما هي، ونحو هذا.

وحكى الزجاج أَنها كانت تدخل في أَبدانهم وتخرج من أَدبارهم وتقطعهم عضواً عضواً[3].

وتعدَّى: ﴿جَحَدُواْ﴾ بحرف جر لما نُزِّل منزلة «كفروا»، وانعكس ذلك في الآية بعد هذا[4].

وقوله: ﴿وَعَصَوۡاْ رُسُلَهُۥ﴾ شُنعة عليهم، وذلك أَن في تكذيب رسول واحد تكذيب سائر الرسل وعصيانهم، إِذ النُّبُوءَات كلها مجمعة على الإِيمان بالله والإِقرار بربوبيته، ويحتمل أَن يراد هودٌ وآدم ونوح.

---

(١) في المصرية ونجيبويه والتركية: «كانت».

(٢) متفق عليه، هذا الحديث أخرجه البخاري (٥٦٧٣)، ومسلم (٢٨١٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) معاني القرآن وإعرابه له (٣/ ٥٧).

(٤) في قوله تعالى: ﴿كَفَرُواْ رَبَّهُمۡ﴾ [هود: ٦٠].

والْعَنِيدُ فَعِيل من عَنَد إذا عَتَا، ومنه قول الشاعر:

إِنِّـي كبيـرٌ لاَ أُطيـقُ العُنَّـدَا[١] .... [الرجز]

أَي: الصعاب من الإبل، وكان التجبُّر والعناد من خُلُق عاد لقوتهم.

وقوله تعالى: ﴿وَأُتْبِعُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ الآية، حُكِمَ عليهم بهذا الحكم لكفرهم وإِصرارهم حتى حلَّ العذاب بهم.

واللعنة: الإِبعادُ والخِزْي، وقد تُيقِّن أَن هؤلاءِ وافوا على الكفر، فيلعن الكافر الموافي على كفره، ولا يُلعن معيَّنٌ حيٌّ، لا مِنْ كافر ولا من فاسق ولا من بهيمة، كل ذلك مكروهٌ بالأَحاديث[٢].

و﴿وَيَوْمَ﴾ ظرف معناه أَن اللعنة عليهم في الدنيا وفي يوم القيامة، ثم ذكرت العلة الموجبة لذلك وهي كفرهم بربهم، وتعدَّى (كَفَرَ) بغير الحرف إِذ هو بمعنى: جَحدُوا، كما تقول: شكرت لك وشكرتك، وكَفَر نعمتَه وكفر بنعمته.

و﴿بُعْدًا﴾ منصوب بفعل مقدر وهو مقام ذلك الفعل.

قوله عز وجل: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾﴾.

---

(١) بلا نسبة في مجاز القرآن (١/ ٢٩١)، والكنز اللغوي (ص: ٤٧)، وأدب الكاتب (ص: ٤٩١)، والمقتضب (١/ ٢١٨).

(٢) أخرج مسلم (٢٥٩٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «لا ينبغي لصدِّيقٍ أن يكون لعَّاناً»، وعن أبي الدرداءِ رضي الله عنه قالَ: قالَ رسولُ الله ﷺ:«لا يكونُ اللَّعانُونَ شُفَعاء، ولا شُهداءَ يومَ القِيامةِ». أخرجه مسلم (٢٥٩٨)، وعن عمران بن الحُصَيْنِ رضي الله عنه، قالَ: بينما رسولُ الله ﷺ في بعض أسفارهِ، وامرأةٌ من الأنصارِ على ناقةٍ، فضجِرَتْ فلَعنَتْهَا، فسمِعَ ذلك رسولُ الله ﷺ فقالَ:«خُذوا ما عليها ودعوها؛ فإنها ملعُونةٌ» قال عمران: فكأنِّي أراهَا الآن تمشي في الناسِ ما يعرِضُ لها أحدٌ. أخرجه مسلم (٢٥٩٥).

التقدير: وأَرسلنا إِلى ثمود، وقد تقدم القول في مثل هذا وفي معنى الأُخوة في قصة هود.

وقرأَ الجمهور: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ﴾ بغير صرف.

وقرأَ ابن وثاب، والأَعمش: (وَإِلَى ثَمودٍ) بالصرف حيث وقع(١).

فالأُولى على إِرادة القبيلة، والثانية على إِرادة الحيّ، وفي هذه الأَلفاظ الدالة على الجموع ما يكثر فيه إِرادة الحيّ كقُريش وثقيف وما لا يقال فيه: بنو فلان، وفيها ما يكثر فيه إِرادة القبيلة كتميمَ وتغلبَ، أَلا ترى أَنهم يقولون: تَغلب ابنة وائل(٢)، وقال الطِّرِمَّاح:

[الطويل] .... إِذا نَهَلَتْ مِنْهُ تَمِيمٌ وعَلَّتِ(٣)

وقول الآخر:

[المتقارب] تَميمُ بن مُرٍّ وَأَشْياعُهَا(٤) ....

وفيها ما يكثر فيه الوجهان كثمود وسبأ، فالقراءَتان هنا فصيحتان مستعملتان.

وقرأَت فرقة: ﴿غَيْرُهُۥ﴾ برفع الراءِ، وقرأَ الكسائي: ﴿غَيْرِهِ﴾ بكسر الراءِ، وقد تقدم آنفاً(٥).

---

(١) وهي هنا شاذة، انظر عزوها لهما في الشواذ للكرماني (ص: ٢٣٦)، وقد تقدم الكلام عليها.

(٢) من ذلك قول الأخنس بن شهاب التغلبي كما في المفضليات (ص: ٢٠٦): فوارسها من تغلب ابنة وائل * حماة كماة ليس فيها أشائب، وقول عميرة بن جعل كما في المفضليات (ص: ٢٥٧): كسا الله حيي تغلب ابنة وائل... من اللؤم أظفاراً بطيئاً نصولها.

(٣) صدره: ولو أنّ حرقوصاً يزقّق مسكه، عزاه له في الشعر والشعراء (٢/ ٥٧٢)، ديوان المعاني (١/ ١٧٥)، الصناعتين (ص: ٣٦١).

(٤) عجزه: وكندة حولي جميعاً صبر، وهو لامرئ القيس كما في الشعر والشعراء (١/ ١١٦)، جمهرة اللغة (٢/ ١٠٤٠).

(٥) في أول قصة هود، وفي سورة الأعراف.

و﴿أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أَي: اخترعكم وأَوجدكم، وذلك باختراع آدم عليه السلام، كأَن إنشاءَ آدم إِنشاءٌ لبَنيه، ﴿وَٱسْتَعْمَرَكُمْ﴾ أَي: اتخذكم عُمّاراً، كما تقول: استكتب واستعمل، وذهب قوم إِلى أنها من العُمْر، أَي: عمَّرَكم.

وقد تقدم مثل قوله: ﴿فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ أَي: إِجابته وغفرانه قريب ممن آمن وأَناب، و﴿مُّجِيبٌ﴾ معناه: بشرط المشيئة.

والظاهر الذي حكاه جمهور المفسرين أَن قوله: ﴿مَرْجُوًّا﴾ معناه: مُسَوّداً، نؤمل فيك أَن تكون سيداً سادّاً مسَدّ الأَكابر، ثم قرَّروه على جهة التوبيخ في زعمهم بقولهم: ﴿أَتَنْهَىٰنَآ﴾، وحكى النقاش عن بعضهم أنه قال: «معناه: حقيراً»[١].

قال القاضي أبو محمد: فأَما أَن يكون لفظ ﴿مَرْجُوًّا﴾ بمعنى حقير فليس ذلك في كلام العرب، وإِنما يتجه ذلك على جهة التفسير للمعنى، وذلك أَن القصد بقولهم: ﴿مَرْجُوًّا﴾ يكون: لقد كنت فينا سهلاً مرامك قريباً ردُّ أَمرك، مِمَّن لا يظن أَن يَستفحِلَ[٢] من أَمره مثلُ هذا، فمعنى (مرجُوّ) أي: مرجُوٌّ اطِّراحُه وغلبته ونحو هذا، فيكون ذلك على جهة الاحتقار، فلذلك فُسِّر بحقير، ويشبه هذا المعنى قول أَبي سفيان بن حرب: «لَقَدْ أَمِر أَمْرُ ابن أَبي كَبْشَة»[٣] الحديث، ثم يجيءُ قولهم: ﴿أَتَنْهَىٰنَآ﴾ على جهة التوعُّد والاستشناع لهذه المقالة منه.

و﴿مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ يريدون به الأَوثان والأَصنام، ثم أَوجبوا أَنهم في شك من أَمْرِه وأَقاويله، وأَن ذلك الشك يرتابون به زائداً[٤] إِلى مرتبته من الشك.

قال القاضي أبو محمد: ولا فرق بين هذه الحال وبين حالة التصميم على الكفر.

---

(١) نقله عنه في البحر المحيط (٦/ ١٧٥).

(٢) في التركية والأسدية١ والمصرية ونجيبويه والحمزوية: «يستعجل».

(٣) البخاري (٧) في قصة هرقل.

(٤) في نجيبويه: «أبدا».

و﴿مُرِيبٍ﴾ معناه: مُلْبس مُتَّهم[١]، ومنه قول الشاعر:

[الرجز]

يـا قَـوْمِ مَـا بـالُ أَبِـي ذُؤَيْـبِ كُـنْـتُ إِذا أَتـيْـتُـهُ مِـنْ غيْـبِ
يَـشَـمُّ عِـطْفـي ويمَـسُّ ثَـوْبِـي كَـأنـنِـي أربْـتُـهُ بِـريْـبِ[٢]

قوله عز وجل: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً / فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾﴾. [٣/ ٤١]

قوله: ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ هو من رؤْية القلب، أَي: أَتدبَّرتم؟ والشرط الذي بعده وجوابُه يسُدّ مَسَدّ مفعوليْ ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾، والبيِّنَةُ: البرهان واليقين، والهاءُ في ﴿بَيِّنَةٍ﴾ للمبالغة، ويحتمل أَن تكون هاءَ تأْنيث، والرحمة في هذه الآية: النُّبُوَّة وما انضاف إِليها، وفي الكلام محذوف تقديره: أَيضُرُّني شكُّكُم[٣]؟ أَو: أَيُمْكنني طاعتكم؟ ونحو هذا مما يليق بمعنى الآية.

وقوله: ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ معناه: فما تُعطونني فيما أَقتضيه منكم من الإِيمان وأطلبكم[٤] بِهِ من الإِنابة غير تخسير لِأَنفسكم، وهو من الخسارة، وليس التخسير في هذه الآية إِلا لهُم وفي حيّزهم، وأَضاف الزِّيادة إِليه من حيث هو مقتض لأَقوالهم مُوَكَّلٌ بإِيمانهم، كما تقول لمن توصيه: أَنا أُريد بك خيراً وأَنت تُريد بي شرّاً، فكان الوجه البيّن: [أَن تقول:][٥] وأَنت تُريد شرّاً، ولكن من حيث كنتَ مُريدَ خير ومُقْتَضٍ ذلك حسُن أَن تضيف الزيادة إِلى نفسك.

---

(١) في أحمد٣: «مبهم».
(٢) الأبيات لخالد بن زُهَيْر الهُذَليّ، كما تقدم في تفسير الآية (٤٥) من سورة التوبة، وفي المطبوع: مالي وأبا ذؤيب.
(٣) في نجيبويه: «شرككم».
(٤) في المطبوع وأحمد٣: «وآمُرُكم».
(٥) زيادة من الحمزوية ونجيبويه ونور العثمانية.

وقوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوۡمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ الآية، اقتضب في هذه الآية ذكْر أَوّل أَمر الناقة، وذلك أَنه رُوي أَنَّ قومه طلبوا منه آية تَضْطَرهم إِلى الإِيمان فأَخرج الله جلَّت قدرَتُه لهم الناقة من الجبل، ورُوي أَنهم اقترحوا تعيين خروج الناقة من تلك الصخرة، فرُوي أَن الجبل تمخَّض كالحامل وانصدع الحجر وخرجت منه ناقة بفصيلها، ورُوي أَنها خرجت عُشراءَ ووضعت بعد خروجها[1]، فوقفهم صالح وقال لهم: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗ﴾، ونصب ﴿ءَايَةٗ﴾ على الحال.

وقرأَت فرقة: ﴿تَأۡكُلۡ﴾ بالجزم على جواب الأَمر، وقرأَت فرقة: (تأْكُلُ)[2] على طريق القطع والاستئناف[3]، أَو على أَنه الحال من الضمير في ﴿فَذَرُوهَا﴾.

وقوله: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ﴾ عامٌّ في العقْر وغيره.

وقوله: ﴿فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٞ قَرِيبٞ﴾ هذا بوحي من الله إِليه أَن قومك إِذا عقروا الناقة جاءَهم عذاب قريب المدة من وقت المعصية، وهي الأَيام الثلاثة التي فهمها صالح عليه السلام من رُغَاءِ الفصيل على جبل القارة، وأَضاف العَقْر إِلى جميعهم لأَن العاقر كان منهم، وكان عن رضىً منهم وتمالُؤ، وعاقرها قدار.

ورُوي في خبر ذلك أَن صالحاً أُوحي إِليه أَن قومك سيعقرون الناقة وينزل بهم العذاب عند ذلك، فأخبرهم بذلك فقالوا: عياذاً بالله أَن نفعل ذلك، فقال: إِن لم تفعلوا أَنتم ذلك أَوشك أَن يولد فيكم من يفعله، وقال لهم: صفة عاقرها أَحمر أَزرق أَشقر، فجعلوا الشُّرط مع القَوَابِلِ وأَمروهم بتفقد الأَطفال، فمن كان على هذه الصفة قُتل.

وكان في المدينة شيخان شريفان عزيزان، وكان لهذا ابن ولهذا بنت، فتصاهروا فَوُلد بين الزوجين قدار على الصفة المذكورة، فهمَّ الشُّرطة بقتله فمنع منه جدّاه حتى

---

(١) أخرجه الطبري (١٠/ ٢٨٣) عن عبد العزيز بن رفيع، عن أبي الطفيل من قوله.

(٢) وهي شاذة عزاها الكرماني في شواذ القراءات (ص: ٢٣٦) لابن أبي عبلة، والأولى هي المتواترة.

(٣) تحرفت في الأسدية١ إلى: «الاستثناء».

كبر، فكان الذي عقرها بالسيف في عراقيبها، وقيل: بالسهم في ضرعها[١]، وهرب فصيلها عند ذلك، فصعد على جبل يقال له: القارة، فَرَغا ثلاثاً، فقال صالح: هذا ميعاد ثلاثة أَيام للعذاب.

وأَمرهم قبل رُغاءِ الفَصيل أَن يطلبوه عسى أَن يصلوا إِليه فيندفعَ[٢] عنهم العذاب به، فراموا الصعود إِليه في الجبل فارتفع الجبل إِلى السماءِ حتى ما تناله الطير، وحينئذ رغا الفصيل[٣].

وقوله: ﴿فِي دَارِكُمْ﴾ هي جمع دارة كما تقول: ساحةٌ وساحٌ وسوحٌ[٤]، ومنه قول أُمَيَّة بن أَبي الصَّلْتِ:

[الوافر]

لَـهُ داعٍ بِمَــكَّــةَ مُـشْـمَـعِـلّ وآخَـرُ عِـنْـدَ دَارَتِـهِ يُنَـادِي[٥]

ويمكن أَن يُسمى جميع مسكن الحيّ داراً.

والثلاثة أَيام تعجيزٌ قاسَ الناس عليه الإعذارَ إِلى المحكوم عليه ونحوه.

قال القاضي أبو محمد: وذلك عندي مفترق[٦]، لِأنها في المحكوم عليه والغارم في الشُّفعة ونحوه توسعة، وهي هنا توقيف على الخزي والتعذيب.

وروى قتادة عن ابن عباس أَنه قال: لو صعدتم على القارة لرأَيتم عظام الفصيل[٧].

---

(١) في المصرية: «صدغها»، وفي أحمد٣: «عرضها».

(٢) في المطبوع وأحمد٣: «فيردّ».

(٣) انظر هذه الروايات في تفسير الطبري (١٥/ ٣٧٦).

(٤) في التركية والمصرية: «ساجة وساج وسوج».

(٥) يمدح عبد الله بن جُدْعان، انظر عزوه له في جمهرة اللغة (١/ ٥٠٢)، والمعاني الكبير (١/ ٣٨٠)، والأغاني (٨/ ٣٤٢).

(٦) في المصرية: «مقبول»، وفي أحمد٣: «مفتقر»، وفي نور العثمانية: «مفترن».

(٧) منقطع، أخرجه الطبري (١٢/ ٤٥٧) وقتادة لم يسمع من ابن عباس.

قوله عز وجل: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾ ﴾.

الأَمر جائز أَن يراد به المصدر من أَمر، وجائز أَن يراد به واحد الأُمور.

وقوله: ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ يحتمل أَن يقصد أَن التَّنْجية إِنما كانت بمجرد الرحمة، ويحتمل أَن يكون وصف حالٍ فقط، أَخبر أَنه رحمهم في حال التَّنْجية. وقوله: ﴿مِّنَّا﴾ الظاهر أَنه متعلق بـ﴿بِرَحْمَةٍ﴾، ويحتمل أَن يتعلق بقوله: ﴿نَجَّيْنَا﴾.

وقرأَت فرقة: (وَمِنْ خِزْيٍ يَوْمَئِذٍ) بتنوين (خِزْيٍ) وفتح الميم من (يَوْمَئِذٍ)[1].

وذلك يجوز فيه أَن تكون فتحة الميم إِعراباً، ويجوز أَن يكون بُني الظرفُ لمَّا أُضيف إِلى غير متمكن [فاستفاد منه البناء، وذلك أن الظرف إذا أضيف إلى غير المتمكن][2] فأَنت مُخيَّر في الوجهين، والروايتان في قول الشاعر:

عَلَى حين عاتَبْتُ الْمَشِيبَ عَلَى الصِّبَا ... وَقُلْتُ: أَلَمَّا أَصْحُ والشَّيْبُ وازِع[3] [الطويل]

وقرأَ ابن كثير، وأَبو عمرو، وابن عامر: ﴿وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ﴾ بإِضافة ﴿خِزْىِ﴾ وكسر الميم من ﴿يَوْمِئِذٍ﴾، وهذا توسع في إِضافة المصدر إِلى الظرف، كما قال: ﴿مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [سبأ: ٣٣]، ونحو هذا، وقياسُ هذه القراءَة أَن يقال: سِيرَ عليه يومُئذ، برفع الميم، وهذه قراءَتهم في قوله تعالى: ﴿مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ﴾ [المعارج: ١١]، و﴿من فزعِ يومئذ﴾ [النمل: ٨٩].

وقرأَ عاصم، وحمزة كذلك إِلا في قوله: ﴿مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ﴾ فإِنهما نَوَّنا العين وفتحا الميم.

---

(١) وهي شاذة، عزاها في البحر المحيط (٦/ ١٧٨) لطلحة وأبان بن تغلب، وفي الشواذ للكرماني (ص: ٢٣٦)، لآخرين.

(٢) ساقط من المطبوع.

(٣) سبق الاستشهاد بهذا البيت في آخر تفسير سورة المائدة.

واختلف عن نافع في كسر الميم وفتحها، وهويضيف في الوجهين.

وقرأ الكسائي: ﴿مِنْ خِزْيِ يَوْمَئِذٍ﴾ بترك التنوين وفتح الميم من ﴿يَوْمَئِذٍ﴾، وهذا جمعٌ بين الإِضافة وبناءِ الظرف، وقرأ: ﴿مِّن فَزَعٍ﴾ كعاصم وحمزة[١].

وأَما (إِذٍ) فكان حقها «إِذْ» ساكنة إِلا أَنها من حقّها أَن تليها الجمل، فلما حذفت لها هاهنا الجملة عُوضت بالتنوين.

والإِشارة بقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ إِلى يوم التعذيب.

وقوله تعالى: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ﴾ الآية، رُوي أَن صالحاً عليه السلام قال لهم حين رغا الفصيل: ستصفرُّ وجوهكم في اليوم الأَول، وتحمرُّ في الثاني، وتسْوَدُّ في الثالث، فلما كان كذلك تكفنوا في الأَنطاع، واستعدوا للهلاك، وأَخذتهم صيحة فيها من كل صوت مهول، صدّعت قلوبهم وأَصابت كل من كان منهم في شرق الأَرض وغربها، إلا رجلاً كان في الحرم فمنعه الحرم من ذلك، ثم هلك بعد ذلك، ففي مصنف أَبي داود: قيل: يا رسول الله، مَنْ ذلك الرجل؟ قال: «أَبو رُغال»[٢].

قال القاضي أبو محمد: وفي / هذا نظر، وخلافه في السِّير[٣]. [٣/ ٤٢]

وذُكِّر الفعل المسند إِلى الصيحة إِذ هي بمعنى الصياح[٤]، وتأْنيثها غير حقيقي، وقيل: جاز ذلك وهي مؤنثة لمَّا فُصل بين الفعل وبينها، كما قالوا: حضر القاضيَ اليوم

(١) وكلها سبعية، إلا أن الكسر عن نافع ليس من طرق التيسير، انظر ذلك كله في السبعة لابن مجاهد (ص: ٣٣٦).

(٢) القصة الأولى أخرجها الطبري (١٠/ ٢٩٥-٢٩٦) من طريق معمر، عن قتادة من قوله، وأما حديث أبي رغال فأخرجه أبو داود (٣٠٩٠)، والبيهقي في «الكبرى» (٤/ ١٥٦) من طريق محمد ابن إسحاق، عن إسماعيل بن أمية، عن بجير بن أبي بجير، عن عبد الله بن عمرو بن العاص به، وبجير بن أبي بجير مجهول كما في «التقريب» (٦٣٦).

(٣) انظر: سيرة ابن هشام (١/ ٤٧).

(٤) في الأسدية١: «الضجة».

امرأةٌ، والأول أصوب، والصيحة إنما تجيءُ مستعملة في ذكر العذاب لأنها فَعْلة تدل على مرّة واحدة شاذة، والصياح [يدل على][١] مصدر متطاول، وشذَّ في كلامهم قولهم: لقيته لقاءَة واحدة، والقياس: لَقْية.

و﴿جَٰثِمِينَ﴾ أي: باركين[٢] قد صعق بهم، وهو تشبيه بجثوم الطير، وبذلك يشبَّه جثوم الأثافيّ، وجثوم الرماد.

و﴿يَغْنَوْا﴾ مضارع من غَنِي في المكان[٣] إذا أقام فيه في خفضِ عيشٍ، وهي المغاني.

وقرأ حمزة وحده: ﴿أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ﴾ وكذلك في الفرقان، والعنكبوت، والنجم[٤]، وصرفها الكسائي كلَّها وقولَه: ﴿ألا بعداً لثمودٍ﴾، واختلف عن عاصم، فروى عنه حفص ترك الإجراءِ كحمزة، ورَوَى عنه أبو بكر إجراءَ الأربعة وتَرْكَه في قوله: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾.

وقرأ الباقون: ﴿أَلا إِنَّ ثَمُوداً﴾ فصرفَتْ، ﴿أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾ غير مصروف، والقراءَتان فصيحتان، وكذلك صرفوا في الفرقان، والعنكبوت، والنجم[٥].

والله الموفق[٦].

قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾﴾.

---

(١) زيادة من نجيبويه وأحمد٣، وفي نور العثمانية: «يدب» فقط.

(٢) في الأصل والمطبوع: «باكين».

(٣) في المطبوع: «الكان» وهو خطأ.

(٤) أما في (الفرقان) ففي الآية (٣٨)، وأما في (العنكبوت) ففي الآية (٣٨)، وأما في (النجم) ففي الآية (٥١).

(٥) وكلها سبعية، انظر السبعة لابن مجاهد (ص: ٣٣٧)، والتيسير (ص: ١٢٥)، ويعني بالإجراء الصرف.

(٦) زيادة من الحمزوية.

الرُّسل: الملائكة، وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل، وقالت فرقة بدل إِسرافيل[١]: عزرائيل ملك الموت، ورُوي أَن جبريل منهم كان مختصّاً بإِهلاك قرية لوط، وميكائيل كان مختصّاً بتبشير إِبراهيم بإسحاق، وإِسرافيل مختصّاً بإِنجاءِ لوط ومن معه[٢].

قال القاضي أبو محمد: وهذه الآية تقضي باشتراكهم في البشارة بإِسحاق.

وقالت فرقة وهي الأَكثر: البُشْرى هي بإسحاق، وقالت فرقة: البُشرى هي بإِهلاك قوم لوط.

وقوله: ﴿سَلَٰمًا﴾ نصبٌ على المصدر، والعامل فيه فعل مضمر من لفظه كأَنه قال: أسلم سلاماً، ويصح أَن يكون ﴿سَلَٰمًا﴾ حكاية لمعنى ما قالوه لا لِلَفظهم، قاله مجاهد والسدي[٣]، فلذلك عمل فيه القول، كما تقول لرجل قال: «لا إِله إِلا الله»: قلت حقّاً أَو إِخلاصاً، ولو حكيت لفظه لم يصح أَن تُعمل فيه القول.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ سَلَٰمٌ﴾ حكاية لِلَفْظه، و﴿سَلَٰمٌ﴾ مرتفع إِما على الابتداءِ، والخبر محذوف تقديره: عليكم، وإِما على خبر ابتداءٍ محذوف تقديره: أَمْرِي سلامٌ.

وهذا كقوله: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ [يوسف: ١٨]، إِما على تقدير: فأَمري صبر جميل، وإِما على تقدير: فصبر جميل أَجمل[٤].

وقرأَ ابن كثير، ونافع، وأَبو عمرو، وابن عامر، وعاصم: ﴿قَالُواْ سَلَٰمًاۖ قَالَ سَلَٰمٌ﴾.

وقرأَ حمزة، والكسائي: ﴿قالوا سلاماً قالَ سِلْمٌ﴾، وكذلك اختلافهم في سورة الذاريات[٥].

---

(١) في المطبوع: «إسرائيل»، وهو خطأ.

(٢) انظر: تفسير الطبري (١٢/ ٤٦٥-٥١٥-٥١٦).

(٣) انظر: تفسير الطبري (٢٢/ ٤٢٤)، معاني القرآن للنحاس (٥/ ٤٦)، ولم أقف على قول السدي.

(٤) في نور العثمانية والحمزوية ونجيبويه: «أمثل».

(٥) فهما سبعيتان، انظر: التيسير (ص: ١٢٥).

وذلك على وجهين: يحتمل أَن يريد به السلام بعينه، كما قالوا: حلٌّ وحلالٌ، وحرمٌ وحرامٌ، ومن ذلك قول الشاعر:

مَرَرْنَـا فَقُلْنَـا إِيهِ سِـلْمٌ فَسَـلَّمَتْ كماكْتَلَّ بالْبَرْقِ الْغَمَامُ اللَّوَائِحُ[1] [الطويل]

اكْتَلَّ: اتَّخذ إِكْليلاً أَو نحو هذا، قال الطبري: ورُوي: كَمَا انْكَلَّ[2]، ويحتمل أَن يريد بالسلم: ضد الحرب، تقول: نحن سِلْمٌ لكم.

وكان سلام الملائكة دعاءً مرجُوّاً، فلذلك نصب، وحيَّا الخليلُ بأَحسن مما حُيِّي وهو الثابت المتقرر[3]، ولذلك جاءَ مرفوعاً.

وقوله: ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ﴾، يصح أَن تكون (مَا) نافية، وفي ﴿لَبِثَ﴾ ضمير إبراهيم، و﴿أَن جَآءَ﴾ في موضع نصب، أَي: بأَن جاءَ، ويصح أَن تكون (مَا) نافية، و﴿أَن جَآءَ﴾ بتأْويل المصدر في موضع رفع بـ﴿لَبِثَ﴾، أَي: ما لبث مجيئُه، وليس في ﴿لَبِثَ﴾ ـ على هذا ـ ضمير إِبراهيم، ويصح أَن تكون (مَا) بمعنى الذي، وفي ﴿لَبِثَ﴾ ضمير إِبراهيم، و﴿أَن جَآءَ﴾ خبر (مَا)، أَي: فلبْثُ إِبراهيم مجيئُه بعجلٍ حنيذ.

وفي أَدب الضيف أَن يُعَجِّل قِرَاه من هذه الآية.

والْحَنِيذُ بمعنى المحنوذ، ومعناه: بعجل مشويٍّ نضج يقطر ماؤُه، وهذا القطر يفصل[4] الحنيذ من[5] جملة المشويات، ولكن هيئة المحنوذ في اللُّغة: الذي يُغَطَّى بحجارة أَو رمل محمي، أَو حائل بينه وبين النار يُغَطَّى به، والـمُعَرَّضُ من الشواءِ: الذي

(١) بلا نسبة في معاني القرآن للفراء (٢/ ٢١)، ومعجم ديوان الأدب (١/ ١٩٤)، وتفسير الثعلبي (٥/ ١٧٧).

(٢) تفسير الطبري (١٥/ ٣٨٢).

(٣) في نجيبويه: «المتقدر».

(٤) في التركية والمصرية وأحمد٣: يفضل.

(٥) في التركية: «على»، وسقطت «جملة» من أحمد٣، والجملة كلها ساقطة من نور العثمانية.

يصفف على الجمر، والـمُهَضَّبُ الشواءُ الذي بينه وبين النار حائل يكون الشواءُ عليه لا مدفوناً به، والتحنيذ في تضمير الخيل هو أَن يُغَطَّى الفرس بِجُلٍّ على جُلٍّ[1] ليتصَبَّب عرَقُهُ.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيۡدِيَهُمۡ﴾ الآية، رُوي أَنهم كانوا ينكتون بقداح كانت في أَيديهم في اللحم ولا تصل أَيديهم إِليه.

وفي هذه الآية من أَدب الطعام أَن لصاحب الضيف أَن ينظر من ضيفه هل يأْكل أَم لا؟.

قال القاضي أبو محمد: وذلك ينبغي أَن يكون بتلَفُّت ومُسارقة لا بتحديد النظر، فروي أَن أَعرابيّاً أَكل مع سليمان بن عبد الملك، فرأَى سليمان في لقمة الأَعرابي شعرة فقال له: أَزل الشعرة عن لقمتك، فقال له: أَتنظر إِليَّ نظر من يرى الشعرة في لقمتي؟ والله لا أَكلت معك[2].

و﴿نَكِرَهُمۡ﴾ على ما ذكر كثير من الناس معناه: أَنْكرهم، واستشهد لذلك بالبيت الذي نَحلَه أَبو عمرو بن العلاءِ الأَعشى، وهو:

[البسيط] وَأَنْكَرَتْنـي ومـا كَان الَّـذي نَكِـرتْ ... مِنَ الْحَوادِثِ إِلاَّ الشَّيْبَ والصَّلَعَا[3]

وقال بعض الناس: نَـكِرَ هو مستعمل فيما يُرى بالبصر فينكر، وَأَنْكَرَ هي مستعملة فيما لا يقرر من المعاني، فكأَن الأَعشى قال: وأَنكرتني موَدَّتي وأَدْمتي، ونحوه، ثم جاء بـ«نكِر» في الشيب والصلع الذي هو مرئيٌّ بالبصر، ومن هذا قول أَبي ذُؤَيب:

[الكامل] فَـنَـكِرْنَـهُ فَنَـفَـرْنَ وامْتَـرَسَـتْ بِـهِ ... هوْجـاءُ هادِيـةٌ وهـادٍ جُرْشُـعُ[4]

---

(١) الجُلُّ: كساءٌ تُغَطّى به الدابة وتصان، كالثوب لِلإنسان.

(٢) القصة في عيون الأخبار (١/ ٣٥٣)، وفيه أن صاحب القصة معاوية وليس سليمان بن عبد الملك.

(٣) تقدم في أول الكتاب أثناء مقدماته.

(٤) انظر عزوه له في المفضليات (ص: ٤٢٤)، وجمهرة أشعار العرب (ص: ٥٤٢)، ومجمل اللغة لابن فارس (ص: ٨٢٧).

والذي خاف منه إبراهيم عليه السلام ما يدل عليه امتناعهم من الأَكل، فَعُرْفُ من جاءَ بِشَرّ أَلاَّ يأْكل من طعام المنزول به.

و﴿وَأَوۡجَسَ﴾ معناه: أَحسّ في نفسه خيفة منهم، والوجيس: ما يعتري النفس عند الحذر وأوائل الفزع، فأَمَّنوه بقولهم: ﴿لَا تَخَفۡ﴾، وعلم أَنهم الملائكة.

ثم خرجت الآية إلى ذكر المرأَة وبشارتها، فقالت فرقة: معناه: قائِمَةٌ خلف ستر تسمع محاورة إبراهيم مع أَضيافه، وقالت فرقة: معناه: قائِمَةٌ في صلاة، وقال السدي: «معناه: قائِمَةٌ تخدم القوم»[(١)].

وفي قراءَة ابن مسعود: (وهي قائمة وهو جالس)[(٢)].

قوله: ﴿فَضَحِكَتۡ﴾، قال مجاهد: معناه: «حاضت»[(٣)]، وأَنشد على ذلك اللغويون:

وَضِحْكُ الأَرَانِبِ فَوْقَ الصَّفَا كَمِثْلِ دَم الجَوْفِ يوْمَ اللِّقَاء[(٤)]

وهذا القول ضعيف قليل التمكن، وقد أَنكر بعض اللغويين / أَن يكون في كلام [٣/ ٤٣] العرب ضحكت بمعنى حاضت، وقرره بعضهم، ويقال: ضحك الحوض: إذا امتلأَ وفاض، وردّ الزَّجاج قول مجاهد[(٥)].

وقال الجمهور: هو الضحك المعروف، واختُلِف، مِمَّ ضَحِكَتْ؟:

فقالت فرقة: ضحكت من تأْمينهم لإِبراهيم بقولهم: ﴿لَا تَخَفۡ﴾.

وقال قتادة: «ضحكت هزؤاً من قوم لوط لو أَن يكونوا على غفلة وقد نفذ من أَمر الله تعالى فيهم ما نفذ».

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١٥/ ٣٨٩-٣٩٠).

(٢) وهي مخالفة للرسم أقرب للتفسير، انظرها في تفسير الطبري (١٥/ ٣٩٠)، وتفسير الثعلبي (٥/ ١٧٨).

(٣) تفسير الطبري (١٥/ ٣٩٢)، تفسير الماوردي (٢/ ٤٨٤).

(٤) البيت في تفسير الطبري (١٥/ ٣٩٣)، والمحتسب (١/ ٣٢٣)، بلا نسبة.

(٥) انظر: معاني القرآن وإعرابه له (٣/ ٦٢).

وقال وهب بن مُنَبه: «ضحكت من البشارة بإسحاق»، وقال: هذا مقدم بمعنى التأْخير.

وقال محمد بن قيس: «ضحكت لظنها بهم أَنهم يريدون عمل قوم لوط».

قال القاضي أبو محمد: وهذا قول خطأٌ لا ينبغي أَن يلتفت إليه، وقد حكاه الطبري[١]، وإِنما ذكرته لمعنى التنبيه على فساده.

وقالت فرقة: ضحكت من فزع إِبراهيم من ثلاثة وهي تعهده يغلب الأَربعين من الرجال، وقيل: المئة.

وقال السدي: «ضحكت من أَن تكون تخدم وإِبراهيم يحتد[٢] ويسعى والأضياف لا يأْكلون»[٣].

وقيل: ضحكت سروراً بصدق ظنها، لأَنها كانت تقول لإِبراهيم: إِنه لا بد أَن ينزل العذاب بقوم لوط. ورُوي أَن الملائكة مسحت العجل فقام حيّاً فضحكت لذلك.

وقرأَ محمد بن زياد الأَعرابي[٤]: «فَضَحَكَتْ» بفتح الحاءِ[٥].

وامرأَة إِبراهيم هي سارة بنت هارون بن ناحور، وهو إِبراهيم بن آزر بن ناحور، فهي ابنة عمّه، وقيل: هي أُخت لوط.

قال القاضي أبو محمد: وما أَظن ذلك إِلا أُخوة القرابة؛ لأَن إِبراهيم هو عمّ لوط فيما رُوي.

---

(١) انظر الأقوال الثلاثة في تفسير الطبري (١٥/ ٣٩٠-٣٩١)، بتصرف وتقديم وتأخير.

(٢) في التركية والحمزوية، ونور العثمانية والمصرية: «يحفد».

(٣) تفسير الطبري (١٥/ ٣٨٩-٣٩٠). بتصرف.

(٤) هو محمد بن زياد بن الأعرابي أبو عبد الله الهاشمي مولى آل العباس بن محمد الهاشمي، كان عجباً في معرفة لغة العرب والأنساب، كوفي الأصل، زاهد، ورع، صدوق، حفظ من الغريب والنوادر ما لم يحفظه غيره، توفي سنة (٢٣١ هـ) تاريخ الإسلام (١٧/ ٣٢٠).

(٥) وهي شاذة، انظر عزوها له في المحتسب (١/ ٣٢٣).

وذكر الطبري «أَن إِبراهيم عليه السلام لما قدَّم العجل قالوا له: إِنا لا نأْكل طعاماً إِلا بثمن، فقال لهم: ثمنه أَن تذكروا الله تعالى عليه في أَولٍ وتحمدوه في آخِرٍ، فقال جبريل لأَصحابه: بحقٍّ اتخذ الله هذا خليلاً»[١].

وقوله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا﴾، أَضاف فعل الملائكة إِلى ضمير اسم الله تعالى إِذ كان ذلك بأَمره ووحيه، وبشر الملائكةُ سارة بِإِسْحاقَ وبأَن إِسحاق سيلد يعقوب، ويُسَمّى ولَدُ الولدِ: الْوَلَدَ من الوراءِ، وهو قريب من معنى «وراء» في الظرف، إِذْ هو ما يكون خلْف الشيءِ وبعدَه، ورأَى ابن عباس رجلاً معه شاب، فقال له: من هذا؟ فقال له: ولد ولدي، فقال: هو ولدك من الوراءِ، فغضب الرجل، فذكر له ابن عباس الآية[٢].

وقرأَ ابن كثير، ونافع، وأَبو عمرو، والكسائي: «يعْقُوبُ» بالرفع على الابتداءِ والخبر المقدم، وهو على هذا داخل في البشرى، وقالت فرقة: رفعه على القطع بمعنى: ومن وراءِ إِسحاق يحدث يعقوب، وعلى هذا لا يدخل في البشارة.

وقرأَ ابن عامر وحمزة: ﴿يَعْقُوبَ﴾ بالنصب، واختلف عن عاصم[٣].

فمنهم من جعله معطوفاً على (إِسحاق) إِلا أَنه لم ينصرف، واستسهل هذا القائل أَنْ فرق بين حرف العطف والمعطوف بالمجرور، وسيبويه لا يجيز هذا إِلا على إِعادة حرف الجر، وهو كما تقول: مَرَرت بزيدٍ اليوم وأَمسِ عمرٍو، فالوجه عنده: وأَمسِ بعمرٍو، وإِذا لم يُعَد ففيه كبير قبح، والوجه في نصبه أَن ينتصب بفعل مضمر تدل عليه

---

(١) تفسير الطبري (١٥/ ٣٩٠)، بتصرف.

(٢) ضعيف، هذا الأثر أخرجه الطبري (١٢/ ٤٨٠) من طريق عبد العزيز بن أبان السعيدي، عن سفيان الثوري، عن حبيب بن أبي ثابت، عن ابن عباس رضي الله عنهما به، وعبد العزيز بن أبان متروك، وأخرجه ابن أبي حاتم (١١٠٢٤) في تفسيريهما من طريق أبي أحمد الزبيري، عن نصر، عن حبيب به، ولم أعرف نصراً شيخ أبي أحمد الزبيري.

(٣) فروى حفص النصب، وشعبة الرفع، انظر: التيسير (ص: ١٢٥)، والسبعة لابن مجاهد (ص: ٣٣٨).

البشارة وتقديره: ومِن وراءِ إِسحاق وهبنا يعقوب، وهذا رجَّحه أَبو عليّ[١].

قال القاضي أبو محمد: ورُوي أَن سَارَة كانت في وقت هذه البشارة بنت تسع وتسعين سنة، وإِبراهيم ابن مئة سنة.

وهذه الآية تدل على أَن الذبيح هو إسماعيل، وأَنه أَسَنُّ من إسحاق، وذلك أَن سارَة كانت في وقت إِخدام الملك الجائر هاجر أُم إِسماعيل امرأَة شابة جميلة حسبما في الحديث[٢]، فاتخذها إِبراهيم عليه السلام أُمَّ ولد فغارت لها سارَة، فخرج بها وبابنها إِسماعيل من الشام على البراق، وجاءَ من يومه مكة فتركها حسبما في السير[٣]، وانصرف إِلى الشام من يومه، ثم كانت البشارة بإسحاق وسارَة عجوز مُتَجَالَّة.

وأَما وجه دلالة الآية على أَن إسحاق ليس بالذبيح فهو أَن سارة وإِبراهيم بُشِّرا بإسحاق وأَنه يولد له يعقوب، ثم أُمر بالذبح حين بلغ ابنه معه السعي، فكيف يؤْمر بذبح ولدٍ قد بُشِّر أَنه سيولد لابنه ذلك؟ وأَيضاً فلم يقع قط في أَثر أَن إسحاق دخل الحجاز، وإِجماعٌ أَنَّ أَمْرَ الذبح كان بمنًى[٤].

ويؤيد هذا الغرض قول رسول الله ﷺ: «أَنا ابن الذبيحين»[٥]، يريد أَباه عبد الله

---

(١) انظر كلامه، ونقله عن سيبويه في الحجة للقراء السبعة (٤/ ٣٦٥).

(٢) متفق عليه، هذا الحديث أخرجه البخاري (٢٢١٧)، ومسلم (٢٣٧١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) انظر قصة إسماعيل وهاجر في أول سيرة ابن هشام (١/ ٥).

(٤) انظر وجه الدلالة من الاية على أن الذبيح إسماعيل في: تفسير الطبري (٢١/ ٨٥)، وتفسير الثعلبي (٨/ ١٥٣).

(٥) لا أصل له بهذا اللفظ من قول النبي ﷺ، وقد جاء عند الطبري (١٩/ ٥٩٧-٥٩٨)، والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٥٥٤) وابن عساكر في تاريخ دمشق (٥٦/ ٢٠٠) من طريق عمر بن عبد الرحيم الخطابيّ، عن عبيد بن محمد العُتبي من ولد عتبة بن أبي سفيان، عن أبيه، قال: ثني عبد الله بن سعيد، عن الصّنَابحي، قال: كنا عند معاوية بن أبي سفيان، فتذاكر القوم إسماعيل وإسحاق بن إبراهيم فقال: بعضهم الذبيح إسماعيل، وقال: بعضهم بل إسحاق الذبيح، فقال: معاوية سقطتم =

وأَباه إِسماعيل، ويؤيده ما نزع إِليه مالك رحمه الله من الاحتجاج برتبة سورة الصافات[١]، فإِنه بعد كمال أَمر الذبيح قال: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الصافات: ١١٢].

قال القاضي أبو محمد: وفي هذا كله موضع معارضات لقائل القول الآخر: إِنَّ الذَّبيح هو إسحاق، ولكن هذا الذي ذكرناه هو الأَرجح، والله أَعلم.

قوله عز وجل: ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾.

اختلف الناس في الأَلف التي في قوله تعالى: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ﴾، وأَظهرُ ما فيها أَنها بدل ياءِ الإِضافة، أَصلها: يا وَيْلَتي، كما تقول: يا غُلامَا ويا غَوثا، وقد تُردف هذه الأَلف بهاءٍ في الكلام، ولم يُقرأْ بها.

وأَمال هذه الأَلف عاصم، والأَعمش، وأَبو عمرو[٢].

ومعنى ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ﴾ في هذا الموضع: العبارة عما دهم النفس من العجب في ولادة عجوز، وأَصل هذا الدعاءُ بالويل ونحوه في التَّفجع لشدَّةٍ أَو مكروه يدهم[٣] النفس، ثم استعمل بعْدُ في عَجَب يدهم النفس، وقال قوم: إِنما قالت: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ﴾ لمَا مرّ بفكرها من أَلم

= على الخبير كنا عند رسول الله ﷺ فأتاه الأعرابي فقال: يا رسول الله، خلفت البلاد يابسة والماء يابساً هلك المال وضاع العيال فعُدْ علي بما أفاء الله عليك يا ابن الذبيحين، فتبسم رسول الله ﷺ ولم ينكر عليه، وقد وقع في إسناده اختلاف، وفيه من لا يعرف، وقال ابن كثير (٧/ ٣٥): حديث غريب جدّاً.اهـ. ويراجع كشف الخفاء للعجلوني (رقم ٦٠٦).

(١) انظر بسط ذلك في البيان والتحصيل (١٨/ ٥٥)، والذي فيه في جامع العتبية وغيره عن مالك أن المفدي إسحاق، وهو ضعيف.

(٢) فيه تخليط، وإنما أمالها حمزة والكسائي، ولورش ودوري أبي عمرو فيها التقليل، انظر: التيسير (ص: ٤٨)، والشاطبية (ص: ٢٦).

(٣) في المطبوع: «يهم».

الولادة وشدتها، ثم رجعت بفكرها إلى التعجب ونطقت بقولها: ﴿ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ﴾ الآية.

وقرأت فرقة: ﴿ءَأَلِدُ﴾ بتحقيق الهمزتين[1]، وقرأت فرقة بتخفيف الأولى وتحقيق الثانية، وفي النطق بهذه عُسْرٌ، وقرأت فرقة بتحقيق الأُولى وتخفيف الثانية، والتخفيف هنا مدُّها، وقرأت فرقة: ﴿ءَاأَلِدُ﴾ بتحقيق الهمزتين ومدة بينهما[2].

والعجوز: الـمُسِنَّة، وقد حكى بعض الناس أَن العرب تقول: العجوزة، والبعل: الزوج.

و﴿شَيْخًا﴾ نصب على الحال، وهي حالٌ من مُشار إِليه لا يستغنى عنها لأنها مقصودُ الإِخبار، وهي لا تصح إلاَّ إِذا لم يقصد المتكلم التعريف بذي الحال، مثل أَن يكون المخاطب يعرفه، وأَما إِذا قصد التعريف به لزم أَن يكون التعريف في الخبر قبل الحال وتجيءُ الحال على بابها مستغنًى عنها، ومثال هذا قولك: هذا زيد قائماً، إِذا أَردت التعريف بزيد، أَو كان معروفاً وأَردت التعريف بقيامه، وأَما إِن قصد المتكلم أَن زيديته إِنما هي ما دام قائماً فالكلام لا يجوز.

[٣/ ٤٤] وقرأَ الأعمش: (وَهَذَا بَعْلِي شَيْخٌ)، قال / أَبو حاتم: وكذلك في مصحف ابن مسعود[3]، ورفْعه على وجوه:

منها: أَنه خبر بعد خبر كما تقول: هذا حلو حامض.

ومنها: أَن يكون خبر ابتداءٍ مضمر تقديره: هو شيخ.

---

(١) في الأسدية١: «بتخفيف»، وفي نور العثمانية: «بين الهمزتين».

(٢) لم يصنع شيئاً، وحاصل مذاهب السبعة فيها بعد اتفاقهم على تحقيق الأولى: تسهيل الثانية مع الإدخال لقالون وأبي عمرو، وبدونه لابن كثير وورش، وله أيضاً إبدالها ألفاً، ولهشام الإدخال مع تحقيق الثانية وتسهيلها، والباقون بالتحقيق، البدور الزاهرة (ص: ١٥٧).

(٣) وهي شاذة، انظر عزوها لابن مسعود في المصاحف (ص: ١٧٨)، ومعاني القرآن للفراء (١/ ١٢)، والكتاب لسيبويه (٢/ ٨٣)، ومعاني القرآن للأخفش (١/ ٣٨)، وللأعمش مع الأوجه الأربعة في المحتسب (١/ ٣٢٤).

ورُوي أَن بعض الناس قرأَه: (وهَذَا بَعْلي هَذَا شَيْخٌ)، وهذه القراءَة شبيهة بهذا التأْويل[١].

ومنها: أَنه بدل من بَعْلِي.

ومنها أَن يكون قولها: ﴿بَعۡلِي﴾ بدلاً من (هذا)، أَو عطفَ بيان عليه، ويكون (شَيْخٌ) خبرَ (هذا).

ويقال: شيخٌ وشيْخةٌ، وبعض العرب يقول في المذكَّر والمؤنث: شيخ، ورُوي أَن سَارَة كانت وقت هذه المقالة من تسع وتسعين سنة، وقيل: من تسعين، قاله ابن إسحاق[٢]، وقيل: من ثمانين، وكذلك قيل في سن[٣] إِبراهيم: إِنه كان مئة وعشرين سنة، وقيل: مئة سنة، وغير ذلك مما يحتاج إِلى سند.

والضمير في قوله: ﴿قَالُوٓاْ﴾ للملائكة، وقوله: ﴿مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ يحتمل أَن يريد واحدَ الأُمور، أَي: من الولادة في هذه السن، ويحتمل أَن يريد مصدر أَمَـرَ، أَي: مما أَمر الله به في هذه النازلة.

وقوله: ﴿رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ﴾، يحتمل اللفظ أَن يكون دعاءً وأَن يكون إِخباراً، وكونه إِخباراً أَشرف لأَن ذلك يقتضي حصول الرحمة والبركة لهم، وكونه دعاءً إِنما يقتضي أَنه أَمر يُتَـرَجَّى ولم يتحصل بعد.

ونصب ﴿أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ﴾ على الاختصاص، هذا مذهب سيبويه[٤].

ولذلك جَعَل هذا والنصبَ على المدح في بابين، كأَنه ميَّز النصب على المدح

---

(١) ولعلها من غرائب الشيخ، وفي تهذيب اللغة (٢/ ٢٥٠) في توجيه القراءة السابقة: كأنك قلت: هذا بعلي، هذا شيخ.

(٢) تفسير الطبري (١٥/ ٣٩٨)، وتفسير الماوردي (٢/ ٤٨٦)، وتفسير ابن أبي حاتم (٦/ ٢٠٥٦).

(٣) من أحمد**٣** والحمزوية.

(٤) الكتاب لسيبويه (٢/ ٢٣٦).

بأَن يكون المنتصب لفظاً يتضمن بنفسه مدحاً، كما تقول: هذا زيد عاقلَ قومه، وجعل الاختصاص إِذا لم يتضمن اللفظة ذلك، كقوله: «إِنَّا معاشرَ الأَنبياءِ»(١)، و: إِنَّا بني نَهْشَلٍ(٢).

قال القاضي أبو محمد: ولا يكون الاختصاص إِلا بمدح أَو ذم، لكن ليس في نفس اللفظة المنصوبة.

وهذه الآية تعطي أَن زوجة الرجل من أَهل بيته لأَنها خوطبت بهذا، فيقْوى القول في زوجات النبي ﷺ بأَنهن من أَهل بيته الذين أَذهب الله عنهم الرجس، بخلاف ما تذهب إِليه الشيعة، وقد قاله أَيضاً بعض أَهل العلم، قالوا: أَهل بيته: الذين حُرموا الصدقة(٣).

والأَول أَقوى، وهو ظاهر جليّ من سورة الأَحزاب؛ لأَنه ناداهن بقوله: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ﴾، ثم بقوله: ﴿أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ﴾ [الأحزاب:٣٢-٣٣].

قال القاضي أبو محمد: ووقع في «البخاري» عن ابن عباس قال: «أَهْل بيته: الذين حرموا الصدقة بعده»(٤)، فأَراد ابن عباس: أَهل بيت النسب الذين قال رسول الله ﷺ فيهم: «إِن الصدقة لا تحل لأَهل بيتي، إِنما هي أَوساخ الناس»(٥).

والبيت في هذه الآية، وفي سورة الأَحزاب بيتُ السكنى، ففي اللفظ اشتراك(٦) ينبغي أَن يُتَحَسَّسَ إِليه، ففاطمة رضي الله عنها من أَهل بيت محمد ﷺ بالوجهين، وعلي رضي الله عنه بالواحد، وزوجاته بالآخر.

---

(١) أخرج عبد بن حميد (٦٢٤)، وابن حبان (١٧٧٠) عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «أمرنا معاشر الأنبياء أن نؤخر سحورنا، ونمسك بأيدينا على شمائلنا في الصلاة».

(٢) تمامه: إِنَّا بَني نَهْشَلٍ لا نَدَّعي لأبٍ * عنهُ ولا هُوَ بالأَبْنَاءِ يَشْرينَا، وهو لنهشل بن حري النهشلي كما في الشعر والشعراء (٢/ ٦٢٢)، وسماه في عيون الأخبار (١/ ٢٨٧) بشامة، ونسبه في خزانة الأدب (٨/ ٣١٢): ابن حزن، وكناه في الكامل (١/ ٩٥) أبا مخزوم.

(٣) انظر هذا القول في تفسير الإمام الشافعي (٢/ ٩٧٤)، وسيأتي مزيد كلام في سورة الأحزاب.

(٤) لم أقف عليه في البخاري، لكن رواه مسلم (٢٤٠٨) من حديث زيد بن أرقم.

(٥) صحيح مسلم، أخرجه برقم (١٠٧٢).

(٦) في نجيبويه زيادة: «لا».

وأَما الشيعة فيدفعون الزوجات بغضاً في عائشة رضي الله عنها.

و﴿حَمِيدٌ﴾ أَي: أَفعاله تقتضي أَن يُحْمد، ﴿مَّجِيدٌ﴾ أَي: متصف بأَوصاف العلوّ، ومَجُد الشيءُ: إذا حسنت أَوصافه[١].

قوله عز وجل: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾﴾.

الرَّوْعُ: الفزع والخيفة التي تقدم ذكرها، وكان ذهابه بإِخبارهم إِياه أَنهم ملائكة.

والْبُشْرى: يحتمل أَن يريد الولد، ويحتمل أَن يريد البشرى بأَن المراد غيره، والأَول أَبين.

وقوله: ﴿يُجَٰدِلُنَا﴾ فعل مستقبل جائز أَن يسُدّ مسَدَّ الماضي الذي يصلح لجواب ﴿لَمَّا﴾، لا سيما والإِشكال مرتفع بمُضيّ زمان الأَمر ومعرفة السامعين بذلك.

ويحتمل أَن يكون التقدير: ظلَّ ـ أَو أَخذ ونحوه ـ يجادلنا، فحذف اختصاراً لدلالة ظاهر الكلام عليه.

ويحتمل أَن يكون قوله: ﴿يُجَٰدِلُنَا﴾ حالاً من ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾، أَو من الضمير في قوله: ﴿وَجَآءَتْهُ﴾، ويكون جواب (لمَّا) في الآية الثانية: قُلْنا: يا إبرهيمُ أعرِضْ عن هَذا، واختار هذا أَبو عليّ[٢].

والمجادلة: المقابلة في القول والحُجج، وكأَنها أَعم من المخاصمة، فقد يجادل من لا يخاصم كإِبراهيم.

وفي هذه النازلة وُصِف إِبراهيم بالحلم، قيل: إِنه لم يغضب قط لنفسه إِلا أَن يغضب لله، والحلم: العقل إِذا انضاف إِليه أَناةٌ واحتمال.

---

(١) في نجيبويه: «أفعاله».

(٢) لم أقف له على شيء في تفسير هذه الآية، فلعله في كتبه التي لم تتوفر بعد.

والأَوَّاه معناه: الخائف الذي يكثر التأَوّه من خوف الله تعالى، ويروى أَن إِبراهيم عليه السلام كان يُسمع وجيبُ قلبه من الخشية، قيل: كما تُسمع أَجنحة النسور، وللمفسرين في الأَوّاه عبارات كلها ترجع إلى ما ذكرته وتلزمه.

والـمُنيبُ: الرَّجّاع إِلى الله تعالى في كل أَمره.

وصورة جدال إِبراهيم عليه السلام كانت أَن قال إِبراهيم: إِن كان فيهم مئة مؤمن أَتعذبونهم؟ قالوا: لا، قال: أَفَتِسْعون؟ قالوا: لا، قال: أَفثمانون؟ فلم يزل كذلك حتى بلغ خمسة ووقف عند ذلك، وقد عد في بيت لوط امرأَته فوجدهم خمسة[1] بها، فطمع في نجاتهم ولم يشعر أَنها من الكفرة، وكان ذلك من إِبراهيم حرصاً على إِيمان تلك الأُمة ونجاتها.

وقد كثر اختلاف رواة المفسرين لهذه الأَعداد في قول إِبراهيم عليه السلام، والمعنى كله نحو مما ذكرته.

وكذلك ذكروا أَن قوم لوط كانوا أَربع مئة أَلف في خمس قرى، وقالت فرقة: المراد: يُجادِلُنا في مؤمني قوم لوط، وهذا ضعيف.

وأَمْرُهُ بالإِعراض عن المجادلة يقتضي أَنها إِنما كانت في الكفرة حرصاً عليهم، والمعنى: قلنا: يا إِبراهيم أَعرض عن المجادلة في هؤلاءِ القوم والمراجعة فيهم، فقد نفذ فيهم القضاءُ، و﴿جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾، والأَمر هنا: واحد الأُمور بقرينة وصفه بالمجيءِ، فإِن جعلناه مصدر أَمَرَ قدرنا حذف مضاف، أَي: قد[2] جاءَ مقتضى أَمْر ربّك، ونحو هذا، وقوله: ﴿ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ﴾ ابتداءٌ وخبر، جملة في موضع خبر (إِنَّ)، وقيل: ﴿ءَاتِيهِمْ﴾ خبر (إِنَّ) فهو اسم فاعل معتمد، و﴿عَذَابٌ﴾ فاعل بـ﴿ءَاتِيهِمْ﴾.

---

(١) في المطبوع: «ستة».

(٢) من أحمد٣ ونور العثمانية والحمزوية.

وهذه الآية مقتضية أَن الدعاءَ إِنما هو أَن يوفق الله الداعي إِلى طلب المقدور، فأَما الدعاءُ في طلب غير المقدور فغير مُجْد ولا نافع.

قوله عز وجل: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى / بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾﴾. [٣/ ٤٥]

الرسل هنا هم الملائكة الذين كانوا أَضياف إِبراهيم عليه السلام، وذلك أَنهم لما خرجوا إِلى بلد لوط ـ وبيْنه وبيْن قرية إِبراهيم ثمانية أَميال ـ وصلوه، فقيل: وجدوا لوطاً في حرث له.

وقيل: وجدوا ابنته تستقي ماءً في نهر سدوم، وهي أَكبر حواضر قوم لوط، فسأَلوها الدلالة على من يضيفهم، ورأَت هيئتهم فخافت عليهم من قوم لوط، وقالت لهم: مكانكم، وذهبت إِلى أَبيها فأَخبرته، فخرج إِليهم، فقالوا له: نريد أَن تضيفنا الليلة، فقال لهم: أَوما سمعتم بعمل هؤلاءِ القوم؟ فقالوا: وما عملهم؟ فقال: أَشهد بالله لَهُمْ شرُّ[1] قوم في الأرض، وقد كان الله عزَّ وجلَّ قد قال للملائكة: لا تعذبوهم حتى يشهد عليهم لوط أَربع شهادات، فلما قال لوط هذه قال جبريل لأَصحابه: هذه واحدة، وتكرر القول بينهم حتى كرَّرَ لوط الشهادة أَربع مِرار، ثم دخل لوط بهم المدينة، وحينئذ ﴿سِيٓءَ بِهِمْ﴾، أَي: أَصابه سوءٌ.

و﴿سِيٓءَ﴾ فعل بُني للمفعول، والذَّرْعُ: مصدر مأْخوذ من الذراع، ولما كان الذراع موضع قوة الإِنسان قيل في الأَمر الذي لا طاقة له به: ضاق بهذا الأَمر ذِرَاعُ

---

(١) في نجيبويه: «إنهم لشر».

فلان، وذَرْعُ فلان، أَي: حيلته بذراعه، وتوسعوا في هذا حتى قلبوه فقالوا: فلان رحبُ الذِّراع، إِذا وصفوه بالقدرة[١]، ومنه قول الشاعر:

[السريع] يـا سيِّداً مـا أَنْـتَ مِـنْ سَـيِّد مُوَطَّأ الأَكنَـافِ رحْب الذِّرَاع[٢]

وقوله: ﴿هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٌ﴾ أَشار به إِلى ما كان يتخوفه من تعدّي قومه على أَضيافه واحتياجه إِلى المدافعة مع ضعفه عنها.

وعَصِيبٌ بناءُ اسم فاعل معناه: يعصب الناس بالشَّرّ كما يعْصب الخابط السَّلمة إِذا أَراد خبطها ونفض ورقها، ومنه قول الحجاج في خطبته: «ولأَعْصِبَنَّكُم عصْب السَّلَمة»[٣]، فهو من العصابة، ثم كثر وصفهم اليوم بعصيب، ومنه قول الشاعر وهو عديّ بن زيد:

[الوافر] وكنـتُ لِـزَازَ خَصْمِك لَـمْ أُعَرِّدْ وقَدْ سـلَكُوكَ في يَوْمٍ عَصِيبِ[٤]

ومنه قول الآخر:

[الطويل] فَإِنَّـكَ إلاَّ تُـرْضِ بَكْـرَ بْـنَ وَائِلٍ يَكُنْ لَكَ يَوْمٌ بِالْعِرَاقِ عَصِيبُ[٥]

فعصيب بالجملة: في موضع شديد وصعب الوطأَة، واشتقاقه كما ذكرنا.

وقوله تعالى: ﴿وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ﴾ الآية، رُوي أَن امرأَة لوط الكافرة لـمّا رأَت

(١) في التركية والمصرية ونجيبويه والأسدية١: «باتساع القدرة».
(٢) هو للسفاح بن بكير بن معدان اليربوعي كما في المفضليات (ص: ٣٢١)، والاختيارين (ص: ٣٩٥)، وإِيضاح الشواهد (١/ ٢٥٦).
(٣) البيان والتبيين (ص: ٣٦٦)، وعيون الأخبار (١/ ٢٢٦)، ومقاييس اللغة (٤/ ٢٧٣).
(٤) البيت لعدي بن زيد كما في مجاز القرآن (١/ ٢٩٣)، الجيم (٣/ ٢٠٨)، الأغاني (٢/ ١٠٣)، تفسير الطبري (١٥/ ٤٠٩).
(٥) البيت لوصيلة بن عتبان الشيباني من أبيات مشهورة يقولها لعبد الملك بن مروان، كما في أنساب الأشراف (٨/ ٣٢)، وسماه في الاشتقاق (ص: ٣٥٩) عِتْبان بن وَصِيلة، وكناه في تاريخ دمشق (٦٧/ ٢٥٦) أبا المنهال الخارجي.

الأَضياف ورأَت جمالهم وهيئتهم خرجت حتى أَتت مجلس قومها فقالت: إِن لوطاً أَضاف الليلة فتية ما رُئِي مثلهم جمالاً وكذا وكذا، فحينئذ جاءُوا يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ، ومعناه: يسرعون، والإِهراع هو أَن يسرع أَمْر بالإِنسان حتى يسير بين الخبب والجمز[١]، فهي مشية الأسير الذي يُسرَع به، والطامع المبادر إِلى أَمر يخاف فوته، ونحو هذا، يقال: هرع الرجل وأَهرعه طمع أَو عدو أَو خوف ونحوه.

والقراءَة المشهورة: ﴿يُهْرَعُونَ﴾ بضم الياء، أَي: يُهرعهم الطمع.

وقرأَت فرقة: (يَهْرعون) بفتح الياءِ[٢]، من هَرَع، ومن هذه اللفظة قول مهلهل:

فَجَاءُوا يُهْرَعونَ وهُمْ أُسَارَى تَقُودُهُمُ عَلَى رَغْمِ الأُنوفِ[٣] [الوافر]

وقوله: ﴿وَمِن قَبْلُ كَانُواْ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أَي: كانت عادتهم إِتيان الفاحشة في الرجال، فجاءُوا إِلى الأَضياف لذلك، فقام إِليهم لوط مدافعاً وقال: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي﴾:

فقالت فرقة: أَشار إِلى بنات نفسه وندبهم في هذه المقالة إِلى النكاح، وذلك على أَن كانت سُنَّتهم جواز نكاح الكافر المؤمنة، أَو على أَن في ضمن كلامه أَن يؤْمنوا.

وقالت فرقة: «إِنما كان الكلام مدافعة لم يُرد إِمضاءَه»، رُوي هذا القول عن أَبي عبيدة[٤]، وهو ضعيف، وهذا كما يقال لمن يَنْهَى عن مال الغير: الخنزير أَحَلُّ لك من هذا، وهذا التنطع ليس من كلام الأَنبياء صلى الله عليهم وسلم.

وقالت فرقة: أَشار بقوله: ﴿بَنَاتِي﴾ إِلى النساءِ جملة إِذْ نبيُّ القوم أَبٌ لهم، ويُقَوي

---

(١) وكلاهما ضرب من السير.

(٢) وهي شاذة، عزاها الكرماني في شواذ القراءات (ص: ٢٣٧) للحسن بن عمران.

(٣) انظر عزوه له في تفسير الطبري (١٥/ ٤١٢)، وتهذيب اللغة (١/ ١٠١)، وتفسير الثعلبي (٥/ ١٨١).

(٤) تفسير القرطبي (٩/ ٧٦)، وليس في مجاز القرآن ما يفيده.

هذا أَن في قراءَة ابن مسعود: (النبيُّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأَزْواجُهُ أمهاتُهم وهو أبٌ لهم)[١].

وأَشار أَيْضاً لوط في هذا التأْويل إِلى النكاح.

وقرأَت فرقة هي الجمهور: ﴿هُنَّ أَطۡهَرُ﴾ برفع الراء على خبر الابتداءِ.

وقرأَ الحسن، وعيسى بن عمر، ومحمد بن مروان[٢]، وسعيد بن جبير: (أَطْهَرَ) بالنصب[٣].

قال سيبويه: هو لَحْنٌ، وقال أَبو عمرو بن العلاءِ: احتبى فيه ابن مروان في لحنه[٤].

ووجهه عند من قرأَ بالنصب على الحال بأَن يكون ﴿بَنَاتِي﴾ ابتداءً، و﴿هُنَّ﴾ خبره، والجملة خبر ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾.

قال القاضي أبو محمد: وهو إِعراب مرويّ عن المبرد، وذكره أَبو الفتح، وهو خطأٌ في معنى الآية، وإِنما قوَّم اللفظ فقط، والمعنى إِنما هو في قوله: (أطهرَ)، وذلك قصد أَن يُخبر به، فهي حالٌ لا يُستغنى عنها، كما تقدم في قوله: ﴿وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًا﴾ [هود: ٧٢].

والوجه أَن يقال: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي﴾ ابتداءٌ وخبر، و﴿هُنَّ﴾ فصْلٌ، و(أطهرَ) حالٌ، وإِن كان شرط الفصل أَن يكون بين معرفتين ليفصل الكلام من النعت إِلى الخبر، فمن حيث كان الخبر هنا في (أطهر) ساغ القول بالفصل، ولما لم يستسغ ذلك أَبو عمرو ولا سيبويه لحَّنا ابن مروان، وما كان ليذهب عليهما ما ذكر أَبو الفتح.

---

(١) الأحزاب: (٦)، والقراءة المشار لها شاذة مخالفة للرسم وسيأتي بيانها في محلها.

(٢) في الأسدية١: «هارون»، وهو محمد بن مروان السدي، أبو عبد الرحمن الكوفي، صاحب التفسير، ذكره الحافظ أبو عمرو، وقال ورد عنه الرواية في حروف القرآن. غاية النهاية (٢/ ٢٦١)، وانظر: البحر المحيط (٢/ ١).

(٣) وهي شاذة، انظر عزوها لهم في المحتسب (١/ ٣٢٥)، مع التوجيه.

(٤) نقله عنه سيبويه في الكتاب (٢/ ٣٩٦)، دون ذكر الآية، وظاهر المحتسب (١/ ٣٢٥) أن القائل سيبويه.

والضَّيْف: مصدر يوصف به الواحد والجماعة والمذكر والمؤنث.

ثم وبَّخهم بقوله: ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾، أَي: يَزَعُكم ويردعكم.

وقوله تعالى: ﴿قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ الآية، رُوي أَن قوم لوط كانوا قد خطبوا بنات لوط فردّهم، وكانت سُنَّتهم أَن من رُدَّ في خطبة امرأَة لا تحل له أَبداً، فلذلك قالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾[1].

قال القاضي أبو محمد: وبعد أَلَّا تكون هذه المخاطبة[2]، فوجْه الكلام: إِنا ليس لنا إِلى بناتك تعلُّق، ولا هُمْ قصدنا، ولا لنا عادة نطلبها في ذلك.

وقولهم: ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ إِشارة إِلى الأَضياف، فلما رأَى استمرارهم في غيِّهم وغلبتهم وضعفه عنهم قال على جهة التَّفجُّع والاستكانة: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾.

و﴿أَنَّ﴾ في موضع رفع بفعل مضمر تقديره: لو اتفق أَو وقع ونحو هذا، وهذا مطردٌ في «أَنَّ» التابعة لـ«لَوْ»، وجواب «لو» محذوف، وحذفُ مثل هذا أَبلغ لأَنه يدع السامع ينتهي إِلى أَبعد تخيلاته، والمعنى: لفعلتُ كذا وكذا.

وقرأَ الجمهور: ﴿أَوْ ءَاوِيٓ﴾ بسكون الياءِ، وقرأَ شيبة وأَبو جعفر: (أَوْ آويَ)[3] بالنصب.

التقدير: أَوْ أَن آوِيَ، فتكون (أَنْ) مع (آوي) بتأْويل المصدر، كما قالت مَيْسُون بنت بحدل:

لَلُبْسُ عَبَاءَةٍ وتَقَرَّ عَيْنِي[4] .... [الوافر]

---

(١) لم أقف عليه مسنداً.

(٢) في المطبوع وأحمد٣ ونجيبويه: الخاصية، وفي نور العثمانية: الخاصة.

(٣) وهي شاذة، ليست من طرق النشر، انظر عزوها لهم في المحتسب (١/ ٣٢٦).

(٤) هي ميسون بنت بحدل الكلبية أم يزيد بن معاوية، انظر عزوه لها في حماسة الخالديين (ص: ٨٢)، والمحتسب (١/ ٣٢٦).

[٣/ ٤٦] ويكون ترتيب / الكلام: لو أَن لي بكم قوةً أَوْ أُوِيّاً، وأوى معناه: لجأَ وانضوى.

ومراد لوط عليه السلام بالرُّكن: العشيرة والمنَعة بالكثرة، وبلغ به قبيح فعلهم إِلى هذا مع علمه بما عند الله تعالى، فيروى أَن الملائكة وجَدَت حين قال هذه الكلمات وقالوا: إِن ركنك لشديد[١].

وقال رسول الله ﷺ: «يرحم الله لوطاً، لقد كان يـأْوي إِلى ركن شديد[٢]، فالعجب منه لم استكان؟»[٣].

قال القاضي أبو محمد: هذا نقد[٤] لَأنْ يلفظ لوطٌ هذه الأَلفاظ، وإِلا فحالة النبي ﷺ وقت طُرِح عليه سَلَى الجزور[٥]، ومع أَهل الطائف[٦]، وفي غير ما موطن تقتضي مقالة لوط، لكن محمداً ﷺ لم ينطق بشيءٍ من ذلك عزامة منه ونجدة، وإِنما خشي لوط أَن يمهل الله أُولئك العصاة حتى يعصوه في الأَضياف كما أَمهلهم فيما قبل ذلك من معاصيهم فيمن مضى، فتمنى ركناً من البشر يعاجلهم به وهو يعلم أَن الله تعالى من وراءِ عقابهم.

وروي أَن رسول الله ﷺ قال: «لم يبعث الله تعالى بعد لوط نبيّاً إِلاَّ في ثروة من قومه»[٧]، أَي: في منَعَة وعزة.

---

(١) أخرجه الطبري (١٢/ ٥١٣) من قول وهب بن منبه.

(٢) صحيح البخاري، أخرجه (٣٣٧٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: «يَغْفِرُ الله لِلُوطٍ إِنْ كَانَ لَيَأْوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ».

(٣) أخرجه الطبري (١٢/ ٥١٠) من طريق الحسن البصري مرسلاً، بنحو هذا اللفظ.

(٤) في المصرية والأسدية ونور العثمانية وأحمد٣: «بعد».

(٥) متفق عليه، هذا الحديث أخرجه البخاري (٣١٨٥) ومسلم (١٧٩٤) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٦) انظر: سيرة ابن هشام (١/ ٣٨١).

(٧) حديث فرد فيه لين، هذا الحديث أخرجه مسدد كما في «إتحاف الخيرة المهرة» (٦/ ٤٧٥)، وأحمد (٢/ ٣٣٢)، والبخاري في «الأدب المفرد» (ص ٢١٢)، والترمذي (٣١١٦)، والبزار في مسنده (٧٩٣٤)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (١/ ٣٠٠)، وابن حبان في صحيحه (٦٢٠٦ ٦٢٠٧) =

قوله عز وجل: ﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ ﴿٨١﴾﴾.

الضمير في «قالُوا» ضمير الملائكة، ويروى أَن لوطاً لما غلبوه وهموا بكسر الباب وهو يمسكه، قالت له الرُّسل: تنحَّ عن الباب، فتنحَّى وانفتح الباب، فضربهم جبريل عليه السلام بجناحه فطمس أَعينهم وعمُوا، وانصرفوا على أَعقابهم يقولون: النَّجاءَ النَّجَاءَ فعند لوط قوم سحرة، وتوعدوا لوطاً، ففزع حينئذ من وعيدهم، فحينئذ قالوا له: ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ﴾، فَأَمِنَ، ذكر هذا النقاش[1].

وفي تفسير غيره ما يقتضي أَن قولهم: ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ﴾ كان قبل طمس العيون[2].

ثم أَمروه بالسُّرى وأَعلموه أَن العذاب نازلٌ بالقوم، فقال لهم لوط: فعذِّبوهم الساعة، قالوا له: ﴿إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُ﴾، أَي: بهذا أَمر الله، ثم آنسوهُ في قلقه بقولهم: ﴿أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ﴾.

وقرأَ نافع وابن كثير: ﴿فَاسْرِ﴾ من سَرَى يَسْرِي: إِذا سار في أَثناءِ الليل.

وقرأَ الباقون: ﴿فَأَسۡرِ﴾[3] من أَسْرَى: إِذا سار أَوَّل الليل.

والقِطْع: القِطْعة من الليل، ويحتمل أَن لوطاً أَسْرَى بأَهله من أَول الليل حتى جاوز البلد المقتلع، ووقعت نجاته بِسَحَر، فتجتمع هذه الآية مع قوله: ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٖۖ

= والحاكم في المستدرك (٢/ ٥٦١) وغيرهم من طريق محمد بن عمرو بن علقمة، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن أبي هريرة رضي الله عنه به، بنحوه، ومحمد بن عمرو بن علقمة بن وقاص الليثي فيه لين، وفي حديثه عن أبي سلمة كلام، لا سيما إذا انفرد، وقوله: «إلا في ثروة» العدد الكثير.

(١) لم أقف عليه.

(٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (٨/ ٢٣١).

(٣) وهما سبعيتان، انظر التيسير (ص: ١٢٥).

﴿نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ﴾ [القمر: ٣٤]، وبيت النابغة جمع بين الفعلين في قوله:

أَسْرَتْ عَلَيْـهِ مِـن الجَـوْزَاءِ سَـارِيَةٌ ... تُزْجِي الشَّـمَالُ عَلَيْهِ جَامِدَ الْبَـرَدِ[١] [البسيط]

فذهب قوم إلى أن سَرَى وأَسْرَى بمعنى واحد، واحتجوا بهذا البيت.

قال القاضي أبو محمد: وأَقول: إن البيت يحتمل أنهما لِمَعْنَيَيْنِ، وذلك أَظهر عندي، لأَنه قصد وصف هذه الديمة وأَنها ابتدأَت من أَول الليل وقت طلوع الجوزاءِ في الشتاءِ.

وقرأَ ابن كثير وأَبو عمرو: ﴿إلا امْرَأَتُكَ﴾ بالرفع على البدل من ﴿أَحَدٌ﴾، وهذا هو الأَوجه إِذا اسْتُثني من منفيّ، كقولك: ما جاءَني أَحدٌ إِلاَّ زيدٌ، وهذا هو استثناءٌ من المُلْتَفِتِينَ.

وقرأَ الباقون: ﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَ﴾ بالنصب[٢]، ورأَت ذلك فرقة من النحاة الوجهَ في الاستثناءِ من منفيّ، إِذ الكلام المنفي في هذا مستقل بنفسه كالموجَب، فإِذاً هو مثله في الاستقلال، فحكمه حكمه في نصب المستثنى.

وتأَولت فرقة ممن قرأَ: ﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَ﴾ بالنصب أَن الاستثناءَ وقع من الأَهل، كأَنه قال: فأَسْر بأَهلك إِلا امرأَتَكَ، وعلى هذا التأْويل لا يكون إِلا النصب.

وقال أَبو عبيد القاسم بن سلام: «لو كان الكلام: «ولا يلتفتُ» برفع الفعل لصَحَّ الرفع في قوله: ﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَ﴾، ولكنه نهْيٌ، فإِذا استُثنيت المرأَة من ﴿أَحَدٌ﴾ وجب أَن تكون المرأَة أُبيح لها الالتفات فيفسد معنى الآية»[٣].

قال القاضي أبو محمد: وهذا الاعتراض حسَنٌ يلزم الاستثناءَ من ﴿أَحَدٌ﴾ رفَعْتَ التاءَ أَو نصبْتَ، والانفصال عنه يترتب بكلام حُكِي عن المبرد[٤]، وهو أَن النَّهْيَ

---

(١) انظر عزوه له في شرح المعلقات التسع (ص: ٨٨)، ومجاز القرآن (١/ ٢٩٥)، والأغاني (١١/ ٣٥)، وأمالي القالي (١/ ١٢).

(٢) وهما سبعيتان، انظر: التيسير (ص: ١٢٥).

(٣) انظر نقله عنه في إعراب القرآن للنحاس (٢/ ١٧٩)، ومشكل إعراب القرآن لمكي (١/ ٣٧١).

(٤) مشكل إعراب القرآن لمكي (١/ ٣٧٢).

إِنما قُصد به لوط وحده، والالتفات منفي عنهم بالمعنى، أَي: لا تَدَع أَحداً منهم يلتفت، وهذا كما تقول لرجل: لا يقم من هؤلاءِ أَحد إِلَّا زيدٌ، وأُولئِكَ لم يسمعوك، فالمعنى: لا تدع أَحداً من هؤلاءِ يقوم، والقيام بالمعنى منفي عن المشار إِليهم.

قال القاضي أبو محمد: وجملة هذا: أَن لفظ الآية هو لفظ قولنا: لا يقُمْ أَحدٌ إِلا زيدٌ، ونحن نحتاج أَن يكون معناها معنى قولنا: لا يَقُوم أَحدٌ إِلا زيدٌ، وذلك اللفظ لا يرجع إِلى هذا المعنى إِلا بتقدير ما حكيناه عن المبرّد، فتدبره. ويظهر من مذهب أَبي عبيد أَن الاستثناءَ إِنما هو من الأَهل[١].

وفي مصحف ابن مسعود رضي الله عنه: (فأَسْر بأَهْلِكَ بِقِطْع من اللَّيل إِلَّا امرأَتك)[٢]، وسقط قوله: ﴿وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ﴾.

والظاهر في ﴿يَلۡتَفِتۡ﴾ أَنها من التفات البصر.

وقالت فرقة: هي من: لَفَتَ الشَّيءَ يلفته: إِذا ثَنَاهُ ولَواه، فمعناها: وَلاَ يتَثَبَّط، وهذا شاذ مع صحته.

وفي كتاب الزهراوي أَن المعنى: وَلا يَلْتفت أَحدٌ إِلى ما خلّف بل يخرج مسرعاً مع لوط عليه السلام[٣].

وروي أَن امرأَة لوط لما سمعت الهدة ردّت بصرها وقالت: واقوماه، فأَصابها حجرٌ فقتلها[٤].

وقرأَت فرقة: (الصُّبُحُ) بضم الباءِ[٥].

---

(١) في المطبوع: «إنما هو الأهل».

(٢) وهي شاذة، انظرها في تفسير الطبري (١٥/ ٤٣٢)، وحجة القراءات لأبي زرعة (ص: ٣٤٨)، والهداية لمكي (٥/ ٣٤٤٥).

(٣) نقله عنه في البحر المحيط (٦/ ١٩١).

(٤) تفسير الثعلبي (٥/ ١٨٣).

(٥) وهي شاذة عزاها الكرماني في الشواذ (ص: ٢٣٧) لعيسى البصرة.

قوله عز وجل: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾.

رُوي أَن جبريل عليه السلام أَدخل جناحه تحت مدائن قوم لوط واقْتلعها ورفعها حتى سمع أَهل السماءِ الدنيا صُراخ الديكة ونُباح الكلاب، ثم أَرسلها معكوسة وأَتبعهم الحجارة من السماءِ، ورُوي أَن جبريل عليه السلام أَخذهم بخوافي[1] جناحه، ويُرْوى أَن مدينة منها نُجِّيت كانت مختصة بلوطٍ عليه السلام يقال لها: زُغَر[2].

و﴿أَمْرُنَا﴾ في هذه الآية يحتمل أَن يكون مصدراً من: أَمَرَ، ويكون في الكلام حذف مضاف تقديره: مُقْتضي أَمرنا، ويحتمل أَن يكون واحد الأُمور.

والضمير في قوله ﴿عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ للمُدُن، وأُجْري ﴿أَمْطَرْنا عَلَيْهَا﴾ كذلك، والمراد: على أَهلها، ورُوي أَن الحجارة استوفت منهم من كانوا خارج مدنهم حتى قتلتهم / أَجمعين، ورُوي أَنه كان منهم في الحَرَم رجل فبقي حجره معلقاً في الهواءِ حتى خرج من الحرم فقتله الحَجَر، و«أَمْطَرَ» أَبداً إِنما يُستعمل في المكروه، و«مطر» يُستعمل في المحبوب، هذا قول أَبي عبيدة[3]. [٣/ ٤٧]

قال القاضي أبو محمد: وليس كذلك، وقوله: ﴿عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ [الأحقاف: ٢٤] يردُّ هذا القول، لأَنهم إِنما ظنُّوه معتاد الرحمة.

وقوله: ﴿مِّن سِجِّيلٍ﴾ اختلِف فيه، فقال ابن زيد: «سِجِّيل: اسم السمَاءِ الدنيا»[4].

قال القاضي أبو محمد: وهذا ضعيف، ويردُّه وصفه بمَنْضُودٍ، وقالت فرقة: هو مأْخوذ من لفظ السِّجِلّ، أَي: هي من أَمْرٍ كُتب عليهم.

---

(١) الخوَافي: ريشات أربع إذا ضمَّ الطائر جناحيه خَفِيَتْ، وهي بَعْدَ المناكب.

(٢) في معجم البلدان (٣/ ١٤٣): وزغر قرية بمشارف الشام، وقيل: اسم بنت لوط، عليه السلام، نزلت بهذه القرية فسميت باسمها.

(٣) تفسير الثعلبي (٥/ ١٨٤).

(٤) تفسير الطبري (١٥/ ٤٣٤)، وتفسير الماوردي (٢/ ٤٩٣).

قال القاضي أبو محمد: وهذا بعيد، وقالت فرقة: هو مأْخوذٌ من السَّجْلِ إذا أُرسل الشيْءُ كما يُرسل السَّجْلُ، كما تقول: قالها مُسْجَلَةٌ.

قال القاضي أبو محمد: وهذا ضعيف، وقالت فرقة: ﴿مِّن سِجِّيلٍ﴾ معناه: من جهنم، لأَنه يقال: سِجِّيلٌ وسِجِّين، حُفظ فيها بدل النون لامٌ، كما قالوا: أُصَيْلالٌ وأُصَيْلانٌ، وقالت فرقة: سِجِّيلٌ معناه: شديد، وأَنشد الطبري في ذلك:

.... ضَرْباً تَوَاصَى بِهِ الأَبْطَالُ سِجِّيلاً[1] [البسيط]

والبيت في قصيدة نونية: سِجِّيناً، وقالت فرقة: [سِجِّيلٌ لفظة غير عربية عُبِّر عنها بالعربية][2] وأَصلها: سَنْج وكل[3]، وقيل غير هذا في أَصلها، ومعنى اللفظة: ماءٌ وطينٌ، هذا قول ابن عباس[4]، ومجاهد، وابن جُبير، وعكرمة، والسدي، وغيرهم.

وذهبت هذه الفرقة إِلى أَن الحجارة التي رُمُوا بها كانت كالآجُرّ المطبوخ أَصلها من طين قد تَحَجَّر، نصّ عليه الحسن[5].

قال القاضي أبو محمد: وهذا قول يشبه، وهو الصواب الذي عليه الجمهور.

وقالت فرقة: معنى ﴿سِجِّيلٍ﴾: حجر مخلوطٌ بِطين، أَي: حَجَر وطِينٌ.

قال القاضي أبو محمد: ويمكن أَن يُرَدّ هذا إِلى الذي قبله، لأَن الآجُرّ وما جرى مجراه يمكن أَن يقال فيه: حَجَر وطين، لأَنه قد أَخذ من كل واحد منهما بحظِّه، وهي من طين من حيث هو أَصلها، ومن حَجَر من حيث صلبت.

---

(١) البيت لابن مقبل كما في مجاز القرآن (٢/ ٣١٢)، والكشاف للزمخشري (٤/ ٨٠٠).

(٢) في أحمد٣: «سجين أصله لفظة عبر عنها بالعربية وهي غير عربية».

(٣) في المطبوع وأحمد٣: «وَجِل».

(٤) هذا الأثر أخرجه الطبري (١٢/ ٥٢٧) من طريق السدي عن ابن عباس رضي الله عنه، وأخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١١١٠٤) من طريق عن الضحاك عن ابن عباس في قوله: حجارة من سجيل يقول: من طين، وكلاهما منقطع.

(٥) انظر الأقوال كلها في تفسير الطبري (١٥/ ٤٣٣)، وما بعدها، بتصرف.

و﴿مَّنضُودٍ﴾ معناه: بعضه فوق بعض، أَي: تتَابَع، وهي صفة لسِجِّيلٍ.

وقال الربيع بن أَنس: «نضده: أَنه في السماءِ منضود مُعَدّ بعضه فوق بعض»[(١)].

و﴿مُّسَوَّمَةً﴾ معناه: معلمة بعلامة، فقال عكرمة وقتادة: «إِنه كان فيها بياض وحمرة»[(٢)].

ويُحكى أَنه كان في كل حجر اسم صاحبه، وهذه اللفظة هي من: سوَّم: إِذا أَعلم، ومنه قول النبي ﷺ يوم بدر: «سَوِّمُوا فقد سَوَّمت الملائكة»[(٣)]. ويحتمل أَن تكون ﴿مُّسَوَّمَةً﴾ ها هنا بمعنى: مُرْسَلَة، وسَوْمُهَا من الهبوط.

وقوله: ﴿وَمَا هِيَ﴾ إِشارة إِلى الحجارة.

و﴿ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾، قيل: يعني قريشاً، وقيل: يريد عموم كل من اتصف بالظلم، وهذا هو الأَصح لأَنه رُوي عن النبي ﷺ أَنه قال: «سيَكُونُ في أُمتي خَسْف ومَسْخ وقَذْف بالحِجَارة»[(٤)]، وقد ورد أَيضاً حديثٍ أَنَّ هذه الأُمة بِمَنْجَاةٍ من ذلك[(٥)].

---

(١) تفسير الطبري (١٥/ ٤٣٦)، وتفسير ابن أبي حاتم (٦/ ٢٠٦٩).

(٢) تفسير الطبري (١٥/ ٤٣٨)، وابن أبي حاتم (٦/ ٢٠٦٩).

(٣) مرسل، هذا الحديث أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٣٢٧٢٢- ٣٥٩١٦-٣٦٦٦٨)، وابن جرير الطبري (٧٧٧٦) وغيرهما من طريق عبد الله بن عون، عن عمير بن إسحاق قال: قال رسول الله ﷺ: «تسوموا؛ فإن الملائكة قد تسومت»، قال: فهو أول يوم وضع الصوف، وعمير بن إسحاق القرشي أبو محمد مولى بني هاشم، روى عن المقداد بن الأسود، وعمرو بن العاص، وأبي هريرة، وكان قليل الحديث، وقال أبو حاتم والنسائي: لا نعلم روى عنه غير ابن عون قال ابن معين: ثقة، وقال أيضاً: لا يساوي حديثه شيئاً، ولكن يكتب حديثه»، وانظر سيرة ابن هشام (٢/ ١٠٢).

(٤) أخرج ابن حبان في «صحيحه» (٦٧٥٩) بإسناد لين من طريق: إبراهيم بن حمزة الزبيري عن كثير ابن زيد عن الوليد بن رباح: عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى يكون في أمتي خسف ومسخ وقذف».

(٥) أخرج البخاري (٤٦٢٨) عَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه قَالَ لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «أَعُوذُ بِوَجْهِكَ» قَالَ: ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ قَالَ: «أَعُوذُ بِوَجْهِكَ» ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «هَذَا أَهْوَنُ» أَوْ «هَذَا أَيْسَرُ».

وقيل: يعني بـ﴿هِىَ﴾ المدن، ويكون المعنى الإِعلام بأَن هذه البلاد قريبة من مكة، والأَول أَبْين، ورُوي أَن هذه البلاد كانت بين المدينة والشام.

وحكى الطبري في تسمية هذه المدن: «صنعة، وصعوة[١]، وغمرة[٢]، ودوما، وسدوم، وسدوم هي القرية العظمى»[٣].

والله الموفق بمنه وكرمه[٤].

قوله عز وجل: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾﴾.

التقدير: وَإِلى مَدْيَنَ أرسلنا أَخاهُمْ شُعَيْباً، واختلف في لفظة ﴿مَدْيَنَ﴾، فقيل: هي بُقْعة، فالتقدير على هذا: وإِلى أَهل مدين، كما قال: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢]، وقيل: كان هذا القطر في ناحية الشام، وقيل: مَدْيَن اسم رجل كانت القبيلة من ولده فسُمِّيت باسمه، ومَدْيَن لا ينصرف في الوجهين، حكى النقاش أَن مَدْيَن هو ولد إِبراهيم الخليل لصلبه[٥].

قال القاضي أبو محمد: وهذا بعيد.

وقد قيل: إِن شُعَيْباً عربي، فكيف يجتمع هذا وليس للعرب اتصال بإِبراهيم إِلَّا من جهة إِسماعيل فقط؟.

ودعاءُ شعيب إِلى عبادة الله يقتضي أَنهم كانوا يعبدون الأَوثان، وذلك بَيّنٌ من

(١) في المصرية والتركية والحمزوية: «صعدة».

(٢) في المطبوع: «وعثرة»، وفي العلمية: «وعمزة». وفي التركية والحمزوية والمصرية: «وعمرة».

(٣) تفسير الطبري (١٥/ ٤٤٣)، وانظر فيها أسماء القرى حسب روايته.

(٤) هذه الجملة زيادة من الحمزوية.

(٥) لم أقف عليه.

قولهم فيما بعد، وكُفْرُهم هو الذي استوجبوا به العذاب، لا معاصيهم، فإن الله لم يعذب قطُّ أُمَّة إِلَّا بالكفر، فإِن انضافت إِلى ذلك معصية كانت تابعة، وأَعني بالعذاب عذاب الاستئصال العام، وكانت معصية هذه الأُمة السيئة[١] الشنيعة أَنهم كانوا تواطؤوا أَن يأْخذوا ممن يَرِدُ عليهم من غيرهم وافياً ويُعطوا ناقصاً في وزْنهم وكيْلهم، فنهاهم شُعيب بوحي من الله تعالى عن ذلك، ويظهر من كتاب الزجَّاج أَنهم كانوا تراضوا بينهم بأن يبخس بعضُهم بعضاً[٢].

وقوله: ﴿بِخَيۡرٖ﴾ قال ابن عباس: معناه: في رخص من الأَسعار[٣].

وعذاب اليوم المحيط هو حلول الغلاءِ الـمُهْلِك، ويَنظر هذا التأويل إِلى قول النبي ﷺ: «ما نقص قومٌ المكيال والميزان إِلَّا ارتفع عنهم الرزق»[٤].

وقيل: قوله: ﴿بِخَيۡرٖ﴾ عامٌّ في جميع نعم الله تعالى، وعذاب اليوم هو الهلاك الذي حلَّ بهم في آخر، وجميع ما قيل في لفظ (خَيْر) منحصر فيما قلناه، وَوُصِفَ اليوم بالإِحاطة وهي من صفة العذاب على جهة التجوّز، إِذ كان العذاب في اليوم، وقد يصح أَن يوصف اليوم بالإِحاطة على تقدير: محيط شرُّه، ونحو هذا.

وكرر عليهم الوصية في الكيل والوزن تأْكيداً وبياناً وعظة، لأَن ﴿وَلَا تَنقُصُواْ﴾ هو ﴿أَوۡفُواْ﴾ بعينه لكنهما منحيان إِلى معنى واحد.

قال القاضي أبو محمد: وحدثني أَبي رحمه الله أَنه سمع أَبا الفضل بن الجوهري على المنبر بمصر يعظ الناس في الكيل والوزن فقال: اعتبروا في أَن الإِنسان إِذا رفع

---

(١) زيادة من المصرية، وفي نور العثمانية بدل «الشنيعة»: «السبعة».

(٢) راجع معاني القرآن وإعرابه له (٣/ ٧٣).

(٣) ضعيف، أخرجه الطبري (١٢/ ٥٣٢) من طريق عبد الله بن داود الواسطي، عن محمد بن موسى، عن زياد بن عمرو، عن ابن عباس رضي الله عنهما، وعبد الله بن داود الواسطي أبو محمد التمار ضعيف.

(٤) لم أقف عليه بهذا اللفظ، وإنما أخرج ابن مردويه في «تفسيره» عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ما نقص قوم المكيال والميزان إلا سلط الله عليهم الجوع. انظر «الدر المنثور» (٦/ ٢٥٨).

يده بالميزان فامتدت أَصابعه الثلاثة والتقى الإِبهام والسبابة على ناصية الميزان جاءَ من شكل أَصابعه صورة[١] المكتوبة، فكأَن الميزان يقول: الله الله.

قال القاضي أبو محمد: وهذا وعظ مليح مُذكِّر.

والقسط: العدلُ ونحوه، والْبَخْس: النقصان، و﴿تَعۡثَوۡاْ﴾ معناه: تَسْعَون في فساد، وكرر ﴿مُفۡسِدِينَ﴾ على جهة التأْكيد، يقال: عَثَا يَعْثُو أَو عَثى يَعْثي، وعَثَّ يَعُثُّ، وعاثَ يَعيثُ: إِذا أَفسد ونحوه من المعنى، والعُثَّة: الدودة التي تفسد ثياب الصوف.

وقوله: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ﴾ قال ابن عباس: معناه: الذي يُبقي الله لكم من أَموالكم بعد توفيتكم الكيل والوزن خيرٌ لكم مما تستكثرون أَنتم به على غير وجهه[٢].

قال القاضي أبو محمد: وهذا تفسير يليق بلفظ الآية.

وقال مجاهد: «معناه: طاعة الله»[٣]، وقال ابن عباس أَيضاً: معناه: رزق الله[٤]، وهذا كله لا يُعطيه لفظ الآية، وإِنما المعنى عندي: إِبقاءُ الله عليكم إِن أَطعتم.

وقرأَ إِسماعيل بن جعفر عن أَهل المدينة بتخفيف الياءِ، وهي لغة[٥].

وقوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ شرط في أَن تكون البقية خيراً لهم، وأَما مع الكفر فلا خير لهم في شيءٍ من الأَعمال، وجواب هذا الشرط متقدم.

والحفيظ: المراقب الذي يحفظ أَحوال من يراقب، والمعنى: إِنما أَنا مُبلِّغ، والحفيظ المحاسب هو الذي يجازيكم بالأَعمال.

---

(١) زيادة من المصرية.

(٢) هذا هو لفظ الطبري (١٥/ ٤٤٩) في تفسير الآية، قال: وهذا قولٌ روي عن ابن عباس بإسنادٍ غير مرتضى عند أهل النقل، وأخرج (١٨٤٨٥) حدثني الحارث قال: حدثنا عبد العزيز قال: حدثنا سفيان، عمن ذكره، عن ابن عباس: (بقيت الله) قال: رزق الله.

(٣) تفسير الطبري (١٥/ ٤٤٧)، وتفسير الماوردي (٢/ ٤٩٥)، وتفسير ابن أبي حاتم (٦/ ٢٠٧٢).

(٤) ضعيف، هذا الأثر أخرجه الطبري (١٢/ ٥٤٣) من طريق الثوري، عمن ذكره، عن ابن عباس رضي الله عنهما، وهو منقطع.

(٥) نقلها عنه في جامع البيان (٣/ ١٢٠٩)، وليست من طرق التيسير.

قوله عز وجل: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِيٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ۝٨٧ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُۚ وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ۝٨٨﴾.

قرأ جمهور الناس: ﴿أصلواتُك﴾ بالجمع، وقرأ ابن وثاب: ﴿أَصَلَوٰتُكَ﴾ بالإفراد[(١)]، وكذلك قرأ في براءة: ﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ﴾ [١٠٣][(٢)]، وفي المؤمنين: ﴿على صلاتهم﴾ [٩][(٣)] كل ذلك بالإفراد.

واختلف في معنى الصلاة هنا:

فقالت فرقة: أرادوا الصلوات المعروفة، وروي أن شعيباً عليه السّلام كان أكثر الأنبياء صلاة.

وقال الحسن: «لم يبعث الله نبيّاً إلا فرض عليه الصلاة والزكاة»[(٤)].

وقيل: أرادوا: أقراءتك؟ وقيل أرادوا: أمساجدك؟ وقيل: أرادوا: أدعواتك.

قال القاضي أبو محمد: وأقرب هذه الأقوال الأول والرابع، وجعلوا الأمر من فعل الصلوات على جهة التجوُّز، وذلك أن كل من حصل في رتبة من خير أو شر ففي الأكثر تدعوه رتبته إلى التزيد من ذلك النوع: فمعنى هذا: ألمَّا كنت مصلياً تجاوزت إلى ذم شرعنا وحالنا؟ فكأن حاله من الصلاة جسَّرته على ذلك فقيل: أمَرَتْه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

وقولهم: ﴿أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ﴾ نصٌّ في أنهم كانوا يعبدون غير الله تعالى.

---

(١) أبعد النجعة، فهي سبعية قرأ بها حمزة والكسائي وحفص عن عاصم، انظر: التيسير (ص: ١١٩).
(٢) وهي سبعية أيضاً كما تقدم.
(٣) وهي سبعية أيضاً كما سيأتي.
(٤) تفسير ابن أبي زمنين (١/ ٢٩٥).

وقرأ جمهور الناس: ﴿نَّفۡعَلَ﴾، و﴿نَشَـٰٓؤُاْ﴾ بنون الجماعة فيهما، وقرأ الضحاك ابن قيس[١]: (تفعل)، و(تشاء) بتاء المخاطبة فيهما[٢].

ورويت عن أبي عبد الرحمن: ﴿نَّفۡعَلَ﴾ بالنون، (ما تشاء) بالتاء، ورويت عن ابن عباس[٣].

فأما من قرأ بالنون فيهما فـ﴿أَن﴾ الثانية عطف [على ﴿مَا﴾ لا][٤] على ﴿أَن﴾ الأولى، لأن المعنى يصير: أصلواتك تأمرك أن نفعل في أموالنا ما نشاء؟ وهذا قلب ما قصدوه، وأما من قرأ بالتاء فيهما فيصح عطف ﴿أَن﴾ الثانية على ﴿أَن﴾ الأولى، قال بعض النحويين: ويصح عطفها على ﴿مَا﴾ ويتم المعنى في الوجهين.

قال القاضي أبو محمد: ويجيء ﴿نَّتۡرُكَ﴾ في الأول بمعنى: نرفض، وفي الثاني بمعنى نقرر، فيتعذر عندي هذا الوجه لما ذكرته من تنوع الترك إلا[٥] على الحكم اللفظي أو على حذف مضاف، ألا ترى أن الترك في قراءة من قرأ بالنون في الفعلين إنما هو بمعنى الرفض غير متنوع.

وأما من قرأ بالنون في ﴿نَّفۡعَلَ﴾ والتاء في (تشاء) فـ﴿أَن﴾ معطوفة على ﴿أَن﴾ الأولى، ولا يجوز أن تنعطف على ﴿مَا﴾ لأن المعنى أيضاً ينقلب، فتدبره.

وظاهر فعلهم هذا الذي أشاروا إليه هو بخس الكيل والوزن الذي تقدم ذكره.

---

(١) لعله الضحاك بن قيس بن خالد بن وهب، الفهريّ، أخو فاطمة بنت قيس، له صحبة، ولاه معاوية دمشق فأقرّه يزيد حتى مات، فدعا إلى ابن الزبير وبايع له حتى مات معاوية بن يزيد، فدعا إلى نفسه، فقاتله مروان، فقتل بمرج راهط سنة (٦٤هـ). الإصابة (٣/ ٣٨٧).

(٢) وهي شاذة، انظر: مختصر الشواذ (ص: ٦٥)، وإعراب القرآن للنحاس (٢/ ١٨٠).

(٣) وهي شاذة عزاها لهما وللضحاك الكرماني في الشواذ (ص: ٢٣٨).

(٤) ساقط من نور العثمانية.

(٥) «إلا»: ساقطة من المطبوع.

وروي: أن الإشارة هي إلى قرضهم الدينار والدرهم وإجراء ذلك مع الصحيح على جهة التدليس، قاله محمد بن كعب وغيره[١].

وروي عن سعيد بن المسيب أنه قال: قطع الدنانير والدراهم من الفساد في الأرض[٢].

فتأول ذلك بهذا المعنى المتقدم، وتؤول أيضاً بمعنى أنه تبديل السكك التي يقصد بها أكل أموال الناس.

واختلف في قولهم: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴾:

فقيل: إنما كانت ألفاظهم: إنك لأنت الجاهل السفيه، فكنى الله عن ذلك.

وقيل: بل هذا لفظهم بعينه، إلا أنهم قالوه على جهة الاستهزاء، قاله ابن جريج وابن زيد[٣].

وقيل المعنى: إنك لأنت الحليم الرشيد عند نفسك.

وقيل: بل قالوه على جهة الحقيقة وأنه اعتقادهم فيه، فكأنهم فندوه، أي: أنت حليم رشيد فلا ينبغي لك أن تأمرنا بهذه الأوامر.

ويشبه هذا المعنى قولَ اليهود من بني قريظة، حين قال لهم رسول الله ﷺ: «يا إخوة القردة»: يا محمد ما علمناك جهولاً[٤].

قال القاضي أبو محمد: والشبه بين الأمرين إنما هو المناسبة بين كلام شعيب وتلطُّفه، وبين ما بادر به محمد عليه السّلام بني قريظة.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١٥/ ٤٥١).

(٢) تفسير ابن أبي حاتم (٩/ ٢٩٠١).

(٣) انظر: تفسير الطبري (١٥/ ٤٥٣).

(٤) ضعيف، أخرجه الحاكم في المستدرك (٣/ ٣٧) من طريق عبد الله بن عمر العمري، عن أخيه عبيد الله بن عمر، عن القاسم بن محمد، عن عائشة به وعبد الله بن عمر العمري ضعيف، وأخرجه الطبري (٢٠/ ٢٤٣) من طريق سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة مرسلاً.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ﴾ الآية، هذه مراجعة لطيفة واستنزالٌ[1] حَسَن واستدعاء رفيق، [ولهذه الآية][2] ونحوها عن محاورة شعيب عليه السّلام، قال فيه رسول الله ﷺ: «ذاك خطيب الأنبياء»[3].

وجواب الشرط الذي في قوله: ﴿إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي﴾ محذوف تقديره: أأضل كما ضللتم وأترك تبليغ الرسالة؟ ونحو هذا مما يليق بهذه المحاجة؟.

و﴿بَيِّنَةٖ﴾: يحتمل أن تكون بمعنى: بيان أو بيِّن، ودخلت الهاء للمبالغة كعلَّامة.

ويحتمل أن تكون صفة لمحذوف، فتكون الهاء هاء تأنيث.

وقوله: ﴿وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗا﴾ يريد: خالصاً من الفساد الذي أدخلتم أنتم أموالكم، ثم قال لهم: ولست أريد أن أفعل الشيء الذي نهيتكم عنه من نقص الكيل والوزن، فأستأثِرَ بالمال لنفسي، وما أريد إلا إصلاح الجميع، و﴿أُنِيبُ﴾ معناه: أرجع وأتوب وأستند.

قوله عز وجل: ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ﴿٨٩﴾ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ﴿٩٢﴾﴾.

---

(١) في المطبوع والمصرية وأحمد٣: «مراجعة لفظية واسترسال».

(٢) ساقط من الأصل.

(٣) لا يصح مرفوعاً، أخرجه الطبري (١٤٨٦٤)، والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٦٢٠) من طريق محمد بن إسحاق، عن يعقوب بن أبي سلمة الماجشون، عن النبي ﷺ مرسلاً، وفي رواية الحاكم بدون ذكر يعقوب بن أبي سلمة. وأخرجه الطبري (١٨٥١٢) من طريق أبي نعيم الفضل بن دكين، عن سفيان الثوري من قوله. وأخرجه ابن أبي حاتم (٨٧٢٥) عن مالك بن أنس من قوله.

﴿لَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ معناه: لا يكسبنكم، يقال: جرمه كذا وكذا وأجرمه: إذا أكسبه، كما يقال: كسب وأكسب بمعنى، ومن ذلك قول الشاعر:

[الكامل] وَلَقَدْ طَعَنْتُ أَبَا عُيَيْنَةَ طَعْنَةً جَرِمَتْ فَزَارَةُ بَعْدَهَا أَنْ يَغْضَبُوا[١]

وقرأ الجمهور ﴿يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ بفتح الياء، وقرأ الأعمش وابن وثاب: (يُجرمنكم) بضمها[٢].

و﴿شِقَاقِيٓ﴾ معناه: مشاقَّتي وعداوتي، و﴿أَن﴾ مفعولة بـ﴿يَجْرِمَنَّكُمْ﴾.

[٣/ ٤٩] وكانت قصة قوم لوط أقرب القصص عهداً بقصة قوم شعيب، وقد يحتمل / أن يريد: وما منازل قوم لوط منكم ببعيد، فكأنه قال: وما قوم لوط منكم ببعيد في المسافة، ويتضمن هذا القول ضرب المثل لهم بقوم لوط.

وقرأ الجمهور: ﴿مِّثْلُ﴾ بالرفع على أنه فاعل ﴿يُصِيبَكُم﴾، وقرأ مجاهد والجحدري وابن أبي إسحاق: (مثلَ) بالنصب[٣]، وذلك على أحد وجهين: إما أن يكون (مثلَ) فاعلاً، وفتحة اللام فتحة بناء لمَّا أضيف إلى غير متمكن، فإن (مثل) قد يجري مجرى الظروف في هذا الباب وإن لم يكن ظرفاً محضاً.

وإما أن يقدر الفاعل محذوفاً يقتضيه المعنى، ويكون (مثلَ) منصوباً على النعت لمصدر محذوف تقديره: إصابةً مثلَ.

وقوله: ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ﴾ الآية، تقدم القول في مثل هذا من ترتيب هذا الاستغفار قبل التوبة.

---

(١) تقدم في أول سورة المائدة.

(٢) وهي شاذة، انظرها في المحتسب (١/ ٣٢٧).

(٣) وهي قراءة شاذة، انظر عزوها لهم في الشواذ للكرماني (ص: ٢٣٨)، ولبعضهم في مختصر الشواذ (ص: ٦٥).

﴿وَدُودٌ﴾ معناه: أن أفعاله ولطفه بعباده لما كانت في غاية الإحسان إليهم كانت كفعل من يتودد ويود المصنوع له.

وقوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ﴾ الآية؛ ﴿نَفْقَهُ﴾: معناه: نفهم، وهذا نحو قول قريش: ﴿قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ﴾ [فصلت: ٥]، ومعنى (ما نفقه ما تقول) أي: ما نفقه صحة قولك، وأما فقههم لفظه ومعناه فمتحصِّل.

وروي عن ابن جبير[١] وشَرِيكٍ القاضي في قولهم: ﴿ضَعِيفًا﴾أنه كان ضرير البصر أعمى[٢].

وحكى الزهراوي: أن حمير تقول للأعمى: ضعيف[٣]، كما يقال له: ضرير.

وقيل: كان ناحل البدن زمِنه[٤].

قال القاضي أبو محمد: وهذا كله ضعيف، ولا تقوم عليه حجة بضعف بصره أو بدنه.

والظاهر من قولهم: ﴿ضَعِيفًا﴾أنه ضعيف الانتصار والقدرة، وأن رهطه الكفرة كانوا يراعون فيه.

والرهط: جماعة الرجل، ومنه الراهطاء، لأن اليربوع يعتصم به كما يفعل الرجل برهطه.

و﴿لَرَجَمْنَٰكَ﴾قيل: معناه بالحجارة، وهو الظاهر، وقاله ابن زيد.

وقيل: المعنى: لَرَجَمْناكَ بالسب، وبه فسر الطبري[٥]، وهذا أيضاً تستعمله العرب، ومنه قوله: ﴿لَأَرْجُمَنَّكَۖ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٦].

---

(١) في أحمد٣: «عن أبي رزين»، والمثبت هو الموافق للمصادر.
(٢) تفسير الطبري (١٥/ ٤٥٧، ٤٥٨)، وتفسير ابن أبي حاتم (٦/ ٢٠٧٦).
(٣) البحر المحيط (٦/ ٢٠١).
(٤) «زمنه»: ساقطة من المطبوع.
(٥) انظر قول ابن زيد في تفسير ابن أبي حاتم (٦/ ٢٠٧٧)، وتفسير الطبري (١٥/ ٤٥٨)، مع قوله.

وقولهم: ﴿ بِعَزِيزٍ ﴾: أي بذي منعة وعزة ومنزلة في نفوسنا.

وقوله تعالى: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِيٓ ﴾الآية، الظِّهري: الشيء الذي يكون وراء الظهر، وقد يكون الشيء وراء الظهر بوجهين في الكلام: إما بأن يُطَّرح، كما تقول: جعلت كلامي وراء ظهرك ودبر أذنك، ومنه قول الفرزدق:

[الطويل] تَميم بنَ زَيْدٍ لا تَكونَنَّ حاجَتِي بظَهْرٍ فلا يَعْيا عَليَّ جَوابُها[1]

وإما بأن يسند إليه ويلجأ، ومن هذا قول النبي ﷺ في دعائه: «وألجأت ظهري إليك»[2].

فقال جمهور المتأولين في معنى هذه الآية أنه: واتخذتم الله ظِهريّاً، أي: غير مراعًى، وراء الظهر على معنى الاطِّراح، ورجحه الطبري[3].

قال القاضي أبو محمد: وهو عندي على حذف مضاف ولا بد.

وقال بعضهم: الضمير في قوله: ﴿وَٱتَّخَذْتُمُوهُ﴾ عائد على أمر الله وشرعه، إذ يتضمنه الكلام.

وقالت فرقة: المعنى: أترون رهطي أعز عليكم من الله، وأنتم تتخذون الله سند ظهوركم وعماد آمالكم.

قال القاضي أبو محمد: فقول الجمهور على أنْ كان كفرُ قومِ شعيب جحداً بالله تعالى وجهلاً به، وهذا القول الثاني على أنهم كانوا يُقرُّون بالخالق الرازق ويعتقدون الأصنام وسائط ووسائل ونحو هذا، وهاتان الفرقتان موجودتان في الكفرة.

---

(١) البيت للفرزدق كما تقدم في تفسير الآية (١٠٠) من سورة البقرة، بلفظ: تميم بن مر، وكذا في أحمد٣ هنا، والصواب: «بن قيس».

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري (٢٤٧)، ومسلم (٢٧١٠) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

(٣) تفسير الطبري (٥/ ٤٥٩)، بتصرف.

ومن اللفظة الاستظهار بالبيّنة، وقد قال ابن زيد: «الظِّهري: الفضل، مثل الجمَّال يخرج معه بإبل ظَهَارية[١] يُعِدُّها إن احتاج إليها، وإلا فهي فضلة»[٢].

قال القاضي أبو محمد: هذا كله مما يستند إليه.

وقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ خبر في ضمنه توعد. ومعناه: محيط علمه وقدرته.

قوله عز وجل: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَٰمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ وَٱرْتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾﴾.

﴿عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ معناه: على حالاتكم، وهذا كما تقول: مكانة فلان في العلم فوق مكانة فلان، يستعار من البقاع إلى المعاني.

وقرأ الحسن وأبو عبد الرحمن وعاصم: ﴿مكاناتكم﴾ بالجمع، والجمهور على الإفراد[٣].

وقوله: ﴿ٱعْمَلُواْ﴾ تهديد ووعيد، وهو نحو قوله: ﴿ٱعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ﴾[فصلت: ٤٠].

وقوله: ﴿مَن يَأْتِيهِ﴾ يجوز أن تكون ﴿مَن﴾ مفعولة بـ﴿تَعْلَمُونَ﴾ والثانية عطف عليها.

قال الفراء: ويجوز أن تكون استفهاماً في موضع رفع بالابتداء[٤].

---

(١) في أحمد٣: «ظاهرية».

(٢) تفسير الطبري (١٥/ ٤٦١)، وتفسير الماوردي (٢/ ٥٠٠)، وتفسير ابن أبي حاتم (٦/ ٢٠٧٨)، بتصرف.

(٣) وهما سبعيتان متواترتان، والأولى رواها شعبة عن عاصم، انظر: التيسير (ص: ١٠٧).

(٤) معاني القرآن للفراء (٢/ ٢٦)، بالمعنى.

قال القاضي أبو محمد: والأول أحسن لأنها موصولة ولا توصل في الاستفهام، ويقضي بصلتها أن المعطوفة عليها موصولة لا محالة، والصحيح أن الوقف في قوله: ﴿إِنِّي عَـٰمِلٌ﴾، ثم ابتداء الكلام بالوعيد، و﴿مَن﴾ معمولة لـ ﴿تَعۡلَمُونَ﴾ وهي موصولة.

وقوله: ﴿وَٱرۡتَقِبُوٓاْ﴾ كذلك تهديدٌ أيضاً.

وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا﴾ الآية، الأمر هاهنا يصح أن يكون مصدر أَمَرَ، ويصح أن يكون واحد الأمور.

وقوله: ﴿بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا﴾ إما أن يقصد الإخبار عن الرحمة التي لحقت شعيباً لنبوته وحسن عمله وعمل متَّبعيه، وإما أن يقصد أن التَّنجية لم تكن إلا بمجرد رحمة لا بعمل من أعمالهم، وأما ﴿ٱلصَّيۡحَةُ﴾ فهي صيحة جبريل عليه السّلام، وروي أنه صاح بهم صيحةً جثم لها كل واحد منهم في مكانه حيث سمعها، ميتاً قد تقطعت حجُب قلبه[1].

والجثوم أصله في الطائر إذا ضرب بصدره إلى الأرض، ثم يستعمل في غيره إذا كان منه بشبه.

وقوله تعالى: ﴿كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآ﴾ الآية، الضمير في قوله: ﴿فِيهَآ﴾ عائد على الديار.

و﴿يَغۡنَوۡاْ﴾ معناه: يقيمون بنعمة وخَفْضِ عيش، ومنه المغاني وهي المنازل المعمورة بالأهل.

وقوله: ﴿أَلَا﴾ تنبيه للسامع.

وقوله: ﴿بُعۡدٗا﴾ مصدرٌ دعا به، وهذا كما تقول: سقياً لك ورعياً لك، وسحقاً للكافر، ونحو هذا، وفارقت هذه قولهم: سلام عليك، لأن هذا كأنه إخبار عن شيء قد وجب وتحصَّل، وتلك إنما هي دعاءٌ مترجًّى.

ومعنى البعد ـ في قراءة من قرأ: ﴿بَعِدَتۡ﴾ بكسر العين ـ: الهلاك، وهي قراءة الجمهور.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١٥/ ٤٦٤).

ومنه قول خِرْنِق بنت هفَّان[١]:

لا يَبْعَـدَنْ قَوْمِـي الذيـنَ هُـمُ سُـمُّ الـعُـداةِ وآفَـةُ الـجَـزْرِ[٢] [الكامل]

ومنه قول مالك بن الرَّيْب:

يقولون: لا تبْعدْ، وهُم يدفِنونني وأيْنَ مَكانُ البُعْدِ إلّا مَكانِيا[٣] [الطويل]

وأما من قرأ (بَعُدَتْ) ـ وهو السلمي وأبو حيوة[٤] ـ فهو من البعد الذي ضده القرب، ولا يدعى به إلا على مبغوض.

قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾/ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُواْ فِى هَـٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾﴾. [٣/ ٥٠]

الآيات: العلامات، والسلطان: البرهان والبيان في الحجة، قيل: هو مشتق من السليط الذي يُستضاء به، وقيل: من أنه مسلط على كل مناوٍ ومخاصم.

والملأ: الجمع من الرجال، والمعنى: أرسلناه إليهم ليؤمنوا بالله تعالى، فصدهم فرعون فاتبعوا أمره ولم يؤمنوا وكفروا، ثم أخبر تعالى عن أمر فرعون أنه ليس بِرَشِيدٍ؛ أي: ليس بمصيب في مذهبه ولا مفارق للسفاهة.

وقوله: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ الآية، أخبر الله تعالى في هذه الآية عن فرعون أنه يأتي يوم القيامة مع قومه المغرقين معه، وهو يقدمهم إلى النار.

---

(١) في المطبوع: «هنان»، وفي الحمزوية ونجيبويه: «هبال».

(٢) تقدم في تفسير الآية ١٦٠ من سورة النساء.

(٣) تقدم مع التعريف بالشاعر في تفسير الآية (١٧) من سورة النساء.

(٤) وهي شاذة، انظر: مختصر الشواذ (ص: ٦٥)، والمحتسب (١/ ٣٢٧).

وأُوقع الفعل الماضي في ﴿فَأَوْرَدَهُمُ﴾ موقع المستقبل، لوضوح الأمر وارتفاع الإشكال عنه، ووجه الفصاحة من العرب في أنها تضع أحياناً الماضيَ موضعَ المستقبل أن الماضي أدل على وقوع الفعل وحصوله.

والورود في هذه الآية هو ورود الدخول، وليس بورود الإشراف على الشيء والإشفاء كقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ﴾ [القصص: ٢٣].

وقال ابن عباس: «في القرآن أربعة أوراد:

﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١].

وقوله: ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ [مريم: ٨٦] وهذه في مريم.

وفي الأنبياء: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]».

قال: «وهي كلها ورد دخول، ثم ينجي الله الذين اتقوا»(١).

و﴿ٱلْمَوْرُودُ﴾ صفة لمكان الورد، على أنَّ التقدير: وَبِئْسَ مكانُ الْوِرْدِ الْمَوْرُودُ.

وقيل: ﴿ٱلْمَوْرُودُ﴾ ابتداء والخبر مقدم، والمعنى: المورود بئس الورد.

وقوله: ﴿فِى هَٰذِهِۦ﴾ يريد دار الدنيا، واللعنة: إبعادهم بالغرق والاستئصال وقبيح الذكر غابر الدهر.

وقوله: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: يلعنون أيضاً بدخولهم في جهنم، قال مجاهد: «فلهم لعنتان»(٢).

وذهب قوم إلى أن التقسيم هو أن لهم في الدنيا لعنة، ويوم القيامة بئس ما يُرفدون به، فهي لعنة واحدة أولاً، وقبحُ إرفادٍ آخِراً.

---

(١) أخرجه الطبري (١٨٥٣٥) من طريق أبي معاذ النحوي، عن عبيد بن سليمان، عن الضحاك بن مزاحم، عن ابن عباس رضي الله عنهما، وأبو معاذ النحوي هو: الفضل بن خالد مستور الحال، لم يوثق.

(٢) تفسير الطبري (١٥/ ٤٦٨)، وتفسير ابن أبي حاتم (٦/ ٢٠٨١).

وقوله: ﴿بِئۡسَ ٱلرِّفۡدُ ٱلۡمَرۡفُودُ﴾ أي: بئس العطاء المعطى لهم، والرِّفْدُ في كلام العرب: العطية، وسمي العذاب هنا رفداً لأن هذا هو الذي حل محل الرفد، وهذا كما تقول: يا فلان لم يكن خيرك إلا أن تضربني، أي: لم يكن الذي حل محل الخير منك، والإرفاد: المعونة، ومنه رفادة قريش: معونتهم لفقراء الحج بالطعام الذي كانوا يطعمونه في الموسم.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡقُرَىٰ﴾ الآية، ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما تقدم من ذكر العقوبات النازلة بالأمم المذكورة، والأنباء: الأخبار، والْقُرى: يحتمل أن يراد بها القرى التي ذكرت في الآيات المتقدمة خاصة، ويحتمل أن يريد القرى عامة، أي: هذه الأنباء المقصوصة عليك هي عوائد المدن إذا كفرت، فيدخل ـ على هذا التأويل ـ فيها المدن المعاصرة، ويجيء قوله: ﴿مِنۡهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ﴾: منها عامر وداثر، وهذا قول ابن عباس[1].

وعلى التأويل الأول ـ في أنها تلك القرى المخصوصة ـ يكون قوله: ﴿قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ بمعنى: قائم الجدرات، ومتهدم لا أثر له، وهذا قول قتادة وابن جريج[2].

والآية بجملتها متضمنة التخويف وضرب المثل للحاضرين من أهل مكة وغيرهم.

قوله عز وجل: ﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡۖ فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ لَّمَّا جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَمَا زَادُوهُمۡ غَيۡرَ تَتۡبِيبٖ (١٠١) وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ (١٠٢) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّمَنۡ خَافَ عَذَابَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ (١٠٣) وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٖ مَّعۡدُودٖ (١٠٤) يَوۡمَ يَأۡتِ لَا تَكَلَّمُ نَفۡسٌ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ فَمِنۡهُمۡ شَقِيّٞ وَسَعِيدٞ (١٠٥)﴾.

المعنى: وما وضعنا عندهم من التعذيب ما لا يستحقونه، لكنهم ظلموا أنفسهم

(١) أخرجه الطبري (١٨٥٤٦)، وابن أبي حاتم (١١٢٠٢ ١١٢٠٦) من طريق عطية العوفي، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) انظر: تفسير الطبري (١٥/ ٤٧١)، وتفسير الماوردي (٢/ ٥٠٣)، وتفسير ابن أبي حاتم (٦/ ٢٠٨٢).

بوضعهم الكفر موضع الإيمان، والعبادة في جنبة الأصنام، فما نفعتهم تلك الأصنام ولا دفعت عنهم حين جاء عذاب الله.

والتَّتْبِيب: الخسران، ومنه ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾ [المسد: ١]، ومنه قول جرير:

[الوافر] عَـــرَادَةُ مِـنْ بَقِيَّةِ قَـوْمِ لُـوطٍ ... أَلاَ تَبّـاً لمـا عَمِلُـوا تبَابـا[١]

وصورة زيادة الأصنام التتبيبَ إنما يتصور: إما بأن تأميلها والثقة بها والتعب في عبادتها شغلت نفوسهم وصرفتها عن النظر في الشرع وعاقتها، فلحق عن ذلك عنت وخسران، وإما بأن عذابهم على الكفر يزاد إليه عذاب على مجرد عبادة الأوثان.

وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾: الإشارة إلى ما ذكر من الأحداث في الأمم، وهذه آية وعيد تعُمُّ قرى المؤمنين، فإن ﴿ظَٰلِمَةٌ﴾ أعم من كافرة، وقد يمهل الله تعالى بعض الكفرة، وأما الظلمة في الغالب فمعاجلون، أمَا إنهُ يملى لبعضهم، وفي الحديث من رواية أبي موسى أن رسول الله ﷺ قال: «إِن الله يُمْلي للظالم حتَّى إِذا أَخذه لم يُفْلته»، ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ﴾ الآية[٢].

وقرأ أبو رجاء العطاردي وعاصم الجحدري: (ربّك إذْ أخذ القرى)[٣].

[والجمهور الأعظم قراءتهم: ﴿أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ﴾، وأنحى الطبري على قراءة عاصم هذه.

(١) انظر عزوه له في الأغاني (١٨/ ٢١٧)، وتفسير الطبري (١٥/ ٤٧٢)، وفي أحمد٣ ونور العثمانية: «عرابة»، وفي المطبوع: «عرارة».

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري (٤٦٨٦)، ومسلم (٢٥٨٣) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(٣) وهي شاذة، انظر: تفسير الطبري (١٥/ ٤٧٦)، وإعراب القرآن للنحاس (٢/ ١٨٢)، ولم يضبطاها، والهداية لمكي (٥/ ٣٤٦١)، وظاهره كالمصنف أن الخلاف في «إذْ» خاصة، وضبطها في البحر المحيط (٦/ ٢٠٨) على أن (أخذ ربك) فعل وفاعل، وفي أحمد٣: «وقال أبو».

وقرأ طلحة بن مصرف: (وكذلك أَخَذَ ربُّك إذ أَخَذ)][1]، وهي قراءة متمكنة المعنى، ولكن قراءة الجماعة تعطي بقاء الوعيد واستمراره في الزمان، وهو الباب في وضع المستقبل موضع الماضي.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ المعنى: أن في أمر هذه القرى وما حل بها لعبرة وعلامةَ اهتداء لمن خاف أمر الآخرة وتوقع أن يناله عذابها فنظر وتأمل، فإن نظره يؤديه إلى الإيمان بالله تعالى، ثم عظَّم الله أمر يوم القيامة بوصفه بما تلبَّس بأجنبي منه للسبب المتصل بينهما، ويعود الضمير عليه، و﴿ٱلنَّاسُ﴾ على هذا مفعول لم يسم فاعله، ويصح أن يكون ﴿ٱلنَّاسُ﴾ رفعاً بالابتداء و﴿مَّجۡمُوعٌ﴾ خبر مقدم، وهذه الآية خبر عن الحشر.

و﴿مَّشۡهُودٌ﴾: عامٌّ على الإطلاق يشهده الأولون والآخرون من الإنس والملائكة والجن والحيوان، في قول الجمهور، وفيه ـ أعني الحيوان الصامت ـ اختلاف.

وقال ابن عباس: «الشاهد: محمد عليه السّلام، والمشهود يوم القيامة»[2].

وقوله: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ﴾ الآية، المعنى: وما نؤخر يوم القيامة عجزاً عن ذلك، لكن القضاء السابق قد نفذ فيه بأجَلٍ محدود لا يتقدم عنه ولا يتأخر.

وقرأ الجمهور: ﴿نُؤَخِّرُهُۥٓ﴾ بالنون، وقرأ الأعمش: (يؤخِّره) بالياء[3].

وقرأ عاصم وابن عامر وحمزة: ﴿يَوۡمَ يَأۡتِ﴾ بحذف الياء من «يأتي» في الوصل والوقف.

---

(١) ساقط من الأصل، وهي شاذة، انظرها في تفسير القرطبي (٩/ ٩٥)، وضبطها في البحر المحيط (٦/ ٢٠٨): «إذا» كالجماعة.

(٢) ضعيف، أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٣٥٧٨٢)، والطبري (١٨٨٥٦٤، ١٨٥٦٥) وفي (٢٤/ ٣٣٥)، وابن أبي حاتم (١١٢١٦) من طريق علي بن زيد بن جدعان، عن يوسف المكي، عن ابن عباس رضي الله عنهما به، وفي رواية عن علي بن زيد عن ابن عباس، وعلي بن زيد بن جدعان ضعيف.

(٣) وهي شاذة، عزاها في الشواذ للكرماني (ص: ٢٣٨) للحسن.

وقرأ ابن كثير بإثباتها في الوصل والوقف.

وقرأ نافع وأبو عمرو والكسائي بإثباتها في الوصل وحذفها في الوقف، ورويت أيضاً كذلك عن ابن كثير[١] / . [٣/ ٥١]

والياء ثابتة في مصحف أبي بن كعب[٢]، وسقطت في إمام عثمان.

وفي مصحف ابن مسعود: (يوم يأتون)، وقرأ بها الأعمش[٣].

ووجه حذفها في الوقف التشبيه بالفواصل، وإثباتها في الوجهين هو الأصل.

ووجه حذفها في الوصل التخفيف كما قالوا في: لا أبال ولا أدر، وأنشد الطبري:

كـفَّـاكَ كـفٌّ مـــا تُـلـيـق دِرْهـمـاً جُوداً وأخرى تُعطِ بالسيفِ الدَّمَا[٤]

وقوله: ﴿لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ﴾ يصح أن تكون جملة في موضع الحال من الضمير الذي في ﴿يَأْتِ﴾ وهو العائد على قوله: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ﴾، ولا يجوز أن يعود على قوله: ﴿يَوْمَ يَأْتِ﴾ لأن اليوم المضاف إلى الفعل لا يكون فاعل ذلك الفعل، إذ المضاف متعرف بالمضاف إليه، والفعل متعرف بفاعله، وليس في نفسه شيئاً مقصوداً مستقلّاً دون الفاعل، وقولهم: سيد قومه ومولى أخيه وواحد أمه ـ مفارق لما لا يستقل، فلذلك جازت الإضافة فيها، ويكون قوله على هذا: ﴿يَوْمَ يَأْتِ﴾ في موضع الرفع بالابتداء وخبره: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ وفي الكلام على هذا عائد محذوف تقديره: لا تكلم نفس فيه إلا، ويصح

---

(١) وكلها سبعية إلا أن الصحيح عن ابن كثير هو الأول فقط. انظر التيسير (ص: ١٢٧)، والنشر (٢/ ٢٩٢).

(٢) تابعه في البحر المحيط (٦/ ٢٠٩)، ونقل القرطبي (٩/ ٩٦) إثبات الياء في الحالين عنه وعن ابن مسعود قراءة.

(٣) وهي شاذة، انظر عزوها لابن مسعود في الشواذ للكرماني (ص: ٢٣٨)، وللأعمش في البحر المحيط (٦/ ٢٠٩).

(٤) ورد هذا البيت بلا نسبة في معاني القرآن للفراء (٢/ ٢٧)، وتفسير الطبري (١٥/ ٤٧٩)، وإعراب القرآن للنحاس (٢/ ١٨٣).

أن يكون قوله: ﴿لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ﴾ صفة لقوله: ﴿يَوْمَ يَأْتِ﴾، والخبر قوله: ﴿فَمِنْهُمْ﴾، ويصح أن يكون قوله: ﴿لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ﴾، خبراً عن قوله: ﴿يَوْمَ يَأْتِ﴾.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ﴾ يراد به اليوم الذي قبله ليلتُه[١]، وقوله: ﴿يَوْمَ يَأْتِ﴾ يراد به الحين والوقت لا النهار بعينه، فهو كما قال عثمان: «إني قد رأيت ألا أتزوج يومي هذا»[٢]، وكما قال الصديق رضي الله عنه: «فإن الأمانة اليوم في الناس قليل»[٣].

ومعنى قوله: ﴿لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ وصف المهابة يوم القيامة وذهول العقل وهول القيامة، وما ورد في القرآن من ذكر كلام أهل الموقف في التلاوم والتساؤل والتجادل، فإما أن يكون بإذن، وإما أن تكون هذه هنا مختصة في تكلُّم شفاعة أو إقامة حجة، وقوله: ﴿فَمِنْهُمْ﴾ عائد على الجمع الذي تضمنه قوله: ﴿نَفْسٌ﴾ إذ هو اسم جنس يراد به الجمع.

قوله عز وجل: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾.

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ شَقُواْ﴾ على بعض التأويلات في الاستثناء الذي في آخر الآية يراد به كل من يعذب من كافر وعاص، وعلى بعضها كلُّ من يخلد، وذلك لا يكون إلا في الكفرة خاصة.

---

(١) في المطبوع: «قبل ليلته».

(٢) أخرجه البخاري (٤٠٠٥) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٣) هو جزء من حديث أخرجه إسحاق بن راهويه في مسنده (٢٢٤٥)، وأحمد في مسنده (٦/ ٣٤٩ رقم ٢٦٩٥٦)، وابن حبان في صحيحه (٧٢٠٨)، والطبراني في الكبير (٢٣٦)، والحاكم في المستدرك (٣/ ٤٨) وغيرهم من طريق محمد بن إسحاق، عن يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه، عن جدته أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها، وإسناده جيد لولا عنعنة ابن إسحاق، وهو في مسند أحمد بدون اللفظ الذي ذكره المصنف.

والزَّفِير: صوت شديد خاص بالمحزون أو الوَجِع أو المعذب ونحوه، والشَّهِيق كذلك، كما يفعل الباكي الذي يصيح خلال بكائه.

وقال ابن عباس: الزفير: صوت حادٌّ، والشهيق: صوت ثقيل(١).

وقال أبو العالية: الزفير من الصدر، والشهيق من الحلق، وقيل: بالعكس.

وقال قتادة: الزفير: أول صوت الحمار، والشهيق آخره، فصياح أهل النار كذلك(٢).

وقيل: الزفير: مأخوذ من الزفر وهو الشدة، والشهيق: من قولهم: جبل شاهق، أي: عال، فهما ـ على هذا المعنى ـ واحد أو متقارب. والظاهر ما قال أبو العالية، فإن الزفرة هي التي يعظم معها الصدر والجوف(٣)، والشهقة هي الوقعة الأخيرة من الصوت المندفعة معها النفس أحياناً، فقد يشهق المحتضر ويشهق المغشي عليه.

وأما قوله: ﴿مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ فقيل: معناه أن الله تعالى يبدل السماء والأرض يوم القيامة، ويجعل الأرض مكاناً لجهنم والسماء مكاناً للجنة، ويتأبد ذلك، فقَرنت الآية خلود هؤلاء ببقاء هذه.

ويروى عن ابن عباس أنه قال: «إن الله خلق السماوات والأرض من نور العرش، ثم يردهما إلى هنالك في الآخرة، فلهما ثَمَّ بقاء دائم»(٤).

وقيل: معنى قوله: ﴿مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾: العبارة عن التأبيد بما تعهده العرب، وذلك أن من فصيح كلامها إذا أرادت أن تخبر عن تأبيد شيء أن تقول: لا أفعل كذا وكذا مدى الدهر، وما ناح الحمام، وما دامَتِ السَّماواتُ وَالْأَرْضُ، ونحو هذا مما

---

(١) أخرجه الطبري (١٨٥٦٧)، وابن أبي حاتم (١١٢٢٤، ١١٢٢٦) من طريق علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما بلفظ: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾، يقول: صوت شديد وصوت ضعيف.

(٢) انظر القولين في تفسير الطبري (١٥/ ٤٨٠)، وتفسير الثعلبي (٥/ ١٨٩).

(٣) في المطبوع وأحمد٣: «الخوف».

(٤) لم أقف عليه.

يريدون به طولاً من غير نهاية، فأفهمهم الله تعالى تخليد الكفرة بذلك وإن كان قد أخبر بزوال السماوات والأرض.

وأما قوله: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ فقيل فيه: إن ذلك على طريق الاستثناء الذي ندب الشرع إلى استعماله في كل كلام، فهو على نحو قوله: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [الفتح: ٢٧] استثناء في واجب، وهذا الاستثناء هو في حكم الشرط، كأنه قال: إن شاء الله، فليس يحتاج أن يوصف بمتصل ولا بمنقطع، ويؤيد هذا قوله: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾.

وقيل: هو استثناء من طول المدة، وذلك على ما روي من أن جهنم تخرب ويعدم أهلها وتخفق أبوابها، فهم على هذا يخلدون حتى يصير أمرهم إلى هذا(١).

قال القاضي أبو محمد: وهذا قول مختل(٢)، والذي روي ونقل عن ابن مسعود وغيره [أن مَا يُخْلَى من النار](٣) إنما هو الدرك الأعلى المختص بعصاة المؤمنين(٤)، وهو الذي يسمى جهنم، وسمي الكل به تجوزاً.

وقيل: إنما استثنى ما يلطف الله تعالى به للعصاة من المؤمنين في إخراجهم بعد مدة من النار، فيجيء قوله: ﴿مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ أي: لقوم مّا، وهذا قول قتادة والضحاك وأبي سنان وغيرهم(٥)، وعلى هذا فيكون قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ﴾ عامّاً في الكفرة والعصاة

---

(١) قال بهذا الجهم بن صفوان، قال ابن حزم في الملل والنحل (٤/ ٦٩-٧٠): وهو مخالف لما اتفقت عليه فرق الأمة.

(٢) تحرفت في المصرية إلى: «محتمل».

(٣) ساقط من الأصل والمطبوع، وفي أحمد٣: «أنما تخلو»، وفي نور العثمانية: «يجلى».

(٤) عزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٤٧٨) لابن المنذر، وأبي الشيخ، عن إبراهيم قال: ما في القرآن آية أرجى لأهل النار من هذه الآية «خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض إلا ما شاء ربك» قال: وقال ابن مسعود: ليأتين عليها زمان تخفق أبوابها.

(٥) انظر تفسير الطبري (١٥/ ٤٨٢، ٤٨٣)، تفسير ابن أبي حاتم (٦/ ٢٠٨٨).

ـ كما قدمنا ـ ويكون الاستثناء من ﴿خَٰلِدِينَ﴾، وقيل: ﴿إِلَّا﴾ بمعنى الواو، فمعنى الآية: وما شاء الله زائداً على ذلك، ونحو هذا قول الشاعر:

[الوافر] وكـلُّ أَخٍ مُـفـارِقُـهُ أخُـوهُ لَعمرُ أبيكَ، إلّا الفَرقَـدانِ[(١)]

قال القاضي أبو محمد: وهذا البيت يصح الاستشهاد به على معتقدنا في فناء الفرقدين وغيرهما من العالم، وأما إن كان قائله من دهرية العرب فلا حجة فيه، إذ يرى ذلك مؤبداً فأجرى «إلَّا» على بابها.

وقيل: ﴿إِلَّا﴾ في هذه الآية بمعنى سوى، والاستثناء منقطع، كما تقول: لي عندك ألفا درهم إلا الألفَ التي كنتُ أسلفتك، بمعنى: سوى تلك، فكأنه قال: خالِدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّماواتُ وَالْأَرْضُ سوى ما شاء الله زائداً على ذلك، ويؤيد هذا التأويلَ قوله بعد: ﴿عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ﴾، وهذا قول الفراء، فإنه يقدِّر الاستثناء المنقطع بـ«سوى»، وسيبويه يقدره بـ«لكن»[(٢)].

وقيل: سوى ما أعده لهم من أنواع العذاب مما لا يعرف كالزمهرير ونحوه.

[٣/ ٥٢] وقيل: / استثناء من مدة السماوات: المدة التي فرطت لهم في الحياة الدنيا، وقيل: في البرزخ بين الدنيا والآخرة، وقيل: في المسافات التي بينهم في دخول النار، إذ دخولهم إنما هو زمراً بعد زمر، وقيل: الاستثناء من قوله: ﴿فَفِي ٱلنَّارِ﴾ كأنه قال: إلا ما شاء ربك من تأخير قوم عن ذلك، وهذا قول رواه أبو نضرة عن جابر أو عن أبي سعيد الخدري[(٣)].

ثم أخبر منبهاً على قدرة الله تعالى بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ﴾.

---

(١) البيت لعمرو بن معدي كرب كما في جمهرة أشعار العرب (ص: ١٤)، والكتاب لسيبويه (٢/ ٣٣٤)، ومجاز القرآن (١/ ١٣١)، والبيان والتبيين (١/ ١٩٤)، ونسب في الجمل (ص: ١٧٧) للأعشى، وفي المؤتلف والمختلف (ص: ١٠٦) لحضرمي بن عامر الأسدي.

(٢) يعني أن هذا مذهبهما، وقد تقدم التنبيه عليه.

(٣) أخرجه الطبري (١٨٥٧٩) من طريق أبي نضرة المنذر بن مالك، عن جابر، أو أبي سعيد الخدري، أو عن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ، هكذا بالشك.

وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر وعاصم في رواية أبي بكر: ﴿سَعِدوا﴾ بفتح السين، وهو فعل لا يتعدى، وقرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص ﴿سُعِدُواْ﴾ بضم السين، وهي شاذة[١]، ولا حجة في قولهم: مسعود، لأنه مفعول من أسعد على حذف الزيادة، كما يقال: محبوب، من أحب، ومجنون من أجنه الله، وقد قيل في مسعود: إنما أصله الوصف للمكان، يقال: مكان مسعود فيه، ثم نقل إلى التسمية به.

وذكر أن الفراء حكى أن هذيلاً تقول: سَعده الله، بمعنى: أسعده[٢].

وبضم السين قرأ ابن مسعود وطلحة بن مصرف وابن وثاب والأعمش[٣].

والأقوال المترتبة في استثناء الآية التي قبل هذه تترتب هاهنا، إلا تأويل من قال: هو استثناء المدة التي تخرب فيها جهنم، فإنه لا يترتب مثله في هذه الآية، ويزيد هنا قول: أن يكون الاستثناء في المدة التي يقيمها العصاة في النار، ولا يترتب أيضاً تأويل من قال في تلك: إن الاستثناء هو من قوله: ﴿فَفِى ٱلنَّارِ﴾.

وقوله: ﴿عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ﴾، نصب على المصدر، [والمجذوذ: المقطوع، والجذ: القطع، وكذلك الجدُّ، وكذلك الحزُّ][٤].

قوله عز وجل: ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرۡيَةٖ مِّمَّا يَعۡبُدُ هَٰٓؤُلَآءِۚ مَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبۡلُۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمۡ نَصِيبَهُمۡ غَيۡرَ مَنقُوصٖ ﴿١٠٩﴾ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ فَٱخۡتُلِفَ فِيهِۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّهُمۡ لَفِى شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلّٗا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمۡ رَبُّكَ أَعۡمَٰلَهُمۡۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿١١١﴾﴾.

لفظ الخطاب للنبي ﷺ، والمعنى له ولأمته، ولم يقع لأحد شك فيقعَ عنه نهي

---

(١) بل هما سبعيتان، انظر: التيسير (ص: ١٢٦)، وفي الحمزوية: «ابن عباس»، بدل «ابن عامر».

(٢) انظر هذه اللغة في أدب الكاتب (ص: ٤٤٠)، وتهذيب اللغة (٢/ ٤٣)، دون نسبة لهذيل.

(٣) وهي سبعية كما مر.

(٤) ساقط من الحمزوية، وفي أحمد٣: «الحذ»، بدل «الحز»، وفي نور العثمانية: «الجد».

ولكن من فصاحة القول في بيان ضلالة الكفرة إخراجه في هذه العبارة، أي: حالهم أوضح من أن يمترى فيها، والمِرْيَة: الشك، و﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ إشارة إلى كفار العرب عبدة الأصنام، ثم قال: ﴿مَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبۡلُ﴾، المعنى: أنهم مقلدون لا برهان عندهم ولا حجة، وإنما عبادتهم تشبهاً منهم بآبائهم لا عن بصيرة.

وقوله: ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمۡ نَصِيبَهُمۡ غَيۡرَ مَنقُوصٖ﴾ وعيد، ومعناه: العقوبة التي تقتضيها أعمالهم، ويظهر من قوله: ﴿غَيۡرَ مَنقُوصٖ﴾ أن على الأولين كفلاً من كفر الآخِرين.

وقرأ الجمهور: ﴿لَمُوَفُّوهُمۡ﴾ بفتح الواو وشد الفاء.

وقرأ ابن محيصن: (لَمُوْفوهم) بسكون الواو وتخفيف الفاء[1].

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ﴾ الآية، تسلية لمحمد عليه السلام، وذكرُ قصة موسى مَثَلٌ له، أي: لا يعظم عليك أمر من كذبك، فهذه هي سيرة الأمم، فقد جاء موسى، بكتاب فاختلف الناس عليه.

وقوله: ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ﴾ إلى آخر الآية، يحتمل أن يريد به أمة موسى، ويحتمل أن يريد به معاصري محمد عليه السّلام، وأن يعمَّهم اللفظ أحسن عندي، ويؤيد ذلك قوله: ﴿وَإِنَّ كُلّٗا﴾، والكلمة هاهنا عبارة عن الحكم والقضاء.

ومعنى[2] ﴿لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡ﴾ أي: لفصل بين المؤمن والكافر، بنعيم هذا وعذاب هذا، ووصف الشك بالمريب تقوية لمعنى الشك.

وقرأ الكسائي وأبو عمرو: ﴿وإنَّ كلاًّ لَمَا﴾ بتشديد النون وتخفيف الميم من ﴿لَمَا﴾، وقرأ ابن كثير ونافع بتخفيفهما، وقرأ حمزة بتشديدهما، وكذلك حفص عن عاصم، وقرأ عاصم ـ في رواية أبي بكر ـ بتخفيف ﴿إنْ﴾ وتشديد الميم من ﴿لَّمَّا﴾[3].

---

(١) وهي شاذة، انظر: إتحاف فضلاء البشر (ص: ٣٢٦).

(٢) في الأصل: «والمعنى»، فيكون عطفاً على ما قبله.

(٣) أربع قراءات سبعية، وابن عامر مع حمزة، انظر: التيسير (ص: ١٢٦).

وقرأ الزهري وسليمان بن أرقم[١]: (وإنَّ كلّاً لمّاً) بتشديد الميم وتنوينها[٢].

وقرأ الحسن بخلاف: (وإنْ كلٌّ لمَّا) بتخفيف (إنْ) ورفع (كلٌّ) وشد (لمَّا)، وكذلك قرأ أبان بن تغلب إلا أنه خفف (لمَا)[٣].

وفي مصحف أبيّ وابن مسعود: (وإنْ كلٌّ إلا ليوفينهم)، وهي قراءة الأعمش[٤].

قال أبو حاتم: الذي في مصحف أبيّ: (وإن من كلٍّ إلا ليوفينهم أعمالهم)[٥].

فأما الأول فـ(إنَّ) فيها على بابها، و﴿كُلًّا﴾ اسمها، وعُرفها أن تدخل على خبرها لام، وفي الكلام قسم تدخل لامه أيضاً على خبر (إنَّ)، فلما اجتمع لامان فُصل بينهما بـ(ما) ـ هذا قول أبي علي[٦] ـ والخبر في قوله: ﴿لَيُوَفِّيَنَّهُمْ﴾، وقال بعض النحاة: يصح أن تكون (ما) خبر (إنَّ) وهي لمن يعقل لأنه موضع جنس وصنف، فهي بمنزلة «مَن»، كأنه قال: وإنَّ كلّاً لخلقٌ ليوفينهم، ورجح الطبري هذا واختاره[٧]، أمَا إنه يلزم القول أن تكون (ما) موصوفة إذ هي نكرة، كما قالوا: مررت بما معجبٍ لك، وينفصل بأن قوله: ﴿لَيُوَفِّيَنَّهُمْ﴾ يقوم معناه مقام الصفة، لأن المعنى: وإنَّ كلّاً لخلقٌ موفًّى عملَه.

وأما من خففها ـ وهي القراءة الثانية في ترتيبنا ـ فحُكم (إنْ) وهي مخففة حكمها مثقلةً، وتلك لغة فصيحة، حكى سيبويه أن الثقة أخبره: أنه سمع بعض العرب

---

(١) هو سليمان بن أرقم، أبو معاذ، بصري مشهور، مولى الأنصار، وقيل: مولى قريش. روى عن الحسن البصري قراءته، وهو ضعيف مجمع على ضعفه، انظر: طبقات القراء (١/ ٣١٢)، وتاريخ الإسلام (١٠/ ٢٤٤).

(٢) وهي شاذة، انظر: مختصر الشواذ (ص: ٦٦)، والمحتسب (١/ ٣٢٨)، الشواذ للكرماني (ص: ٢٣٩).

(٣) وكلاهما شاذة، انظر: الدر المصون (٦/ ٣٩٧)، وفي المطبوع: «أبان بن ثعلب»، وهو خطأ تكرر منه في هذا الاسم كثيراً.

(٤) وهي شاذة، انظر: المحتسب (١/ ٣٢٨).

(٥) انظر ما ذكره أبو حاتم في البحر المحيط (٦/ ٢١٦).

(٦) انظر: الحجة لأبي علي الفارسي (٤/ ٣٨٥).

(٧) تفسير الطبري (١٥/ ٤٩٨).

يقول: إنْ عَمْراً لمنطلق[١]، وهو نحو قول الشاعر:

[مجزوء الوافر] ووَجْـــهٍ مُــشْـرِقِ الـنَّـحْـرِ كَـــأَنْ ثَـــدْيَـــاهُ حُـــقَّـــانِ[٢]

رواه أبو زيد[٣].

ويكون القول في فصلِ (ما) بين اللامين حسبما تقدم، ويدخلها القول الآخر من أن تكون (ما) خبرَ (إنَّ). وأما من شددهما[٤] أو خفف (إنْ) وشدد الميم، ففي قراءتيهما إشكال، وذلك أن بعض الناس قال: إن ﴿لَّمَّا﴾ بمعنى «إلا»، كما تقول: سألتك لمَّا فعلت كذا وكذا، بمعنى: إلا فعلت، قال أبو علي: وهذا ضعيف لأن «لما» هذه لا تفارق القسم[٥].

وقال بعض الناس: المعنى: لمَنْ ما، أبدلت النون ميماً، وأدغمت في التي بعدها فبقي «لمما» فحذفت الأولى تخفيفاً لاجتماع الأمثلة، كما قرأ بعض القراء: (وَالْبَغْي يَعِظُكُمْ)[٦] بحذف الياء مع الياء، وكما قال الشاعر:

[الوافر] وَأَشْـمَتَّ العُـدَاةَ بِنَـا فَأَضْحَـوْا لَـدَيْ يَتَباشَـرُونَ بِمَـا لَقِينَـا[٧]

قال أبو علي وهذا ضعيف[٨]، وقد اجتمع في هذه السورة ميمات أكثر من هذه في قوله: ﴿أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾[هود: ٤٨] ولم يدغم هناك فأحرى أن لا يدغم هنا.

---

(١) الكتاب لسيبويه (١/ ١١٩).

(٢) البيت بلا نسبة في معاني القرآن للأخفش (١/ ٣٧٠) والأصول في النحو (١/ ٢٤٦)، وتهذيب اللغة (١٥/ ٤٠٦). وفي المطبوع وأحمد٣ ونور العثمانية: «ثدييه»، بالنصب.

(٣) تفسير الطبري (١٥/ ٤٩٧).

(٤) تحرفت في المطبوع إلى: «شددها».

(٥) انظر: الحجة لأبي علي (٤/ ٣٨٦).

(٦) [النحل: ٩٠]، وجاء بعدها في الأصل: «به»، وهو خطأ، والقراءة بالتخفيف شاذة، انظرها في معاني القرآن للفراء (٢/ ٩٢) وتفسير الطبري (١٥/ ٤٩٤)، والقراءة بالتشديد على الإدغام الكبير سبعية للسوسي.

(٧) البيت بلا نسبة، في تفسير الطبري (١٥/ ٤٩٥).

(٨) انظر: الحجة لأبي علي (٤/ ٣٨٦).

قال القاضي أبو محمد: وقال بعض الناس: أصلها: لَمَنْ ما، فـ(مَن) خبر (إن) و(ما) زائدة، وفي التأويل / الذي قبله أصله: لِمَن ما، فـ(ما) هي الخبر دخلت عليها (مِن) على حد دخولها في قول الشاعر: [٣/ ٥٣]

وإنّـا لِممَّـا نَضـربُ الكَبْـشَ ضَربةً على رأسه تُلقِي اللسانَ من الفَمِ[١] [الطويل]

وقالت فرقة: ﴿لَّمَّا﴾ أصلها «لمّاً» منونة، والمعنى: وإن كلّاً عامّاً حصراً شديداً، فهو مصدر لمَّ يَلمُّ، كما قال: ﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا﴾ [الفجر: ١٩] أي: شديداً، قالت[٢]: ولكنه تُرِك تنوينه وصَرْفه وبني منه فَعْلَى كما فُعل في ﴿تتراً﴾ فقرئ: ﴿تَتْرَا﴾[٣].

قال القاضي أبو محمد: وفي هذا نظر، حكي عن الكسائي أنه قال: «لا أعرف وجه التثقيل في ﴿لَّمَّا﴾»[٤].

قال أبو علي: وأما من قرأ (لَمًّا) بالتنوين وشد الميم فواضح الوجه كما بينا، وأما من قرأ: (وإنْ كلٌّ لمَّا) فهي المخففة من الثقيلة، وحقها في أكثر لسان العرب أن يرتفع ما بعدها، و﴿لَّمَّا﴾ هنا بمعنى «إلا»، كما قرأ جمهور القراء: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ [الطارق: ٤]، ومن قرأ (إلا) مصرّحة، فمعنى[٥] قراءته واضح[٦].

وهذه الآية وعيد.

وقرأ الجمهور: ﴿يَعْمَلُونَ﴾ بياء على ذكر الغائب.

وقرأ الأعرج: (تعملون)[٧] بتاء على مخاطبة الحاضر.

---

(١) البيت لأبي حية النميري كما تقدم في تفسير الآية (٥٨) من سورة النساء.

(٢) في المطبوع: «قلت».

(٣) المؤمنون: (٤٤)، وسيأتي الخلاف فيها في محله.

(٤) نقله عنه في معاني القرآن للفراء (٢/ ٣٧٧).

(٥) في الأصل: «بمعنى»، وفي أحمد٣: «فوجه».

(٦) الحجة لأبي علي (٤/ ٣٨٦).

(٧) وهي شاذة، انظرها في الشواذ للكرماني (ص: ٢٣٩).

قوله عز وجل: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾﴾.

أمرُ النبيِّ ﷺ بالاستقامة وهو عليها إنما هو أمرٌ بالدوام والثبوت، وهذا كما تأمر إنساناً بالمشي والأكل ونحوه وهو متلبس به.

والخطاب بهذه الآية للنبي ﷺ وأصحابه الذين تابوا من الكفر، ولسائر أمته بالمعنى، وروي أن بعض العلماء رأى النبي ﷺ في النوم فقال له: يا رسول الله، بلغنا عنك أنك قلت: «شيبتني هود وأخواتها»، فما شيَّبك من هود؟ قال له: قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾[1].

قال القاضي أبو محمد: والتأويل المشهور في قوله ﷺ: «شيبتني هود وأخواتها» أنها إشارة إلى ما فيها مما حل بالأمم السابقة، فكأنَّ حذرَه على هذه الأمة مِثْلَ ذلك شيَّبه ﷺ.

وقوله: ﴿كَمَآ أُمِرْتَ﴾ مخاطبة تعظيم، وقوله: ﴿وَمَن﴾ معطوف على الضمير في قوله: ﴿فَٱسْتَقِمْ﴾، وحسُن ذلك دون أن يؤكَّد لطول الكلام بقوله: ﴿كَمَآ أُمِرْتَ﴾.

﴿وَلَا تَطْغَوْا۟﴾ معناه: ولا تتجاوزوا حدود الله تعالى، والطغيان: تجاوز الحد، ومنه

---

(١) هذا الأثر له طرق متعددة لا يسلم منها شيء من مقال، أخرجه ابن سعد في الطبقات (١/ ٤٣٥)، وسعيد بن منصور في سننه (١١١٠)، والترمذي (٣٢٩٧)، والمروزي في مسند أبي بكر (٣٠ ٣٣)، وأبو يعلى في مسنده (١٠٧-١٠٨)، والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٣٧٤) وغيرهم من طرق عن أبي بكر رضي الله عنه، بألفاظ مختلفة، وقد وقع فيه اضطراب شديدٌ.
وقد استوعب الكلام على طرقه وألفاظه الدارقطني في العلل (١/ ١٩٤ ٢١٠)، وانظر علل الترمذي حديث (٦٦٥)، وفي الباب عن عمر بن الخطاب، وسعد بن أبي وقاص، وعمران بن حصين، وسهل بن سعد الساعدي، وأنس بن مالك، وعبد الله بن عباس، وأبي هريرة، وعقبة بن عامر، وأبي جحيفة، ولا تسلم جميعاً من مقال.

قوله: ﴿طَغَا ٱلۡمَآءُ﴾ [الحاقة: ١١]، وقوله في فرعون: ﴿إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ [طه: ٢٤]، وقيل في هذه: معناه: ولا تطغينكم النعم، وهذا كالأول.

وقرأ الجمهور ﴿تَعۡمَلُونَ﴾ بتاء، وقرأ الحسن والأعمش: (يعملون) بياء من تحت[1].

وقرأ الجمهور: ﴿وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ﴾ بفتح الكاف، وقرأ طلحة بن مصرف وقتادة والأشهب العقيلي وأبو عمرو فيما روى عنه هارون بضمها[2]، وهو لغة، يقال: رَكَن يركَن وركَن يركُن، ومعناه: السكون إلى الشيء والرضا به.

قال أبو العالية: «الركون إلى الشيء: الرضا»، قال ابن زيد: «الركون: الإدهان»[3].

قال القاضي أبو محمد: فالركون يقع على قليل هذا المعنى وكثيره، والنهي هنا يترتب من معنى الركون على الميل إليهم بالشرك معهم إلى أقل الرتب من ترك التغيير عليهم مع القدرة، و﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ هنا هم الكفرة، وهو النص للمتأولين، ويدخل بالمعنى أهل المعاصي.

وقرأ الجمهور ﴿فَتَمَسَّكُمُ﴾، وقرأ يحيى وابن وثاب وعلقمة والأعمش وابن مصرف وحمزة فيما روي عنه: (فتِمسكم) بكسر التاء[4]، وهي لغة في كسر العلامات الثلاث دون الياء التي للغائب، وقد جاء في الياء ييجل وييبى، وعللت هذه بأن الياء التي وليت الأولى ردتها إلى الكسر.

---

(١) وهي شاذة، انظر عزوها لهما في الشواذ للكرماني (ص: ٢٣٩).

(٢) في الأصل: «بضمهما»، والتصحيح من بقية النسخ، والقراءة شاذة، انظر: المحتسب (١/ ٣٢٩)، ومختصر الشواذ (ص: ٦٦).

(٣) في نجيبويه: «أبو زيد»، وفي المطبوع: «الإذعان»، والمثبت هو الموافق لما في تفسير الطبري (١٥/ ٥٠١)، وتفسير ابن أبي حاتم (٦/ ٢٠٩٠)، وانظر قول أبي العالية في تفسير الطبري (١٥/ ٥٠٠)، وتفسير الماوردي (٢/ ٥٠٧).

(٤) وهي شاذة، انظر: المحتسب (١/ ٣٣٠).

وقوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ الآية، لم يختلف أحد في أن الصَّلاةَ في هذه الآية يراد بها الصلوات المفروضة، واختلف في طَرَفَيِ النَّهارِ وزلف الليل؛ فقيل: «الطرف الأول الصبح، والثاني الظهر والعصر، والزلف المغرب والعشاء»، قاله مجاهد ومحمد بن كعب القرظي[١].

وروي أن النبي ﷺ قال في المغرب والعشاء: «هما زلفتا الليل»[٢].

وقيل: «الطرف الأول: الصبح، والثاني: العصر»، قاله الحسن وقتادة والضحاك[٣]، والزلف: المغرب والعشاء، وليست الظهر في هذه الآية على هذا القول، بل هي في غيرها.

وقيل: الطرفان: الصبح والمغرب، قاله ابن عباس[٤] والحسن أيضاً[٥]، والزلف: العشاء، وليست في الآية الظهر والعصر، وقيل: الطرفان: الظهر والعصر، والزلف: المغرب والعشاء والصبح.

قال القاضي أبو محمد: كأن هذا القائل راعى جهر القراءة، والأول أحسن هذه الأقوال عندي، ورجح الطبري أن الطرفين: الصبح والمغرب[٦]، وأنه الظاهر، إلا أن عموم الصلوات الخمس بالآية أولى.

وقرأ الجمهور ﴿وَزُلَفًا﴾ بفتح اللام، وقرأ طلحة بن مصرف وابن محيصن

---

(١) تفسير الطبري (١٥/ ٥٠٢ و٥٠٨)، وتفسير ابن أبي حاتم (٦/ ٢٠٩١) بتصرف.

(٢) أخرجه الطبري (١٨٦٣٦) من طريق الحسن البصري، عن النبي ﷺ مرسلاً.

(٣) تفسير الطبري (١٥/ ٥٠٣، ٥٠٤)، وتفسير الماوردي (٢/ ٥٠٩).

(٤) أخرجه الطبري (١٨٦١٥)، وابن أبي حاتم (١١٢٦٣) من طريق علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٥) تفسير الطبري (١٥/ ٥٠٣).

(٦) تفسير الطبري (١٥/ ٥٠٤).

وعيسى وابن أبي إسحاق[(١)] وأبو جعفر[(٢)]: ﴿زُلُفاً﴾ بضم اللام[(٣)] كأنه اسم مفرد.

وقرأ: (زُلْفاً) بسكون اللام مجاهد[(٤)]، وقرأ أيضا: (زُلْفَى) على وزن ـ فُعْلَى ـ وهي قراءة ابن محيصن[(٥)].

والزلف: الساعات القريب بعضها من بعض، ومنه قول العجَّاج:

ناجٍ طَواهُ الأَيْنُ مما وجفا طيَّ الليالى زُلَفاً فزُلَفا [الرجز]

سَماوةَ الهِلالِ حتى احقَوْقَفَا[(٦)]

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾، ذهب جمهور المتأولين من صحابة وتابعين إلى أن ﴿ٱلْحَسَنَٰتِ﴾ يراد بها الصلوات الخمس، وإلى هذه الآية ذهب عثمان رضي الله عنه عند وضوئه على المقاعد[(٧)] وهو تأويل مالك[(٨)].

قال مجاهد: «الْحَسَناتُ: قول الرجل: سبحان الله والحمد الله ولا إله إلا الله والله أكبر»[(٩)].

---

(١) في المطبوع: «ابن إسحاق».

(٢) في التركية: «ابن أبي جعفر».

(٣) وهي قراءة عشرية، قرأ بها أبو جعفر كما في النشر (٢/ ٢٩١)، وانظر قراءة الباقين مفرقاً في المحتسب (١/ ٣٣٠)، وتفسير القرطبي (٩/ ١١٠)، وإعراب القرآن للنحاس (٢/ ١٨٧)، وتفسير الثعلبي (٥/ ١٩٣).

(٤) وهي شاذة، انظر عزوها له في المحتسب (١/ ٣٣٠)، وإعراب القرآن للنحاس (٢/ ١٨٧).

(٥) وهي شاذة، انظر: تفسير الثعلبي (٥/ ١٩٣)، والهداية لمكي (٥/ ٣٤٨٠).

(٦) انظر عزوه له في الكتاب لسيبويه (١/ ٣٥٩)، ومجاز القرآن (١/ ٣٠٠)، وتفسير الطبري (١٥/ ٥٠٥).

(٧) أخرجه أحمد (١/ ٧١ ٥١٣)، والبزار في «مسنديهما» (٤٠٥)، والطبري (١٨٦٦٢ ١٨٦٦٤)، وابن أبي حاتم (١١٢٧٢) والضياء في المختارة (٣٢٣ ٣٢٤) وغيرهم من طريق أبي عقيل زهرة ابن معبد، أنه سمع الحارث مولى عثمان يقول: جلس عثمان يوماً إلخ، والحارث مولى عثمان بن عفان مستور، ذكروه بغير جرح أو تعديل، وذكره ابن حبان في الثقات (٤/ ١٣٦).

(٨) انظر تأويل مالك في: الموطأ، باب الوضوء (١/ ٣٠).

(٩) تفسير الطبري (١٥/ ٥١٥)، وتفسير الماوردي (٢/ ٥٠٩)، وتفسير الثعلبي (٥/ ١٩٣).

قال القاضي أبو محمد: وهذا كله إنما هو على جهة المثال في ﴿ٱلْحَسَنَٰتِ﴾، ومن أجل أن الصلوات الخمس هي عظم الأعمال، والذي يظهر أن لفظ الآية لفظ عام في الحسنات خاص في السيئات بقوله ﷺ: «ما اجتنبت الكبائر»[(١)].

وروي أن هذه الآية نزلت في رجل من الأنصار، قيل: هو أبو اليسر بن عمرو، وقيل: اسمه عباد، خلا بامرأة فقبَّلها وتلذّذ بها فيما دون الجماع، ثم جاء إلى عمر فشكا إليه، فقال: قد ستر الله عليك فاستر على نفسك، فقلِق الرجل فجاء أبا بكر فشكا إليه، فقال له مثل مقالة عمر، فقلق / الرجل فجاء رسول الله ﷺ، فصلى معه، ثم أخبره وقال: [٣/ ٥٤] اقض فيّ ما شئت، فقال الرسول ﷺ لعلها زوجة غاز في سبيل الله، قال: نعم، فوبَّخه رسول الله ﷺ وقال: «ما أدري»، فنزلت هذه الآية، فدعاه رسول الله ﷺ، فتلاها عليه، فقال معاذ بن جبل: يا رسول الله خاصة؟ قال: «بل للناس عامة»[(٢)]، وروي أن الآية كانت نزلت قبل ذلك واستعملها رسول الله ﷺ في ذلك الرجل، وروي أن عمر قال ما حكي عن معاذ[(٣)].

قال القاضي أبو محمد: وروي أن رسول الله ﷺ قال: «الجمعة إلى الجمعة، والصلوات الخمس، ورمضان إلى رمضان، كفارة لما بينها إن اجتنبت الكبائر»[(٤)].

[واختلف أهل السنة في تأويل هذا الشرط في قوله: «إن اجتنبت الكبائر»][(٥)]، فقال جمهورهم: هو شرط في معنى الوعد كله، أي: إن اجتنبت الكبائر كانت العبادات المذكورة كفارة للذنوب، فإن لم تجتنب لم تكفِّر العبادات شيئاً من الصغائر.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٣٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أصل الحديث في البخاري (٥٢٦)، ومسلم (٢٧٦٣) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٣) هو في بعض طرق هذا الحديث عن ابن مسعود خارج الصحيحين، والأول أثبت.

(٤) أخرجه مسلم (٢٣٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) ساقط من الحمزوية.

وقالت فرقة: معنى قوله: «إن اجتنبت» أي: هي التي لا تحطُّها العبادات، فإنما شرط ذلك ليصح بشرطه عموم قوله: «ما بينهما»، وإن لم تجتنب لم تحطّها العبادات وحطّت الصغائر[١].

قال القاضي أبو محمد: وبهذا أقول، وهو الذي يقتضيه حديث خروج الخطايا مع قطر الماء[٢] وغيره، وذلك كله بشرط التوبة من تلك الصغائر وعدم الإصرار عليها، وهذا نص الحذاق الأصوليين[٣]، وعلى التأويل الأول تجيء هذه مخصوصة في مجتنبي الكبائر فقط.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الصلوات، ووصفها بـ﴿ذِكْرَىٰ﴾، أي هي سببُ ذكرٍ وموضع ذكرى، ويحتمل أن يكون ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الإخبار بـ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾، فتكون هذه الذكرى تحض على الحسنات، ويحتمل أن تكون الإشارة إلى جميع ما تقدم من الأوامر والنواهي في هذه السورة، وهو تفسير الطبري[٤].

ثم أمره تعالى بالصبر، وجاءت هذه الآيات في نمط واحد: أعلمه الله تعالى أنه يوفي جميع الخلائق أعمالهم: المسيءَ والمحسن، ثم أمره بالاستقامة والمؤمنين معه، ثم أمره بإقامة الصلوات ووعد على ذلك، ثم أمره بالصبر على التبليغ والمكاره في ذات الله تعالى، ثم وعد بقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

قوله عز وجل: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾.

---

(١) انظر حكاية القولين في: فتح الباري لابن حجر (٨/ ٣٥٧).

(٢) أخرجه مسلم (٢٤٤) وهو بلفظ: «إذا توضأ العبد المسلم أو المؤمن فغسل وجهه خرج من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينيه مع الماء أو مع آخر قطر الماء».

(٣) قال بهذا القاضي الباقلاني وأبو إسحاق الإسفرائيني وأبو المعالي الجويني، كما في تفسير القرطبي (٥/ ١٥٨-١٥٩).

(٤) انظر: التفسير (١٥/ ٥١٥).

(لولا) هي التي للتحضيض، لكن يقترن بها هنا معنى التفجُّع والتأسف الذي ينبغي أن يقع من البشر على هذه الأمم التي لم تهتد، وهذا نحو قوله: ﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِ﴾ [يس: ٣٠].

والْقُرُون مِنْ قبلنا هم قوم نوح وعادٌ وثمود ومن تقدم ذكره، والقرن من الناس: المقترنون في زمان طويل؛ أكثره فيما حَد الناس مئةُ سنة، وقيل: ثمانون، وقيل غير ذلك إلى ثلاثين سنة، والأول أرجح؛ لقول النبي ﷺ: «أرأيتكم ليلتكم هذه فإن إلى رأس مئة سنة منها لا يبقى ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحد»، قال ابن عمر: يريد أنها تخرم ذلك القرن[1].

والبَقِيَّـة هنا يراد بها النظر والعقل والحزم والثبوت في الدين، وإنما قيل: ﴿بَقِيَّةٍ﴾ لأن الشرائع والدول ونحوها قوتُها في أوَّلها ثم لا تزال تضعف، فمَن ثبت في وقت الضعف فهو بقية الصدر الأول.

وقرأت فرقة: (بقيَة) بتخفيف الياء وهو رد فَعيلة إلى فعِلة، وقرأ أبو جعفر وشيبة: (بُقْية) بضم الباء وسكون القاف على وزن فُعلة[2].

و﴿ٱلۡفَسَادِ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ هو الكفر وما اقترن به من المعاصي، وهذه الآية فيها تنبيه لأمة محمد وحض على تغيير المنكر والنهي عن الفساد، ثم استثنى الله تعالى القوم الذين نجاهم مع أنبيائهم وهم قليل بالإضافة إلى جماعاتهم.

و﴿قَلِيلًا﴾ نصب على الاستثناء وهو منقطع عند سيبويه، والكلام عنده موجب، وغيره يراه منفيّاً، من حيث معناه أنه لم يكن فيهم أولو بقية.

---

(١) هذا الحديث بقسميه المرفوع والموقوف أخرجه البخاري (١١٦)، ومسلم (٢٥٣٧) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(٢) وكلاهما شاذة، تابعه عليهما في البحر المحيط (٦/ ٢٢٤)، والمتواتر عن أبي جعفر في رواية ابن جمّاز عنه: كسر الباء مع سكون القاف، كما في النشر (٢/ ٢٩٢)عنه وعن شيبة، قال: وقد ترجمها أبو حيان بضم الباء، فوهِم.

وقرأ جمهور الناس ﴿وَٱتَّبَعَ﴾ على بناء الفعل للفاعل، وقرأ جعفر بن محمد: (وأُتْبع) على بنائه للمفعول، ورويت عن أبي عمرو[١].

و﴿مَآ أُتۡرِفُواْ فِيهِ﴾ أي: عاقبةَ ما نُعِّموا به، على بناء الفعل للمفعول.

والمترف: المنعم الذي شغلته ترفته عن الحق حتى هلك، ومنه قول الشاعر:

نُهْدِي رُؤُوسَ المتْرَفينَ الأَنْدَادْ إِلَى أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ المُمْتَادْ[٢] [الرجز]

يريد: المسؤول، يقال ماده: إذا سأله.

وقوله: ﴿بِظُلۡمٍ﴾، يحتمل أن يريد: بظلم منه لهم ـ تعالى عن ذلك ـ قال الطبري: «وقيل[٣]: يحتمل أن يريد: بشرك منهم، وهم مصلحون في أعمالهم وسيرهم، وعدل بعضهم في بعض، أي: أنهم لا بد من معصية تقترن بكفرهم»[٤].

قال القاضي أبو محمد: وهذا ضعيف، وإنما ذهب قائله إلى نحو ما قيل: إن الله تعالى يمهل الدول على الكفر ولا يمهلها على الظلم والجور، ولو عكس لكان ذلك متجهاً، أي: ما كان الله ليعذب أمة بظلمهم في معاصيهم وهم مصلحون في الإيمان، والاحتمال الأول في ترتيبنا أصح إن شاء الله.

قوله عز وجل: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةًۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ ١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمۡۗ وَتَمَّتۡ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ١١٩﴾.

المعنى: لجعلهم أمة واحدة مؤمنة، قاله قتادة[٥]، حتى لا يقع منهم كفر ولا تنزل بهم مَثُلة، ولكنه عز وجل لم يشأ ذلك، فهم لا يزالون مختلفين في الأديان والآراء

---

(١) وهي شاذة، انظر: مختصر الشواذ (ص: ٦٦)، والمحتسب (١/ ٣٣١).

(٢) لرؤبة كما تقدم في تفسير الآية (١١١) من سورة المائدة، وفي نور العثمانية: «نجبي».

(٣) «قيل»: زيادة من الحمزوية ونجيبويه وأحمد٣.

(٤) تفسير الطبري (١٥/ ٥٣٠) بتصرف.

(٥) تفسير الطبري (١٥/ ٥٣١).

والملل، هذا تأويل الجمهور، قال الحسن وعطاء ومجاهد وغيرهم: «المرحومون المستثنون هم المؤمنون ليس عندهم اختلاف»[١]، وقالت فرقة: لا يَزالُونَ مُخْتَلِفِينَ في السعادة والشقاوة، وهذا قريب المعنى من الأول إذ هي ثمرة الأديان والاختلاف فيها، ويكون الاختلاف ـ على هذا التأويل ـ يدخل فيه المؤمنون إذ هم مخالفون للكفرة.

وقال الحسن أيضاً: «لا يزالون مختلفين في الغنى والفقر»[٢].

قال القاضي أبو محمد: وهذا قول بعيد معناه من معنى الآية، ثم استثنى الله عز وجل من الضمير في ﴿يَزَالُونَ﴾ مَن رَحِمه مِن الناس بأنْ هداه إلى الإيمان ووفقه له.

وقوله: ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ اختلف فيه المتأولون:

فقالت فرقة: ولشهود اليوم المشهود المتقدم ذكرُه خلَقهم.

وقالت فرقة: (ذلك) إشارة إلى قوله قبلُ: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود: ١٠٥]، أي: لهذا خلقهم.

قال القاضي أبو محمد: وهذان المعنيان وإن صحا فهذا العود[٣] المتباعد ليس بجيد.

وروى أشهب عن مالك أنه قال: (ذلك) إشارة إلى أن يكون / فريق في الجنة وفريق في السعير[٤]. [٣/ ٥٥]

قال القاضي أبو محمد: فجاءت الإشارة بـ(ذلك) إلى الأمرين: الاختلاف والرحمة، وقد قاله ابن عباس[٥]، واختاره الطبري، ويجيءُ عليه الضمير في ﴿خَلَقَهُمْ﴾ للصنفين.

---

(١) راجع تفسير الطبري (١٥/ ٥٣١، ٥٣٤)، وتفسير ابن أبي حاتم (٦/ ٢٠٩٤).
(٢) تفسير الطبري (١٥/ ٥٣٤)، وتفسير ابن أبي حاتم (٦/ ٢٠٩٤)، وتفسير الماوردي (٢/ ٥١١).
(٣) في الأصل: «الوعد».
(٤) انظر رواية أشهب عن مالك في: أحكام القرآن لابن العربي (٣/ ٣٣).
(٥) أخرجه الطبري (١٨٧٢٦)، وابن أبي حاتم (١١٢٩٢) من طريق علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وقال مجاهد وقتادة: «(ذلك) عائد على الرحمة التي تضمنها قوله: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾، أي: وللرحمة خلق المرحومين»[١].

قال الحسن: «و(ذلك) إشارة إلى الاختلاف الذي في قوله: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾»[٢].

قال القاضي أبو محمد: ويعترض هذا بأن يقال: كيف خلقهم للاختلاف؟ وهل معنى الاختلاف هو المقصود بخلقهم؟

فالوجه في الانفصال أن نقول: إن قاعدة الشرع أن الله عز وجل خلق خلقاً للسعادة وخلقاً للشقاوة، ثم يسَّر كلّاً لما خلق له، وهذا نصٌّ في الحديث الصحيح، وجعل بعد ذلك الاختلاف في الدين على الحق هو أمارة الشقاوة وبه علق العقاب.

فيصح أن يحمل[٣] قوله هنا: وللاختلاف خلقهم، أي: لثمرة الاختلاف وما يكون عنه من الشقاوة.

ويصح أن يجعل اللام في قوله: ﴿وَلِذَٰلِكَ﴾ لام الصيرورة، أي: وخلقهم ليصير أمرهم إلى ذلك، وإن لم يقصد بهم الاختلاف.

قال القاضي أبو محمد: ومعنى قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] أي: لآمرهم بالعبادة، وأُوجِبَها عليهم، فعبر عن ذلك بثمرة الأمر ومقتضاه.

وقوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ أي: نفذ قضاؤه وحق أمره، واللام في ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾ لام قسم إذ الكلمة تتضمن القسم، والجن جمع لا واحد له من لفظه، وهو من أَجَنَّ إذا ستر، والهاء في ﴿ٱلْجِنَّةِ﴾ للمبالغة، وإن كان الجن يقع على الواحد فالجِنة جمعُه.

---

(١) تفسير الطبري (١٥/ ٥٣٧)، وتفسير الماوردي (٢/ ٥١١)، وتفسير ابن أبي حاتم (٦/ ٢٠٩٥).
(٢) تفسير الطبري (١٥/ ٥٣٥)، وتفسير الماوردي (٢/ ٥١١).
(٣) في الأصل: «يحل».

قوله عز وجل: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾.

قوله: ﴿وَكُلًّا﴾ مفعول مقدم بـ﴿نَّقُصُّ﴾ وقيل: هو منصوب على الحال، وقيل: على المصدر، وهذان ضعيفان.

و﴿مَا﴾ بدل من قوله: ﴿وَكُلًّا﴾، و﴿نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ أي: نؤنسك فيما تلقاه، ونجعل لك الأسوة في مَن تقدمك من الأنبياء.

وقوله: ﴿فِى هَٰذِهِ﴾ قال الحسن: هي إشارة إلى دار الدنيا[١]، وقال ابن عباس: إلى السورة والآيات التي فيها يذكر قصص الأمم[٢]، وهذا قول الجمهور.

قال القاضي أبو محمد: ووجه تخصيص هذه السورة بوصفها بـ﴿ٱلْحَقُّ﴾ ـ والقرآن كله حق ـ أن ذلك يتضمن معنى الوعيد للكفرة والتنبيه للناظر، أي: جاءك في هذه السورة الحقُّ الذي أصاب الأمم الظالمة، وهذا كما يقال عند الشدائد: جاء الحق، وإن كان الحق يأتي في غير شديدة وغير ما وجه، ولا يستعمل في ذلك: جاء الحق، ثم وصف أيضاً أن ما تضمنته السورة هي ﴿وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ فهذا يؤيد أن لفظة ﴿ٱلْحَقُّ﴾ إنما تختص بما تضمنت من وعيد للكفرة.

وقوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ الآية، هذه آية وعيد، أي: اعْمَلُوا على حالاتكم التي أنتم عليها من كفركم.

---

(١) تفسير الطبري (١٥/ ٥٤٣)، وتفسير ابن أبي حاتم (٦/ ٢٠٩٦)، وتفسير الماوردي (٢/ ٥١٢).

(٢) أخرجه الطبري (١٨٧٤٤ ١٨٦٤٨)، وابن أبي حاتم (١٢١٣٠٠-١١٣٠٢) من طرق صحيحة عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

وقرأ الجمهور هنا: ﴿مَكَانَتِكُمْ﴾ واحدة دالة على جمع، وألفاظ هذه الآية تصلح للموادعة، وتصلح أن تقال على جهة الوعيد المحض والحرب قائمة.

وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الآية، هذه آية تعظُّمٍ وانفراد بما لا حظ لمخلوق فيه، وهو علم الغيب، وتبيين أن الخير والشر، وجليل الأشياء وحقيرها مصروف إلى أحكام مالكه، ثم أمر النبي ﷺ[١] بالعبادة والتوكل على الله تعالى، وفيهما زوال همه وصلاحه ووصوله إلى رضوان الله.

وقرأ السبعة غير نافع: ﴿يَرجِع الأمر﴾ على بناء الفعل للفاعل، وقرأ نافع وحفص عن عاصم: ﴿يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ﴾ على بنائه للمفعول ورواها ابن أبي الزناد[٢] عن أهل المدينة[٣].

وقرأ ﴿تَعْمَلُونَ﴾ بالتاء من فوق، نافع وابن عامر وحفص عن عاصم، وهي قراءة الأعرج والحسن وأبي جعفر وشيبة وعيسى بن عمر، وقتادة والجحدري، واختلف عن الحسن وعيسى، وقرأ الباقون: ﴿يَعْملون﴾ بالياء على كناية الغائب[٤].

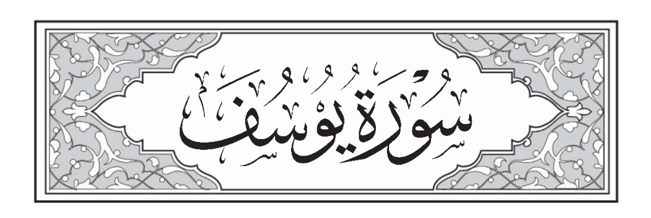
* * *

(١) في الأصل ونجيبويه والحمزوية ونور العثمانية: «البشر».

(٢) هو عبد الرحمن بن عبد الله بن ذكوان أبو محمد بن أبي الزناد المدني ثم البغدادي، أخذ القراءة عرضاً عن أبي جعفر ثم روى عن نافع وله عنه نسخة، روى عنه الحروف حجاج بن محمد الأعور، مات سنة ١٦٤هـ. غاية النهاية (١/ ٣٧٢).

(٣) وهما سبعيتان، انظر: التيسير (ص: ١٢٦)، ورواية ابن أبي الزناد ليست من طرقه.

(٤) وهما أيضاً سبعيتان، انظر: التيسير (ص: ١٢٦).



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة يوسف عليه السلام

هذه السورة مكية، ويروى أن اليهود سألوا رسول الله ﷺ عن قصة يوسف فنزلت السورة بسبب ذلك، ويروى أن اليهود أمروا كفار مكة أن يسألوا رسول الله ﷺ عن السبب الذي أحل بني إسرائيل بمصر فنزلت السورة.

وقيل: سبب نزولها تسلية رسول الله ﷺ عما يفعله به قومه بما فعل إخوة يوسف بيوسف، وسورة يوسف لم يتكرر من معناها في القرآن شيء كما تكررت قصص الأنبياء، ففيها حجة على من اعترض بأن الفصاحة تمكنت بترداد القول، وفي تلك القصص حجة على من قال في هذه: لو كررت لفترت فصاحتُها.

قوله عز وجل: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٢ نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ۝٣﴾.

تقدم القول في فواتح السور، و﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾: القرآن، ووصفه بـ﴿ٱلۡمُبِينِ﴾ قيل: من جهة أحكامه وحلاله وحرامه، وقيل: من جهة مواعظه وهداه ونوره، وقيل: من جهة بيان اللسان العربي وجودته إذ فيه ستة أحرف لم تجتمع في لسان، روي هذا القول عن معاذ بن جبل[1].

---

(١) ضعيف جداً، أخرجه الطبري (١٨٧٧١) من طريق الوليد بن سلمة، عن ثور بن يزيد، عن خالد =

ويحتمل أن يكون مبيناً لنبوة محمد بإعجازه، والصواب أنه مُبِينٌ بجميع هذه الوجوه.

والضمير في: ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ [للْكِتابِ، والإنزال: إما بمعنى الإثبات، وإما أن تتصف به التلاوة والعبارة، وقال الزجاج: الضمير في ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾][1] يراد به خبر يوسف[2].

قال القاضي أبو محمد: وهذا ضعيف.

وقوله: ﴿لَّعَلَّكُمْ﴾ يحتمل أن تتعلق بـ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ أي: أنزلناه لعلكم، ويحتمل أن تتعلق بقوله: ﴿عَرَبِيًّا﴾ أي: جعلناه ﴿عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، إذ هو / لسانكم. [٣/ ٥٦]

و﴿قُرْءَٰنًا﴾ حال، و﴿عَرَبِيًّا﴾ صفة له، وقيل: إن ﴿قُرْءَٰنًا﴾ بدل من الضمير، وهذا فيه نظر.

وقيل: ﴿قُرْءَٰنًا﴾ توطئة للحال و﴿عَرَبِيًّا﴾ حال، وهذا كما تقول: مررت بزيد رجلا صالحاً.

وقوله: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ الآية، روى ابن مسعود أن أصحاب رسول الله ﷺ ملوا ملة فقالوا: لو قصصت علينا يا رسول الله، فنزلت هذه الآية، ثم ملوا ملة أخرى فقالوا: لو حدثتنا يا رسول الله، فنزلت: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا﴾[3].

= ابن معدان، عن معاذ أنه قال في قوله تعالى: ﴿ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ قال: بيَّن الحروف التي سقطت عن ألسن الأعاجم وهي ستة أحرف، والوليد بن سلمة الطبراني قال أبو حاتم: ذاهب الحديث، وقال دحيم وغيره: كذاب، وقال ابن حبان: يضع الحديث على الثقات، انظر: ميزان الاعتدال (٧/ ١٣١).

(١) ساقط من الحمزوية.

(٢) معاني القرآن وإعرابه (٣/ ٨٧).

(٣) الزمر: (٣٢)، والحديث مرسل، أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن (ص ٥٣-٥٤)، والطبري (١٨٧٧٥)، وأبو نعيم في الحلية (٤/ ٢٤٨) من طريق المسعودي، عن عون بن عبد الله بن عتبة ابن عبد الله بن مسعود مرسلاً، وأخرجه ابن أبي حاتم (١١٣٢٥، ١٨٨٢٧) من طريق القاسم بن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود، مرسلاً.

والْقَصَص: الإخبار بما جرى من الأمور، كأن الأنباء تتبع بالقول، [وتقتص بالأخبار][1] كما يقتص الأثر، وقوله: ﴿بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ أي: بوحينا، و﴿ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ نعت لـ﴿هَٰذَا﴾، ويجوز فيه البدل، وعطف البيان فيه ضعيف، و(إِنْ) هي المخففة من الثقيلة، واللام في خبرها لام التأكيد؛ هذا مذهب البصريين، ومذهب أهل الكوفة أن (إِنْ) بمعنى «ما»[2]، واللام بمعنى «إلا». والضمير في ﴿قَبۡلِهِۦ﴾ للقَصَص العامِّ لما في جميع القرآن منه.

و﴿لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ﴾، أي: عن معرفة هذا القصص، ومن قال: إن الضمير في ﴿قَبۡلِهِۦ﴾ عائد على ﴿ٱلۡقُرۡءَانَ﴾، جعل ﴿لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ﴾ في معنى قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى: ٧]، أي: على طريقٍ غيرِ هذا الدين الذي بُعثت به، ولم يكن عليه السّلام في ضلال الكفار ولا في غفلتهم لأنه لم يشرك قط، وإنما كان مستهدياً ربه عز وجل موحداً، والسائل عن الطريق المتحير[3] يقع عليه في اللغة اسمُ ضالّ.

قوله عز وجل: ﴿إِذۡ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ ٤﴾.

العامل في ﴿إِذۡ﴾ فعل مضمر تقديره: اذكر إِذْ، ويصح أن يعمل فيه ﴿نَقُصُّ﴾ كأن المعنى: نقص عليك الحال إِذْ، وحكى مكي أن العامل فيه ﴿لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ﴾[4]، وهذا ضعيف.

وقرأ طلحة بن مصرف: (يؤسَف) بالهمز وفتح السين[5]، وفيه ست لغات: (يُوسفُ) بضم الياء وسكون الواو وبفتح السين وبضمها وبكسرها، وكذلك بالهمز.

---

(١) ما بين قوسين ساقط من المطبوع، وفي أحمد٣: «تختص».

(٢) في المطبوع: «بمعنى لها».

(٣) في المصرية: «المنجي»، بدل: «المتحير».

(٤) مشكل إعراب القرآن لمكي (١/ ٣٧٧).

(٥) وهي شاذة، انظر: مختصر الشواذ (ص: ٦٦).

وقرأ الجمهور: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ بكسر التاء، حذفت الياء من أبي وجعلت التاء بدلاً منها، قاله سيبويه[١].

وقرأ ابن عامر وحده، وأبو جعفر والأعرج: ﴿يا أبتَ﴾ بفتحها[٢].

وكان ابن كثير وابن عامر يقفان بالهاء[٣].

فأما قراءة ابن عامر بفتح التاء فلها وجهان: إما أن يكون: «يا أبتا»، ثم حذفت الألف[٤] تخفيفاً، وبقيت الفتحة دالة على الألف، وإما أن يكون جارياً مجرى قولهم: يا طلحة أقبل، رخموه ثم ردوا العلامة ولم يعتدَّ بها بعد الترخيم، وهذا كقولهم: [اجتمعت اليمامة، ثم قالوا][٥]: اجتمعت أهلُ اليمامةُ، فردوا لفظة الأهل ولم يعتدوا بها[٦].

وقرأ أبو جعفر والحسن وطلحة بن سليمان: ﴿أحد عْشر كوكباً﴾ بسكون العين لتوالي الحركات[٧]، ويظهر أن الاسمين قد جعلا واحداً.

وقيل: إنه قد رأى كواكب حقيقة والشمس والقمر فتأولها يعقوب إخوته وأبويه. وهذا قول الجمهور.

وقيل: الإخوة والأب والخالة؛ لأن أمه كانت ميتة.

وقيل: إنما كان رأى إخوته وأبويه[٨]، فعبَّر عنهم بالكواكب والشمس والقمر. وهذا ضعيف ترجم به الطبري، ثم أدخل عن قتادة والضحاك وغيرهما كلاماً محتمِلاً

---

(١) انظر كلامه عليها في الكتاب (٢/ ٢١٠)، وما بعدها.

(٢) فهما سبعيتان، انظر: التيسير في القراءات السبع (ص: ١٢٧)، والنشر (٢/ ٢٩٣).

(٣) انظر: التيسير (ص: ٦٠).

(٤) في التركية: «النون»، بدل: «الألف».

(٥) ساقط من الحمزوية ونور العثمانية.

(٦) انظر الحجة لأبي علي (٤/ ٣٩٠).

(٧) وهي عشرية، قرأ بها أبو جعفر كما في النشر (٢/ ٢٧٩)، وانظر: المحتسب (١/ ٣٣٢).

(٨) بعدها في أحمد٣ ونور العثمانية والأصل: «وهذا قول الجمهور».

أن يكون كما ترجم، وأن يكون مثل قول الناس[١].

وقال المفسرون: (الْقَمَر) تأويله: الأب، و(الشَّمْس) تأويلها: الأم، فانتزع بعض الناس من تقديمها وجوب بر الأم وزيادته على بر الأب.

وحكى الطبري عن جابر بن عبد الله أن يهوديّاً يسمى بستانة جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: أخبرني عن أسماء الكواكب التي رآها يوسف عليه السّلام، فسكت عنه رسول الله ﷺ ونزل جبريل عليه السّلام فأخبره بأسمائها، فدعا رسول الله ﷺ اليهودي، فقال: «هل أنت مؤمن إن أخبرتك بذلك؟» قال: نعم، قال: «حربان[٢]، والطارق، والذيال، وذا الكنفان[٣]، وقابس، ووثاب، وعمودان، والفيلق، والمصبح، والضروح، وذو الفرغ، والضياء، والنور» فقال اليهودي: أي والله إنها لأسماؤها[٤].

وتكرر ﴿رَأَيْتُهُمْ﴾ لطول الكلام، وجريُ ضمائر هذه الكواكب في هذه الآية مجرى ضمائر من يعقل إنما كان لمَّا وصفت بأفعالٍ هي خاصةٌ بمن يعقل.

وروي أن رؤيا يوسف كانت ليلة القدر ليلة جمعة، وأنها خرجت بعد أربعين سنة، وقيل: بعد ثمانين سنة.

---

(١) راجع تفسير الطبري (١٥/ ٥٥٦، ٥٥٧).

(٢) في المطبوع: «جريان»، وفي أحمد٣: «حوبان».

(٣) في المطبوع والتركية: «ذو الكتفان».

(٤) ضعيف، أخرجه سعيد بن منصور في سننه (١١١١)، والبزار كما في كشف الأستار (٢٢٢٠)، وأبو يعلى في مسنده كما في المطالب العالية (١٤/ ٧٤١)، والعقيلي في الضعفاء (١/ ٢٥٩)، والطبري (١٨٧٨٠)، وابن أبي حاتم (١١٣٣١)، والبيهقي في دلائل النبوة (٦/ ٢٧٧) وغيرهم من طريق الحكم بن ظهير، عن السدي، عن عبدالرحمن بن سابط القرشي عن جابر بن عبدالله به، والحكم متروك، وقد تابع الحكمَ بن ظهير، أسباطُ بن نصر كما عند الحاكم في المستدرك (٤/ ٤٣٨)، قال المعلمي اليماني في تعليقه على الفوائد المجموعة (ص ٤٦٤): وللحكم متابع قوي أخرجه الحاكم في المستدرك وقال: صحيح على شرط مسلم، وهو أسباط بن نصر عن السدي به. اهـ، لكن أسباط ليس ممن يعتمد عليه، وهو يحتاج إلى متابع قوي.

قوله عز وجل: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾﴾.

تقتضي هذه الآية أن يعقوب عليه السّلام كان يحس من بنيه حسد يوسف وبغضته، فنهاه عن قصص الرؤيا عليهم خوف أن يشعل بذلك غل صدورهم، فيعملوا الحيلة على هلاكه، ومن هنا ومن فعلهم بيوسف الذي يأتي ذكره، يظهر أنهم لم يكونوا أنبياء في ذلك الوقت. ووقع في كتاب الطبري لابن زيد: أنهم كانوا أنبياء[1]، وهذا يرده القطع بعصمة الأنبياء عن الحسد الدنياوي، وعن عقوق الآباء، وتعريض مؤمن للهلاك، والتوافر[2] في قتله.

ثم أعلمه: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ أي: هو يدخلهم في ذلك ويحضهم عليه.

وأمال الكسائي: ﴿رُءْيَاكَ﴾ والرؤيا حيث وقعت، وروي عنه أنه لم يمل ﴿رُءْيَاكَ﴾ في هذه السورة، وأمال الرؤيا حيث وقعت، وقرأ: ﴿روياك﴾ بغير همز ـ وهي لغة أهل الحجاز ـ ولم يملها الباقون حيث وقعت[3].

والرؤيا مصدر كثُر وقوعه على هذا المتخيل في النوم حتى جرى مجرى الأسماء، كما فعلوا في الدَّرِّ في قولهم: لله درك، فخرجا من حكم عمل المصادر، وكسَّروها: رؤى بمنزلة ظُلَم، والمصادر في أكثر الأمر لا تكسَّر.

---

(١) تفسير الطبري (١٥/ ٥٥٧).

(٢) في نور العثمانية وأحمد٣: «والتؤامر»، ولعلها محرفة عن «التآمر».

(٣) الإمالة رواية الدوري عنه كما في التيسير (ص: ٤٩)، ونقل التقليل عن ورش وأبي عمرو، وأما إبدال همزها مداً فهو رواية السوسي، وليس للكسائي من شيء من طرق التيسير، لكن الخلاف عنه في إمالة ﴿رُءْيَاكَ﴾ في النشر (٢/ ٤٥).

وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ﴾ الآية، فـ﴿يَجْتَبِيكَ﴾ معناه: يختارك ويصطفيك، ومنه: جبيت الماء في الحوض، ومنه: جباية المال.

وقوله: ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ﴾ قال مجاهد والسدي: «هي عبارة الرؤيا»[1].

وقال الحسن / : هي عواقب الأمور[2]، وقيل: هي عامة لذلك وغيره من المغيبات. [٣/ ٥٧]

وقوله: ﴿وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ﴾ يريد النبوءة وما انضاف إليها من سائر النعم.

وقوله: ﴿ءَالِ يَعۡقُوبَ﴾ يريد في هذا الموضع الأولاد والقرابة التي هي من نسله، أي: يجعل فيهم النبوة، ويروى أن ذلك إنما علمه يعقوب من دعوة إسحاق له حين تشبه له بـ«عيصو»، والقصة كاملة في كتاب النقاش لكني اختصرتها لأنه لم ينبل ألفاظها، وما أظنه انتزعها إلا من كُتُب بني إسرائيل، فإنها قصة مشهورة عندهم[3]، وباقي هذه الآية بيّن.

والنعمة على يوسف كانت تخليصه من السجن وعصمته والمُلكَ الذي نال، وعلى إِبْراهِيمَ هي اتخاذه خليلاً، وعلى إِسْحاقَ فديته بالذبح العظيم، مضافاً ذلك كله إلى النبوة.

و﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ مناسبتان لهذا الوعد.

قوله عز وجل: ﴿۞ لَّقَدۡ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخۡوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٞ لِّلسَّآئِلِينَ ٧ إِذۡ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٨ ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ ٩ قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ لَا تَقۡتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلۡقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ يَلۡتَقِطۡهُ بَعۡضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ١٠﴾.

قرأ الجمهور: ﴿ءَايَٰتٞ﴾ بالجمع، وقرأ ابن كثير وحده: ﴿آيةٌ﴾ بالإفراد، وهي قراءة مجاهد وشبل وأهل مكة[4]، فالأولى على معنى: أن كل حال من أحواله آية

---

(١) تفسير الطبري (١٥/ ٢٠)، وتفسير الماوردي (٣/ ٨)، وتفسير ابن أبي حاتم (٧/ ٢١٠٣)، وتفسير ابن أبي زمنين (١/ ٣٠١).

(٢) تفسير ابن أبي زمنين (١/ ٣٠١).

(٣) كتاب النقاش غير متوفر.

(٤) فهما سبعيتان، انظر: التيسير (ص: ١٢٧).

فجمعها، والثانية: على أنه بجملته آية، وإن تفصَّل بالمعنى، ووزن آية فَعْلة أو فَعَلة أو فاعلة على الخلاف فيه.

وذكر الزجّاج: أن في غير مصحف عثمان: (عبرة للسائلين)، قال أبو حاتم: هو في مصحف أبيٍّ بن كعب[١].

وقوله: ﴿لِّلسَّآئِلِينَ﴾ يقتضي حضّاً ما على تعلم هذه الأنباء، لأنه إنما المراد آية للناس، فوصفهم بالسؤال إذ كل واحد ينبغي أن يسأل عن مثل هذه القصص، إذ هي مقر العبر والاتعاظ. ويصح أيضاً أن يصف الناس بالسؤال من حيث كان سبب نزول السورة سؤالَ سائل كما روي.

وقولهم: ﴿وَأَخُوهُ﴾ يريدون به: يامين ـ وهو أصغر من يوسف ـ ويقال له: بنيامين، وقيل: كان شقيق يوسف، وكانت أمهما ماتت، ويدل على أنهما شقيقان تخصيص الإخوة لهما بـ﴿وَأَخُوهُ﴾ وهي دلالة غير قاطعة، وكان حب يعقوب ليوسف عليه السّلام ويامين لصغرهما وموت أمهما، وهذا من حب الصغير هي فطرة البشر، وقد قيل لابنة الخس[٢]: أيُّ بنيك أحبُّ إليك؟ قالت: الصغير حتى يكبر، والغائب حتى يقدم، والمريض حتى يفيق[٣].

وقولهم: ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ [أي: نحن جماعة][٤] تضر وتنفع، وتحمي وتخذل، أي: لنا كانت تنبغي المحبة والمراعاة.

---

(١) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٣/ ٩٢)، ونقلها القاسم بن سلام في فضائل القرآن (ص: ٣٠٢) عن حرف أبي وقراءة مجاهد.

(٢) في المطبوع والحمزوية وأحمد٣: «الحسن»، وهي هند بنت الخس [ويقال: الخص] بن جابر بن قريط الإيادية، المزهر (٢/ ٤٥٧).

(٣) نقله في البحر المحيط (٦/ ٢٤١)، ونسبه في العقد الفريد (٧/ ١٨٠) لِدُغة، لم ينسبها.

(٤) ما بين معقوفين ساقط من الأصل.

والعصبة في اللغة: الجماعة، قيل: من عشرة إلى خمسة عشر، وقيل: من عشرة إلى أربعين.

وقال الزجاج: «العشرة ونحوهم»[١].

وفي الزهراوي: الثلاثة نفر، فإذا زادوا فهم رهط إلى التسعة، فإذا زادوا فهم: عصبة، ولا يقال لأقل من عشرة: عصب.

وقولهم: ﴿لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي: لفي اختلاف وخطأ في محبة يوسف وأخيه، وهذا هو معنى الضلال، وإنما يصغر قدره أو يعظم بحسب الشيء الذي فيه يقع الائتلاف، و﴿مُّبِينٍ﴾ معناه: يظهر للمتأمل.

وقرأ أبو عمرو وعاصم وابن عامر وحمزة: ﴿مُّبِينٍ ۝٨ ٱقْتُلُوا۟﴾ بكسر التنوين في الوصل لالتقاء ساكن التنوين والقاف.

وقرأ نافع وابن كثير والكسائي: ﴿مبين اقتُلوا﴾ بكسر النون وضم التنوين إتباعاً لضمة التاء ومراعاة لها[٢].

وقوله: ﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ﴾ الآية، كانت هذه مقالة بعضهم، ﴿أَوِ ٱطْرَحُوهُ﴾ معناه: أبعدوه، ومنه قول عروة بن الورد:

[الطويل]

وَمَنْ يَكُ مِثْلِي ذا عِيالٍ ومُقْتِراً ... يُغَرِّرْ ويَطرَحْ نَفسَهُ كُلَّ مَطرَحِ[٣]

والنوى: الطروح البعيدة.

و﴿أَرْضًا﴾ مفعول ثان بإسقاط حرف الجر، لأن طرح لا يتعدى إلى مفعولين إلا

---

(١) معاني القرآن للزجاج (٣/ ٩٣)، وفيه: «العشيرة»بدل: «العشرة»، وكلام الزهراوي لم أقف عليه.

(٢) وهما سبعيتان، إلا أن ابن عامر مع نافع، لا عاصم، انظر التيسير (ص: ٧٨)، السبعة (ص: ١٧٤).

(٣) انظر عزوه له في أنساب الأشراف (١٣/ ٢٠٩)، والأمثال لابن سلّام (ص: ٢٢٩)، وأمالي القالي (٢/ ٢٣٤)، والحماسة بشرح التبريزي (١/ ١٧٧)، ونسبه في عيون الأخبار (١/ ٣٤٣) لأوس بن حجر، وفي التركية: «تعزز»، وفي المصرية: «يعرر»، وفي أكثر المصادر: «من المال».

كذلك، وقالت فرقة: هو نصب على الظرف، وذلك خطأ لأن الظرف ينبغي أن يكون مبهماً وهذه هنا ليست كذلك، بل هي أرض مقيدة بأنها بعيدة أو قاصية ونحو ذلك، فزال بذلك إبهامها، ومعلوم أن يوسف لم يخلُ من الكون في أرض، فبيّن أنهم أرادوا أرضاً بعيدة غير التي هو فيها قريب من أبيه.

وقوله: ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ استعارة، أي: إذا فقد يوسف رجعت محبته إليكم، ونحو هذا المعنى قول العربي حين أحبته أمه لما قتل إخوته وكانت قبل لا تحبه: «الثكل أرأمها»[١]، أي: عطفها عليه.

والضمير في ﴿بَعْدِهِۦ﴾ عائد على يوسف أو قتله أو طرحه، ﴿صَٰلِحِينَ﴾ قال السدي ومقاتل بن سليمان: «إنهم أرادوا صلاح الحال عند أبيهم»[٢]، وهذا يشبه أن يكون قصدهم في تلك الحال ولم يكونوا حينئذ أنبياء.

وقال الجمهور: ﴿صَٰلِحِينَ﴾ معناه: بالتوبة، وهذا هو الأظهر من اللفظ، وحالهم أيضاً تعطيه، لأنهم مؤمنون بنوا على عظيمة وعللوا أنفسهم بالتوبة، والقائل منهم قيل: «هو روبيل أسنُّهم» قاله قتادة وابن إسحاق[٣]، وقيل: يهوذا أحلمهم، وقيل: «شمعون أشجعهم»، قاله مجاهد[٤]، وهذا عطف منه على أخيه لا محالة لمَا أراد الله من إنفاذ قضائه.

و«الغيابة»: ما غاب عنك من الأماكن، أو غيَّب عنك شيئاً آخر.

وقرأ الجمهور: ﴿غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾، وقرأ نافع وحده: ﴿غيابات الجب﴾[٥].

---

(١) الأمثال لابن سلام (ص: ١٤٠).

(٢) تفسير مقاتل بن سليمان (٢/ ٣٢٠)، وتفسير الثعلبي (٥/ ٢٠٠)، ولم أقف عليه للسدي.

(٣) تفسير الطبري (١٥/ ٥٦٤)، وتفسير ابن أبي حاتم (٧/ ٢١٠٦)، وتفسير الماوردي (٣/ ١١)، وتفسير ابن أبي زمنين (١/ ٣٠١).

(٤) تفسير الطبري (١٥/ ٥٦٥)، وتفسير ابن أبي حاتم (٧/ ٢١٠٦)، وتفسير الماوردي (٣/ ١١).

(٥) فهما سبعيتان، انظر التيسير (ص: ١٢٧).

وقرأ الأعرج: (غيّابات الجب) بشد الياء[١]، قال أبو الفتح: هو اسم جاء على فعَّالة، كان أبو علي يلحقه بما ذكر سيبويه من الفيَّاد ونحوه، ووجدت أنا من ذلك: التيَّار للموج، والفَخَّار للخزف.

قال القاضي أبو محمد: وفي شَبَه غيَّابة بهذه الأمثلة نظر؛ لأن غيَّابة جارية على فعل.

وقرأ الحسن: (في غيْبة الجبِّ) على وزن فعْلة، وكذلك خطت في مصحف أبيّ ابن كعب[٢]، ومن هذه اللفظة قول الشاعر، وهو المنخَّل:

فـإنْ أنَـا يَـوْمـاً غَـيَّـبَـتْنِـي غَيَـابَـتِي فَسِيرُوا بسَيرِي في العَشِيرةِ والأهْلِ[٣] [الطويل]

و﴿ٱلۡجُبِّ﴾: البئر التي لم تُطْوَ لأنها جبت من الأرض فقط.

وقرأ الجمهور: ﴿يَلۡتَقِطۡهُ بَعۡضُ﴾ بالياء من تحت على لفظ بعض.

وقرأ الحسن البصري ومجاهد وقتادة وأبو رجاء: (تلتقطه) بالتاء[٤]، وهذا من حيث أضيف (البعض) إلى ﴿ٱلسَّيَّارَةِ﴾، فاستفاد منها تأنيث العلامة، ومن هذا قول الشاعر: / [٣/ ٥٨]

أرى مَـرَّ السِّـنِينَ أَخَـذْنَ مِنِّـي كما أخَذ السِّرَارُ مِنَ الهِلالِ[٥] [الوافر]

ومنه قول الآخر:

إذَا مَـاتَ مِنْهُـمْ سَـيِّدٌ قَـامَ سَـيِّدٌ فَدَانَتْ لَهُ أهْلُ القُرَى والكَنَائِسِ[٦] [الطويل]

---

(١) وهي شاذة، انظر: مختصر الشواذ (ص: ٦٨)، والمحتسب (١/ ٣٣٣) مع التوجيه.

(٢) وهي شاذة أيضاً، انظرها في المحتسب (١/ ٣٣٣)، ولم أقف على ما في مصحف أبيّ.

(٣) انظر عزوه له في مجاز القرآن (١/ ٣٠٢)، والحجة للفارسي (٤/ ٣٩٩). وفي المطبوع: «العشائر».

(٤) وهي شاذة، انظر عزوها لهم في إعراب القرآن للنحاس (٢/ ١٩٤)، ومختصر الشواذ (ص: ٦٨)، والهداية لمكي (٥/ ٣٥٠٨).

(٥) البيت لجرير كما في مجاز القرآن (١/ ٩٨)، والكامل للمبرد (٢/ ١٠٥)، وتفسير الطبري (٧/ ٨٦).

(٦) البيت بلا نسبة في معاني القرآن للفراء (٢/ ٣٧)، وتفسير الطبري (١٥/ ٥٦٨)، وفي المطبوع وأحمد٣ ونور العثمانية: «فذلت».

وقول كعب:

[الكامل] .... ذَلَّتْ لوَقْعَتِها جَمِيعُ نِزارِ[(١)]

حين أراد بنزار القبيلة، وأمثلة هذا كثير.

وروي أن جماعة من الأعراب التقطت يوسف عليه السّلام.

و﴿ٱلسَّيَّارَةِ﴾ جمع سيَّار، وهو بناء للمبالغة، وقيل في هذا الْجُبِّ: إنه بئر بيت المقدس، وقيل: غيره، وقيل: لم يكن حيث طرحوه ماء ولكن أخرجه الله فيه حتى قصده الناس للاستقاء، وقيل: بل كان فيه ماء كثير يُغرق يوسفَ، فنشز حجر من أسفل الجب حتى ثبت يوسف عليه، وروي أنهم رموه بحبل في الجب[(٢)] فتماسك بيديه حتى ربطوا يديه ونزعوا قميصه ورموه حينئذ، وهموا برضخه بالحجارة فمنعهم أخوهم المشير بطرحه من ذلك[(٣)].

قوله عز وجل: ﴿قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَـٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَـٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَـٰسِرُونَ ﴿١٤﴾ فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَـٰبَتِ ٱلْجُبِّ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَـٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾﴾.

الآية الأولى تقتضي أن أباهم قد كان علم منهم إرادتهم الخبيثة في جهة يوسف، وهذه تقتضي أنهم علموا هم منه بعلمه ذلك.

---

(١) البيت لكعب بن زهير كما في طبقات فحول الشعراء (١/ ١٠٣)، والأغاني (١٧/ ٩٥)، وصدره: صدموا علياً يَوْم بدر صدمة.

(٢) في المطبوع: «في الجبل».

(٣) انظر: تفسير الطبري (١٥/ ٥٧٤).

وقرأ الزهري وأبو جعفر: ﴿لا تأمنَّا﴾ بالإدغام دون إشمام، ورواها الحلواني عن قالون، وقرأ السبعة بالإشمام للضم[١].

وقرأ طلحة بن مصرف: (لا تأمننا).

وقرأ ابن وثاب والأعمش (لا تِـيْمَنَّا)، بكسر تاء العلامة[٢].

و﴿غَـدًا﴾ ظرف أصله: غَدَوٌ، فلزم اليوم كله، وبقي الغدو والغدوة اسمين لأول النهار، وقال النضر بن شميل: «ما بين الفجر إلى الإسفار يقال فيه: غدوة وبكرة»[٣].

وقرأ أبو عمرو وأبو عامر: ﴿نرتعْ ونلعبْ﴾ بالنون فيهما وإسكان العين والباء، و﴿نرتع﴾ ـ على هذا ـ من الرتوع وهي الإقامة في الخصب والمرعى في أكل وشرب. ومنه قول الغضبان بن القَبَعْثَرَى[٤]: القيد والرَّتْعة وقلة التعتعة[٥]، ومنه قول الشاعر:

.... وبعد عَطَائِـكَ المِائَـةَ الرِّتَاعَا[٦] [الوافر]

ولعبهم هذا داخل في اللعب المباح كاللعب بالخيل والرمي ونحوه، فلا وصم في ذلك عليهم، وليس باللعب الذي هو ضد الحق وقرين اللهو، وقيل لأبي عمرو بن

---

(١) انظر اتفاق السبعة في التيسير في القراءات السبع (ص: ١٢٨)، والإدغام قراءة عشرية لأبي جعفر كما في تحبير التيسير (ص: ٤١٢)، وانظر في النشر (١/ ٣٠٤) رواية أبي عون عن الحلواني وأبي سليمان وغيره، عن قالون، وليس من طرق التيسير.

(٢) وهما شاذتان، انظر الأولى في الهداية لمكي (٥/ ٣٥٠٩)، ومع الثانية في إعراب القرآن للنحاس (٢/ ١٩٤).

(٣) تفسير القرطبي (٩/ ١٣٨).

(٤) هو غضبان بن القبعثرى الشيباني البصري، صاحب الحجاج بن يوسف، من الفرسان، انظر ترجمته في تاريخ دمشق (٤٨/ ٦٢).

(٥) انظر كلامه وقصته في العين (٢/ ٦٨)، والأمثال لابن سلام (ص: ٥٦)، وعيون الأخبار (١/ ١٥٠)، وليس فيه ذكر التعتعة.

(٦) تقدم كاملاً في تفسير الآية (٢٧) من سورة البقرة.

العلاء: «كيف يقولون: (نلعب) وهم أنبياء؟ قال: لم يكونوا حينئذ أنبياء»[(١)].

وقرأ ابن كثير: ﴿نرتعِ ونلعبْ﴾ بالنون فيهما، وبكسر العين وجزم الباء، وقد روي عنه: (ويلعبْ) بالياء[(٢)]، وهي قراءة جعفر بن محمد[(٣)]، و﴿نرتعِ﴾ ـ على هذا ـ من رعاية الإبل: وقال مجاهد: «هي من المراعاة، أي: يراعي بعضنا بعضاً ويحرسه»[(٤)].

وقرأ عاصم وحمزة والكسائي: ﴿يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾ بإسناد ذلك كله إلى يوسف.

وقرأ نافع: ﴿يرتعِ ويلعبْ﴾ بالياء فيهما وكسر العين وجزم الباء[(٥)]، فـ﴿يرتعِ﴾ على هذا من رعي الإبل، قال ابن زيد: المعنى: يتدرب في الرعي وحفظ المال[(٦)].

ومن الارتعاء قول الأعشى:

[الخفيف] تَرْتَعِي السَّفْحَ فالكَثِيبَ فَذَا قا ... رٍ فَرَوْضَ القطا فَذَاتَ الرِّئالِ[(٧)]

قال أبو علي: وقراءة ابن كثير: (نرتعِ) بالنون (ويلعبْ) بالياء منزعها حسن، لإسناد النظر في المال والرعاية إليهم، واللعب إلى يوسف لصباه[(٨)].

وقرأ العلاء بن سيابة[(٩)]: (يرتعِ ويلعبُ) برفع الباء[(١٠)] على القطع.

---

(١) معاني القرآن للنحاس (٣/ ٤٠١).

(٢) السبعة (ص: ٣٤٥) وليست من طرق التيسير.

(٣) وهي شاذة، عزاها له في الشواذ للكرماني (ص: ٢٤٢)، لكن بإثبات الياء من نرتعي.

(٤) تفسير الطبري (١٥/ ٥٧٢)، وتفسير ابن أبي حاتم (٧/ ٢١٠٧)، وتفسير الماوردي (٣/ ١٢).

(٥) هذه رابعة القراءات السبعية، انظرها كلها في التيسير (ص: ١٢٨).

(٦) تفسير الطبري (١٥/ ٥٧١)، وتفسير ابن أبي حاتم (٧/ ٢١٠٧)، وتفسير الماوردي (٣/ ١٢)، بتصرف.

(٧) انظر عزوه له في جمهرة أشعار العرب (ص: ٢٠٣)، والحجة لأبي علي (٤/ ٤٠٤)، والصحاح للجوهري (١/ ٣٧٥).

(٨) الحجة لأبي علي (٤/ ٤٠٣).

(٩) قال عنه الفراء في معاني القرآن (٢/ ٧٩): شيخ لنا يقال له: العلاء بن سيابة ـ وهو الذي علم معاذاً الهراء وأصحابه.

(١٠) وهي شاذة، انظر: المحتسب (١/ ٣٣٣).

وقرأ مجاهد وقتادة: «نُرْتِع» بضم النون وكسر التاء و«نلعب» بالنون والجزم[١].

وقرأ ابن كثير في بعض الروايات عنه: ﴿نرتعي﴾ بإثبات الياء[٢]، وهي ضعيفة لا تجوز إلا في الشعر كما قال الشاعر:

أَلَـمْ يَـأْتِيـكَ والأنْبـاءُ تَـنْمـي ... بِمَا لاقَـتْ لَبُونُ بَنِي زِيـادِ[٣] [الوافر]

وقرأ أبو رجاء: «يُرْتع» بضم الياء وجزم العين و«يَلعبْ» بالياء والجزم[٤].

وعللوا طلبه والخروج به بما يمكن أن يستهوي يوسف لصباه من الرتوع واللعب والنشاط.

وقوله تعالى: ﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ﴾ الآية: قرأ عاصم وابن كثير والحسن والأعرج وعيسى وأبو عمرو وابن محيصن ﴿لَيَحْزُنُنِيٓ﴾ بفتح الياء وضم الزاي.

قال أبو حاتم: وقرأ نافع بضم الياء وكسر الزاي والإدغام، ورواية ورش عن نافع: بيان النونين مع ضم الياء وكسر الزاي في جميع القرآن[٥]، وأن الأولى فاعلة والثانية مفعولة بـ ﴿وَأَخَافُ﴾.

وقرأ الكسائي وحده: ﴿الذيب﴾ دون همز، وقرأ الباقون بالهمز[٦]، وهو الأصل، ومنه جمعهم إياه على ذؤبان، ومنه تذاءبت الريح والذئاب[٧]: إذا أتت من هاهنا وهاهنا.

---

(١) وهي شاذة، انظر الهداية لمكي (٥/ ٣٥١٠).

(٢) وهي رواية أبي ربيعة وابن الصباح عن قنبل كما في التيسير (ص: ١٣١).

(٣) تقدم في تفسير الآية (١٠١) من سورة النساء.

(٤) وهي شاذة، انظر المحتسب (١/ ٣٣٣).

(٥) وكذا من رواية قالون عنه، وهي والأولى سبعيتان، كما تقدم في آل عمران، أما إدغام «ليحزني» فقراءة شاذة عزاها الكرماني (ص: ٢٤٢) لابن هرمز وابن محيصن، ولم أجدها لنافع.

(٦) ووافق الكسائي ورش وأبو عمرو -أي: من رواية السوسي- فهي سبعية، انظر: التيسير (ص: ١٢٨).

(٧) في المصرية: «الذبائب».

وروى ورش عن نافع: ﴿الذيب﴾ بغير همز، وقال نصر: سمعت أبا عمرو لا يهمز، قال: وأهل الحجاز يهمزون[١].

وإنما خاف يعقوب الذئب دون سواه وخصَّصه، لأنه كان الحيوان العادي المنبث في القطر، وروي أن يعقوب كان رأى في منامه ذئباً يشتد على يوسف.

قال القاضي أبو محمد: وهذا عندي ضعيف، لأن يعقوب لو رأى ذلك لكان وحياً، فإما أن يخرج على وجهه وذلك لم يكن، وإما أن يعرف يعقوب بمعرفته لعبارة مثال هذا المرئي، فكان يتشكاه بعينه، اللهم إلا أن يكون قوله: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ بمعنى: أخاف أن يصيبه مثل ما رأيت من أمر الذئب ـ وهذا بعيد ـ وكذلك يقول الربيع بن ضبع: «والذئب أخشاه»[٢]، إنما خصصه لأنه كان حيوان قطره العادي.

ويحتمل أن يخصصه يعقوب عليه السّلام لصغر يوسف: أي: أخاف عليه هذا الحقير فما فوقه، وكذلك خصصه الربيع لحقارته وضعفه في الحيوان، وباقي الآية بيّن.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ﴾ الآية، أسند الطبري إلى السدي قال: «ذهبوا بيوسف وبه عليهم كرامة، فلما برزوا في البرية أظهروا له العداوة، وجعل أخوه يضربه فيستغيث بالآخر فيضربه، فجعل لا يرى منهم رحيماً، فضربوه حتى كادوا يقتلونه، فجعل يصيح ويقول: يا أبتاه يا يعقوب لو تعلم ما صَنع بابنك بنو الإماء، فقال لهم يهوذا: ألم تعطوني موثقاً أن لا تقتلوه؟ فانطلقوا به إلى الجب، فجعلوا يدلونه فيتعلق بالشفير، فربطوا يديه ونزعوا قميصه. فقال: يا إخوتاه ردوا عليّ قميصي أتوارى / به في الجب، فقالوا: [٣/ ٥٩] ادع الشمس والقمر والكواكب تؤنسك، فدلَّوْه حتى إذا بلغ نصف الجب ألقوه إرادةَ أن

---

(١) السبعة في القراءات (ص: ٣٤٦).

(٢) جزء من بيت له مشهور، وجاء في نجيبويه زيادة بقية الشطر الأول: «إن مررت به»، وتمامه: وحدي وأخشى الرياح والمطرا، وقد تقدم عزوه له مع التعريف به، في تخريج البيت الذي قبله في تفسير الآية (١٠٢) من سورة آل عمران.

يموت، فكان في الجب ماء فسقط فيه ثم قام على صخرة [يبكي، فنادوه، فظن أنهم رحموه، فأجابهم، فأرادوا أن يرضخوه بصخرة][١]، فمنعهم يهوذا، وكان يأتيه بالطعام»[٢].

وجواب (لمَّا) محذوف تقديره: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓاْ﴾: أجمعوا، هذا مذهب الخليل وسيبويه[٣] وهو نص لهما في قول امرئ القيس:

فلَمَّا أَجَزْنا ساحَةَ الحَيِّ وانتَحَى[٤] .... [الطويل]

ومثل هذا قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾ [الصافات: ١٠٣]، قال بعض النحاة في مثل هذا: إن الواو زائدة، وقوله مردود لأنه ليس في القرآن شيء زائد لغير معنى.

و(أَجْمَعُوا) معناه: عزموا واتفق رأيهم عليه، ومنه قول النبي ﷺ في المسافر: «ما لم يُجمع مكثاً»[٥]، على أن إجماع الواحد قد ينفرد بمعنى العزم والشروع، ويتصور ذلك في إجماع إخوة يوسف وفي سائر الجماعات، وقد يجيء إجماع الجماعة فيما لا عزم فيه ولا شروع، ولا يتصور ذلك في إجماع الواحد.

والضمير في ﴿إِلَيْهِ﴾ عائد إلى يوسف، وقيل: على يعقوب، والأول أصح وأكثر، ويحتمل أن يكون الوحي حينئذ إلى يوسف برسول، ويحتمل أن يكون بإلهام أو بنوم، وكلٌّ ذلك قد قيل.

وقال الحسن: «أعطاه الله النبوءة وهو في الجب»[٦].

قال القاضي أبو محمد: وهذا بعيد.

---

(١) ساقط من الحمزوية.

(٢) تفسير الطبري (١٥/ ٥٧٤).

(٣) الجمل في النحو (ص: ٣٠٦).

(٤) تمامه: بنا بطنُ خبتٍ ذي حقاف عقنقل، وهو من معلقته، انظر: جمهرة أشعار العرب (ص: ١٢٦)، وأدب الكاتب (ص: ٣٥٣).

(٥) أخرجه البخاري (٤٢٩٨) من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

(٦) تفسير القرطبي (٩/ ١٤٢).

وقرأ الجمهور: ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم﴾ بالتاء، وفي بعض مصاحف البصرة بالياء، وقرأ سلام بالنون[١].

وهذا كله في العلامة التي تلي اللام.

وقوله: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ قال ابن جريج: وقتَ التنبيه أنك يوسف، وقال قتادة: لا يشعرون بوحينا إليه[٢].

قال القاضي أبو محمد: فيكون قوله: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ على التأويل الأول مما أوحي إليه، وعلى القول الثاني خبر لمحمد ﷺ.

قوله عز وجل: ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾.

قرأت فرقة: ﴿عِشَآءً﴾ أي: وقت العشاء، وقرأ الحسن: (عُشًى)[٣] على مثال: دُجًى، أي: جمع عاش، قال أبو الفتح: عشاة، كماش ومشاة، ولكن حذفت الهاء تخفيفاً كما حذفت من مألُكة، وقال عدي:

أَبْـلِـغِ النُّـعْـمَـانَ عَـنِّـي مَـأْلُـكاً ... إِنَّهُ قَدْ طَالَ حَبْسِي وَانْتِظَارِي[٤] [الرمل]

قال القاضي أبو محمد: ومعنى ذلك: أصابهم عَشاً من البكاء أو شبهُ العشا، إذ

---

(١) وهما شاذتان، انظر الثانية في مختصر الشواذ (ص: ٦٧)، والشواذ للكرماني (٢٤٣)، وعزا الأولى لابن عمر، ولا تسمى مصحفاً.

(٢) انظر القولين في تفسير الطبري (١٥/ ٥٧٦).

(٣) وهي شاذة، انظرها في مختصر الشواذ (ص: ٦٨)، مع توجيه في المحتسب (١/ ٣٣٥)، ولعله سقط من أول كلامه: أصله.

(٤) تقدم في تفسير الآية (٣٠) من سورة البقرة.

كذلك هي هيئة عين الباكي لأنه يتعاشى، ومثَّل شُريح في امرأة بكت وهي مُبْطلة ببكاء هؤلاء، وقرأ الآية[١].

وروي أن يعقوب لما سمع بكاءهم قال: ما بالكم، أَجَرى في الغنم شيء؟ قالوا: لا، قال: فأين يوسف؟ قالوا: ذَهَبْنا نَسْتَبِقُ..، فبكى وصاح وقال: أين قميصه؟، وسيأتي قصص ذلك.

و﴿نَسْتَبِقُ﴾ معناه: على الأقدام، أي: نجري غلاباً، وقيل: بالرمي، أي: ننتضل، وهو نوع من المسابقة، قاله الزجاج[٢].

وقولهم: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ﴾ أي: بمصدق، ومعنى الكلام: أي: لو كنا موصوفين بالصدق، وقيل: المعنى: ولو كنت تعتقد ذلك فينا في جميع أقوالنا قديماً لَمَا صدقتنا في هذه النازلة خاصة لِمَا لحقك فيها من الحزن ونالك من المشقة، ولِمَا تقدم من تهمتك لنا.

قال القاضي أبو محمد: وهذا قولٌ ذكره الزجاج وغيره[٣].

ويحتمل أن يكون قولهم: ﴿وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾، بمعنى: وإن كنا صادقين[٤]، وقاله المبرد[٥]، كأنهم أخبروا عن أنفسهم أنهم صادقون في هذه النازلة، فهو تماد منهم في الكذب، ويكون بمنزلة قوله: ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾ [الأعراف: ٨٨] بمعنى: أو إن كنا كارهين.

قال القاضي أبو محمد: وفي هذا المثال عندي نظر.

وتخبَّط الرماني في هذا الموضع، وقال: ألزموا أباهم عناداً[٦]، ونحو هذا مما لا

---

(١) العقد الفريد (١/ ٨١).

(٢) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٣/ ٩٥).

(٣) انظر معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٣/ ٩٦).

(٤) في أحمد**٣**: «صديقين»، والمثبت هو الموافق لما في المصدر.

(٥) الهداية لمكي (٥/ ٣٥١٩).

(٦) تفسير الرماني غير متوفر.

يلزم لأنهم لم يقولوا: وما أنت بمصدق لنا ولو كنا صادقين في معتقدك، بل قالوا: وما أنت بمصدق لنا ولو كنا صادقين فيما نعتقد نحن، وأما أنت فقد غلب عليك سوء الظن بنا.

ولا ينكَر أن يعتقد الأنبياء عليهم السّلام صدق الكاذب وكذب الصادق ما لم يوحَ إليهم، فإنما هو بشر، كما قال ﷺ: «إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إلي، فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له على نحو ما أسمع منه» الحديث[١]، فهذا يقتضي أنه جوَّز على نفسه أن يصدِّق الكاذب، وكذلك قد صدَّق ﷺ عبد الله بن أبيٍّ حين حلف على مقالة زيد بن أرقم وكذب زيداً، حتى نزل الوحي[٢]، فظهر الحق، فكلام إخوة يوسف إنما هو مغالطة ومحاجة لا إلزامُ عنادٍ.

وقوله تعالى: ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ الآية، روي أنهم أخذوا سخلة أو جدياً فذبحوه ولطخوا به قميص يوسف، وقالوا ليعقوب: هذا قميصه، فأخذه ولطخ به وجهه وبكى، ثم تأمله فلم يرخرقاً ولا أثرَ نابٍ، فاستدل بذلك على كذبهم، وقال لهم: متى كان الذئب حليماً، يأكل يوسف ولا يخرق قميصه؟، قص هذا القَصَص ابن عباس وغيره[٣].

وأجمعوا على أنه استدل على كذبهم بصحة القميص، واستند الفقهاء إلى هذا في إعمال الأمارات في مسائل كالقسامة بها في قول مالك إلى غير ذلك[٤].

قال الشعبي: كان في القميص ثلاث آيات: دلالته على كذبهم، وشهادته في قدِّه، وردُّ بصر يعقوب به[٥].

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري (٢٦٨٠)، ومسلم (١٧١٣) من حديث أم سلمة رضي الله عنها.

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري (٤٩٠٠)، ومسلم (٢٧٧٢) من حديث زيد بن أرقم رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الطبري (١٨٨٥١ ١٨٨٥٢ ١٨٨٥٣)، وابن أبي حاتم (١١٣٩٠، ١١٣٩١) من طرق صحيحة عن ابن عباس رضي الله عنه.

(٤) انظر هذا المعنى في أحكام القرآن لابن العربي (٥/ ٥١)، وانظر قول مالك في المدونة ٤ (/ ٦٤٩).

(٥) تفسير عبد الرزاق (٢/ ٢٠٧)، وتفسير ابن أبي حاتم (٧/ ٢١١١)، وفي الأصل: «الشافعي».

وروي أنهم ذهبوا فأخذوا ذئباً فلطخوا فاه بالدم وساقوه وقالوا ليعقوب: هذا أكل يوسف، فدعاه يعقوب فأقعى وتكلم بتكذيبهم.

ووصف الدم بكَذِبٍ إما على معنى: بدمٍ ذي كذب، وإما أن يكون بمعنى: مكذوبٍ عليه، كما قد جاء المعقول بدل العقل في قول الشاعر:

حَتّى إذا لَمْ يَتْرُكوا لِعِظامِهِ لَحْماً، ولا لِفُؤادِهِ مَعْقُولا[1] [الكامل]

فكذلك يجيء التكذيب مكان المكذوب.

قال القاضي أبو محمد: هذا كلام الطبري[2]، ولا شاهد له فيه عندي، لأن نفي المعقول يقتضي نفي العقل، ولا يحتاج إلى بدل، وإنما الدم الكذب عندي وصف بالمصدر على جهة المبالغة.

وقرأ الحسن: (بدمٍ كَدِبٍ) بدال غير معجمة[3]، ومعناه: الطري ونحوه، وليست هذه القراءة قوية.

ثم قال لهم / يعقوب لما بان كذبهم: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ﴾ أي: رضيت وجعلت سولاً ومراداً، ﴿أَمْرًا﴾ أي: صنعاً قبيحاً بيوسف. [٣/ ٦٠]

وقوله: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ رفع إما على حذف الابتداء، وإما على حذف الخبر: إما على تقدير: فشأني صبر جميل، وإما على تقدير: فصبر جميل أَمْثَلُ.

وذكر أن الأشهب وعيسى بن عمر قرأا بالنصب: (فصبراً جميلاً) على إضمار فعل، وكذلك هي في مصحف أبيٍّ ومصحف أنس بن مالك[4]، وهي قراءة ضعيفة

(١) البيت للراعي النميري كما في جمهرة أشعار العرب (ص: ٧٢٩)، وسمط اللآلي (١/ ٢٦٦)، وأساس البلاغة (١/ ٦٧٠).
(٢) انظر: تفسير الطبري (١٥/ ١١).
(٣) وهي شاذة، انظر: إتحاف فضلاء البشر (ص: ٣٣٠)، والمحتسب (١/ ٣٣٥).
(٤) انظر: إعراب القرآن للنحاس (٢/ ١٩٥)، ومختصر الشواذ (ص: ٦٨).

عند سيبويه[١]، ولا يصلح النصب في مثل هذا إلا مع الأمر، ولذا يحسن النصب في قول الشاعر:

[الرجز] صَبْراً جَميلاً فَكِلانا مُبْتَلَى[٢] ....

[وينشد أيضاً بالرفع وهو ضعيف[٣]، ويروى: صبرٌ جميلُ[٤]، على نداء الجمل المذكور في قوله:

[الرجز] شكا إِليَّ جملي طولَ السُّرى يا جملي ليس إليَّ المشتكى

صبرٌ جُمَيْلُ فكِلانا مُبْتَلى][٥]

وإنما تصح قراءة النصب على أن تقدِّر يعقوب عليه السّلام رجع إلى مخاطبة نفسه أثناء مخاطبة بنيه.

وجميل الصبر: ألا تقع شكوى إلى بشر، وقال النبي ﷺ: «مَن بث لم يصبر صبراً جميلاً»[٦].

---

(١) الكتاب لسيبويه (١/ ٣٢١).

(٢) قبله: شكا إلي جملي طول السُّرى، كذا جاء بالنصب في معاني القرآن للفراء (٢/ ١٥٦)، وتفسير الطبري (١٨/ ٧٩)، بلا نسبة.

(٣) «وهو ضعيف»: ساقطة من المطبوع، وقد جاء بالرفع في الجمل في النحو (ص: ١٧٥)، والكتاب لسيبويه (١/ ٣٢١). ونسبه ابن السيرافي في شرح أبيات سيبويه (١/ ٢٨٠) للملبد بن حرملة.

(٤) في التركية والمصرية: «صبراً وجميل» وفي «تهذيب اللغة» (١٠/ ١٦٥): «صبراً جميلُ».

(٥) ما بين معقوفين ساقط من الأصل، وانظر هذه الرواية في معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٣/ ٩٧)، وفي نور العثمانية: «صبراً جميلاً».

(٦) لا يصح مرفوعاً، أخرجه ابن عدي في الكامل (٣/ ٢٣٣ ٥/ ٢٩٦) من طريق: زافر بن سليمان ومنصور بن أبي مزاحم ـ مفرقين ـ عن عبد الوهاب الخفاف عن عبد العزيز بن أبي رواد عن نافع عن ابن عمر عن النبي ﷺ، قال: «من كنوز البر إخفاء الصدقة وكتمان المصائب والأمراض، ومن بث فلم يصبر»، وإسناده لين، وأخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٢/ ٣٢٧)، والطبري (١٩٧٣٢)، وابن أبي حاتم (١١٩٠٢) من طريق عبد الرحمن بن زياد الإفريقي، عن مسلم بن يسار المصري، =

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ تسليم لأمر الله تعالى وتوكل عليه، والتقدير: على احتمال ما تصفون.

قوله عز وجل: ﴿وَجَآءَتۡ سَيَّارَةٞ فَأَرۡسَلُواْ وَارِدَهُمۡ فَأَدۡلَىٰ دَلۡوَهُۥۖ قَالَ يَٰبُشۡرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٞۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ۝١٩ وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۭ بَخۡسٖ دَرَٰهِمَ مَعۡدُودَةٖ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ۝٢٠﴾.

قيل: إن السيارة جاءت في اليوم الثاني من طرحه في الجب.

والسَيَّارَة: جمع سيار، كما قالوا: بغال وبغالة، وهذا بعكس قولهم[(١)]: تمرة وتمر.

والسَيَّارَة: بناء مبالغة للذين يرددون السير في الطرق، وروي أن هذه السيارة كانوا قوماً من أهل مدين، وقيل: قوم أعراب.

والوارد هو الذي يأتي الماء ليستقي منه لجماعته، والوارد هنا يمكن أن يقع على واحد وعلى جماعة، ويروى أن مدلي الدلو كان يسمى مالك بن ذعر[(٢)]، ويروى أن هذا الجب كان بالأردن على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب.

ويقال: أدلى الدلو: إذا ألقاه في البئر ليستقي الماء، ودَلَاه يَدْلوه: إذا استقاه من البئر.

وفي الكلام هنا حذف تقديره: فتعلق يوسف بالحبل فلما بصر به المُدْلي قال: يا بشراي، وروي أن يوسف كان يومئذ ابنَ سبع سنين، ويرجِّح هذا لفظة ﴿غُلَٰمٞ﴾، فإنه ما بين الحولين إلى البلوغ، فإن قيلت فيما فوق ذلك فعلى استصحابِ حالٍ وتجوُّزٍ، وقيل: كان ابنَ سبع عشرة سنة، وهذا بعيد.

= عن النبي ﷺ به، مرسلاً: والإفريقي كذلك ضعيف، وأخرجه الطبري في (١٨٨٧٢ و١٨٨٧٣) من طريق عبد الرحمن بن يحيى الكناني، عن حبان بن أبي جبلة قال: سئل رسول الله ﷺ عن قوله: ﴿فَصَبۡرٞ جَمِيلٞ﴾ قال: «صبر لا شكوى فيه». قال: «من بث فلم يصبر». وإسناده مرسل.

(١) من الحمزوية ونجيبويه وأحمد٣، وفيه: «نقال ونقالة.. وثمرة وثمر».

(٢) وهو مالك بن ذعر بن بُويب بن عفقان بن مديان بن إبراهيم، كما في تفسير الطبري (١٥/ ١٨).

وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر: ﴿يا بُشْرَايَ﴾ بإضافة البشرى إلى المتكلم وبفتح الياء على ندائها، كأنه يقول: احضُري، فهذا وقتك، وهذا نحو قوله: ﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِ﴾ [يس: ٣٠]، وروى ورش عن نافع: (يا بشرايْ) بسكون الياء[١].

قال أبو علي: وفيها جمع بين ساكنين على حد دابة وشابة، ووجه ذلك: أنه يجوز أن تختص بها الألف؛ لزيادة المد الذي فيها على المد الذي في أختيها، كما اختصت في القوافي بالتأسيس، واختصت في تخفيف الهمزة نحو هباءة، وليس شيء من ذلك في الياء والواو[٢].

وقرأ أبو الطفيل والجحدري وابن أبي إسحاق والحسن: (يا بُشْريّ)[٣]، تقلب الألف ياء ثم تدغم في ياء الإضافة، وهي لغة فاشية، ومن ذلك قول أبي ذؤيب:

[الكامل]
سَبَقوا هَوَيَّ وأَعْنقُوا لِهَواهُمُ ... فَتُخُرِّموا ولُكلِّ جَنْبٍ مَصْرَعُ[٤]

وأنشد أبو الفتح وغيره في ذلك:

[الوافر]
يطوِّف بي عكبٌ فِي مَعَدّ ... ويطعُن بالصُمُلَّة فِي قَفَيَّا
فإن لم تثأروا لي من عِكَبٍّ ... فلا أرويتما أبداً صَدَيَّا[٥]

[يريد: هواي وقفاي وصداي][٦].

وقرأ حمزة والكسائي: ﴿يا بُشْري﴾ ويميلان ولا يضيفان، وقرأ عاصم كذلك إلا أنه يفتح الراء ولا يميل[٧].

---

(١) انظر: السبعة (ص: ٣٤٧)، وليست من طريق الشاطبية والتيسير ولا النشر.

(٢) في الحجة لأبي علي الفارسي (٤/ ٤١٣).

(٣) وهي شاذة، انظر: المحتسب (١/ ٣٣٦).

(٤) تقدم في تفسير الآية (٤٠) من سورة البقرة.

(٥) للمنخل اليشكري كما في الصحاح (١/ ١٨٨)، والأغاني (١٠/ ١٠)، وفي نور العثمانية وأحمد٣: «ابن كعب» بدل «عكب».

(٦) انظر: المحتسب (١/ ٣٣٦)، والزيادة من المطبوع وأحمد٣ والمصرية.

(٧) فهذه والأولى سبعيتان، انظرهما مع إمالة الأخوين وتقليل ورش في التيسير (ص: ١٢٨).

واختلف في تأويل هذه القراءة فقال السدي: «كان في أصحاب هذا الوارد رجل اسمه بشرى، فناداه وأعلمه بالغلام»[١]، وقيل: هو على نداء البشرى، كما قدمنا.

والضمير في قوله: ﴿وَأَسَرُّوهُ﴾ ظاهر الآيات أنه لورَّاد الماء، قاله مجاهد، وقال: إنهم خشوا من تجار الرفقة ـ إن قالوا: وجدناه ـ أن يشاركوهم في الغلام الموجود[٢].

قال القاضي أبو محمد: هذا إن كانوا فسقة، أو يمنعوهم من تملكه إن كانوا خياراً[٣]، فأسرُّوا بينهم أن يقولوا: أبضعه معنا بعض أهل المصر.

و﴿بِضَاعَةً﴾ حال، والبضاعة: القطعة من المال يتجر فيها بغير نصيب من الربح، مأخوذة من قولهم: بضعت، أي: قطعت، وقيل: إنهم أسروا في أنفسهم يتخذونه بضاعة لأنفسهم أي: متَّجراً، ولم يخافوا من أهل الرفقة شيئاً، ثم يكون الضمير في قوله: ﴿ وَشَرَوْهُ﴾ لهم أيضاً، أي: باعوه بثمن قليل، إذ لم يعرفوا حقه ولا قدره، بل كانوا زاهدين فيه، وروي ـ على هذا ـ أنهم باعوه من تاجر، وقال مجاهد: الضمير في ﴿وَأَسَرُّوهُ﴾ لأصحاب الدلو، وفي ﴿ وَشَرَوْهُ﴾ لإخوة يوسف الأحد عشر[٤].

وقال ابن عباس: بل الضمير في ﴿وَأَسَرُّوهُ﴾ و﴿ وَشَرَوْهُ﴾ لإخوة يوسف[٥].

قال القاضي أبو محمد: وذلك أنه روي أن إخوته لما رجعوا إلى أبيهم وأعلموه، رجع بعضهم إلى الجب ليتحققوا أمر يوسف، ويقفوا على الحقيقة مِن فقده، فلما علموا أن الورّاد قد أخذوه، جاؤوهم فقالوا: هذا عبد أبق لأمنا ووهبته لنا ونحن نبيعه منكم، فقارَّهم يوسف على هذه المقالة خوفاً منهم، ولينفذ الله أمره، فحينئذ أسرَّه

---

(١) تفسير الطبري (١٥/ ٣)، وتفسير ابن أبي حاتم (٧/ ٢١١٣)، وتفسير الماوردي (٣/ ١٧).

(٢) تفسير الطبري (١٥/ ٦)، وتفسير الماوردي (٣/ ١٧).

(٣) في المطبوع وأحمد٣: «مؤمنين».

(٤) تفسير الطبري (١٥/ ٩).

(٥) أخرجه الطبري (١٨٩٠٨) من طريق عطية العوفي، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

إخوته إذ جحدوا أُخُوَّته فأسرَّوها، واتخذوه بِضاعَةً، أي: متَّجراً لهم ومكسباً، وَشَرَوْهُ أيضا بِثَمَنٍ بَخْسٍ، أي: باعوه.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ إن كانت الضمائر لإخوة يوسف ففي ذلك توعد، وإن كانت الضمائر للواردين ففي ذلك تنبيه على إرادة الله تعالى ليوسف، وسوق الأقدار بحسب بناء حاله، فهو حينئذ بمعنى قول النبي ﷺ: «يدبِّر ابن آدم والقضاء يضحك»[(١)].

وفي الآية أيضاً تسلية للنبي ﷺ عما يجري عليه من جهة قريش، أي: العاقبة التي للمتقين هي المراعاة والمنتظَرة.

﴿وَشَرَوۡهُ﴾ هنا بمعنى: باعوه، وقد يقال: شرى، بمعنى اشترى، ومن الأول قول يزيد بن مفرِّغ الحميري:

[مجزوء الكامل] وَشَرَيْتُ بُرْداً لَيْتَنِي مِنْ بَعْدِ بُرْدٍ كُنْتُ هَامَه[(٢)]

برد: اسم غلام له ندم على بيعه، والضمير يحتمل الوجهين المتقدمين.

[٣/ ٦١] والبخس مصدر وُصِف به الثمنُ، وهو بمعنى النقص وهذا أشهر معانيه / ، فكأنه القليل الناقص، وهو قول الشعبي[(٣)].

وقال قتادة: البخس هنا بمعنى الظلم[(٤)]، ورجحه الزجاج من حيث الحُرُّ لا يحل بيعه[(٥)].

---

(١) هذا القول ليس بحديث، بل هو قول ذي النون المصري قال: «قرأت في بعض قرى مصر بالسريانية فتدبرته فإذا فيه: يقدر المقدرون والقضاء يضحك»، أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٩/ ٣٣٩).

(٢) تقدم في تفسير الآية (٢٠٤) من سورة البقرة.

(٣) تفسير الماوردي (٣/ ١٨)، ومعاني القرآن للنحاس (٣/ ٤٠٦).

(٤) تفسير الطبري (١٥/ ١٢)، وتفسير ابن أبي حاتم (٧/ ٢١١٦)، وتفسير الماوردي (٣/ ١٨).

(٥) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٣/ ٩٨).

وقال الضحاك: هو بمعنى الحرام[١]، وهذا أيضاً بمعنى لا يحل بيعه.

وقوله: ﴿دَرَٰهِمَ مَعۡدُودَةٖ﴾ عبارة عن قلة الثمن لأنها دراهم لم تبلغ أن توزن لقلتها، وذلك أنهم كانوا لا يزنون ما دون الأوقية، وهي أربعون درهماً.

واختلف في مبلغ ثمن يوسف عليه السّلام: فقيل: باعوه بعشرة دراهم.

وقال ابن مسعود: بعشرين[٢].

وقال مجاهد: «اثنين وعشرين، أخذ منها إخوته درهمين درهمين».

وقال عكرمة: «بأربعين درهماً دفعت ناقصة خفافاً، فهذا كان بخسها»[٣].

وقوله: ﴿وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾ وصف يترتب في ورَّاد الماء، أي: كانوا لا يعرفون قدره، فهم لذلك قليلٌ اغتباطُهم به، لكنه أرتَبُ في إخوة يوسف؛ إذ حقيقة الزهد في الشيء إخراج حبه من القلب ورفضُه من اليد، وهذه كانت حال إخوة يوسف في يوسف، وأما الورَّاد فتمسكهم به وتجرهم يمانع زهدهم إلا على تجوُّز.

وقوله: ﴿فِيهِ﴾ ليست بصلة[٤] لـ﴿ٱلزَّٰهِدِينَ﴾، قاله الزجاج[٥]، وفيه نظر لأنه يقتضي وصفهم بالزهد على الإطلاق وليس مقصد الآية هذا، بل قصدها الزهد الخاص في يوسف، والظروف يجوز فيها من التقديم ما لا يجوز في سائر الصلات، وقد تقدم القول في عود ضمير الجماعة الذي في قوله: ﴿وَشَرَوۡهُ﴾.

---

(١) تفسير الطبري (١٥/ ١٢)، وتفسير ابن أبي حاتم (٧/ ٢١١٥)، وتفسير الماوردي (٣/ ١٨).

(٢) أخرجه الطبري (١٨٩٢٠-١٨٩٢١) من طريق أبي عبيدة بن عبد الله بن مسعود، عن أبيه به، والراجح أنه لم يسمع منه، انظر «جامع التحصيل» (٣٢٤).

(٣) انظر القولين في تفسير الطبري (١٥/ ١٤)، وتفسير ابن أبي حاتم (٧/ ٢١١٦)، وتفسير الماوردي (٣/ ١٨).

(٤) في المصرية: «بصفة».

(٥) معاني القرآن وإعرابه له (٣/ ٩٨).

قوله عز وجل: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾.

روي أن مبتاع يوسف ـ وهو الوارد من إخوته أو التاجر من الورَّاد، حسبما تقدم من الخلاف ـ ورد به مصر، البلد المعروف، ولذلك لا ينصرف، فعرضه في السوق، وكان أجمل الناس، فوقعت فيه مزايدة حتى بلغ ثمناً عظيماً؛ فقيل: وزنه من ذهب ومن فضة ومن حرير فاشتراه العزيز، وكان حاجبَ الملك وخازنه، واسم الملك: الرَّيان بن الوليد، وقيل: مصعب بن الريان، وهو أحد الفراعنة، وقيل: هو فرعون موسى، عُمِّر إلى زمانه.

قال القاضي أبو محمد: وهذا ضعيف، وذلك أن ظهور يوسف عليه السّلام لم يكن في مدة كافر يخدمه يوسف.

واسم العزيز المذكور: قطفير، قاله ابن عباس[(١)]، وقيل: أظفير[(٢)]، وقيل: قنطور.

واسم امرأته: راعيل، قاله ابن إسحاق[(٣)]، وقيل ربيحة، وقيل: زليخا.

وظاهر أمر العزيز أنه كان كافراً، ويدل على ذلك كون الصنم في بيته ـ حسبما نذكره في البرهان الذي رأى يوسف ـ وقال مجاهد: «كان العزيز مسلماً»[(٤)].

والمثوى: مكان الإقامة، والإكرام إنما هو لذي المثوى، ففي الكلام استعارة.

وقوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾، أي: بأن يعيننا في أبواب دنيانا وغير ذلك من وجوه النفع، وقوله: ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ أي: نتبناه، وكان فيما يقال لا ولد له.

---

(١) أخرجه الطبري (١٨٩٤١)، وابن أبي حاتم (١١٤٣٣) من طريق عطية العوفي، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) في المطبوع وأحمد٣: «أطفير».

(٣) تفسير الطبري (١٥/ ١٨)، وتفسير ابن أبي حاتم (٧/ ٢١١٧)، وتفسير الماوردي (٣/ ١٩).

(٤) تفسير الطبري (١٥/ ١٩).

ثم قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾، أي: كما وصفنا ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ﴾ فعلنا ذلك.

و﴿ٱلۡأَحَادِيثِ﴾: الرؤيا في النوم، قاله مجاهد[(١)]، وقيل: أحاديث الأمم والأنبياء.

والضمير في ﴿أَمۡرِهِۦ﴾ يحتمل أن يعود على يوسف، قاله الطبري، ويحتمل أن يعود على الله عز وجل، قاله ابن جبير[(٢)]، فيكون إخباراً منبهاً على قدرة الله عز وجل ليس في شأن يوسف خاصة بل عامّاً في كل أمر، وكذلك الاحتمال في قول الشاعر:

رَأَيْــت أَبـا بكرٍ وَرَبُّــك غالبٌ ... على أمره يَبْغِي الْخلَافَة بِالتَّمْرِ[(٣)] [الطويل]

وأكثر الناس الذين نُفي عنهم العلم هم الكفرة، وفيهم الذين زهدوا في يوسف وغيرُهم ممن جهل أمره.

وروي عن عبد الله بن مسعود أنه قال: «أصح الناس فراسة ثلاثة: العزيز حين قال لامرأته: ﴿أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ﴾، وابنة شعيب حين قالت: ﴿ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦]، وأبو بكر حين استخلف عمر بن الخطاب»[(٤)].

---

(١) تفسير الطبري (١٥/ ٢٠)، وتفسير ابن أبي حاتم (٧/ ٢١١٨)، وتفسير الماوردي (٣/ ٨)، وتفسير ابن أبي زمنين (١/ ٣٠١).

(٢) انظره مع قول الطبري في تفسير الطبري (١٥/ ٢١).

(٣) ورد بلا نسبة في عيون الأخبار (٢/ ٣٨)، والعقد الفريد (٧/ ١٩٧)، وأبو بكر هو ابن الزبير.

(٤) صحيح، أخرجه ابن سعد في الطبقات (٣/ ٢٧٣)، وابن أبي حاتم (١١٤٣٨)، والحاكم في المستدرك (٣/ ٩٦)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٤/ ٢٥٤-٢٥٥) من طريق أبي إسحاق السبيعي، عن أبي عبيدة، عن عبد الله بن مسعود به، وأبو عبيدة لم يسمع من أبيه، ولكن تقويها رواية أبي الأحوص عن ابن مسعود، أخرجها ابن أبي شيبة في المصنف (٣٨٠٥٥)، والطبري (١٨٩٤٩)، والطبراني في الكبير (٨٨٢٩)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٣٧٦)، من طريق أبي إسحاق السبيعي، عن أبي الأحوص عوف بن مالك، عن عبد الله بن مسعود به، وقد صحح الطريقين الدارقطني، وانظر «العلل» (٥/ ٣٢٠).

قال القاضي أبو محمد: وفراسة العزيز إنما كانت في نفس نجابة يوسف، لا أنه تفرس الذي كان كما في المثالين الآخرين، فإن ما تُفُرِّس فيهما خرج بعينه[١].

والأشُدُّ: استكمال القوة وتناهي بنية الإنسان، وهما أشُدان:

أولهما: البلوغ، وقد عبر عنه مالك وربيعة بأشُد، وذكره منذر بن سعيد[٢].

والثاني: الذي تستعمله العرب، وقيل: هو من ثماني عشرة سنة إلى ستين سنة.

قال القاضي أبو محمد: وهذا قول ضعيف.

وقيل: الأشد: بلوغ الأربعين، وقيل: بل ستة وثلاثون. وقيل: ثلاثة وثلاثون.

قال القاضي أبو محمد: وهذا أظهر الأقوال ـ فيما نحسبه ـ [وهو الأسبوع الخامس][٣].

وقيل: عشرون سنة، وهذا ضعيف.

وقال الطبري: الأشد لا واحد له من لفظه[٤].

وقال سيبويه: الأشد جمع شدة، نحو نعمة وأنعم، وقال الكسائي: أشُد جمع شَد نحو قد وأقُدٍّ[٥]، وشَدُّ النهار: معظمه وحيث تستكمل[٦] نهاريته.

وقوله: ﴿حُكْمًا﴾ يحتمل أن يريد الحكمة والنبوءة، وهذا على الأشد الأعلى،

---

(١) في أحمد٣: «فإن التفرس»، و«فيهما» زيادة منه.

(٢) إعراب القرآن للنحاس (٢/ ١٩٧)، وقد تقدم الكلام على الأشد وذكرُ الأقوال فيه في تفسير الآية (١٥٢) من سورة الأنعام.

(٣) ساقط من المطبوع، ويعني قبل خمس وثلاثين بناء على أن الأسبوع هو سبع سنوات.

(٤) تفسير الطبري (١٥/ ٢٣).

(٥) انظر القولين في إعراب القرآن للنحاس (٢/ ١٩٧)، وشد النهار إشارة لقول الشاعر: عهدي به شدّ النّهار كأنّما * خضب البنان ورأسه بالعظلم.

(٦) في أحمد٣: «تستعجل».

ويحتمل الحكمة والعلم دون النبوءة، وهذا أشبه إن كانت قصة المراودة بعد هذا.

و﴿وَعِلْمًا﴾ يريد تأويل الأحاديث وغير ذلك.

ويحتمل أن يريد بقوله: ﴿حُكْمًا﴾ أي: سلطاناً في الدنيا وحكماً بين الناس بالحق. وتدخل النبوة وتأويل الأحاديث وغير ذلك في قوله: ﴿وَعِلْمًا﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ ألفاظ فيها وعد للنبي ﷺ، فلا يهولنك فعل الكفرة بك وعتوهم عليك فالله تعالى يصنع للمحسنين أجمل صنع.

قوله عز وجل: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾.

المراودة: الملاطفة في السَّوق إلى غرض، وأكثر استعمال هذه اللفظة إنما هو في هذا المعنى الذي هو بين الرجال والنساء، ويشبه أن يكون من راد يرود إذا تقدم لاختبار الأرض والمراعي، فكأنَّ المراوِد يختبر أبداً بأقواله وتلطفه حال المراوَد من / الإجابة أو الامتناع. [٣/ ٦٢]

وفي مصحف ابن مسعود: (وقرعت الأَبواب)، وكذلك رويت عن الحسن[١].

و﴿ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا﴾ هي زليخا امرأة العزيز.

قوله: ﴿عَن نَّفْسِهِۦ﴾ كناية عن غرض المواقعة.

---

(١) وهي شاذة مخالفة للرسم، لكن صوابه: «وترعت الأبواب»، عزاها الكرماني في الشواذ (ص: ٢٤٤)، والأزهري في تهذيب اللغة (٢/ ١٥٨)، لأبي بن كعب، قال الزبيدي في تاج العروس (٢٠/ ٣٨٨): وهي أيضاً قراءة أنس رضي الله عنه، وقراءة أبي صالح، كما في العباب.

وقوله: ﴿وَغَلَّقَتِ﴾ تضعيف مبالغة لا تعدية، وظاهر هذه النازلة أنها كانت قبل أن ينبأ عليه السلام.

وقرأ ابن كثير وأهل مكة: ﴿هَيْتُ﴾ بفتح الهاء وسكون الياء وضم التاء.

وقرأ ابن عباس وابن أبي إسحاق وابن محيصن وأبو الأسود وعيسى بفتح الهاء وكسر التاء (هَيْتِ)(١).

وقرأ ابن مسعود والحسن والبصريون: ﴿هَيْتَ﴾ بفتح الهاء والتاء وسكون الياء، ورويت عن ابن عباس وقتادة وأبي عمرو(٢)، قال أبو حاتم: لا يعرف أهل البصرة غيرها، وهم أقل الناس غلوّاً في القراءة، قال الطبري: وقد رويت عن رسول الله ﷺ(٣).

وقرأ نافع وابن عامر: ﴿هِيتَ﴾ بكسر الهاء وسكون الياء وفتح التاء، وهي قراءة الأعرج وشيبة وأبي جعفر.

وهذه الأربع بمعنًى واحد، واختلفت باختلاف اللغات فيها، ومعناه الدعاء، أي: تعال وأقبل على هذا الأمر، قال الحسن: معناها: هلمّ(٤).

ويحسن أن تتصل بها ﴿لَكَ﴾ إذْ حلت محل قولها: إقبالاً أو قرباً، فجرت مجرى سقياً لك ورعياً لك، ومن هذا قول الشاعر يخاطب علي بن أبي طالب:

[مجزوء الكامل]

أَبْلِغْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ... أَخَا الْعِرَاقِ إِذَا أَتَيْتَا
أَنَّ الْعِرَاقَ وَأَهْلَهَا ... عُنُقٌ إِلَيْكَ فَهَيْتَ هَيْتَا(٥)

---

(١) وهي قراءة شاذة، انظر: المحتسب (١/ ٣٣٧).

(٢) هذه قراءة أبي عمرو والكوفيين، وهي والأولى وقراءة نافع وابن ذكوان كلها سبعية، وبقيت رابعة لهشام بالهمز، وخامسة له أيضاً بضم التاء، انظر: التيسير (ص: ١٢٨)، وانظر موافقة أبي جعفر لنافع في النشر (٢/ ٣٣١).

(٣) تفسير الطبري (١٦/ ٣٠)، وقد ذكره البخاري (٤٤١٥) مختصراً، راجع فتح الباري (٨/ ٣٦٤).

(٤) تفسير الطبري (١٦/ ٢٦).

(٥) البيتان لرجل من أهل العراق كما في تاريخ الطبري (٤/ ٥٦٤)، وبلا نسبة في مجاز القرآن (١/ ٣٠٥)، وغيره.

ومن ذلك على اللغة الأخرى قول طرفة:

لَيْسَ قَومِـي بِالأَبْعَدِيـنَ إِذَا مَـا قَـالَ دَاعٍ مِـنَ الْعَشِـيرَةِ هَيْـتُ[١] [الخفيف]

ومن ذلك أيضاً قول الشاعر:

قَـدْ رَابَنِـي أَنَّ الْـكَرِيَّ أَسْـكَتَـا لَـوْ كَانَ مَعْنِيّاً بِهَـا لَـهَـيَّتَـا[٢] [الرجز]

أسكت: دخل في سكوت، وهيَّت معناه: قال: هيت هيت[٣]، كما قالوا: أَفَّف، إذا قال: أف أف، ومنه سبَّح وكبَّـرَ، ودعدع إذ قال: داع داع.

والتاء على هذه اللغات كلها مبنية فهي في حال الرفع كقبلُ وبعدُ، وفي حال الكسر على الباب لالتقاء الساكنين، وفي حال النصب ككيف ونحوها، قال أبو عبيدة: و«هَيْتَ» لا تثنى ولا تجمع، تقول العرب: هَيْتَ لَكَ، وهيت لكما، وهيت لكم[٤].

وقرأ هشام عن[٥] ابن عامر: ﴿هِئْتُ﴾، بكسر الهاء والهمز وضم التاء، وهي قراءة علي بن أبي طالب، وأبي وائل، وأبي رجاء ويحيى، ورويت عن أبي عمرو[٦]، وهذا يحتمل أن يكون من هاء الرجل يَهيء: إذا أحسن هيئته، على مثال: جاء يجيء، ويحتمل أن يكون بمعنى: تهيأت، كما يقال: فِئْتُ وتفيأت بمعنًى واحد، قال الله عز وجل: ﴿يَتَفَيَّؤُا ظِلَالُهُۥ﴾ [النحل: ٤٨]، وقال: ﴿حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الحجرات: ٩].

وقرأ ابن أبي إسحاق أيضاً: (هِيْتُ) بتسهيل الهمزة من هذه القراءة المتقدمة[٧].

---

(١) انظر عزوه له في تفسير الطبري (١٦/ ٣٠)، ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج (٣/ ١٠٠)، والمحتسب (١/ ٣٣٧).

(٢) البيت بلا نسبة في معجم ديوان الأدب (٢/ ٢٨٥)، تهذيب اللغة (٦/ ٢٠٩)، الحجة للفارسي (٤/ ٤١٨).

(٣) الثانية من نجيبويه والحمزوية ونور العثمانية وأحمد٣.

(٤) مجاز القرآن (١/ ٣٠٥).

(٥) «عن»: ساقطة من المطبوع.

(٦) وهي سبعية لهشام، وله وجه بفتح التاء كما تقدم، ولم ترد عن أبي عمرو في شيء من الطرق.

(٧) وهي شاذة، تابعه عليها في البحر المحيط (٦/ ٢٥٧).

وقرأ ابن عباس أيضاً: «هيأت لك»[١]، وقرأ الحلواني عن هشام: «هِئْتَ» [بكسر الهاء][٢] والهمز وفتح التاء[٣]، قال أبو علي: ظاهر أن هذه القراءة وهم، لأنه كان ينبغي أن تقول: هِئْتَ لي، وسياق الآيات يخالف هذا[٤]، وحكى النحاس: أنه يقرأ: «هِيتِ» بكسر الهاء وسكون الياء وكسر التاء[٥].

و﴿مَعَاذَ﴾ نصب على المصدر ومعنى الكلام: أعوذ بالله.

ثم قال: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّىٓ﴾ فيحتمل أن يعود الضمير في ﴿إِنَّهُۥ﴾ على الله عز وجل، ويحتمل أن يريد العزيزَ سيدَه، أي: فلا يصلح لي أن أخونه وقد أكرم مثواي وائتمنني، قال مجاهد، والسدي: «رَبِّي معناه: سيدي»، وقاله ابن إسحاق[٦].

قال القاضي أبو محمد: وإذا حَفِظَ الآدميَّ لإحسانه فهو عملٌ زاكٍ، وأحرى أن يحفظ ربه.

ويحتمل أن يكون الضمير للأمر والشأن، ثم يبتدئ: ﴿رَبِّىٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَاىَۖ﴾.

والضمير في قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ﴾ مراد به الأمر والشأن فقط.

وحكى بعض المفسرين: أن يوسف عليه السلام لما قال: معاذ الله، ثم دافع الأمر باحتجاج وملاينة، امتحنه الله تعالى بِالهمّ بما همَّ به، ولو قال: لا حول ولا قوة إلا بالله، ودافع بعنف وتغيير لم يهمَّ بشيء من المكروه.

---

(١) في الأصل ونجيبويه: «هيت»، وفي الحمزوية: «هييت»، وفي أحمد٣: «هيئت»، وكذلك هي في المحتسب (١/ ٣٣٧) عنه.

(٢) سقط من الأصل.

(٣) انظر: السبعة في القراءات (ص: ٣٤٧).

(٤) الحجة لأبي علي الفارسي (٤/ ٤٢٠)، نقلاً عنه بالمعنى.

(٥) ذكر النحاس سبع قراءات، ليس فيها كسر التاء إلا مع فتح الهاء، وقد عزا كسرهما الكرماني (ص: ٢٤٤) لابن أبي إسحاق.

(٦) تفسير الطبري (١٦/ ٣٢).

وقرأ الجحدري: (مثويَّ) وقرأها كذلك أبو طفيل[١]، وروي عن النبي ﷺ: «فمن تبع هُدَيَّ»[٢].

وقوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ﴾ الآية، لا شك أن هَمَّ زليخا كان في أن يواقعها يوسف.

واختُلف في هَمِّ يوسف عليه السلام:

فقال الطبري: قالت فرقة: كان مثل همها[٣]، واختلفوا كيف يقع من مثل يوسف وهو نبي؟ فقيل: ذلك ليريه الله تعالى موقع العفو والكفاية، وقيل: الحكمة في ذلك أن يكون مثالاً للمذنبين ليروا أن توبتهم ترجع بهم إلى عفو الله كما رجعت بمن هو خير منهم ولم يوبقه القرب من الذنب، وهذا كله على أن همَّ يوسف بلغ فيما روت هذه الفرقة إلى أن جلس بين رجلي زليخا وأخذ في حل ثيابه وتكَّته ونحو هذا، وهي قد استلقت له، قاله ابن عباس وجماعة من السلف[٤].

وقالت فرقة في همه: إنما كان بخطرات القلب التي لا يقدر البشر عن التحفظ منها، ونزع عند ذلك ولم يتجاوزه، فلا يبعد هذا على مثله عليه السلام، وفي الحديث: «إن من هم بسيئة ولم يعملها فله عشر حسنات»[٥]، وفي حديث آخر: «حسنة»[٦]، فقد يدخل يوسف في هذا الصنف.

وقالت فرقة: كان همُّ يوسف بضربها ونحو ذلك.

---

(١) انظر عزوها للجحدري في الكامل للهذلي (ص: ٤٤٦)، وتقدم مثلها عن أبي الطفيل قريباً.

(٢) لم أقف عليه.

(٣) تفسير الطبري (١٦/ ٣٤)، وما بعدها، منقول بالمعنى.

(٤) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٢/ ٣٢١)، وسعيد بن منصور في سننه (١١١٦)، والطبري (١٩٠١٥-١٩٠١٨-١٩٠٢٠-١٩٠٢١-١٩٠٢٢)، وابن أبي حاتم (١١٤٧٣-١١٤٧٤) من طرق صحيحة عن عبد الله بن أبي مليكة، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٥) لم أقف عليه بهذا اللفظ.

(٦) متفق عليه، أخرجه البخاري (٦٤٩١)، ومسلم (١٣١) من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

قال القاضي أبو محمد: وهذا ضعيف البتة، والذي أقول في هذه الآية: إن كون يوسف نبيّاً في وقت هذه النازلة لم يصح ولا تظاهرت به رواية، فإذا كان ذلك فهو مؤمن قد أوتي حكماً وعلماً، ويجوز عليه الهمُّ الذي هو إرادة الشيء دون مواقعته، وأن يستصحب الخاطر الرديء على ما في ذلك من الخطيئة، وإن فرضناه نبيّاً في ذلك الوقت فلا يجوز عليه عندي إلا الهم الذي هو الخاطر، ولا يصح عليه شيء مما ذكر من حل تكة ونحو ذلك، لأن العصمة مع النبوة، وما روي من أنه قيل له: تكون في ديوان الأنبياء وتفعل فعل السفهاء؟ فإنما معناه العِدَة بالنبوة فيما بعد.

وللهم بالشيء مرتبتان: فالواحدة الأولى تجوز عليه مع النبوة، والثانية الكبرى لا تقع إلا من غير نبي، لأن استصحاب / خاطر المعصية والتلذذَ به معصية [في نفسها][1] [٣/ ٦٣] تكتب، وقول النبي ﷺ: «إن الله تجاوز لأمتي ما حدثت به نفوسها ما لم تنطق به أو تعمل»[2]، معناه: من الخواطر، وأما استصحاب الخاطر فمحال أن يكون مباحاً، فإن وقع فهو خطيئة من الخطايا لكنه ليس كمواقعة المعصية التي فيها الخاطر، ومما يؤيد أن استصحاب الخاطر معصية قول النبي ﷺ: «إنه كان حريصاً على قتل صاحبه»[3]، وقول الله تعالى: ﴿إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾[الحجرات: ١٢]؛ هذا منتزع من غير موضع من الشرع، والإجماع منعقد أن الهم بالمعصية واستصحاب التلذذ بها غير جائز ولا داخل في التجاوز[4].

واختلف في البرهان الذي رأى يوسف، وقيل: نودي. واختلف فيما نودي به، فقيل: ناداه جبريل: يا يوسف، تكون في ديوان الأنبياء، وتفعل فعل السفهاء؟

---

(١) زيادة من نجيبويه والمطبوع ونور العثمانية وأحمد٣.

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري (٦٦٦٤)، ومسلم (١٢٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) متفق عليه، أخرجه البخاري (٣١)، ومسلم (٢٨٨٨) من حديث أبي بكرة رضي الله عنه.

(٤) القائل بالمؤاخذة على الهم بالمعصية: الباقلاني وجماعة معه، قال المازري: وهو مخالف لما عليه كثير من المحدثين والفقهاء والمتكلمين، انظر فتح الباري لابن حجر (١١/ ٣٢٧).

وقيل: نودي: يا يوسف، لا تواقع المعصية فتكون كالطائر الذي عصى فتساقط ريشه فبقي ملقى، ناداه بذلك يعقوب، وقيل غير هذا مما هو في معناه.

وقيل: كان البرهان كتاباً رآه مكتوباً، فقيل: في جدار المجلس الذي كانا فيه، وقيل: بين عيني زليخا، وقيل: في كف من الأرض خرجت دون جسد. واختلف في المكتوب، فقيل: قوله تعالى: ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾[الرعد: ٣٣]، وقيل: قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ٣٢]، وقيل غير هذا.

وقيل: كان البرهان أن رأى يعقوبَ عليه السلام ممثلاً معه في البيت عاضّاً على إبهامه، وقيل: على شفته، وقيل: بل انفرج السقف فرآه كذلك.

وقيل: إن جبريل قال له: لئن واقعت المعصية لأمحونَّك من ديوان النبوة.

وقيل: إن جبريل ركضه برجله فخرجت شهوته على أنامله.

قال القاضي أبو محمد: وهذا ضعيف.

[وقيل: بل كان البرهان فكرته في عذاب الله ووعيده على المعصية][1].

وقيل: بل كان البرهان الذي اتعظ به أن زليخا قالت له: مكانَك حتى أستر هذا الصنم ـ لصنم كان معها في البيت ـ فإني أستحيي منه أن يراني على هذه الحال، وقامت فسترته بثوب، فاتعظ يوسف، وقال: من يسترني أنا من الله القائم على كل شيء، وإذا كنت أنت تفعلين هذا لما لا يعقل، فأنا أولى أن أستحيي من الله[2].

والبرهان في كلام العرب: الشيء الذي يعطي القَطْع واليقين، كان مما يعلم ضرورة أو بخبر قطعي أو بقياس نظري، فهذه التي رويت فيما رآه يوسف براهين.

و﴿أَن ﴾ في قوله: ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا ﴾ في موضع رفع، التقدير: لولا رؤيته برهان ربه، وهذه ﴿لَوْلَآ ﴾ التي يحذف معها الخبر، تقديره: لفَعَل أو لارتكب المعصية.

---

(١) ساقط من الحمزوية ونور العثمانية.

(٢) انظر: تفسير الثعلبي (٥/ ٢١٣).

وذهب قوم إلى أن الكلام تم في قوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ﴾، وأن جواب ﴿لَوْلَآ﴾ في قوله: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ وأن المعنى: لولا أن رأى البرهان لهمّ، أي: فلم يهم عليه السلام، وهذا قول يرده لسان العرب وأقوال السلف.

قال الزجّاج: ولو كان الكلام: ولهمّ بها لولا، لكان بعيداً، فكيف مع سقوط اللام![١].

والكاف من قوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ متعلقة بمضمر تقديره: جرت أفعالنا وأقدارنا كَذلِكَ لِنَصْرِفَ، ويصح أن تكون الكاف في موضع رفع بتقدير: عصمتنا له كذلك لنصرف.

وقرأ الجمهور: ﴿لِنَصْرِفَ﴾ بالنون.

وقرأ الأعمش: (ليصرف) بالياء[٢]، على الحكاية عن الغائب.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر والحسن بن أبي الحسن وأبو رجاء: ﴿المخلِصين﴾ بكسر اللام في كل القرآن، وكذلك: ﴿مُخْلِصاً﴾ في سورة مريم [٥١].

وقرأ نافع: ﴿مخلِصاً﴾ كذلك بكسر اللام، وقرأ سائرَ القرآن: ﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ بفتح اللام.

وقرأ عاصم وحمزة والكسائي وجمهور من القراء: ﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ بفتح اللام و﴿مُخْلَصًا﴾ كذلك في كل القرآن[٣].

وقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ﴾ الآية، ﴿وَٱسْتَبَقَا﴾ معناه: سابق كل واحد منهما صاحبه إلى الباب، هي لترده إلى نفسها وهو ليهرب عنها، فقبضت في أعلى

---

(١) معاني القرآن وإعرابه له (٣/ ١٠٢)، بتصرف يسير.

(٢) وهي شاذة، انظر البحر المحيط (٦/ ٢٥٩).

(٣) وكلها سبعية، والمقصود بسائر القرآن «المخلصين» معرفاً، أما «مخلصاً» ففي مريم خاصة، انظر: التيسير (ص: ١٢٨)، (ص: ١٤٩).

قميصه من خلفه، فتخرق القميص عند طوقه، ونزل التخريق إلى أسفل القميص.

والقد: القطع، وأكثر ما يستعمل فيما كان طولاً، والقط يستعمل فيما كان عرضاً، وكذلك هي اللفظة في قول النابغة: «تقُدُّ السلوقي»[١] فإن قوله: «توقد بالصُّفَّاح» يقتضي أن القطع بالطول.

وأَلْفَيا: وجدا، والسيد: الزوج، قاله زيد بن ثابت[٢]، ومجاهد[٣]، فيروى أنهما وجدا العزيز ورجلاً من قرابة زليخا عند الباب الذي استبقا إليه، قاله السدي[٤].

فلما رأت الفضيحة فزعت إلى مطالبة يوسف والبغي عليه، فأرت العزيز أن يوسف أرادها، وقالت: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ﴾ يعذب عذاباً أليماً، وتكلمت في الجزاء، أي: أن الذنب ثابت متقرر.

وهذه الآية تقتضي بعظم موقع السجن من النفوس لا سيما بذوي الأقدار، إذ قرن بأليم العذاب.

قوله عز وجل: ﴿قَالَ هِيَ رَٰوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِي لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾﴾.

قال نوف الشامي: «كان يوسف عليه السلام لم يبنِ على كشف القصة، فلما بغَت به غضب، فقال الحق، فأخبره أنها هي راودته عن نفسه»[٥].

(١) من قوله: تقد السلوقي المضاعف نسجه * وتوقد بالصفاح نَار الحباحب، عزاه له في جمهرة اللغة (١/ ١٧٤)، والحيوان (١/ ٢٠٥).

(٢) أخرجه الطبري (١٩٠٩٤) من طريق الحسن، عن زيد بن ثابت به، وإسناده منقطع.

(٣) تفسير الطبري (١٦/ ٥١).

(٤) انظر تفسير الطبري (١٦/ ٥١)، وتفسير ابن أبي حاتم (٧/ ٢١٢٧-٢١٢٨).

(٥) تفسير الطبري (١٦/ ٥٣)، وتفسير ابن أبي حاتم (٧/ ٢١٢٧).

فروي أن الشاهد كان الرجل ابن عمها، قال: انظروا إلى القميص فإن كان قده من دبر فكذبت، أو من قُبل فصدقت، قاله السدي[١].

وقال ابن عباس: «كان رجلاً من خاصة الملك»[٢]، قاله مجاهد[٣]، وغيره.

وقيل: إن الشاهد كان طفلاً في المهد فتكلم بهذا، قاله أيضاً ابن عباس[٤] وأبو هريرة[٥] وابن جبير وهلال بن يساف والضحاك[٦].

قال القاضي أبو محمد: ومما يضعف هذا أن في البخاري ومسلم: «لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة: عيسى ابن مريم، وصاحب جريج، وابن السوداء الذي تمنت له أن يكون كالفاجر الجبار»[٧]، فقال: «لم يتكلم»، وأسقط صاحب يوسف منها، ومنها: أن الصبي لو تكلم لكان الدليل نفس كلامه دون أن يحتاج إلى الاستدلال بالقميص / . [٣/ ٦٤]

وأسند الطبري إلى ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «تكلم في المهد أربعة»، فذكر

(١) انظر: تفسير الطبري (١٦/ ٥١)، وتفسير ابن أبي حاتم (٧/ ٢١٢٧-٢١٢٨).

(٢) أخرجه الطبري (١٩١١٢)، وابن أبي حاتم (١١٥٠٩) من طريق جابر بن يزيد بن الحارث، عن عبد الله بن أبي مليكة، عن ابن عباس رضي الله عنهما به، وإسناده ضعيف؛ لضعف جابر بن يزيد ابن الحارث.

(٣) انظر: تفسير الطبري (١٦/ ٥٦)، وتفسير ابن أبي حاتم (٧/ ٢١٢٨).

(٤) منكر، أخرجه أحمد في «مسنده» (١/ ٣١٠-٢٨٢١)، والطبري (١٩٠٩٩-١٩١١٠)، وابن أبي حاتم (١٩١١٠) من طريق: العلاء بن عبد الجبار، عن حماد بن سلمة، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: تكلم أربعة في المهد وهم صغار: ابن ماشطة بنت فرعون، وشاهد يوسف، وصاحب جريج، وعيسى ابن مريم عليه السلام.اهـ. وعطاء كان قد اختلط، وحماد روى عنه في الحالين، وذِكر شاهد يوسف هنا منكر، وسيأتي توهين المصنف له، والذي في الصحيحين أثبت.

(٥) أخرجه الطبري (١٩١٠٠) من طريق أبي بكر الهذلي، عن شهر بن حوشب، عن أبي هريرة به، وأبو بكر الهذلي ضعيف.

(٦) تفسير الطبري (١٦/ ٥٥)، وتفسير الماوردي (٣/ ٢٨)، وتفسير ابن أبي حاتم (٧/ ٢١٢٨).

(٧) متفق عليه، أخرجه البخاري (٣٤٣٦)، ومسلم (٢٥٥٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وليس في الحديث ذكر أن المرأة كانت سوداء، وليس فيه سوى أنها من بني إسرائيل.

الثلاثة وزاد صاحب يوسف[١]، وذكر الطبري عن ابن عباس: أن ابن ماشطة فرعون تكلم في المهد.

فهم على هذا خمسة، وقال مجاهد أيضاً: الشاهد القميص[٢].

قال القاضي أبو محمد: وهذا ضعيف لأنه لا يوصف بأنه من الأهل.

وقرأ جمهور الناس: ﴿مِن قُبُلٍ﴾ و﴿مِن دُبُرٍ﴾ بضم الباءين وبالتنوين.

وقرأ ابن يعمر والجارود بن أبي سبرة ونوح وابن أبي إسحاق: (من قُبُلُ)، و(من دُبُرُ)، بثلاث ضمات من غير تنوين[٣]، قال أبو الفتح: هما غايتان بنيتا، كقوله تعالى: ﴿مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ [الروم: ٤].

قال أبو حاتم: وهذا رديء في العربية جدّاً، وإنما يقع هذا البناء في الظروف[٤].

وقرأ الحسن: (من قبْلٍ) و(من دبْرٍ) بإسكان الباءين والتنوين، ورويت عن أبي عمرو[٥].

وروي عن نوحٍ القارئ أنه أسكن الباءين وضم الأواخر ولم ينون، ورواها عن ابن أبي إسحاق عن يحيى بن يعمر[٦].

وسمي المتكلم بهذا الكلام شاهِداً من حيث دل على الشاهد، ونفسُ الشاهد هو تخريق القميص.

---

(١) منكر وقد سبق الكلام عليه في قول ابن عباس المذكور فوق، وكذلك قول ابن عباس الذي بعده.

(٢) تفسير الطبري (١٦/ ٥٨).

(٣) وهي شاذة، انظرها في مختصر الشواذ (ص: ٦٨)، ومع التوجيه في المحتسب (١/ ٣٣٨).

(٤) لم أقف عليه.

(٥) وهي شاذة، انظر قراءة الحسن في مختصر الشواذ (ص: ٦٧)، وهي رواية محبوب عن أبي عمرو كما في القرطبي (٩/ ١٧٤).

(٦) وهي شاذة، انظر الشواذ للكرماني (ص: ٢٤٤)، وفي المطبوع: «عن أبي إسحاق».

وقرأت فرقة: (فلما رأى قميصه عُطَّ من دبر)[١].

والضمير في ﴿رَءَا﴾ هو للعزيز، وهو القائل: ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّ﴾، قاله الطبري[٢].

وقيل: بل الشاهد قال ذلك، والضمير في ﴿إِنَّهُۥ﴾ يريد مقالها المتقدمَ في الشكوى بيوسف.

ونزع بهذه الآية من يرى «الحكم بالأمارة»، من العلماء، فإنها معتمدهم[٣].

و﴿يُوسُفُ﴾ في قوله: ﴿يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَا﴾ منادى، قاله ابن عباس، ناداه الشاهد، وهو الرجل الذي كان مع العزيز، و﴿أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَا﴾ معناه: عن الكلام به، أي: اكتمه ولا تتحدث به، ثم رجع إليها فقال: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِ﴾ أي: استغفري زوجك وسيدك.

وقال: ﴿مِنَ ٱلۡخَاطِـِٔينَ﴾ ولم يقل: من الخاطئات؛ لأن الخاطئين أعم، وهو من: خَطِئ يخطأ خِطْئاً وخَطَأً، ومنه قول الشاعر:

لَعَمْـرُكَ إِنَّمَـا خَطَئِـي وَصَـوْبِـي ... عَلَـيَّ وَإِنَّ مَـا أَهْلَكْـتُ مَـالُ[٤] [الوافر]

وينشد بيت أمية بن أبي الصلت:

عِبَـادُكَ يُخْطِـئُـونَ وَأَنْـتَ رَبٌّ ... بِكَـفَّـيْـكَ الْمَـنَـايَـا وَالْحُـتُومُ[٥] [الوافر]

---

(١) وهي شاذة، نقلها القرطبي (٩/ ١٧١) عن المفضل بن حرب قال: قرأت في مصحف: (فلما رأى قميصه عط من دبر) أي: شق.

(٢) تفسير الطبري (١٦/ ٦٠).

(٣) انظر في ذلك: التبصرة لابن فرحون (٢/ ٩٥)، والطرق الحكمية لابن القيم (ص: ١٩٤)، وأحكام القرآن لابن العربي (٢/ ٥٦٣).

(٤) البيت لأوس بن علفاء كما في مجاز القرآن (١/ ٣٧٦)، وطبقات فحول الشعراء (١/ ١٦٧)، والشعر والشعراء (٢/ ٦٢١).

(٥) انظر عزوه له في مسائل ابن الأزرق (ص: ١٩٣)، وتفسير الطبري (١٦/ ٦٢)، والمحتسب (٢/ ٢٠)، وأدب الكاتب (ص: ٤٤٤).

قوله عز وجل: ﴿ ۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ ﴾.

ذكِّر الفعل المسند إلى النسوة لتذكير اسم الجمع، و﴿نِسْوَةٌ﴾ جمع قلة لا واحد له من لفظه، وجمع التكثير نساء، ونِسْوَةٌ: فِعلة، وهو أحد الأبنية الأربعة التي هي لأدنى العدد، وقد نظمها القائل ببيت شعر:

بـأفـعُـل وبـأفْـعـالٍ وأفْـعِـلـة ... وفِعْلة يُعْرف الأدْنى من العَدَد[1] [البسيط]

ويروى أن هؤلاء النسوة كن أربعاً: امرأة خباز الملك، وامرأة ساقيه، وامرأة سجانه[2]، وامرأة بوابه.

والْعَزِيز: الملك، ومنه قول الشاعر:

دُرَّةٌ غَـاصَ عَـلَـيْـهَـا تَـاجِـرٌ ... جُلِيَـتْ عِنْـدَ عَزِيـزٍ يَـوْمَ طَـلِّ[3] [الرمل]

والفتى: الغلام، وعرفه في المملوك، وقد قال رسول الله ﷺ: «لا يقل أحدكم: عبدي وأمتي، وليقل: فتاي وفتاتي»[4]، ولكنه قد يقال في غير المملوك، ومنه: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ ﴾ [الكهف: ٦٠].

وأصل الفتى في اللغة: الشاب، ولكن لما كان جُلُّ الخَدَمة شباباً استعير لهم اسم الفتى.

---

(١) لم أقف على قائله، وجمعها ابن مالك في الألفية بقوله: أفعلة أفعل ثم فعله* ثمت أفعال جموع قله، وانظر خزانة الأدب (٨/ ٠٦).

(٢) في المطبوع وأحمد٣: «وامرأة حاجبه».

(٣) البيت لأبي دؤاد كما في تفسير الطبري (١٦/ ٦٢)، وتفسير الثعلبي (٥/ ٢١٦).

(٤) متفق عليه، أخرجه البخاري (٢٥٥٢) ومسلم (٢٢٤٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

و﴿شَغَفَهَا﴾ معناه: بلغ حتى صار من قلبها موضع الشَّغاف، وهو على أكثر القول غلاف من أغشية القلب، وقيل: الشغاف: سويداء القلب، وقيل: الشغاف: داء يصل إلى القلب.

وقرأ أبو رجاء والأعرج وعلي بن أبي طالب والحسن بخلاف ويحيى بن يعمر وقتادة بخلاف وثابت وعوف ومجاهد وغيرهم: (قد شعفها) بالعين غير منقوطة[١]، ولذلك وجهان:

أحدهما: أنه علا بها كل مرقبة[٢] من الحب، وذهب بها كل مذهب، فهو مأخوذ على هذا من شعف الجبال وهي رؤوسها وأعاليها، ومنه قول النبي ﷺ: «يوشك أن يكون خير مال المسلم غنماً يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن»[٣].

والوجه الآخر: أن يكون الشعف لذة بحرقة يوجد من الجراحات والجرب ونحوها، ومنه قول امرئ القيس:

[الطويل] أَيَقْتُلُنِي وَقَدْ شَعَفْتُ فُؤَادَهَا كَمَا شَعَفَ المَهْنُوءَةَ الرَّجُلُ الطَّالي[٤]

والمشعوف في اللغة: الذي أحرق الحبُّ قلبه، ومنه قول الأعشى:

[البسيط] تَعْصِي الوُشَاةَ، وكانَ الحُبُّ آوِنَةً مِمَّا يُزَيِّن للمَشْعوفِ مَا صَنَعَا[٥]

---

(١) وهي شاذة، انظر عزوها لهم جميعاً في المحتسب (١/ ٣٣٩)، ومفرقاً في تفسير الطبري (١٦/ ٦٦)، وتفسير الثعلبي (٥/ ٢١٦)، ومعاني القرآن للنحاس (٣/ ٤١٩)، والهداية لمكي (٥/ ٣٥٤٩)، وإتحاف فضلاء البشر (ص: ٣٣١).

(٢) في المطبوع ونجيبويه: «مرتبة».

(٣) أخرجه البخاري (١٩) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٤) انظر عزوه له في الغريب المصنف (٢/ ٤١١)، وتفسير الطبري (١٦/ ٦٧)، وأمالي القالي (١/ ٢٠٥)، وفي التركية والحمزوية: «أتقتلني».

(٥) انظر عزوه له في عيار الشعر (ص: ١١٠)، والموشح في مآخذ العلماء على الشعراء (ص: ٥٦)، وفيهما: «للمشغوف».

وروي عن ثابت البناني وأبي رجاء أنهما قرأا: (قد شعِفها) بكسر العين غير منقوطة[١].

قال أبو حاتم: المعروف فتح العين، وهذا قد قرئ به[٢].

وقرأ ابن محيصن: ﴿قَد شَّغَفَهَا﴾ أدغم الدال في الشين[٣].

وروي أن مقالة هؤلاء النسوة إنما قصدن بها المكر بامرأة العزيز ليُغضبنها حتى تعرض عليهن يوسف ليبين عذرها أو يحق لومها.

وقد قال ابن زيد: الشغف في الحب، والشعف في البغض[٤].

وقال الشعبي: الشغف والمشغوف بالغين منقوطة في الحب، والشعف الجنون، والمشعوف المجنون[٥]، وهذان القولان ضعيفان.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتۡ بِمَكۡرِهِنَّ﴾ الآية، إنما سمي قولهن مكراً من حيث أظهرن إنكار منكرٍ وقصدن إثارة غيظها عليهن، وقيل: مكرهن أنهن أفشين ذلك عنها وقد كانت أطلعتهن على ذلك واستكتمتهن إياه، وهذا لا يكون مكراً إلا بأن يظهرن لها خلاف ذلك ويقصدن بالإفشاء أذاها.

ومعنى ﴿أَرۡسَلَتۡ إِلَيۡهِنَّ﴾ أي: ليحضرن، و(أَعْتَدَتْ) معناه: أعدَّت ويسَّرت.

والمُتَّكَأ: ما يتكأ عليه من فرش ووسائد، وعبر بذلك عن مجلس أعد لكرامة،

---

(١) وهي شاذة، انظر عزوها لأبي رجاء في الشواذ للكرماني (ص: ٢٤٤)، وعزا لثابت الكسر مع الإعجام.

(٢) لم أقف عليه.

(٣) وهي سبعية لأبي عمرو وهشام وحمزة والكسائي، انظر: السبعة (ص: ١١٩)، والتيسير (ص: ٤٢). وانظر: البحر المحيط (٦/ ٢٦٦).

(٤) تفسير الطبري (١٦/ ٦٧)، وفي نجيبويه: «أبو زيد»، وفي المطبوع فيهما: «الشغف»، وسقطت «الشغف في الحب» من نور العثمانية.

(٥) معاني القرآن للنحاس (٣/ ٤٢٠).

ومعلوم أن هذا النوع من الكرامات لا يخلو من الطعام والشراب، فلذلك فسر مجاهد وعكرمة المتكأ بالطعام[١].

قال ابن عباس: ﴿مُتَّكَـًٔا﴾ معناه: مجلساً، ذكره الزهراوي[٢].

وقال القتبي: يقال: اتكأنا عند فلان، أي: أكلنا[٣].

وقوله: ﴿وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾ يقتضي أنه كان في جملة الطعام ما يقطع / بالسكاكين، فقيل: كان لحماً، وكانوا لا ينتهسون اللحم وإنما كانوا يأكلونه حزّاً بالسكاكين، وقيل: كان أُترجّاً، وقيل: كان زماورد، وهو من نحو الأترج موجود في تلك البلاد، وقيل: هو مصنوع من سكر ولوز وأخلاط. [٣/ ٦٥]

وقرأ ابن عباس ومجاهد والجحدري وابن عمر وقتادة والضحاك والكلبي وأبان ابن تغلب: (مُتْكاً) بضم الميم وسكون التاء وتنوين الكاف[٤].

واختلف في معناه، فقيل: هو الأترنج[٥]، وقيل: هو اسم يعم جميع ما يقطع بالسكين من الفواكه كالأترنج والتفاح وغيره، وأنشد الطبري:

[الخفيف] نشربُ الإثـمَ بالصُّـواع جِهـاراً وتـرى المُتـكَ بيننا مُسـتعارا[٦]

---

(١) تفسير الطبري (١٦/ ٧٣)، وتفسير ابن أبي حاتم (٧/ ٢١٣٣).

(٢) أخرجه الطبري (١٩١٦٩) من طريق علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما، وأخرجه ابن أبي حاتم (١١٥٤٣) من طريق بشر بن عمارة، عن أبي روق، عن الضحاك، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) لم أقف على كلام الزهراوي، وانظر قول ابن قتيبة في المعاني الكبير (١/ ٤٥٧)، وغريب القرآن (ص: ٢١٦) كلاهما له.

(٤) وهي قراءة شاذة، انظر: البحر المحيط لأبي حيان (٥/ ٣٠٢) وفيه: «وقرأ ابن عباس، وابن عمر، ومجاهد، وقتادة، والضحاك، والجحدري، والكلبي، وأبان بن تغلب... بضم الميم وسكون التاء وتنوين الكاف، وجاء كذلك عن ابن هرمز».

(٥) في المطبوع ونجيبويه ونور العثمانية وأحمد٣ في الموضعين: «الأترج».

(٦) لم أجده فيه، وهو بلا نسبة في الزاهر في معاني كلمات الناس (٢/ ٢١)، وتهذيب اللغة (١٥/ ١١٧)، وغيرهما.

وقرأ الجمهور: ﴿مُتَّكَـًٔا﴾ بشد التاء المفتوحة والهمز والقصر.

وقرأ الزهري: ﴿متّكاً﴾ مشدد التاء من غير همز، وهي قراءة أبي جعفر بن القعقاع وشيبة بن نصاح[١]، وقرأ الحسن: (متكاء) بالمد على إشباع الحركة[٢].

والسكين تذكَّر وتؤنث، قاله الكسائي والفراء، ولم يعرف الأصمعي إلا التذكير[٣].

وقولها: ﴿ٱخْرُجْ﴾ أمر ليوسف، وأطاعها بحسب الملك، وقال مكي والمهدوي: قيل: إن في الآية تقديماً وتأخيراً في القصص، وذلك أن قصة النسوة كانت قبل فضيحتها في القميص للسيد، وباشتهار الأمر للسيد انقطع ما بينها وبين يوسف[٤].

قال القاضي أبو محمد: وهذا محتمل إلا أنه لا يلزم من ألفاظ الآية، بل يحتمل إن كانت قصة النساء بعد قصة القميص، وذلك أن العزيز كان قليل الغيرة بل قومَه أجمعين[٥]، ألا ترى أن الإنكار في وقت القميص، إنما كان بأن قيل: ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾، وهذا يدل على قلة الغيرة، ثم سكَّن الأمر بأن قال: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾، وأنت اسْتَغْفِرِي، وهي لم تبق حينئذ إلا على إنكارها وإظهار الصحة، فلذلك تُغوفل عنها بعد ذلك، لأن دليل القميص لم يكن قاطعاً وإنما كان أمارة مَّا، هذا إن لم يكن المتكلم طفلاً.

وقوله: ﴿أَكْبَرْنَهُۥ﴾ معناه: أعظمنه واستهولن جماله، هذا قول الجمهور.

---

(١) وهي عشرية لأبي جعفر، انظر: النشر (١/ ٤٥٣)، وانظر: المحتسب (١/ ٣٣٩).

(٢) وهي شاذة، انظر: تفسير الطبري (١٦/ ٧٠)، تفسير الثعلبي (٥/ ٢١٧)، والمحتسب (١/ ٣٣٩).

(٣) انظر أقوال الفراء والأصمعي في الجليس الصالح الكافي (ص: ١٤٣)، وقول الكسائي في مشارق الأنوار (٢/ ٢١٦).

(٤) الهداية لمكي (٥/ ٣٥٥٥)، والتحصيل للمهدوي (٣/ ٤٩٦).

(٥) في المطبوع ونور العثمانية وأحمد٣: «قومُه أجمعون».

وقال عبد الصمد بن علي الهاشمي[١] عن أبيه عن جده: معناه: حضن[٢].

وأنشد بعض الناس حجة لهذا التأويل:

[البسيط] نَأْتِي النِّسَاءَ عَلَى أَطْهَارِهِنَّ وَلا نَأْتِي النِّسَاءَ إِذَا أَكْبَرْنَ إِكْبَارَا[٣]

قال القاضي أبو محمد: وهذا قول ضعيف من معناه منكورٌ، والبيت مصنوع مختلق ـ كذلك قال الطبري وغيره من المحققين[٤] ـ، وليس عبد الصمد من رواة العلم رحمه الله.

وقوله: ﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ أي: كثرن الحز فيها بالسكاكين، وقال عكرمة: الأيدي هنا الأكمام[٥]، وقال مجاهد: هي الجوارح، وقطعنها حتى ألقينها[٦].

قال القاضي أبو محمد: فظاهر هذا أنه بانت الأيدي، وذلك ضعيف من معناه، وذلك أن قطع العظم لا يكون إلا بشدة، ومحال أن يسهوَ أحد عنها، والقطع على المفصل لا يتهيأ إلا بتلطف لا بد أن يقصد، والذي يشبه أنهن حملن على أيديهن الحمل الذي كن يحملنه قبل المتك فكان ذلك حزّاً، وهذا قول الجماعة.

---

(١) هو عبد الصمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب، الأمير أبو محمد الهاشمي، روى عن: أبيه، وكان عظيم الخلق، ضخماً، ذا قعدد في النسب، وكان الرشيد يحترمه ويجله لأنه عم جده المنصور، مات سنة (١٨٥هـ). تاريخ الإسلام (١٢/ ٢٧٠).

(٢) لا يصح عن ابن عباس، أخرجه الطبري (١٩٢٠٨)، وابن أبي حاتم (١١٥٥٢) من طريق عبد الصمد بن علي الهاشمي، عن أبيه، عن جده ـ يعني عبد الله بن عباس ـ به، وعبد الصمد بن علي بن عبد الله بن العباس الهاشمي الأمير قال عنه الذهبي في «ميزان الاعتدال» (٤/ ٣٥٣-٣٥٤): وما عبد الصمد بحجة، ولعل الحفاظ إنما سكتوا عنه مداراة للدولة. اهـ لكن ذكره العقيلي في الضعفاء (٣/ ٨٤) وذكر له حديثاً بهذا الإسناد وقال: غير محفوظ ولا يعرف إلا به. اهـ.

(٣) بلا نسبة في تهذيب اللغة (١٠/ ١٢٠)، وتفسير الطبري (١٦/ ٧٧)، وتفسير الثعلبي (٥/ ٢١٨)، وفي أحمد٣ والمطبوع: «يأتي».

(٤) انظر: تفسير الطبري (١٦/ ٧٧).

(٥) تفسير البحر المحيط (٥/ ٣٠٣).

(٦) انظر قول مجاهد في تفسير الطبري (١٦/ ٧٩)، وقول عكرمة في تفسير القرطبي (٩/ ١٨٠).

وضوعفت الطاء في ﴿وَقَطَّعْنَ﴾ لكثرتهن وكثرة الحز فربما كان مراراً.

وقرأ أبو عمرو وحده: ﴿حاشى لله﴾[(١)]، وقرأ أُبيٌّ وابن مسعود: (حاشى الله)[(٢)].

وقرأ سائر السبعة: ﴿حَٰشَ لِلَّهِ﴾.

وفرقة: (حشى لله)[(٣)]، وهي لغة، وقرأ الحسن: (حاشْ لله) بسكون الشين وهي ضعيفة.

وقرأ الحسن أيضاً: (حاش الإلاه) محذوفاً من «حاشى»[(٤)].

فأما «حاش» فهي حيث جرَّت حرفٌ معناه الاستثناء، كذا قال سيبويه، وقد ينصب به، تقول: حاشى زيدٍ وحاشى زيداً، قال المبرد: النصب أولى إذ قد صح أنها فعل بقولهم: حاش لزيد، والحرف لا يحذف منه[(٥)].

قال القاضي أبو محمد: يظهر من مجموع كلام سيبويه والمبرد أن الحرف يخفض به لا غير، وأن الفعل هو الذي ينصب به، فهذه اللفظة تستعمل فعلاً وحرفاً، وهي في بعض المواضع فعل وزنه فاعَل، وذلك في قراءة من قرأ: «حاشى لله» معناه مأخوذ من معنى الحرف، وهو إزالة الشيء عن معنى مقرون به، وهذا الفعل مأخوذ من الحشى، أي: هذا في حشى وهذا في حشى، ومن ذلك قول الشاعر:

يقولُ الَّذِي أَمْسَى إِلَى الحَزْنِ أَهْلُهُ   بأَيِّ الحَشَى أَمْسَى الخليطُ المُبَاينُ[(٦)] [الطويل]

---

(١) في الوصل فإذا وقف حذفها اتباعاً للخط، وهي سبعية، انظر: التيسير (ص: ١٢٨).

(٢) وهي قراءة شاذة، انظر: مختصر الشواذ (ص: ٦٨)، والمحتسب (١/ ٣٤١).

(٣) وهي شاذة، عزاها الزمخشري في الكشاف (٢/ ٤٦٥) للأعمش.

(٤) وكلاهما شاذة، انظر: المحتسب (١/ ٣٤١).

(٥) انظر: المقتضب (٤/ ٣٩١)، والكتاب لسيبويه (٢/ ٣٠٩).

(٦) البيت لمعطل الهذلي كما في إيضاح الشواهد (١/ ٤٦٦)، وهو للهذلي غير مسمى في جمهرة اللغة (٢/ ١٠٤٩)، والحجة للفارسي (٤/ ٤٢٣)، وفيهما «إلى الحرز»، وفي نور العثمانية وأحمد٣: «يمشي»، بدل «أمسى» الأولى.

ومنه الحاشية كأنها مباينة لسائر ما هي له، ومن المواضع التي حاشى فيه فعل هذه الآية، يدل على ذلك دخولها على حرف الجر، والحروف لا تدخل بعضها على بعض، ويدل على ذلك حذف الياء منها في قراءة الباقين: ﴿حَٰشَ﴾ على نحو حذفهم من: لا أبال، ولا أدر، ولو تَـرَ، ولا يجوز الحذف من الحروف إلا إذا كان فيها تضعيف مثل: لعل، فيحذف، ويرجع علَّ، ويعترض في هذا الشرط بمنذ ومذ فإنه حذف دون تضعيف فتأمله.

قال القاضي أبو محمد: ومن ذلك في حديث خالد يوم مؤتة: فحاشى بالناس[١].

فمعنى ﴿حَٰشَ لِلَّهِ﴾ أي: حاش يوسف لطاعة الله، أو لمكان من الله، أو لترفيع الله له أن يُرمى بما رميته به، أو يدعى إلى مثله لأن تلك أفعال البشر، وهو ليس منهم إنما هو ملك، هكذا رتب أبو علي الفارسي معنى هذا الكلام على هاتين القراءتين اللتين في السبع[٢].

وأما قراءة أبي بن كعب وابن مسعود، فعلى أن (حاشى) حرف استثناء كما قال الشاعر:

[السريع]

حَـاشَـى أَبِـي ثَـوْبَـانَ إِنَّ بِهِ ضِنّـاً عَـنِ المَلْحَـاةِ وَالشَّـتْمِ[٣]

وتسكين الشين في إحدى قراءتي الحسن ضعيف، جمع بين ساكنين، وقراءته الثانية محذوفة الألف من (حاشى).

قال القاضي أبو محمد: والتشبيه بالملَك هو من قبيل التشبيه بالمستعظمات وإن كانت لا ترى.

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٣٨٠).

(٢) انظر: الحجة لأبي علي الفارسي (٤/ ٤٢٣).

(٣) البيت للجميح الأَسدي وَهُوَ منقذ بن الطماح، كما في الأصمعيات (ص: ٢١٨)، والمفضليات (ص: ٣٦٧)، وروايته: حاشى أبا ثوبان إن أبا... ثوبان ليس ببكمة فدم، عمرو بن عبد الله إن به إلخ، ونسبه في اللسان (١٤/ ١٨٢) لسبرة بن عمرو الأسدي.

وقرأ أبو الحويرث الحنفي[١] والحسن: (ما هذا بشر إن هذا إلا مَلِك كريم) بكسر اللام في (ملك)[٢]، وعلى هذه القراءة فالكلام فصيح، لما استعظمن حسن صورته قلن: ما هذا مما يصلح أن يكون عبداً بشراء[٣]، إن هذا إلا مما يصلح أن يكون مَلِكاً كريماً.

ونصبُ البشر من قوله: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ هو على لغة الحجاز شبهت «ما» بـ«ليس»، وأما تميم فترفع، ولم يُقرأ به.

وروي أن يوسف عليه السلام أعطي ثلث الحسن[٤]، وعن النبي ﷺ: أنه أعطي ثلث الحسن[٥]، ففي بعض الأسانيد هو وأمه[٦]، وفي بعضها هو وسارة جدة أبيه[٧].

قال القاضي أبو محمد: وهذا على جهة التمثيل، أي: لو كان الحسن مما/ يقسم [٣/ ٦٦] لكان حسن يوسف يقع في نصفه، فالقصد أن يقع في نفس السامع عظم حسنه، على نحو التشبيه برؤوس الشياطين وأنياب الأغوال.

---

(١) هو عبد الرحمن بن معاوية أبو الحويرث الزرقي المدني، روى عن حنظلة بن قيس، ومحمد بن جبير بن مطعم وأخيه نافع، وعنه سفيان وشعبة، قال مالك: ليس بثقة، وقال ابن معين: لا يحتج به، وقال غيره: لين، توفي سنة (١٣٠هـ). تاريخ الإسلام (٨/ ١٦٤).

(٢) وهي شاذة، وظاهره أنهما خالفا في اللام، ولعل فيه سقطاً، فالذي في الشواذ للكرماني (ص: ٢٤٦)، أنهما قرأا: (بِشِرىً)، ومثله في البحر المحيط (٦/ ٢٧١)، إلا أنه زاد معهما عبد الوارث عن أبي عمرو، وأنه كسر اللام، وانظر: الكامل للهذلي (ص: ٥٥١)، وفي أحمد٣: «بشرى».

(٣) في التركية: «عبداً بشرا».

(٤) أخرجه الطبري (١٩٢٢٩) بإسناد ضعيف عن الحسن البصري، مرسلاً.

(٥) أخرجه مسلم (١٦٢) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه في حديث الإسراء الطويل.

(٦) صحيح، أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (١٧٧٦٦-٣٢٤٥٦)، وأحمد في مسنده (٣/ ٢٨٦ رقم ١٤٠٥٠)، وأبو يعلى في مسنده (٣٣٧٣)، والطبري (١٩٢٢٨)، وابن أبي حاتم (١١٥٥٩)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٦٢٢) من طريق عفان عن حماد بن سلمة عن ثابت، عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٧) أخرجه الطبري (١٩٢٣٢) بإسناده عن ربيعة الجرشي، قال: قسم الحسن نصفين، فجعل ليوسف وسارة النصف، وجعل لسائر الخلق نصف.

قوله عز وجل: ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾﴾.

قال الطبري: المعنى: فهذا الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ، أي: هذا الذي قطعتن أيديكن بسببه هو الذي جعلتُنَّني ضالةً في هواه[1].

والضمير عائد على يوسف في ﴿فِيهِ﴾، ويجوز أن تكون الإشارة إلى حب يوسف، والضمير عائد على الحب، فيكون ذلك إشارة إلى غائب على بابه.

ثم أقرت امرأة العزيز للنسوة بالمراودة واستنامت إليهن في ذلك إذ قد علمت أنهن قد عذرنها.

و(استعصم) معناه: طلب العصمة وتمسك بها وعصاني، ثم جعلت تتوعده وهو يسمع بقولها: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ﴾ إلى آخر الآية.

واللام في قوله: ﴿لَيُسْجَنَنَّ﴾ لام القسم، واللام الأولى هي المؤذنة بمجيء القسم، والنون هي الثقيلة والوقف عليها بشدها[2]، ﴿وَلَيَكُونًا﴾ نونه هي النون الخفيفة، والوقف عليه بالألف[3]، وهي مثل قوله: ﴿لَنَسْفَعًا﴾ [العلق: ١٥] ومثلها قول الأعشى:

[الطويل] وَصَلِّ عَلَى حَينِ العَشِيَّاتِ والضُّحَى ... وَلا تَعْبُـدِ الشَّـيْطَانَ وَاللهَ فَاعْبُـدَا[4]

أراد: فاعبدن.

---

(١) تفسير الطبري (١٥/ ٨٥) بتصرف.

(٢) انظر: تفسير الثعلبي (٥/ ٢١٩).

(٣) انظر: نقط المصاحف للداني (١/ ٦٦).

(٤) انظر عزوه له في تفسير الطبري (١٦/ ٨٧)، والعين (٣/ ١٥٢)، والكتاب لسيبويه (٣/ ٥١٠)، وسيرة ابن هشام (١/ ٣٨٧).

وقرأت فرقة: (وليكوننَّ) بالنون الشديدة[١].

و﴿ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ الأذلاء الذين لحقهم الصغار.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ﴾، روي أنه لما توعدته امرأة العزيز قال له النسوة: أطع مولاتك، وافعل ما أمرتك به. فلذلك قال: ﴿مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ﴾ قال نحوه الحسن[٢].

ووزن (يدعون) في هذه الآية: يفعلن، بخلاف قولك: الرجال يدعون.

وقرأ الجمهور: ﴿ٱلسِّجۡنُ﴾ بكسر السين، وهو الاسم، وقرأ الزهري وابن هرمز ويعقوب وابن أبي إسحاق: ﴿السَّجنُ﴾ بفتح السين وهي قراءة عثمان رضي الله عنه[٣] وطارق مولاه[٤]، وهو المصدر، وهو كقولك: الجزع والجزع[٥].

وقوله: ﴿وَإِلَّا تَصۡرِفۡ﴾ إلى آخر الآية، استسلام لله تعالى ورغبة إليه وتوكل عليه، المعنى: وإن لم تنجني أنت هلكت، هذا مقتضى قرينة كلامه وحاله، والضمير في ﴿إِلَيۡهِ﴾عائد على الفاحشة المعنية بـ(ما) في قوله ﴿مِمَّا﴾.

و﴿أَصۡبُ﴾ مأخوذة من الصبوة، وهي أفعال الصِّبا، ومن ذلك قول الشاعر، أنشده الطبري:

إِلَـــى هِـــنْـــدٍ صَـبَـا قَـلْـبِـي وَهِــنْــدٌ مِـثْـلُـهَـا يُـصْـبِـي[٦] [مجزوء الوافر]

---

(١) وهي شاذة، أشار لها الزجاج في معاني القرآن وإعرابه (٣/ ١٠٨)، قال: وأكرهها لخلاف المصحف.

(٢) انظر: تفسير ابن أبي زمنين (١/ ٣٠٤).

(٣) وهي عشرية ليعقوب كما في النشر (٢/ ٣٣٢)، وانظر: الهداية لمكي (٥/ ٣٥٥٦).

(٤) هو طارق بن عمرو مولى عثمان بن عفان، ولاه عبد الملك بن مروان على المدينة سنة (٧٢ هـ) خمسة أشهر ثم اشترك مع الحجاج في قتال ابن الزبير، انظر ترجمته في تاريخ دمشق لابن عساكر (٢٤/ ٤٣٠)، وما بعدها، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال (١٣/ ٣٤٨).

(٥) في المطبوع وأحمد٣: «الجدع والجدع».

(٦) تفسير الطبري (١٦/ ٨٩)، والبيت ليزيد بن ضبّة، كما في الأغاني (٧/ ١١٤)، وتفسير الثعلبي (٥/ ٢٢٠).

ومن ذلك قول دريد بن الصمة:

[الطويل] صَبا مَا صَبا حتَّى عَلا الشيبُ رأسَهُ فلمَّا علاهُ قالَ للباطلِ ابْعَدِ[1]

والْجاهِلِونَ هم الذين لا يراعون حدود الله تعالى ونواهيه.

وقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ الآية، قول يوسف عليه السلام: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ﴾ إلى قوله: ﴿مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ كلام يتضمن التشكي إلى الله عز وجل من حاله معهن، والدعاء إليه في كشف بلواه. فلذلك قال ـ بعد مقالة يوسف ـ ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ أي: أجابه إلى إرادته وصرف عنه كيدهن في أنْ حال بينه وبين المعصية.

وقوله: ﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ صفتان لائقتان بقوله: ﴿فَٱسْتَجَابَ﴾.

قوله عز وجل: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْـَٔاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾﴾.

لما أبى يوسف المعصية، ويئست منه امرأة العزيز، طالبته بأن قالت لزوجها: إن هذا الغلام العبراني قد فضحني في الناس، وهو يعتذر إليهم ويصف الأمر بحسب اختياره، وأنا محبوسة محجوبة، فإمَّا أذنت لي فخرجت إلى الناس فاعتذرت وكذَّبته، وإمَّا حبسته كما أنا محبوسة. فحينئذ بدا لهم سَجنه، قال ابن عباس: فأمر به فحمل على حمار، وضرب بالطبل ونودي عليه في أسواق مصر إن يوسف العبراني أراد سيدته فهذا جزاؤه أن يسجن، قال أبو صالح: «ما ذكر ابن عباس هذا الحديث إلا بكى»[2].

و﴿بَدَا﴾ معناه: ظهر، والفاعل بـ﴿بَدَا﴾ محذوف تقديره: بدوٌ أو رأيٌ.

---

(١) البيت لدريد بن الصمة، كما في الأصمعيات (ص: ١٠٨)، وجمهرة أشعار العرب (ص: ٤٧٤)، والشعر والشعراء (٢/ ٧٣٩).

(٢) لم أقف عليه مسنداً، ومثله في البحر المحيط (٦/ ٢٧٤).

وجمع الضمير في ﴿لَهُم﴾ ـ والساجن الملك وحده ـ من حيث كان في الأمر تشاور.

و﴿لَيَسْجُنُنَّهُۥ﴾ جملة دخلت عليها لام القسم، ولا يجوز أن يكون الفاعل بـ﴿بَدَا﴾ ﴿لَيَسْجُنُنَّهُۥ﴾ لأن الفاعل لا يكون جملة بوجه، هذا صريح مذهب سيبويه(١).

وقيل: الفاعل ﴿لَيَسْجُنُنَّهُۥ﴾ وهو خطأ، وإنما هو مفسِّر للفاعل.

و﴿ٱلْأَيَٰتِ﴾ ذكر فيها أهل التفسير أنها: قد القميص، قاله مجاهد وغيره(٢)، وخمش الوجه الذي كان مع قد القميص، قاله عكرمة(٣)، وحز النساء أيديهن، قاله السدي(٤).

قال القاضي أبو محمد: ومقصد الكلام إنما هو أنهم رأوا سجنه بعد بدو الآيات المبرئة له من التهمة، فهكذا يبين ظلمهم له، وخمشُ الوجه وحز النساء أيديهن ليس فيهما تبرية ليوسف، ولا تتصور تبرية إلا في خبر القميص، فإن كان المتكلم طفلاً ـ على ما روي ـ فهي آية عظيمة، وإن كان رجلاً فهي آية فيها استدلالٌ مّا، والعادة أنه لا يعبر بآية إلا فيما ظهوره في غاية الوضوح، وقد تقع الْآيات أيضاً على المبينات كانت في أي حد اتفق من الوضوح.

ويحتمل أن يكون معنى قوله: ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْأَيَٰتِ﴾ أي: من بعد ما ظهر لهم من وجوه الأمر وقرائنه أن يوسف بريء، فلم يُرَدْ تعيين آية بل قرائن جميع القصة.

والحين في كلام العرب وفي هذه الآية: الوقت من الزمن غير محدود يقع للقليل والكثير، وذلك بيّن من موارده في القرآن.

وقال عكرمة: الحين هنا يراد به سبعة أعوام، وقيل: بل يراد بذلك سنة(٥).

---

(١) نقله عنه في المحتسب (١/ ١١٢).

(٢) تفسير الطبري (١٦/ ٩٢)، وتفسير ابن أبي زمنين (١/ ٣٠٤).

(٣) تفسير الطبري (١٦/ ٩١)، وتفسير ابن أبي حاتم (٧/ ٢١٣٩).

(٤) تفسير الطبري (١٦/ ٩٢)، وتفسير ابن أبي حاتم (٧/ ٢١٣٩).

(٥) تفسير الطبري (١٦/ ٩٤)، و(١٦/ ٥٧٩).

قال القاضي أبو محمد: وهذا بحسب ما كشف الغيب في سجن يوسف.

وسمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه رجلاً يقرأ: (عتى حين) بالعين[١] ـ وهي لغة هذيل ـ فقال له: من أقرأك؟ قال: ابن مسعود، فكتب عمر إلى ابن مسعود: إن الله أنزل القرآن عربيّاً بلغة قريش، فبها أقرئ الناس، ولا تقرئهم بلغة هذيل[٢] / . [٣/ ٦٧]

وروي عن ابن عباس أنه قال: عثر يوسف عليه السلام ثلاث عثرات: هَمَّ فسجن، وقال: ﴿ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٤٢]، ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾، فطُوِّل سجنُه، وقال: ﴿إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾ [يوسف: ٧٠]، فروجع: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾ [يوسف: ٧٧][٣].

وقوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ﴾ الآية، المعنى: فسجنوه فدخل معه السجن غلامان سُجنا أيضاً.

وهذه (مَعَ) تحتمل أن تكون باقتران وقت الدخول، وأن لا تكون بل دخلوا أفذاذاً.

وروي أنهما كانا للملك الأعظم الوليد بن الريان: أحدهما خبازه، والآخر ساقيه[٤].

والفتى: الشاب، وقد تقع اللفظة على المملوك وعلى الخادم الحر، ويحتمل أن يتصف هذان بجميع ذلك، واللفظة من ذوات الياء، وقولهم: الفتوة، شاذ.

---

(١) وهي شاذة، انظر: المحتسب (١/ ٣٤٣)، ومختصر الشواذ (ص: ٦٨).

(٢) ضعيف، أخرجه الخطيب البغدادي في تاريخه (٤/ ٦٤١) من طريق هشيم، عن رجل من ولد كعب يقال له: عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن بن كعب عن أبيه عن جده به، وإسناده ضعيف؛ من أجل هشيم بن بشير فإنه مدلس، وقد عنعن، ولجهالة عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن بن كعب، وأخرجه ابن الأنباري في الوقف والابتداء (ص ١٣) من طريق هشيم، عن عبد الله بن عبد الرحمن بن كعب بن مالك به بنحوه.

(٣) لا يصح، أخرجه الطبري (١٩٢٦٣)، وابن أبي حاتم (١١٥٨٧)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٣٧٧) من طريق خصيف بن عبد الرحمن، عن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنهما به، وخصيف لا يحتج به.

(٤) تفسير الثعلبي (٥/ ٢٢١).

وروي: أن الملك اتهمهما بأن الخابز منهما أراد سمَّه، ووافقه على ذلك الساقي، فسجنهما، قاله السدي[١].

فلما دخل يوسف السجن استمال الناس فيه بحسن حديثه وفضله ونبله، وكان يسلي حزينهم[٢]، ويعود مريضهم، ويسأل لفقيرهم، ويندبهم إلى الخير، فأحبَّه الفَتيان ولزماه، وأحبه صاحب السجن والقيم عليه، وقال له: كن في أي البيوت شئت، فقال له يوسف: لا تحبني يرحمك الله، فلقد أدخلت علي المحبة مَضَرَّات: أحبتني عمتي فامتحنْتُ لمحبتها، وأحبني أبي فامتحنت لمحبته لي، وأحبتني امرأة العزيز فامتحنت لمحبتها بما ترى[٣].

وكان يوسف عليه السلام قد قال لأهل السجن: إني أَعْبُـرُ الرؤيا وأجيد، فروي عن ابن مسعود أن الفتيين استعملا هاتين المنامتين ليجرباه[٤]، وروي عن مجاهد: «أنهما رأيا ذلك حقيقة، فأرادا سؤاله، فقال أحدهما ـ واسمه نبو، فيما روي ـ: إني رأيت حَبْلة من كَرْم لها ثلاثة أغصان حسان، فيها عناقيد عنب حسانٌ، فكنت أعصرها وأسقي الملك، وقال الآخر، واسمه محلت[٥]: كنت أرى أني أخرج من مطبخة الملك وعلى رأسي ثلاث سلال فيها خبز، والطير تأكل من أعلاه[٦].

وقوله: ﴿أَعۡصِرُ خَمۡرًا﴾ قيل: إنه سمى العنب خمراً بالمآل، وقيل: هي لغة أَزْدِ عُمَان، يسمون العنب خمراً، وقال الأصمعي: حدثني المعتمر، قال: لقيت أعرابيّاً يحمل عنباً في وعاء، فقلت: ما تحمل؟ قال: خمراً، أراد العنب[٧].

---

(١) تفسير الطبري (١٦/ ٩٥)، وتفسير ابن أبي حاتم (٧/ ٢١٤١)، بتصرف.

(٢) في نجيبويه: «حديثهم».

(٣) هذا رواه ابن إسحاق عن عبد الله بن أبي نجيح، عن مجاهد من قوله. تفسير الطبري (١٦/ ٩٦).

(٤) أخرجه الطبري (١٩٢٧٠)، وابن أبي حاتم (١١٦٣٢) من طريق عمارة بن القعقاع، عن إبراهيم، عنه رضي الله عنه، وإسناده جيد.

(٥) في المطبوع ونجيبويه: «مجلث»، وفي أحمد٣: «محلب».

(٦) تفسير الماوردي (٣/ ٣٦)، وتفسير ابن أبي حاتم (٧/ ٢١٤٢)، بتصرف.

(٧) تفسير الثعلبي (٥/ ٢٢٢).

وفي قراءة أبي بن كعب وعبد الله بن مسعود: (إني أراني أعصر عنباً)[١].

قال القاضي أبو محمد: ويجوز أن يكون وصف الخمر بأنها معصورة، إذ العصر لها ومن أجلها.

وقوله: ﴿خُبْزًا﴾ يروى أنه رأى ثريداً فوق رأسه.

وفي مصحف ابن مسعود: (فوق رأسي ثريداً تأكل الطير منه)[٢].

وقوله: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ قال الجمهور[٣]: يريدان: في العلم.

وقال الضحاك وقتادة: المعنى: مِنَ الْمُحْسِنِينَ في جريه مع أهل السجن وإجماله معهم[٤].

وقيل: «إنه أراد إخباره أنهما يريان[٥] له إحساناً عليهما ويداً إذا تأول لهما ما رأياه»، ونحا إليه ابن إسحاق[٦].

قوله عز وجل: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾﴾.

روي عن السدي وابن إسحاق: أن يوسف عليه السلام لما علم شدة تعبير منامة رائي الخبز وأنها تؤذن بقتله، ذهب[٧] إلى غير ذلك من الحديث، عسى ألا يطالباه بالتعبير، فقال لهما ـ مُعْلِماً بعظيم علمه للتعبير ـ: إنه لا يجيئكما طعام في نومكما،

---

(١) وهي شاذة، انظرها في المحتسب (١/ ٣٤٣).

(٢) وهي شاذة، بل أقرب للتفسير، تابعه عليها في البحر المحيط (٦/ ٢٧٦).

(٣) زاد هنا في الأصل ونجيبويه: «قيل».

(٤) تفسير الطبري (١٦/ ٩٩)، وتفسير ابن أبي حاتم (٧/ ٢١٤٣)، بتصرف.

(٥) انظر: البحر المحيط (٦/ ٢٧٦).

(٦) تفسير الطبري (١٦/ ٩٩)، تفسير الماوردي (٣/ ٣٧).

(٧) في الأصل: «ذكر».

ترِيان أنكما رزقتماه، إلا أعلمتكما بتأويل ذلك الطعام[١]، أي: بما يؤول إليه أمره في اليقظة، قبل أن يظهر ذلك التأويل الذي أُعْلمكما به.

فروي أنهما قالا: ومن أين لك ما تدعيه من العلم، وأنت لست بكاهن ولا منجم؟ فقال لهما: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ﴾ ثم نهض يُنحِي لهما على الكفر ويُحسِّن لهما الإيمان بالله، فروي أنه قصد في ذلك وجهين:

أحدهما: تنسيتهما أمر تعبير ما سألا عنه، إذ في ذلك النذارة بقتل أحدهما.

والآخر: الطماعية في إيمانهما، ليأخذ المقتولُ بحظه من الإيمان وتسلَمَ له آخرته.

وقال ابن جريج: «أراد يوسف عليه السلام: ﴿لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ﴾ في اليقظة ﴿تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا﴾ منه بعلم وبما يؤول إليه أمركما ﴿قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَا﴾ ذلك المآل»[٢].

قال القاضي أبو محمد: فعلى هذا إنما أعلمهم بأنه يعلم مغيَّباتٍ لا تعلق لها برؤيا، وقصد بذلك أحد الوجهين المتقدمين، وهذا على ما روي من أنه نبيء في السجن، فإخباره كإخبار عيسى عليه السلام.

وقال ابن جريج: «كانت عادة ذلك الملك إذا أراد قتل أحد ممن في سجنه بعث إليه طعاماً يجعله علامة لقتله».

قال القاضي أبو محمد: وهذا كله لا يقتضيه اللفظ ولا ينهض به إسناد.

وقوله: ﴿تَرَكۡتُ﴾ مع أنه لم يتشبث بها، جائزٌ صحيح، وذلك أنه أخبر عن تجنُّبه من أول بالترك، وساق لفظة الترك استجلاباً لهما عسى أن يتركا[٣] الترك الحقيقيَّ الذي هو بعد أخذ في الشيء، والقوم المتروكةُ مِلَّتُهم: الملك وأتباعه.

---

(١) تفسير الطبري (١٦/ ١٠١)، وتفسير الماوردي (٣/ ٣٧)، بتصرف

(٢) انظر قول ابن جريج هذا، وكذا قوله الآتي في تفسير الطبري (١٦/ ١٠٢)، وتفسير الماوردي (٣/ ٣٧).

(٣) في المطبوع: «يتوكأ».

وكرر قوله: ﴿هُمْ﴾ على جهة التأكيد، وحسُن ذلك للفاصلة التي بينهما.

وقوله: ﴿وَٱتَّبَعْتُ﴾ الآية، تمادٍ من يوسف عليه السلام في دعائهما إلى الملة الحنيفية، وزوال عن مواجهة «محلت» لما تقتضيه رؤياه.

وقرأ ﴿ءَابَآءِىٓ﴾ بالإسكان في الياء الأشهب العقيلي وأبو عمرو، وقرأ الجمهور ﴿ءَابَاءِيَ﴾ بياء مفتوحة[(١)]، قال أبو حاتم: هما حسَنتان فاقرأ كيف شئت، وأما طرح الهمزة فلا يجوز، ولكن تخفيفُها جيدٌ، فتصير ياءً مكسورة بعدها ياءٌ ساكنة أو مفتوحة.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ملتهم وشرعهم، وكون ذلك فضلاً عليهم بيِّن، إذ خصهم الله تعالى بذلك وجعلهم أنبياء. وكونه فضلاً على الناس هو إذ يُدْعَون به إلى الدين ويساقون إلى النجاة من عذاب الله عز وجل.

وقوله: ﴿مِن شَىْءٍ﴾ هي «مِن» الزائدة المؤكدة التي تكون مع الجحد.

وقوله: ﴿لَا يَشْكُرُونَ﴾ يريد: الشكر التام الذي فيه الإيمان [بالله تعالى][(٢)].

قوله عز وجل: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى / فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾﴾. [٣/ ٦٨]

وصفُه لهما بصاحِبَي السِّجنِ هو: إما على أنْ نَسبَهما بصحبتهما للسجن من

(١) فهما سبعيتان، لكنه خلَّط، فالتسكين للكوفيين، وأما أبو عمرو ففتح على قاعدته فيما همزه مكسور، انظر: التيسير (ص: ١٣١).

(٢) من الحمزوية وأحمد٣ ونجيبويه.

حيث سكناه، كما قال: ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٤٤]، [الحشر: ٢٠]، و﴿أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ [البقرة: ١١٩]، ونحو هذا.

وإما أن يريد صحبتهما له في السجن، فأضافهما إلى السجن بذلك، كأنه قال: يا صاحبيّ في السجن، وهذا كما قيل في الكفار: إن الأصنام شركاؤهم.

وعرضُه عليهما بُطولَ[1] أمرِ الأوثان، بأنْ وصفها بالتفرق، ووصف الله تعالى بالوحدة والقهر، تلطفٌ حسَنٌ، وأخذ بيسير الحجة قبل كثيرها الذي ربما نفرت منه طباع الجاهل وعاندته، وهكذا الوجه في محاجة الجهلة أن يؤخذ بدرجة يسيرة من الاحتجاج يقبلها، فإذا قبلها لزمته عنها درجة أخرى فوقها، ثم كذلك أبداً حتى يصل إلى الحق، وإن أُخذ الجاهل بجميع المذهب الذي يُساق إليه دفعة أباه للحين وعانده، ولقد ابتلي بأرباب متفرقين مَن يخدم أبناء الدنيا ويؤملهم.

وقوله: ﴿إِلَّآ أَسۡمَآءً﴾ ذهب بعض المتكلمين إلى أنه أوقع في هذه الآية الأسماء على المسميات وعبر عنها بها إذ هي ذوات أسماء[2].

قال القاضي أبو محمد: والاسم الذي هو ألف وسين وميم قد يجري في اللغة مجرى النفس والذات والعين، فإن حملت الآية على ذلك صح المعنى، وليس الاسم ـ على هذا ـ بمنزلة التسمية التي هي رجل وحجر.

وإن أريد بهذه الأسماء التي في الآية أسماء الأصنام التي هي بمنزلة اللات والعزى ونحو ذلك من تسميتها آلهة:

فيحتمل أن يريد: إلا ذوات أسماء، وحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه.

ويحتمل ـ وهو الراجح المختار إن شاء الله ـ أن يريد: ما تعبدون من دونه ألوهية ولا لكم تعلق بإله إلا بحسب أن سميتم أصنامكم آلهة، فليست عبادتكم لإله إلا باسم

---

(١) أي: بطلان.

(٢) ممن قال بهذا القول من المتكلمين القاضي الباقلاني، في الإنصاف (١/ ١٩).

فقط لا بالحقيقة، وأما الحقيقة فهي وسائر الحجارة والخشب سواء، فإنما تعلقت عبادتكم بحسب الاسم الذي وضعتم، فذلك هو معبودكم إذا حصل أمركم، فعبر عن هذا المعنى باللفظ المسرود في الآية، ومن هذه الآية[١] وهمَ من قال في قولنا «رجل وحجر»: إن الاسم هو المسمى في كل حال، وقد بانت هذه المسألة في صدر التعليق[٢].

ومفعول (سميتم) الثاني محذوف، تقديره: آلهة، هذا على أن الأسماء يراد بها ذوات الأصنام، وأما على المعنى المختار من أن عبادتهم إنما هي لمعان تعطيها الأسماء وليست موجودة في الأصنام، فقوله: ﴿سَمَّيْتُمُوهَآ﴾ بمنزلة: وضعتموها، فالضمير للتسميات[٣]، ووكد الضمير ليعطف عليه.

والسُّلْطان: الحجة، وقوله: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ أي: ليس لأصنامكم التي سميتموها آلهة من الحكم والأقدار والأرزاق شيء، أي: فما بالها إذن؟، ويحتمل أن يريد الرد على حكمهم في نصبهم آلهة دون الله تعالى وليس لهم تعدي أمر الله في أن لا يعبد غيره.

و﴿ٱلْقَيِّمُ﴾ معناه: المستقيم.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لجهالتهم وغلبة الكفر.

ثم نادى: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ﴾ ثانيةً لتجتمع أنفسهما لسماع الجواب، فروي أنه قال لنبُو: أما أنت فتعود إلى مرتبتك وسقاية ربك، وقال لمَحْلت: أما أنت فتصلب، وذلك كله بعد ثلاث، فروي أنهما قالا له: ما رأينا شيئاً وإنما تحالمنا لنجربك، وروي أنه لم يقل ذلك إلا الذي حدثه بالصلب، وقيل: كانا رأيا ثم أنكرا.

وقرأت فرقة: ﴿فَيَسْقِي رَبَّهُۥ﴾ من سقى، وقرأت فرقة: (يُسْقِي) من أَسْقى. وهما لمعنًى واحد لغتان.

---

(١) في نجيبويه: «اللفظة».

(٢) يعني أنه تقدم الكلام عليها في أول الكتاب في تفسير البسملة، وللتوسع انظر: الإنصاف للباقلاني (١/ ١٩)، والملل والنحل لابن حزم (٥/ ١٩)، وشرح المقاصد للتفتازاني (٢/ ١٦٩).

(٣) في المصرية ونور العثمانية: «للمسميات».

وقرأ عكرمة والجحدري: (فيُسْقَى ربُّه خمراً)، بضم الياء وفتح القاف، أي: ما يرويه[1].

وأخبرهما يوسف عليه السلام عن غيبٍ علِمه من قبَل الله تعالى: إن الأمر قد قضي ووافق القدر.

وقوله: ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ﴾ الآية: الظن هاهنا بمعنى اليقين، لأن ما تقدم من قوله: ﴿قُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾ يلزم ذلك، وهو يقين فيما لم يخرج بعد إلى الوجود.

وقال قتادة: «الظن هنا على بابه لأن عبارة الرؤيا ظن»[2].

قال القاضي أبو محمد: وقول يوسف عليه السلام: ﴿قُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾ دال على وحي، ولا يترتب قول قتادة إلا بأن يكون معنى قوله: ﴿قُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾ أي: قضي كلامي وقلت ما عندي وتم، والله أعلم بما يكون بعد.

وفي الآية تأويل آخر، وهو: أن يكون ﴿ظَنَّ﴾ مسنداً إلى الذي قيل له: إنه يسقي ربه خمراً، لأنه دخلته أبهة السرور بما بشر به وصار في رتبة من يؤمل حين ظن وغلب على معتقده أنه ناج، وذلك بخلاف ما نزل بالآخر المعرف بالصلب.

ومعنى الآية: قال يوسف لساقي الملك حين علم أنه سيعود إلى حالته الأولى مع الملك:

﴿ٱذْكُرْنِى﴾ عند الملك، فيحتمل أن يريد أن يذكره بعلمه ومكانته، ويحتمل أن يذكره بمظلمته وما امتحن به بغير حق، أو يذكره بهما.

والضمير في ﴿فَأَنسَىٰهُ﴾ قيل: هو عائد على يوسف عليه السلام، أي: نسي في ذلك الوقت أن يشتكي إلى الله، وجنح إلى الاعتصام بمخلوق، فروي أن جبريل عليه

---

(١) وهي شاذة، انظر عزوها لهما في المحتسب (١/ ٣٤٤)، والأولى هي المتواترة، والثانية لم أجدها إلا في البحر المحيط (٦/ ٢٧٩). ولعل الصواب: «رِيُّه» بدلالة قوله: «ما يرويه». وانظر: روح المعاني (٦/ ٦٣٤).

(٢) تفسير الطبري (١٦/ ١١٠)، تفسير الماوردي (٣/ ٣٩)، تفسير الثعلبي (٥/ ٢٢٥).

السلام جاءه فعاتبه عن الله عز وجل في ذلك، وطوّل سجنه عقوبة على ذلك، وقيل: أوحي إليه: يا يوسف، اتخذت من دوني وكيلاً، لأطيلن حبسك.

وقيل: إن الضمير في (أنساه) عائد على الساقي، قاله ابن إسحاق[١]، أي: نسي ذكر يوسف عند ربه، فأضاف الذكر إلى ربه إذ هو عنده، والرب على هذا التأويل الملك.

والبِضْع في كلام العرب اختلف فيه، فالأكثر على أنه من الثلاثة إلى العشرة، قاله ابن عباس[٢]، وعلى هذا هو فقه مذهب مالك رحمه الله في الدعاوى والأيمان[٣].

وقال أبو عبيدة: «البضع لا يبلغ العقد ولا نصف العقد، وإنما هو من الواحد إلى الأربعة»[٤].

وقال الأخفش: «البضع من الواحد إلى العشرة»[٥].

وقال قتادة: «البضع من الثلاثة إلى التسعة»[٦].

ويقوي هذا ما روي من أن النبي ﷺ قال لأبي بكر الصديق في قصة خَطَره مع قريش في غلبة الروم لفارس: «أما علمت أن البضع من الثلاث إلى التسع»[٧].

---

(١) تفسير الطبري (١٦/ ١١٣).

(٢) منقطع، أخرجه الطبري (١٩٣٢٩) من طريق ابن جريج، عن ابن عباس رضي الله عنهما به، وابن جريج لم يسمع من ابن عباس.

(٣) انظر ما نسبه المؤلف لمذهب مالك في معنى البضع في التاج والإكليل (٥/ ٢٢٩).

(٤) انظر مجاز القرآن (١/ ٩٦)، بتصرف.

(٥) معاني القرآن للنحاس (٥/ ٢٤٣).

(٦) تفسير الطبري (١٦/ ١١٥).

(٧) ضعيف: هذا الحديث أخرجه الترمذي (٣١٩١)، والطبري (٢٠/ ٦٨)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٢٩٩٠-٢٩٩١)، والضياء في المختارة (١٤٦-١٤٧) من طريق عبد الله بن عبد الرحمن الجمحي، عن ابن شهاب، عن عبيد الله بن عبد الله بن مسعود، عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال لأبي بكر في مناحبة ﴿ الٓمٓ * غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴾: «ألا احتطت يا أبا بكر، فإن البضع ما بين الثلاث إلى تسع»، وعبد الله بن عبد الرحمن الجمحي، أبو سعيد، مجهول الحال. =

وقال مجاهد: من الثلاثة إلى السبعة[١].

قال الفراء: ولا يذكر البضع إلا مع العشرات، لا يذكر مع مئة ولا مع ألف[٢].

والذي روي في هذه الآية أن يوسف عليه السلام سُجن خمسَ سنين ثم نزلت له قصة الفتيين وعوقب على قوله: ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ بالبقاء في السجن / سبع [٣/ ٦٩] سنين، فكانت مدة سجنه اثنتي عشرة سنة، وقيل: عوقب ببقاء سنتين.

وقال الحسن: قال رسول الله ﷺ: «لولا كلمته ما لبث في السجن طُولَ ما لبث»[٣]، ثم بكى الحسن، وقال: «نحن إذا نزل بنا أمر فزعنا إلى الناس»[٤].

قوله عز وجل: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبۡعَ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ أَفۡتُونِي فِي رُءۡيَٰيَ إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖۖ وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنۡهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ فَأَرۡسِلُونِ ﴿٤٥﴾﴾.

المعنى: وَقالَ الْمَلِكُ الأعظم: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ﴾ يريد في منامه، وقد جاء ذلك مبيناً في قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ﴾ [الصافات: ١٠٢].

= وأخرجه الطبراني في الأوسط (٧٢٦٦) من طريق إبراهيم بن عبد الله بن خالد المصيصي، عن حجاج بن محمد المصيصي، عن ابن جريج، عن عبد الرحمن بن أبي الزناد، عن أبيه، عن عروة، عن نيار بن مكرم، قال: قال رسول الله ﷺ: «البضع ما بين الثلاث سنين إلى التسع»، وإبراهيم المصيصي متروك، وانظر: الميزان (١/ ٤٠).

(١) الذي في تفسير الطبري (١٦/ ١١٥)، وتفسير الماوردي (٣/ ٤٠)، وتفسير ابن أبي حاتم (٧/ ٢١٥٠)، عن مجاهد أنه مابين ثلاث وتسع..

(٢) تفسير الماوردي (٣/ ٤٠).

(٣) أخرجه الطبري (١٩٣١٣-١٩٣١٤) من طريق الحسن البصري مرسلاً، وأخرجه أيضاً الطبري (١٩٣١٥) من طريق إبراهيم بن يزيد، عن عمرو بن دينار، عن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنهما، مرفوعاً، وإبراهيم بن يزيد الخوزي متروك الحديث.

(٤) معاني القرآن للنحاس (٣/ ٤٢٩)، وتفسير الثعلبي (٥/ ٢٢٥).

وحُكيت حال ماضية بـ﴿أَرَىٰ﴾ وهو مستقبل من حيث يستقبل النظر في الرؤيا.

﴿سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ﴾ يروى أنه قال: رأيتها خارجة من نهر، وخرجت وراءها ﴿سَبْعٌ عِجَافٌ﴾، فرأيتها أكلت تلك السمان حتى حصلت في بطونها، ورأى السنابل أيضاً كما ذكر، والعجاف: التي بلغت غاية الهزال، ومنه قول الشاعر:

[الكامل] .... ورجالُ مكّة مُسْنِتون عجافُ[١]

ثم قال لجماعته وحاضريه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى﴾.

قرأت فرقة بتحقيق الهمزتين، وقرأت فرقة بأن لفظت بألف: ﴿أَفْتُونِى﴾ واواً[٢].

وقوله: ﴿لِلرُّءْيَا﴾ دخلت اللام لمعنى التأكيد والربط، وذلك أن المفعول إذا تقدم حسن في بعض الأفعال أن تدخل عليه لام الجر[٣]، وإذا تأخر لم يحتج الفعل إلى ذلك.

وعبارة الرؤيا مأخوذة من عَبْر النهر، وهو تجاوزه من شط إلى شط، فكأن عابر الرؤيا ينتهي إلى آخر تأويلها.

وقوله: ﴿قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾ الآية، الضغث في كلام العرب أقل من الحزمة وأكثر من القبضة من النبات والعشب ونحوه، وربما كان ذلك من جنس واحد، وربما كان من أخلاط النبات، فمن ذلك قوله: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا﴾ [ص: ٤٤]، وروي أنه أخذ عثكالاً من النخل.

وروي أن رسول الله ﷺ فعل نحو هذا في حدٍّ أقامه على رجل زمِن[٤].

---

(١) صدره: عمرو العلا هشم الثّريد لقومه، عزاه في العين (٣/ ٤٠٥)، والمحكم (٤/ ١٩٤)، لابنته، وفي الطبقات الكبرى (١/ ٦٢)، والصحاح للجوهري (١/ ٢٥٤)، لابن الزبعرى، وفي الاشتقاق (ص: ١٣)، ومعجم الشعراء (ص: ٢٠٠)، لمطرود بن كعب الخزاعي.

(٢) وهما سبعيتان، الثانية لنافع وابن كثير وأبي عمرو، انظر: التيسير (ص: ٣٣).

(٣) «الجر»: من المطبوع.

(٤) الصحيح مرسل، اختلف في إسناد هذا الحديث، فروي موصولاً وروي مرسلاً، ورجح غير واحد =

ومن ذلك قول ابن مقبل:

خَوْدٌ كَأَنَّ فِرَاشَهَا وُضِعَتْ بِهِ أَضْغَاثُ رَيْحَانٍ غَدَاةَ شَمَالِ[١] [الكامل]

ومن الأخلاط قول العرب في أمثالها: ضغثٌ على إبالة[٢]، فيشبَّه اختلاط الأحلام باختلاط الجملة من النبات، والمعنى أن هذا الذي رأيت أيها الملك اختلاط من الأحلام بسبب النوم، ولسنا من أهل العلم بذلك، أي: بما هو مختلط ورديء، فإنما نفوا عن أنفسهم عَبْر الأحلام لا عَبْر الرؤيا على الإطلاق، وقد قال النبي ﷺ: «الرؤيا من الله والحلم من الشيطان»[٣].

وقال عليه السلام للذي كان يرى رأسه يقطع ثم يرده فيرجع: «إذا لعب الشيطان بأحدكم في النوم فلا يحدِّثْ بذلك»[٤].

قال القاضي أبو محمد: فالأحلام وحدثان النفس ملغاة، والرؤيا هي التي تُعبر ويلتمس علمها.

والباء في قولهم: ﴿بِعَٰلِمِينَ﴾ للتأكيد، وفي قولهم: ﴿بِتَأۡوِيلِ﴾ للتعدية وهي متعلقة بقولهم ﴿بِعَٰلِمِينَ﴾.

= من الحفاظ الإرسال، قال النسائي: أجودها حديث أبي أمامة مرسل، وقال الدارقطني: الصواب عن أبي حازم، عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف، عن النبي ﷺ يعني مرسل، وقال البيهقي: هذا هو المحفوظ عن أبي أمامة مرسلاً.

وأخرجه أحمد في مسنده (٥/ ٢٢٢-٢١٩٣٥)، وابن ماجه (٢٥٧٤)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٢٠٢٤)، والنسائي في الكبرى (٤/ ٣١٣)، والطبراني في الكبير (٥٥٢١-٥٥٢٢)، والبيهقي في الكبرى (٨/ ٢٣٠). وفي نجيبويه: «مؤمن»، بدل «زمن».

(١) انظر عزوه له في تفسير الطبري (١٦/ ١١٨)، وتفسير الثعلبي (٥/ ٢٢٦)، وتفسير الماوردي (٣/ ٤٢).

(٢) الأمثال لابن سلام (ص: ٢٦٤)، قال: والإبالة: الحزمة من الحطب، والضغث: الجرزة التي فوقها، فهي بلية على أخرى قبلها.

(٣) متفق عليه، أخرجه البخاري (٥٧٤٧)، ومسلم (٢٢٦١) من حديث أبي قتادة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه مسلم (٢٢٦٨) من حديث جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنهما.

والْأَحْلام جمع حلم، يقال: حلَم الرجل ـ بفتح اللام ـ يحلم: إذا خيل إليه في منامه.

والأحلام مما أثبتته الشريعة، وقال رسول الله ﷺ: «الرؤيا من الله وهي المبشرة، والحلم المحزن من الشيطان، فإذا رأى أحدكم ما يكره، فليتفل على يساره ثلاث مرات وليقل: أعوذ بالله من شر ما رأيت، فإنها لا تضره»[(١)].

وما كان عن حديث النفس في اليقظة فإنه لا يلتفت إليه.

ولما سمع الساقي الذي نجا هذه المقالة من الملك ومراجعة أصحابه، تذكر يوسف وعلمه بتأويل الأحلام والرؤى، فقال مقالته في هذه الآية.

﴿وَٱدَّكَرَ﴾ أصله: اذتكر، افتعل من الذكر، قلبت التاء دالاً وأدغم الأول في الثاني، ثم بدلت دالاً غير منقوطة لقوة الدال وجلدها، وبعض العرب يقول: اذَّكر، وقرئ: (فهل من مذكر) بالنقط، و﴿مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٥][(٢)] على اللغتين.

وقرأ جمهور الناس: ﴿بَعۡدَ أُمَّةٍ﴾ وهي المدة من الدهر، وقرأ ابن عباس وجماعة: (بعد أمَهٍ)[(٣)] وهو النسيان، وقرأ مجاهد وشبيل[(٤)] بن عزرة: (بعد أمْه) بسكون الميم[(٥)]، وهو مصدر من أَمِهَ إذا نسي، وقرأ الأشهب العقيلي: (بعد إمَّة) بكسر الهمزة[(٦)]، والإمة:

---

(١) أخرجه البخاري (٥٧٤٧)، ومسلم (٢٢٦١) من حديث أبي قتادة رضي الله عنه، وجاء أيضاً عند مسلم (٢٢٦٣) من حديث أبي هريرة بنحوه.

(٢) وستأتي في محلها إن شاء الله.

(٣) وهي شاذة، انظر: المحتسب (١/ ٣٤٤)، وفيه معه: ابن عمر بخلاف عنه، وعكرمة ومجاهد بخلاف عنهما، والضحاك، وأبو الرجاء، وزيد بن علي، وقتادة، وشبيل بن عزرة الضبعي، وربيعة بن عمرو.

(٤) في أكثر النسخ الخطية: شبل، وهو شبيل بن عزرة أبو عمرو البصري الضبعي، أحد علماء العربية، روى عن أنس وشهر بن حوشب، وعنه جعفر بن سليمان وشعبة وآخرون، وثقه ابن معين، وكان من الخوارج، توفي قبل (١٥٠هـ). تاريخ الإسلام (٩/ ١٧٢).

(٥) وهي شاذة، انظر عزوها لمجاهد في تفسير الطبري (١٦/ ١٢٣)، والهداية لمكي (٥/ ٣٥٧٦)، ولهما في البحر المحيط (٦/ ٢٨٤).

(٦) وتشديد الميم وهي شاذة، انظر: مختصر الشواذ (ص: ٦٨)، والمحتسب (١/ ٣٤٤).

النعمة، والمعنى: بعد نعمة أنعمها الله على يوسف في تقريب إطلاقه وعزته.

وبقوله: (ادَّكَرَ) يقوي قول من يقول: إن الضمير في ﴿فَأَنسَىٰهُ﴾ عائد على الساقي، والأمر محتمل.

وقرأ الجمهور: ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم﴾.

وقرأ الحسن بن أبي الحسن: (أنا آتيكم)، وكذلك في مصحف أبي بن كعب[1].

وقوله: ﴿فَأَرْسِلُونِ﴾ استئذان في المضي، فقيل: كان السجن في غير مدينة الملك، قاله ابن عباس[2]، وقيل: كان فيها.

قال القاضي أبو محمد: ويرسم الناس اليوم سجن يوسف في موضع على النيل، بينه وبين الفسطاط ثمانية أميال.

قوله عز وجل: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

المعنى: فجاء الرسول ـ وهو الساقي ـ إلى يوسف فقال له: يا يوسف أَيُّهَا الصِّدِّيقُ، وسماه صدِّيقاً من حيث كان جرَّب صدقه في غير شيء، وهو بناء مبالغة من صَدَق، وسمي أبو بكر رضي الله عنه صديقاً مِن «صَدَّق غيرَه»، إذ مع كل تصديق

(١) وهي شاذة، انظر: مختصر الشواذ (ص: ٦٨)، والهداية لمكي (٥/ ٣٥٧٧).

(٢) أخرجه الطبري (١٩٣٦٧)، وابن أبي حاتم (١١٦٦١) من طريق أسباط بن نصر، عن السدي، عن ابن عباس رضي الله عنهما به، قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره (١/ ٢٣٠): هذا الإسناد إلى هؤلاء الصحابة مشهور في تفسير السدي، ويقع فيه إسرائيليات كثيرة، فلعل بعضها مدرج ليس من كلام الصحابة أو أنهم أخذوه من بعض الكتب المتقدمة. اهـ.

صِدْقٌ، فالمُصَدِّق بالحقائق صادق أيضاً، وعلى هذا سمي المؤمنون صديقين في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ﴾[الحديد: ١٩].

ثم قال: ﴿أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَٰتٍ﴾؛ أي: فيمن رأى في المنام سبع بقرات، وحكى النقاش حديثاً روى فيه أن جبريل عليه السلام دخل على يوسف في السجن وبشره بعطف الله تعالى عليه، وإخراجه من السجن، وأنه قد أحدث للملك منامة جعلها سبباً لفرج يوسف[١].

ويروى أن الملك كان يرى سَبْعَ بَقَراتٍ سِمانٍ يخرجن من نهر، وتخرج وراءها سَبْعٌ عِجافٌ، فتأكل العجافُ السمانَ، فكان يعجب كيف غلبتها وكيف وسعت السمان / بطون العجاف، وكان يرى سَبْعَ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وقد التفَّت بها سبع يابسات، حتى كانت تغطي خضرتها فعجب أيضاً لذلك. [٣/ ٧٠]

وقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي: تأويل هذه الرؤيا، فيزول همُّ الملك لذلك وهمُّ الناس، وقيل: لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ مكانتك من العلم وكُنْه فضلك فيكون ذلك سبباً لتخلصك.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ﴾ الآية، تضمَّن هذا الكلام من يوسف عليه السلام ثلاثة أنواع من القول:

أحدها: تعبير بالمعنى لا باللفظ.

والثاني: عرض رأي وأمر به، وهو قوله: ﴿فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ﴾.

والثالث: الإعلام بالغيب في أمر العام الثامن، قاله قتادة[٢].

قال القاضي أبو محمد: ويحتمل هذا ألا يكون غيباً، بل علمُ العبارة أعطى انقطاعَ الجدب بعد سبع، ومعلوم أنه لا يقطعه إلا خصب شافٍ، كما أعطى أن النهر مثال للزمان، إذ هو أشبه شيء به، فجاءت البقرات مثالاً للسنين.

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) تفسير ابن أبي حاتم (٧/ ٢١٥٥)، وتفسير الثعلبي (٥/ ٢٢٧)، بتصرف.

و﴿دَأَبًا﴾ معناه: ملازمة لعادتكم في الزراعة، ومنه قول امرئ القيس:

كَدَأْبِـكَ مِـنْ أُمِّ الحُوَيْـرِثِ قَبلَها .... [الطويل]

البيـت[(١)].

وقرأ جمهور السبعة: ﴿دأْبا﴾ بإسكان الهمزة، وقرأ عاصم وحده: ﴿دَأَبًا﴾ بفتح الهمزة، وأبو عمرو يسهل الهمزة عند درج القراءة[(٢)]، وهما مثل: نَهْر ونَهَر.

والناصب لقوله: ﴿دَأَبًا﴾: ﴿تَزْرَعُونَ﴾، عند أبي العباس المبرد، إذ في قوله ﴿تَزْرَعُونَ﴾: تدأبون، وهي عنده مثل قولهم: قعد القرفصاء، واشتمل الصَّماء، وسيبويه يرى نصب هذا كله بفعل مضمر من لفظ المصدر يدل عليه هذا الظاهر، كأنه قال: تزرعون تدأبون دأبا[(٣)].

وقوله: ﴿فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ﴾ هي إشارة برأي نبيل نافع بحسب طعام مصر وحنطتها التي لا تبقى عامين بوجه إلا بحيلة إبقائها في السنبل، فإن الحبة إذا بقيت في خبائها انحفظت، والمعنى: اتركوا الزرع في السنبل إلا ما لا غنى عنه للأكل، فيجتمع الطعام هكذا ويتركب، ويؤكل الأقدم فالأقدم، فإذا جاءت السنون الجدبة تقوَّتَ الناسُ الأقدمَ فالأقدم من ذلك المدخر، وادخروا أيضاً الشيء الذي يصاب في أعوام الجدب على قلته، وحملت الأعوام بعضها على بعض حتى يتخلص الناس.

وإلى هذه السنين أشار النبي ﷺ في دعائه على قريش: «اللهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف»، فابتدأ ذلك بهم ونزلت سنة حصَّت كل شيء، حتى دعا لهم النبي ﷺ فارتفع ذلك عنهم ولم يتماد سبع سنين[(٤)].

---

(١) تقدم في تفسير الفاتحة، برواية: «كدينك»، وتمامه: وجارتها أم الرباب بمأسل.

(٢) وكلها سبعية، إلا أن الفتح لحفص خاصة عن عاصم، انظر: التيسير (ص: ١٢٩).

(٣) البحر المحيط (٦/ ٢٨٥)، وانظر معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٣/ ١١٤)، ومشكل إعراب القرآن لمكي (١/ ٣٨٨).

(٤) أخرجه البخاري (٤٧٧٤) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

وروي أن يوسف عليه السلام لما خرج ووصف هذا الترتيب للملك وأعجبه أمره، قال له الملك: قد أسندتُ إليك تولي هذا الأمر في الأطعمة هذه السنين المقبلة، فكان هذا أول ما ولي يوسف.

وأسند الأكل في قوله: ﴿يَأْكُلْنَ﴾ إلى السنين اتساعاً من حيث يؤكل فيها، كما قال تعالى: ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾[يونس: ٦٧]، وكما يقال:

[الطويل] نَهَارُكَ بَطَّالٌ وَلَيْلُكَ نَائِمٌ[١] ....

وهذا كثير في كلام العرب.

ويحتمل أن يسمى فعل الجدب وإيباس البلالات أكلاً، وفي الحديث: «فأصابتهم سنة حصَّت كل شيء»[٢].

وقال الأعرابي في السنة: «جمشت النجمَ[٣]، والتحبت اللحمَ[٤]، وأحجنت[٥] العظمَ»[٦].

---

(١) تتمته كما في تفسير الثعالبي (٤/ ٢٨٠): كذلك في الدنيا تعيش البهائم، ولم ينسبه، ولم أجده لغيره، وفي المطبوع: «قائم».

(٢) هو جزء من حديث ابن مسعود السابق.

(٣) النجم نوع من النبات لا ساق له، وفي القاموس المحيط (ص: ٥٨٨): الجموش من السنين: المحرقة للنبات.

(٤) قال في القاموس المحيط (ص: ١٣٤): التحب اللحم: قطعه طولاً.

(٥) قال في القاموس المحيط (ص: ١١٨٨): حجن العود يحجنه: عطفه،... والتحجن: الاعوجاج.

(٦) ونصه في أمالي القالي (١/ ١١٣) عن أبي زيد، قَالَ: بينا أنا في المسجد الحرام إذ وقف علينا أعرابي فقَالَ: يا مسلمون، إن الحمد لله والصلاة عَلَى نبيه، إنى امرؤ من أهل هذا الملطاط الشرقي المواصي أسياف تهامة، عكفت عَلَي سنون محش، فاجتبت الذري، وهشمت العري، وجمشت النجم وأعجت البهم، وهمت الشحم والتحبت اللحم وأحجنت العظم، وغادرت التراب موراً، والماء غوراً، والناس أوزاعاً، والنبط قعاعاً، والضهل جزاعاً، والمقام جعجاعاً، يصبحنا الهاوي، =

و﴿تُحۡصِنُونَ﴾ معناه: تحرزون وتخزنون، قاله ابن عباس[١]، وهو مأخوذ من الحصن وهو الحرز والملجأ، ومنه تحصن النساء لأنه بمعنى التحرز.

وقوله: ﴿يُغَاثُ﴾ جائز أن يكون من الغيث، وهو قول ابن عباس[٢] ومجاهد[٣] وجمهور المفسرين، أي: يمطرون، وجائز أن يكون من أغاثهم الله: إذا فرج عنهم، ومنه الغوث وهو الفرج.

وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وعاصم: ﴿يَعۡصِرُونَ﴾ بفتح الياء وكسر الصاد، وقرأ حمزة والكسائي ذلك بالتاء على المخاطبة[٤].

وقال جمهور المفسرين: هي من عصر النباتات كالزيتون والعنب والقصب والسمسم والفجل وجميع ما يعصر، ومصرُ بلدُ عصرٍ لأشياء كثيرة، وروي أنهم لم يعصروا شيئاً مدة الجدب، والحلبُ منه لأنه عصر للضروع.

وقال أبو عبيدة وغيره: ذلك مأخوذ من العُصْرة والعَصَر وهو الملجأ[٥].

ومنه قول أبي زبيد في عثمان رضي الله عنه:

= ويطرقنا العاوي، فخرجت لا أتلفع بوصيده، ولا أتفوت هبيده، فالبخصات وقعة، والركبات زلعة، والأطراف قفعة، والجسم مسلهم، والنظر مدرهم، أعشو فأغطش، وأُضحي فأخفش، أسهل ظالعاً، وأحزن راكعاً، فهل من آمرٍ بميرٍ أو داعٍ بخير، وقاكم الله سطوة القادر وملكة الكاهر، وسوء الموارد وفضوح المصادر.

(١) أخرجه الطبري (١٩٣٧٤)، وابن أبي حاتم (١١٦٧٥) من حديث علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما بلفظ: تخزنون. وأخرجه الطبري (١٩٣٧٥) من طريق حجاج، عن ابن جريج، قال: قال ابن عباس: ﴿تُحۡصِنُونَ﴾: تحرزون، ولم يدرك ابن جريج ابن عباس.

(٢) أخرجه الطبري (١٩٣٨٠) من طريق حجاج، عن ابن جريج، عن ابن عباس رضي الله عنهما به. وأخرجه ابن أبي حاتم (١١٦٧٧) من طريق عطية العوفي، عن ابن عباس رضي الله عنهما به.

(٣) تفسير الطبري (١٦/ ١٢٩).

(٤) فهما سبعيتان، انظر: التيسير (ص: ١٢٩).

(٥) مجاز القرآن (١/ ٣١٣)، وقد احتج بالبيت الآتي لكن لم ينسبه.

[الخفيف] صَادياً يَسْتَغِيثُ غَيْرَ مُغاثٍ وَلَقَدْ كَانَ عُصْرَةَ المَنْجُود[١]

ومنه قول عدي بن زيد:

[الرمل] لَوْ بِغَيْرِ الْمَاءِ حَلْقِي شَرِقٌ كُنْتُ كَالْغَصَّانِ بِالْمَاءِ اعْتِصَارِي[٢]

ومنه قول ابن مقبل:

[البسيط] وصاحِبِي وَهْوَهٌ مُسْتَوْهِلٌ زَعِلٌ يَحولُ بَين حمارِ الوَحْشِ والعَصَرِ[٣]

ومنه قول لبيد:

[الطويل] فباتَ وأَسْرَى القَوْمُ آخِرَ لَيْلِهِمْ وما كانَ وقَّافاً بغَيْرِ مُعَصَّرِ[٤]

أي: بغير ملتجأ، فالآية على معنى: ينجون بالعُصْرة.

وقرأ الأعرج وعيسى وجعفر بن محمد: (يُعْصَرون) بضم الياء وفتح الصاد[٥]، وهذا مأخوذ من العصرة، أي: يؤتَون بعصرة، ويحتمل أن يكون من عصرت السحاب ماءها عليهم.

قال ابن المستنير: «معناها: يمطرون»[٦].

---

(١) قوله: «يرثي عثمان» غريب، فهو إنما يرثي ابن أخته اللجلاج، وكان من أحب الناس إليه، فمات عطشا في طريق مكة، فجزع عليه جزعاً شديداً، انظر: الاختيارين للأخفش (ص: ٥١٨)، وأمالي اليزيدي (ص: ٧)، والمحكم (٧/ ٣٣٩)، وسمط اللآلي (١/ ١١٩).

(٢) انظر عزوه له في العين (٤/ ٣٤١)، والحيوان (٥/ ٧٦)، والشعر والشعراء (١/ ٢٢٣)، وجمهرة اللغة (٢/ ٧٣١).

(٣) انظر عزوه له في المعاني الكبير (١/ ٢٦)، وتهذيب اللغة (٦/ ٢٥٧)، والحجة لأبي علي الفارسي (٤/ ٤٢٦)، والمحكم (٤/ ٣٤٨)، قال: «والوهوه: الذي يرعد من الامتلاء»، فهو يعني النشيط من الخيل سريع الجري، والمستوهل: الفزع النشيط، والزعل: النشيط.

(٤) انظر عزوه له في الجيم (٢/ ٣٣٩)، ومجاز القرآن (١/ ٢٩٥)، والكامل للمبرد (١/ ٩٠)، والحجة لأبي علي (٤/ ٤٢٧).

(٥) وهي شاذة، انظر: مختصر الشواذ (ص: ٦٨)، والمحتسب (١/ ٣٤٤).

(٦) البحر المحيط (٦/ ٢٨٦)، وهو قطرب.

وحكى النقاش أنه قرىء: «يُعَصِّرُون»[١] بضم الياء وكسر الصاد وشدها، وجعَلها من عصر البلل ونحوه.

ورد الطبري على من جعل اللفظة من العصرة ردّاً كثيراً بغير حجة[٢].

قوله عز وجل: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾﴾.

في تضاعيف هذه الآية محذوفات يعطيها ظاهر الكلام ويدل عليها، والمعنى هاهنا: فرجع الرسول إلى الملأ والملك فقص عليهم مقالة يوسف، فرأى الملك وحاضروه نبل التعبير وحسن الرأي وتضمُّن الغيب في أمر العام الثامن، مع ما وصفه به الرسول من الصدق في المنامة المتقدمة، فعظم يوسف في نفس الملك، وقال ﴿ٱئْتُونِى بِهِۦ﴾، فلما وصل الرسول في إخراجه إليه، وقال: إن الملك قد أمر بأن تخرج، قال له: ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ ـ أي: الملك ـ وقل له: ﴿مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ﴾، ومقصد يوسف عليه السلام إنما كان: وقل له يستقصي عن ذنبي وينظر في أمري، هل سجنت بحق أو بظلم؟ فرسم قصته بطرف منها إذا وقع النظر عليه بان الأمر كله. ونكب عن ذكر امرأة العزيز حسنَ عِشرةٍ ورعاية لذمام[٣] ملك العزيز له.

وقرأ أبو بكر عن عاصم وأبو حيوة: (النُّسوة) بضم النون[٤].

وقرأ الباقون: ﴿ٱلنِّسْوَةِ﴾ بكسر النون،/ وهما لغتان في تكسير نساء الذي هو [٣/ ٧١] اسم جمع لا واحد له من لفظه.

---

(١) وهي شاذة، نقلها عنه في البحر المحيط (٦/ ٢٨٦).

(٢) تفسير الطبري (١٦/ ١٣١) وما بعدها.

(٣) في الأصل والمطبوع: «الزمام».

(٤) وليست من طرق التيسير بل من رواية البرجمي والشموني عن الأعشى عنه، انظر: تفسير الثعلبي (٥/ ٢٢٨)، وجامع البيان (٣/ ١٢٣١)، والكامل للهذلي (ص: ٥٧٦)، وزاد نسبتها لأبي حيوة، وابن أبي عبلة، والقراءة بالكسر هي المتواترة.

وقرأت فرقة: (اللايي) بالياء، وقرأت فرقة: ﴿ٱلَّتِي﴾ بالتاء وكلاهما جمع «التي»[١].

وكان هذا الفعل من يوسف عليه السلام أناة وصبراً وطلباً لبراءة الساحة، وذلك أنه فيما روي خشي أن يخرج وينال من الملك مرتبة ويسكت عن أمر ذنبه صفحاً، فيراه الناس بتلك العين أبداً، ويقولون: هذا الذي راود امرأة مولاه، فأراد يوسف عليه السلام أن تبين براءته وتتحقق منزلته من العفة والخير، وحينئذ يخرج للإحظاء[٢] والمنزلة.

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «يرحم الله أخي يوسف، لقد كان صابراً حليماً، ولو لبثت في السجن لبثه لأجبت الداعي ولم ألتمس العذر حينئذ»[٣]، وروي نحو هذا الحديث من طريق عبد الرحمن بن القاسم صاحب مالك في كتاب التفسير من صحيح البخاري[٤]، وليس لابن القاسم في الديوان غيره[٥].

وهنا اعتراض ينبغي أن ينفصل عنه، وذلك أن النبي ﷺ إنما ذكر هذا الكلام على جهة المدح ليوسف، فما باله هو يذهب بنفسه عن حالة قد مدح بها غيره؟ فالوجه في ذلك: أن النبي ﷺ إنما أخذ لنفسه وجهاً آخر من الرأي له جهة أيضاً من الجودة، أي: لو كنت أنا لبادرت بالخروج ثم حاولت بيان عذري بعد ذلك، وذلك أن هذه القصص والنوازل إنما هي معرضة ليقتدي الناس بها إلى يوم القيامة، فأراد رسول الله ﷺ حمل الناس على الأحزم من الأمور، وذلك أن المتعمق في مثل هذه النازلة التارك فرصة الخروج من مثل ذلك السجن، ربما تُنتج له من ذلك البقاءَ في سجنه، وانصرفت نفس مخرجه عنه، وإن كان يوسف عليه السلام أمن من ذلك بعلمه من الله، فغيره من الناس لا يأمن ذلك، فالحالة التي ذهب النبي ﷺ بنفسه إليها حالة حزم ومدح، وما فعله يوسف عليه السلام صبر عظيم وجلَد.

---

(١) هذه هي المتواترة والأولى شاذة، انظر البحر المحيط (٦/ ٢٨٨).

(٢) في المطبوع ونور العثمانية: «للأخطاء»، وفي نجيبويه: «للأحضاء».

(٣) متفق عليه، أخرجه البخاري (٣٣٧٢-٤٦٩٤)، ومسلم (١٥١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) حديث رقم (٤٦٩٤) من صحيح البخاري.

(٥) ذكره الكلاباذي في كتابه في رجال صحيح البخاري رقم (٦٧٤) بهذا الحديث.

وقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ يحتمل أن يريد بالرب الله عز وجل، وفي الآية وعيد على هذا وتهديد[١].

ويحتمل أن يريد بالرب العزيزَ مولاه، ففي ذلك استشهاد به وتقريع له.

والضمير في ﴿بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ للنِّسْوَةِ المذكورات لا للجنس لأنها حالة توقيف على ذنب.

قوله عز وجل: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٥١﴾﴾.

المعنى: فجمع الملك النسوة وامرأة العزيز معهن، وقال لهن: ﴿مَا خَطْبُكُنَّ﴾ الآية، أي: أي شيء كانت قصتكن؟ فهو استدعاء منه أن يُعْلمنه القصة، فجاوب النساء بجواب حيدة[٢]، تظهر منه براءة أنفسهن جملة، وأعطين يوسف بعض براءة، وذلك أن الملك لما قرر لهن أنهن راودنه قلن جواباً عن ذلك: ﴿حَاشَ لِلَّهِ﴾.

وقد يحتمل ـ على بُعدٍ ـ أن يكون قولهن: ﴿حَاشَ لِلَّهِ﴾ في جهة يوسف عليه السلام، وقولهن: ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾ ليس بإبراء تام، وإنما كان الإبراء التام وصف القصة على وجهها حتى يتقرر الخطأ في جهتهن[٣]، ولو قلن: ما علمن عليه إلا خيراً، لكان أدخلَ في التبرية.

وقد بوب البخاري على هذه الألفاظ على أنها تزكية، وأدخل قول أسامة بن زيد في حديث الإفك: «أهلك ولا نعلم إلا خيراً»[٤].

---

(١) في الأصل ونجيبويه والحمزوية: «وتهدد».

(٢) في المطبوع والمصرية: «جيد»، وفي التركية: «حيرة».

(٣) في نور العثمانية: «في جهتين»، وفي الأصل: «في إحدى الجهتين».

(٤) متفق عليه، أخرجه البخاري (٢٦٣٧)، ومسلم (٢٧٧٠) من حديث عائشة رضي الله عنها.

قال القاضي أبو محمد: وأما مالك رحمه الله فلا يقنع بهذا في تزكية الشاهد، لأنه ليس بإثبات العدالة[١].

قال بعض المفسرين: فلما سمعت زوجة العزيز مقالتهن وحيْدتهن[٢] عن الوقوع في الخزي حضرتْها نيةٌ وتحقيق، فقالت: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾.

و﴿حَصْحَصَ﴾ معناه: تبيَّن بعد خفائه، كذا قال الخليل وغيره[٣].

وقيل: هو مأخوذ من الحصة، أي: بانت حصته من حصة الباطل. ثم أقرت على نفسها بالمراودة والتزمت الذنب وأبرأت يوسف البراءة التامة.

قوله عز وجل: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾.

قالت جماعة من أهل التأويل: هذه المقالة هي من يوسف عليه السلام، أي: ذلك ليعلمَ العزيز سيدي أنِّي لم أخنه في أهله وهو غائب، وليعلم أيضاً أن الله تعالى لا يَهْدِي كيد خائن ولا يرشد سعيه.

قال القاضي أبو محمد: والهدى للكيد مستعارٌ، بمعنى: لا يكمله[٤] ولا يمضيه على طريق إصابة، وربَّ كيدٍ مهديٍّ إذا كان من تقيٍّ في مصلحة.

واختلفت هذه الجماعة، فقال ابن جريج: «هذه المقالة من يوسف هي متصلة بقوله للرسول: ﴿إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾، وفي الكلام تقديم وتأخير»[٥].

فالإشارة بقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ ـ على هذا التأويل ـ هي إلى بقائه في السجن والتماسه البراءة، أي: هذا ليعلم سيدي أني لم أخنه.

---

(١) انظر: البيان والتحصيل (١٠/ ٢٩-٣١).

(٢) في التركية: «وحيرتهن»، وفي نور العثمانية: «وحدتهن».

(٣) العين (٣/ ١٤).

(٤) في المطبوع: «لا يكلمه»، وفي نور العثمانية: «لا يكلمه بمضيه على» إلخ.

(٥) معاني القرآن للنحاس (٣/ ٤٣٧).

وقال بعضهم: إنما قال يوسف هذه المقالة حين قالت امرأة العزيز كلامها، إلى قولها: ﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ فالإشارة ـ على هذا ـ إلى إقرارها، وصنيع الله تعالى فيه، وهذا يضعَّف، لأنه يقتضي حضوره مع النسوة عند الملك، وبعد هذا يقول الملك: ﴿ٱئۡتُونِي بِهِۦ﴾.

وقالت فرقة من أهل التأويل: هذه الآية من قول امرأة العزيز، وكلامها متصل، أي: قولي هذا وإقراري ليعلم يوسف أني لم أخنه في غيبته بأن أكذب عليه أو أرميه بذنب هو بريء منه، والتقدير على هذا التأويل: توبتي وإقراري ليعلم أني لم أخنه وأن الله لا يهدي.

وعلى أن الكلام من يوسف يجيء التقدير: وليعلم أن الله لا يهدي كيد الخائنين.

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓ﴾ الآية، هذه أيضاً مختلف فيها: هل هي من كلام يوسف أم من كلام المرأة، حسب التي قبلها.

فمن قال: من كلام يوسف، روى في ذلك عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «لما قال يوسف: ﴿أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ قال له جبريل: ولا حين هممت وحللت سراويلك»[(١)]، وقال نحوه / ابن عباس[(٢)] وابن جبير وعكرمة والضحاك[(٣)]. [٣/ ٧٢]

وروي: أن المرأة قالت له ذلك، قاله السدي[(٤)]، وروي أن يوسف تذكَّر من تلقائه ما كان همَّ به فقال: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾، قاله ابن عباس أيضاً[(٥)].

---

(١) عزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٨/ ٢٧٢) للحاكم في «تاريخه»، وابن مردويه، والديلمي.

(٢) ضعيف، أخرجه الطبري (١٩٤٣٠)، وابن أبي حاتم (١١٦٩٨) من طريق إسرائيل، عن سماك، عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما، ورواية سماك عن عكرمة فيها اضطراب.

(٣) تفسير الطبري (١٦/ ١٤٣ ١٤٥)، ومعاني القرآن للنحاس (٣/ ٤٣٦)، بتصرف، وفي نجيبويه: «بن جريج»، بدل «ابن جبير».

(٤) تفسير الطبري (١٦/ ١٤٦)، وتفسير ابن أبي حاتم (٧/ ٢١٥٨).

(٥) هذا الأثر أخرجه ابن جرير الطبري (١٩٤٤٥) من طريق عطية العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما.

ومن قال: إن المرأة قالت: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓ﴾ فوجه كلامها الاعتذار عن وقوعها فيما يقع فيه البشر من الشهوات، كأنها قالت: وما هذا بِبِدْعٍ ولا ذلك نكير على البشر فأبرئَ أنا منه نفسي، والنفوس أمَّارات بالسوء مائلة إليه.

و(أمَّـارة) بناء مبالغة، و﴿مَا﴾ في قوله: ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ﴾ مصدرية، هذا قول الجمهور فيها، وهو على هذا استثناء منقطع، أي: إلا رحمة ربي، ويجوز أن تكون بمعنى «مَن»، هذا على أن تكون ﴿ٱلنَّفۡسَ﴾ يراد بها النفوس، إذ النفس تجري صفة لمن يعقل كالعين والسمع، كذا قال أبو علي، فتقدير الآية: إلا النفوس التي يرحمها الله.

قال القاضي أبو محمد: وإذنْ ﴿ٱلنَّفۡسَ﴾ اسم جنس، فصح أن تقع ﴿مَا﴾ مكان «مَن» إذ هي كذلك في صفات من يعقل وفي أجناسه، وهو نص في كلام المبرد، وهو ـ عندي ـ معنى كلام سيبويه، وهو مذهب أبي علي ـ ذكره في البغداديات[1].

ويجوز أن تكون ﴿مَا﴾ ظرفية، المعنى: إن النفس لأمارة بالسوء إلا مدةَ رحمة الله العبد وذهابه به عن اشتهاء المعاصي.

ثم ترجَّى في آخر الآية بقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

قوله عز وجل: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ ٥٤ قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ٥٥ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٥٦ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ٥٧﴾.

المعنى: أن الملك لما تبينت له براءة يوسف مما نسب إليه، وتحقق في القصة أمانته، وفهم أيضاً صبره وجلده، عظمت منزلته عنده وتيقن حسن خلاله فقال: ﴿ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِي﴾.

---

(١) انظر المسائل البغداديات (ص: ٢٦٩)، وما بعدها، إلا أنه لم يستشهد بهذه الآية.

قال القاضي أبو محمد: وهذا الذي أمَّ يوسفُ عليه السلام بتثبته في السجن أن يرتقي إلى أعلى المنازل، فتأمل أن الملك قال أولاً حين تحقق علمه: ﴿ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ﴾ فقط، فلما فعل يوسف ما فعل، فظهرت أمانته وصبره وعلو همته وجودة نظره، قال: ﴿ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ﴾، فلما جاءه وكلمه قال: ﴿إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ﴾، فدل ذلك على أنه رأى من كلامه وحسن منطقه ما صدق به الخبر أو أربى عليه، إذ المرء مخبوء تحت لسانه، ثم لما زاول الأعمال مشى القُدُمية حتى ولاه خطة العزيز.

و﴿أَمِينٞ﴾ من الأمانة، وقالت فرقة: هو بمعنى آمن.

قال القاضي أبو محمد: وهذا ضعيف، لأنه يخرج من نمط الكلام وينحط إكرام يوسف عليه[1] كثيراً، ويروى أن الملك لما أدنى يوسف قال له: «إني أشاركك في كل شيء إلا أني أحب أن لا تشركني في أهلي وأن لا يأكل معي عبدي»[2]، فقال له يوسف: «أتأنف أن آكل معك؟ أنا أحق أن آنف، أنا ابن إبراهيم الخليل، وابن إسحاق الذبيح، وابن يعقوب الصدِّيق»[3].

قال القاضي أبو محمد: وفي هذا الحديث بعدٌ وضعفٌ، وقد قال ابن ميسرة: «إنما جرى هذا في أول أمره، كان يأكل مع العزيز، فلما جرت قصة المرأة قالت للعزيز: أتدع هذا يواكلك؟ فقال له: اذهب فكل مع العبيد، فأنف وقال ما تقدم»[4].

أمَا إن الظاهر من قصته وقت محاورة الملك أنه كان على عبودية، وإلا كان اللائق به أن ينتحي بنفسه عن عمل الكافر، لأن القوم كانوا أهل أوثان، ومحاورة يوسف لصاحبي السجن تقضي بذلك.

---

(١) زيادة من المصرية.

(٢) في المطبوع: «وألا تأكل عندي».

(٣) أخرجه الطبري (١٦/ ١٤٧-١٤٨) من طرق إلى عبد الله بن أبي الهذيل من قوله.

(٤) تفسير الطبري (١٦/ ١٤٨)، وتفسير ابن أبي حاتم (٧/ ٢١٥٩) بتصرف.

وسمى الله تعالى فرعون مصر ملكاً إذ هي حكاية اسم مضى حكمُه وتصرم زمنه، ولو كان حيّاً لكان حكماً[١] له إذا قيل لكافر: ملك أو أمير، ولهذا كتب النبي ﷺ إلى هرقل فقال: «عظيم الروم»[٢]، ولم يقل: ملكاً ولا أميراً، لأن ذلك حكم، والحق أن يُسْلِم ويسلموا، وأما كونه عظيمهم فتلك صفة لا تفارقه كيفما تقلب، ولو كتب له النبي ﷺ: أمير الروم، لتمسك بتلك الحجة على نحو تمسُّك زياد في قوله: شهد والله لي أبو الحسن[٣].

وقوله تعالى: ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ﴾ الآية، فهم يوسف عليه السلام من الملك أنه عزم[٤] على تصريفه والاستعانة بنظره في الملك، فألقى يده في الفصل الذي تمكنه فيه المعدلة، ويترتب له الإحسان إلى من يجب ووضع الحق على أهله وعند أهله.

قال بعض أهل التأويل: في هذه الآية ما يبيح للرجل الفاضل أن يعمل للرجل الفاجر بشرط أن يعلم أنه يفوض إليه في فصل ما لا يعارض فيه، فيصلح منه ما شاء، وأما إن كان عمله بحسب اختيار الفاجر وشهواته وفجوره، فلا يجوز له ذلك.

قال القاضي أبو محمد: وطلبة[٥] يوسف للعمل إنما هي حسبة منه عليه السلام؛ لرغبته في أن يقع العدل، ونحو هذا هو دخول أبي بكر الصديق في الخلافة مع نهيه المستشيرَ له من الأنصار عن أن يتأمر على اثنين، الحديث بكماله[٦]، فجائز للفاضل

---

(١) في نور العثمانية: «حكا».

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري (٧)، ومسلم (١٧٧٣) من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

(٣) انظر القصة في الأوائل للعسكري (ص: ٢٤٦).

(٤) «عزم»: ساقطة من المطبوع.

(٥) في المطبوع وأحمد٣: «وطلب».

(٦) الذي وقفت عليه ما أخرجه الطبراني في الكبير (٤٤٦٧) من طريق إسرائيل، وفي (٤٤٦٨) من طريق شريك، كلاهما عن إبراهيم بن المهاجر، عن طارق بن شهاب، عن رافع بن عمرو الطائي قال: بعث رسول الله ﷺ عمرو بن العاص على جيش ذات السلاسل، وبعث معه في ذلك الجيش أبا بكر وعمر رضي الله عنهما وسراة أصحابه، فانطلقوا حتى نزلوا جبل طيئ، فقال عمرو: انظروا إلى رجل دليل بالطريق، فقالوا: ما نعلمه إلا رافع بن عمرو، فإنه كان ربيلاً في الجاهلية ـ فسألت =

أن يعمل ويطلب العمل إذا رأى ألا عوض منه، وجائز أيضاً للمرء أن يثْني على نفسه بالحق إذا جُهل أمره.

و﴿خَزَآئِنِ﴾: لفظ عام لجميع ما تختزنه المملكة من طعام ومال وغيره.

و﴿حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾: صفتان تعم وجوه التثقيف والحيطة لا خلل معهما لعامل. وقد خصص الناس بهاتين الصفتين أشياء، مثل قولهم: حفيظ بالحساب عليم بالألسن، وقول بعضهم: حفيظ لما استودعتَني، عليم بسني الجوع، وهذا كله تخصيص لا وجه له، وإنما أراد باتصافه أن يعرِّف الملك بالوجه الذي به يستحق الكون على خزائن الأرض فاتصف بأنه يحفظ المجبى من كل جهة تحتاج إلى الحفظ، ويعلم التناول أجمع.

وروي عن مالك بن أنس أنه قال: «مصر خزانة الأرض»، واحتج بهذه الآية[1].

= طارقاً: ما الربيل؟ قال: اللص الذي يغزو القوم وحده فيسرق ـ قال رافع: فلما قضينا غزاتنا وانتهيت إلى المكان الذي كنا خرجنا منه، توسمت أبا بكر، رضي الله عنه، فأتيته فقلت: يا صاحب الخلال إني توسمتك من بين أصحابك، فائتني بشيء إذا حفظته كنت مثلكم، فقال: «أتحفظ أصابعك الخمس؟» قلت: نعم، قال: «تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، وتقيم الصلوات الخمس، وتؤتي الزكاة إن كان لك، وتحج البيت، وتصوم رمضان، حفظت؟» قلت: نعم، قال: «وأخرى لا تأمرنَّ على اثنين» قلت: هل تكون الإمرة إلا فيكم أهل بدر؟ قال: «يوشك أن تفشو حتى تبلغك ومن هو دونك، إن الله عز وجل لما بعث نبيه ﷺ دخل الناس في الإسلام، فمنهم من دخل فهداه الله، ومنهم من أكرهه السيف، فهم عوَّاد الله، وجيران الله، في خفارة الله، إن الرجل إذا كان أميراً، فتظالم الناس بينهم، فلم يأخذ لبعضهم من بعض، انتقم الله منه، إن الرجل لتؤخذ شاة جاره فيظل ناتئ عضلته غضباً لجاره، والله من وراء جاره» قال رافع: فمكثت سنة، ثم إن أبا بكر استخلف، فركبت إليه فقلت: أنا رافع، كنت لقيتك يوم كذا وكذا مكان كذا وكذا، قال: «عرفت»، قلت: كنت نهيتني عن الإمارة، ثم ركبت بأعظم من ذلك أمة محمد ﷺ، قال: «نعم، فمن لم يقم فيهم بكتاب الله فعليه بهلة الله» يعني: لعنة الله.

وأخرجه الطبراني في الكبير (٤٤٦٩) من طريق الأعمش، عن سليمان بن ميسرة، عن طارق بن شهاب، عن رافع بن أبي رافع الطائي به، بنحوه.

(١) تفسير القرطبي (٩/ ٢١٣).

وقوله: ﴿خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ﴾ يريد أرض مصر، إذ لم تكن مملكة فرعون إلا بها فقط، ويؤكد أن تسمى خزانة الأرض نصبتُها في بلاد الأرض وتوسطها، فمنها ينقل الناس إلى أقطار الأرض، وهي محل كل جالب.

[٣/ ٧٣] وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ﴾ الآية، الإشارة بـ(ذلك) إلى ما تقدم من/ جميل صنع الله به، أي: وكهذه الأفعال المنصوصة درجناه في الرتب ونقلناه فمكنًّا له في الأرض.

قال القاضي أبو محمد: فروي أن العزيز مات في تلك الليالي، وقال ابن إسحاق: «بل عزله الملك ثم مات أطفير، فولاه الملك مكانه وزوَّجه زوجته، فلما دخلت عليه عروساً قال لها: أليس هذا خيراً مما كنت أردت؟ فقالت له: أيها الصديق كنتَ في غاية الجمال، وكنتُ شابة عذراء، وكان زوجي لا يطأ، فغلبتني نفسي في حبك، فدخل يوسف بها فوجدها بكراً، وولدت له ولدين»[(١)].

وروي أن الملك عزل العزيز، وولاه موضعه، ثم عظُم ملكُ يوسف وتغلب على حال الملك أجمع، قال مجاهد: «وأسلم الملك آخر أمره»[(٢)]، ودرس أمرُ العزيز وذهبت دنياه، ومات وافتقرت زوجته، وزمنت وشاخت، فلما كان في بعض الأيام، لقيت يوسف في طريق، والجنود حوله ووراءه، وعلى رأسه بنود عليها مكتوب ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف: ١٠٨] فصاحت به وقالت: سبحان من أعز العبيد بالطاعة، وأذل الأرباب بالمعصية، فعرفها، وقالت له: تعطَّف عليّ وارزقني شيئاً، فدعاها وكلمها، وأشفق لحالها، ودعا الله تعالى، فردَّ عليها جمالها وتزوجها.

قال القاضي أبو محمد: وروي في نحو هذا من القصص ما لا يوقف على صحته، ويطول الكلام[(٣)] بسَوقه.

---

(١) تفسير الطبري (١٦/ ١٥١)، وتفسير ابن أبي حاتم (٧/ ٢١٦١)، بتصرف.
(٢) تفسير الطبري (١٦/ ١٥٢)، وتفسير الثعلبي (٥/ ٢٣٣).
(٣) في نجيبويه ونور العثمانية وأحمد٣: «الكتاب».

وقرأ الجمهور: ﴿حَيۡثُ يَشَآءُ﴾ على الإخبار عن يوسف.

وقرأ ابن كثير وحده: ﴿حيث نشاء﴾ بالنون على ضمير المتكلم[1]، أي: حيث يشاء الله من تصرف يوسف على اختلاف تصرفه، وحكى أبو حاتم هذه القراءة عن الحسن وشيبة ونافع وأبي جعفر بخلاف عن الثلاثة المدنيين[2].

وقال أبو علي: إما أن يكون تقدير هذه القراءة: حيث نشاءُ من المحاريب والمتعبدات وأحوال الطاعات، فهي قُرَب يريدها الله ويشاؤها، وإما أن يكون معناها: حيث يشاء يوسف، لكن أضاف الله عز وجل المشيئة التي ليوسف إليه من حيث هو عبد من عبيده[3]، وكانت مشيئته بقدرة الله تعالى وقوته كما قال: ﴿وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧].

قال القاضي أبو محمد: وهذا كله من أبي علي نزغة اعتزالية، وتحفظ من أن أفعال العباد من فاعلين، فتأمله.

واللام في قوله: ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ﴾ يجوز أن تكون على حد التي في قوله: ﴿رَدِفَ لَكُم﴾ [النمل: ٧٢] و﴿لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ﴾ [يوسف: ٤٣].

وقوله: ﴿يَتَبَوَّأُ﴾ في موضع نصب على الحال.

و﴿حَيۡثُ يَشَآءُ﴾ نصب على الظرف أو على المفعول به، كما قال الشماخ:

.... حَيْثُ تُكْوَى النَّواحِزُ[4] [الطويل]

وباقي الآية بيّن.

---

(١) فهما سبعيتان، انظر التيسير (ص: ١٢٩).

(٢) مثله في البحر المحيط (٦/ ٢٩٢)، دون ذكر أبي حاتم.

(٣) انظر: الحجة لأبي علي الفارسي (٤/ ٤٢٨).

(٤) انظر عزوه له في جمهرة أشعار العرب (ص: ٦٦٦)، والمعاني الكبير في أبيات المعاني (٢/ ٧٨٣)، وتهذيب اللغة (٧/ ٤٩).

ولما تقدم في هذه الآية الإحسان من العبد، والجري على طريق الحق لا يضيع عند الله، ولا بد من حسن عاقبته في الدنيا، عقب ذلك بأن حال الآخرة أحمدُ وأحرى أن تجعل غرضاً ومقصداً، وهذا هو الذي ينتزع من الآية بحسب المقيَّدين بالإيمان والتقوى من الناس، وفيها مع ذلك إشارة إلى أن حاله من الآخرة خير من حاله العظيمة في الدنيا.

قوله عز وجل: ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾﴾.

قال السدي وغيره: سبب مجيئهم أن المجاعة التي أنذر بها يوسف أصابت البلاد التي كان بها يعقوب[1]، وروي أنه كان في الغربات من أرض فلسطين بغور الشام، وقيل: كان بالأولاج[2] من ناحية الشعب، وكان صاحب بادية له إبل وشاء، فأصابهم الجوع، وكان أهل مصر قد استعدوا وادخروا من السنين الخصيبة، فكان الناس يمتارون من عند يوسف، وهو في رتبة العزيز المتقدم، وكان لا يعطي الوارد أكثر من حمل بعير، يسوي بين الناس، فلما ورد إخوته عرفهم يوسف ولم يعرفوه هم، لبعد العهد وتغير سنه، ولم يقع لهم ـ بسبب ملكه ولسانه القبطي ـ ظنٌّ عليه.

وروي في بعض القصص: أنه لما عرفهم أراد أن يُخبروه بجميع أمرهم، فباحثهم بأن قال لهم بترجمان: أظنكم جواسيس، فاحتاجوا حينئذ إلى التعريف بأنفسهم، فقالوا: نحن أبناء رجل صدِّيق، وكنا اثني عشر، ذهب واحد منا في البرية، وبقي أصغرُنا عند أبينا، وجئنا نحن للميرة، وسقنا بعير الباقي منا، وكانوا عشرة، ولهم أحد عشر بعيراً، فقال لهم يوسف: ولمَ تخلَّف أخوكم؟ قالوا: لمحبة أبينا فيه، قال: فأتوني بهذا الأخ حتى أعلم حقيقة قولكم وأرى لِمَ أحبه أبوكم أكثر منكم إن كنتم صادقين؟.

---

(١) تفسير الطبري (١٦/ ١٥٣)، بتصرف.

(٢) في المطبوع: «الأدلاج».

وروي في القصص أنهم وردوا مصر، واستأذنوا على العزيز وانتسبوا في الاستئذان، فعرفهم، وأمر بإنزالهم، وأدخلهم في ثاني يوم على هيئة عظيمة لملكه وأهبة شنيعة.

وروي أنه كان متلثماً أبداً ستراً لجماله، وأنه كان يأخذ[١] الصواع فينقره، ويفهم من طنينه صدق ما يحدَّث أو كذِبَه، فسئلوا عن أخبارهم، فكلما صدقوا قال لهم يوسف: صدَقتم، فلما قالوا: وكان لنا أخ أكله الذئب، طن يوسف الصاعَ، وقال: كذبتم، ثم تغير لهم، وقال: أراكم جواسيس، وكلفهم سوق الأخ الباقي ليظهر صدقهم في ذلك، في قصص طويل جاءت الإشارة إليه في القرآن وجيزة.

والجَهاز: ما يحتاج إليه المسافر من زاد ومتاع وكل ما يحمل، وكذلك جهاز العروس وجهاز الميت.

وقول يوسف عليه السلام: ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ﴾ الآية، يرغبهم في نفسه آخراً، ويؤنسهم ويستميلهم.

و﴿ٱلْمُنزِلِينَ﴾ يعني: المضيفين في قطره ووقته.

والجَهاز المشار إليه: الطعام الذي كان حمَّله لهم، ثم توعدهم إن لم يجيئوا بالأخ بأنه لا كيل لهم عنده في المستأنف، وأمرهم ألا يقربوا له بلداً ولا طاعة.

و﴿وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ نهي لفظاً ومعنى، ويجوز أن يكون لفظه الخبر ومعناه النهي، وتحذف إحدى النونين كما قرئ: ﴿فَبِمَ تبشرونِ﴾ [الحجر: ٥٤][٢] بكسر النون، وهذا خبر لا غير، وخلط النحاس في هذا الموضع[٣].

وقال مالك رحمه الله: «هذه الآية وما يليها تقتضي أن كيل الطعام على البائع[٤]،

---

(١) في الأصل: «ينقر».

(٢) وسيأتي الخلاف فيها في محله.

(٣) انظر كلامه في إعراب القرآن للنحاس (٢/ ٢٠٦).

(٤) انظر قول مالك في الآية في: أحكام القرآن لابن العربي (٣/ ٧٦).

وكذلك هي الرواية في التولية والشركة: أنها بمنزلة البيع[(١)]، والرواية في القرض: أن الكيل على المستقرض»[(٢)].

[٣/ ٧٤] وروي: أنه حبس منهم / شمعون رهينة حتى يجيئوه ببنيامين، قاله السدي[(٣)].

وروي: أنه لم يحبس منهم أحداً، وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «كان يوسف يلقي حصاة في إناء فضة مخوص بالذهب فيطن، فيقول لهم: إن هذا الإناء يخبرني أن لكم أبا شيخاً»[(٤)].

قال القاضي أبو محمد: كأنها حيلة وإيهام لهم، وروي: أن ذلك الإناء به كان يكيل الطعام إظهاراً لعزته بحسب غلائه في تلك المدة، وروي: أن يوسف استوفى في تلك السنين أموال الناس، ثم أملاكهم، فمن هناك ليس لأحد في أرض مصر ومزارعها ملك.

وظاهر كل ما فعله يوسف معهم أنه بوحي وأمر، وإلا فكان بِرُّ يعقوب يقتضي أن يبادر إليه ويستدعيه، لكن الله تعالى أعلمه بما يصنع ليكمل أجر يعقوب ومحنته وتتفسر الرؤيا الأولى.

قوله عز وجل: ﴿قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَـٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَـٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَـٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

---

(١) انظر هذا القول في البيان والتحصيل (٧/ ١٤٠)، لكن شهر الشيخ خليل في المختصر (ص: ١٥٧) أنها كالقرض.

(٢) انظر الذخيرة للقرافي (٥/ ١٥٣)، والتاج والإكليل لمختصر خليل (٦/ ٤١١).

(٣) تفسير الطبري (١٦/ ١٥٣).

(٤) لم أقف عليه مرفوعاً، وإنما في الباب عن ابن عباس رضي الله عنهما، من طريق: يونس بن محمد، ثنا صدقة بن عبادة حدثني أبي ثنا ابن عباس، أخرجه ابن أبي حاتم (١١٧٢٩) وصدقة وأبوه لم يوثقا توثيقاً معتبراً.

تقدم معنى المراودة، أي: سنفاتل[1] أباه في أن يتركه يأتي معنا إليك، ثم شددوا هذه المقالة بأن التزموها له في قولهم: ﴿وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾، وأراد يوسف عليه السلام المبالغة في استمالتهم بأن رد مال كل واحد منهم في رحله بين طعامه، وأمر بذلك فتيانه.

وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر: ﴿لِفِتْيَتِهِ﴾.

وقرأ حمزة والكسائي: ﴿لِفِتْيَانِهِ﴾، واختلف عن عاصم[2].

ففتيان للكثرة، على مراعاة المأمورين، وفتية للقلة، على مراعاة المتناولين وهم الخدمة، ويكون هذا الوصف للحر والعبد.

وفي مصحف ابن مسعود: (وقال لفتيانه وهو يكايلهم)[3].

وقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا﴾ يريد: لعلهم يعرفون لها يداً أو تكرمة يرون حقها، فيرغبون فينا، فلعلهم يرجعون حينئذ، وأما ميز[4] البضاعة فلا يقال فيه: لعل، وقيل: قصد يوسف برد البضاعة أن يتحرجوا من أخذ الطعام بلا ثمن فيرجعوا لدفع الثمن، وهذا ضعيف من وجوه، وسرورُهم بالبضاعة، وقولُهم: ﴿هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ [يوسف: ٦٥] يكشف أن يوسف لم يقصد هذا، وإنما قصد أن يستميلهم ويصلهم، فيرغبهم في نفسه كالذي كان، وخصَّ البضاعة بعينها ـ دون أن يعطيهم غيرها من الأموال ـ لأنها أوقع في نفوسهم، إذ يعرفون حِلها، ومالُه هو إنما كان عندهم مالاً مجهول الحال، غايته أن يستجاز على نحو استجازتهم قبول الميرة، ويظهر أن ما فعل يوسف من صلتهم وجبرهم في تلك الشدة كان واجباً عليه، إذ هو ملك عدل وهم أهل إيمان ونبوة، وقيل: علم عدم البضاعة والدراهم عند أبيه، فرد البضاعة إليهم لئلا يمنعهم

---

(١) في المطبوع: «سنفائل»، وفي نجيبويه: «سنستأذن»، وفي نور العثمانية: «سنقاتل»، وفي أحمد٣: «سنقابل».

(٢) وهما سبعيتان، انظر: التيسير (ص: ١٢٩).

(٣) انظر: تفسير الثعلبي (٥/ ٢٣٥)، وإعراب القرآن للنحاس (٢/ ٢٠٧)، وأما لفظة «وهو يكايلهم» فلم أقف على أنها من القراءة.

(٤) في التركية: «مير»، وفي أحمد٣: «غير»، وفي نور العثمانية: «عين».

العدم من الانصراف إليه، وقيل: جعلها توطئة لجعل السقاية في رحل أخيه بعد ذلك، ليبين أنه لم يسرق لمن يتأمل القصة.

قال القاضي أبو محمد: والظاهر من القصة أنه إنما أراد الاستئلاف وصلة الرحم.

وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وعاصم وابن عامر: ﴿نَكۡتَلۡ﴾ بالنون على مراعاة ﴿مُنِعَ مِنَّا﴾ ويقويه: ﴿وَنَمِيرُ أَهۡلَنَا وَنَحۡفَظُ أَخَانَا وَنَزۡدَادُ﴾.

وقرأ حمزة والكسائي: ﴿يكتل﴾ بالياء[1]، أي: يكتل يامين كما اكتلنا نحن.

وأصل ﴿نَكۡتَلۡ﴾: نَكْتَيِل، وزنه نفتعل.

وقولهم: ﴿مُنِعَ مِنَّا﴾ ظاهره أنهم أشاروا إلى قوله: ﴿فَلَا كَيۡلَ لَكُمۡ عِندِي﴾ فهو خوف في المستأنف، وقيل: أشاروا إلى بعير يامين الذي لم يمتر، والأول أرجح، ثم تضمنوا له حفظه وحيطته.

قوله عز وجل: ﴿قَالَ هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبۡلُۖ فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمۡ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ رُدَّتۡ إِلَيۡهِمۡۖ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبۡغِيۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَاۖ وَنَمِيرُ أَهۡلَنَا وَنَحۡفَظُ أَخَانَا وَنَزۡدَادُ كَيۡلَ بَعِيرٖۖ ذَٰلِكَ كَيۡلٞ يَسِيرٞ ﴿٦٥﴾﴾.

قوله: ﴿هَلۡ﴾ توقيف وتقرير، وتألم يعقوب عليه السلام من فُرقة يامين، ولم يصرح بمنعهم من حمله لِمَا رأى في ذلك من المصلحة، لكنه أعلمهم بقلة طمأنينته إليهم، وأنه يخاف عليه من كيدهم، ولكن ظاهر أمرهم أنهم كانوا نُبِّئوا وانتقلت حالهم، فلم يخف كمثل ما خاف على يوسف من قبل، لكن أعلم بأن في نفسه شيئاً، ثم استسلم لله تعالى، بخلاف عبارته في قصة يوسف.

وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر وعاصم في رواية أبي بكر: ﴿خَيْرٌ حِفْظاً﴾.

---

(١) وهما سبعيتان، انظر: التيسير (ص: ١٢٩).

وقرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم: ﴿خَيۡرٌ حَٰفِظٗا﴾[١].

ونصب ذلك في القراءتين على التمييز، وقال الزجاج: يجوز أن ينصب ﴿حَٰفِظٗا﴾ على الحال[٢]، وضعَّف ذلك أبو علي الفارسي، لأنها حالٌ لا بد للكلام والمعنى منها[٣]، وذلك بخلاف شرط الحال، وإنما المعنى أن حافظ الله خير من حافظكم.

ومن قرأ: ﴿حِفظاً﴾ فهو مع قولهم: ﴿وَنَحۡفَظُ أَخَانَا﴾، ومن قرأ: ﴿حَٰفِظٗا﴾ فهو مع قولهم: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾، فاستسلم يعقوب عليه السلام لله وتوكل عليه.

قال أبو عمرو الداني: قرأ ابن مسعود: (فالله خير حافظاً وهو خير الحافظين)[٤].

قال القاضي أبو محمد: وفي هذا بعد.

وقوله: ﴿فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمۡ﴾ سمَّى المشدودَ المربوط بجملته متاعاً، فلذلك حسُن الفتح فيه.

قرأ جمهور الناس: ﴿رُدَّتۡ﴾ بضم الراء، على اللغة الفاشية عن العرب، وتليها لغة من يُشمُّ، وتليها لغة من يكسر.

وقرأ علقمة ويحيى بن وثاب: (ردت) بكسر الراء[٥] على لغة من يكسر، وهي في بني ضبة، قال أبو الفتح: وأما المعتل نحو «قيل» و«بيع» فالفاشي فيه الكسر، ثم الإشمام، ثم الضم، فيقولون: قول وبوع، وأنشد ثعلب:

وقُـولَ لا أهـلَ لـه ولا مـالْ[٦] [الرجز]

---

(١) فهما سبعيتان، انظر التيسير (ص: ١٢٩).

(٢) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٣/ ١١٨).

(٣) انظر: الحجة لأبي علي الفارسي (٤/ ٤٤٠).

(٤) وهي شاذة مخالفة في الرسم، تابعه عليها في البحر المحيط (٦/ ٢٩٥)، دون ذكر الداني، وفي المطبوع: «خير حافظٍ».

(٥) وهي شاذة، انظرها في مختصر الشواذ (ص: ٧٠)، ومع التوجيه في المحتسب (١/ ٣٤٥).

(٦) البيت بلا نسبة في المحتسب (٢/ ١٧٨)، وتهذيب اللغة (٩/ ٢٣٢)، وقبله: وابتذلت غضبى وأم الرحال.

قال الزجاج: من قرأ: (رِدت) بكسر الراء جعلها منقولة من الدال، كما فُعل في «قِيل» و«بِيع»، لتدل على أن أصل الدال الكسرة[١].

وقوله: ﴿مَا نَبۡغِي﴾ يحتمل أن تكون ﴿مَا﴾ استفهاماً، قاله قتادة[٢].

[٣/ ٧٥] و﴿نَبۡغِي﴾ من البِغية، أي: ما نطلب بعد هذه / التكرمة؟ هذا مالنا رد إلينا مع ميرتنا. قال الزجّاج: ويحتمل أن تكون ﴿مَا﴾ نافية، أي: ما بقي لنا ما نطلب، ويحتمل أن تكون أيضاً نافية، و﴿نَبۡغِي﴾ من البغي، أي: ما تعدَّينا فكذبنا على هذا الملك ولا في وصف إجماله وإكرامه، هذه البضاعة مردودة.

وقرأ أبو حيوة: (ما تبغي) بالتاء[٣]، على مخاطبة يعقوب، وهي بمعنى: ما تريد وما تطلب؟ قال المهدوي: وروتها عائشة عن النبي ﷺ[٤].

وقرأت فرقة: ﴿وَنَمِيرُ﴾ بفتح النون، من مار يمير: إذا جلب الخير، ومن ذلك قول الشاعر:

[الوافر] بَعَثْتُكَ مَائِراً فَمَكَثْتَ حَوْلاً ... مَتَى يَأْتِي غِيَاثُكَ مَنْ تُغِيثُ[٥]

وقرأت عائشة رضي الله عنها: (ونُمِير) بضم النون، وهي من قراءة أبي عبد الرحمن السلمي[٦]، وعلى هذا يقال: مار وأمار بمعنى.

---

(١) انظره في معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٣/ ١١٨)، مع ما سيأتي عنه.

(٢) تفسير ابن أبي حاتم (٧/ ٢١٦٦)، تفسير السمعاني (٣/ ٤٥).

(٣) وهي شاذة، انظر عزوها له في الكامل للهذلي (ص: ٥٧٦)، الشواذ للكرماني (ص: ٢٤٩).

(٤) انظر: التحصيل (٣/ ٥٢٤)، ومختصر الشواذ (ص: ٦٩).

(٥) البيت لعائشة بنت سعد بن أبي وقاص في فند، كما في المستقصى في الأمثال (١/ ٢٣)، ديوان المعاني (١/ ٩)، ونسبه الجوهري في الصحاح (١/ ٢٨٩) للعامري غير مسمى، والقولان في تاج العروس (٥/ ٣١٣).

(٦) وهي شاذة، انظر عزوها للسلمي في تفسير القرطبي (٩/ ٢٢٤)، والبحر المحيط (٥/ ٢٩٦)، ولم أجدها لعائشة.

وقولهم: ﴿وَنَزۡدَادُ كَيۡلَ بَعِيرٖ﴾ يريدون بعير أخيهم، إذ كان يوسف إنما حمل لهم عشرة أبعرة ولم يحمل الحادي عشر لغيب[١] صاحبه.

وقال مجاهد: ﴿كَيۡلَ بَعِيرٖ﴾ أراد: كيل حمار، قال: وبعض العرب يقول للحمار: بعير[٢].

قال القاضي أبو محمد: وهذا شاذ.

وقولهم: ﴿ذَٰلِكَ كَيۡلٞ﴾ تقرير بغير ألف، أي: أذلك كيل يسير في مثل هذا العام فيهملَ أمره؟.

وقيل: معناه: يَسِيرٌ على يوسف أن يعطيه.

وقال الحسن البصري: قد كان يوسف وعدهم أن يزيدهم حمل بعير بغير ثمن.

وقال السدي: معنى ﴿ذَٰلِكَ كَيۡلٞ يَسِيرٞ﴾ أي: سريع لا نُحبس فيه ولا نمطَل[٣].

قال القاضي أبو محمد: فكأنهم آنسوه على هذا بقرب الأوبة.

قوله عز وجل: ﴿قَالَ لَنۡ أُرۡسِلَهُۥ مَعَكُمۡ حَتَّىٰ تُؤۡتُونِ مَوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأۡتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمۡۖ فَلَمَّآ ءَاتَوۡهُ مَوۡثِقَهُمۡ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ٦٦ وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ٦٧﴾.

أراد يعقوب عليه السلام أن يتوثق منهم، والموثق مفعل من الوثاقة[٤]، فلما عاهدوه أشهد الله بينه وبينهم بقوله: ﴿ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ﴾، والوكيل: القيم الحافظ الضامن[٥].

---

(١) في المطبوع وأحمد٣: «لغيبة».

(٢) تفسير الطبري (١٦/ ١٦٢)، ومعاني القرآن للنحاس (٣/ ٤٤١)، وتفسير ابن أبي زمنين (١/ ٣٠٨)، وتفسير الثعلبي (٥/ ٢٣٧).

(٣) انظر قولي الحسن والسدي في تفسير ابن أبي زمنين (١/ ٣٠٨).

(٤) في المصرية: «المواثقة».

(٥) «الضامن»: ساقطة من المطبوع.

وقرأ ابن كثير: ﴿تؤتوني﴾ بياء في الوصل والوقف، وروي عن نافع أنه وصل بياء ووقف دونها، والباقون تركوا الياء في الوجهين[١].

وقوله: ﴿لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ﴾ قيل: خشي عليهم العين لكونهم أحد عشر لرجل واحد، وكانوا أهل جمال وبسطة، قال ابن عباس[٢] والضحاك وقتادة وغيره: والعين حق[٣]، وقد قال رسول الله ﷺ: «إن العين لتُدخِل الرجل القبر والجمل القدر»[٤]، وفي تعوذه عليه السلام: «أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة وكل عين لامة»[٥].

وقيل: خشي أن يستراب بهم لقول يوسف قبل: أنتم جواسيس، ويضعف هذا ظهورهم قبلُ بمصر، وقيل: طمع بافتراقهم أن يستمعوا أو يتطلعوا خبر يوسف، وهذا ضعيف يرده: ﴿وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ فإن ذلك لا يتركب على هذا المقصد.

وقوله: ﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ لفظ عام لجميع وجوه الغلبة والقسر، والمعنى: تعمُّكم الغلبة من جميع الجهات حتى لا تكون لكم حيلة ولا وجه تخلص.

وقال مجاهد: المعنى: إلا أن تهلكوا جميعاً، وقال قتادة: إلا ألا تطيقوا ذلك[٦].

---

(١) وكلها سبعية، انظر: التيسير (ص: ١٣١)، إلا أن الذي أثبتها في الوصل أبو عمرو، أما نافع فإنما أثبتها في رواية ابن جماز وإسماعيل بن جعفر كما في السبعة (ص: ٣٥٤)، وليسا من طرق التيسير.

(٢) أخرجه الطبري (١٩٤٩٠) من طريق عطية العوفي، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) تفسير الطبري (١٦/ ١٦٥).

(٤) منكر، أخرجه الشهاب في «مسنده» (١٠٥٧-١٠٥٨)، وابن عدي في الكامل (٦/ ٤٠٧)، وأبو نعيم في الحلية (٧/ ٩)، والخطيب في تاريخ بغداد (١٠/ ٣٣٧) من طريق شعيب بن أيوب الصريفيني، عن معاوية بن هشام، عن سفيان، عن محمد بن المنكدر، عن جابر بن عبد الله به، وهذا الحديث منكر، كما قال الإمام الذهبي في الميزان (٢/ ٢٧٥) فإن معاوية بن هشام حسن الحديث لكنه يغرب بأشياء عن الثوري: اهـ وأخرجه الشهاب في مسنده (١٠٥٩)، وابن عدي في الكامل (٥/ ١٨٥) من طريق علي بن أبي علي اللهبي، عن محمد بن المنكدر به، واللهبي يروي عن الثقات الموضوعات وعن الثقات المقلوبات لا يجوز الاحتجاج به، قاله ابن حبان في المجروحين (٢/ ١٠٧).

(٥) أخرجه البخاري (٣٣٧١) من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

(٦) القولان في: تفسير الطبري (١٦/ ١٦٣)، وتفسير ابن أبي حاتم (٧/ ٢١٦٧)، وتفسير الماوردي =

قال القاضي أبو محمد: وهذا يرجحه لفظ الآية، وانظر أن يعقوب عليه السلام قد توثق في هذه القصة، وأشهد الله تعالى، ووصى بنيه، وأخبر بعد ذلك بتوكله، فهذا توكل مع تسبب، وهو توكل جميع المؤمنين إلا من شذ في رفض السعي وقنع بماء وبقل البرية ونحوه، فتلك غاية التوكل وعليها بعض الأنبياء عليهم السلام، والشارعون منهم مثبتون سنن التسبب الجائز، وما تجاوز ذلك من الإلقاء باليد مختلف في جوازه، وقد فضله بعض المجيزين له، ولا أقول بذلك، وباقي الآية بين.

قوله عز وجل: ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَاۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُۖ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

روي أنه لما ودَّعوا أباهم قال لهم: بلِّغوا ملك مصر سلامي، وقولوا له: إن أبانا يصلي عليك ويدعو لك ويشكر صنيعك معنا.

وفي كتاب أبي منصور المهراني[(١)]: «أنه خاطبه بكتاب قرئ على يوسف فبكى»[(٢)].

وقوله: ﴿مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ﴾ بمثابة قولهم: لم يكن في ذلك دفع قَدَر الله بل كان أرباً ليعقوب[(٣)] قضاه، وطيباً لنفسه تمسك به وأمر بحسبه، فجواب: ﴿لَمَّا﴾ في معنى قوله: ﴿مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾، و﴿إِلَّا حَاجَةً﴾ استثناء ليس من الأول.

= (٣/ ٥٩)، وتفسير الثعلبي (٥/ ٢٣٧).

(١) في المطبوع: «المهراتي»، وفي نجيبويه والحمزوية: «الهمداني»، وهو نصر بن بكر بن أحمد ابن الحسين المهراني الأستاذ أبو منصور الواعظ، فاضل كبير محترم، من بيت العلم والقراءة والحديث، روى عن جده، توفي سنة (٤٤٧هـ). المنتخب من تاريخ نيسابور (ص: ٥٠٨)

(٢) انظر مثله في تفسير الثعلبي (٥/ ٢٥٢)، والهداية لمكي (٥/ ٣٦٢٣).

(٣) في المطبوع: «يوسف».

والحاجَة هي أن يكون طيب النفس بدخولهم من أبواب متفرقة خوف العين. قال مجاهد: «الحاجة: خيفة العين»، وقاله ابن إسحاق[١]، وفي عبارتهما تجوُّز، ونظير هذا الفعل أن رسول الله ﷺ سد كوة في قبر بحجر وقال: «إن هذا لا يغني شيئاً ولكنه تطييب لنفس الحي»[٢].

قال القاضي أبو محمد: وقوله عندي: ﴿مَّا كَانَ يُغۡنِي عَنۡهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ﴾ معناه: ما يردُّ عنهم قَدَراً، لأنه لو قضي أن تصيبهم عين لأصابتهم مفترقين أو مجتمعين، وإنما طمع يعقوب أن تصادف وصيته [قدر السلامة، فوصى وقضى بذلك حاجته في نفسه في أن يتنعم برجائه أن تصادف][٣] القدر في سلامتهم.

ثم أثنى الله عز وجل على يعقوب بأنه لقن ما علمه الله من هذا المعنى، واندرج غير ذلك في العموم، وقال إن أكثر الناس ليس كذلك، وقيل: «معناه: إنه لعامل بما علَّمناه»، قاله قتادة، وقال سفيان: «من لا يعمل لا يكون عالماً»[٤].

قال القاضي أبو محمد: وهذا لا يعطيه اللفظ، أمَا إنه صحيح في نفسه يرجحه المعنى، وما تقتضيه منزلة يعقوب عليه السلام.

قال أبو حاتم: قرأ الأعمش: (لَذُو عِلْمٍ مما عَلَّمْناهُ)[٥]، ويحتمل أن يكون جواب: ﴿لَمَّا﴾ في هذه الآية محذوفاً مقدراً، ثم يخبر عن دخولهم أنه ﴿مَّا كَانَ يُغۡنِي﴾ الآية.

[٣/ ٧٦] وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا / دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ الآية، المعنى: أنه لما دخل إخوة

---

(١) تفسير الطبري (١٦/ ١٦٧ ١٦٨)، وتفسير ابن أبي حاتم (٧/ ٢١٦٩)، ومعاني القرآن للنحاس (٣/ ٤٤٣).

(٢) لم أقف عليه.

(٣) سقط من الأصل، وفي أحمد٣: «تصادف وصيته القدر».

(٤) القولان في تفسير الطبري (١٦/ ١٦٨)، والأول في تفسير ابن أبي حاتم (٧/ ٢١٧٠)، وتفسير الماوردي (٣/ ٦٠).

(٥) وهي شاذة، انظر: البحر المحيط (٦/ ٢٩٩).

يوسف عليه ورأى أخاه شكر ذلك لهم ـ على ما روي ـ وضم إليه أخاه وآواه إلى نفسه، ومن هذه الكلمة: المأوى، وكان يامين شقيق يوسف فآواه.

وصورة ذلك ـ على ما روي عن ابن إسحاق وغيره ـ: «أن يوسف عليه السلام أمر صاحب ضيافته أن ينزلهم رجلين رجلين، فبقي يامين وحده، فقال يوسف: أنا أُنزل هذا مع نفسي، ففعل وبات عنده، وقال له: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ﴾».

واختلف المتأولون في هذا اللفظ، فقال ابن إسحاق وغيره: «أخبره بأنه أخوه حقيقة واستكتمه، وقال له: لا تبال بكل ما تراه من المكروه في تحيلي في أخذك منهم»[١].

وعلى هذا التأويل يحتمل أن يشير بقوله: ﴿بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ إلى ما يعمله فتيان يوسف من أمر السقاية ونحو ذلك، ويحتمل أن يشير إلى ما عمله الإخوة قديماً.

وقال وهب بن منبه: «إنما أخبره أنه أخوه في الود مقام أخيه الذاهب، ولم يكشف إليه الأمر، بل تركه تجوز عليه الحيلة كسائر إخوته»[٢].

و﴿تَبۡتَئِسۡ﴾: تفتعل من البؤس، أي: لا تحزن ولا تهتم، وهكذا عبر المفسرون.

قوله عز وجل: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحۡلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلۡعِيرُ إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ وَأَقۡبَلُواْ عَلَيۡهِم مَّاذَا تَفۡقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُواْ نَفۡقِدُ صُوَاعَ ٱلۡمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمۡلُ بَعِيرٖ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٞ ﴿٧٢﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ عَلِمۡتُم مَّا جِئۡنَا لِنُفۡسِدَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾.

هذا من الكيد الذي يسره الله ليوسف عليه السلام، وذلك أنه كان في دين يعقوب أن يُستعبد السارق، وكان في دين مصر أن يضرب ويضعف عليه الغرم، فعلم يوسف أن إخوته ـ لثقتهم ببراءة ساحتهم ـ سيَدْعون في السرقة إلى حكمهم، فتحيل لذلك، واستسهل الأمر

(١) تفسير الطبري (١٦/ ١٦٩)، وتفسير ابن أبي حاتم (٧/ ٢١٧٠)، وتفسير الماوردي (٣/ ٦٠)، بتصرف.
(٢) تفسير الطبري (١٦/ ١٧٠)، وتفسير الثعلبي (٥/ ٢٣٨)، بتصرف.

ـ على ما فيه من رمي أبرياء بالسرقة وإدخال الهم على يعقوب عليه السلام، وعليهم ـ لمَا علم في ذلك من الصلاح في الآجل، وبوحي لا محالة وإرادة من الله محنتهم بذلك، هذا تأويل قوم، ويقويه قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ [يوسف: ٧٦].

وقيل: إنما أوحي إلى يوسف أن يجعل السقاية فقط، ثم إن حافظها فقدها، فنادى برأيه على ما ظهر إليه، ورجحه الطبري[١]، وتفتيش الأوعية يرد عليه، وقيل: إنهم لما كانوا قد باعوا يوسف استجاز أن يقال لهم هذا، وإنه عوقب على ذلك بأن قالوا: ﴿فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾، وقوله: ﴿جَعَلَ﴾ أي: بأمره خَدَمتَه وفتيانَه.

وقرأ ابن مسعود: (وجعل) بزيادة واو[٢].

و﴿ٱلسِّقَايَةَ﴾: الإناء الذي به يشرب الملك، وبه كان يكيل الطعام للناس، هكذا نص جمهور المفسرين: ابن عباس[٣] والحسن ومجاهد والضحاك وابن زيد[٤].

قال القاضي أبو محمد: وفي كتبِ مَن حرَّر أمرها أنها شكل له رأسان ويصل بينهما مقبض تمسك الأيدي فيه فيكال الطعام بالرأس الواحد ويشرب بالرأس الثاني أو بهما، فيشبه أن تكون لشرب أضياف الملك وفي أطعمته الجميلة التي يحتاج فيها إلى عظيم الأواني، وقال سعيد بن جبير: الصُواع مثل المكوك الفارسي، وكان إناء يوسف الذي يشرب فيه، وكان إلى الطول ما هو، قال: وحدثني ابن عباس أنه كان للعباس مثله يشرب به في الجاهلية[٥].

---

(١) راجع تفسير الطبري (١٦/ ١٩٣).

(٢) وهي شاذة، انظر عزوها له في معاني القرآن للفراء (١/ ١٠٨)، وتفسير الكشاف (٢/ ٤٩٠).

(٣) أخرجه الطبري (١٩٥١٦) من طريق عطية العوفي، عن ابن عباس رضي الله عنهما، وأخرجه ابن أبي حاتم (١١٧٨٧) من طريق بشر بن عمارة، عن أبي روق، عن الضحاك، عن ابن عباس رضي الله عنهما به، وبشر بن عمارة ضعيف.

(٤) تفسير الطبري (١٦/ ١٧٢)، وتفسير ابن أبي حاتم (٧/ ٢١٧١).

(٥) أخرجه الطبري (١٩٥٢٥) من طريق سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهما وإسناده صحيح.

قال القاضي أبو محمد: وقال ابن جبير أيضاً: الصواع: المكوك الفارسي الذي يلتقي طرفاه، كانت تشرب فيه الأعاجم[١]، وروي أنها كانت من فضة، وهذا قول الجمهور.

وروي أنها كانت من ذهب، قال الزجاج: وقيل: كان من مَسك[٢].

قال القاضي أبو محمد: وقد روي هذا بفتح الميم.

وقيل: كان يشبه الطاس، وقيل: من نحاس، قاله ابن عباس أيضاً[٣]، ولعزة الطعام في تلك الأعوام قُصر كيلها على ذلك الإناء. وكان هذا الجَعْل بغير علم من يامين، قاله السدي[٤]، وهو الظاهر.

فلما فصلت العير بأوقارها وخرجت من مصر ـ فيما روي، وقالت فرقة: بل قبل الخروج من مصر ـ أمر بهم فحبسوا، وأذَّن مؤذِّن.

ومخاطبة العير تجوُّز، والمراد أربابها، وإنما المراد: أيتها القافلة أو الرفقة.

وقال مجاهد: كانت دوابهم حميراً[٥]، ووصفهم بالسرقة من حيث سرق في الظاهر أحدهم، وهذا كما تقول: بنو فلان قتلوا فلاناً، وإنما قتله أحدهم.

فلما سمع إخوة يوسف هذه المقالة أقبلوا عليهم وساءهم أن يُرموا بهذه المنقبة، وقالوا: ﴿مَّاذَا تَفۡقِدُونَ﴾ ليقع التفتيش فتظهرَ براءتهم، ولم يلوذوا بالإنكار من أول،

---

(١) انظر أقوال ابن جبير في تفسير الطبري (١٦/ ١٧٦)، وتفسير ابن ابي حاتم (٧/ ٢١٧٣).

(٢) الذي في معاني القرآن وإعرابه له: «مس»، قال المحقق: «لعله من ماس، وربما من ميس، وهو شجر عظيم». اهـ. والمسك: الجلد.

(٣) أخرجه الطبري (١٩٥٣٦) من طريق عبد الصمد بن عبد الوارث، عن صدقة بن عباد، عن أبيه، عن ابن عباس رضي الله عنهما، وصدقة بن عباد بن نشيط الأسدي ترجم له البخاري في التاريخ الكبير (٤/ ٢٩٧)، وابن أبي حاتم في الجرح والتعديل (٤/ ٤٣٣)، وابن حبان في الثقات (٨/ ٣٢٠) ولم يذكروا فيه جرحاً ولا تعديلاً.

(٤) انظر تفسير الطبري (١٦/ ١٧٤)، وتفسير ابن أبي حاتم (٧/ ٢١٧٢).

(٥) تفسير الطبري (١٦/ ١٧٤)، وتفسير ابن أبي حاتم (٧/ ٢١٧٢)، وتفسير الثعلبي (٥/ ٢٣٩)، بتصرف يسير.

بل سألوا إكمال الدعوى عسى أن يكون فيها ما تبطل به، فلا يحتاج إلى خصام.

وقرأ أبو عبد الرحمن: (تُفْقِدون) بضم التاء[١]، وضعفها أبو حاتم.

﴿قَالُواْ نَفۡقِدُ صُوَاعَ ٱلۡمَلِكِ﴾: وهو المكيال، وهو السقاية، رسمه أولاً بإحدى جهتيه وآخِراً بالثانية.

وقرأ جمهور الناس: ﴿صُوَاعَ﴾ بضم الصاد وبألف.

وقرأ أبو حيوة: (صِواع) بكسر الصاد وبألف[٢].

وقرأ أبو هريرة ومجاهد: (صاع الملك) بفتح الصاد دون واو.

وقرأ عبد الله بن عون[٣]: (صُوع) بضم الصاد.

وقرأ أبو رجاء (صَوْع)[٤]، وهذه لغة في المكيال، قاله أبو الفتح وغيره.

وتؤنث هذه الأسماء وتذكَّر.

وقال أبو عبيد: يؤنث الصواع من حيث سمي سقاية، ويذكَّر من حيث هو صاع[٥].

وقرأ يحيى بن يَعْمَر: (صوغ) بالغين منقوطة، وهذا على أنه الشيء المصوغ للملك على ما روي أنه كان من ذهب أو من فضة، فهو مصدر سمي به، ورويت هذه القراءة عن أبي رجاء، قال أبو حاتم: وقرأ سعيد بن جبير والحسن: (صُواغ) بضم الصاد وألف وغين معجمة[٦].

---

(١) وهي شاذة، انظر: مختصر الشواذ (ص: ٦٩)، وانظر تضعيف أبي حاتم في البحر المحيط (٦/ ٣٠٣).

(٢) وهي شاذة، لم أجدها له إلا في البحر المحيط (٦/ ٣٠٣)، وعزاها الكرماني في الشواذ (ص: ٢٤٩)، لأبي البرهسم.

(٣) في المطبوع ونور العثمانية وأحمد٣: «عوف».

(٤) وكلها شاذة، انظر هذه القراءات الثلاث مع التوجيه في المحتسب (١/ ٣٤٦)، وبعضها في مختصر الشواذ (ص: ٦٩).

(٥) المخصص (٥/ ١٤٥).

(٦) وهما شاذتان، انظر الأولى في المحتسب (١/ ٣٤٦)، ومع الثانية في مختصر الشواذ (ص: ٦٩).

وقوله: ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمۡلُ بَعِيرٖ﴾، أي: لمن دل على سارقه وفضحه وجبر الصواع [على الملك][(١)]، وهذا جُعلٌ، وقوله: ﴿وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٞ﴾ حمالة، وذلك أنه لما كان الطعام لا يوجد إلا عند الملك فُهم من المؤذن أنه إنما جعل عن غيره، فلخوفه ألا يوثق بهذه الجعالة ـ إذ هي عن الغير ـ تحمل هو بذلك.

قال مجاهد:/ «الزَّعِيم هو المؤذِّن الذي قال: أَيتُـهَا الْعِيرُ»[(٢)]. [٣/ ٧٧]

والزعيم: الضامن في كلام العرب، ويسمى الرئيس زعيماً، لأنه يتضمن حوائج الناس.

وقوله: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ﴾ الآية، روي: أن إخوة يوسف كانوا ردوا البضاعة الموجودة في الرحال وتحرجوا من أخذ الطعام بلا ثمن، فلذلك قالوا: ﴿لَقَدۡ عَلِمۡتُم﴾ أي: لقد علمتم منا التحري، وروي أنهم كانوا قد اشتهروا في مصر بصلاح وتعفف، وكانوا يجعلون الأَكِمَّةَ في أفواه إبلهم لئلا تنال زرع الناس، فلذلك قالوا: لقد علمتم ما جئنا لفساد وما نحن أهل سرقة[(٣)].

والتاء في ﴿تَٱللَّهِ﴾ بدل من واو، كما أبدلت في تراث[(٤)]، وفي التوراة، وفي التخمة، ولا تدخل التاء في القَسَم إلا في المكتوبة من بين أسماء الله تعالى، [لا في غير ذلك][(٥)]؛ لا تقول: تالرحمن ولا تالرحيم.

وقوله تعالى: ﴿قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ﴾ الآية، قال فتيان يوسف: فما جزاء السارق ﴿إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ﴾ في قولكم: ﴿وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ﴾؟ فقال إخوة يوسف: جزاء السارق والحكم الذي تتضمنه هذه الألفاظ ﴿مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾، فـ﴿جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ الأول

---

(١) زيادة من المطبوع وأحمد٣.

(٢) تفسير الطبري (١٦/ ١٧٨)، تفسير ابن أبي حاتم (٧/ ٢١٧٤).

(٣) معاني القرآن للنحاس (٣/ ٤٤٧).

(٤) في نجيبويه: «ترب»، وفي نور العثمانية: «من قات».

(٥) في نجيبويه ونور العثمانية: «وغير ذلك»، وفي أحمد٣: «وغيرها».

مبتدأ و﴿مَن﴾ مبتدأ ثان[١] أو هي شرط أو بمعنى الذي، وقوله: ﴿فَهُوَ جَزَآؤُهُۥ﴾: خبر ﴿مَن﴾ والجملة خبر قوله: جَزاؤُهُ الأول، والضمير في ﴿قَالُواْ جَزَآؤُهُۥ﴾ للسارق.

ويصح أن تكون ﴿مَن﴾ خبراً على أن المعنى: جزاء السارق من وجد في رحله، والضمير في رحله عائد على ﴿مَن﴾، ويكون قوله: ﴿فَهُوَ جَزَآؤُهُۥ﴾ زيادة بيان وتأكيد، وليس هذا الموضع ـ عندي ـ من مواضع إبراز الضمير على ما ذهب إليه بعض المفسرين.

ويحتمل أن يكون التقدير: جزاؤه استرقاق من وجد في رحله، ثم يؤكِّد بقوله: ﴿فَهُوَ جَزَآؤُهُۥ﴾، وقولهم هذا قول من لم يسترب بنفسه، لأنهم التزموا إرقاق من وجد في رحله، وهذا أكثر من موجب شرعهم، إذ حق شرعهم أن لا يؤخذ إلا من صحت سرقته، وأمرُ يامين في السقاية كان محتملاً، لكنهم التزموا أن من وجد في رحله فهو مأخوذ على أنه سارق، وقولهم: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، أي: هذه سنتنا وديننا في أهل السرقة: أن يُتملك السارق كما تملك هو الشيء المسروق.

قال القاضي أبو محمد: وحكى بعض الناس: أن هذا الحكم كان في أول الإسلام ثم نسخ بالقطع[٢]، وهذا ضعيف، ما كان قط فيما علمت.

وحكى الزهراوي عن السدي: أن حكمهم إنما كان أن يستخدم السارق على قَدْر سرقته[٣].

وهذا يضعفه رجوع الصواع، فكان ينبغي ألا يؤخذ يامين إذ لم يبق فيما يخدم.

قوله عز وجل: ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾.

(١) من المطبوع وأحمد٣.
(٢) لم أقف على من قال بهذا القول، وانظر: أحكام القرآن للجصاص (٤/ ٣٩١).
(٣) أحكام القرآن للجصاص (٤/ ٣٩١).

بدؤه أيضاً من أوعيتهم تمكين للحيلة وإبعاد لظهور أنها حيلة.

وقرأ جمهور الناس: ﴿وِعَآءِ﴾ بكسر الواو.

[وقرأ الحسن: (وُعاء) بضمها، وقرأ ابن جبير: (إعاء) بهمزة بدل الواو][١]، وذلك شائع في الواو المكسورة، وهو أكثر في المضمومة، وقد جاء من المفتوحة: «أحد» في «وحد».

وأضاف الله تعالى الكيد إلى ضميره لما أُخرج القَدْرُ الذي أباح به ليوسف أخذ أخيه مُخرَجَ ما هو في اعتياد الناس كيدٌ، وقال السدي والضحاك: ﴿كِدْنَا﴾ معناه: صنعنا[٢].

و﴿دِينِ ٱلْمَلِكِ﴾ فسره ابن عباس بسلطانه[٣]، وفسره قتادة بالقضاء والحكم[٤].

قال القاضي أبو محمد: وهذا متقارب، والاستثناء في هذه الآية حكاية حال، التقدير: إلا إن شاء الله ما وقع من هذه الحيلة، ويحتمل أن يقدر أنه تسنن لما قرر النفي.

وقرأ الجمهور: ﴿نَرْفَعُ﴾ على ضمير المعظم و﴿نَّشَآءُ﴾ كذلك.

وقرأ الحسن وعيسى ويعقوب بالياء[٥]، أي: الله تعالى.

وقرأ أبو عمرو ونافع وأهل المدينة: ﴿درجاتِ مَن﴾ بإضافة الدرجات إلى ﴿مَنْ﴾.

وقرأ عاصم وابن محيصن: ﴿دَرَجَٰتٍ مَّن﴾ بتنوين الدرجات[٦].

---

(١) ساقط من الحمزوية، وكلا القراءتين شاذة، انظر الأولى في إعراب القرآن للنحاس (٢/ ٢١٠)، والثانية في المحتسب (١/ ٣٤٨).

(٢) تفسير الطبري (١٦/ ١٨٨)، وتفسير ابن أبي حاتم (٧/ ٢١٧٦).

(٣) أخرجه الطبري (١٩٥٧٠)، وابن أبي حاتم (١١٨٢٤) من طريق عطية العوفي، عن ابن عباس رضي الله عنهما به.

(٤) تفسير الطبري (١٦/ ١٨٨)، وتفسير ابن أبي حاتم (٧/ ٢١٧٦)، وتفسير الماوردي (٣/ ٦٤).

(٥) وهي عشرية ليعقوب كما في النشر (٢/ ٢٩٦)، وعزاها للباقين في البحر المحيط (٦/ ٣٠٧).

(٦) وهما سبعيتان، الثانية للكوفيين، والأولى للباقين، كما في التيسير (ص: ١٠٤)، وموافقة ابن محيصن في تفسير الثعلبي (٤/ ١٦٦).

وقرأ الجمهور: ﴿وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ﴾، وقرأ ابن مسعود (وفوق كل ذي عالم)[١].

والمعنى أن البشر في العلم درجات، فكل عالم فلا بد من أعلم منه، فإما من البشر وإما الله عز وجل، وأما على قراءة ابن مسعود فقيل: (ذِي) زائدة، وقيل: (عالم) مصدر كالباطل.

وروي أن المفتش كان إذا فرغ من رحل رجل فلم يجد فيه شيئاً استغفر الله عز وجل تائباً من فعله ذلك، وظاهر كلام قتادة وغيره: أن المستغفر كان يوسف، لأنه كان يفتشهم ويعلم أين الصواع، حتى فرغ منهم وانتهى إلى رحل بنيامين فقال: ما أظن هذا الفتى رضي بهذا، ولا أخذ شيئاً، فقال له إخوته: والله لا تبرح حتى تفتشه فهو أطيب لنفسك ونفوسنا، ففتش حينئذ فأخرج السقاية[٢].

وهذا التفتيش من يوسف يقتضي أن المؤذن إنما سرَّقهم برأيه، فإنما يقال: إن جميع ذلك كان بأمر الله تعالى، ويقوي ذلك قوله: ﴿كِدۡنَا﴾، وكيف لا يكون برأي يوسف وهو مضطر في محاولته إلى أن يُلزمهم حكم السرقة له أخذ أخيه.

والضمير في قوله: ﴿ٱسۡتَخۡرَجَهَا﴾ عائد على السِّقايَة، ويحتمل أن يعود على السرقة.

وروي أن إخوة يوسف لما رأوا ذلك قالوا: يا بنيامين بن راحيل، قبحك الله، ولدت أمك أخوين لصّين، كيف سرقت هذه السقاية؟ فرفع يديه إلى السماء وقال: والله ما فعلت، فقالوا له: فمن وضعها في رحلك؟ قال: الذي وضع البضاعة في رحالكم.

وما ذكرناه من المعنى في قوله: ﴿وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ﴾ هو قول الحسن وقتادة[٣]، وقد روي عن ابن عباس[٤].

---

(١) وهي قراءة شاذة، انظر: المحتسب (١/ ٣٤٦).

(٢) تفسير الطبري (١٦/ ١٨٤)، بتصرف.

(٣) تفسير الطبري (١٦/ ١٩٣)، وتفسير الثعلبي (٥/ ٢٤٢).

(٤) أخرجه الطبري (١٦/ ١٩٢) من طريق: إسرائيل، عن سالم، عن عكرمة، عن ابن عباس. ولا أدري من سالم هذا.

وروي أيضاً عنه رضي الله عنه: أنه حدَّث يوماً بحديث عجيب، فتعجَّب منه رجل ممن حضر، وقال: «الحمد لله وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ»، وقال ابن عباس: «بئس ما قلت، إنما العليم الله، وهو فوق كل ذي علم»[١].

قال القاضي أبو محمد: فبين هذا وبين قول الحسن فرق.

قوله عز وجل: ﴿قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ٧٧﴾.

الضمير في ﴿قَالُوٓاْ﴾ لإخوة يوسف، والأخ الذي أشاروا إليه هو يوسف، ونكروه تحقيراً للأمر، إذ كان / مما لا علم للحاضرين به، ثم ألصقوه ببنيامين، إذ كان شقيقَه. [٣/ ٧٨]

ويحتمل قولهم: ﴿إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُ﴾ تأويلين:

أحدهما: أنهم حققوا السرقة في جانب يامين ويوسف عليهما السلام، بحسب ظاهر الحكم، فكأنهم قالوا: إن كان قد سرق فغير بِدْعٍ من ابني راحيل، لأن أخاه يوسف كان قد سرق، فهذا من الإخوة إنحاء على ابني راحيل: يوسف ويامين.

والوجه الآخر الذي يحتمله لفظهم يتضمن أن السرقة في جانب يوسف ويامين مظنونة، كأنهم قالوا: إن كان هذا الذي رمي به يامين حقّاً في نفسه فالذي رمي به يوسف قبل حق إذاً، وكأن قصة يوسف والظن به قوي عندهم بما[٢] ظهر في جهة يامين.

وقال بعض المفسرين: التقدير: فقد قيل عن يوسف إنه سرق، ونحو هذا من الأقوال التي لا ينطبق معناها على لفظ الآية.

---

(١) ضعيف، أخرجه الطبري (١٦/ ١٩١) من طريق: عبد الأعلى الثعلبي، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس. وأحاديث عبد الأعلى هذا اضطرب فيمن أخذها، وهو ضعيف.

(٢) في المطبوع وأحمد٣ بدل بما: «أقوى مما».

وهذه الأقوال منهم عليهم السلام إنما كانت بحسب الظاهر وموجب الحكم في النازلتين، فلم يقعوا[١] في غيبة ليوسف، وإنما قصدوا الإخبار بأمر جرى ليزول بعض المعرة عنهم، ويختص بها هذان الشقيقان.

وأما ما روي في سرقة يوسف فثلاثة وجوه: الجمهور منها على أن عمته كانت ربتْه، فلما شب أراد يعقوب أخذه منها، فولعت به وأشفقت من فراقه، فأخذت مِنْطقةَ إسحاق ـ وكانت متوارثة عندهم ـ فمَنْطَقَتْه[٢] بها من تحت ثيابه، ثم صاحت وقالت: إني قد فقدت المنطقة ويوسف قد خرج بها، ففتشت فوجدت عنده، فاسترقَّته ـ حسبما كان في شرعه ـ وبقي عندها حتى ماتت فصار عند أبيه.

وقال ابن إدريس عن أبيه[٣]: «إنما أكل بنو يعقوب طعاماً فأخذ يوسف عَرْقاً فخبأه، فرموه لذلك بالسرقة»[٤].

وقال سعيد بن جبير وقتادة: إنما أمرته أمه أن يسرق صنماً لأبيها، فسرقه وكسره، وكان ذلك منها ومنه تغييراً للمنكر، [فرموه لذلك بالسرقة][٥].

وفي كتاب الزجاج: «أنه كان صنم ذهب»[٦].

والضمير في قوله: ﴿فَأَسَرَّهَا﴾ عائد يراد به الحزة التي حدثت في نفس يوسف[٧]

---

(١) هكذا: من نجيبويه، وفي الحمزوية: «يعينوا» وفي الأصل والمطبوع: «يعنوا».

(٢) في الأصل وأحمد٣ ونور العثمانية ونجيبويه: «فنطقته».

(٣) ابن إدريس هو أبو محمد، عبد الله بن إدريس الأودي الكوفي، ثقة، فقيه، عابد، من الثامنة، توفي سنة (١٩٢هـ). المعجم الصغير لرواة الطبري (٢/ ٧٩٥)، وأبوه هو إدريس بن يزيد بن عبد الرحمن الأودي، ثقة من السابعة. المعجم الصغير لرواة الطبري (٢/ ٧٩٠).

(٤) تفسير الطبري (١٦/ ١٩٦)، وتفسير ابن أبي حاتم (٧/ ٢١٧٨) بتصرف.

(٥) ساقط من المطبوع، وانظر: تفسير الطبري (١٦/ ١٩٥) بتصرف.

(٦) انظر: معاني القرآن وإعرابه له (٣/ ١٢٣).

(٧) «يوسف» من المطبوع ونور العثمانية وأحمد٣، وفي باقي النسخ: «يعقوب»، وهو خطأ. انظر: البحر المحيط (٦/ ٣٠٨).

من قولهم، والكلام يتضمنها، وهذا كما تضمن الكلام الضمير الذي في قول حاتم:

لَعمْـرك مَـا يُغْنِـي الثَّـرَاءُ عَـنِ الْفَتَـى إِذَا حَشْرَجَتْ يَوْماً وَضَاقَ بهَا الصَّدْرُ[١] [الطويل]

وهذا كقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [النحل: ١١٠] فهي مراد بها الحالة المتحصلة من هذه الأفعال [المذكورة في الآية][٢].

وقال قوم: أسرَّ المجازاة، وقال قوم: أسرَّ الحجة، وما قدمناه أليق.

وقرأ ابن أبي عبلة: (فأسره يوسف) بضمير تذكير[٣].

وقوله: ﴿أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗا﴾ الآية، الظاهر منه أنه قالها إفصاحاً، فكأنه أسر لهم كراهيةَ مقالتهم ثم تجهمهم بقوله: ﴿أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗا﴾ أي: لسوء أفعالكم، والله يعلم إن كان ما وصفتموه حقّاً، وفي اللفظ إشارة إلى تكذيبهم، ومما يقوي هذا عندي أنهم تركوا الشفاعة بأنفسهم وعدلوا إلى الشفاعة بالشيخ.

وقالت فرقة ـ وهو ظاهر كلام ابن عباس ـ: لم يقل يوسف هذا الكلام إلا في نفسه، وإنما هو تفسير للَّذي أسر في نفسه[٤].

أي: هذه المقالة هي التي أسر، فكأن المراد: قال في نفسه: ﴿أَنتُمۡ﴾ وذكر الطبري هنا قصصاً اختصاره: أنه لما استخرجت السقاية من رحل يامين قال إخوته: يا بني راحيل، ألا يزال البلاء ينالنا من جهتكم؟ فقال يامين: بل بنو راحيل ينالهم البلاء

---

(١) انظر عزوه له في جمهرة اللغة (٢/ ١٠٣٤)، وتهذيب اللغة (٩/ ٨٦)، والعقد الفريد (١/ ٢٤٤)، وأمالي الزجاجي (ص: ٩٢).

(٢) زيادة من المطبوع.

(٣) وهي شاذة، انظر: الشواذ للكرماني (ص: ٢٥٠)، والبحر المحيط (٦/ ٣٠٩).

(٤) أخرجه الطبري (١٩٦٠٨)، وابن أبي حاتم (١١٨٣٩) من طريق عطية العوفي، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

منكم: ذهبتم بأخي فأهلكتموه، ووضع هذا الصواع في رحلي الذي وضع الدراهم في رحالكم. فقالوا: لا تذكر الدراهم لئلا نؤخذ بها. ثم دخلوا على يوسف فأخذ الصواع فنقره فطن، فقال: إنه يخبر أنكم ذهبتم بأخ لكم فبعتموه، فسجد يامين وقال: أيها العزيز سل صواعك هذا يخبرك بالحق(١).

قال القاضي أبو محمد: ونحو هذا من القصص الذي آثرنا اختصاره.

وروي أن روبيل غضب ووقف شعره حتى خرج من ثيابه، فأمر يوسف بنيّاً له، فمسه، فسكن غضبه، فقال روبيل: لقد مسني أحد من ولد يعقوب، ثم إنهم تشاوروا في محاربة يوسف ـ وكانوا أهل قوة لا يدانَون في ذلك ـ فلما أحس يوسف بذلك قام إلى روبيل فلببه وصرعه، فرأوا من قوته ما استعظموه عند ذلك وقالوا: ﴿قَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ﴾ [يوسف: ٨٨].

قوله عز وجل: ﴿ قَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَـٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَـٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَـٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾.

خاطبوه باسم الْعَزِيز إذ كان في تلك الخطة(٢) بعزل الأول أو موته على ما روي في ذلك.

وقولهم: ﴿فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ﴾ يحتمل أن يكون مجازاً وهم يعلمون أنه لا يصح أخذ حر ليُسترقَّ بدل مَن أَحكمت السنة رقَّه، وإنما هذا كما تقول لمن تكره فعله:

(١) راجع تفسير الطبري (١٦/ ٢٠٠).

(٢) في المطبوع: «اللحظة».

اقتلني ولا تفعل كذا وكذا، وأنت لا تريد أن يقتلك، ولكنك تبالغ في استنزاله، وعلى هذا يتجه قول يوسف: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ لأنه تعوذ من غير جائز.

ويحتمل أن يكون قولهم: ﴿فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ﴾ حقيقةً، وبعيدٌ عليهم ـ وهم أنبياء ـ أن يريدوا استرقاق حر، فلم يبق إلا أن يريدوا بذلك طريق الحمالة، أي: خذ أحدنا حتى ينصرف إليك صاحبك، ومقصدهم بذلك أن يصل يامين إلى أبيه، ويعرف يعقوب جلية الأمر، فمَنع يوسفُ عليه السلام من ذلك، إذ الحمالة في الحدود ونحوها لمعنى إحضار المضمون فقط جائزةٌ مع التراضي، غيرُ لازمة إذا أبى الطالب[١]، وأما الحمالة في مثل ذلك على أن يلزم الحميلَ ما كان يلزم المضمونَ من عقوبة فلا يجوز ذلك إجماعاً[٢]، وفي الواضحة: أن الحمالة بالوجه فقط في جميع الحدود جائزة إلا في النفس[٣].

وقولهم: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ / مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾: يحتمل أن يريدوا وصفه بما رأوه من إحسانه في جميع أفعاله معهم ومع غيرهم، ويحتمل أن يريدوا: إنا نرى لك إحساناً علينا في هذه اليد إن أسديتها إلينا، وهذا تأويل ابن إسحاق[٤]. [٣/ ٧٩]

و﴿مَعَاذَ﴾ نصب على المصدر، ولا يجوز إظهار الفعل معه.

والظلم في قوله: ﴿لَّظَٰلِمُونَ﴾ على حقيقته، إذ هو وضع الشيء في غير موضعه، وذكر الطبري أنه روي أن يوسف لما أيأسهم بلفظه هذا، قال لهم: إذا أتيتم أباكم فاقرؤوا عليه السلام، وقولوا له: إن ملك مصر يدعو لك ألا تموت حتى ترى ولدك يوسف، ليعلم أن في أرض مصر صدِّيقين مثله[٥].

---

(١) هذا قول للحنفية في حاشية ابن عابدين (٥/ ٣٠٨)، والهداية (٣/ ٧٢، ٧٤)، والشافعية في حاشية الباجوري (١/ ٣٨٢).

(٢) لم أقف على من نقل هذا الإجماع في المسألة؛ كما لم أجد من قال بخلافه من العلماء.

(٣) انظر ما نسبه لابن حبيب في: البيان والتحصيل (١١/ ٣٢٩).

(٤) تفسير الطبري (١٦/ ٢٠٢)، وتفسير ابن أبي حاتم (٧/ ٢١٨٠)، وتفسير الماوردي (٣/ ٦٦) بتصرف.

(٥) تفسير الطبري (١٦/ ٢٠٣)، بتصرف.

وقوله: ﴿فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ﴾ الآية، يقال: يئس واستيأس بمعنًى واحد، كما يقال: سخر واستسخر، ومنه قوله تعالى: ﴿يَسۡتَسۡخِرُونَ﴾ [الصافات: ١٤] وكما يقال: عجب واستعجب، ومنه قول أوس بن حجر:

[الطويل] ومُسْتعْجِبٍ ممَّا يَرى مِنْ أناتِنَا ... ولوْ زَبَنَتْهُ الحَرْبُ لَمْ يَتَـرَمْرَمِ[1]

ومنه: نَوِكَ واستنوك، وعلى هذا يجيء قول الشاعر في بعض التأويلات:

[الرجز] واسْـتَنْوَكَـت وللشَّبـاب نُـوكُ[2]

وهذه قراءة الجمهور، وقرأ ابن كثير: ﴿استأيسوا﴾ و﴿لا تأيسوا﴾ و﴿لا يأيس﴾ و﴿حتى إذا استأيس الرسل﴾[3]، أصله استأيسوا ـ استفعلوا من أيس ـ على قلب الفعل من يئس إلى أيس، وليس هذا كجذب وجبذ، بل هذان أصلان والأول قلب، دل على ذلك أن المصدر من يئس وأيس واحد، وهو اليأس، ولجذب وجبذ مصدران.

وقوله: ﴿خَلَصُواْ نَجِيّٗا﴾ معناه: انفردوا عن غيرهم يناجي بعضهم بعضاً، والنجي لفظ يوصف به من له نجوى واحداً كان أو جماعة، أو مؤنثاً أو مذكَّراً، فهو مثل عدوٍّ وعدلٍ، وجمعه أنجية، قال لبيد:

[الكامل] وشَـهِدتُ أَنْجِيَـةَ الأُفاقَـةِ عالِيـاً ... كَعبي وأَرْدافُ المُلوكِ شُهودُ[4]

و﴿كَبِيرُهُمۡ﴾؛ قال مجاهد: «هو شمعون؛ لأنه كان كبيرهم رأياً وتدبيراً وعلماً، وإن

---

(١) تقدم في تفسير الآية ١٣ من سورة البقرة، وفي نجيبويه: «يتزمزم».

(٢) بلا نسبة في الزاهر للأنباري (١/ ١٣٦)، وأمالي القالي (١/ ٣٥)، وتهذيب اللغة (١٠/ ٢٠٨)، والمخصص (٤/ ٣١٣).

(٣) فهي سبعية من رواية البزي عنه كما في التيسير (ص: ١٢٩).

(٤) انظر عزوه له في مجاز القرآن (١/ ٣١٥)، وتفسير الطبري (١٦/ ٢٠٤)، وتهذيب اللغة (٩/ ٢٥٩)، قال: وأفاقة: موضع.

كان روبيل أسنهم»[١]، وقال قتادة: «هو روبيل لأنه أسنهم»، وهذا أظهر ورجحه الطبري[٢].

قال السدي: معنى الآية: وقال كبيرهم في العلم، وذكَّرهم أخوهم الميثاق في قول يعقوب ﴿لَتَأْتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ [يوسف: ٦٦][٣].

وقوله: ﴿مَا فَرَّطتُمْ﴾ يصح أن تكون ﴿مَا﴾ صلة في الكلام لا موضع لها من الإعراب.

ويصح أن تكون في موضع رفع بالابتداء والخبر قوله: ﴿فِى يُوسُفَ﴾، كذا قال أبو علي[٤].

ولا يجوز أن يكون قوله: ﴿وَمِن قَبْلُ﴾ متعلقاً بـ﴿مَا فَرَّطتُمْ﴾.

قال القاضي أبو محمد: وإنما تكون على هذا مصدرية، التقدير: مِن قبلُ تفريطُكم في يوسف واقع أو مستقر، وبهذا المقدر يتعلق قوله: ﴿وَمِن قَبْلُ﴾.

ويصح أن يكون في موضع نصب عطفاً على ﴿أَنَّ﴾، التقدير: وتَعْلَموا تفريطَكم، أو: وتعلموا الذي فرطتم، فيصح على هذا الوجه أن يكون بمعنى الذي ويصح أن تكون مصدرية.

وقوله: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ﴾ أراد أرض القطر والموضع الذي ناله فيه المكروه المؤدي إلى سخط أبيه، والمقصد بهذا اللفظ التحريج على نفسه والتزام التضييق، كأنه سجن نفسه في ذلك القطر ليبلي عذراً.

وقوله: ﴿أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى﴾ لفظ عام بجميع ما يمكن أن يرده من القدر؛ كالموت أو النصرة وبلوغ الأمل وغير ذلك، وقال أبو صالح: أو يحكم الله لي بالسيف[٥].

---

(١) تفسير الطبري (١٦/ ٢٠٦)، وتفسير ابن ابي حاتم (٧/ ٢١٨١)، وتفسير الماوردي (٣/ ٦٧).

(٢) تفسير الطبري (١٦/ ٢٠٦)، وانظر قول قتادة فيه، وفي تفسير ابن أبي حاتم (٧/ ٢١٨١)، وتفسير الماوردي (٣/ ٦٧).

(٣) تفسير الطبري (١٦/ ٢٠٧)، وتفسير ابن أبي زمنين (١/ ٣١٠).

(٤) ليس في الحجة، فلعله في بعض مسائله الأخرى.

(٥) تفسير الطبري (١٦/ ٢٠٩)، وتفسير الماوردي (٣/ ٦٧)، وتفسير الثعلبي (٥/ ٢٤٥).

ونصب ﴿يَحْكُمَ﴾ بالعطف على ﴿يَأْذَنَ﴾ ويجوز أن تكون ﴿أَوْ﴾ في هذا الموضع بمعنى: إلا أن، كما تقول: لألْزمنك أو تقضيَني حقي، فتنصب على هذا ﴿يَحْكُمَ﴾ بـ﴿أَوْ﴾.

وروي أنهم لما وصلوا إلى يعقوب بكى وقال: «يا بَني ما تذهبون عني مرة إلا نقصتم: ذهبتم فنقصتم يوسف، ثم ذهبتم فنقصتم شمعون حيث ارتهن، ثم ذهبتم فنقصتم يامين وروبيل»(١).

قوله عز وجل: ﴿ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾﴾.

الأمر بالرجوع قيل: هو من قول كبيرهم، وقيل: بل هو من قول يوسف لهم، والأول أظهر.

وقرأ الجمهور: ﴿سَرَقَ﴾ على تحقيق السرقة على يامين، بحسب ظاهر الأمر.

وقرأ ابن عباس وأبو رزين: (سُرِّق) بضم السين وكسر الراء وتشديدها(٢).

وكأن هذه القراءة فيها لهم تحرٍّ، ولم يقطعوا عليه بسرقة، وإنما أرادوا: جعل سارقاً بما ظهر من الحال، ورويت هذه القراءة عن الكسائي.

وقرأ الضحاك: (إن ابنك سارقٌ) بالألف وتنوين القاف(٣).

ثم تحروا بعدُ على القراءتين في قولهم: ﴿وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ أي:

---

(١) تفسير الطبري (١٦/ ٢٠٧).

(٢) وهي شاذة، انظر عزوها لهما ولرواية عن الكسائي في مختصر الشواذ (ص: ٦٩)، وليست من الطرق.

(٣) وهي شاذة، انظر عزوها له في البحر المحيط (٦/ ٣١٢)، والشواذ للكرماني (ص: ٢٥١).

وقولنا لك: ﴿إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ﴾ إنما هي شهادة عندك بما علمناه من ظاهر ما جرى، والعلم في الغيب إلى الله، ليس في ذلك حفظنا، هذا قول ابن إسحاق[١].

وقال ابن زيد: «قولهم: ﴿وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ أرادوا به: وما شهدنا عند يوسف بأن السارق يُسترقّ في شرعك إلا بما علمنا من ذلك، ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ﴾ أن السرقة تُخرج من رحل أحدنا، بل حسبنا أن ذلك لا يكون البتة، فشهدنا عنده حين سألنا بعلمنا»[٢].

وقرأ الحسن: (وما شهدنا عليه إلا بما علمنا) بزيادة (عليه)[٣].

ويحتمل قوله: ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ﴾ أي: حين واثقناك، إنما قصدنا ألا يقع منا نحن في جهته شيء يكرهه، ولم نعلم الغيب في أنه سيأتي هو بما يوجب رقه.

وروي أن معنى قولهم: ﴿لِلْغَيْبِ﴾ أي: الليل، والغيب: الليل بلغة حمير[٤]، فكأنهم قالوا: وما شهدنا عندك إلا بما علمناه من ظاهر حاله، وما كنا بالليل حافظين لما يقع من سرقته هو أو التدليس عليه، ثم استشهدوا بأهل القرية التي كانوا فيها وهي مصر، قاله ابن عباس[٥] وغيره، وهذا مجاز، والمراد أهلها.

وكذلك قوله: ﴿وَٱلْعِيرَ﴾، هذا قول الجمهور، وهو الصحيح، وحكى أبو المعالي في التلخيص عن بعض المتكلمين أنه قال: هذا من الحذف / وليس من المجاز، قال: وإنما المجاز لفظة تستعار لغير ما هي له[٦]. [٣/ ٨٠]

---

(١) تفسير الطبري (١٦/ ٢١٠)، وتفسير الماوردي (٣/ ٦٨) بتصرف.

(٢) تفسير الطبري (١٦/ ٢١٠)، وتفسير ابن أبي حاتم (٧/ ٢١٨٢)، وتفسير الماوردي (٣/ ٦٨)، بتصرف.

(٣) شاذة، لم أجد أحداً ذكرها على أنها قراءة.

(٤) تفسير الطبري (١٦/ ٢١٢).

(٥) منقطع، أخرجه الطبري (١٩٦٤٢) من طريق ابن جريج، عن ابن عباس رضي الله عنهما، وابن جريج لم يدرك ابن عباس رضي الله عنهما.

(٦) انظر التلخيص لأبي المعالي (١/ ١٨٦).

قال القاضي أبو محمد: وحذف المضاف هو عين المجاز وعظمه، هذا مذهب سيبويه وغيره من أهل النظر، وليس كل حذف مجازاً[(١)].

ورجح أبو المعالي في هذه الآية «أنه مجاز، وحكى أنه قول الجمهور أو نحو هذا»[(٢)].

وقالت فرقة: بل أحالوه على سؤال الجمادات والبهائم حقيقة، ومن حيث هو نبي فلا يبعد أن تخبره بالحقيقة.

قال القاضي أبو محمد: وهذا وإن جُوز فبعيد، والأول أقوى، وهنا كلام مقدر يقتضيه الظاهر، تقديره: فلما قالوا هذه المقالة لأبيهم قال: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ﴾، وهذا على أن يتصل كلام كبيرهم إلى هنا، ومن يرى أن كلام كبيرهم تم في قوله: ﴿إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ﴾، فإنه يجعل الكلام تقديره: فلما رجعوا قالوا: ﴿إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ﴾ الآية.

والظاهر أن قوله: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾، إنما هو ظن سيِّئ بهم، كما كان في قصة يوسف قبل، فاتفق أن صدق ظنه هناك، ولم يتحقق هنا.

و﴿سَوَّلَتْ﴾ معناه: زينت وحيلت[(٣)] وجعلته سولاً، والسول ما يتمناه الإنسان ويحرص عليه.

وقوله: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ إما ابتداء وخبره: أمثل أو أولى، وحسن الابتداء بنكرة من حيث وصفت.

وإما خبر ابتداء تقديره: فأمري أو شأني، أو: صبري صبر جميل، وهذا أليق بالنكرة أن تكون خبراً.

ومعنى وصفه بالجمال: أنه ليس فيه شكوى إلى بشرٍ، ولا ضجرٌ بقضاء الله

---

(١) الكتاب لسيبويه (١/ ٢١٢)، وسماه: اتّساع الكلام.

(٢) انظر ما نسبه لأبي المعالي في: التلخيص (١/ ١٨٥-٨٨)، قال: وهو الجاري على وفق استعمال أهل اللغة.

(٣) في المطبوع: «خيلت»، وفي نور العثمانية وأحمد٣: «حييت».

تعالى، ثم ترجى عليه السلام من الله أن يَجبرهم عليه وهم يوسف ويامين وروبيل الذي لم يبرح الأرض، ورجاؤه هذا من جهات:

إحداها: الرؤيا التي رأى يوسف فكان يعقوب ينتظرها.

والثانية: حسنُ ظنِّه بالله تعالى في كل حال.

والثالثة: ما أخبروه به عن مَلِك مصر أنه يدعو له برؤية ابنه، فوقع له ـ من هنا ـ تحسس ورجاء.

والوصف بالعلم والإحكام لائق بما يرجوه من لقاء بنيه، وفيها تسليم لحكمة الله تعالى في جميع ما جرى عليه.

قوله عز وجل: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾.

المعنى: أنه لما ساء ظنه بهم ولم يصدِّق قولهم بل استراب به، تَوَلَّى عَنْهُمْ، أي: زال بوجهه عنهم وجعل يتفجع ويتأسف.

قال الحسن: خصت هذه الأمة بالاسترجاع، ألا ترى إلى قول يعقوب: يا أَسَفى[1].

قال القاضي أبو محمد: والمراد: يا أسفِي، لكن هذه لغة من يردُّ ياء الإضافة ألفاً نحو: يا غلاما ويا أبتا، ونادى الأسف على معنى: احْضُرْ فهذا من أوقاتك.

وقيل: قوله: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ﴾ على جهة الندبة، وحَذَف الهاء التي هي في الندبة علامة المبالغة في الحزن تجلداً منه عليه السلام، إذ كان قد ارتبط إلى الصبر الجميل.

وقيل: قوله: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ﴾ نداء فيه استغاثة.

قال القاضي أبو محمد: ولا يبعد أن يجتمع الاسترجاع ويا أَسَفى لهذه الأمة وليعقوب عليه السلام.

---

(١) تفسير الطبري (١٦/ ٢١٧).

﴿وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ﴾؛ أي من ملازمة البكاء الذي هو ثمرة الحزن، وروي أن يعقوب عليه السلام حَزِن حُزْن سبعين ثكلى، وأُعطِي أجرَ مئة شهيد، وما ساء ظنه بالله قط، رواه الحسن عن النبي ﷺ[١].

وقرأ ابن عباس ومجاهد: (من الحَزَن) بفتح الحاء والزاي، وقرأ قتادة بضمهما[٢].

وقرأ الجمهور بضم الحاء وسكون الزاي.

﴿فَهُوَ كَظِيمٞ﴾؛ بمعنى: كاظم، كما قال: ﴿وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ﴾ [آل عمران: ١٣٤]، ووصف يعقوب بذلك لأنه لم يشكُ إلى أحد، وإنما كان يكمد في نفسه ويمسك همه في صدره، وكان يكظمه، أي: يرده إلى قلبه ولا يرسله بالشكوى والغضب والضجر.

وقال ناس: ﴿كَظِيمٞ﴾ بمعني: مكظوم.

قال القاضي أبو محمد: وقد وصف الله تعالى يونس عليه السلام بمكظوم في قوله: ﴿إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ﴾ [القلم: ٤٨]، وهذا إنما يتجه على تقدير أنه مليء بحزنه، فكأنه كظم بثه في صدره، وجريُ ﴿كَظِيمٞ﴾ على باب كاظم أبين.

وفسر ناس الكظيم بالمكروب وبالمكمود، وذلك كله متقارب.

وقال منذر بن سعيد: الأسف إذا كان من جهةٍ من هو أقل من الإنسان فهو غضب، ومنه قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ﴾ [الزخرف: ٥٥] ومنه قول الرجل الذي ذهبت لخادمه الشاة من الغنم: فأسفت فلطمتها[٣]، وإذا كان من جهةٍ لا يطيقها فهو حزن وهمٌّ[٤].

---

(١) ضعيف مرسل، أخرجه الطبري (١٩٧١٨-١٩٧١٩) بإسناد ضعيف، عن الحسن مرسلاً.

(٢) وهي شاذة، انظر عزو الثانية في مختصر الشواذ (ص: ٦٩)، ومع الأولى لمجاهد في الشواذ للكرماني (ص: ٢٥١).

(٣) في صحيح مسلم (٥٣٧) بلفظ: وأنا رجل من بنى آدم آسف كما يأسفون.

(٤) انظر قريباً منه عنه في البحر المحيط (٧/ ١٣٩)، وسيأتي للمصنف هناك (في سورة الكهف) مزيد كلام على هذا.

قال القاضي أبو محمد: وتحرير هذا المنزع: أن الأسف يقال في الغضب، ويقال في الحزن، وكل واحد من هذين يحرز حاله التي يقال عليها.

وقوله تعالى: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ﴾ الآية، المعنى: تالله لا تفتأ، فتحذف «لا» في هذا الموضع من القَسَم لدلالة الكلام عليها، فمن ذلك قول امرئ القيس:

فقلتُ يَمينُ اللهِ أَبْرَحُ قاعِداً ولو قَطَّعوا رأسي لَدَيْكِ وأَوْصالي[1] [الطويل]

ومنه قول الآخر:

تالله يَبْقَى على الأيَّام ذو حَيَدٍ بمشمخرٍّ به الظَّيان والآسُ[2] [البسيط]

أراد: لا يبرح، و: لا يبقى، وقال الزجاجي: وقد تحذف أيضاً «ما» في هذا الموضع[3].

قال القاضي أبو محمد: وخطأه بعض النحويين، ومن المواضع التي حذفت فيها «لا» ويدل عليها الكلام قول الشاعر:

فَلا وأَبِي دَهْمَاءَ زَالَتْ عَزِيزَةً عَلَى قَوْمِهَا مَا فَتَّلَ الزَّنْدَ قَادِحُ[4] [الطويل]

وقوله: «ما فتل الزند قادح» يوجب أن المحذوف «لا»، وليست «ما».

و«فتئ» بمنزلة «زال» و«برح» في المعنى والعمل، تقول: والله لا فتئت قاعداً، كما تقول: لا زلت ولا برحت، ومنه قول أوس بن حجر:

---

(١) انظر عزوه له في الكتاب لسيبويه (٣/ ٥٠٤)، ومعاني القرآن للفراء (٢/ ٥٤)، والشعر والشعراء (١/ ١٣٦).

(٢) البيت لأمية بن أبي عائذٍ كما في الكتاب لسيبويه (٣/ ٤٩٧)، والأصول في النحو (١/ ٤٣٠)، والمخصص (٤/ ٧٢)، وعزاه في المحكم (٣/ ٤٢٧)، وجمهرة اللغة (١/ ٥٧)، لمالك بن خَالِد الخناعي الْهُذلِيّ، وفي الصحاح (٢/ ٤٦٨) للهذلي غير مسمى، والقولان في خزانة الأدب للبغدادي (١٠/ ٩٨)، زاد: ونسبها السكري إلى أبي ذؤيب الهذلي.

(٣) في نجيبويه: «الزجاج»، ولم أقف عليه لواحد منهما.

(٤) بلا نسبة في معاني القرآن للفراء (٢/ ٥٤)، وغيره، وفي خزانة الأدب للبغدادي (٩/ ٢٤١): لم أقف له على تتمة ولا قائل.

[الطويل] فَمَـا فَـتِـئَـتْ حَـتَّـى كأَنَّ غُـبَـارَهَـا سُـرَادِقُ يَـوْمٍ ذِي رِيَـاحٍ تَـرَفَّـعُ[١]

والحرَض: الذي قد نهكه الهرمُ أو الحب أو الحزن إلى حال فساد الأعضاء والبدن والحس، وعلى هذا المعنى قراءة الجمهور: ﴿حَرَضًا﴾ بفتح الراء والحاء.

وقرأ الحسن بن أبي الحسن بضمهما، وقرأت فرقة: (حُرْضاً) بضم الحاء وسكون الراء[٢].

وهذا كله المصدر يوصف به المذكَّر والمؤنث والمفرد والجمع بلفظ واحد، كعدل وعدوّ، وقيل في قراءة الحسن: إنه يراد / : فتات الأُشْنان، أي: باليا متفتتاً. [٣/ ٨١]

ويقال من هذا المعنى الذي هو من[٣] الهم والهرم: رجل حارض، ويثنى هذا البناء ويجمع ويؤنث ويذكر، ومن هذا المعنى قول الشاعر:

[البسيط] إنِّـي امْرُؤٌ لَـجّ بي حُـبٌّ فأَحْرَضَني حَتَّى بَلِيتُ وحَتّى شَـفَّني السَّقَمُ[٤]

وقد سمع من العرب: رجل مُحْرَض، قال الشاعر؛ وهو امرؤ القيس:

[الطويل] أَرَى المَرْءَ ذَا الأَذْوَادِ يُصْبِحُ مُحْرَضاً كَإِحْرَاضِ بَكْرٍ في الدِّيَارِ مَرِيضِ[٥]

والحَرَض بالجملة: الذي فسد ودنا موته، قال مجاهد: الحرض: ما دون الموت، قال قتادة: الحرض: البالي الهرِم، وقال نحوَه الضحاك والحسن، وقال ابن إسحاق: ﴿حَرَضًا﴾ معناه: فاسداً لا عقل له[٦]، فكأنهم قالوا على جهة التعنيف له: أنت لا تزال تذكر يوسف إلى حال القرب من الهلاك، أو إلى الهلاك.

---

(١) انظر عزوه له في تفسير الطبري (١٦/ ٢٢٠)، وتفسير الثعلبي (٥/ ٢٤٧)، وتاج العروس (٣٢/ ٤٦١).
(٢) وهما شاذتان، انظر الأولى في الشواذ للكرماني (ص: ٢٥١)، والثانية في تفسير القرطبي (٩/ ٢٥١) لأنس.
(٣) في المطبوع: «شن».
(٤) البيت للعرجي كما في مجاز القرآن (١/ ٣١٧)، والأغاني (١/ ٣٧٥)، وتفسير الطبري (١٦/ ٢٢١).
(٥) انظر عزوه له في تفسير الطبري (١٦/ ٢٢٢)، والمحكم (٣/ ١٢٤)، وتاج العروس (١٨/ ٢٩١).
(٦) انظر هذه الأقوال في تفسير الطبري (١٦/ ٢٢٣-٢٢٤)، وانظر تفسير ابن أبي حاتم (٧/ ٢١٨٨).

فأجابهم يعقوب عليه السلام راداً عليهم، أي: إني لست ممن يجزع ويضجر فيستحقَّ التعنيف، وإنما أشكو إلى الله، ولا تعنيف في ذلك.

والبث: ما في صدر الإنسان مما هو معتزم أن يبثه وينشره، وأكثر ما يستعمل البث في المكروه، وقال أبو عبيدة وغيره: «البث: أشد الحزن»[(١)].

وقد يستعمل البث في المخفي على الجملة، ومنه قول المرأة في حديث أم زرع: «ولا يولج الكفَّ ليَعلم البَثَّ»[(٢)]، ومنه قولهم: أبثك حديثي.

وقرأ عيسى: (وحَزَني) بفتح الحاء والزاي[(٣)].

وحكى الطبري بسند: «أن يعقوب دخل على فرعون وقد سقط حاجباه على عينيه من الكبر، فقال له فرعون: ما بلغ بك هذا يا إبراهيم؟ فقالوا: إنه يعقوب، فقال: ما بلغ بك هذا يا يعقوب؟ قال له: طول الزمان وكثرة الأحزان، فأوحى الله إليه: يا يعقوب، أتشكوني إلى خلقي؟ فقال: يا رب خطيئة فاغفرها لي»[(٤)].

وأسند الطبري إلى الحسن قال: «كان بين خروج يوسف عن يعقوب إلى دخول يعقوب على يوسف ثمانون سنة، لم يفارق الحزن قلبه، ولم يزل يبكي حتى كُفَّ بصره، وما في الأرض يومئذ أكرم على الله من يعقوب»[(٥)].

وقوله: ﴿وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ يحتمل أنه أشار إلى حسن ظنه بالله وجميل عادة الله عنده، ويحتمل أنه أشار إلى الرؤيا المنتظرة، أو إلى ما وقع في نفسه عن قول ملك مصر: إني أدعو له برؤية ابنه قبل الموت، وهذا هو حسن الظن الذي قدمناه.

---

(١) مجاز القرآن (١/ ٣١٧).

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري (٥١٨٩)، ومسلم (٢٤٤٨) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) وهي شاذة، انظر: مختصر الشواذ (ص: ٦٩).

(٤) تفسير الطبري (١٦/ ٢٢٨).

(٥) تفسير الطبري (١٦/ ٢٣٢).

قوله عز وجل: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨٧ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيۡهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ ٨٨﴾.

المعنى: اذْهَبُوا إلى الأرض التي جئتم منها وتركتم بها أخويكم يامين وروبيل، ﴿فَتَحَسَّسُواْ﴾، أي: استقصُوا ونقِّروا، والتحسس: طلب الشيء بالحواس البصر والسمع[1]، ويستعمل في الخير والشر، فمن استعماله في الخير هذه الآية، وفي الشر نهي النبي ﷺ في قوله: «ولا تحسسوا»[2].

وقوله: ﴿مِن يُوسُفَ﴾ يتعلق بمحذوف يعمل فيه (تحسسوا) التقدير: فتحسسوا نبأً أو حقيقة من أمر يوسف، لكن يحذف ما يدل ظاهر القول عليه إيجازاً.

وقرأت فرقة: ﴿تَاْيۡـَٔسُواْ﴾، وقرأت فرقة ﴿تأيسوا﴾ على ما تقدم[3].

وقرأ الأعرج: (تئسوا) بكسر التاء[4].

وخص يوسفَ ويامين بالذكر لأن روبيل إنما بقي مختاراً، وهذان قد منعا الأوبة.

والرَّوح: الرحمة، ثم جعل اليأس من رحمة الله وتفريجه من صفة الكافرين، إذ فيه إما التكذيب بالربوبية، وإما الجهل بصفات الله تعالى.

وقرأ الحسن وقتادة وعمر بن عبد العزيز: (من رُوح الله) بضم الراء[5]، وكأن معنى هذه القراءة: لا تأيسوا من حيٍّ معه رُوح الله الذي وهبه، فإن من بقي روحه فيرجى، ومن هذا قول الشاعر:

---

(١) «البصر والسمع»: ساقطة من المطبوع.

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري (٥١٤٣)، ومسلم (٢٥٦٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) وهي قراءة ابن كثير كما تقدم قريباً.

(٤) وهي شاذة، انظرها في البحر المحيط (٦/ ٣١٥)، والشواذ للكرماني (ص: ٢٥١)، وزاد مجاهداً.

(٥) وهي شاذة، انظر: المحتسب (١/ ٣٤٨).

.... وفي غيرِ من قد وارتِ الأرضُ فاطْمعِ[١] [الطويل]

ومن هذا قول عبيد:

وكُـــلُّ ذِي غَـيْـبَـةٍ يَـئُـوبُ وغـائِـبُ الـمَـوْتِ لا يَـؤُوبُ[٢] [مخلع البسيط]

ويظهر من حديث الذي قال: «إذا مت فأحرِقوني ثم اسحقوني ثم اذروني في البحر والبر في يوم راح، فلئن قَدَر الله عليّ ليعذبنِّي عذاباً ما عذبه أحداً من الناس»[٣]، أنه يئس من رَوح الله، وليس الأمر كذلك، لأن قول النبي ﷺ في آخر الحديث: «فغفر الله له» يقتضي أنه مات مؤمناً إذ لا يغفر الله لكافر، فبقي أن يُتأول الحديث، إما على أن «قَدَر» بمعنى: ضيق وناقش الحساب، فذلك معنًى بيِّن، وإما أن تكون من القدرة، ويقع خطؤه في أن ظن في أن الاجتماع بعد السحق والتذرية محال لا يوصف الله تعالى بالقدرة عليه، فغلط في أنْ جعل الجائز محالاً، ولا يلزمه بهذا كفر.

قال النقاش: وقرأ ابن مسعود: (من فضل) وقرأ أبي بن كعب: (من رحمة الله)[٤].

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ﴾ الآية، في هذا الموضع اختصار محذوفات يعطيها الظاهر، وهي: أنهم نفذوا من الشام إلى مصر ووصلوها، والضمير في ﴿عَلَيْهِ﴾ عائد على يوسف.

و﴿ٱلضُّرُّ﴾ أرادوا به: المسغبة التي كانوا بسبيلها، وأمرَ أخيهم الذي أَهمَّ أباهم وغم جميعهم.

---

(١) لأرطاة بن سهية المري، وصدره في الأغاني (١٣/ ٤٤)، والتعازي للمبرد (ص: ١٥٩)، والحماسة بشرح التبريزي (١/ ٣٧٠): عن الدهر فاصفح إنه غير معتب، وفي عيون الأخبار (٤/ ١١٥)، وأخبار النساء (ص: ١٥٠): فدع عنك من قد وارت الأرض شخصَه.

(٢) تقدم في تفسير الآية (١٥) من سورة آل عمران.

(٣) متفق عليه، أخرجه البخاري (٣٤٨١)، ومسلم (٢٧٥٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) وهما شاذتان، انظرهما في اللباب في علوم الكتاب (١١/ ١٩٥)، قال: وهذا تفسير لا تلاوة.

والبضاعة: القطعة من المال يقصد بها شراء شيء، ولزمها عرف الفقه فيما لا حظ لحاملها من الربح، والمُزْجاة معناها: المدفوعة المتحيَّل لها، ومنه: إزجاء السحاب، ومنه: إزجاء الإبل، كما قال الشاعر:

[البسيط] .... على زَواحِفَ تُزجى مُخُّها رِيرُ[(١)]

وكما قال النابغة:

[البسيط] وَهَبَّتِ الرِّيحُ مِنْ تِلْقَاءِ ذِي أُرُلٍ تُزْجِي مَعَ اللَّيْلِ مِنْ صُرَّادِهَا صِرَمَا[(٢)]

وقال الأعشى:

[الكامل] الواهِبُ المائَةِ الهِجانِ وعبْدِها عُوذاً تُزَجِّي خَلْفَها أَطْفَالَها[(٣)]

وقال الآخر:

[البسيط] .... وحاجةٍ غيرِ مُزْجاةٍ من الحاجِ[(٤)]

وقال حاتم:

[الطويل] لِيَبْكِ عَلَى مِلْحَانَ ضَيْفٌ مُدَفَّعٌ وَأَرْمَلَةٌ تُزْجِي مَعَ اللَّيلِ أَرْمَلا[(٥)]

[٣/ ٨٢] فجملة هذا أن من يسوق شيئاً ويتلطف في تسييره / فقد أزجاه، فإذا كانت الدراهم مدفوعة نازلة القَدْر تحتاج أن يُعتذر معها ويُشفع لها فهي مزجاة، فقيل: كان

(١) تقدم في تفسير الآية (١٥) من سورة الأنفال.

(٢) انظر عزوه له في العين (٧/ ١٢١)، والشعر والشعراء (١/ ٢٣٩)، والصحاح للجوهري (٥/ ١٩٦٥)، وأرل: جبل معروف.

(٣) انظر عزوه له في الكتاب لسيبويه (١/ ١٨٣)، والمقتضب (٤/ ١٦٣)، وتفسير الطبري (١٦/ ٢٣٥)، المخصص (٥/ ٨٦).

(٤) صدره: ومرسلٍ ورسولٍ غير متهمٍ، وهو للراعي كما في الكامل للمبرد (١/ ٢٢٤)، وغريب الحديث للخطابي (١/ ٢٥٣).

(٥) البيت لحاتم الطائي كما في تفسير الطبري (١٦/ ٢٣٥)، ونسب معد (١/ ٢٥١)، قال: و«ملحان» هو بن حارثة بن سعد.

ذلك لأنها كانت [زيوفاً، قاله ابن عباس[١]، وقال الحسن: كانت قليلة، وقيل: كانت ناقصة، قاله ابن جبير، وقيل: كانت][٢] بضاعتهم عروضاً، فلذلك قالوا هذا.

واختلف في تلك العروض: ما كانت؟ فقيل: كانت السمن والصوف، قاله عبد الله ابن الحارث[٣]، وقال علي بن أبي طالب: كانت قديد وحش، ذكره النقاش[٤].

وقال أبو صالح وزيد بن أسلم: كانت الصنوبر والحبة الخضراء[٥].

قال القاضي أبو محمد: وهي الفستق.

وقيل: كانت المقل، وقيل: كانت القطن، وقيل: كانت الحبال والأعدال والأقتاب.

وحكى مكي أن مالكاً رحمه الله قال: المزجاة: الجائزة[٦].

قال القاضي أبو محمد: ولا أعرف لهذا وجهاً، والمعنى يأباه، ويحتمل أنْ صحِّف على مالك وأن لفظه بالحاء غير منقوطة وبالراء.

واستند مالك رحمه الله في أن الكيل على البائع إلى هذه الآية[٧]، وذلك ظاهر منها وليس بنص.

---

(١) أخرجه الطبري (١٩٧٤١-١٩٧٤٧)، وابن أبي حاتم (١١٩٢٢) من طرق لا بأس بها، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) ساقط من الحمزوية، وانظر: تفسير الطبري (١٦/ ٢٣٨)، وتفسير ابن أبي حاتم (٧/ ٢١٩٢).

(٣) رواه الطبري (١٩٧٥١، ١٩٧٥٨)، وابن أبي حاتم (١١٩٢٠) من طريق يزيد بن أبي زياد، عنه به، ويزيد ضعيف.

(٤) لم أقف عليه. وفي تفسير القرطبي (٩/ ٢٥٣) عن علي: «قديداً وحيساً».

(٥) انظر قول أبي صالح في تفسير الطبري (١٦/ ٢٣٧)، وتفسير ابن أبي حاتم (٧/ ٢١٩١)، وزيد في البحر المحيط (٦/ ٣١٧).

(٦) الهداية (٥/ ٣٦٢٦)، قال في البيان والتحصيل (١٨/ ٢٤): أكثر أهل التفسير على خلاف هذا التفسير في ﴿مُّزۡجَىٰةٖ﴾.

(٧) انظر ما نقله المؤلف عن مالك في: تفسير القرطبي (٩/ ٢٥٤)، وتقدم مثله.

وقولهم: ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ﴾ معناه: بما بين الدراهم الجياد وهذه المزجاة، قاله السدي وغيره.

وقيل: كانت الصدقة غير محرمة على أولئك الأنبياء وإنما حرمت على محمد، قاله سفيان بن عيينة[١].

قال القاضي أبو محمد: وهذا ضعيف، يردُّه حديث النبي ﷺ في قوله: «إنا معشر الأنبياء لا تحل لنا الصدقة»[٢].

وقالت فرقة: كانت الصدقة عليهم محرمة، ولكن قالوا هذا تجوزاً واستعطافاً منهم في المبايعة، كما تقول لمن تساومه في سلعة: هبني من ثمنها كذا وخذ كذا، فلم تقصد أن يهبك، وإنما حسنت له الانفعال حتى يرجع معك إلى سومك.

وقال ابن جريج: إنما خصوا بقولهم: ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ﴾ أمر أخيهم يامين[٣]، أي: أوف لنا الكيل في المبايعة وتصدق علينا بصرف أخينا إلى أبيه.

وقولهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ﴾ قال النقاش: يقال: هو من المعاريض التي هي مندوحة عن الكذب، وذلك أنهم كانوا يعتقدونه ملكاً كافراً على غير دينهم، ولو قالوا: إن الله يجزيك بصدقتك في الآخرة، كذبوا، فقالوا له لفظاً يوهمه أنهم أرادوه، وهم يصح لهم إخراجه منه بالتأويل[٤].

قوله عز وجل: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓا۟ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ

(١) انظر القولين في تفسير الطبري (١٦/ ٢٤٢-٢٤١)، وانظر: تفسير ابن أبي حاتم (٧/ ٢١٩٣).

(٢) لا يعرف حديث بهذا اللفظ، وإنما جمع المصنف حديثين، أحدهما: «إنا معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة» وهذا في مسند أحمد بإسناد صحيح (٧٣٠٣)، والآخر: «إنا لا تحل لنا الصدقة» وهذا في مسلم (١٠٧٠) وغيره.

(٣) تفسير الطبري (١٦/ ٢٤٢)، وتفسير الماوردي (٣/ ٧٣)، وتفسير الثعلبي (٥/ ٢٥٢).

(٤) تفسير القرطبي (٩/ ٢٥٤).

وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾﴾.

روي أن يوسف عليه السلام لما قال له إخوته: ﴿مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ﴾ واستعطفوه رق ورحمهم، قال ابن إسحاق: وارفضَّ دمعه باكياً فشرع في كشف أمره إليهم، فيروى أنه حسر قناعه وقال لهم: ﴿هَلۡ عَلِمۡتُم﴾ الآية(١).

وقوله: ﴿مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ يريد: من التفريق بينهما في الصغر، والتمرس بهما، وإذاية يامين بعد مغيب يوسف، فإنهم كانوا يُذلونه ويشتمونه، ولم يشر إلى قصة يامين الآخرة لأنهم لم يفعلوا هم فيها شيئاً، ونسبهم إما إلى جهل المعصية، وإما إلى جهل الشباب وقلة الحنكة، فلما خاطبهم هذه المخاطبة، ويشبه أنه اقترن بها من هيئته وبشره وتبسمه ما دلهم، تنبهوا ووقع لهم من الظن القوي أنه يوسف، فخاطبوه مستفهمين استفهام مقرِّر.

وقرأت فرقة: ﴿أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾ بتحقيق الهمزتين، [وقرأت فرقة بإدخال ألف بين همزتين وتحقيقهما: ﴿أَاءِنَّكَ﴾](٢)، وقرأت فرقة بتسهيل الثانية: ﴿أينَّك﴾(٣).

وقرأ ابن محيصن وقتادة وابن كثير: ﴿إِنَّك﴾ على الخبر وتأكيده(٤).

وقرأ أبي بن كعب: (أإنك أو أنت يوسف)(٥)، قال أبو الفتح: ينبغي أن يكون هذا على حذف خبر (إنَّ) كأنه قال: أإنك لغير يوسف أو أنت يوسف؟.

---

(١) تفسير الطبري (١٦/ ٢٤٣)، وتفسير ابن أبي حاتم (٧/ ٢١٩٣)، تفسير الماوردي (٣/ ٧٤).

(٢) ساقط من نجيبويه، وسقط ما قبله من نور العثمانية.

(٣) هذه أربع قراءات سبعية: الأولى للكوفيين وابن ذكوان، والثانية لهشام في وجه، والثالثة إن كانت بإدخال فهي لقالون وأبي عمرو، وإن كانت بدونه فهي لورش، انظر: التيسير (ص: ٣٢).

(٤) وهي أيضاً سبعية لابن كثير، انظر: التيسير (ص: ١٣٠).

(٥) وهي شاذة، انظر: المحتسب (١/ ٣٤٩) مع التوجيه.

وحكى أبو عمرو الداني: أن في قراءة أبي بن كعب: (أو أنت يوسف)[١].

وتأولت فرقة ممن قرأ: ﴿إنك﴾ أنها استفهام بإسقاط حرف الاستفهام.

فأجابهم يوسف كاشفاً أمره قال: ﴿أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَـٰذَآ أَخِى﴾.

وقال مجاهد: أراد من يتق في ترك المعصية ويصبر في السجن.

وقال إبراهيم النخعي: المعنى: من يتق الزِّنا ويصبر على العزوبة[٢].

قال القاضي أبو محمد: ومقصد اللفظ إنما هو العموم في العظائم، وإنما قال هذان ما خصَّصا، لأنها كانت من نوازله، ولو فرضنا نزول غيرها به لاتقى وصبر.

وقرأ الجمهور: ﴿مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ﴾ [بغير ياء][٣].

وقرأ ابن كثير وحده: ﴿من يتقي ويصبر﴾ بإثبات الياء[٤]، واختلف في وجه ذلك، فقيل: قدر الياء متحركة وجعل الجزم في حذف الحركة، وهذا كما قال الشاعر:

[الوافر] أَلَـمْ يَـأْتِـيـكَ والأَنْـبـاءُ تَـنْـمـي بِمَا لاقَـتْ لَبُونُ بَنِي زِيـادِ[٥]

قال أبو علي: وهذا مما لا نحمله عليه، لأنه يجيء في الشعر لا في الكلام، وقيل: ﴿مَن﴾ بمعنى الذي و﴿يَتَّقِ﴾ فعل مرفوع، ﴿وَيَصۡبِرۡ﴾ عطف على المعنى لأن ﴿مَن﴾ وإن كانت بمعنى الذي ففيها معنى الشرط، ونحوه قوله تعالى: ﴿فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن﴾ [المنافقون: ١٠]، وقيل: أراد «يصبرُ» بالرفع لكنه سكن الراء تخفيفاً، كما قرأ أبو عمرو: ﴿وَيَأۡمُرۡكُمۡ﴾ [البقرة: ٢٦٨][٦] بإسكان الراء.

---

(١) انظر ماحكاه الداني في البحر المحيط (٦/ ٣٢٠).

(٢) انظر قول مجاهد في تفسير الطبري (١٦/ ٢٤٥)، وقول النخعي في تفسير ابن أبي حاتم (٧/ ٢١٩٤)، وتفسير الماوردي (٣/ ٧٤).

(٣) زيادة من المطبوع والتركية ونور العثمانية وأحمد٣.

(٤) وهي سبعية، أثبتها قنبل في الحالين، انظر التيسير (ص: ١٣١).

(٥) تقدم في تفسير الآية (١٠١) من سورة النساء.

(٦) تقدمت قراءة أبي عمرو، وانظر كلام أبي علي في الحجة (٤/ ٤٤٩).

وقوله تعالى: ﴿قَالُواْ تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ الآية، هذا منهم استنزال ليوسف وإقرار بالذنب في ضمنه استغفار منه.

و﴿ءَاثَرَكَ﴾: لفظ يعم جميع التفضيل وأنواع العطايا، والأصل فيها همزتان وخففت الثانية، ولا يجوز تحقيقها، والمصدر إيثار، و«خاطئين» من خطِئ يخطَأ، وهو المتعمِّد للخطأ، والمخطئ من أخطأ، وهو الذي قصد الصواب فلم يوفق له، ومن ذلك قول الشاعر، وهو أمية بن الأسكر:

وَإِنَّ مُهَاجِرَيْنِ تَكَنَّفَاهُ غَدَاتَئِذٍ لقَدْ خَطِئَا وحَابَا[١] [الوافر]

وقوله: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ﴾ عفو جميل، قال عكرمة: «أوحى الله إلى يوسف: بعفوك عن إخوتك رفعت لك ذكرك»[٢].

وفي الحديث: أن أبا سفيان بن الحارث وعبد الله بن أبي أمية لما وردا مهاجرَين على رسول الله ﷺ أعرض عنهما لقبح فعلهما معه قبلُ، فشق ذلك عليهما / وأتيا [٣/ ٨٣] أبا بكر فكلفاه الشفاعة، فأبى، وأتيا عمر فكذلك، فذهب أبو سفيان بن الحارث إلى ابن عمه علي، وذهب عبد الله إلى أخته أم سلمة، فقال علي رضي الله عنه: الرأي أن تلقيا رسول الله ﷺ في الحفل فتصيحان به: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ فإنه لا يرضى أن يكون دون أحد من الأنبياء فلا بد لذلك أن يقول: لا تثريب عليكما، ففعلا ذلك، فقال لهما رسول الله ﷺ: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ﴾ الآية[٣].

والتثريب: اللوم والعقوبة، وما جرى معهما من سوء معتقد ونحوه، وقد عبر بعض الناس عن التثريب بالتعيير، ومنه قول النبي عليه السلام: «إذا زنت أمة أحدكم

---

(١) تقدم في أوائل سورة النساء.

(٢) تفسير الثعالبي (٣/ ٣٥٠).

(٣) نسبه الحافظ ابن حجر في الإصابة (٤/ ١٢) إلى الزبير بن بكار، ولم أقف له على إسناد.

فليجلدها ولا يثرب»، أي: لا يعيِّر، [أخرجه الشيخان في الحدود][(١)].

ووقف بعض القراء: ﴿عَلَيْكُمُ﴾، وابتدأ: ﴿ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾، ووقف أكثرهم: ﴿ٱلْيَوْمَ﴾، وابتدأ: ﴿يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ على جهة الدعاء، وهو تأويل ابن إسحاق والطبري[(٢)]، وهو الصحيح، و﴿ٱلْيَوْمَ﴾ ظرف، فعلى هذا فالعامل فيه ما يتعلق به ﴿عَلَيْكُمُ﴾ تقديره: لا تثريب ثابت أو مستقر عليكم اليوم، وهذا الوقف أرجح في المعنى، لأن الآخر فيه حكم على مغفرة الله، اللهم إلا أن يكون ذلك بوحي.

قوله عز وجل: ﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾﴾.

حكمه بعد الأمر بإلقاء القميص على وجه أبيه بأن أباه يأتي بصيراً ويزول عماه دليل على أن هذا كله بوحي وإعلام من الله.

قال النقاش: وروي أن هذا القميص كان لإبراهيم؛ كساه الله إياه حين خرج من النار وكان من ثياب الجنة، وكان بعدُ لإسحاق ثم ليعقوب، ثم كان دفعه ليوسف فكان عنده في حفاظ من قصب[(٣)].

قال القاضي أبو محمد: وهذا كله يحتاج إلى سند، والظاهر أنه قميص يوسف الذي هو منه بمنزلة قميص كل أحد، وهكذا تبيين الغرابة في أن وجد ريحه من بُعْدٍ، ولو كان من قمص الجنة لما كان في ذلك غرابة ولوجده كل أحد.

وأما أهلهم فروي: أنهم كانوا ثمانين نسمة، وقيل: ستة وسبعين نفساً بين رجال

---

(١) أخرجه البخاري (٢٢٣٤)، ومسلم (١٧٠٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وما بين المعكوفتين زيادة من المطبوع.

(٢) راجع تفسير الطبري (١٦/ ٢٤٧).

(٣) في المطبوع وأحمد٣: «من فضة»، انظر كلام النقاش في تفسير الثعالبي (٣/ ٣٥٠).

ونساء، في هذا العدد دخلوا مصر ثم خرج منها أعقابهم مع موسى في ست مئة ألف.

ذكر الطبري عن السدي: أنه لما كشف أمره لإخوته سألهم عن أبيهم: ما حاله؟ فقالوا: ذهب بصره من البكاء. فحينئذ قال لهم: ﴿ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِى﴾ الآية[١].

وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ﴾ الآية، معناه: فصلت العير من مصر متوجهة إلى موضع يعقوب، حسبما اختلف فيه، فقيل: كان على مقربة من بيت المقدس، وقيل: كان بالجزيرة، والأول أصح لأن آثارهم وقبورهم حتى الآن هناك.

وروي أن يعقوب وجد رِيحَ يُوسُفَ وبينه وبين القميص مسيرة ثمانية أيام، قاله ابن عباس، وقال: هاجت ريح فحملت عَرْفه[٢].

وروي: أنه كان بينهما ثمانون فرسخاً، قاله الحسن، وابن جريج قال: وقد كان فارقه قبل ذلك سبعاً وسبعين سنة[٣].

قال القاضي أبو محمد: وهذا قريب من الأول.

وروي: أنه كان بينهما مسيرة ثلاثين يوماً، قاله الحسن بن أبي الحسن[٤].

وروي عن أبي [أيوب الهوزني][٥]: «أن الريح استأذنت في أن توصل عَرف يوسف إلى يعقوب، فأذن لها في ذلك»[٦]، وكانت مخاطبة يعقوب هذه لحاضريه، فروي: أنهم كانوا حفدته، وقيل: كانوا بعض بنيه، وقيل: كانوا قرابته.

---

(١) تفسير الطبري (١٦/ ٢٤٨).

(٢) إسناده صحيح، أخرجه الطبري (١٩٨٠١-١٩٨٠٨) وابن أبي حاتم (١١٩٦١) من طريق عبد الله ابن أبي الهزيل، عنه.

(٣) تفسير الطبري (١٦/ ٢٥١).

(٤) تفسير البحر المحيط (٥/ ٣٣٩).

(٥) في نجيبويه: «يعقوب الهوزي».

(٦) تفسير الطبري (١٦/ ٢٤٩).

و﴿تُفَنِّدُونِ﴾ معناه: تردون رأيي وتدفعون في صدره[١]، وهذا هو التفنيد في اللغة، ومن ذلك قول الشاعر:

[البسيط] يَا صَاحِبَيَّ دَعَا لَوْمِي وَتَفْنِيدِي ... فَلَيْسَ مَا فَاتَ مِنْ أَمْرِي بِمَرْدُودِ[٢]

ويقال: أفند الدهر فلاناً: إذا أفسده.

قال ابن مقبل:

[الطويل] دَعِ الدَّهْرَ يَفْعَلْ مَا أَرَادَ فإِنَّهُ ... إِذا كُلِّفَ الإفْنَاد بالنَّاسِ أَفْنَدا[٣]

ومما يعطي أن الفند الفساد في الجملة قول النابغة:

[السريع] إِلَّا سُلَيْمان إِذْ قَالَ الإلهُ لَهُ ... قُمْ فِي البَرِيَّةِ فاحْدُدْهَا عنِ الفَنَدِ[٤]

وقال منذر بن سعيد: يقال: شيخ مفند، أي: قد فسد رأيه، ولا يقال: عجوز [مفندة؛ لأن المرأة لم يكن لها قط رأي أصيل فيدخلَها الفند][٥].

قال القاضي أبو محمد: والتفنيد يقع إما لجهل المفند، وإما لهوًى غلبه، وإما لكذبه، وإما لضعفه وعجزه لذهاب عقله وهرمه، فلهذا فسّر الناس التفنيد في هذه الآية بهذه المعاني، ومنه قوله ﷺ: «أو هرماً مفنِّداً»[٦].

---

(١) في المطبوع ونجيبويه: صدري.

(٢) البيت لهانئ بن شكيم، كما في مجاز القرآن (١/ ٣١٨)، وهو في تفسير الطبري (١٦/ ٢٥٢) بلا نسبة.

(٣) انظر عزوه له في تفسير الطبري (١٦/ ٢٥٢).

(٤) انظر عزوه له في العين (٨/ ٤٩)، وجمهرة أشعار العرب (ص: ١٧)، وشرح المعلقات التسع (ص: ٩١).

(٥) ساقط من المطبوع، وانظر كلام منذر في البحر المحيط (٦/ ٣٢٣).

(٦) ضعيف، أخرجه ابن المبارك في الزهد (٧)، والحاكم في المستدرك (٤/ ٣٥٦)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٠٠٨٩) من طريق معمر بن راشد، عمن سمع المقبري، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «ما ينتظر أحدكم إلا غنى مطغياً، أو فقراً منسياً، أو مرضاً مفسداً، أو هرماً مفنداً أو موتاً مجهزاً، أو الدجال»، وفي إسناده إبهام شيخ معمر. =

قال ابن عباس[١] ومجاهد وقتادة: معناه: تسفِّهون.

وقال ابن عباس أيضاً: تجهِّلون[٢].

وقال ابن جبير وعطاء: معناه: تكذِّبون.

وقال ابن إسحاق: معناه: تضعِّفون.

وقال ابن زيد ومجاهد: معناه: تقولون: ذهب عقلك.

وقال الحسن: «معناه: تهرمون»[٣].

والذي يشبه أن تفنيدهم ليعقوب إنما كان لأنهم كانوا يعتقدون هواه قد غلبه في جانب يوسف، قال الطبري: «أصل التفنيد الإفساد»[٤].

وقولهم: ﴿لَفِى ضَلَٰلِكَ﴾ يريدون: في انتلافك[٥] وتحيرك، وليس هو بالضلال الذي هو في العرف ضد الرشاد، لأن ذلك من الجفاء الذي لا يسوغ لهم مواجهته به، وقد تأول بعض الناس على ذلك، ولهذا قال قتادة رحمه الله: «قالوا لوالدهم كلمة

= وأخرجه الطبراني في الأوسط (٤/ ١٩٢) من طريق ضعيف عن معمر عن محمد بن عجلان عن سعيد المقبري.
وأخرجه الترمذي (٢٣٠٦)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٠٠٨٨) من طريق محرز بن هارون، عن الأعرج، عن أبي هريرة به، بمثله، ومحرز بن هارون القرشي ضعيف، وانظر الميزان (٧٠٩٠)، وقال الترمذي: حديث حسن غريب لا نعرفه من حديث الأعرج عن أبي هريرة إلا من حديث محرز بن هارون، وقد روى بشر بن عمر وغيره عن محرز بن هارون هذا، وقد روى معمر هذا الحديث عمن سمع سعيداً المقبري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ نحوه.

(١) أخرجه الطبري (١٩٨١٨، ١٩٨١٩، ١٩٨٢٤، ١٩٨٢٢)، وابن أبي حاتم (١١٩٦٦) من طرق صحيحة عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه الطبري (١٩٨٢١) من طريق علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) ذكر هذه الأقوال كلها الطبري (١٦/ ٢٥٥-٢٥٣)، وانظر: تفسير ابن أبي حاتم (٧/ ٢١٩٨)، وتفسير الماوردي (٣/ ٧٧).

(٤) تفسير الطبري (١٦/ ٢٥٥).

(٥) في المطبوع: «انتكافك»، وفي نور العثمانية وأحمد٣: «ائتلافك».

غليظة لم يكن ينبغي لهم أن يقولوها لوالدهم ولا لنبي الله عليه السلام»[١]، وقال ابن عباس: المعنى: لفي خطئك[٢].

قال القاضي أبو محمد: وكان حزن يعقوب قد تجدد بقصة يامين، فلذلك يقال له: «ذو الحزنين».

قوله عز وجل: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا﴾.

روي عن ابن عباس: أن الْبَشِير كان يهوذا لأنه كان جاء بقميص الدم[٣].

[٣/ ٨٤] قال القاضي أبو محمد: حدثني أبي رضي الله عنه / قال: سمعت الواعظ أبا الفضل بن الجوهري على المنبر بمصر يقول: إن يوسف عليه السلام لما قال: ﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى﴾ قال يهوذا لإخوته[٤]: قد علمتم أني ذهبت إليه بقميص الترحة فدعوني أذهب إليه بقميص الفرحة، فتركوه وذلك، وقال هذا المعنى السدي[٥].

و(ارتد) معناه: رجع هو، يقال: ارتد الرجل ورده غيره، و﴿بَصِيرًا﴾ معناه: مبصراً، ثم وقفهم على قوله: ﴿إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وهذا ـ والله أعلم ـ هو

---

(١) تفسير الطبري (١٦/ ٢٥٧)، وتفسير ابن أبي حاتم (٧/ ٢١٩٩).

(٢) أخرجه الطبري (١٩٨٤٩)، وابن أبي حاتم (١١٩٧٠) من طريق علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) الذي جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما ماذكره الطبري (١٩٨٥٧)، وابن أبي حاتم (١١٩٧٧) من طريق عطية العوفي، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «البشير»: البريد، وقال مجاهد، وابن جريج، والضحاك، والسدي: الْبَشِيرُ كان يهوذا.

(٤) «لإخوته»: ساقطة من المطبوع.

(٥) انظر: تفسير الطبري (١٦/ ٢٥٩)، وتفسير ابن أبي حاتم (٧/ ٢١٩٩، ٢٢٠٠).

انتظاره لتأويل الرؤيا، ويحتمل أن يشير إلى حسن ظنه بالله تعالى فقط.

وروي: أنه قال للبشير: على أي دين تركت يوسف؟ قال: على الإسلام، قال: الحمد لله، الآن كملت النعمة(١).

وفي مصحف ابن مسعود: (فلما أن جاء البشير من بين يدي العير)(٢).

وحكى الطبري عن بعض النحويين أنه قال: ﴿أَن﴾ في قوله: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ﴾ زائدة، والعرب تزيدها أحياناً في الكلام بعد «لما» وبعد «حتى» فقط، تقول: لما جئت كان كذا، ولما أن جئت، وكذلك تقول: ما قام زيد حتى قمت، وحتى أن قمت(٣).

وقوله: ﴿قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ﴾ الآية، روي أن يوسف عليه السلام لما غفر لإخوته، وتحققوا أيضاً أن يعقوب يغفر لهم، قال بعضهم لبعض: ما يغني عنا هذا إن لم يغفر الله لنا؟! فطلبوا حينئذ من يعقوب أن يطلب لهم المغفرة من الله تعالى، واعترفوا بالخطأ، فقال لهم يعقوب: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ﴾، فقالت فرقة: سوفهم إلى السحر.

وروي عن محارب بن دثار أنه قال: «كان عم لي يأتي المسجد فسمع إنسانا يقول: اللهم دعوتني فأجبت وأمرتني فأطعت، وهذا سحر فاغفر لي، فاستمع الصوت فإذا هو من دار عبد الله بن مسعود، فسئل عبد الله بن مسعود عن ذلك، فقال: إن يعقوب عليه السلام أخَّر بنيه إلى السحر»(٤).

ويقوي هذا التأويل قول النبي ﷺ: «ينزل ربنا كل ليلة إذا كان الثلث الآخر إلى سماء الدنيا فيقول: من يدعوني فأستجيب له؟ من يستغفرني فأغفر له؟» الحديث(٥).

---

(١) تفسير الماوردي (٣/ ٨٥)، وتفسير الثعلبي (٥/ ٢٥٧).

(٢) وهي شاذة، انظر: تفسير الطبري (١٦/ ٢٥٩)، وتفسير الثعلبي (٥/ ٢٥٦).

(٣) تفسير الطبري (١٦/ ٢٦٠).

(٤) ضعيف، أخرجه الطبري (١٩٨٧٠)، وابن أبي حاتم (١١٩٨٣) من طريق عبد الرحمن بن سعد الواسطي، قال: يذْكر عن محارب بن دثار، فذكره، وعبد الرحمن الواسطي الأنصاري ضعيف، ولم يبين من ذكره له، وانظر التهذيب (٦/ ١٢٤).

(٥) متفق عليه، أخرجه البخاري (١١٤٥)، ومسلم (٧٥٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ويقويه قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧].

وقالت فرقة: إنما سوَّفهم يعقوب إلى قيام الليل.

وقالت فرقة منهم سعيد بن جبير: سوَّفهم يعقوب إلى الليالي البيض، فإن الدعاء فيهن يستجاب(١).

وقيل: إنما أخرهم إلى ليلة الجمعة، وروى ابن عباس هذا التأويل عن النبي ﷺ، قال: «أخرهم يعقوب حتى تأتي له الجمعة»(٢).

ثم رجَّاهم يعقوب عليه السلام بقوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

وقوله: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟﴾ الآية، هاهنا محذوفات يدل عليها الظاهر، وهي: فرحل يعقوب بأهله أجمعين وساروا حتى بلغوا يوسف، فلما دخلوا عليه.

وآوى معناه: ضم وأظهر الحفاية بهما، وفي الحديث: «أما أحدهم فأوى إلى الله فآواه الله»(٣).

---

(١) تفسير القرطبي (٩/ ٢٦٣).

(٢) منكر، أخرجه الترمذي (٣٥٧٠)، والطبري (١٩٨٧٥-١٩٨٧٦)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ٤٦١) من طريق سليمان بن عبد الرحمن الدمشقي، قال: حدثنا الوليد بن مسلم، قال: أخبرنا ابن جريج، عن عطاء وعكرمة مولى ابن عباس، عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: «قد قال أخي يعقوب: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ﴾، يقول: حتى تأتي ليلة الجمعة»، ورواية الترمذي والحاكم بلفظ مطول، قال الترمذي: حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث الوليد بن مسلم. وقال ابن كثير: وهذا غريب من هذا الوجه، وفي رفعه نظر. اهـ. قال الحاكم: هذا حديث على شرط الشيخين ولم يخرجاه، فتعقبه الذهبي قائلاً: هذا حديث منكر شاذ، أخاف أن يكون موضوعاً، وقد حيرني والله جودة سنده.

وقد زالت هذه الحيرة من عنده فقال في السير (٩/ ٢١٨): هذا عندي موضوع والسلام، ولعل الآفة دخلت على سليمان ابن بنت شرحبيل فيه، فإنه منكر الحديث وإن كان حافظاً، فلو كان قال فيه: عن ابن جريج، لراج، ولكن صرح بالتحديث، فقويت الريبة، [يعني صرح بسماع الوليد بن مسلم من ابن جريج والمحفوظ فيه بالعنعنة] وإنما هذا الحديث يرويه هشام بن عمار، عن محمد بن إبراهيم القرشي، عن أبي صالح، عن عكرمة، عن ابن عباس، ومحمد هذا ليس بثقة، وشيخه لا يدرى من هو. يعني أن هذا هو أصل الإسناد إلى عكرمة، والأول وهم أو دخل لسليمان حديث في حديث، أو من تدليس الوليد، والله أعلم.

(٣) متفق عليه، أخرجه البخاري (٦٦)، ومسلم (٢١٧٦) من حديث أبي واقد الليثي رضي الله عنه.

وقيل: أراد بالأبوين: أباه وأمه [قاله ابن إسحاق والحسن، وقال بعضهم: أباه وجدَّته أمَّ أمه][(١)]، حكاه الزهراوي، وقيل: أباه وخالته، لأن أمَّه قد كانت ماتت، قاله السدي[(٢)].

قال القاضي أبو محمد: والأول أظهر ـ بحسب اللفظ ـ إلا لو ثبت بسند أن أمه قد كانت ماتت.

وفي مصحف ابن مسعود: (آوى إليه أبويه وإخوته)[(٣)].

وقوله: ﴿ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ﴾ معناه: تمكنوا واسكنوا واستقروا، لأنهم قد كانوا دخلوا عليه، وقيل: بل قال لهم ذلك في الطريق حين تلقاهم، قاله السدي.

وهذا الاستثناء هو الذي ندب القرآن إليه، أن يقوله الإنسان في جميع ما يُنْفِذه بقوله في المستقبل.

وقال ابن جريج: هذا مؤخر في اللفظ وهو متصل في المعنى بقوله: ﴿سَوۡفَ أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ﴾[(٤)].

قال القاضي أبو محمد: وفي هذا التأويل ضعف.

و﴿ٱلۡعَرۡشِ﴾: سرير الملك، وكل ما عرش فهو عريش وعرش، وخصصت اللغة العرش لسرير الملك.

و(خرُّوا): معناه: تصوَّبوا نحو الأرض، واختلف في هذا السجود:

---

(١) ساقط من الحمزوية، وانظر كلام الزهراوي في البحر المحيط (٦/ ٣٢٦).

(٢) انظر أقوال الحسن وابن إسحاق والسدي في تفسير الطبري (١٦/ ٢٦٧)، وانظر تفسير ابن أبي حاتم (٧/ ٢٢٠٠).

(٣) وهي شاذة، تابعه عليها في البحر المحيط (٦/ ٣٢٦).

(٤) انظر القولين في تفسير الطبري (١٦/ ٢٦٦)، وانظر معاني القرآن للنحاس (٣/ ٤٥٧)، وتفسير ابن ابي حاتم (٧/ ٢٢٠١).

فقيل: كان كالمعهود عندنا من وضع الوجه بالأرض.

وقيل: بل دون ذلك كالركوع البالغ ونحوه مما كان سيرة تحياتهم للملوك في ذلك الزمان.

وأجمع المفسرون أن ذلك السجود ـ على أي هيئة كان ـ فإنما كان تحية لا عبادة.

قال قتادة: هذه كانت تحية الملوك عندهم، وأعطى الله هذه الأمة السلام تحية أهل الجنة(١).

وقال الحسن: الضمير في ﴿لَهُۥ﴾ لله عز وجل(٢).

قال القاضي أبو محمد: ورُد على هذا القول.

وحكى الطبري: «أن يعقوب لما بلغ مصر في جملته كلم يوسفُ فرعون في تلقيه، فخرج إليه وخرج الملوك معه، فلما دنا يوسف من يعقوب وكان يعقوب يمشي متوكئاً على يهوذا قال: فنظر يعقوب إلى الخيل والناس فقال: يا يهوذا، هذا فرعون مصر، قال: لا هو ابنك، قال: فلما دنا كل واحد منهما من صاحبه ذهب يوسف يبدأ بالسلام، فمنعه يعقوب من ذلك وكان يعقوب أحق بذلك منه وأفضل، فقال: السلام عليك يا مُذهب الأحزان»(٣).

قال القاضي أبو محمد: ونحو هذا من القصص، وفي هذا الوقت قال يوسف ليعقوب: إن فرعون قد أحسن إلينا فادخل عليه شاكراً، فدخل عليه، فقال فرعون: يا شيخ ما صيَّرك إلى ما أرى؟ قال: تتابع البلاء عليّ. قال: فما زالت قدمه حتى نزل الوحي: يا يعقوب، أتشكوني إلى من لا يضرك ولا ينفعك؟ قال: يا رب ذنب فاغفره.

---

(١) تفسير الطبري (١٦/ ٢٦٩)، وتفسير ابن ابي حاتم (٧/ ٢٢٠٢)، وتفسير الماوردي (٣/ ٨٢)، وتفسير ابن أبي زمنين (١/ ٣١٢).

(٢) تفسير الماوردي (٣/ ٨٢).

(٣) تفسير الطبري (١٦/ ٢٦٥)، بتصرف يسير.

وقال أبو عمرو الشيباني[(١)]: تقدم يوسف يعقوب في المشي في بعض تلك المواطن، فهبط جبريل فقال له: أتتقدم أباك؟ إن عقوبتك لذلك ألا يخرج من نسلك نبي[(٢)].

قوله عز وجل: ﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ١٠٠﴾.

المعنى: قال يوسف ليعقوب: هذا السجود الذي كان منكم، هو ما آلت إليه رؤياي قديماً في الأحد عشر كوكباً وفي الشمس والقمر.

وقوله: ﴿قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗا﴾ ابتداء تعديد نعم الله تعالى عليه.

وقوله: ﴿وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ﴾، أي: أوقع وناط إحسانه بي. فهذا منحى في وصول الإحسان بالباء، وقد يقال: أحسن إليّ، وأحسن فيّ / ، ومنه قول عبد الله بن أبيٍّ ابن سلول: «يا محمد أحسن في مواليّ»[(٣)] وهذه المناحي مختلفة المعنى، وأليَـقها بيوسف قوله: ﴿بِيٓ﴾ لأنه إحسان درج فيه دون أن يقصد هو الغاية التي صار إليها. [٣/ ٨٥]

وذكر يوسف عليه السلام إخراجه من السجن، وترك إخراجه من الجب لوجهين:

أحدهما: أن في ذكر إخراجه من الجب تجديد فعل إخوته، وخزيهم بذلك، وتقليع نفوسهم، وتحريك تلك الغوائل، وتخبيث النفوس.

والوجه الآخر: أنه خرج من الجب إلى الرق، ومن السجن إلى الملك، فالنعمة هنا أوضح.

---

(١) هو إسحاق بن مرار أبو عمرو الشيبانيّ اللغويّ صاحب العربية، كوفيّ نزل بغداد، روى عنه ابنه عمرو، وأحمد بن حنبل، وأبو عبيد، وكان من أعلم الناس باللغة، موثّقاً فيما يحكيه، جمع أشعار العرب ودوّنها، توفي سنة (٢١٠هـ). إنباه الرواة (١/ ٢٥٦).

(٢) الفاضل للمبرد (ص: ١٠٣).

(٣) أخرجه ابن إسحاق في سيرته (٣/ ٢٩٥) عن قتادة مرسلاً.

وقوله: ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ﴾ يعم جمع الشمل والتنقل من الشقاوة إلى النعمة بسكنى الحاضرة، وكان منزل يعقوب عليه السلام بأطراف الشام في بادية فلسطين وكان رب إبل وغنم وبادية.

و﴿نَّزَغَ﴾ معناه: فعل فعلاً أفسد به، ومنه قول النبي ﷺ: «لا يشر أحدكم على أخيه بالسلاح لا ينزغ الشيطان في يده»[(١)].

وإنما ذكر يوسف هذا القدر من أمر إخوته ليبين حسن موقع النعم، لأن النعمة إذا جاءت إثر شدة وبلاء فهي أحسن موقعاً.

وقوله: ﴿لِّمَا يَشَآءُ﴾ أي: من الأمور أن يفعله.

واختلف الناس في كم كان بين رؤيا يوسف وبين ظهورها:

فقالت فرقة: أربعون سنة، هذا قول سلمان الفارسي[(٢)] وعبد الله بن شداد.

وقال عبد الله بن شداد: «ذلك آخر ما تبطئ الرؤيا»[(٣)].

وقالت فرقة منهم الحسن وجسر[(٤)] بن فرقد وفضيل بن عياض: «ثمانون سنة»[(٥)].

وقال ابن إسحاق: «ثمانية عشر»[(٦)].

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري (٧٠٧٢)، ومسلم (٢٦١٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الطبري (١٩٩٠٧-١٩٩٠٩-١٩٩١١-١٩٩١٥-١٩٩١٧ إلى ١٩٩٢٠)، وابن أبي حاتم (١١٩٩٨) من طرق عن أبي عثمان النهدي عن سلمان، وقد صحبه مدة طويلة، وإن لم يأت تصريحه بسماعه منه في شيء من الطرق، إلا أنه لم يذكر بتدليس.

(٣) تفسير الطبري (١٦/ ٢٧٣).

(٤) في المطبوع وأحمد٣: «حسن»، وفي نجيبويه: «كثير»، وهو جسر بن فرقد القصاب، أبو جعفر، بصري، قال البخاري: ليس بذاك عندهم، وقال ابن معين: ليس بشيء، وقال النسائي: ضعيف. ميزان الاعتدال (١/ ٣٩٨).

(٥) تفسير الطبري (١٦/ ٢٧٣ ٢٧٤).

(٦) تفسير الطبري (١٦/ ٢٧٥).

وقيل: اثنان وعشرون، قاله النقاش، وقيل: ثلاثون، وقيل: «خمس وثلاثون»، قاله قتادة.

وقال السدي وابن جبير: «ست وثلاثون سنة»[١].

وقيل: إن يوسف عليه السلام عمِّر مئة وعشرين سنة، وقيل: إن يعقوب بقي عند يوسف نيفاً على عشرين سنة ثم توفي ﷺ.

قال القاضي أبو محمد: ولا وجه في ترك تعريف يوسف أباه بحاله منذ خرج من السجن إلى العز إلا الوحي من الله تعالى لمَا أراد أن يمتحن به يعقوب وبنيه، وأراد من صورة جمعهم ـ لا إله إلا هو ـ وقال النقاش: كان ذلك الوحي في الجب، وهو قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف: ١٥][٢]، وهذا محتمل.

ومما روي في أخبار يعقوب عليه السلام: قال الحسن: «إنه لما ورده البشير لم يجد عنده شيئاً يثيبه به فقال له: والله ما أصبت عندنا شيئاً، وما خبزنا منذ سبع ليال، ولكن هون الله عليك سكرات الموت»[٣].

ومن أخباره: أنه لما اشتد بلاؤه قال: يا رب أعميت بصري وغيبت عني يوسف، أفما ترحمني؟ فأوحى الله إليه: سوف أرحمك وأرد عليك ولدك وبصرك، وما عاقبتك بذلك إلا أنك طبخت في منزلك حمَلاً فشمَّه جارٌ لك ولم تساهمه بشيء، فكان يعقوب بعد يدعوه إلى غدائه وعشائه.

وحكى الطبري: أنه لما اجتمع شمله كلفه بنوه أن يدعو الله لهم حتى يأتي الوحي بأن الله قد غفر لهم، قال: فكان يعقوب يصلي ويوسف وراءه وهم وراء يوسف، ويدعو

---

(١) انظر تفسير القرطبي (٩/ ٢٧٤).
(٢) تفسير الثعالبي (٣/ ٣٥٢).
(٣) تفسير القرطبي (٩/ ٢٦١).

لهم، فلبث كذلك عشرين سنة، ثم جاءه الوحي: إني قد غفرت لهم وأعطيتهم مواثيق النبوة من بعدك[١].

ومن أخباره: أنه لما حضرته الوفاة أوصى إلى يوسف أن يدفنه بالشام، فلما مات نفخ فيه المرَّ وحمله إلى الشام، ثم مات يوسف فدفن بمصر، فلما خرج موسى ـ بعد ذلك ـ من أرض مصر احتمل عظام يوسف حتى دفنها بالشام مع آبائه.

قوله عز وجل: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾﴾.

قرأ ابن مسعود: (آتيتن) و(علمتن) بحذف الياء على التخفيف[٢].

وقرأ ابن ذر[٣] وحده: (رب آتيتني) بغير ﴿قَدْ﴾[٤].

وذكر كثير من المفسرين: أن يوسف عليه السلام لما عدد في هذه الآية نعم الله عنده تشوق إلى لقاء ربه ولقاء الجلة وصالحي سلفه وغيرهم من المؤمنين، ورأى أن الدنيا كلها قليلة، فتمنى الموت في قوله: ﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

وقال ابن عباس: لم يتمن الموت نبي غير يوسف[٥].

---

(١) تفسير الطبري (١٦/ ٢٨١)، بتصرف.

(٢) وهي شاذة، انظر: المحتسب (١/ ٣٤٩).

(٣) هو عمر بن ذر بن عبد الله بن زرارة بن معاوية، أبو ذر الهمداني المرهبي الكوفي، روى عن أبيه وسعيد بن جبير وأبي وائل ومجاهد وعكرمة، وعنه ابن المبارك ووكيع، وعدد كبير، وكان إماماً مفوهاً زاهداً، توفي سنة (١٥٦هـ). تاريخ الإسلام (٩/ ٥٣٦)

(٤) وهي شاذة، نقلها في البحر المحيط (٦/ ٣٢٩)، و«وحده» زيادة من المطبوع، والذي في المحتسب وغيره أنه وافق ابن مسعود.

(٥) أخرجه الطبري (١٩٩٤٠)، وابن أبي حاتم (١٢٠١٢) من طريق أسباط بن نصر، عن السدي، عن ابن عباس رضي الله عنهما، وهذا إسناد لين، وأخرجه الطبري (١٩٩٤٢)، وابن أبي حاتم (١٢٠١١) =

وذكر المهدوي تأويلاً آخر وهو الأقوى عندي: أن ليس في الآية تمني موت، وإنما عدد يوسف عليه السلام نعم الله عنده ثم دعا أن يتم عليه النعم في باقي عمره، أي: تَوَفَّنِي ـ إذا حان أجلي ـ على الإسلام، واجعل لحاقي بالصالحين، وإنما تمنى الموافاة على الإسلام لا الموت[(١)]، وورد عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يتمنينّ أحدكم الموت لضرّ نزل به»[(٢)] الحديث بكماله، وروي عنه ﷺ أنه قال في بعض دعائه: «وإذا أردت في الناس فتنة فاقبضني إليك غير مفتون»[(٣)]، وروي عن عمر بن الخطاب أنه قال: «اللهم قد رقّ عظمي وانتشرت رعيتي فتوفني غير مقصر ولا عاجز»[(٤)].

= من طريق قتادة، عن ابن عباس رضي الله عنهما، وأخرجه الطبري (١٩٩٤١) من طريق ابن جريج، عن ابن عباس رضي الله عنهما به، وهذان منقطعان، والله أعلم.

(١) التحصيل للمهدوي (٣/ ٥٣٥).

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري (٥٦٧١)، ومسلم (٢٦٨٠) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٣) منقطع ضعيف في إسناده اضطراب، أخرجه عبد الرزاق (٢/ ١٦٩) من طريق معمر، عن أيوب، عن أبي قلابة، عن ابن عباس مرفوعاً في حديث الكفارات والدرجات، ومن طريق عبد الرزاق أخرجه أحمد في مسنده (١/ ٣٦٨ رقم ٣٤٨٤)، وعبد بن حميد في مسنده (٦٨٢)، والترمذي (٣٢٣٣)، وابن الجوزي في العلل المتناهية (١٤). وأخرجه ابن خزيمة في التوحيد (٣٢٠) من طريق محمد بن عبد الأعلى الصنعاني، عن معمر به. وهذا إسناد منقطع؛ أبو قلابة عبد الله بن زيد الجرمي لم يسمع من ابن عباس.

وقد روي من أوجه أخرى وكلها لا يصح منها شيء، وقد وقع في هذا الحديث اختلاف كبير في أسانيده حتى حكم عليه بعض العلماء بالضعف والاضطراب، قال الدارقطني في العلل (٩٧٣): ليس فيها صحيح وكلها مضطربة. اهـ. وقال ابن خزيمة: ليس يثبت من هذه الأخبار شيء. اهـ. وقال البيهقي في الأسماء والصفات (ص ٦٤٤): وقد روي من أوجه أخرى، وكلها ضعيف. اهـ. وقال الذهبي في الميزان: هذا حديث عجيب غريب. اهـ.

(٤) أخرجه مالك في الموطأ (١٥٠٦)، ومسدد في مسنده كما في المطالب العالية (١٥/ ٧٧٢)، وابن سعد في الطبقات (٣/ ٣٣٤)، والحاكم في المستدرك (٣/ ٩٨)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٥٤) من طريق يحيى بن سعيد الأنصاري، عن سعيد بن المسيب، عن عمر رضي الله عنه به، وسعيد عن عمر منقطع على الراجح.

قال القاضي أبو محمد: فيشبه أن قول النبي ﷺ: «لضر نزل به» إنما يريد ضرر الدنيا كالفقر والمرض ونحو ذلك، ويبقى تمني الموت مخافة فساد الدين مباحاً، ويدلك على هذا قول النبي ﷺ: «يأتي على الناس زمان يمر فيه الرجل بقبر الرجل فيقول: يا ليتني مكانه، ليس به الدين، لكن ما يرى من البلاء والفتن»[١].

قال القاضي أبو محمد: فقوله: «ليس به الدين» يقتضي إباحة ذلك أن لو كان عن الدين، وإنما ذكر رسول الله ﷺ حالة الناس كيف تكون.

وقوله: ﴿ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ﴾ قيل: ﴿مِنَ﴾ للتبعيض وقيل: لبيان الجنس، وكذلك في قوله: ﴿مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ والمراد بقوله: ﴿ٱلْأَحَادِيثِ﴾: الأحلام، وقيل: قصص الأنبياء والأمم.

وقوله: ﴿فَاطِرَ﴾ منادى، وقوله: ﴿أَنتَ وَلِىِّۦ﴾ أي: القائم بأمري الكفيل بنصرتي ورحمتي.

[٣/ ٨٦] وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾ الآية / ، ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما تقدم من قصة يوسف، وهذه الآية تعريض لقريش وتنبيه على آية صدق محمد، وفي ضمن ذلك الطعن على مكذبيه، والضمير في ﴿لَدَيْهِمْ﴾ عائد إلى إخوة يوسف، وكذلك الضمائر إلى آخر الآية، و﴿أَجْمَعُوٓاْ﴾ معناه: عزموا وجزموا، والأمر هنا هو إلقاء يوسف في الجب.

والمكر: هو أن تدبر على الإنسان تدبيراً يضره ويؤذيه، والخديعة هي أن تفعل بإنسان أو تقول له ما يوجب أن يفعل هو فعلاً فيه عليه ضرر، وحكى الطبري: «عن أبي عمران الجوني أنه قال: والله ما قص الله نبأهم ليعيِّرهم بذلك، إنهم لأنبياء من أهل الجنة، ولكن قص الله علينا نبأهم لئلا يقنط عبده»[٢].

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري (٧١١٥)، ومسلم (١٥٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) تفسير الطبري (١٦/ ٢٨٢).

قوله عز وجل: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ١٠٣ وَمَا تَسۡـَٔلُهُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٤ وَكَأَيِّن مِّنۡ ءَايَةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ يَمُرُّونَ عَلَيۡهَا وَهُمۡ عَنۡهَا مُعۡرِضُونَ ١٠٥ وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ ١٠٦ أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأۡتِيَهُمۡ غَٰشِيَةٞ مِّنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوۡ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١٠٧ قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٠٨﴾.

هاتان الآيتان تدلان أن الآية التي قبلهما فيها تعريض لقريش ومعاصري محمد عليه السلام، كأنه قال: فإخبارك بالغيوب دليل قائم على نبوتك، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون وإن كنت أنت حريصاً على إيمانهم، أي: إنما يؤمن من شاء الله.

وقوله: ﴿وَلَوۡ حَرَصۡتَ﴾ اعتراض فصيح.

وقوله: ﴿وَمَا تَسۡـَٔلُهُمۡ﴾ الآية، توبيخ للكفرة وإقامة الحجة عليهم، أي: ما أسفههم في أن تدعوهم إلى الله دون أن تبغي منهم أجراً فيقول قائل: بسبب الأجر يدعوهم.

وقرأ مبشر بن عبيد: (و ما نسألهم) بالنون[١].

ثم ابتدأ الله تعالى الإخبار عن كتابه العزيز أنه ذكر وموعظة لجميع العالم نفعنا الله به ووفر حظنا منه بعزته.

وقرأت الجماعة: ﴿وَكَأَيِّن﴾ بهمز الألف وشد الياء، قال سيبويه: هي كاف التشبيه اتصلت بـ«أي»، ومعناها معنى «كم» في التكثير، وقرأ ابن كثير: ﴿وكائن﴾ بمد الألف وهمز الياء، وهو من اسم الفاعل من كان، فهو كائن، ولكن معناه معنى «كم» أيضاً، وقد تقدم استيعاب القراءات في هذه الكلمة في قوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيّٖ قَٰتَلَ﴾ [آل عمران: ١٤٦][٢].

والآية هنا: المخلوقات المنصوبة للاعتبار، والحوادث الدالة على الله سبحانه في مصنوعاته.

---

(١) وهي شاذة، انظر عزوها له في الشواذ للكرماني (ص: ٢٥٢).

(٢) وانظر ما يتعلق بها في موضعه.

ومعنى ﴿يَمُرُّونَ عَلَيْهَا﴾ الآية، أي: إذا جاء منها ما يحس أو يعلم في الجملة لم يتعظ الكافر به، ولا تأمله ولا اعتبر به بحسب شهواته وعمهه، فهو لذلك كالمعرض، ونحو هذا المعنى قول الشاعر:

[الطويل] تَمُرُّ الصَّبَا صُبحاً بِسَاكِنِ ذِي الغَضَى وَيَصْدَعُ قَلْبِي أَنْ يَهُبَّ هُبُوبُهَا[1]

وقرأ السدي: (والأرضَ) بالنصب، بإضمار فعل، والوقف على هذا في ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾.

وقرأ عكرمة وعمرو بن فائد: (والأرضُ) بالرفع على الابتداء[2]، والخبر قوله: ﴿يَمُرُّونَ﴾ وعلى القراءة بخفض ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ فـ﴿يَمُرُّونَ﴾ نعت للآية.

وفي مصحف عبد الله: (والأرض يمشون عليها)[3].

وقوله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم﴾ الآية، قال ابن عباس: هي في أهل الكتاب الذين يؤمنون بالله ثم يشركون من حيث كفروا بنبيه، أو من حيث قالوا: «عزير ابن الله، والمسيح ابن الله»[4]، وقال عكرمة ومجاهد وقتادة وابن زيد: «هي في كفار العرب، وإيمانهم هو إقرارهم بالخالق والرازق والمميت، فسماه إيماناً وإن أعقبه إشراكهم بالأوثان والأصنام، فهذا الإيمان لغوي فقط من حيث هو تصديقٌ ما»[5]، وقيل: هذه الآية نزلت بسبب قول قريش في الطواف والتلبية: لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك.

روي أن النبي ﷺ كان إذا سمع أحدهم يقول: «لبيك لا شريك لك»، يقول له: «قط قط»، أي: قف هنا ولا تزد: «إلا شريك هو لك»[6].

---

(١) البيت لإبراهيم بن العباس كما في ديوان المعاني (١/ ٢٧٤)، والصناعتين (ص: ٩)، ونسبه في سمط اللآلي (١/ ٦٤١) لقيس بن معاذ، وفي الأغاني (٢/ ٧٨)، والتذكرة الحمدونية (٦/ ١٨٦) لقيس بن الملوّح المجنون، وفي أحمد٣ والمطبوع: «صفحا»، بدل «صبحا».

(٢) وهما شاذتان، انظر: المحتسب (١/ ٣٤٩)، ومختصر الشواذ (ص: ٧٠).

(٣) وهي شاذة، انظرها في المحتسب (١/ ٣٥٠).

(٤) أخرجه الطبري (١٩٩٦٩) من طريق عطية العوفي، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٥) انظر: تفسير الطبري (١٦/ ٢٨٨)، وتفسير ابن ابي حاتم (٧/ ٢٢٠٧).

(٦) أخرجه مسلم (١١٨٥) من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

والغاشِيَة: ما يغشي ويغطي ويغم.

وقرأ أبو حفص مبشر بن عبيد: (يأتيهم الساعة بغتة) بالياء[١].

و﴿بَغۡتَةً﴾ معناه: فجأة، وذلك أصعب، وهذه الآية من قوله: ﴿وَكَأَيِّن﴾ وإن كانت في الكفار بحكم ما قبلها، فإن العصاة يأخذون من ألفاظها بحظ، ويكون الإيمان حقيقة[٢] والشرك لغوياً كالرياء، فقد قال عليه السلام: «الرياء: الشرك الأصغر»[٣].

وقوله تعالى: ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ﴾ الآية، إشارة إلى دعوة الإسلام والشريعة بأسرها.

قال ابن زيد: «المعنى: هذا أمري وسنتي ومنهاجي»[٤].

وقرأ ابن مسعود: (قل هذاسبيلي)[٥].

والسبيل: المسلك، وتؤنث وتذكَّر، وكذلك الطريق.

و﴿بَصِيرَةٍ﴾: اسم لمعتقد الإنسان في الأمر من الحق واليقين، والبصيرة أيضاً في كلام العرب: الطريقة من الدم، وفي الحديث المشهور: «تنظر في النصل فلا ترى

---

(١) وهي شاذة، انظر: الشواذ للكرماني (ص: ٢٥٢)، وفي الأصل والحمزوية: «بن عبدالله»، وفي التركية: «بن عبيد الله»، وفي المطبوع: «بشر».

(٢) «حقيقة»: ساقطة من المطبوع.

(٣) روي هذا الحديث عن محمود بن لبيد وشداد بن أوس، أما حديث محمود بن لبيد فاختلف فيه، فقيل: عنه، أخرجه أحمد (٥/ ٤٢٨ رقم ٢٣٦٣١) والبيهقي في الشعب (٦٨٣١) من حديث عاصم ابن عمر عن قتادة عن محمود بن لبيد مرفوعاً. وهذا هو المحفوظ.
وقيل: عنه عن رافع بن خديج، أخرجه الطبراني في الكبير (٤/ ٢٥٣) من رواية: عبد الله بن شبيب، وهو واهٍ، فهي زيادة منكرة، ومحمود بن لبيد صحابي صغير، حديثه مرسل صحيح.
وأما حديث شداد بن أوس فمن حديث عمارة بن غزية حدثني يعلى بن شداد بن أوس عن أبيه، وإسناده لا بأس به.

(٤) تفسير الطبري (١٦/ ٢٩٢)، وتفسير ابن أبي حاتم (٧/ ٢٢٠٩).

(٥) وهي شاذة، تابعه عليها في البحر المحيط (٦/ ٣٣٣)، وفي الأصل: «هذه»، والتصحيح من بقية النسخ.

بصيرة»[١]، وبها فسر بعض الناس قول الأسعر[٢] الجعفي:

[الكامل] حَمَلُوا بَصَائِرَهُمْ عَلَى أَكْتَافِهِمْ وَبَصِيرَتِي يَعْدُو بِهَا عَتَدٌ وَأَى[٣]

يصف قوماً باعوا دم وليهم فكأن دمه حصلت منه طرائق على أكتافهم إذ هم موسومون عند الناس ببيع ذلك الدم.

قال القاضي أبو محمد: ويجوز أن تكون البصيرة في بيت الأسعر على المعتقد الحق، أي: جعلوا اعتقادهم طلب الثأر وبصيرتهم في ذلك وراء ظهورهم، كما تقول: طرح فلان أمري وراء ظهره.

وقوله: ﴿أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي﴾ يحتمل أن يكون تأكيداً للضمير في ﴿أَدۡعُوٓاْ﴾ [ويحتمل أن تكون الأمة كلها أَمَّارة بالمعروف داعية إلى الله الكفرةَ به والعصاة.

﴿وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ﴾][٤] تنزيه لله، أي: وقل: سبحان الله، وقل متبرئاً من الشرك، وروي أن هذه الآية: ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ﴾ إلى آخرها كانت مرقومة على رايات يوسف عليه السلام.

قوله عز وجل ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٠٩ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ١١٠﴾.

هذه الآية تتضمن الرد على مستغربي إرسال الرسل من البشر، كالطائفة التي قالت: ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ / بَشَرٗا رَّسُولٗا﴾ [الإسراء: ٩٤]، وكالطائفة التي اقترحت ملكاً وغيرها. [٣/ ٨٧]

(١) أصل الحديث أخرجه البخاري (٥٠٥٨)، ومسلم (١٠٦٤) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) في المطبوع وأحمد٣ والمصرية: «الأشعر» في الموضعين، وفي نجيبويه: «الأصعري»، وهو شاعر مشهور.

(٣) تقدم في تفسير الآية (١٠٣) من سورة الأنعام.

(٤) ساقط من نجيبويه، وفي المطبوع: «الآية»، بدل «الأمة».

وقرأ الجمهور: ﴿يوحَى إليهم﴾ بالياء وفتح الحاء، وهي قراءة عاصم في رواية أبي بكر، وقرأ في رواية حفص: ﴿نُّوحِىٓ﴾ بالنون وكسر الحاء، وهي قراءة أبي عبد الرحمن وطلحة[١].

والْقُرى: المدن، وخصصها دون القوم المنتوين ـ أهلِ العمود ـ فإنهم في كل أمة أهل جفاء وجهالة مفرطة، قال ابن زيد: «أَهْلُ الْقُرى أعلم وأحلم من أهل العمود»[٢].

[قال القاضي أبو محمد: فإنهم قليلٌ نبلُهم ولم ينشئ الله فيهم رسولاً قط][٣].

وقال الحسن: لم يبعث الله رسولاً قط من أهل البادية، ولا من النساء، ولا من الجن[٤].

قال القاضي أبو محمد: والتبدي مكروه إلا في الفتن وحين يفر بالدين، كقوله ﷺ: «يوشك أن يكون خير مال المسلم غنماً»[٥] الحديث، وفي ذلك أذن رسول الله ﷺ لسلمة ابن الأكوع[٦]، وقد قال ﷺ: «لا تعرُّب في الإسلام»[٧]، وقال: «من بدا جفا»[٨].

---

(١) وهما سبعيتان، انظر: التيسير (ص: ١٣٠).

(٢) البحر المحيط (٦/ ٣٣٤)، ونسبه لقتادة في تفسير الطبري (١٦/ ٢٩٣).

(٣) ما بين معقوفين ساقط من الأصل والحمزوية.

(٤) تفسير الماوردي (٣/ ٨٨)، وتفسير ابن أبي زمنين (١/ ٣١٣).

(٥) أخرجه البخاري (١٩) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٦) صحيح أخرجه البخاري (٧٠٨٧) عَنْ سَلَمَةَ بْنِ الأَكْوَعِ: أَنَّهُ دَخَلَ عَلَى الحَجَّاجِ فَقَالَ: يَا ابْنَ الأَكْوَعِ، ارْتَدَدْتَ عَلَى عَقِبَيْكَ، تَعَرَّبْتَ؟ قَالَ: لا، وَلَكِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ «أَذِنَ لِي فِي البَدْوِ» وَعَنْ يَزِيدَ بْنِ أَبِي عُبَيْدٍ، قَالَ: «لَمَّا قُتِلَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ، خَرَجَ سَلَمَةُ بْنُ الأَكْوَعِ إِلَى الرَّبَذَةِ، وَتَزَوَّجَ هُنَاكَ امْرَأَةً، وَوَلَدَتْ لَهُ أَوْلاداً، فَلَمْ يَزَلْ بِهَا، حَتَّى قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِلَيَالٍ، فَـنَـزَلَ المَدِينَةَ.

(٧) منكر، أخرجه الحارث ابن أبي أسامة في «مسنده» كما في «المطالب العالية» (٩/ ٤٣١) من طريق: إسماعيل بن عياش عن حرام بن عثمان عن أبي عتيق عن جابر قال: إن رسول الله قال: «لا تعرب بعد الهجرة، ولا هجرة بعد الفتح»، وحرامٌ هذا: منكرُ الحديث كما قال البخاري في التاريخ الكبير (٣/ ١٠١) وأجمعوا على إسقاطه.

(٨) له وجهان عن أبي هريرة وابن عباس رضي الله عنهما، وفي ثبوته بهما نظر، أما حديث ابن عباس رضي الله عنهما، فتفرد به الثوري وشك في رفعه، وشيخه فيه لا يعرف، فأخرجه ابن أبي شيبة في =

وروى عنه معاذ بن جبل أنه قال: «الشيطان ذئب الإنسان كذئب الغنم يأخذ الشاة القاصية، فإياكم والشعاب، وعليكم بالمساجد والجماعات والعامة»[(١)].

= المصنف (١٢/ ٣٣٦) وأبو داود (٢٨٦١) والترمذي (٢٢٥٦) والنسائي (٣/ ١٥٤ مجتبى) من طريق: سفيان، عن أبي موسى، عن وهب بن منبه، عن ابن عباس به مرفوعاً. وعند أبي داود زيادة: وقال مرة سفيان: ولا أعلمه إلا عن النبي ﷺ. اهـ. وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب من حديث ابن عباس لا نعرفه إلا من حديث الثوري .اهـ. كما في تحفة الأشراف (٦٥٣٩)، وهو في المعجم الكبير (١١/ ٥٦) وفيه: سفيان عن أبي موسى اليماني عن وهب بن منبه عن ابن عباس رفعه، وأبو موسى هذا مجهول، قاله ابن القطان، كما في تهذيب التهذيب (١٢/ ٢٥٢).

وقد رواه عبد الله بن سلمة الأفطس قال حدثنا سفيان الثوري عن أيوب بن موسى عن طاوس عن ابن عباس به مرفوعاً، أخرجه الطبراني في الأوسط (١/ ١٧٥) وقال: لم يرو هذا الحديث عن سفيان عن أيوب بن موسى إلا عبد الله بن سلمة تفرد به القواريري، ورواه أبو نعيم والناس عن سفيان عن أبي موسى اليماني.اهـ.

وأما حديث أبي هريرة فاختلف في إسناده، فرواه إسماعيل بن زكريا، عن الحسن بن الحكم النخعي، عن عدي ابن ثابت، عن أبي حازم، عن أبي هريرة، مرفوعاً، أخرجه أحمد (١٤/ ٤٣٠) وغيره، وهذا لم يروه هكذا عن الحسن إلا إسماعيل كما قال غير واحد، وهو غير محفوظ، وكأنه سلك الجادة.

ورواه غير إسماعيل عن الحسن بن الحكم، عن عدي بن ثابت، عن رجل من الأنصار، عن أبي هريرة مثله، وهذا أخرجه أحمد (١٥/ ٤٢٧) وأبو داود (٢٨٦٢) وغيرهما، قال أبو حاتم كما في العلل (٢٢٣٠): وهو أشبه، وقال البيهقي في شعب الإيمان: (٧/ ٤٨) هذا هو المحفوظ، وذكر الدارقطني جماعة ممن رواه على الوجه الأخير كما في علله (٨/ ٢٤٠).

ورواه شريك بن عبد الله عن الحسن بن الحكم عن عدي ابن ثابت عن البراء رفعه. وهو خطأ من شريك، وكأن البخاري لم يره محفوظاً كما قاله الترمذي في ترتيب القاضي للعلل الكبير (٦١٠) وعارضه بالطريقين السابقين عن الحسن بن الحكم، والحسن وثقه جماعة ووصفه ابن حبان بكثرة الخطأ وأنه لا يقبل ما يتفرد به، وعدي وصفه شعبة بأنه كان من الرفاعين، يعني يرفعون الموقوف، ولم يسم شيخه، ولا يُدرى هل قصد بنسبته أنصاري أنه صحابي أم قد يكون من نسل الأنصار، فنسبه إليهم.

(١) له إسنادان، الأول مضطرب، والثاني محتمل قد صححه بعضهم، روي من حديث معاذ، ومن حديث أبي الدراداء مختصراً.

أما حديث معاذ فأخرجه أحمد في «مسنده» (٥/ ٢٣٢ رقم ٢٢٠٣٠) وغيره من طريق: سعيد عن قتادة حدثنا العلاء بن زياد عن معاذ بن جبل مرفوعاً، وفي (٥/ ٢٣٤ رقم ٢٢١٠٧) من طريق: عبد الوارث حدثنا عمر بن إبراهيم حدثنا قتادة عن العلاء بن زياد عن رجل حدثه يثق به عن معاذ =

قال القاضي أبو محمد: ويعترض هذا ببدو يعقوب، وينفصل عن ذلك بوجهين: أحدهما: أن ذلك البدولم يكن في أهل عمود بل هو بتقرٍّ[1] في منازل وربوع.

= ابن جبل عن رسول الله ﷺ، وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٢٠/ ١٦٤)عن بكر بن سهل الدمياطي ثنا عبد الله بن صالح حدثني يحيى بن أيوب عن عبد الله بن حر عن القاسم عن العلاء ابن زياد عن معاذ بن جبل مرفوعاً، والبيهقي في الشعب (٣/ ٥٧) من طريق: محمد بن إسحاق ثنا عفان بن مسلم ثنا حماد بن سلمة ثنا برد أبو العلاء عن عطية رجل من أهل الشام عن حزام عن معاذ بن جبل من قوله موقوفاً.

وأما حديث أبي الدرداء رضي الله عنه فأخرجه أبو داود (٥٤٧) والنسائي في الكبرى (١/ ٢٩٦) وابن خزيمة (١٤٨٦) وابن حبان (٢١٠١) والحاكم (١/ ٢١١) فهو من طريق: زائدة بن قدامة عن السائب بن حبيش الكلاعي عن معدان عن أبي طلحة اليعمري عن أبي الدرداء مرفوعاً بلفظ: «ما من ثلاثة نفر في قرية ولا بدو لا تقام فيهم الصلاة إلا استحوذ عليهم الشيطان، فعليك بالجماعة فإنما يأكل الذئب القاصية»، والحديث هذا مداره، والسائب بن حبيش شامي كلاعي لم يرو عنه إلا زائدة بن قدامة، وقال عبد الله بن أحمد عن أبيه: السائب بن حبيش ما أعلم حدث عنه إلا زائدة. قلت له: هو ثقة؟ قال: لا أدري.اهـ. العلل ومعرفة الرجال (٣/ ١١٠) والجرح (٤/ ٢٤٤).

وقال البرقاني: سألت الدارقطني عن السائب بن حبيش، فقال: من أهل الشام، صالح الحديث، حدث عنه زائدة، ولا أعلم حدث عنه غيره.اهـ(٢١٣)، وقال الحاكم بعد أن أخرج الحديث: «وقد عرف من مذهب زائدة أنه لا يحدث إلا عن الثقات».اهـ.

ولعل مستند الحاكم في هذا قول أحمد بن صالح العجلي في «معرفة الثقات» (١/ ٣٦٧): «زائدة بن قدامة ثقفي، كنيته أبو الصلت، كوفي ثقة، لا يحدث أحداً حتى يسأل عنه، فإن كان صاحب سنة حدثه، وإلا لم يحدثه، وكان قد عرض حديثه على سفيان الثوري، وروى عنه الثوري»، وقول ابن حبان في مشاهير علماء الأمصار (١/ ٢٦٩): «كان من الحفاظ المتقنين، وكان لا يعد السماع حتى يسمعه ثلاث مرات، وكان لا يحدِّث أحداً حتى يشهد له عدلان أنه من أهل السنة»، لكن أولاً: العبارتان تتحدثان عمن يحدثهم زائدة لا من يحدث هو عنهم، ولا يدرى هل يصنع ذلك في الحالة الثانية أيضاً، الظاهر نعم لأن الاحتياط في السماع أولى من التحديث، ثانياً: ظاهر هذين القولين أن زائدة كان يسأل عن الاعتقاد، فيشترط أن يكون الراوي من أهل السنة لا من أهل البدع، وتبقى عدالة الرواية المشتملة على الضبط، فلم تتعرض العبارتان له، فلا تقتضيان حينئذٍ إثبات العدالة الاصطلاحية، وإن كانت ترفع الجهالة وتثبت الاستقامة إجمالاً بموجب السؤال عنه ومعرفة الناس له بأنه سُني. والله تعالى أعلم

(١) في نجيبويه: «متقرر».

والثاني: أنه إنما جعله بدواً بالإضافة إلى مصر كما هي بنات الحواضر بدو بالإضافة إلى الحواضر.

ثم أحالهم على الاعتبار في الأمم السالفة في أقطار الأرض التي كذبت رسلها فحاق بها عذاب الله، ثم حض على الآخرة والاستعداد لها والاتقاء من الموبقات فيها، ثم وقفهم موبخاً بقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

وقوله: ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾ زيادة في وصف إنعامه على المؤمنين، أي: عذب الكفار ونجى المؤمنين، ولدار الآخرة أحسن لهم.

وأما إضافة الدار إلى الْآخِرَةِ، فقال الفراء: هي إضافة الشيء إلى نفسه[1]، كما قال الشاعر:

[الطويل] فإِنَّـك لَـو حلَلْـتَ دِيَـارَ عَبْـسٍ عَـرَفْـتَ الـذُّلَّ عِرْفَـانَ اليَـقِينِ[2]

وفي رواية: فلو أقوت عليك ديار... إلخ.

وكما يقال: مسجد الجامع، ونحو هذا، وقال البصريون: هذه على حذف مضاف تقديره: ولدار الحياة الآخرة أو المدة الآخرة[3].

قال القاضي أبو محمد: وهذه الأسماء التي هي للأجناس كمسجد وثوب وحق وجبل ونحو ذلك إذا نطق بها الناطق لم يُدْرَ ما يريد بها، فتضاف إلى معرَّفٍ مخصِّصٍ للمعنى المقصود، فقد تضاف إلى جنس آخر كقولك: ثوبُ خَزٍّ، وجبل تراب، وقد تضاف إلى صفة كقولك: مسجد الجامع وحق اليقين، وقد تضاف إلى اسم خاص كقولك: جبل أحد، ونحوه.

(١) معاني القرآن للفراء (٢/ ٥٥).

(٢) البيت في معاني القرآن للفراء (٢/ ٥٦)، وتفسير الطبري (١٦/ ٢٩٥)، وتفسير الثعلبي (٥/ ٢٦٤)، بلا نسبة، بالرواية الثانية.

(٣) إعراب القرآن للنحاس (٢/ ٢١٦).

وقرأ الحسن والأعرج والأعمش وابن كثير وأبو عمرو وعاصم وعلقمة: ﴿يعقلون﴾ بالياء، واختلف عن الأعمش، قال أبو حاتم: قراءة العامة: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ بالتاء من فوق[١].

ويتضمن قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أن الرسل الذين بعثهم الله من أهل القرى دعوا أممهم فلم يؤمنوا بهم حتى نزلت بهم المثلات، صاروا في حيز من يعتبر بعاقبته، فلهذا المضمَّن حسن أن تدخل ﴿حَتَّىٰ﴾ في قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ﴾.

وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر والحسن وعائشة بخلاف، وعيسى وقتادة ومحمد بن كعب والأعرج وأبو رجاء وابن أبي مليكة: ﴿كُذِّبُوا﴾ بتشديد الذال وضم الكاف.

وقرأ الباقون: ﴿كُذِبُوا﴾ بضم الكاف وكسر الذال وتخفيفها، وهي قراءة علي ابن أبي طالب وأبيّ بن كعب وابن مسعود وابن عباس ومجاهد وطلحة والأعمش وابن جبير ومسروق والضحاك وإبراهيم وأبي جعفر، ورواها شيبة بن نصاح عن القاسم عن عائشة[٢].

وقرأ مجاهد والضحاك وابن عباس وعبد الله بن الحارث بخلاف عنهم: (كَذَبوا) بفتح الذال والكاف[٣].

فأما الأولى فتحتمل أن يكون الظن بمعنى اليقين، ويكون الضمير في ﴿وَظَنُّوا﴾ وفي: ﴿كذِّبوا﴾ للرسل، ويكون المكذِّبون مشركي مَن أُرسل إليه، المعنى: وتيقن الرسل أن المشركين[٤] كذَّبوهم وصمموا على ذلك، وأن لا انحراف عنه، ويحتمل أن

---

(١) فيه تخليط، وهما سبعيتان، نافع وعاصم وابن عامر بالتاء والباقون بالياء، انظر: التيسير (ص: ١٣٠).
(٢) وهما سبعيتان، التخفيف للكوفيين، وشدد الباقون، انظر: السبعة (ص: ٣٥٢)، والتيسير (ص: ١٣٠).
(٣) وهي شاذة، انظر: المحتسب (١/ ٣٥٠)، ومختصر الشواذ (ص: ٧٠).
(٤) كتبت في المطبوع: «المشكرين»، خطأ.

يكون الظن على بابه، والضميران للرسل، والمكذبون مؤمنو من أرسل إليه، أي: مما طالت المواعيد حَسِبَ الرسل أن المؤمنين أولاً قد كذَّبوهم وارتابوا بقولهم.

وأما القراءة الثانية وهي ضم الكاف وكسر الذال وتخفيفها فيحتمل أن يكون المعنى: حتى إذا استيأس الرسل من النصر أو من إيمان قومهم ـ على اختلاف تأويل المفسرين في ذلك ـ وظن المرسل إليهم أن الرسل قد كَذَبوهم فيما ادعوه من النبوءة، أو فيما توعدوهم به من العذاب، لما طال الإمهال واتصلت العافية، فلما كان المرسل إليهم على هذا التأويل مكذوبين، بني الفعل للمفعول في قوله: ﴿كُذِبُواْ﴾ هذا مشهور قول ابن عباس وابن جبير(١).

وأسند الطبري: «أن مسلم بن يسار قال لسعيد بن جبير: يا أبا عبد الله، آية بلغت مني كل مبلغ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ﴾ [فهذا هو الموت أن تظن الرسل أنهم قد كذبوا](٢) مخففة، فقال له ابن جبير: يا أبا عبد الرحمن إنما يئس الرسل من قومهم أن يجيبوهم، وظن قومهم أن الرسل كَذَبتهم، فحينئذ جاء النصر، فقام مسلم إلى سعيد فاعتنقه وقال: فرجت عني فرج الله عنك»(٣).

قال القاضي أبو محمد: فرضي الله عنهم كيف كان خلقهم في العلم، وقال بهذا التأويل في هذه القراءة ابنُ مسعود(٤)، ومجاهد(٥)، ورجح أبو علي الفارسي هذا

---

(١) حسن أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (٢٠٠٢١) من طريق عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس فذكره.

(٢) ساقط من نور العثمانية وأحمد٣، و«الموت»: ساقطة من المطبوع.

(٣) تفسير الطبري (١٦/ ٢٩٨) بتصرف.

(٤) أخرجه الطبري (١٦/ ٣٠٣) من طريق: محمد بن فضيل، عن جحش بن زياد الضبي، عن تميم بن حذلم، قال: سمعت عبد الله بن مسعود يقول في هذه الآية. وجحش لم يوثق توثيقاً معتبراً.

(٥) تفسير الطبري (١٦/ ٣٠٢)، وتفسير الماوردي (٣/ ٨٩).

التأويل[١]، وقال: إن رد الضمير في ﴿وَظَنُّوٓاْ﴾ وفي ﴿كُذِبُواْ﴾ على المرسل إليهم ـ وإن كان لم يتقدم لهم ذكر صريح ـ جائز لوجهين:

أحدهما: أن ذكر الرسل يقتضي ذكر مرسل إليه.

والآخر: أن ذكرهم قد أشير إليه في قوله: ﴿عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ﴾، وتحتمل هذه القراءة أيضاً أن يكون الضمير في ﴿وَظَنُّوٓاْ﴾ وفي ﴿كُذِبُواْ﴾ عائد على الرسل، والمعنى: كَذَبهم مَن أخبرهم عن الله، والظن على بابه ـ وحكى هذا التأويل قوم من أهل العلم ـ والرسل بشر فضعفوا وساء ظنهم، قاله ابن عباس[٢] وابن مسعود أيضاً، وابن جبير، وقال: ألم يكونوا بشراً؟[٣].

وقال ابن مسعود لمن سأله عن هذا: «هو الذي تكره»[٤].

وردَّت هذا التأويل عائشة أم المؤمنين[٥] وجماعة من أهل العلم، وأعظموا أن توصف الرسل بهذا، وقال أبو علي الفارسي: «هذا غير جائز على الرسل»[٦].

---

(١) الهداية (٥/ ٣٦٥٣).

(٢) أخرجه الطبري (١٦/ ٣٠٥) من طريق: ابن جريج أخبرني ابن أبي مليكة، قال: قرأ ابن عباس: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ﴾، قال: كانوا بشراً ضعفوا ويئسوا، و(١٦/ ٣٠٦) من طريق: إسرائيل، عن سماك، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: كانوا بشراً قد ظنوا، وهو مخرج في صحيح البخاري (٤٥٢٤) دون هذه الألفاظ، ومعه رد عائشة، كما سيأتي عنها قريباً.

(٣) تفسير الطبري (١٦/ ٣٠٦).

(٤) أخرجه الطبري (١٦/ ٣٠٥) من طريق: الأعمش، عن أبي الضحى، عن مسروق، عنه، وإسناده صحيح لولا عنعنة الأعمش.

(٥) أخرجه البخاري (٣٣٨٩) (٤٥٢٤) (٤٦٩٥) من طريق: ابن جريج قال: سمعت ابن أبي مليكة يقول: قال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ﴾ خفيفة ذهب بها هناك وتلا: ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ﴾ فلقيت عروة ابن الزبير فذكرت له ذلك فقال: قالت عائشة: معاذ الله، والله ما وعد الله رسوله من شيء قط إلا علم أنه كائن قبل أن يموت، ولكن لم يزل البلاء بالرسل حتى خافوا أن يكون من معهم يكذبونهم، فكانت تقرؤها: ﴿وظنوا أنهم قد كذِّبوا﴾ مثقلة.

(٦) انظر: الحجة لأبي علي (٤/ ٤٤٣).

قال القاضي أبو محمد: وهذا هو الصواب، وأين العصمة والعلم؟

وأما القراءة الثالثة وهي فتح الكاف والذال فالضمير في ﴿وَظَنُّوٓاْ﴾ للمرسل إليهم، والضمير في (كَذَبوا) للرسل / ، ويحتمل أن يكون الضميران للرسل، أي: ظن الرسل أنهم قد كَذَبوا من حيث نقلوا الكذب وإن كانوا لم يتعمدوه، فيرجع هذا التأويل إلى المعنى المردود الذي تقدم ذكره. [٣/ ٨٨]

وقوله: ﴿جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا﴾ أي: بتعذيب أممهم الكافرة، ثم وصف حال مجيء العذاب في أنه ينجي الرسل وأتباعهم، وهم الذين شاء رحمتهم، ويحل بأسه بالمجرمين الكفرة.

وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وحمزة والكسائي: ﴿فَنُنْجِيْ﴾ بنونين، من أنجى.

وقرأ الحسن: (فَنُنَجِّي) النون الثانية مفتوحة، وهو من نجى ينجّي[١].

وقرأ أبو عمرو أيضاً وقتادة: (فنجِّيْ) بنون واحدة وشد الجيم وسكون الياء، فقالت فرقة: إنها كالأولى أدغمت النون الثانية في الجيم، ومنع بعضهم أن يكون هذا موضع إدغام لتنافر النون والجيم في الصفات لا في المخارج، وقال: إنما حذفت النون في الكتاب لا في اللفظ، وقد حكيت هذه القراءة عن الكسائي ونافع[٢].

وقرأ عاصم وابن عامر: ﴿فَنُجِّيَ﴾ بفتح الياء على وزن فُعِّل[٣].

وقرأت فرقة: (فنُنْجِيَ) بنونين وفتح الياء، رواها هبيرة عن حفص عن عاصم[٤]، وهي غلط من هبيرة.

وقرأ ابن محيصن ومجاهد: (فنَجَا) فعل ماض بتخفيف الجيم، وهي قراءة نصر ابن عاصم والحسن بن أبي الحسن وابن السميفع وأبي حيوة[٥].

---

(١) وهي شاذة، انظر عزوها له في الشواذ للكرماني (ص: ٢٥٣).

(٢) وهي شاذة، انظر عزوها لهم في البحر المحيط (٦/ ٣٣٦)، وانظر جامع البيان للداني (٣/ ١٢٣٨).

(٣) هذه والأولى سبعيتان، انظر: السبعة (ص: ٣٥٢).

(٤) انظر رواية هبيرة وتغليطها في السبعة (ص: ٣٥٢).

(٥) وهي شاذة، انظر عزوها للكل في البحر المحيط (٦/ ٣٣٦)، وإلا أبا حيوة في الشواذ للكرماني (ص: ٢٥٣).

قال أبو عمرو الداني: وقرأت لابن محيصن: (فنجَّى) بشد الجيم[1] على: معنى فنجَّى النصر.

والبأس: العذاب.

وقرأ أبو حيوة: (من يشاء) بالياء[2].

وجاء الإخبار عن هلاك الكافرين بقوله: ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا﴾ الآية، إذ في هذه الألفاظ وعيد بين، وتهديد لمعاصري محمد ﷺ.

وقرأ الحسن: (بأسه)، بالهاء[3].

قوله عز وجل: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾.

الضمير في ﴿قَصَصِهِمْ﴾ عام ليوسف وأبويه وإخوته وسائر الرسل الذين ذكروا على الجملة، ولما كان ذلك كله في القرآن قال عنه: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ﴾ فإذا تأملت قصة يوسف ظهر أن في غرائبها وامتحان الله فيها لقوم في مواضع، ولطفه لقوم في مواضع، وإحسانه لقوم في مواضع، معتبراً لمن له لب وأجاد النظر، حتى يعلم أن كل أمر من عند الله وإليه.

وقوله: ﴿مَا كَانَ﴾ صيغة منع، وقرينة الحال تقتضي أن البرهان يقوم على أن ذلك لا يفترى، وذلك بأدلة النبوءة وأدلة الإعجاز.

والحديث هنا واحد الأحاديث، وليس للذي هو خلاف القديم هاهنا مدخل.

ونصب ﴿تَصْدِيقَ﴾ إما على إضمار معنى كان، وإما على أن تكون (لكِنْ) بمعنى «لكنَّ» المشددة.

---

(١) انظر ما قاله الداني في البحر (٦/ ٣٣٦)، وعزاها في الشواذ للكرماني (ص: ٢٥٣) لابن السميفع.

(٢) وهي شاذة، انظر: البحر المحيط (٦/ ٣٣٧).

(٣) وهي شاذة، مخالفة للرسم، تابعه عليها في البحر المحيط (٦/ ٣٣٧).

وقرأ عيسى الثقفي: (تصديقُ) بالرفع[١]، وكذلك كل ما عطف عليه، وهذا على حذف المبتدأ، التقدير: هو تصديق. وقال أبو حاتم: النصب على تقدير: ولكن كان، والرفع على: ولكن هو، ويُنشَد بيت ذي الرمة بالوجهين:

[الطويل]

ومـا كانَ مالِـي مِـنْ تُـرَاثٍ وَرِثْتُـهُ وَلا ديـةٍ كانـتْ ولا كَسْـبِ مَأْثَـمِ

ولكِـنْ عطـاءُ اللهِ مِـنْ كُلِّ رِحْلَـةٍ إِلى كُلِّ محْجُوبِ السُّرادِقِ خِضْرِمِ[٢]

رفع «عطاء الله»، والنصب أجود.

و﴿ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ هو التوراة والإنجيل.

والضمير في ﴿يَدَيْهِ﴾ عائد على القرآن، وهو اسم كان.

وقوله: ﴿كُلِّ شَىْءٍ﴾ يعني من العقائد والأحكام والحلال والحرام. وباقي الآية بين.

* * *

(١) وهي شاذة، انظر عزوها له في المحتسب (١/ ٣٥٠).

(٢) انظر عزو البيتين له في العقد الفريد (١/ ٢٣٢)، والعمدة في محاسن الشعر وآدابه (١/ ٨٥).



بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى اللهُ على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

سورة الرّعد

هذه السورة مكية، قاله سعيد بن جُبَيْر[(١)]، وقال قتادة: هي مدنية غير[(٢)] قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ﴾ الآية [٣١]، حكاه الزهراوي، وحكى المهدوي عن قتادة: أن السورة مكية إلا قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ الآية [٣١][(٣)].

قال القاضي أبو محمد: وقال النقاش: هي مكية غير آيتين: قوله: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾، وقوله: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [٤٣][(٤)]، والظاهر عندي أن المدني فيها كثير، وكل ما نزل في شأْن عامر بن الطفيل وأربد بن ربيعة فهو مدني.

---

(١) أخرجه عنه سعيد بن منصور وابن المنذر كما في الدر المنثور (٨/ ٣٥٩)، ونقله مكي في الهداية (٥/ ٣٦٥٩) عنه وعن قتادة.

(٢) في المطبوع زيادة: آيتين، وعلق عليه المحقق بقوله: «هي نفس الآية (٣١)، ولعلَّ من يقول بهذا ـ وهو قتادة ـ يعتبرهما آيتين بخلاف ما في رسم المصحف اليوم»، قلت: فلعل النسخة أصلاً غير صحيحة.

(٣) انظر التحصيل للمهدوي (٣/ ٥٩٤)، وقد أخرجه عن قتادة ابن المنذر وأبو الشيخ كما في الدر المنثور (٨/ ٣٥٩).

(٤) نقله الثعلبي (٥/ ٢٦٧) عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، وانظر تفسير السمعاني =

وقيل: السورة مدنية، حكاه مُنْذِر بن سعيد البَلُّوطي، وحكاه مَكِّي[١] بن أَبي طالب[٢].

قوله عز وجل: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ﴿الٓمٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَاۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّىۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾﴾.

تقدم القول في فواتح السور وذكر التأْويلات في ذلك، إلا أن الذي يخصُّ هذا الموضع من ذلك هو ما قال ابن عباس رضي الله عنه: إن هذه الحروف هي من قوله: أَنا الله أَعلم وأَرى[٣].

ومن قال: إِن حروف أَوائل السُّور هي مثال لحروف المعجم قال: الإشارة هنا بـ﴿تِلْكَ﴾ هي إلى حروف المعجم، ويصح ـ على هذا ـ أن يكون ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ يراد به القرآن، ويصح أن يراد به التوراة والإنجيل، و﴿الٓمٓر﴾ على هذا ابتداءٌ، و﴿تِلْكَ﴾ ابتداءٌ ثانٍ[٤]

= (٣/ ٧٥)، والنقاش غير متوفر.

(١) أشار في هامش المطبوع إلى أن في الأصول المخطوطة عندهم: «بكر»، وليست في شيء من النسخ التي عندنا.

(٢) تفسير منذر غير متوفر، ونص كلام مكي في الهداية (٥/ ٣٦٥٩): الرعد: مكية، وقيل: مدنية، قال ابن جبير، ومجاهد: هي مكية، وقال قتادة: هي مدنية إلا آية واحدة، قوله: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، وعنه: إلا قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾، فإنه نزل بمكة.

(٣) لا يصح، أخرج الطبري (١٦/ ٣٢٠) من طريق: هشيم، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، ومن طريق: شريك، عن عطاء بن السائب، عن أبي الضحى، كلاهما عن ابن عباس: قوله: (المر) قال: أنا الله أرى، وعند ابن أبي حاتم (٨/ ٤٨٤) من طريق شريك، عن عطاء بن السائب، عن أبي أسيد العجمي، عن ابن عباس. هكذا وقع، والاضطراب فيه من عطاء فقد اختلط، فاختلفوا عليه، والرواة عنه هنا رووا عنه قبل الاختلاط.

(٤) ساقط من المطبوع.

و﴿ءَايَٰتُ﴾ خبر الثاني، والجملة خبر الأول، وعلى قول ابن عباس في ﴿الٓمٓر﴾ يكون ﴿تِلْكَ﴾ ابتداءً، و﴿ءَايَٰتُ﴾ بدلٌ[١] منه، ويصح في ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ التأْويلان اللذان تقدما.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ﴾؛ (الَّذِي) رفع بالابتداءِ، و﴿ٱلْحَقُّ﴾ خبره، وعلى هذا تأْويل من يرى ﴿الٓمٓر﴾ حروف المعجم، و﴿تِلْكَ﴾ و﴿ءَايَٰتُ﴾ ابتداءٌ وخبر، وعلى قول ابن عباس يكون (الذي) عطفاً على ﴿تِلْكَ﴾، و﴿ٱلْحَقُّ﴾ خبر ﴿تِلْكَ﴾.

وإِذا أُريد بـ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ القرآن فالمراد بـ﴿وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ﴾ جميع الشريعة، ما تضمنه القرآن منها وما لم يتضمنه، ويصح في (الذي) أَن يكون في موضع خفض عطفاً على ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾، فإِن أَردت مع ذلك بـ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ القرآنَ كانت الواو عطف صفة [على صفة][٢] لشيءٍ واحد، كما تقول: جاءَني الظريفُ والعاقل، وأَنت تريد شخصاً واحداً.

ومن ذلك قول الشاعر:

إِلَى الْمَلِكِ الْقَرْمِ وابنِ الهُمَامِ ... ولَيْثِ الكَتِيبَةِ في الْمُزْدَحَمْ[٣] [المتقارب]

وإِن أَردتَ مع ذلك بـ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ التوراةَ والإِنجيل فذلك بَيِّن، فإِن تأَولت مع ذلك ﴿الٓمٓر﴾ حروف المعجم رفعتَ قوله: ﴿ٱلْحَقُّ﴾ على إِضمار مبتدأ / تقديره: [٣/ ٨٩] هو الحق، وإِن تأَولتها كما قال ابن عباس فـ﴿ٱلْحَقُّ﴾ خبر ﴿تِلْكَ﴾، ومن رفع الْحَق بإِضمار ابتداءٍ وقف على قوله: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ وباقي الآية ظاهر بيِّن[٤] إِن شاءَ الله.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾ الآية، لمَّا تضمن قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ

---

(١) مرفوع جوازاً لأنَّ «يكون» استكملت عملها بالخبر الأول، وفي المطبوع: «بدلاً» بالنصب عطفاً على الخبر الأول.

(٢) ساقط من المطبوع وأحمد٣.

(٣) البيت في تفسير الطبري (٣/ ٣٥٣)، ومعاني القرآن للفراء (١/ ١٠٥)، وخزانة الأدب للبغدادي (١/ ٤٥١) بلا نسبة.

(٤) «بين»: زيادة من نجيبويه ونور العثمانية.

﴿ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ توبيخَ الكفرة عقَّب ذلك بذكر الله الذي ينبغي أن يُوقَن به، وبذكر الأَدلة الداعية إِلى الإِيمان به.

والضمير في قوله: ﴿تَرَوْنَهَا﴾ قالت فرقة: هو عائد على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ فـ﴿تَرَوْنَهَا﴾ على هذا في موضع الحال، وقال جمهور الناس: لا عمد للسماوات البتة[1]، وقالت فرقة: الضمير عائد على العَمَد، فـ﴿تَرَوْنَهَا﴾ على هذا صفةٌ للعَمَد، وقالت هذه الفرقة: للسماوات عَمَدٌ غير[2] مرئية، قاله مجاهد وقتادة[3]، وقال ابن عباس: وما يدريك أَنها بِعَمَد لا تُرى[4]، وحكى بعضهم أَن العَمَد جبل قاف المحيط بالأَرض، والسماءُ عليه كالقبة.

قال القاضي أبو محمد: وهذا كله ضعيف، والحق أن لا عَمَد جملة، إِذ العَمَد تحتاج إِلى عَمَد، ويتسلسل الأَمر فلا بُدَّ من وقوفه على القدرة، وهذا هو الظاهر من قوله تعالى: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ [الحج: ٦٥]، ونحو هذا من الآيات.

وقال إِياس[5] بنُ معاوية: السَّماءُ مقبية على الأرض مثل القبة[6].

وفي مصحف أُبَيٍّ: (تَرَوْنه) بتذكير الضمير[7].

و«الْعَمَدُ» اسمُ[8] جمعِ عمود، والباب في جمعه: عُمُد بضم الحروف الثلاثة،

---

(١) سقطت من المطبوع وأحمد٣.

(٢) ساقطة من نجيبويه.

(٣) نقلهما مكي في الهداية (٥/ ٣٦٦٢).

(٤) أخرجه الطبري (١٦/ ٣٢٤) من طريق: شريك، عن سماك، عن عكرمة، عن ابن عباس، ويشهد له بمعناه من طريق: معاذ بن معاذ قال: حدثنا عمران بن حدير، عن عكرمة قال: قلت لابن عباس، وقاله قتادة عن ابن عباس مرسلاً.

(٥) في نجيبويه: «أبان».

(٦) أخرجه عنه عبد بن حميد وأبو الشيخ في العظمة كما في الدر المنثور (١/ ١٨١)، ورواه عنه حمّاد بن سلمة كما في تفسير الثعلبي (٥/ ٢٦٨)، وتفسير الطبري (١٦/ ٣٢٥).

(٧) نقل هذه القراءة عنه مكي في الهداية (٥/ ٣٦٦٢).

(٨) في نجيبويه زيادة: «جنس».

كرسول ورُسُل، وشِهابٍ وشُهُب، وغيره، ومن هذه الكلمة قول النابغة:

وخَيِّسِ الجِنَّ إني قَدْ أَذِنْتُ لَهُمْ ... يَبْنُونَ تَدْمُرَ بالصُّفَّاح والْعُمُدِ[١] [البسيط]

وقال الطبريُّ: «العمَد ـ بفتح العَيْن ـ جمع عمود، كما جُمع الأَديم أَدَماً»[٢].

قال القاضي أبو محمد: وليس كما قال، وفي كتاب سيبويه أَن الأَدَم اسم جمع[٣]، وكذلك نصَّ اللغويون على العَمَد، ولكن أَبا عبيدة ذكر الأَمر غير مُتَيَقِّنٍ[٤] فاتَّبعه الطبري[٥].

وقرأَ يحيى بن وثَّاب: (بغير عُمُدٍ) بضم العين والميم[٦].

وقوله: ﴿ثُمَّ﴾ هي هنا لعطف الجُمَل لا للترتيب، لأَن الاستواءَ على العرش قبل رفع السماوات، ففي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «كان الله ولم يكن شيءٌ قبله[٧]، وكان عرشه على الماءِ، ثم خلق السماوات والأَرض»[٨].

وقد تقدم القول في كلام الناس في الاستواءِ، واختصارُه: أَن أَبا المعالي رجَّح أَنه اسْتَوى بقهره وغلبته، وقال القاضي ابن الطيب وغيره: ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾ في هذا الموضع بمعنى: استولى، والاستيلاءُ قد يكون دون قهر، فهذا فرقُ ما بين القولين[٩].

---

(١) انظر: عزوه له في مجاز القرآن (١/ ٣٢٠)، والأغاني (١١/ ٦)، والحيوان (٦/ ١٨٦) والعين (٤/ ٢٨٨)، وفي المطبوع وأحمد٣: وخبر.

(٢) تفسير الطبري (١٦/ ٣٢٢).

(٣) الكتاب لسيبويه (٣/ ٦٢٥)، وفي نجيبويه: «الأديم».

(٤) في نجيبويه وأحمد٣، ونور العثمانية: «متقن».

(٥) ولفظ أبي عبيدة في مجاز القرآن (١/ ٣٢٠): والعمد تحرك الحروف بالفتحة، وبعضهم يحركها بالضمة لأنها جميع عمود وهو القياس... غير أنه جاءت أسام منه استعملوا جميعه بالحركة بالفتحة نحو عمود وأديم وإهاب قالوا: أدم وأهب.

(٦) سقط ذكر الميم من المطبوع، وهي شاذة، انظر: الشواذ للكرماني (ص: ٢٥٣).

(٧) في المطبوع: «قبل».

(٨) أخرجه البخاري (٣٢٢٧) (٧٥٠٧) من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه مرفوعاً.

(٩) انظر: تفسير الآية (٢٩) من سورة البقرة.

وقال سفيان: «فعل فعلاً سمَّاه استواءً»[١].

وقال الفراءُ:[٢] ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾ في هذا الموضع كما تقول العرب: فعل زيد كذا ثم استوى إِليَّ يكلمني، بمعنى: أَقْبَلَ وقَصَدَ.

وحُكِيَ لي عن أَبي الفضل بن النحوي أَنه قال: ﴿ٱلْعَرْشِ﴾ في هذا الموضع مصدر عَرَشَ، فكأَنه أَرَادَ جميع المخلوقات[٣].

وذكر أَبو منصور عن الخليل أَن العَرْش: المُلْك[٤]، وهذا يؤيد منزع أَبي الفضل بن النحوي إِذ قال: العرش مصدر، وهذا خلاف ما مشى عليه الناس من أَن الْعَرْش هو أَعظم المخلوقات، وهو الشخص المشهور الذي كان على الماءِ، والذي بين يديه الكرسي، وأَيضاً فيبقى النظر على أَبي الفضل في معنى الاستواءِ قريباً مما هو على قول الجميع.

وفي البخاري عن مجاهد أَنه قال: المعنى: علا على العرش[٥].

قال القاضي أبو محمد: وكذلك هي عبارة الطبري[٦]، والنظر الصحيح يدفع[٧] هذه العبارة.

وقوله: ﴿وَسَخَّرَ﴾ تنبيه على القدرة، و﴿ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ في ضمن ذكرهما ذِكْرُ الكواكب، وكذلك[٨] قال: ﴿كُلٌّ يَجْرِى﴾، أَي: كل ما هو في معنى الشمس والقمر من

---

(١) نقله عنه أبو حيان في البحر المحيط (٥/ ٦٥)، ونقله الثعلبي (٤/ ٢٣٩) عن أهل الحق من المتكلمين.

(٢) في المطبوع هنا زيادة: رسول الله، ولعله خطأ مطبعي، وانظر: معاني القرآن للفراء (١/ ٢٥)، وفيه: «يُشاتمني»، بدل «يكلمني».

(٣) في نجيبويه: «جمع المخلوقات»، وسقطت منها «لي»، وتقدم هذا عنه في تفسير الآية (٥٣) من سورة الأعراف.

(٤) لم أجده في كتب الخليل، ونقله الثعلبي في الكشف والبيان (٤/ ٢٣٩) بلا نسبة.

(٥) صحيح البخاري: باب (٢٢): وكان عرشه على الماء، حديث رقم: (٦٩٨١).

(٦) تفسير الطبري (١٦/ ٣٢٥).

(٧) في المطبوع وأحمد٣، ونور العثمانية: «يرفع».

(٨) في المطبوع وأحمد٣ ونجيبويه: «ولذلك».

التَّسْخير، و«كُلٌّ» لفظة تقتضي الإِضافة ظاهرة أَو مقدرة.

و«الأَجلُ المُسَمَّى» هو انقضاءُ الدنيا وفساد هذه البنية، وقيل: يريد بقوله: ﴿لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ الحدود التي لا تتعداها هذه المخلوقات، أَي: تجري على رسوم معلومة.

وقوله: ﴿يُدَبِّرُ﴾ بمعنى: يُبْرِم وينفِّذ، وعبَّر بالتدبير تقريباً لأَفهام الناس، إِذ التدبير إِنما هو النظر في أَدبار الأُمور وعواقبها، وذلك من صفة البَشَر.

و﴿ٱلْأَمْرَ﴾ عامٌّ في جميع الأُمور وما ينقضي في كل أَوان في السماوات والأَرضين.

وقال مجاهد: يُدَبِّـرُ معناه: يقضيه وحده[١].

وقرأَ الجمهور: ﴿يُفَصِّلُ﴾ بالياءِ، وقرأَ الحسن بنون العظمة، ورواها الخفاف وعبد الوهاب عن أَبي عمرو، وهبيرة عن حفص[٢].

قال المهدوي: ولم يختلف في ﴿يُدَبِّرُ﴾، وقال أَبو عمرو الداني: إِن الحسن قرأَ: (نفصل)، (وندبر) بالنون فيهما[٣].

والنظر يقتضي أَن قوله: ﴿يُفَصِّلُ﴾ ليس على حدِّ قوله: ﴿يُدَبِّرُ﴾ من تعديد الآيات، بل لمَّا تعددت الآيات وفي جملتها ﴿يُدَبِّرُ[٤] ٱلْأَمْرَ﴾ أَخبر أَنه يُفَصِّلها لعل الكفرة يوقنون بالبعث.

و﴿ٱلْآيَـٰتِ﴾ هنا إِشارة إِلى ما ذكر في الآية وبعدها.

---

(١) تفسير الطبري (١٦/ ٣٢٧).

(٢) الأولى هي المتواترة، والثانية لهارون عن أبي عمرو والحسن طريق ابن راشد في الكامل للهذلي (ص: ٥٧٧)، ونقلها الكرماني في الشواذ (ص: ٢٥٤)، عن الخراز (كذا، ولعله: الخزاز) عن حفص عن الأعمش، وليس ذلك كله في شيء من طرق التيسير ولا جامع البيان.

(٣) وهي شاذة، وعزوها له هو ظاهر مختصر الشواذ (ص: ٧٠)، وعزاها الهذلي في الكامل (ص: ٥٧٧) للخزاز عن حفص والخفاف عن أبي عمرو، والكرماني في الشواذ (ص: ٢٥٤) لأبان بن تغلب وهارون العتكي عن أبي عمرو. وانظر قول المهدوي في التحصيل (٣/ ٥٦٣).

(٤) في المطبوع: «تدبير».

قوله عز وجل: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۡهَٰرٗاۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ۝٣ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ مُّتَجَٰوِرَٰتٞ وَجَنَّٰتٞ مِّنۡ أَعۡنَٰبٖ وَزَرۡعٞ وَنَخِيلٞ صِنۡوَانٞ وَغَيۡرُ صِنۡوَانٖ يُسۡقَىٰ بِمَآءٖ وَٰحِدٖ وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلۡأُكُلِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ۝٤﴾.

لما فرغت آيات السماءِ ذكرت آيات الأَرض.

وقوله: ﴿مَدَّ ٱلۡأَرۡضَ﴾ يقتضي أَنها بسيطة لا كرة(١)، وهذا هو ظاهر الشريعة، [وقد تترتب لفظة المد والبسط مع التكوير والله أعلم](٢).

والرواسي: الجبال الثابتة، يقال: رسا يرسو إِذا ثبت، ومنه قول الشاعر:

[الطويل] بِـهِ خالـداتٌ مـا يُرِمْـنَ وهَامِـدٌ وأَشْعَث أَرْسَتْهُ الْوَلِيدَةُ بالْفِهْر(٣)

والزَّوْجُ في هذه الآية: الصنف والنوع، وليس بالزوج المعروف في المتلازمَيْن الفردين من الحيوان وغيره، ومنه قوله: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ وَمِنۡ أَنفُسِهِمۡ وَمِمَّا لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [يس: ٣٦]، ومثل هذه الآية: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ﴾ [ق: ٧]، وهذه الآية تقتضي أَن كل ثمرة فموجود [٣/ ٩٠] / منها نوعان، فإِن اتفق أَنْ يوجد من ثمرة أَكثر من نوعين فغير ضارٍّ في معنى الآية.

وقرأَ ابن كثير، ونافع، وأَبو عمرو، وابن عامر، وحفص عن عاصم: ﴿يُغۡشِي﴾ بسكون الغين وتخفيف الشين، وقرأَ حمزة والكسائي وعاصم في رواية أَبي بكر بفتح الغين وشدّ الشِّين(٤)، وكفى ذكر الواحد ذكرَ الآخر، [وباقي الآية بيِّن](٥).

---

(١) في المطبوع: «كروية»، وفي أحمد٣» «كرية».

(٢) زيادة من الأصل والحمزوية، ونجيبويه، إلا أن فيه: «وقد يترتب لفظ المد» إلخ.

(٣) البيت للأحوص في لسان العرب (١٤/ ٣٢١)، وفي مجاز القرآن (١/ ٣٢١)، والأغاني (٨/ ٣٣٨)، بلا نسبة، وفي نجيبويه: «ما يرين».

(٤) وهما سبعيتان، انظر: التيسير (ص: ١٣١).

(٥) ساقط من نجيبويه.

قال القاضي أبو محمد: ويشبه أَن الأَزواج التي يراد بها الأَنواع والأَصناف والأَجناس إِنما سُمِّيَت بذلك من حيث هي اثنان اثنان [ويقال: إن][١] في كل ثمرة ذَكَراً وأُنثى، وأَشار إِلى ذلك الفراءُ عند المهدوي، وحكى غيره عنه ما يقتضي أَن المعنى تم في قوله: ﴿ٱلثَّمَرَٰتِ﴾، ثم ابتدأَ أَنه جعل في الأَرض من كل ذكر وأُنثى زوجين[٢].

وقوله: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾ [الآية، القِطع][٣]: جمع قطعة، وهي الأَجزاءُ، وقيَّد منها في هذا المثال ما تجاور[٤] وقَرُبَ بعضه من بعض لأن اختلاف ذلك في الأُكُل[٥] أَغرب.

وقرأَ الجمهور: ﴿وَجَنَّٰتٌ﴾ بالرفع، عطفاً على ﴿قِطَعٌ﴾، وقرأَ الحسن بن أَبي الحسن: (وجَنَّاتٍ) بالنصب[٦] بِإِضمار فعل، وقيل: هو عطف على ﴿رَوَٰسِيَ﴾.

وقرأَ ابن كثير، وأَبو عمرو، وحفص عن عاصم: ﴿وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ﴾ بالرفع في الكل عطفاً على ﴿قِطَعٌ﴾، وقرأَ الباقون ﴿وزرعٍ﴾ بالْخَفض في الكل[٧] عطفاً على ﴿أَعْنَٰبٍ﴾، وجَعَل الجنة من الأَعناب مَنْ رفع «الزَّرع»، والجنة[٨] حقيقةً إنما[٩] هي الأَرض التي فيها الأَعناب، وفي ذلك تَجَوُّز، ومنه قول الشاعر:

كَــأَنَّ عَـيْـنَـيَّ فـي غَـرْبَـيْ مُقَـتَّـلَـةٍ ... مِنَ النَّوَاضِحِ تَسْقِي جَنَّـةً سُحُقَا[١٠] [البسيط]

---

(١) ساقط من المطبوع وأحمد٣.

(٢) انظر: التحصيل للمهدوي (٣/ ٥٥٣).

(٣) ساقط من المطبوع وأحمد٣.

(٤) في الأصل ونور العثمانية ونجيبويه: «جاور».

(٥) في المطبوع: «القُرْب»، وكذا في أحمد٣، إلا أنه تم تصحيحها في الهامش «الأكل».

(٦) وهي شاذة، انظر: مختصر الشواذ (ص: ٧٠).

(٧) وهما سبعيتان، انظر: التيسير (ص: ١٣١).

(٨) في المطبوع وأحمد٣: «ومن رفع الزرع فالجنة...» إلخ.

(٩) من المصرية وأحمد٣ ونور العثمانية.

(١٠) البيت لزهير كما في الحجة لأبي علي (٦/٥)، وإسفار الفصيح (٢/ ٦٨٤)، والصحاح للجوهري =

أَي: نخيل جنَّة، إِذ لا يوصف بالسُّحُق إِلا النخيل.

ومَنْ خفض «الزرع» فالجنات من مجموع ذلك لا من الزرع وحده، لأَنه لا يقال للمزرعة: جَنَّة، إِلا إِذا خالطها شجرات.

و﴿صِنْوَانٌ﴾ جمع صِنْو وهو الفرع يكون[1] مع الآخر في أَصل واحد، وربما كان أَكثر من فرعين، قال البراءُ بن عازب: «الصِّنوان: المجتمِع، ﴿وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾: المتفرق فرداً فرداً»[2]، ومنه قول النبي ﷺ: «العَمُّ صِنْوُ الأب»، وروي أَن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أَسرع إِليه العباس رضي الله عنه في ملاحاة، فجاءَ إِلى النبي ﷺ فقال: أَردت يا رسول الله أَن أَقول للعباس فذكرت مكانه منك فسَكَتُّ، فقال رسول الله ﷺ: «يرحمك الله يا عمر، العم صنو الأَب»[3].

[وفي كتاب الزكاة من صحيح مسلم أنه قال: «يا عمر، أما شعرت أن العم صنو الأب»][4].

وجمع الصنو: صنوانٌ، وهو جمع مكسَّر، قال أَبو علي: وكَسْرة الصاد في الواحد ليست التي في الجمع[5]، وهو جار مجرى «فُلْك»، وتقول: صنو وصنوانٌ في الجمع بتنوين النون وإِعرابه.

وقرأَ عاصم في رواية القواس عن حفص: (صُنْوَان) بضم الصاد[6].

= (٥/ ٣٧٢)، وفي الحمزوية: «مثقلة».

(١) في المطبوع: «تكوَّن».

(٢) إسناده صحيح، أخرجه الطبري (١٦/ ٣٣٧) من طريق: زهير قال: حدثنا أبو إسحاق، عن البراء به نحوه.

(٣) أخرجه مسلم (٩٨٣) بلفظ: «عم الرجل صنو أبيه».

(٤) زيادة من الأصل والحمزوية ونجيبويه، وانظر: صحيح مسلم (٩٨٣).

(٥) الحجة لأبي علي (٥/ ٩).

(٦) انظر: رواية القواس في السبعة (ص: ٣٥٦)، وجامع البيان للداني (٣/ ١٢٤٣)، وزاد أنها رواية المفضل أيضاً.

قال أَبو علي: هو مثل ذِئب وذُؤْبان[١].

قال القاضي أبو محمد: وهي قراءَة ابن مُصَرِّف، وأَبي عبد الرحمن السُّلَمي[٢]، وهي لغة تميم وقيس، وكسر الصَّاد هي لغة أَهل الحجاز.

وقرأَ الحسن، وقتادة: (صَنْوَان) بفتح الصاد[٣]، وهو اسم جمع لا جمع، ونظير هذه اللفظة [قنْو وقنْوان][٤]، وإِنما نص على الصنوان في هذه الآية لأنها بمثابة التجاور في القطع تظهر فيها غرابة اختلاف الأُكل.

وقرأَ ابن كثير، ونافع، وأَبو عمرو، وحمزة، والكسائي، والحسن، وأَبو جعفر، وأَهل مكة: ﴿تُسْقَى﴾ بالتاءِ، وأَمال حمزة، والكسائي القاف، وقرأَ عاصم، وابن عامر: ﴿يُسْقَىٰ﴾ بالياءِ على معنى: يُسْقَى ما ذُكر[٥].

وقرأَ الجمهور: ﴿وَنُفَضِّلُ﴾ بالنون، وقرأَ حمزة، والكسائي: ﴿وَيُفَضِّلُ﴾ بالياءِ[٦].

وقرأَ ابن محيصن: (يُسْقَى بماء واحد ويُفَضِّلُ) بالياءِ فيهما[٧].

وقرأَ يحيى بن يَعْمر، وأَبو حيْوَة: (ويُفَضَّل) بالياءِ وفتح الضاد (بَعْضُهَا) بالرفع[٨]، قال أَبو حاتم: وجدته كذلك في لفظ[٩] يحيى بن يَعْمر في مصحفه، وهو أَول من نقط المصاحف.

---

(١) الحجة لأبي علي (٥/ ٦).

(٢) نقلها الثعلبي (٥/ ٢٦٩) عن أبي عبد الرحمن السلمي، والنحاس في معاني القرآن (٣/ ٤٦٩) عنه وعن أبي رجاء وطلحة وهو ابن معرف.

(٣) وهي شاذة، عزاها لهما في البحر المحيط (٦/ ٣٤٩)، وعزاها في مختصر الشواذ (ص: ٧٠) للأعرج، وفي الشواذ للكرماني (ص: ٢٤٥) لعيسى الكوفي والسلمي.

(٤) في المطبوعة: «قبو وقبوان».

(٥) وهما سبعيتان، انظر: التيسير (ص: ١٣١).

(٦) وهما أيضاً سبعيتان، انظر: التيسير (ص: ١٣١).

(٧) وهي شاذة ملفقة من سبعيتين، انظر عزوها له في إتحاف فضلاء البشر (ص: ٣٣٨).

(٨) وهي شاذة، انظر: عزوها له في مختصر الشواذ (ص: ٧٠)، الشواذ للكرماني (ص: ٢٥٤).

(٩) في نجيبويه ونور العثمانية: «نقط»، وأبو حاتم غير متوفر.

والأُكُل: اسم ما يُؤْكل، بضم الهمزة والكاف، [والأَكْل المصدر.

وقرأَت فرقة: ﴿فِى ٱلۡأُكُلِ﴾ بضم الهمزة والكاف][١]، وقد تقدم هذا في البقرة.

وحكى الطبري عن غير واحد ـ ابن عباس وغيره ـ: ﴿قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾ أَي: واحدة سبخة والأُخرى عذبة ونحو هذا من القول، وقال قتادة: المعنى: «قُرى متجاورات»[٢].

قال القاضي أبو محمد: وهذا وجه من العبرة، كأَنه قال: وفي الأَرض قطع مختلفات بتخصيص الله لها بمعان، فهي تسقى بماءٍ واحد ولكن تختلف فيما تخرجه، والذي يظهر من وصفه لها بالتجاور إِنما هو أنها من تربة واحدة ونوع واحد، وموضع[٣] العبرة في هذا أَبين، لأَنها مع اتفاقها في التربة والماءِ تفضّل القدرة والإِرادة بعض أُكلها على بعض، كما قال النبي ﷺ حين سئل عن هذه الآية فقال: «الدَّقَل والفارسي والحلو والحامض»[٤].

وعلى المعنى الأَول قال الحسن: هذا مثل ضربه الله لقلوب بني آدم، كانت الأَرض في يد الرحمن طينة واحدة، فسطحها فصارت قطعاً متجاورة ينزل عليها ماءٌ واحد من السماءِ، فتُخرج هذه زهرةً وثمرة، وتخرج هذه سبخة وملحاً وخبثاً، فكذلك الناس خلقوا من آدم فنزلت عليهم من السماءِ تذكرة، فرقَّت قلوب وخشعت، وقست قلوب ولهت وجفَت[٥].

قال الحسن: فوالله ما جالس أَحد القرآن إِلا قام عنه بزيادة أَو نقصان، قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحۡمَةٌ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢][٦].

---

(١) ساقط من نجيبويه ونور العثمانية، وتقدم الخلاف في قراءته في الآية (٢٦٥) من سورة البقرة.

(٢) رواه عنه الطبري (١٦/ ٣٣٢)، وأبو الشيخ كما في الدر المنثور (٨/ ٣٦٦).

(٣) سقطت من المطبوع، وفي نور العثمانية: «ونوع العبرة».

(٤) إسناده ساقط، أخرجه الطبري (١٦/ ٣٤٤) وفي إسناده: سيف بن محمد بن أخت سفيان الثوري، كذبه بعضهم. لكن روي عن ابن عباس وغيره موقوفاً، الدَّقَل: رديءُ التمر، والفارسي: نوع جيد منه.

(٥) في المطبوع: «ولهت قلوب ووجفت قلوب»، وهو منقول بالمعنى، ولفظ الطبري (١٦/ ٣٤٠): «وتقسو قلوب فتلهو وتسهو وتجفو».

(٦) انظر: كلام الحسن كله في تفسير الطبري (١٦/ ٣٤٠)، تفسير الثعلبي (٥/ ٢٧٠).

والتفضيل في الأُكُل[(١)]: الأذواقُ والألوانُ والملمس وغير ذلك.

قوله عز وجل: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٥ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٦ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ۝٧﴾.

هذه[(٢)] آية توبيخ للكفرة، أَي: وإِن تعجَبْ يا محمد من جهالتهم وإِعراضهم عن الحق فهم أَهل لذلك، وعَجَبٌ وغريب [ومُزْرٍ بهم][(٣)] قولهُم: أَنعود بعد كوننا تراباً خلقاً جديداً؟ ويحتمل اللفظ منـزعاً آخر، أَي: إِن كُنت تريد[(٤)] عجباً فهلُمَّ فإِن من أَعجب العجب قولهم/ .

[٣/ ٩١]

واختلف القراءُ في قراءَة قوله: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا﴾: فقرأَ ابن كثير، وأَبو عمرو: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ جميعاً بالاستفهام، غير أَن أَبا عمرو يمدُّ الهمزة ثم يأْتي بالياءِ ساكنة، وابن كثير يأْتي بياءٍ ساكنة بعد الهمزة من غير مَدٍّ، وقرأَ نافع: ﴿أَءِذَا كُنَّا﴾ مثل أَبي عمرو واختلف عنه في المدِّ، وقرأَ: ﴿إنا لفي خلق جديد﴾ مكسورة على الخبر، ووافقه الكسائي في اكتفائه بالاستفهام الأَول من الثاني، غير أَنه كان يهمز همزتين، وقرأَ عاصم وحمزة: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا﴾ بهمزتين فيهما، وقرأَ ابن عامر: ﴿إذا كنا﴾ مكسورة الأَلف من غير استفهام ﴿آإنا﴾ بهمز ثم بمدٍّ ثم بهمز[(٥)].

---

(١) زاد محقق المطبوع هنا كلمة: «يشمل»، قال: لتوقف المعنى عليها، ولم نجدها في شيء من النسخ.

(٢) ليست في المطبوع والمصرية.

(٣) في المطبوع وأحمد٣: «والمراد به»، وفي نور العثمانية: «ومرورهم».

(٤) في المطبوع: «تزيد».

(٥) وكلها سبعية، انظر: التيسير للداني (ص: ١٣١)، وهذا أول موضع من مواضع تكرر الاستفهام، وفيها بعض الاستثناءات.

فمن قرأ بالاستفهامين فذلك للتأْكيد والتَّحفي والاهتبال[١] بهذا التقرير، ومن استفهم في الأَول فقط فإِنما القصد بالاستفهام الموضع الثاني، و(إِذَا) ظرف له، و(إِذَا) في موضع نصب بفعل مضمر تقديره: أَنُبْعَث أَو نُحْشَر إِذَا؟ ومن استفهم في الثاني فقط فهو بَيِّن، [ولا حول ولا قوة إلا بالله][٢].

والإِشارة بـ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إِلى القوم القائلين: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا﴾، وتلك المقالة إِنما هي تقرير مصمم[٣] على الجحد والإِنكار للبعث، فلذلك حكم عليهم بالكفر.

وقوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ﴾ يحتمل معنيين: أَحدهما: الحقيقة، وأَنه أَخبر عن كون الْأَغْلال فِي أَعْناقِهِمْ في الآخرة، فهي كقوله تعالى: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ﴾ [غافر: ٧١].

ويحتمل أَن يكون مجازاً، وأَنه أَخبر عن كونهم مُغللين عن الإِيمان، فهي إِذاً تجري مجرى الطبع والختم على القلوب، وهي كقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾ [يس: ٨]، وباقي الآية بيِّن.

وقال بعض الناس: ﴿ٱلْأَغْلَٰلُ﴾ هنا عبارة عن الأَعمال، أَي: أَعمالهم الفاسدة في أَعناقهم كالأَغلال.

قال القاضي أبو محمد: وتحرير هذا هو في [التأْويل الثاني][٤] الذي ذكرناه.

وقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ الآية، هذه الآية تَبْيِينٌ لخطئهم في أَن يتمنوا المصائب ويطلبوا سقوط كِسف من السماءِ أَو حِجَارة تمطر عليهم، ونحو هذا مع خلو[٥]

---

(١) الاهتبال: الاعتناء.
(٢) ساقط من المطبوع وأحمد٣.
(٣) في المطبوع: «وتصميم».
(٤) في نجيبويه: «المثال».
(٥) في المطبوع وأحمد٣ ونور العثمانية: «حلول».

ذلك في الأُمم ونزوله بأُناس كثير، ولو كان ذلك لم ينزل قط لكانوا عذروا[١].

و﴿ٱلْمَثُلَٰتُ﴾ جمع مَثُلَة، كسَمُرَة وسَمُرَات، وصَدُقة وصَدُقات.

وقرأ الجمهور: ﴿ٱلْمَثُلَٰتُ﴾ بفتح الميم وضم الثاءِ، وقرأ مجاهد: (المَثَلات) بفتح الميم والثاءِ، وذلك جمع مُثْلَة [أي: الأخذة الفذة][٢] بالعقوبة.

وقرأ عيسى بن عمر: (الْمُثُلاَت) بضم الميم والثاءِ، ورُويت عن أَبي عمرو، وقرأ يحيى بن وثاب: (الْمُثْلات) بضم الميم وسكون الثاءِ، وهاتان جمع مُثْلَة، وقرأ طلحة ابن مصرف: (الْمَثْلات) بفتح الميم وسكون الثاءِ[٣].

ثم رجَّى عز وجل بقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾، قال الطبري: معناه: في الآخرة[٤]، وقال قومٌ: المعنى: إِذا تابوا، وشَدِيدُ العِقَابِ إِذا كفروا.

قال القاضي أبو محمد: والظاهر من معنى المغفرة هنا إِنما هو: سَتْرُهُ في الدنيا وإِمْهَالُه لِلْكَفَرَة، أَلا ترى التيسير[٥] في لفظ ﴿مَغْفِرَةٍ﴾، وأَنها مُنكَّرة مُقَلَّلة وليس فيها مبالغة كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ﴾ [طه: ٨٢]، ونمط الآية يُعطي هذا، أَلا ترى حكمه عليهم بالنار؟، ثم قال: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ﴾، فلما ظهر سُوءُ فعلهم وجب في نفس السامع تعذيبهم فأَخبر بسيرته في الأُمم وأَنه يمهل مع ظُلْم الكفر؟ ولم يَرِدْ في الشرع أَن الله تعالى يغفر ظلم العباد.

---

(١) في المطبوع: «لكان لهم العذر». وفي نجيبويه ونور العثمانية وأحمد٣: «لكانوا أعذر».

(٢) في المطبوع بدله: «في الآخرة بمعنى العِدَة»، وفي المصرية: «الأخذة القوية»، وفي نجيبويه: «الآخرة المدة»، وفي أحمد٣: «أي لا واحدة القوة».

(٣) هذه خمس قراءات الأولى فقط متواترة، وانظر: الثلاث الأخريات في المحتسب (١/ ٣٥٢) ومختصر الشواذ (ص: ٧٠)، والشواذ للكرماني (ص: ٢٥٥)، وقراءة مجاهد في البحر المحيط (٦/ ٣٥٣)، ورواية عبد الوارث عن أبي عمرو في الكامل (ص: ٥٧٨).

(٤) تفسير الطبري (١٦/ ٣٥٢).

(٥) في المطبوع ونجيبويه: «التنكير»، وفي أحمد٣: «السير».

ثم خوَّف بقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾، قال ابن المسيب: لما نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ: «لولا عفو الله ومغفرته لما تمنى أَحدٌ عيشاً، ولولا عقابه لاتَّكَل كل أَحد[١]، وقال ابن عباس: «ليس في القرآن أَرْجى من هذه الآية»[٢].

و﴿ٱلۡمَثُلَٰتُ﴾ هي العقوبات المُنكِّلات التي تجعل الإِنسان مَثَلاً يُتَمَثَّل به، ومنه التمثيل بالقتلى، ومنه الْمُثْلة بالعبيد.

وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ الآية، هذه آية غَضٍّ من اقتراحاتهم المُتَشَطِّطَة التي لم يُجْر الله بها عادة إِلا للأُمة التي حتم بعذابها واستئصالها، والآية هنا يراد بها الأَشياءُ التي سمَّتها قريش، كالـمُلْك والكَنْز وغير ذلك، ثم أَخبره الله بأَنه مُنْذِرٌ، وهذا الخبر قُصِد هُوَ بلفظه والناسُ أَجمعون بمعناه.

واختلف المتأولون في قوله: ﴿وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ﴾:

فقال عكرمة، وأَبو الضُّحى[٣]: «المراد بالهادِي محمد ﷺ»[٤]، و﴿هَادٍ﴾ عطف على ﴿مُنذِرٞ﴾ كأنه قال: إِنما أَنت منذر وهاد لكل قومٍ، فيكون هذا المعنى يجري مع قوله ﷺ: «بُعِثْت للأَسود والأَحمر»[٥]، و﴿هَادٍ﴾ على هذا في هذه الآية بمعنى: داعٍ إِلى طريق الهدى.

---

(١) مرسل، هذا الحديث أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٢٩٩٥) من طريق: حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن سعيد بن المسيب مرفوعاً، وهو مرسل، وعلي هو ابن جدعان، ضعيف.

(٢) لم أقف عليه مسنداً.

(٣) هو أبو الضحى مسلم بن صبيح الكوفي العطار، مولى همدان، روى عن: ابن عباس، وجرير بن عبد الله، والنعمان بن بشير، روى عنه: منصور، والأعمش، وجماعة، وثقه أبو زرعة، وغيره، توفي في خلافة عمر بن عبد العزيز، تاريخ الإسلام (٦/ ٥٢٦)

(٤) رواه عنهما الطبري (١٦/ ٣٥٤)، ونقله عنهما الجصاص في أحكام القرآن (٤/ ٣٩٧) وقال: وهذا هو الصحيح.

(٥) أخرج مسلم (٥٢٠) حديث جابر مرفوعاً:... «كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى كل أحمر وأسود».

وقال مجاهد، وابن زيد: «المعنى: إِنما أَنت منذر، ولكل أُمَّة سلفت هادٍ، أَي: نبي يدعوهم»[١].

قال القاضي أبو محمد: والمقصد: فليس أَمرك يا محمد بِبِدْع ولا بمنكر، وهذا يشبه غرض الآية.

وقالت فرقة: الهادي في هذه الآية: الله عزَّ وجلَّ، رُوي ذلك عن ابن عباس[٢]، ومجاهد، وابن جُبير[٣]، و﴿هَادٍ﴾ على هذا معناه: مخترعٌ للرشاد.

قال القاضي أبو محمد: والأَلفاظ تقلق[٤] بهذا المعنى، ويعرف أَن الله تعالى هو الهادي من غير هذا الموضع.

وقالت فرقة: الهادي علي بن أَبي طالب، وروت عن النبي ﷺ من طريق ابن عباس أَنه قرأَ هذه الآية وعليٌّ حاضر، فأَومأَ بيده إِلى منكب عليّ وقال: «أَنْت الهادي يا علي، بك يهتدي المهتدون من بعدي»[٥].

قال القاضي أبو محمد: والذي يشبه ـ إِن صح هذا ـ أَن النبي ﷺ إِنما جعل علياً رضي الله عنه مثالاً من علماءِ الأُمة وهداتها إِلى الدين، كأَنه قال: يا عليّ أَنت وصنفك، فيدخل في هذا أَبو بكر وعمر وعثمان وسائر علماءِ الصحابة، ثم كذلك من كل عصر، فيكون المعنى على هذا: إِنما أَنت يا محمد منذر، ولكل قوم في القديم والحديث دعاة وهداة إِلى الخير.

---

(١) رواه ابن أبي حاتم (٧/ ٢٢٢٥) عن مجاهد، والطبري عنه (١٦/ ٣٥٦)، و(ص: ٣٦٦) عن ابن زيد.

(٢) أخرجه الطبري (١٦/ ٣٥٥) من رواية عطية العوفي عن ابن عباس.

(٣) رواه عنهما الطبري (١٦/ ٣٥٤)، ورواه ابن أبي حاتم (٧/ ٢٢٢٥) عن مجاهد والضحاك.

(٤) في المطبوع: «تطلق»، وفي نور العثمانية: «تعلق».

(٥) ساقط، هذا الحديث أخرجه الطبري (١٦/ ٣٥٧) من طريق: الحسن بن الحسين الأنصاري قال: حدثنا معاذ بن مسلم بيّاع الهرويّ، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس به، والحسن هذا كان من رؤساء الشيعة، ليس بصدوق، ولا تقوم به حجة، ومعاذ مجهول نكرة، والآفة من أحدهما، يراجع الميزان (١/ ٢٢٥) (٣/ ١٧٨).

قال القاضي أبو محمد: والقولان الأولان أرجح [ما تُؤوِّل في الآية](١).

قوله عز وجل: ﴿ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۚ وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ ۝٨ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ ۝٩ سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ ۝١٠﴾.

لما تقدم تعجُّبُ الكفار واستبعادُهم البعث من القبور قصَّ(٢) في هذه الآيات الـمُثُل(٣) المنبهة على قدرة الله تعالى القاضية بتجويز البعث، فمن ذلك هذه الواحدة من الخمس التي هي مفاتيح الغيب، وهي أَن الله تعالى انفرد بمعرفة ما تحمل / به(٤) الإناث [٣/ ٩٢] من الأَجنة في كل نوع من الحيوان، وهذه البدأَة تُبيِّن أَنه لا يتعذر على القادر عليها الإِعادة.

و﴿مَا﴾ في قوله: ﴿مَا تَحۡمِلُ﴾ يصح أَن تكون بمعنى الذي مفعولة بـ﴿يَعۡلَمُ﴾، ويصح أَن تكون مصدرية مفعولة أَيضاً بـ﴿يَعۡلَمُ﴾، ويصح أَن تكون استفهاماً في موضع رفع [بالابتداءِ، والخبرُ ﴿تَحۡمِلُ﴾، وفي هذا الوجه ضعف.

وفي مصحف أُبي بن كعب: (ما تحمل] كل أُنثى وما تضع)(٥).

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ﴾ معناه: ما تنقص، وذلك أنه من معنى قوله: ﴿وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ﴾ [هود: ٤٤]، وهو من معنى النضوب، فهي ها هنا بمعنى زوال الشيءِ عن الرَّحم وذهابه، فلما قابله قوله: ﴿وَمَا تَزۡدَادُ﴾ فُسِّر بمعنى النقصان.

ثم اختلف المتأَولون في صورة الزيادة والنقصان، فقال مجاهد: غَيْض الرَّحِم:

---

(١) ساقط من نجيبويه، وفي أحمد٣ والمطبوع: «والقول الأول أرجح».

(٢) في المطبوع وأحمد٣ ونجيبويه: «نص».

(٣) في المطبوع وأحمد٣: «الأمثال».

(٤) في المطبوع وأحمد٣ بدلا منها: «كل»، وفي المصرية: «له كل».

(٥) نقله في البحر المحيط (٥/ ٣٦١) وفي نجيبويه: «تحيض» بدل «تحمل»، وفي نور العثمانية: «تصنع»، وما بين القوسين ساقط من الحمزوية.

أَن تهريق دماً على الحمل، فإِذا كان ذلك ضعف الولد في البطن وشحب، فإِذا أَكملت الحامل تسعة أَشهر لم تَضع، ويبقى الولد في بطنها زيادة من الزمن يكمل فيها من جسمه وصحته ما نقص بهراقة الدم[١]، فهذا هو معنى قوله: ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُ﴾.

وجمهور المتأَولين على أَن غيض الرحم: إِرسال[٢] الدم على الحمل.

وذهب بعض الناس إِلى أَن غيضه هو نضوب الدم فيه وامتساكه[٣] بعد عادة إِرساله بالحيض، فيكون قوله: ﴿وَمَا تَزۡدَادُ﴾ بعد ذلك جارياً مجرى ﴿تَغِيضُ﴾ على غير مقابلة[٤]، بل غيض الرحم هو بمعنى الزيادة فيه.

وقال الضحاك: «غيض الرحم: أَن تُسقط المرأَة الولد، والزيادة: أَن تضعه لمدة كاملة تامّاً[٥] في خلْقه»، وقال قتادة: «الغَيْض: السقط، والزيادة: البقاءُ بعد[٦] تسعة أَشهر»[٧].

وقوله: ﴿وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ﴾ لفظ عام في كل ما يدخله التقدير.

والْغَيْب: ما غاب عن الإِدراكات، والشَّهَادَة: ما شوهد[٨] من الأُمور، ووضع المصادر موضع الأَشياءِ التي كل واحد منها لا بد أَن يتصف بإِحدى الحالتين.

وقوله: ﴿ٱلۡكَبِيرُ﴾ صفة تعظيم على الإِطلاق، و﴿ٱلۡمُتَعَالِ﴾ من العُلُوِّ، واختلف القُراءُ في الوقف على ﴿ٱلۡمُتَعَالِ﴾: فأَثبت ابن كثير، وأَبو عمرو في بعض ما

---

(١) تفسير الطبري (١٦/ ٣٦٢).

(٢) زيادة من المطبوع، ولم نجدها في شيء من النسخ الخطية.

(٣) في المطبوع: «وإِمساكه».

(٤) في المصرية: «قياس».

(٥) في نجيبويه: «تامة».

(٦) في المطبوع ونجيبويه وأحمد٣ ونور العثمانية: «فوق».

(٧) انظرهما في: تفسير الطبري (١٦/ ٣٦٣،٣٦٤)

(٨) في نجيبويه: «شهد».

روي عنه الياءَ في الوصل والوقف، ولم يثبتها الباقون في وصل ولا وقف[١]، وإثباتها هو الوجه والباب، واستسهل سيبويه حذفها في الفواصل[٢] كهذه الآية قياساً على القوافي في الشعر، ويقبح حذفها في غير فاصلة ولا شعر، ولكن وجهه أنه لما كان التنوين يعاقِب الألف واللام أبداً، وكانت هذه الياءُ تحذف مع التنوين، حَسُن أن تحذف مع مُعاقبه.

قال القاضي أبو محمد: ويتصل بهذه الآية فقه يحسن ذكره:

فمن ذلك: اختلاف الفقهاءِ في الدم الذي تراهُ الحامل، فذهب مالك وأَصحابه والشافعي وأَصحابه وجماعةٌ إِلى أَنه حيض، وقالت فرقة عظيمة: ليس بحيض[٣]، ولو كان حيضاً لما صح استبراءُ الأَمة بحيض وهو إِجماعٌ[٤].

وروي عن مالك في كتاب محمد ما يقتضي أَنه ليس بحيض[٥].

ومن[٦] ذلك أَن الأمَّة مجمعة على أَن أَقل مدة الحمل ستة أَشهر[٧]، وذلك منتزع من قوله: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف: ١٥]، مع قوله تعالى: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، وهذه الستة الأَشهر هي بالأَهلَّة كسائر أَشهر الشريعة، ولذلك قد رُوي في المذهب عن بعض أَصحاب مالك ـ وأَظنه في

(١) انظر: مذهب ابن كثير في التيسير (ص: ١٣٤)، ورواية أبي عمرو ليست من طرقه، لكنها في السبعة (ص: ٣٥٨).

(٢) الكتاب لسيبويه (٤/ ١٨٥).

(٣) نُقل عن عائشة، وهو أحد قولي الشافعي كما في المهذب للشيرازي (١/ ٧٨)، وبه قال جماعة كما في الاستذكار (١/ ٣٢٧).

(٤) نقله مكي في الهداية (٥/ ٣٦٨٣)، وفي التركية: «إجماع الأمة».

(٥) أشار لهذا القول في التوضيح (١/ ٢٥٢) بقوله: وقال ابن لبابة: ليس حيضاً، واستُقْرِئَ لابن القاسم مما قاله في المطلقة إذا حاضَتْ ثم أَتَتْ بولدٍ: لو عَلِمْتُ أنه حَيْضٌ مستقيمٌ لرَجَمْتُها.

(٦) في المصرية: «وذلك»، دون «من».

(٧) انظر: هذا الإجماع في الدر المختار (٣/ ٥٤٠)، وغيره.

كتاب ابن حارث ـ أَنه إِن نقص من الأَشهر الستة[١] ثلاثة أَيام فإِن الولد يُلْحق لعلَّة[٢] نقص الشهور وزيادتها[٣].

واختلف في أَكثر الحمل، فقيل: تسعة أَشهر.

قال القاضي أبو محمد: وهذا ضعيف.

وقالت عائشة وجماعة من العلماءِ: أَكثره حولان، وقالت فرقة: ثلاثة أَعوام، وفي «المدونة»: أَربعة أَعوام وخمسة أَعوام[٤]، وقال ابن شهاب وغيره: سبعة أَعوام.

وروي أَن ابن عجلان[٥] ولدت امرأَته لسبعة أَعوام، ورُوي أَن الضحاك بن مزاحم بقي حولين، قال: فولدتُ وقد نبتت ثناياي.

وروي أَن عبد الملك بن مروان ولد لستة أَشهر[٦].

وقوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم﴾ الآية، ﴿سَوَآءٌ﴾ مصدر، وهو يطلب بعده شيئين يتماثلان، ورفعه على خبر الابتداءِ الذي هو ﴿مَّنْ﴾، والمصدر لا يكون خبراً إِلا بإِضمارٍ، كما قالت الخنساءُ:

.... فَإِنَّما هِيَ إِقْبَالٌ وإِدْبَارُ[٧] [البسيط]

---

(١) سقطت من نجيبويه.

(٢) في نجيبويه: «لقلة».

(٣) نقله عنه تفسير القرطبي (٩/ ٢٨٧).

(٤) لفظ المدونة (٢/ ٢٤): يلزمه الولد في قول مالك إذا جاءت بالولد في ثلاث سنين أو أربع سنين أو خمس سنين.

(٥) هو محمد بن عجلان مولى فاطمة بنت الوليد أبو عبد الله المدني الفقيه أحد الأعلام، روى عن أنس شيئاً وعن أبيه ونافع، وعنه السفيانان وخلق، مكث في بطن أمه ثلاث سنين فشق بطنها فأخرج وقد نبتت أسنانه، (ت ١٤٨هـ). تاريخ الإسلام (٩/ ٢٨٠)

(٦) انظر: هذه الأقوال في: تفسير الثعلبي (٥/ ٢٧٣)، والمهذب في فقه الإمام الشافعي للشيرازي (٣/ ١١٨).

(٧) هذا عجز بيت قالته الخنساءُ وقد تقدم في تفسير الآية (٤٥) من سورة هود.

أَي: ذاتُ إِقبال وإِدبار، فقالت[١] فرقة هنا: المعنى: ذو سواءٍ، قال الزجاج: «كثر استعمال «سواء» في كلام العرب حتى جرى مجرى اسم الفاعل فلا يحتاج إِلى إِضمار»[٢].

قال القاضي أبو محمد: هو عندي كعدْلٍ وزَوْرٍ وضيْفٍ.

وقالت فرقة: المعنى: مُسْتَوٍ منكم، فلا يحتاج إِلى إِضمار.

قال القاضي أبو محمد: وضعَّف هذا سيبويه بأَنه ابتداءٌ بنكرة[٣].

ومعنى هذه الآية: مُعْتدلٌ منكم في إِحاطة الله تعالى وعلمه مَنْ أَسَرَّ قولَه فهمس به في نفسه ومَنْ جَهَرَ بِهِ فأَسْمَع، لا يخفى على الله تعالى شيءٌ.

وقوله: ﴿وَمَنْ جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ معناه: من هو بالليل في غاية الاختفاءِ ومن هو متصرف بالنهار ذاهبٌ لوجهه سواءٌ في علم الله تعالى وإِحاطته بهما، وذهب ابن عباس[٤] ومجاهد إِلى معنًى مقتضاه: أَن المستخفي بالليل والسارب بالنهار هو رجل[٥] واحد مريبٌ بالليل ويُظهر بالنهار البراءَة في التصرف مع الناس[٦].

قال القاضي أبو محمد: فهذا قسم واحد جعل الليل نهار راحته، والمعنى: هذا والذي أَمره كله واحد بريءٌ من الرَّيْب[٧] سواءٌ في اطلاع الله تعالى على الكل، ويؤيد هذا التأْويل عطفُ السارب دون تكرار «مَنْ»، ولا يأْتي حذفها إِلا في ضرورة الشعر.

---

(١) في نجيبويه: «وقالت».
(٢) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٣/ ١٤١).
(٣) انظر: قريباً من هذا في الكتاب لسيبويه (٢/ ٢٥).
(٤) أخرجه الطبري (١٦/ ٣٦٧) من طريق عطية العوفي وابن جريج عن ابن عباس، والأول فيه مقال معروف، والثاني منقطع.
(٥) في المطبوع: «راجل».
(٦) تفسير الطبري (١٦/ ٣٦٨)،
(٧) في المصرية: «الذنب».

والسارب في اللغة: المتصرف كيف شاءَ، ومن ذلك قول الشاعر:

أَرَى كُلَّ قوم كارَبُوا قَيْدَ فَحْلِهِمْ وَنَحْنُ حَلَلْنَا قَيْدَهُ فَهْوَ سَارِبُ[1] [الطويل]

أَي: متصرف[2] غير مدفوع عن جهة، وهذا رجل يفتخر بعزة قومه، ومن ذلك قول الآخر:

أَنَّى سَرَبْتِ وكُنْتِ غَيْرَ سَرُوبِ وتُقَرِّبُ الأَحْلامُ غَيْرَ قَرِيبِ[3] [الكامل]

وتحتمل الآية أَن تتضمن ثلاثة أَصناف: فالذي يُسِرُّ طرف، والذي يجهر طرف مضاد للأَول، والثالث متوسط مُتَلَوّن يعصي بالليل مستخفياً ويظهر البراءَة بالنهار، والقول في الآية يطَّرد معناه في الأَعمال، وقال قطرب[4] ـ فيما حكى الزجاج ـ: «﴿مُسْتَخْفٍ﴾ معناه: ظاهر، من قولهم: خفَيْتُ الشيءَ، إِذا أَظهرته»[5].

قال القاضي أبو محمد: قال امرؤ القيس:

خَفَاهُنَّ مِنْ أَنْفَاقِهِنَّ كَأَنَّمَا خَفَاهُنَّ وَدْقٌ مِن عَشِيٍّ مُجَلِّبِ[6] [الطويل]

قال: و﴿وَسَارِبٌ﴾ معناه: مُتَوَارٍ في سَرَب[7].

---

(١) البيت للأخنس بن شهاب التغلبي، كما في الأمالي للقالي (٢/ ٢٤٧)، ومعجم البلدان (٤/ ٣٦٨)، وتهذيب اللغة (٤/ ٢٨١).

(٢) في المطبوع: «منصرف».

(٣) البيت لقيس بن الخطيم، كما في جمهرة اللغة (١/ ٣٠٩)، والأمالي للقالي (٢/ ٢٧٧)، وتفسير الطبري (١٦/ ٣٦٧).

(٤) في نجيبويه: «مطرف».

(٥) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٣/ ١٤٢).

(٦) انظر: عزوه له في: مجاز القرآن (٢/ ١٧)، وجمهرة أشعار العرب (١/ ١٣)، وتهذيب اللغة (٣/ ٢٧)، والحيوان (٦/ ١٣٠).

(٧) لفظه في معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٣/ ١٤٢): «أي مستتر».

[٣/ ٩٣] قال القاضي أبو محمد: / وهذا القول وإن كان تعلقه باللغة بيِّناً[(١)] فضعيف، لأن اقتران الليل بالمستخفي والنهار بالسارب يردُّ على هذا القول.

قوله عز وجل: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مِنۡ خِيفَتِهِۦ وَيُرۡسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمۡ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلۡمِحَالِ ﴿١٣﴾﴾.

اختلف المتأولون في عود الضمير من ﴿لَهُۥ﴾:

فقالت فرقة: هو عائد على اسم الله عز وجل المتقدم ذكره، والمـُعَقِّبَاتُ ـ على هذا ـ الملائكة الحفظة على العباد أَعمالَهم، والحفظة لهم أَيضاً، قاله الحسن، وروى فيه عثمانُ ابن عفان حديثاً عن النبي ﷺ[(٢)]، وهو قول مجاهد والنَّخَعي[(٣)]، والضمير ـ على هذا ـ في قوله: ﴿يَدَيۡهِ﴾ وما بعده من الضمائر عائد على العبد المذكور في قوله: ﴿وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ﴾، و﴿مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ يحتمل أَن يكون صفة للمُعَقِّبَات، ويحتمل أَن يكون المعنى: يحفظونه من كل ما جرى القدر باندفاعه، فإذا جاءَ المقدور الواقع أَسلم المرء إِليه.

وقال ابن عباس أَيضاً: الضمير في ﴿لَهُۥ﴾ عائد على المذكور في قوله: ﴿وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ﴾[(٤)]، وكذا باقي الضمائر التي في الآية، قالوا: والمَعقِّبَاتُ ـ على هذا ـ

---

(١) في المطبوع: «متعلقاً باللغة».

(٢) غريب جدّاً، أخرجه الطبري (١٦/ ٣٧٠) من طريق: إبراهيم بن عبد السلام القشيري قال: حدثنا علي بن جرير، عن حماد بن سلمة، عن عبد الحميد بن جعفر، عن كنانة العدوي قال: دخل عثمان ابن عفان على رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله أخبرني عن العبد كم معه من ملك؟ قال: «ملك على يمينك على حسناتك، وهو أمينٌ على الذي على الشمال...»، إلخ، إبراهيم وشيخه لا يعرفان من هما، وقال ابن كثير (٤/ ٤٣٨): حديث غريب جدّاً.اهـ.

(٣) تفسير الطبري (١٦/ ٣٧١).

(٤) روي هذا من طريق سفيان عن حبيب بن أبي ثابت، عن سعيد بن جبير، ومن طريق العوفي، كلاهما =

حرس الرجل وجلاوزَتُـه[1] الذين يحفظونه، قالوا: والآية ـ على هذا ـ في الرؤَساءِ الكافرين، واختار هذا القول الطبري، وهو قول عكرمة وجماعة، قال عكرمة: «هي المواكب خلفه وأَمامه»[2].

قال القاضي أبو محمد: ويصح على التأْويل الأَول الذي قبل هذا أَن يكون الضمير في ﴿لَهُۥ﴾ للعبد المؤمن على معنى: جعل الله له.

قال القاضي أبو محمد: وهذا التأْويل عندي أَقوى[3]، لأن غرض الآية إِنما هو التنبيه على قدرة الله تعالى، فذكر استواءَ مَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ ومن هو سارِبٌ، وأنَّ لَهُ مُعَقِّباتٍ من الله تحفظه في كل حال، ثم ذكر أَن الله لا يُغَيِّر هذه الحالة من الحفظ للعبد حتى يغيّر ما بنفسه.

قال القاضي أبو محمد: وعلى كلا التأْويلين ليست الضمائر لِمُعَيَّنين من البشر.

وقال عبد الرحمن بن زيد: «الآية في النبي ﷺ، ونزلت في حفظ الله له من أَربَد ابن ربيعة وعامر بن الطُّفَيْل في القصة التي تأْتي بعْدَ هذا في ذكر الصواعق»[4].

قال القاضي أبو محمد: وهذه الآية وإِن كانت بأَلفاظها تنطبق على معنى القصة فيُضْعِف القولَ أَن النبي ﷺ لم يتقدم له ذكر فيعودَ الضمير في ﴿لَهُۥ﴾ عليه.

والمُعَقِّبات: الجماعات التي يعقب بعضُها بعضاً، فعلى التأْويل الأَول هي الملائكة، وينظر هذا إِلى قول النبي ﷺ: «يتعاقب[5] فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون

= عن ابن عباس، أخرجها الطبري (١٦/ ٣٧٣) وروي القول الأول من طرق عن ابن عباس أيضاً.

(١) الجَلاوِزَةُ: الشُّرَطَة، والمفرد: جِلَّوْز وجِلْوَازٌ.

(٢) تفسير الطبري (١٦/ ٣٧٤)، وفي نور العثمانية: «المراكب».

(٣) في حاشية المطبوع: «في بعض النسخ: وغير هذا التأويل عندي أقوى».

(٤) أخرجه الطبري (١٦/ ٣٧٩) وهو مرسل.

(٥) في المطبوع وأحمد٣ ونجيبويه: «يتعاقبون».

في صلاة المغرب والصبح»[١]، وعلى التأْويل الثاني هي الحرس والوزَعَة الذين للملوك.

والمُعَقِّبَات: جمع مُعَقِّبة، وهي الجماعة التي تأْتي بعد الأُخرى، والتعقيب بالجملة أَن تكون حَالٌ تَعْقُبها حالٌ أُخرى من نوعها، وقد تكون من غير النوع، ومنه معاقبة الركوب، [ومعاقبة الجاني][٢]، ومعقب عُقْبَةَ القِدْر[٣]، والمعاقبة في الأزواج، ومنه قول سلامة بن جندل[٤]:

[البسيط] وكَرُّنَا الخَيْلَ في آثَارِهِمْ رُجُعاً ... كُسَّ السَّنَابِكِ مِنْ بَدْءٍ وتعْقيب[٥]

وقرأ عبيد الله بن زياد[٦] على المنبر: (له معاقيب)، قال أَبو الفتح: هو تكسير معْقِب[٧].

قال القاضي أبو محمد: بسكون العين وكسر القاف، كمطعم ومطاعيم، ومقدِم ومقاديم، وهي قراءَة أَبي البرهسم، فكأَن معقباً جمع على مَعَاقِبة، ثم جعلت الياءُ في معاقيب عوضاً من الهاءِ المحذوفة في مَعَاقِبة.

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري (٧٤٢٩) (٧٤٨٦) ومسلم (٦٣٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، بلفظ: «يتعاقبون فيكم».

(٢) ساقط من المطبوع ونور العثمانية وأحمد٣.

(٣) قال ابن فارس في مجمل اللغة (ص: ٦٢٠): وهي الفضلة يردها المستعير لها في أسفلها لصاحبها.

(٤) هو سلامة بن جندل من بني عامر بن عبيد من تميم، جاهلي قديم، وهو من فرسان تميم المعدودين، وكان أحد من يصف الخيل فيحسن. الشعر والشعراء (١/ ٢٦٤).

(٥) انظر عزوه له في: تفسير الطبري (١٦/ ٣٨٤)، وتهذيب اللغة (٣/ ٤٧٥)، والمفضليات (ص: ١١٩)، وجاء في نجيبويه: «وكرت».

(٦) في المطبوع وأحمد٣ ونجيبويه: «عبد الله»، وهو عبيد الله بن زياد بن عبيد المعروف أبوه بزياد بن أبيه، ولاه معاوية البصرة، ثم ولاه يزيد الكوفة، وكان جباناً، وهو ممن سعى في قتل الحسين رضي الله عنه، ثم انتقم الله منه فقتل في سنة (٦٧هـ). تاريخ الإسلام (٥/ ١٧٥).

(٧) وهي شاذة، انظر ذلك: لمحتسب (١/ ٣٥٥)، وانظر عزوها لأبي البرهسم في: الشواذ للكرماني (ص: ٢٥٥).

والـمُعقِّبة ليست جمع مُعَـقِّب كما ذكر الطبري[١]، وشبَّه ذلك برجل ورجالٍ ورجالات، وليس الأَمر كما ذكر لأَن تلك كجَمَل وجمَالٍ وجمالات، ومُعَقِّبة ومُعَقِّبات إِنما هي كضاربٍ وضاربات.

وفي قراءَة أُبيٍّ بن كعب: (من بين يديه ورقيب من خلفه)[٢].

وقرأَ ابن عباس: (ورقباء[٣] من خلفه)، وذكر عنه أَبو حاتم أَنه قرأ: (معقِّبات من خلفه ورقيب من بين يديه يحفظونه بأَمر الله)[٤].

وقوله: ﴿يَحۡفَظُونَهُۥ﴾ يحتمل معنيين: أَحدهما: أَن يكون بمعنى: يحرسونه ويذُبُّون عنه، فالضمير معمول لـ(يحفظ)[٥]، والمعنى الثاني: أَن يكون بمعنى حفظ الأقوال وتحصيلها، ففي اللفظ حينئذ حذف مضاف تقديره: يحفظون أَعماله، ويكون هذا حينئذ من باب ﴿ وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ ﴾ [يوسف: ٨٢]، وهذا هو قول ابن جُرَيج[٦].

وقوله: ﴿مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ مَنْ جعل ﴿يَحۡفَظُونَهُۥ﴾ بمعنى يحرسونه كان معنى قوله: ﴿مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ يراد به المعقِّبات، فيكون في الآية تقديم وتأْخير، أَي: له معقبات من أَمر الله يحفظونه مِنْ بَيْن يديه ومِنْ خلفه، قال أَبو الفتح: «فـ ﴿مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ في موضع رفع لأَنه صفة لمرفوع وهي المعقِّبات»[٧].

قال القاضي أبو محمد: ويحتمل هذا التأْويل في قوله: ﴿مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ مع التأْويل الأَول في ﴿يَحۡفَظُونَهُۥ﴾.

---

(١) تفسير الطبري (١٦/ ٣٦٩)، وفي المصرية: «المعقبات».

(٢) وهي شاذة، انظر عزوها له في: تفسير الطبري (١٦/ ٣٧٢).

(٣) في المطبوع: «ورقيباً».

(٤) نقلهما في البحر المحيط (٦/ ٣٦١)، وفي معاني القرآن للنحاس (٣/ ٤٨٠) عنه: «من بين يديه ورقباء من خلفه من أمر الله يحفظونه».

(٥) في المطبوع: «الحفظ»، وفي نجيبويه: «بيحفظ».

(٦) تفسير الطبري (١٦/ ٣٧٢).

(٧) المحتسب (١/ ٣٥٥)، وكذلك ما سيأتي عنه في هذه الآية.

ومَن تأَول الضمير في ﴿لَهُۥ﴾ عائداً على العبد[١]، وجعل المعقباتِ الحرسَ وجعل الآية في رؤساءِ الكافرين، جَعَلَ قوله: ﴿مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ بمعنى: يَحْفَظُونَهُ بزعمه من قَدَر الله ويدفعونه في ظنه عنه، وذلك لجهالته بالله تعالى.

قال القاضي أبو محمد: وبهذا التأْويل جعلها المتأَول في الكافرين، قال أَبو الفتح: «فـ﴿مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ ـ على هذا ـ في موضع نصب، كقولك: حفظت زيداً من الأَسد، فـ«مِنَ الأَسد» معمول لـ«حفظت»».

وقال قتادة: «معنى ﴿مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾: [بأمر الله][٢] أَي: يحفظونه مما أَمر الله»[٣]، وهذا تحكُّم في التأْويل، قال قوم: المعنى: الحفظ من أَمر الله، وقد تقدم نحو هذا.

وقرأَ علي بن أَبي طالب، وابن عباس، وعكرمة، وجعفر بن محمد: (يحفظونه بأمر الله)[٤].

ثم أَخبر تعالى أَنه لا يُغَيِّر ما بقوم بأَن يعذبهم ويمتحنهم معاقباً حتى يقع منهم تكسُّب للمعاصي وتغيير ما أُمروا به من طاعة الله[٥]، وهذا موضع تأَمل، لأنه يداخل هذا الخبر ما قرَّرت الشريعة من أَخْذ العامة بذنوب الخاصة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗ﴾ [الأنفال: ٢٥]، ومنه قول النبي ﷺ وقد قيل له: يا رسول الله / أَنَهْلِكُ وفينا[٦] الصالحون؟ قال: «نعم، إِذا كثر الخبث»[٧]، إِلى أَشياءَ كثيرة من هذا. [٣/ ٩٤]

(١) في المصرية: «المعهود».
(٢) ليس في المطبوع وأحمد٣.
(٣) تفسير عبد الرزاق (٢/ ٢٣٠)، وتفسير الطبري (١٦/ ٣٧٦).
(٤) انظر عزوها لهم في: الشواذ للكرماني (ص: ٢٥٥)، ومع التوجيه في المحتسب (١/ ٣٥٥).
(٥) لفظ الجلالة زيادة من المطبوع وأحمد٣.
(٦) في المطبوع: «ومنا».
(٧) متفق عليه، أخرجه البخاري (٣٣٤٦) (٣٥٩٨) (٧٠٥٩) ومسلم (٢٨٨٠) من حديث زينب بنت جحش رضي الله عنها.

فقوله تعالى في هذه الآية: ﴿لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟﴾ معناه: حتى يقع تغييرٌ إِمَّا منهم، وإِما من الناظر لهم، أَو ممن هو منهم بسبب، كما غيَّر[١] تعالى بالمنهزمين يوم أُحد بسبب تغيير الرماة ما بأَنفسهم، إِلى غير هذا من أَمثال الشريعة، فليس معنى الآية أَنه ليس ينزل بأَحد عقوبة إِلا بأَن يتقدم منه ذنب، بل قد تنـزل المصائب بذنوب الغير، وثَم أَيضاً مصائب يريد الله بها أَجر المصاب فتلك ليست تغييراً.

ثم أَخبر أَنه تعالى إِذا أَرادَ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلا مَرَدَّ لَهُ، ولا حفظ منه، وهذا جرى في طريق[٢] التنبيه على [قدرة الله وإحاطته][٣]، والسوءُ والخير بمنزلة واحدة [في أنهما][٤] إِذا أَرادهما الله بعبد لم يُرَدّ[٥]، لكنه خصَّ السوءَ بالذكر ليكون في الآية تخويف.

واختلف القراءُ في ﴿وَالٍ﴾: فأَماله بعضهم ولم يُمِلْه بعضهم[٦].

والوالي: الذي يلي أَمر الإِنسان كالولي، وهما من الولاية كعليم وعالم من العلم.

وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ﴾ الآية، هذه آية تنبيه على القدرة.

والبرق: رُوي فيه عن النبي ﷺ أَنه مخراق بيد مَلَك يزجر به السحاب[٧]، وهذا أَصح ما رُوي فيه.

---

(١) في المطبوع وأحمد٣: «عبر».

(٢) في المطبوع: «أُجري في مقام».

(٣) في المطبوع وأحمد٣: «عادة الله تعالى وقدرته».

(٤) ساقط من المطبوع وأحمد٣.

(٥) في الأصل ونجيبويه: «يردَّا»، بالتثنية.

(٦) عدم الإمالة هو المتواتر، والإمالة رواها خارجة عن نافع، كما في مختصر الشواذ (ص: ٧١).

(٧) إنما روي هذا في البرق عن ابن عباس وعلي، وفي أسانيده جميعاً لين، ولم أجده مرفوعاً، أما عن ابن عباس فمن طريق: السدي عنه، وفي روايته عنه كلام معروف، وعن علي من طريق: سفيان الثوري، عن سَلمة بن كُهيل، عن سعيد بن أَشْوَعَ، عن ربيعة بن الأبيض، عنه، وربيعة فيه جهالة، ومن طريق: الحجاج، قال: حدثنا حماد، عن المغيرة بن سالم، عن أبيه، أو غيره، أن علي بن أبي طالب، أخرجها جميعاً الطبري (١/ ٣٤٣) وأخرجه أحمد كما في العلل ومعرفة الرجال (٣/ ٣٧٣) من طريق: =

ورُوي عن بعض العلماءِ أَنه قال: البرقُ: اصطكاك الأَجرام، وهذا عندي مردود.

وقال أَبو الجلد[١]: «البرقُ في هذه الآية: الماءُ»[٢]، وذكَرَه مكي عن ابن عباس[٣].

قال القاضي أبو محمد: ومعنى هذا القول أَنه لما كان داعيةَ الماءِ، وكان خوفُ المسافرين من الماءِ وطمع المقيمين[٤] فيه، عُبِّر في هذا القول عنه بالماءِ.

وقوله: ﴿خَوۡفٗا وَطَمَعٗا﴾، من رأى ذلك في الماء فهو على ما تقدم، والظاهر أَن الخوف إنما هو من صواعق البرق، والطمع في المطر الذي يكون معه، وهو قول الحسن[٥].

والسَّحَابُ: جمْعُ سحابة، ولذلك جَمَع الصفة، و﴿ٱلثِّقَالَ﴾ معناه: بحمل الماء، وبذلك فسَّر قتادة ومجاهد[٦]، والعربُ تصفها بذلك، ومنه قول قيس بن الخطيم:

[المتقارب]

فَمَا رَوْضَــةٌ مِنْ رِيَـاضِ الْقَطَا ... كَــأَنَّ الْمَصَــابِيــحَ حــوذَانُهَــا[٧]

بِــأَحْسَــنَ مِـنْـهَــا وَلا مُـزْنَــةٌ ... دَلُـوحٌ تَـكَـشَّـفُ أَدْجَـانُـهَــا[٨]

والدَّلوح: الـمُثْقَلَة.

والرَّعْدُ مَلَك يزجر السحاب بصوته، وصوتُه هذا المسموعُ تسبيحٌ، والرعد اسم

= ابن مهدي عن حماد به، وفي العلل أيضاً من طريق عفان عن حماد عن أبي محمد الهاشمي عن أبيه عن علي بنحوه، وهذا خلاف على حماد، وكان في حفظه نظر.

(١) هو جيلان بن فروة أبو الجلد الأسدي البصري صاحب كتب التوراة ونحوها، روى عنه قتادة وأبو عمران الجوني، وثقه أحمد كما في الجرح والتعديل لابن أبي حاتم (٢/ ٥٤٧) وابن سعد في طبقاته (٧/ ١٦٥)، وتوفي سنة (٧٠هـ) كما في تاريخ الإسلام (٥/ ٦٩).

(٢) تفسير الطبري (١٦/ ٣٨٧).

(٣) الهداية لمكي (٥/ ٣٦٩٨)، ولم أجده مسنداً.

(٤) في المطبوع والمصرية وأحمد٣: «المسافر والمقيم بالإفراد».

(٥) تفسير الماوردي (٣/ ١٠٠).

(٦) تفسير الطبري (١٦/ ٣٨٨).

(٧) في المطبوع: «حورانها» بالراء.

(٨) هو قيس بن الخطيم شاعر الأوس، وقد تقدمت نسبة البيتين له في تفسير الآية (٢٠) من سورة البقرة.

الملَك، وقيل: الرَّعد اسم صوت الملَك، وروي عن النبي ﷺ أَنه كان إِذا سمع الرعد قال: «اللهم لا تُهلكنا بغضبك، ولا تقتلنا بعذابك، وعافنا قبل ذلك»[١].

ورُوي عن علي بن أَبي طالب رضي الله عنه وغيره أَنهم كانوا إِذا سمعوا الرَّعد قالوا: «سبحان الذي سبَّحت له»[٢].

وروى أَبو هريرة أَن النبي ﷺ كان إِذا سمع الرَّعد قال: «سبحان من سبَّح[٣] الرعد بحمده»[٤].

وقال ابن أَبي زكريا[٥]: من قال إِذا سمع الرَّعد: «سبحان الله وبحمده»لم تصبه صاعقة[٦]، وقيل في الرعد أَيضاً: إِنه ريح يختنق بين السحاب، ورُوي ذلك عن ابن عباس[٧] [في غير ما ديوان][٨].

---

(١) ضعيف، أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٧٢١)، والترمذي (٣٤٥٠) وقال: غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، والنسائي في الكبرى (٦/ ٢٣٠)، والحاكم (٤/ ٣١٨)، والطبراني في الأوسط (٦/ ١٠١) وغيرهم من طريق: عبد الواحد بن زياد ثنا أبو مطر عن سالم عن ابن عمر مرفوعاً. وأبو مطر مجهول العين. قال الذهبي في الميزان (٤/ ٥٧٤): لا يدرى من هو، وقال في المغني (٢/ ٨٠٨): نكرة.
وأخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٦/ ٢٦) من طريق: وكيع حدثنا جعفر بن برقان قال: بلغنا أن رسول الله ﷺ، وهذا معضل.

(٢) واهٍ، أثر علي أخرجه الطبري (١٦/ ٣٨٩) بإسناد فيه: مسعدة بن اليسع، وهو ساقط. وروي عن ابن عباس أيضاً بإسناد لين. وروي عن جماعة من التابعين ومن بعدهم، وفي نجيبويه تأخر هذا الخبر عن الذي بعده، وفيه زيادة «السحاب» في آخره.

(٣) في نجيبويه: «يسبح».

(٤) ضعيف، أخرجه الطبري أيضاً وفيه رجل مبهم.

(٥) هو عبد الله بن أبي زكريا الخزاعي أبو يحيى فقيه دمشق، وأحد الأعلام، روى عن أبي الدرداء، وسلمان، وعبادة بن الصامت، وعنه: عبد الرحمن بن يزيد والأوزاعي وغيرهم، كان ثقة قليل الحديث، صاحب غزو، توفي سنة (١١٧هـ). تاريخ الإسلام (٧/ ٣٩٦).

(٦) في المطبوع: «صاعقته»، بالإضافة، والمثبت هو الموافق لما في تفسير الطبري (١٦/ ٣٩٠)، عنه.

(٧) أخرجه الطبري (١/ ٣٤١) بإسنادين أحدهما فيه من لم يهتد إليه، والثاني منقطع.

(٨) زيادة من الحمزوية ونجيبويه والأصل.

قال القاضي أبو محمد: وهذا عندي [فيه نظر][(١)] لأنها نزعات الطبيعيين وغيرهم [من الملحدة][(٢)].

ورُوي أَيضاً عن ابن عباس أَن الملَك إِذا غضب وزجر السحاب اصطدمت[(٣)] من خوفه فيكون البرق، وتحتك فتكون الصواعق[(٤)].

قوله: ﴿وَيُرۡسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ﴾ الآية، قيل: إِنه أَدخلها في التنبيه على القدرة بغير سبب ساق ذلك، وقال ابن جريج: كان سبب نزولها قصة أَرْبَد أَخي لبيد بن ربيعة لأمِّه[(٥)]، وعامر بن الطُّفَيل، وكان من أَمرهما فيما روي: أَنهما قدما على رسول الله ﷺ فدعواه أَن يجعل الأَمر بعده إِلى عامر بن الطفيل ويدخلا في دينه فأَبى، فقال عامر: فتكون أَنت على أَهل الوبر وأَنا على أَهل المدر[(٦)] فأَبى، فقال له عامر: فماذا تعطيني؟ فقال النبي ﷺ: أُعطيك أَعنة الخيل فإِنك رجل فارس، فقال له عامر: والله لأَملأَنها عليك خيلاً ورجالاً[(٧)] حتى آخذك، فقال له رسول الله ﷺ: «يأْبى الله ذلك وابنا قيلة[(٨)]»، فخرجا من عنده، فقال أَحدهما لصاحبه: لو قتلناه ما انتطح فيها عنزان، فتآمرا في الرجوع لذلك.

فقال عامر لأَربد: أَنا أَشغله لك بالحديث واضربه أَنت بالسيف، فجعل عامر يحدثه وأَربد لا يصنع شيئاً، فلما انصرفا قال له عامر: والله يا أَربد لا خفتك أَبداً، ولقد

---

(١) في المطبوع وأحمد٣ ونور العثمانية: «لا يصح».

(٢) سقطت من الأصل ونجيبويه، وفي نور العثمانية: «الملاحدة».

(٣) في المصرية والمطبوع وأحمد٣: اضطربت، وفي نور العثمانية: اضطرمت.

(٤) لم أقف عليه.

(٥) «لأمه» ساقط من المطبوع، وفي سيرة ابن هشام (٢/ ٥٦٨) أنه أربد بن قيس بن جزء بن خالد بن جعفر أخو لبيد لأمه وابنُ عمه.

(٦) في المطبوع وأحمد٣: تقديم «المدر» على «الوبر»، وأهل المدر: سكان البيوت المبنية، وأهل الوبر: سكان الخيام من البدو.

(٧) في المطبوع: «ورجلا».

(٨) يعني الأوس والخزرج، وفي المطبوع: «وأَبناءُ» بصيغة الجمع.

كنت أَخافك قبل هذا، فقال له أَربد: والله لقد أَردت إِخراج السيف فما قدرتُ على ذلك، ولقد كنت أَراك بيني وبينه أَفأَضربك؟ فمضيا للحشد على النبي ﷺ، فأَصابت أَرْبَد صاعقة فقتلته[١]، ففي ذلك يقول لبيد بن ربيعة أَخوه:

[المنسرح]

أَخشى على أَرْبَدَ الحُتُوفَ ولا أَرْهَبُ نَوْءَ السِّمَاكِ والأَسَدِ

فَجَّعَني الرَعْدُ والصَّوَاعِقُ بالْـ ـفَارِس يَوْمَ الكَرِيهَةِ النُّجُدِ[٢]

فنزلت الآية في ذلك، وروي عن عبد الرحمن بن صحار العبدي[٣] أَنه بلغه أَن جباراً من جبابرة العرب بعث إِليه النبي ﷺ لِيُسْلِم، فقال: أَخبروني عن إله محمد، من لؤلؤ هو أَو من ذهب؟ فنزلت عليه صاعقة ونزلت الآية فيه.

وقال مجاهد: إِن بعض اليهود جاءَ إلى النبي ﷺ يناظره، فبينما هو كذلك إِذ نزلت صاعقة فأَخذت قحف رأْسه، فنزلت الآية فيه[٤].

وقوله: ﴿وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ﴾، يجوز أَن تكون إِشارة إلى جدال اليهودي[٥] المذكور، وتكون الواو واو حال، أَو إِلى جدال الجبار المذكور، ويجوز ـ إِن كانت الآية على غير سبب ـ أَن يكون قوله: ﴿وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ﴾ إِشارة إِلى جميع الكفرة من العرب وغيرهم الذين جُلبت لهم هذه التنبيهات.

و﴿ٱلْمِحَالِ﴾: القوة والإِهلاك، ومنه قول الأَعشى:

---

(١) هذا من مرسل ابن جريج، أخرجه الطبري (١٦/ ٣٩٣).

(٢) في المطبوع «البرق» بدل «الرعد»، وانظر نسبة البيتين له في: تفسير الطبري (١٦/ ٣٨٠)، والأغاني (١٧/ ٥٩)، وسيرة ابن هشام (٥/ ٢٦٢).

(٣) عبد الرحمن بن صحار العبدي روى عن أبيه وله صحبة وعنه أبو العلاء بن الشخير، قال الحسيني: ليس بالمشهور، كذا قال وقد ذكره بن حبان في ثقات التابعين، انظر: تعجيل المنفعة (١/ ٨٠١).

(٤) وهذا مرسل، والذي قبله معضل، أخرجهما الطبري (١٦/ ٣٩١) وإسناد الأول صحيح إلى عبد الرحمن هذا قال: بلغني أن النبي صلى الله عليه وسلم...، والثاني إسناده ضعيف إلى مجاهد.

(٥) في نجيبويه: «حال اليهودي»، وفي المطبوع: «جدال اليهود».

[الخفيف] فَرْعُ نَبْعٍ يَهْتزُّ في غُصُنِ الْمَجْـ ... ـدِ عَظِيمُ النَّدَى شَدِيدُ المحَالِ(١)

ومنه قول عبد المطلب:

[مجزوء الكامل] لاَ يَـغْـلِـبَـنَّ صَـلِـيـبُـهُـمْ ... وَمِحَالُهُـمْ عَـدْواً مِحَالَـكْ(٢)

وقرأ الأعرج، والضحَّاك: (الْمَحَال) بفتح الميم(٣) بمعنى المحالة، وهي الحيلة، ومنه قول العرب في المثل: المرءُ يعجز لا المحالة(٤)، وهذا كالاستدراج والمكر ونحوه، وهذه استعارات في ذكر الله تعالى، والميم إذا كُسِرَت أصليةٌ، وإذا فتحت زائدةٌ، ويقال: مَحَلَ الرجل بالرجل: إذا مَكَر به وأخذه بسعاية شديدة / . [٣/ ٩٥]

قوله عز وجل: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ (١٤) وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ۩ (١٥) قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ (١٦)﴾.

الضمير في ﴿لَهُۥ﴾ عائد على اسم الله عز وجل.

---

(١) انظر نسبته له في: مجاز القرآن (٢/ ٨٠)، والأمالي للقالي (٢/ ٢٧٢)، وتفسير الطبري (١٦/ ٣٩٤)، وجمهرة أشعار العرب (ص: ١٨).

(٢) انظر عزوه له مع قصته كاملة في: تفسير الطبري (٢٤/ ٦١٣)، والأمالي للقالي (٢/ ٢٧٢)، وسيرة ابن هشام (١/ ١٧٠).

(٣) وهي شاذة انظر عزوها للأعرج في المحتسب (١/ ٣٥٦)، ومختصر الشواذ (ص: ٧١)، وللضحاك في البحر المحيط (٦/ ٣٦٦).

(٤) انظره في: الأمثال لابن سلام (ص: ٢٠٤)، ونقله عن أكثم بن صيفي، وهو شعر في البيان والتبيين (٣/ ٢٦)، وفي المطبوع: «يعز». وفي الحمزوية: «يفخر»، وفي التركية: «لا محالة» دون تعريف، وكذا هو في بعض المصادر أيضاً.

وقال ابن عباس: ﴿دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾ لا إله إلا الله[١].

قال القاضي أبو محمد: وما كان من الشريعة في معناها.

وقال علي بن أَبي طالب: ﴿دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾: التوحيد[٢].

ويصح أَن يكون معناها: له دعوة العباد بالحق ودعاءُ غيره من الأَوثان باطل.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ يُراد به ما عُبد من دون الله، والضمير في ﴿يَدْعُونَ﴾ لكفار قريش ونحوهم[٣] من العرب.

وروى اليزيدي عن أَبي عمرو بن العلاءِ: (تَدْعون من دونه) بالتاءِ من فوق[٤].

و﴿يَسْتَجِيبُونَ﴾ بمعنى: يُجيبونَ، ومنه قول الشاعر:

وَدَاعٍ دَعَا يا مَنْ يُجيبُ إِلى النَّدَى فَلَمْ يَسْتَجبْهُ عنْدَ ذَاكَ مُجيبُ[٥] [الطويل]

ومعنى الكلام: والذين يدعوهم الكفار في حوائجهم ومنافعهم لا يجيبون بشيءٍ.

ثم مثَّل تعالى مثالاً لإِجاباتهم بالذي يبسط كفَّيْه نحو الماءِ ويشير إِليه بالإِقبال إِلى فيه[٦]، فهو لا يبلغ فمه أَبداً، فكذلك إِجابة هؤلاءِ والانتفاع بهم لا يقع.

وقوله: ﴿هُوَ﴾ يريد به الماءَ وهو البالغ، والضمير في (بَالِغِهِ) للفم، ويصح أَن يكون ﴿هُوَ﴾ يراد به الفم وهو البالغ أَيضاً، والضمير في (بَالِغِهِ) للماءِ، لأَن الفم لا يبلغ الماءَ أَبداً على تلك الحال.

---

(١) أخرجه الطبري (١٦/ ٣٩٨) من طريقين أحدهما لين والآخر منقطع عن ابن عباس.

(٢) أخرجه الطبري (١٦/ ٣٩٨) بإسناد تالف.

(٣) في نجيبويه: «وغيرهم».

(٤) وليست من طرق التيسير بل شاذة كما في مختصر الشواذ (ص: ٧١).

(٥) هذا البيت قاله كعب بن سعد الغَنَوِيُّ يرثي أخاه أبا المغوار، وقد تقدم في تفسير الآية (١٧) من سورة البقرة.

(٦) سقط من المصرية قوله: «إلى فيه».

ثم أَخبر تعالى عن دُعاءِ الْكافِرِينَ أَنه في انتلاف[(١)] وضَلالٍ لا يفيد فيه شيئاً ولا يغني.

وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ﴾ الآية، يحتمل ظاهر هذه الأَلفاظ أَنه جرى في طريق التنبيه على قدرة الله وتسخير الأَشياءِ له فقط، ويحتمل أَن يكون في ذلك طعن على كفار قريش وحاضري محمد ﷺ، أَي: إِن كنتم أَنتم لا توقنون ولا تسجدون فإِن جميع مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ لهم سجود لله تعالى، وإِلى هذا الاحتمال نحا الطبري[(٢)].

قال القاضي أبو محمد: و﴿مَن﴾ تقع على الملائكة عموماً وسجودهم طَوْعٌ[(٣)] بلا خلاف، وأَما أَهل الأَرض فالمؤمنون منهم داخلون في مَنْ سجودهم طَوْعٌ، وأَما سجود الكفرة فهو الكُرْه، وذلك على نحوين[(٤)] من هذا المعنى، فإِن جعلنا السجود هذه الهيئة المعهودة فالمراد من الكفرة من يضمه السيف إِلى الإِسلام ـ كما قال قتادة[(٥)] ـ فيسجد كرهاً، إِمَّا نفاقاً، وإِمَّا أَن يكون الكره أَول حاله فتستمر عليه الصفة وإِن صحَّ إِيمانه بعد.

وإِن جعلنا السجود الخضوع والتذلُّل على حسب ما هو في اللغة كقول الشاعر:

[الطويل] .... تَـرَى الأُكْمَ فيه سُجَّداً للْحَوَافِـرِ[(٦)]

فيدخل الكفار أَجمعون في ﴿مَن﴾، لأَنه ليس من كافر إِلا وتلحقه من التذلُّل[(٧)] والاستكانة بقدرة الله أَنواع أَكثر من أَن تُحصى بحسب رزاياه واعتباراته.

---

(١) في نجيبويه: «إِتلاف».

(٢) تفسير الطبري (١٦/ ٤٠٣).

(٣) بالرفع خبر «سجودهم»، وجاءت في المصرية والمطبوع منصوبة: «طوعاً».

(٤) في نجيبويه: «نحو».

(٥) تفسير الطبري (١٦/ ٤٠٣).

(٦) قاله زيد الخيل كما تقدم مراراً، انظر: تفسير الآية (**٣٣**) من سورة البقرة.

(٧) في المصرية: «الميل».

وقال النحاس، والزجَّاج: «إِن الكره يكون في سجود عصاة المسلمين وأَهل الكسل منهم»[(١)].

قال القاضي أبو محمد: وإِن كان اللفظ يقتضي هذا فهو قلق من جهة المعنى المقصود بالآية.

وقوله: ﴿وَظِلَٰلُهُم بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ﴾ إِخبار عن أَن الظِّلال لها سجود لله تعالى بالبُكَر والعَشيَّات.

قال الطبري: «وهذا كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدٗا لِّلَّهِ﴾[(٢)]»، قال: «وذلك هو فيْئُهُ بالعشي».

وقال مجاهد: «ظلُّ الكافر يسجد طوعاً وهو كاره»، وقال ابن عباس: «يسجد ظلُّ الكافر حين يفيءُ عن يمينه وشماله»[(٣)].

وحكى الزجَّاج أَن بعض الناس قال: الظِّلال هنا يُراد بها الأَشخاص، وضعفه أَبو إِسحاق[(٤)].

و(الآصال) جمع أَصيل، وقرأَ أَبو مجلز: (والإِيصالِ)[(٥)]، قال أَبو الفتح: «هو مصدر آصلنا[(٦)]، أَي: دخلنا في الأصيل، كأَصبحنا وأَمسينا»، وروي أَن الكافر إِذا سجد لصنمه فإِن ظله يسجد لله تعالى حينئذ.

وقوله: ﴿قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ الآية، جاءَ السؤال والجواب في هذه الآية من ناحية

---

(١) معاني القرآن للنحاس (٣/ ٤٨٦)، ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج (٣/ ١٤٤).

(٢) النحل: ٤٨، انظره مع قول مجاهد في: تفسير الطبري (١٦/ ٤٠٤).

(٣) لم أقف عليه.

(٤) ولفظه في معاني القرآن وإعرابه (٣/ ١٤٤): «وهذا مخالف للتفسير».

(٥) وهي شاذة، انظرها مع التوجيه في: المحتسب (١/ ٣٥٦).

(٦) ضبطت في المطبوع: «أصلنا» على أنه ثلاثي، ولكن ذلك لا يتفق مع المعنى.

واحدة، إِذْ كان السؤال والتقرير عن أَمر واضح لا مدافعة لأَحد فيه ملزم[1] للحجة، فكان السبقُ إِلى الجواب أَفصحَ في الاحتجاج، وأَسرع في قطعهم من انتظار الجواب منهم، إِذ لا جواب إِلا هذا الذي وقع البِدار إِليه.

وقال مكي: «جهلوا الجواب وطلبوه من جهة السائل فأَعلمهم به السائل، فلما تقيد من هذا كله أَن الله تعالى هو رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وقع التوبيخ على اتخاذهم مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ مُتَّصفين بأَنهم لا ينفعون أَنفسهم ولا يضرونها، وهذه غاية العجز»[2].

وفي ضمن هذا الكلام: وتركتموه وهو الذي بيده ملكوت كل شيءٍ، ولفظة: ﴿مِّن دُونِهِۦٓ﴾ تقتضي ذلك.

ثم مثَّل الكفار والمؤمنين ـ بعد هذا ـ بقوله: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾.

وقرأَ ابن كثير، ونافع، وأَبو عمرو، وابن عامر، وحفص عن عاصم: ﴿تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ﴾ بالتاءِ، وقرأَ حمزة، والكسائي، وأَبو بكر عن عاصم: ﴿يَسْتَوِى﴾ بالياءِ[3].

فالتأْنيث حسن لأَنه مؤنث لم يُفْصل بينه وبين فاعله بشيءٍ، والتذكير شائع[4] لأنه تأْنيث غير حقيقي والفعل مقدم.

وشبَّهت هذه الآية الكافر بالأَعمى والكفر بالظُّلُمات، وشبهت المؤمن بالْبَصِير والإِيمان بالنُّور، ثم وقفهم بعْدُ، هل رأَوا خلقاً لغير الله فحملهم ذلك واشتباهه[5] بما خلق الله على أَنْ جعلوا إِلهاً غير الله؟.

---

(١) في المطبوع والمطبوع: «ملتزم».

(٢) الهداية لمكي (٥/ ٣٧١٣)، في نجيبويه: «جعلوا»، بدل «جهلوا».

(٣) وهما سبعيتان، انظر: التيسير (ص: ١٣٣).

(٤) في نجيبويه: «سائغ».

(٥) في نجيبويه ونور العثمانية: «وأشباهه».

ثم أَمر محمداً ﷺ بالإِفصاح بصفات الله تعالى في أَنه خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ، وهذا عموم في اللفظ يراد به الخصوص في كل ما هو خلْق الله[١] تعالى.

[قال القاضي ابن الطيب وأبو المعالي وغيرهما من الأصوليين:][٢] ويخرج عن ذلك صفات ذاته لا ربَّ غيره، والقرآن[٣].

ووصف نفسه [بالْواحِد الْقَهَّار][٤] من حيث لا موجود إِلا به، وهو في وجوده مستغن عن الموجودات، لا إله إِلا هو العلي العظيم.

قوله عز وجل: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ / أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًاۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءًۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾. [٣/ ٩٦]

صدر هذه الآية تنبيه على قدرة الله وإِقامة الحجة على الكفرة به، فلما فرغ ذكرُ ذلك جعله مثالاً للحق والباطل والإِيمان والكفر والشك في الشرع واليقين به.

وقوله: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ يريد به المطر، والأَودية: ما بين الجبال من الانخفاض والخنادق، وقوله سبحانه: ﴿بِقَدَرِهَا﴾ يحتمل أن يريد: بما قُدّر لها من الماء، ويحتمل أن يريد: بقدر ما تحتمله[٥] على قدر صغرها وكبرها.

وقرأ جمهور الناس: ﴿بِقَدَرِهَا﴾ بفتح الدال.

وقرأَ الأَشهب العقيلي: [(بقدْرها)، بسكون الدال][٦].

(١) في المطبوع وأحمد٣: «خلق لله».
(٢) زيادة من الأصل ونجيبويه والحمزوية.
(٣) «والقرآن»: زيادة من الأصل ونجيبويه والحمزوية، وقد تقدم الكلام على مثل هذا عنهما.
(٤) في المطبوع وأحمد٣ ونور العثمانية والمصرية والتركية: «بالوحدانية».
(٥) في المصرية والمطبوع وأحمد٣: «تحمله».
(٦) في المطبوع بدلاً منه: «بسكونها»، وهي شاذة، انظر عزوها له في: مختصر الشواذ (ص: ٧١).

والزَّبدُ: ما يحمله السيل من غثاءٍ ونحوه، وما يرمي به ضفَّتيه من الحَباب الملْتَبك[١]، ومنه قول حسّان بن ثابت:

[البسيط] ما البَحْرُ حينَ تَهُبُّ الرِّيحُ شَاميَـةً فيغْطَئِل ويرْمـي العِبْـرَ بالزَّبَدِ[٢]

والرَّابي: المنتفخ الذي قَدْ رَبَا، ومنه الرَّبْوَة.

وقوله: ﴿وَمِمَّا﴾ خبر ابتداءٍ، والابتداءُ قوله: ﴿زَبَدٌ﴾ و﴿مِّثْلُهُۥ﴾ نعت لـ(الزَّبَد)، والمعنى: ومن الأَشياءِ التي تُوقِدُونَ عليها ابتغاءَ الحلي، وهي الذهب والفضة، أَو ابتغاءَ الاستمتاع بها في المرافق، وهي الحديد والرصاص والنحاس ونحوها من الأَشياءِ التي تُوقِدُونَ عليها، فأَخبر تعالى أَن من هذه أَيضاً إِذا أُحمي عليها، [يكون زبد مماثل][٣] للزَّبد الذي يحمله السيل، ثم ضرب تعالى ذلك مثلاً للْحَقّ وَالْباطِل، أَي: أَن الماءَ الذي تشربه الأَرض [من السيل][٤] فيقع النفع به هو كالحق، والزَّبَدُ الذي يخمد[٥] ويَنْفِش ويذهب هو كالباطل، وكذلك ما يخلص من الذهب والفضة والحديد ونحوها هو كالحق، وما يذهب في الدخان هو كالباطل.

وقوله: ﴿فِي ٱلنَّارِ﴾ متعلق بمحذوف تقديره: كائناً أَو ثابتاً، كذا قال مكي وغيره[٦]، ومنعوا أَن يتعلق بقوله: ﴿يُوقِدُونَ﴾ لأَنهم زعموا أَنه ليس يوقد على شيءٍ إِلا وهو فِي النَّارِ، وتعليق[٧] حرف الجر بـ﴿يُوقِدُونَ﴾ يتضمن تخصيص حال من حال أُخرى.

---

(١) الحَباب: الفقاقيع تظهر على وجه الماءِ، الملتبك: المختلط بعضه ببعض، وفي نجيبويه زيادة: «به».

(٢) انظر عزوه له في: سيرة ابن هشام (٤/ ٢٧٠)، والأغاني (٤/ ١٦٣)، وفي المطبوع وأحمد٣ والتركية بدل «فيغطئل»: «فباطل»، وفي نور العثمانية: «فباطيل»، وفي الأصل: «فيأطل»، وفي الحمزوية: «وأطيل»، وفي القاموس (ص: ١٠٣٩): اغطأل: ركب بعضه بعضاً.

(٣) في المطبوع وأحمد٣: «تكون زبداً مماثلاً»، وفي نجيبويه: «تكون زبده مماثلاً».

(٤) ساقط من أحمد٣ والمطبوع.

(٥) في المطبوع ونجيبويه: «يجْفُو».

(٦) مشكل إعراب القرآن لمكي (١/ ٣٩٨).

(٧) في المطبوع وأحمد٣: «تعلق».

وذهب أَبو علي الفارسيّ إِلى تعلقها[١] بـ﴿يُوقِدُونَ﴾، وقال: قد يوقد على شيءٍ وليس في النار، كقوله تعالى: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾ [القصص: ٣٨]، فذلك البناءُ الذي أَمر به أَن يوقد عليه وليس في النار لكن يصيبه لهيبها.

وقوله: ﴿جُفَآءً﴾ مصدر من قولهم: أجفأتِ[٢] القِدْرُ، إذا غلت حتى خرج زبدها وذهب، وقرأ رؤْبة: (جُفَالاً) من قولهم: جفلتِ الريحُ السحابَ، إِذا حملته وفرَّقته، قال أَبو حاتم: لا تعتبر قراءَة الأَعراب في القرآن[٣].

وقوله: ﴿مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ يريد الخالص من الماءِ ومن تلك الأَحجار.

وقرأَ ابن كثير، ونافع، وأَبو عمرو، وابن عامر، وعاصم في رواية أَبي بكر، وأَبو جعفر، والأَعرج، وشيبة، والحسن: ﴿تُوقِدُونَ﴾ بالتاءِ، أَي: أَنتم أَيها الموقدون، وهي صفة لجميع أَنواع الناس.

وقرأَ حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم، وابن محيصن، ومجاهد، وطلحة، ويحيى، وأَهل الكوفة: ﴿يُوقِدُونَ﴾ بالياءِ[٤] على الإِشارة إِلى الناس.

و﴿جُفَآءً﴾ مصدر في موضع الحال.

قال القاضي أبو محمد: وروي عن ابن عباس أَنه قال: «قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ يريد به الشرع والدين، وقوله تعالى: ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ﴾ يريد به القلوب، أَي: أَخذ النبيلُ بِحظِّه والبليد بِحَظِّه»[٥].

---

(١) في نجيبويه: «تعليقها»، وفي نور العثمانية: «إلى أن تعلقها».

(٢) في المطبوع وأحمد٣: «جفأَت».

(٣) وهي شاذة، انظر عزوها له في: مختصر الشواذ (ص: ٧١)، وقول أبي حاتم في البحر المحيط (٦/ ٣٧٥).

(٤) وهما سبعيتان، انظر التيسير (ص: ١٣٣).

(٥) أخرج الطبري (١٦/ ٤١٠) من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قوله: هذا مثل ضربه الله، احتملت منه القلوب على قدر يقينها وشكها، فأما الشك فلا ينفع معه العمل، وأما اليقين فينفع الله به أهله، ولم أجده باللفظ الذي ذكره المصنف.

قال القاضي أبو محمد: وهذا قول لا يصح ـ والله أَعلم ـ عن ابن عباس؛ لأَنه ينحو إِلى قول أصحاب الرموز، وقد تمسَّك به الغزالي وأَهل ذلك الطريق[١]، ولا وجه لإِخراج اللفظ عن مفهوم كلام العرب بغير علَّة تدعو إِلى ذلك، والله الموفق للصواب برحمته، وإِنْ صحَّ هذا القول عن ابن عباس فإِنما قصد أَن قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ﴾ معناه: الحق الذي يتقرر في القلوب المهدية، وَالْباطِل الذي يعتريها ـ أيضاً ـ [من وساوس وشبه حين تنظر في كتاب الله عز وجل][٢].

قوله عز وجل: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾ ۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾﴾.

(الذين اسْتَجابُوا) هم المؤمنون الذين دعاهم الله عز وجل على لسان رسوله فأَجابوه إِلى ما دعاهم إِليه من اتِّـبَاع دينه.

و﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ هي الجنة، [ويدخل في هذا النصرُ في الدنيا، ونحوُ ذلك من البشارات التي تكون للمؤمن][٣]، وكلُّ ما يختص به المؤمنون من نعم الله عزَّ وجلَّ.

و(الَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا) هم الكفرة، و﴿سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ﴾ هو التَّقَصّي على المحاسَب، ولا يقع في حسابه من التجاوز شيءٌ، قاله شهر بن حوشب، وإِبراهيم النَّخَعي، وقاله فَرْقَدُ السَّبَخي وغيره[٤].

---

(١) انظر: تفسير القشيري (٢/ ٢٢٤)، وإحياء علوم الدين (١/ ١٠٢).

(٢) زيادة من الحمزوية والأصل ونجيبويه، وكذلك لفظ: «المهدية»، وجاء في نجيبويه: «ينظر» بالياء.

(٣) ساقط من الأصل.

(٤) انظر تفسير الطبري (١٦/ ٤١٧)، وفي المطبوع وأحمد٣: «قاله حوشب»، دون ذكر «شهر بن»، وفي نجيبويه: «فرقد السنجي».

والمأْوى حيث يأْوي الإِنسان ويسكن، والْمِهادُ: ما يُفترش ويُلبس بالجلوس والرقاد.

وقوله: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ﴾ استفهام بمعنى التقرير، والمعنى: أسواء[١] مَنْ هداه الله فعلم صدقَ نبوتك وآمن بك ومَنْ لم يهتد ولا رُزق بصيرة فبقي على كفره؟ فمثَّل عزَّ وجلَّ ذلك بالعمى.

ورُوي أَن هذه الآية نزلت في حمزة بن عبد المطلب وأَبي جهل بن هشام، وقيل: في عمار بن ياسر وأَبي جهل بن هشام[٢]، وهي بعد هذا مثال في جميع العالم.

و﴿إِنَّمَا﴾ في هذه الآية حاصِرة، أَي: إِنَّما يَتَذَكَّرُ فيُؤْمن ويراقب الله مَنْ له لبٌّ وتحصيل.

ثم أَخذ في وصف هؤلاءِ الذين يسَّرهم للإِيمان فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾.

وقوله: ﴿بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾ اسم للجنس، أَي: بجميع عهوده، وهي أَوامره ونواهيه التي وصَّى بها عبيده، ويدخل في هذه الأَلفاظ التزامُ جميع الفروض وتجنُّب جميع المعاصي.

وقوله: ﴿وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ﴾ يحتمل أَن يريد به جنس المواثيق، أَي: إِذا اعتقدوا[٣] في طاعة / الله عهداً لم ينقضوه، قال قتادة: «وتقدم الله إِلى عباده في نقض الميثاق ونهى عنه في بضع وعشرين آية»[٤]. [٣/ ٩٧]

ويحتمل أَن يشير إِلى ميثاق معيَّن وهو الذي أَخذه الله على عباده وقت مسحه على ظهر أَبيهم آدم عليه السلام.

وَوَصْلُ ما أَمر الله به أَن يُوصل ظاهِرُهُ في القرابات، وهو مع ذلك يتناول جميع

(١) في المطبوع ونجيبويه: «أَيستوي».
(٢) لم أقف عليه مسنداً.
(٣) في المطبوع: «عقدوا».
(٤) تفسير الطبري (١/ ١١٤)، بمعناه.

الطاعات، وسُوءُ الحساب هو أَن يُتَقَصَّى[١]، ولا تقع فيه مسامحة [ولا تغمّد][٢].

قوله عز وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾.

الصبر لوجه الله يدخل في الرَّزايا والأَسقام والعبادات، وعن الشهوات ونحو ذلك.

و﴿ٱبْتِغَآءَ﴾ نصبٌ على المصدر، أَو على المفعول من أَجله، والوَجْه في هذه الآية ظاهره الجهة التي تقصد عنده تعالى بالحسنات لتقع عليه المثوبة، وهذا كما تقول: خرج الجيش لوجه كذا، وهذا أَظهر ما فيه، مع احتمال غيره، وإِقامة الصلاة هي الإِتيان بها على كمالها، و﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾ هنا هي المفروضة.

وقوله: ﴿وَأَنفَقُواْ﴾ يريد مواساة المحتاج، والسِّرُّ هو فيما أُنفق تطوعاً، والعلانية فيما أُنفق من الزكاة المفروضة، لأَن التطوع كله الأَفضل فيه التكتم.

وقوله: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ أَي: ويدفعون من رأَوْا منه مكروهاً بالتي هي أَحسن، وقيل: يدفعون بقول: «لا إِله إِلا الله» شرْكَهُم[٣]، وقيل: يدفعون بالسلام غوائل الناس.

قال القاضي أبو محمد: وبالجملة لا يُكَافئون الشرَّ بالشرِّ، وهذا بخلاف خُلُق الجاهلية.

---

(١) في الحمزوية: «لا يتقضى» وفي التركية: «هو الذي يقضى»، وفي نور العثمانية: «أن ينقضي»، وفي المصرية: «التقصي».

(٢) ساقط من نجيبويه، وظاهر المصرية وأحمد٣ ونور العثمانية والتركية: «ولا تعمد».

(٣) في نجيبويه: «من كفر».

ورُوي أَن هذه الآية نزلت في الأَنصار[١]، ثم هي[٢] عامة بعد ذلك في كل من اتصف بهذه الصفات.

وقوله: ﴿عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ يحتمل أَن تكون عُقْبى دار الدنيا، ثم فسَّر العقبى بقوله: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ إِذ العقبى تعُمّ حالة الخير وحالة الشر، ويحتمل أَن يريد: عُقْبَى دار الآخرة لدار الدنيا، أَي: العقبى الحسنة[٣] في الدار الآخرة هي لهم.

وقرأَ الجمهور: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾، وقرأَ النَّخَعي: (جنةُ عدنٍ يُدْخَلُونَها) بضم الياءِ وفتح الخاءِ[٤]. و﴿جَنَّٰتُ﴾ بدلٌ من ﴿عُقْبَى﴾ وتفسير لها.

وعَدْن هي مدينة الجنة ووسطها، ومنها جنات الإِقامة، من «عَدَن في المكان» إِذا أَقام فيه طويلاً، ومنه المعادن، وجناتُ عدْن يقال: هي مسكن الأَنبياءِ والشهداءِ والعلماءِ فقط، قاله عبد الله بن عمرو بن العاص، ويروى أَن لها خمسة آلاف باب[٥].

وقوله: ﴿وَمَن صَلَحَ﴾ أَي: من عمل صالحاً وآمن، قاله مجاهد وغيره، ويحتمل: أَي: مَنْ صلح لذلك بقدَر الله تعالى وسابق علمه، وحكى الطبري في صفة دخول الملائكة أَحاديث لم نطول بها لضعف أَسانيدها، والمعنى: يقولون: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم﴾، فحذف «يقولون» تخفيفاً وإِيجازاً لدلالة ظاهر الكلام عليه، والمعنى: هذا بما صبرتم[٦].

والقول في ﴿عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ على نحو ما تقدم من المعنيين.

---

(١) لم أجده مسنداً.

(٢) في المطبوع وأحمد٣: «بقيت» بدل «هي».

(٣) في المطبوع بدل «الحسنة»: «الجنة» مع التنبيه على النسخة الأخرى في الهامش.

(٤) وهي بالإفراد شاذة، انظر عزوها له ولابن وثاب في: الشواذ للكرماني (ص: **٢٥٦**).

(٥) إسناده ليس فيه مجروح، أخرجه الطبري (**١٦/ ٤٢٤**) من طريق: علي بن جرير قال: حدثنا حماد ابن سلمة، عن يعلى بن عطاء، عن نافع بن عاصم، عن عبد الله بن عمرو.

(٦) انظره مع قول مجاهد في: تفسير الطبري (**١٦/ ٤٢٤**)، وفي نجيبويه: «قال مجاهد»، بدل «قاله».

وقرأ الجمهور: ﴿فَنِعْمَ﴾ بكسر النون وسكون العين، وقرأ يحيى بن وثاب (فَنَعِم)[١] بفتح النون وكسر العين.

وقالت فرقة: معنى ﴿عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ أي: أَنْ أُعْقِبوا الجنة من جهنم.

قال القاضي أبو محمد: وهذا التأْويل مبني على حديث ورَدَ وهو: «إِن كل رجل في الجنة فقد كان له مقعد معروف في النار فصرفه الله عنه إِلى النعيم، فيعرض عليه، ويقال له: هذا مكان[٢] مقعدك فبدَّلك الله منه الجنة بإِيمانك وطاعتك وصبرك»[٣].

قوله عز وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْأَخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾﴾.

هذه صفةُ حالةٍ مضادة للمتقدمة، وقال ابن جريج في قوله: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ أنه رُوي: «إِذا لم تمش إِلى قريبك برجلك ولم تواسه بمالك فقد قطعته»[٤].

وقال مصعب بن سعد: سأَلت أَبي عن قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف: ١٠٣-١٠٤]، أَهُم الحرورية؟ قال: «لا، ولكن الحرورية هم ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ

---

(١) سقطت من المطبوع، وهي شاذة، انظر عزوها له في: المحتسب (١/ ٣٥٦)، ومختصر الشواذ (ص: ٧١).

(٢) في نجيبويه ونور العثمانية: «كان».

(٣) متفق عليه بنحوه، أخرجه البخاري (١٣٣٨) (١٣٧٤) ومسلم (٢٨٧٠) من حديث أنس رضي الله عنه، بلفظ: «انظر إلى: مقعدك من النار أبدلك الله به مقعداً من الجنة».

(٤) معضل، أخرجه الطبري (١٦/ ٤٢٩) عن ابن جريج قال: بلغنا أن النبي ﷺ قال...إلخ.

﴿وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٢٧﴾[1]، فكان سعد بن أَبي وقاص رضي الله عنه يجعل فيهم الآيتين»[2].

و﴿ٱللَّعۡنَةُ﴾: الإِبعاد من رحمة الله ومن الخير جملة، و﴿سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ ضد[3] ﴿عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾، والأَظهر في ﴿ٱلدَّارِ﴾ هنا أَنها دار الآخرة، ويحتمل أَنها الدنيا على ضعف.

وقوله: ﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ﴾ الآية، لما أَخبر عمن تقدمت صفته بأَن لَهُمُ اللَّعْنَة وَلَهُمْ سُوء الدَّارِ أَنحى بعد ذلك على أغنيائهم، وحقَّر شأْنهم وشأْن أَموالهم، المعنى: أَن هذا كله بمشيئة الله، يَهَبُ الكافر المال ليُهْلِكه به، ويَقْدِر على المؤمن ليُعْظِم بذلك أَجرَه وذخره.

وقوله: ﴿وَيَقۡدِرُ﴾ من التقدير، فهو مناقض ﴿يَبۡسُطُ﴾، ثم استجهلهم في قوله: ﴿وَفَرِحُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ وهي بالإِضافة إِلى الآخرة متاع ذاهب مضمحل، يستمتع به قليلاً ثم يفنى.

والمتاع: ما يُتَمَتَّعُ به مما لا يبقى، قال الشاعر:

تَـمَـتَّـعْ يـا مُـشَـعَّـثُ إِنَّ شـيـئـاً ... سَـبَـقْـتَ بِهِ الْمَمَاتَ هُوَ الْمَتَاعُ[4] [الوافر]

وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ﴾ الآية، هذا ردٌّ على مقترحي الآيات من كفار قريش، كسقوط السماءِ عليهم كِسَفاً، ونحو ذلك من قولهم: سيِّر عنا الأخشبين، واجعل لنا البطاح محارث ومغترساً / كالأَردنّ، وأَحْيِ لنا قصيّاً[5] [٣/ ٩٨]

---

(١) البقرة: (٢٧)، وقد جاءت الآية في المطبوع إلى قوله: ﴿مِيثَٰقِهِۦ﴾ وفيه: «وتلا هذه الآية».

(٢) البخاري بنحوه، أخرجه (٤٧٢٨) بلفظ: لا، هم اليهود والنصارى: أما اليهود فكذبوا محمداً ﷺ وأما النصارى فكفروا بالجنة وقالوا: لا طعام فيها ولا شراب، والحرورية ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ وكان سعد يسميهم الفاسقين.

(٣) في أحمد٣: ضنك مع التنبيه على «ضد» في الهامش، في نجيبويه زيادة: نعم.

(٤) البيت للمُشَعّث العامري، كما في مجاز القرآن (١/ ٣٢٨)، وتفسير الثعلبي (٥/ ٢٨٣)، والأصمعيات (ص: ٤٣).

(٥) في المطبوع: «مُضيّنا».

وأَسلافنا، فلما لم يكن ذلك بحسب أَن آيات الاقتراح لم تجر عادةُ الأَنبياءِ بالإِتيان بها إِلا إِذا أَراد الله تعذيب قوم، قالوا هذه المقالة، فردّ الله عليهم، أَي: أَن نزول الآية لا تكون معه ضرورة إِيمانكم ولا هداكم، وإِنما الأَمر بيد الله ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِيٓ﴾[1] إِلى طاعته [والإِيمان به][2] ﴿مَنْ أَنَابَ﴾ إِلى الطاعة وآمن بالآيات الدالة.

ويحتمل أَن يعود الضمير في ﴿إِلَيْهِ﴾ على القرآن الكريم، وَيحتمل أن يعود على محمد ﷺ.

و﴿ٱلَّذِينَ﴾ بدلٌ مِن ﴿مَنْ﴾ في قوله ﴿مَنْ أَنَابَ﴾، وطمأْنينة القلوب هي الاستكانة والسرور بذكر الله والسكون به كمالاً به، ورضًى بالثواب عليه، وجودة اليقين.

ثم استفتح الإِخبار عز وجل بأَن طمأْنينة القلوب بذكر الله تعالى، وفي هذا الإِخبار حضٌّ وترغيبٌ في الإِيمان، والمعنى: إِن بهذا تقع الطمأْنينة لا بالآيات المقترحة، بل ربما كفر بعدها قوم فنزل العذاب كما سلف في بعض الأُمم.

و﴿ٱلَّذِينَ﴾ الثاني ابتداءٌ وخبره﴿طُوبَىٰ لَهُمْ﴾، ويصح أَن يكون ﴿ٱلَّذِينَ﴾ بدلاً من الأُولى، و﴿طُوبَىٰ﴾ ابتداءٌ و﴿لَهُمْ﴾ خبره.

و﴿طُوبَىٰ﴾ اسم، يدل على ذلك كونه ابتداءً، وهي فُعْلى من الطيب في قول بعضهم، وذهب سيبويه بها مذهب الدعاءِ، وقال: «هي في موضع رفع»[3].

ويدل على ذلك رفع ﴿وَحُسْنُ﴾، وقال ثعلب: [«طُوبى مصدر»][4].

وقرئَ: (وَحسنَ) بالنصب، فـ﴿طُوبَىٰ﴾ على هذا مصدر، كما قالوا: سقْياً لك، ونظيره من المصادر: الرُّجعى والعُقْبى.

---

(١) في المطبوع وأحمد٣ زيادة: «من يشاءُ»، ولعل فيها تكراراً.

(٢) ساقط من نجيبويه.

(٣) الكتاب لسيبويه (١/ ٣٣١).

(٤) ساقط من المطبوع وأحمد٣ ونور العثمانية والتركية، وانظر مذهب ثعلب في: المحكم والمحيط الأعظم (٩/ ٢٢٥).

قال ابن سيده: «والطُّوبى جمع طيبة، عن كراع[١]، ونظيره كُوسَى في جمع كيسَة، وضوفى في جمع ضيفة»[٢].

قال القاضي أبو محمد: والذي قرأَ: (وَحُسْنَ) بالنصب هو يحيى بن يَعْمر، وابن أَبي عبلة[٣].

واختلف في معنى طُوبَى: فقيل: معناه: خير لهم، وقال عكرمة: «معناه: [نعم ما][٤] لهم».

وقال الضحاك: «معناه: غبطة لهم»[٥].

وقال ابن عباس: ﴿طُوبَىٰ﴾ اسم الجنة بالحبشية[٦].

وقال سعيد بن مسحوح[٧]: «اسم الجنة طُوبى بالهندية»[٨].

وقيل: ﴿طُوبَىٰ﴾ اسم شجرة في الجنة، وبهذا تواترت الأَحاديث، قال رسول الله ﷺ:

---

(١) هو عليّ بن الحسن، أبو الحسن الهنائيّ الأزديّ، ويعرف بكراع النمل؛ فإنه كان دميم الخلقة. كان لغويّاً نحويّاً من علماء مصر، خلط المذهبين، وأخذ عن النحويين البصريين والكوفيين، توفي بعد (٣٩٠هـ). إنباه الرواة (٢/ ٢٤٠).

(٢) في المطبوع: «وصُوفى في جمع صِيفة»، بالصاد فيهما، وهو في المحكم والمحيط الأعظم (٩/ ٢٢٥) بالمعنى.

(٣) وهي شاذة انظر عزوها لابن أبي عبلة في: الكامل للهذلي (ص: ٥٧٩)، وعزاها في: مختصر الشواذ (ص: ٧١) لابن محيصن.

(٤) «ما» ساقطة من المطبوع، وفي نجيبويه: «تعجباً».

(٥) تفسير الطبري (١٦/ ٤٣٥).

(٦) أخرجه الطبري (١٦/ ٤٣٦) بإسناد لا يحتج به.

(٧) في المطبوع ونور العثمانية: «مسجوح»، وفي أحمد٣: «مشجوج»، قال في المعجم الصغير لرواة الطبري (١/ ١٩٩): سعيد بن مشجوج، وقيل: ابن مشجوع، وقيل: ابن مسجوع، وقيل: ابن مسجوح، من الرابعة أو الثالثة، لم أعرفه، ولم يعرفه شاكر قبلي.

(٨) تفسير الطبري (١٦/ ٤٣٦)، وفيه «مشجوج».

«طوبى شجرة في الجنة، يسير الراكب الـمُجِدُّ في ظلها مئة عام مجدّاً[١] لا يقطعها، اقرؤوا إن شئتم: ﴿وَظِلٍّ مَّمۡدُودٍ﴾ [الواقعة: ٣٠][٢]».

وحكى الطبري عن أَبي هريرة، وعن مغيث بن سُمَيّ[٣]، وعتبة بن عبد[٤] يرفعه أَخباراً مقتضاها أَن هذه الشجرة ليس في الجنة دار إِلا وفيها من أَغصانها، وأَنها تثمر بثياب أَهل الجنة، وأَنها يخرج منها الخيل بسُرُجِهَا ولُجُمها[٥]، ونحو هذا مما لم يثبت سنده.

والْمَآبُ: المرجع والمآل، من آب يؤوب، ويقال في طوبى: طِيبَى.

قوله عز وجل: ﴿كَذَٰلِكَ أَرۡسَلۡنَٰكَ فِيٓ أُمَّةٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهَآ أُمَمٞ لِّتَتۡلُوَاْ عَلَيۡهِمُ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِۚ قُلۡ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ مَتَابِ ٣٠ وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ أَوۡ قُطِّعَتۡ بِهِ ٱلۡأَرۡضُ أَوۡ كُلِّمَ بِهِ ٱلۡمَوۡتَىٰۗ بَل لِّلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ جَمِيعًاۗ

---

(١) «مجداً»: زيادة من المطبوع وأحمد٣.

(٢) أما تفسير «طوبى» بشجرة في الجنة، فقد روي من طريق: موسى بن سالم قال: قال ابن عباس، من قوله وهذا منقطع، ومن طريق أشعث بن عبد الله عن شهر بن حوشب عن أبي هريرة من قوله، وشهر تكلموا فيه، ومن قول بعض التابعين، ينظر الطبري (١٦/ ٤٤٠).
أما المرفوع فرواه الطبري (١٦/ ٤٤٢) من طريق: أبي توبة الربيع بن نافع قال: حدثنا معاوية بن سلام، عن زيد: أنه سمع أبا سَلام قال: حدثنا عامر بن زيد البكالي: أنه سمع عتبة بن عبد السلمِيّ يقول: جاء أعرابيٌّ إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، في الجنة فاكهة؟ «قال: نعم، فيها شجرة تدعى «طوبى»، هي تطابق الفردوس»، وليس فيه: «يسير الراكب الـمُجِدُّ في ظلها مئة عام»، ولا ذكر الآية، وأبو عامر البكالي: ذكره البخاري وابن أبي حاتم بغير جرح أو تعديل، وذكره ابن حبان في الثقات بروايته عن عتبة بن عبد، وعنه أبو سلام ويحيى بن أبي كثير، فهو مستور الحال.

(٣) هو مغيث بن سمي الأوزاعي الشامي، روى عن عبد الله عمرو، وابن الزبير، وابن عمر، وكعب الأحبار، وعنه: عاصم بن أبي النجود، وعبد الرحمن بن يزيد، وغيرهم. وكان إخباريّاً صاحب كتب كوهب وأبي الجلد. وثقه أبو داود. تاريخ الإسلام (٧/ ٢٦١).

(٤) هو عتبة بن عبد، بغير إضافة، أبو الوليد السلمي كان اسمه عتلة، ويقال نشبة، فغيَّره النبيّ ﷺ، قال الواقديّ: هو آخر من مات بالشام من الصحابة. الإصابة (٤/ ٣٦٢).

(٥) في نجيبويه: «لجومها»، يراجع تفسير الطبري (١٦/ ٤٤٢) إضافة لما تقدم.

﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾﴾.

الكاف في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ متعلقة بالمعنى الذي في قوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾، أَي: كما أَنفذ الله هذا كَذلِكَ أَرسلناك، هذا قولٌ، والذي يظهر لي أَن المعنى: كما أَجرينا العادة بأَن الله يضل من يشاءُ[1] ويهدي، لا بالآيات المقترحة، فكذلك أَيضاً فعلنا في هذه الأُمة، أَرْسَلْناكَ إِليها بوحي لا بالآيات المقترحة، فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاءُ.

وقوله: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾، قال قتادة وابن جريج: نزلت في قريش[2] حين عاهدهم رسول الله ﷺ عام الحديبية، فكتب الكتاب: «بسم الله الرحمن الرحيم»، فقال قائلهم: نحن لا نعرف الرحمن ولا نقر اسمه[3].

قال القاضي أبو محمد: والذي أَقول[4] في هذا: إِن (الرَّحْمن) هنا يراد به الله تعالى وذاته، ونسب إِليهم الكُفْر به على الإِطلاق، وقصة الحديبية وقصة أُمية بن خلف مع عبد الرحمن بن عوف[5] إِنما هي إِباية الاسم فقط. وهروب عن هذه العبارة التي لم يعرفوها إِلا مِن قِبل محمد ﷺ، ثم أَمر الله تعالى نبيَّه بالتصريح بالدين والإِفصاح بالدعوة في قوله: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾.

والْمَتَاب: المرجع كالمآب، لأَن التوبة: الرجوع.

---

(١) زيادة من المطبوع.

(٢) زيادة من المطبوع والمصرية.

(٣) أخرجه الطبري ١٦/ ٤٤٥-٤٤٦) عن قتادة ومجاهد مرسلاً.

(٤) في نجيبويه: «يقال».

(٥) قصة الحديبية أخرجها البخاري (٢٧٣٢) ومسلم (١٧٨٤)، والقصة الأخرى أخرجها البخاري (٢٣٠١).

ويحتمل قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا﴾ الآية أَن يكون متعلقاً بقوله: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ فيكون معنى الآية الإِخبار عنهم أَنهم لا يؤمنون ولو نزل قرآن تسير به الجبال وتقطع به الأَرض، هذا تأْويل الفراءِ وفرقة من المتأَوّلين[١]، وقالت فرقة: بل جواب (لوْ) محذوف تقديره: ولو أَن قرآناً يكون صفته[٢] كذا لما آمنوا بوجه.

وقال أَهل هذا التأْويل: ابن عباس، ومجاهد، وغيرهما: إِن الكفار كانوا قالوا للنبي ﷺ: أَزِح عنَّا ـ أو سَيِّر ـ جبلي مكة فقد ضيقا علينا، واجعل لنا أَرضنا[٣] قطع غراسة وحرث، وأَحْي لنا آباءَنا وأَجدادنا وفلاناً وفلاناً، فنزلت الآية في ذلك مُعْلِمة أَنهم لا يؤمنون ولو كان ذلك كلُّه[٤].

وقالت فرقة: جواب (لَوْ) محذوف، ولكنه ليس في هذا المعنى، بل تقديره: لكان هذا القرآن الذي يصنع هذا به، وتتضمن الآية ـ على هذا ـ تعظيم القرآن، وهذا قول حسن يحرز[٥] فصاحة الآية، وقوله: ﴿بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ يعضد التأْويل الأَخير ويترتب مع الآخرَيْن.

وقوله: ﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾[٦] الآية، ﴿يَاْيْـَٔسِ﴾ معناه: يعلم، وهي لغة هوازن، قاله القاسم[٧] بن معن[٨]، وقال ابن الكلبي: «هي لغة وَهْبيل[٩] حيٍّ من النخع»[١٠]،

---

(١) معاني القرآن للفراء (٢/ ٦٣).

(٢) في الأصل: «صفة»، والتعديل من النسخ الأخرى.

(٣) في المطبوع وأحمد٣ والمصرية: أرضا.

(٤) أخرجه الطبري (١٦/ ٤٤٧) من طريق عطية العوفي عن ابن عباس، وقد سبق هذا الإسناد مراراً.

(٥) في المطبوع: «يحرر».

(٦) جاء في المطبوع هكذا: «{ولو أن} بمعنى يعلم».

(٧) في نجيبويه: «ابن القاسم»، وفي أحمد٣ ونور العثمانية: «القاسم بن معين».

(٨) هو قاضي الكوفة وعالم زمانه أبو عبد الله القاسم بن معن بن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود الهذلي المسعودي الكوفي الفقيه، كان ثقة، صاحب عربية وشعر، كبير القدر، عفيفاً صارماً، لا يأخذ على القضاء، توفي سنة (١٧٥هـ). تاريخ الإسلام (١١/ ٢٩٧).

(٩) في المطبوع وأحمد٣: «هبيل» بلا واو.

(١٠) انظر قول القاسم وابن الكلبي في: تفسير الطبري (١٦/ ٤٥١)، ونسبَ وهبيل النخعي في نسب =

ومنه قول سُحَيْم بن وثيل الرياحي:

أَقُولُ لهُمْ بِالشِّعْبِ إِذْ ييْسِرُونَني ... أَلَمْ تَيْأَسُوا أَنِّي ابْنُ فارِسِ زَهْدم[1] [الطويل]

قال القاضي أبو محمد: ويحتمل أن يكون اليأس في هذه الآية على بابه، وذلك أَنه لما أَبعد إِيمانهم في قوله: ﴿وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا﴾ الآية ـ على التأْويلين في المحذوف المقدر ـ قال في هذه الآية: أَفلم ييأَس المؤمنون من إِيمان هؤلاءِ الكفرة علماً منهم أَنْ لَوْ يَشاءُ الله لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً.

وقرأَ ابن كثير، وابن محيصن ﴿يَأيس﴾[2].

وقرأَ عليٌّ بن أَبي طالب، وابن عباس، وابن أَبي مُليْكَة، وعكرمة، والجحدري، وعلي بن حسين، وزيد بن عليّ، وجعفر بن محمد: (أ فلم يتبين)[3].

ثم أَخبر تعالى / عن كفار قريش والعرب أَنهم لا يزالون تصيبهم قوارع من سرايا رسول الله ﷺ وغزواته، وفي قراءة ابن مسعود ومجاهد: (ولا يزال الذين ظلموا)[4]. [٣/ ٩٩]

ثم قال: ﴿أَوۡ تَحُلُّ﴾ أَنت يا محمد ﴿قَرِيبٗا مِّن دَارِهِمۡ﴾، هذا تأْويل فرقة منهم الطبري، وعزاه إِلى ابن عباس[5]، ومجاهد، وقتادة، وقال الحسن بن أَبي الحسن: «المعنى: أَوْ تَحُلُّ القارعة قَرِيباً مِنْ دارِهِمْ»[6].

= معد واليمن الكبير (١/ ٢٨٩).

(١) انظر نسبته له في: مجاز القرآن (١/ ٣٣٢)، وقد تقدم في تفسير الآية (٢١٧) من سورة البقرة.

(٢) وهي سبعية كما تقدم قريباً في سورة يوسف.

(٣) وهي شاذة مخالفة للرسم، انظر عزوها لهم في: المحتسب (١/ ٣٥٧).

(٤) وهي إن وجدت شاذة مخالفة للرسم، ولم نجد للشيخ فيها سلفاً ولا خلفاً.

(٥) أخرجه الطبري (١٦/ ٤٥٧) من طريق: أبي داود ـ الطيالسي ـ ووكيع وأبي قطن، ثلاثتهم ـ مفرقين ـ عن المسعودي، عن قتادة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس. ورواية وكيع عن المسعودي قبل اختلاطه.

(٦) انظر أقوالهم في: تفسير الطبري (١٦/ ٤٥٧-٣٥٩).

وقرأ مجاهد، وسعيد بن جبير: (أو يَحل) بالياء (قريباً من دِيَارهم) بالجمع[١].

و﴿وَعۡدُ ٱللَّهِ﴾ على قول ابن عباس وقوم: فتحُ مكة[٢]، وقال الحسن ابن أَبي الحسن: «الآية عامة في الكفار إلى يوم القيامة، وأن حال الكفار هكذا هي أَبداً»[٣]، و﴿وَعۡدُ ٱللَّهِ﴾: قيام الساعة.

والقارعة: الرزيَّة التي تقرع قلب صاحبها بفظاعتها، كالقتل والأَسْر ونهب المال وكشف الحريم ونحوه.

وقوله: ﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ﴾ الآية: هذه آية تأْنيس للنبي ﷺ، أَي: لا يضق صدرك يا محمد بما ترى من قومك وتلقى منهم، فليس ذلك ببدع ولا نكير، قد تقدم هذا في الأُمم، وأَمْلَيْتُ لَهُمْ: أَي: مدَدْتُ المدة وأَطَلْتُ، والإِملاءُ: الإِمهال على جهة الاستدراج، وهو من الْمُلاَوة من الزمن، ومنه: تَمَلَّيْتُ حُسْنَ العَيْش.

وقوله: ﴿فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ﴾ تقرير وتعجيب، وفي ضمنه وعيد للكفار المعاصرين لمحمد ﷺ.

قوله عز وجل: ﴿أَفَمَنۡ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۗ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلۡ سَمُّوهُمۡۚ أَمۡ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَم بِظَٰهِرٖ مِّنَ ٱلۡقَوۡلِۗ بَلۡ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكۡرُهُمۡ وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ٣٣ لَّهُمۡ عَذَابٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَقُّۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٖ ٣٤ ۞ مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ أُكُلُهَا دَآئِمٞ وَظِلُّهَاۚ تِلۡكَ عُقۡبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْۖ وَّعُقۡبَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ٣٥﴾.

هذه الآية راجعة بالمعنى إلى قوله: ﴿وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِۚ قُلۡ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا

---

(١) وهي شاذة، انظر عزوها لمجاهد في: مختصر الشواذ (ص: ٧١).
(٢) هو نفس الأثر السابق للمسعودي، وقد روي هذا عن عدد من التابعين أيضاً في نفس الموضع.
(٣) تفسير الطبري (١٦/ ٤٦٠).

هُوَ﴾، والمعنى: أفَمَنْ هُوَ [قائِمٌ عَلى كُلِّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ][١] أَحقُّ بالعبادة أَم الجمادات التي لا تنفع ولا تضر؟ هذا تأْويل، ويظهر أَن القول مرتبط بقوله: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾، كأَن المعنى: أَفَمن له القدرة والوحدانية ويُجْعل له شريكٌ أَهْلٌ أَن ينتقم ويعاقب أَم لا؟

والأَنْفُس من مخلوقاته، وهو قائم على الكلّ - أَي: محيط به - لتقرب الموعظة من حسِّ السامع، ثم خصَّ من أَحوال الأَنفس حال كسبها ليتفكر الإِنسان عند نظر الآية في أَعماله وكسبه[٢].

وقوله: ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ أَي: سمُّوا من له صفات يستحق بها الأُلوهية، ثم أَضرب القَول وقرَّر: هل تُعلمون الله بما لا يعلم.

وقرأَ الحسن: (تُنْبِئونه) بإِسكان النون وتخفيف الباءِ[٣].

و﴿أَمْ﴾ هي بمعنى «بل» وأَلف الاستفهام، هذا مذهب سيبويه، وهي كقولهم: إنها لإِبلٌ أَمْ شاءٌ.

ثم قررهم بعْدُ: هل يريدون تجويز ذلك بظاهر من الأَمر؟ لأَن ظاهر الأَمر له إِلباسٌ ما وموضع من الاحتمال، وما لم يكن إِلا بظاهر من القول فقط فلا شبهة له.

وقرأَ الجمهور: ﴿زُيِّنَ﴾ على بناءِ الفعل للمفعول ﴿مَكْرُهُمْ﴾ بالرفع.

وقرأَ مجاهد: (زيَّنَ) على بنائه للفاعل (مَكْرَهُمْ) بالنصب[٤]، أَي: زَيَّنَ الله.

و﴿مَكْرُهُمْ﴾ لفظ يعم أَقوالهم وأَفعالهم التي كانت بسبيل مناقضة الشرع.

وقرأَ عاصم، وحمزة، والكسائي: ﴿وَصُدُّوا۟﴾ بضم الصاد، وهذا على تعدي

---

(١) سقط بقية الآية من المطبوع وأحمد٣، وفيه بدله: «هكذا».

(٢) في حاشية المطبوع: «في بعض النسخ: عند نظر الله إليه في أعماله وكسبه».

(٣) وهي شاذة، عزاها له الكرماني في الشواذ (ص: ٢٥٦).

(٤) وهي شاذة، عزاها له ولابن عباس في مختصر الشواذ (ص: ٧١).

الفعل، وقرأَ الباقون هنا وفي «حم المؤمن»: ﴿وَصَدُّوا﴾ [غافر: ٣٧] بفتحها[١].

وذلك يحتمل أَن يكون: صدُّوا أَنفسهم، أَو صدوا غيرهم.

وقرأَ يحيى بن وثاب: (وصِدُّوا) بكسر الصاد[٢].

وقوله: ﴿لَّهُمْ عَذَابٌ﴾ الآية، آيةُ وعيدٍ، أَي: لهم عذاب في دنياهم بالقتل والأَسر والجدوب والبلايا في أَجسامهم[٣] وغير ذلك مما يمتحنهم الله به، ثم لهم [في الآخرة][٤] عذاب أَشَقُّ من هذا كله وهو الاحتراق بالنار.

و﴿أَشَقُّ﴾: أَصعب، من المشقة، والواقي هو الساتر على جهة الحماية، من الوقاية.

وقوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ﴾ الآية، قال قوم: ﴿مَّثَلُ﴾ معناه: صفة، وهذا من قولك: مَثَلتُ الشيءَ: إِذا وصفته لأَحد وقرَّبت عليه فهم أَمره، وليس بضرب مثل لها، وهو كقوله: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [الروم: ٢٧]، أَي: الوصف الأَعلى، ويظهر أَن المعنى الذي يتحصل في النفس مثالاً للجنة هو جرْي الأَنهار وأَن أُكُلَها دائم، ورافعه عند سيبويه مُقَدّر قبلُ[٥]، تقديره: فيما يُتْلى عليكم أَو يُنصّ عليكم مثلُ الجنة[٦].

ورافعه عند الفراءِ قوله: ﴿تَجْرِى﴾ أَي: صفة الجنة أَنها ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾[٧]، ونحو هذا موجود في كلام العرب، وتأَول عليه قومٌ أَن ﴿مَّثَلُ﴾ مُقْحم، وأَن التقدير: الْجَنَّة الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي[٨].

قال القاضي أبو محمد: وفي هذا قلق.

---

(١) وهما سبعيتان، انظر: السبعة (ص: ٣٥٩)، والتيسير (ص: ١٣٣).

(٢) وهي شاذة، عزاها له النحاس في إعراب القرآن (٢/ ٢٢٥).

(٣) في نجيبويه: «أجسادهم».

(٤) ساقط من المطبوع وأحمد٣.

(٥) في نجيبويه ونور العثمانية: «قيل».

(٦) الكتاب لسيبويه (١/ ١٤٣).

(٧) معاني القرآن للفراء (٢/ ٦٥).

(٨) في المطبوع: «بها» بدل «تجري».

وقرأ علي بن أَبي طالب، وابن مسعود: (أمثال الجنة)[(١)].

وقد تقدم غير مرَّة معنى قوله: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، وقولُه: ﴿أُكُلُهَا﴾ معناه: ما يُؤْكل فيها.

والعُقْبى والعاقبة والعاقب: حال تتلو أُخرى قبلها، وباقي الآية بيِّن.

وقيل: التقدير في صدر الآية: مثل الجنة جنة تجري، قاله الزجاج[(٢)]، فتكون الآية على هذا ضَرْبَ مثل لجنة النعيم في الآخرة.

قوله عز وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ۚ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾﴾.

اختلف المتأولون فيمن عني بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾:

فقال ابن زيد: «عني به من آمن من أَهل الكتاب، كعبد الله بن سلام وشبهه».

قال القاضي أَبو محمد: والمعنى مَدْحُهم بأَنهم لشدة إِيمانهم يُسَرون بجميع ما يرد على النبي ﷺ من زيادات[(٣)] الشرع.

[وقال قتادة: «عني به جميع المؤمنين»[(٤)].

و﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ هو القرآن، و﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ يراد به جميع الشرع][(٥)].

---

(١) وهي شاذة، انظر عزوها لعلي في: معاني القرآن للفراء (٢/ ٦٥)، ولهما في مختصر الشواذ (ص: ٧١).

(٢) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٣/ ١٥٠).

(٣) في المطبوع وأحمد٣: «مباحات».

(٤) انظر القولين في: تفسير الطبري (١٦/ ٤٧٣-٤٧٤).

(٥) ساقط من المصرية.

وقالت فرقة: المراد بـ(الَّذِينَ آتَـيْناهُمُ الْكِتابَ) اليهود والنصارى، وذلك أَنهم لهم فرح بما ينزل على النبي ﷺ من تصديق شرائعهم / وذكر أَوائلهم. [٣/ ١٠٠]

قال القاضي أبو محمد: ويُضَعَّف هذا التأْويلُ بأَن[1] همهم به أَكثر من فرحهم فلا يُعْتد بفرحهم، ويُضعَّف أَيضاً بأَن اليهود والنصارى ينكرون بعضه، وقد فرَّق الله في هذه الآية بين الذين ينكرون بعضه وبين الذين آتيناهم الكتاب.

و﴿ٱلْأَحْزَابِ﴾ قال مجاهد: «هم اليهود والنصارى والمجوس»، وقالت فرقة: «هم أَحزاب الجاهلية من العرب»[2]، وأَمَرَه الله تعالى أَن يطَّرح اختلافهم، وأَن يصدع بأَنه إِنما أُمر بعبادة الله، وترْك الإِشراك، والدعاءِ إِليه، واعتقادِ المآب إِليه، وهو الرجوع عند البعث يوم القيامة.

وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾، المعنى: كما يسَّرنا هؤلاءِ للفرح وهؤلاءِ لإِنكار البعض، كذلك ﴿أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾، ويحتمل المعنى: والمؤمنون الذين آتيناهم الكتاب يفرحون به لفهمهم له وسرعة تَلَقِّيهم، ثم عدَّد النعمة بقوله: كذلك جعلناه، أَي: سَهَّلْنَاهُ عليهم في ذلك وتَفَضَّلْنَا.

و﴿حُكْمًا﴾ نصب على الحال، والحُكْم: ما تضمنه القرآن من المعاني، وجعله عَرَبِيّاً لمَّا كانت العبارة عنه بالعربية، ثم خاطب النبيَّ ﷺ محذِّراً من اتباع أَهواءِ هذه الفرق الضالة، والخطاب لمحمد ﷺ وهو بالمعنى يتناول المؤمنين إِلى يوم القيامة.

ووقف ابن كثير وحده على: ﴿وَاقِي﴾ و﴿هَادِي﴾ و﴿وَالِي﴾ بالياءِ.

قال أَبو عليّ: «والجمهور يقفون بغير ياءٍ، وهو الوجه»[3]، وباقي الآية بيّن.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ﴾ الآية، في صدر هذه الآية تأْنيس للنبي ﷺ،

---

(١) في نجيبويه: «بيان».

(٢) انظر القولين في: تفسير الطبري (١٦/ ٤٧٤).

(٣) انظر قراءة ابن كثير في: السبعة في القراءات (ص: ٣٦٠)، وتوجيهها في الحجة لأبي علي (٥/ ٢٣).

وردٌّ على المقترحين من قريش بالملائكة، المتعجبين من بعثة الله بشراً رسولاً، فالمعنى: إِنَّ بعثك يا محمد ليس ببدع، فقد تقدم هذا في الأُمم.

ثم جاءَ قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ الآية، لفظه لفظ النهي والزجر، والمقصد به إِنما هو النفي المحض، لكنه نفيٌ تأَكَّد بهذه العبارة، ومتى كانت هذه العبارة عن أَمر واقع تحت قدرة [المنهي عنه][1] فهي زجْرٌ، ومتى لم يقع ذلك تحت قدرته فهو نفيٌ محْضٌ[2] مؤَكَّد، و﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ معناه: إِلاَّ أَن يأْذن الله في ذلك.

وقوله: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ لفظ عام في جميع الأَشياءِ التي لها آجال، وذلك أَنه ليس كائن منها إِلا وله أَجل في بدئه وفي خاتمته، وكلُّ أَجل مكتوبٌ محصور، فأَخبر تعالى عن كتْبه الآجالَ التي للأَشياءِ عامة، وقال الضحاك والفراءُ: المعنى: «لكل كتاب أجل»[3].

قال القاضي أبو محمد: وهذا العكس غير لازم، ولا وجه له، إِذ المعنى تام[4] في ترتيب القرآن، بل يمكن هدم قولهما بأَن الأَشياءَ التي كتبها الله أَزليةً باقيةً ـ كتنعيم أَهل الجنة وغيره ـ يوجد كتابها لا أَجل له.

وقوله: ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾، قرأَ نافع، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: ﴿وَيُثَبِّت﴾ بشد الباءِ، وقرأَ ابن كثير، وأَبو عمرو، وعاصم: ﴿وَيُثْبِتُ﴾ بتخفيفها[5].

وقد تخبط[6] الناس في معنى هذه الألفاظ، والذي يتخَلَّص به مشكلها أن نُقعِّد[7] أَن الأَشياءَ التي قدَّرها الله تعالى في الأَزل، وعَلِمها بحالٍ ما، لا يصحُّ فيها محْوٌ ولا تبديل،

---

(١) في نجيبويه: «النهي».

(٢) «محض»: ساقط من المطبوع.

(٣) معاني القرآن للفراء (٢/ ٦٥)، وقول الضحاك في تفسير الطبري (١٦/ ٤٧٦).

(٤) في نجيبويه: «قائم»، وفي الهامش: «تام» مع الإشارة إلى أنها من نسخة أخرى.

(٥) وهما سبعيتان، انظر التيسير (ص: ١٣٤)، والسبعة في القراءات (ص: ٣٥٩).

(٦) في هامش نجيبويه: «واختلف» مع الإشارة إلى أنه من نسخة أخرى.

(٧) في المطبوع وأحمد٣: «يتلخَّص من مسلكها»، وسقط «أن نقعد» من المطبوع ونجيبويه، وفي أحمد٣: «نعتقد».

وهي التي ثبتت في أُمِّ الْكِتابِ، وسبق بها القضاءُ، وهذا مروي عن ابن عباس[١] وغيره من أَهل العلم، وأَما الأَشياءُ التي قد أَخبر الله تعالى أَنه يبدل فيها وينقل كعفو الذنوب بعد تقريرها، وكنَسْخ آية بعد تلاوتها واستقرارِ حكمها، ففيها يقع المحو والتَّثبيت فيما يقيده الحفظة ونحو ذلك، وأَما إِذا رُدَّ الأَمر إِلى القضاءِ والقدر فقد محا الله ما محا وثبَّت ما ثبَّت، وجاءَت العبارة مستقبَلة؛ لمجيء[٢] الحوادث وهذه الأمور فيما يستأْنف من الزمان، فينتظر البشر مما يمحو أَو ما يثبت، وبحسب ذلك خوفهم ورجاؤُهم ودعاؤُهم.

وقالت فرقة منهم الحسن: «هي في آجال بني آدم، وذلك أَن الله تعالى في ليلة القدر ـ وقيل: في ليلة نصف شعبان ـ يكتب آجال الموتى، فيُمْحى ناس من ديوان الأَحياءِ ويُثْبَتون في ديوان الموتى»[٣].

وقال قيس بن عُباد: «العاشر من رجب هو يوم يمحو الله ما يشاءُ ويثبت»[٤].

قال القاضي أبو محمد: وهذا التخصيص في الآجال وغيرها لا معنى له، وإِنما يحسن من الأَقوال هنا ما كان عامّاً في جميع الأَشياءِ، فمن ذلك أَن يكون معنى الآية: إِن الله تعالى يغير الأُمور عن أَحوالها، أَعني: ما من شأْنه أَن يُغَيَّر على ما قدمناه، فيمحوه من تلك الحالة ويثبته في التي نقله إِليها.

ورُوي عن عُمر بن الخطاب رضي الله عنه، وعن عبد الله بن مسعود أَنهما كانا يقولان في دعائهما: «اللهم إِن كنت كتبتنا في ديوان الشقاوة فامحنا وأَثبتنا في ديوان السعادة، فإِنك تمحو ما تشاءُ وتثبت»[٥].

---

(١) ضعيف، أخرجه الطبري (١٦/ ٤٧٩) من طريق: ابن أبي ليلى، عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، وفيه: إلا الشقاء والسعادة، والموت والحياة. وابن أبي ليلى هو محمد بن عبد الرحمن، وكان سيئ الحفظ جداً.

(٢) في المطبوع: «لمحي»، بالحاء، وعلق عليه في الهامش: «يقال: محا يمحو محواً ومحياً».

(٣) تفسير الطبري (١٦/ ٤٨٦)، ومختصراً، وليس فيه ذكر النصف من شعبان.

(٤) تفسير الطبري (١٦/ ٤٨٩)، وفي نور العثمانية: «قيس بن عباس».

(٥) أثر عمر أخرجه الطبري (١٦/ ٤٨١) من طرق عن أبي حكيمة واسمه عصمة، عن أبي عثمان =

قال القاضي أبو محمد: وهذا دعاءٌ في غفران الذنوب وعلى جهة الجزع منها، أَي: اللهم إِن كنا شقينا بمعصيتك، وكُتبت علينا ذنوبٌ وشقاوة بها، فامحها عنا بالمغفرة والطاعة، وفي لفظ عمر في بعض الروايات بعضٌ[1] من هذا، ولم يكن دعاؤُهما البَتَّة في تبديل سابق القضاءِ، ولا يُتأَوّل عليهما ذلك.

وقيل: إِن هذه الآية نزلت لأَن قريشاً لما سمعت قول الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ قالوا: ليس لمحمد في هذا الأَمر قدرة ولا حظٌّ، فنزلت: ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾ أَي: ربما أَذن الله من ذلك فيما[2] تكرهون بعد أَن لم يكن يأذن.

وحكى الطبري عن ابن عباس أَنه قال: معنى الآية: يمحو الله ما يشاءُ ويثبت من أُمور عباده، إِلا السعادة والشقاوة والآجال فإِنه لا محو فيها[3].

قال القاضي أبو محمد: وهذا نحو ما أَصَّلناه أَولاً في الآية.

وحكي عن فرقة أَنها قالت: يمحو الله ما يشاءُ ويثبت من كتاب، حاشى أَمَّ[4] الكتاب الذي عنده الذي لا يغير منه شيئاً، وقالت فرقة: معناه: يمحو كل ما يشاءُ ويثبت كل ما أَراد، ونحو هذه الأَقوال التي هي سهلة المعارضة.

وأَسند الطبري عن إِبراهيم النَّخَعي أَن كعباً قال لعمر بن الخطاب: يا أَمير المؤمنين، لولا آية في كتاب الله لأَنبأْتك بما هو كائن إِلى يوم القيامة، قال: وما هي؟ قال: قوله تعالى:

= النهدي، أن عمر بن الخطاب قال بنحوه. وأبو حكيمة قال أبو حاتم: محله الصدق. وذكره البخاري وذكر له هذا الأثر، فكأنه يعرف به.

وأثر ابن مسعود أخرجه الطبري كذلك عقب أثر عمر من طريق: خالد الحذاء، عن أبي قلابة، عن ابن مسعود، وأبو قلابة كثير الإرسال ولا يعرف له سماع من ابن مسعود، ورواه بنحوه عبد الله بن الإمام أحمد في زوائد الزهد ص **٣٥٨** من قول أبي وائل شقيق بن سلمة.

(١) في نجيبويه: «لفظ».

(٢) في المطبوع وأحمد٣: «كما».

(٣) سبق قريباً أنه رواه الطبري (١٦/ ٤٧٩).

(٤) في الأصل: «أمر».

﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾[١]، وذكر أَبو المعالي في «التلخيص» أَن علي بن أبي طالب رضي الله عنه هو الذي قال هذه المقالة المذكورة عن كعب[٢].

قال القاضي أبو محمد: وذلك عندي لا يصح عن علي.

[٣/ ١٠١] واختلفت أَيضاً / عبارة المفسرين في تفسير ﴿أُمُّ الْكِتَابِ﴾ فقال ابن عباس: هو الذِّكر، وقال كعب: هو علم الله ما هو خالق وما خَلْقُه عاملون[٣].

قال القاضي أبو محمد: وأَصوب ما يُفَسَّر به ﴿أُمُّ الْكِتَابِ﴾ أنه ديوان[٤] الأمور المجزومة[٥]، التي قد سبق القضاءُ فيها بما هو كائن، وسبق أَلَّا تُبَدَّل، ويبقى المحو والتثبيت في الأُمور التي سبق في القضاءِ أَن تُبدل وتُمحى وتثبت، قال نحوه قتادة[٦].

وقالت فرقة: «معنى ﴿أُمُّ الْكِتَابِ﴾: الحلال والحرام»، وهذا قول الحسن ابن أبي الحسن[٧].

قوله عز وجل: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤١﴾ وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴿٤٣﴾﴾.

---

(١) تالف، أخرجه الطبري (١٦/ ٤٨٤) وفي إسناده: أبو حمزة وهو ميمون الأعور التمار، وهو ذاهب الحديث.

(٢) التلخيص في أصول الفقه (٢/ ٤٦٩).

(٣) أثر ابن عباس ضعيف، أخرجه الطبري (١٦/ ٤٩١) بإسناد معضل أو منقطع، وانظر قول كعب كذلك في نفس الموضع.

(٤) في نجيبويه والحمزوية: «كتاب».

(٥) في أحمد٣: المخزونة، وفي المطبوع: المحدثة.

(٦) عبارة الطبري (١٦/ ٤٩٠): عن قتادة قوله: ﴿وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾، قال: جملة الكتاب وأصله.

(٧) نقله عنه الطبري (١٦/ ٤٩٠).

(إِنْ) شرط دخلت عليها (مَا) مؤكِّدة[١]، وهي قبل الفعل، فصارت بعدُ في ذلك بمنزلة اللام المؤكدة في القسَم التي تكون قبل الفعل في قولك: والله لتخرجنَّ، فلذلك يحسن أَن تدخل النون الثقيلة في قولك: ﴿نُرِيَنَّكَ﴾ لحلولها هنا محل اللام هناك، ولو لم تدخل «ما» لما جاز ذلك إِلا في الشِّعر.

وخصَّ البعض بالذكر إِذ مفهومٌ أَن الأَعمار تقصر عن إِدراك جميع ما تأْتي به الأَقدار مما تُوعِّد به الكفارُ، وكذلك[٢] أَعطى الوجودُ، أَلا ترى أَن أكثر الفتوح إِنما كان بعد النبي ﷺ.

و﴿أَوْ﴾ عاطفة، وقوله: ﴿فَإِنَّمَا﴾ جواب الشرط، ومعنى الآية: إِنْ نبقك يا محمد لترى، أَو نتوفَّينَّك، فعلى كلا الوجهين إِنما يلزمك البلاغ فقط.

وقوله: ﴿نَعِدُهُمْ﴾ يحتمل أَن يريد به الـمَضارَّ التي توعَّد الله بها الكفار، فأطلق فيها لفظة الوعد لمَّا كانت تلك المضَارّ معلومة مصرحاً بها، ويحتمل أَن يريد الوعد لمحمد في إِهلاك الكفرة، ثم أَضاف الوعد إِليهم لمَّا كان في شأْنهم.

والضمير في قوله: ﴿يَرَوْاْ﴾ عائد على كفار قريش، وهم المتقدم ضميرهم في قوله: ﴿نَعِدُهُمْ﴾، وقوله: ﴿نَأْتِي﴾ معناه: بالقدرة والأَمر، كما قال الله تعالى: ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾ [النحل: ٢٦].

و﴿ٱلْأَرْضَ﴾ يريد به اسم الجنس، وقيل: يريد أَرض الكفار المذكورين.

قال القاضي أبو محمد: وهذا بحسب الاختلاف في قوله: ﴿نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾.

وقرأَ الجمهور: ﴿نَنقُصُهَا﴾ وقرأَ الضحاك: (نُنَقِّصُهَا)[٣].

---

(١) «مؤكدة»: سقطت من المطبوع.

(٢) وقع على هذه الكلمة تضبيب في الأصل.

(٣) وهي شاذة، انظر عزوها له ولعطية في: الشواذ للكرماني (ص: ٣٥٧).

وقوله: ﴿مِنۡ أَطۡرَافِهَا﴾، مَنْ قال: إِنها أَرض الكفار المذكورين[١]، قال: معناه: أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نأْتي الأرض[٢] أَرض هؤلاءِ بالفتح عليك فننقصها بما يدخل في دينك من القبائل والبلاد المجاورة لهم، فما يؤمِّنهم أَن نمكِّنك منهم أَيضاً كما فعلنا بمجاوريهم؟ قاله ابن عباس[٣]، والضحاك[٤].

قال القاضي أبو محمد: وهذا القول لا يتأَتَّى إِلا بأَن يُقدّر نزول هذه الآية بالمدينة.

ومن قال: إِن الأَرْضَ اسم جنس، جعل الانتقاص من الأَطراف بتخريب العمران الذي يُحِلُّه الله بالكفرة، وهذا قول ابن عباس أَيضاً[٥] ومجاهد[٦].

وقالت فرقة: الانتقاص هو بموت البَشَر، وهلاك الثمرات، ونقص البركة، قاله ابن عباس أَيضاً[٧] والشعبي، وعكرمة، وقتادة[٨].

وقالت فرقة: الانتقاص بموت العلماءِ والأَخيار. قال ذلك ابن عباس أَيضاً[٩] ومجاهد[١٠]، وكلُّ ما ذكر يدخل في لفظ الآية.

والطرف من كل شيءٍ: خياره، ومنه قول علي بن أَبي طالب رضي الله عنه: «العلوم

(١) ساقطة من نجيبويه.
(٢) زيادة من نجيبويه.
(٣) أخرجه الطبري (١٦/ ٤٩٣) من طريق: هشيم، عن حصين، عن عكرمة، ومن طريق: عطية العوفي، كلاهما عن ابن عباس. وهشيم مدلس وعطية ضعيف، وقد رجح الطبري هذا القول في تفسير الآية.
(٤) انظر: تفسير الطبري (١٦/ ٤٩٤)، ومعاني القرآن للنحاس (٣/ ٥٠٤)، وتفسير الثعلبي (٥/ ٣٠٠).
(٥) ضعيف، أخرجه الطبري (١٦/ ٤٩٥) من طريق: علي بن عاصم، عن حصين بن عبد الرحمن، عن عكرمة، عن ابن عباس، وعلي بن عاصم يخطئ ويصر، وتكلموا فيه كثيراً.
(٦) نقله عنه تفسير الطبري (١٦/ ٤٩٥)، وابن المنذر كما في الدر المنثور (٨/ ٤٨١).
(٧) أخرجه الطبري (١٦/ ٤٩٥) من طريق: علي بن أبي طلحة عن ابن عباس.
(٨) نقله في جامع بيان العلم (١/ ٣٠٤) عن عكرمة والشعبي، والطبري (١٦/ ٤٩٦) عن الشعبي بمعناه، وعن قتادة من روايته عن عكرمة.
(٩) ضعيف، أخرجه الطبري (١٦/ ٤٩٧) بسند فيه طلحة بن عمرو، وهو الحضرمي، متروك.
(١٠) نقله عنه تفسير الطبري (١٦/ ٤٩٧)، والنحاس في معاني القرآن (٣/ ٥٠٥).

أَودية، في أَي وادٍ أَخذت منها حسرتَ[١]، فخذوا من كل شيءٍ طرفاً»[٢]، يعني خياراً.

وجملة معنى هذه الآية: الموعظة وضرْب المثل، أَي: أَلَم يروا فيقعَ منهم اتِّعاظ.

وأَليق ما يقصد لفظ الآية هو تنقص الأَرض بالفتوح على محمد.

وقوله: ﴿لَا مُعَقِّبَ﴾ أَي: لا رادَّ ولا مناقض يتعقَّب أَحكامه، أَي: ينظر في أَعقابها، أَمصيبةٌ هي أَم لا؟، وسُرْعَة حساب الله واجبة لأَنها بالإِحاطة وليست بعدد.

والـمَـكْرُ: ما يتمرس بالإِنسان ويسعى عليه، علم بذلك أَو لم يعلم، فوصف الله تعالى الأُمم السَّالفة[٣] التي سعت على أَنبيائها، كما فعلت قريش بمحمد ﷺ بالْمَكْر، وقوله: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا﴾، أَي العقوبات التي أَحلَّها بهم، وسمَّاها مكراً على عرف تسمية المعاقبة باسم الذنب، كقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة: ١٥]، ونحو هذا.

وفي قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ تنبيهٌ وتحذيرٌ في طيِّ إِخبار، ثم توعدهم تعالى بقوله: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾.

وقرأَ نافع، وابن كثير، وأَبو عمرو: ﴿الْكافر﴾ على الإِفراد، وهو اسم الجنس.

وقرأَ عاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: ﴿ٱلْكُفَّٰرُ﴾[٤].

وقرأَ عبد الله بن مسعود: (الكافرون)، وقرأَ أُبيّ بن كعب: (الذين كفروا)[٥]، وتقدم القول في ﴿عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ قبل هذا.

---

(١) في هامش التركية: «أي: انقطعتَ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَهُوَ حَسِيرٌ﴾»، وفي نجيبويه: «جرت»، وفي أحمد٣ والمطبوع: «خسرت».

(٢) لم أقف عليه مسنداً، ومثله الهداية لمكي (٥/ ٣٧٦١)، إعراب القرآن للنحاس (٢/ ٢٢٦)، بلفظ: العلم أودية.

(٣) السالفة، من المطبوع وأحمد٣.

(٤) وهما سبعيتان، انظر: التيسير (ص: ١٣٤)، السبعة (ص: ٣٥٩).

(٥) وهما شاذتان، انظرهما في: تفسير الطبري (١٦/ ٥٠٠).

وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ الآية، المعنى: ويُكذبك يا محمد هؤلاءِ الكفرة، ويقولون: لسْت مرسلاً من الله، وإِنما أَنت مُدَّع، قل لهم: ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾، و﴿بِٱللَّهِ﴾ في موضع رفع، التقدير: كفى الله، و(شهيد) بمعنى: شاهد.

وقوله: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾، قيل: يريد اليهود والنصارى الذين عندهم الكتب الناطقة[1] برفض الأصنام وتوحيد الله تعالى، وقال قتادة: «يريد مَنْ آمن منهم، كعبد الله بن سلام، وتميم الدّاري، وسلمان الفارسي، الذين يشهدون بتصديق محمد ﷺ»[2]، وقال مجاهد: يريد عبد الله بن سلام خاصة، قال هو: فيَّ نزلت: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾[3].

قال القاضي أبو محمد: وهذان القولان الأَخيران لا يستقيمان إِلا أَن تكون الآية مدنية، والجمهور على أَنها مكية، قاله سعيد بن جبير، وقال: «لا يصح أَن تكون الآية في عبد الله بن سلام لكونها مكية، وكان يقرأُ: (وَمِنْ عِنْدِهِ عُلِمَ الْكِتابُ)»[4].

[وقيل: يريد جنّياً[5] معروفاً، حكاه النقاش، وهو قول شاذ ضعيف][6].

وقيل: يريد الله تعالى، كأَنه استشهد بالله تعالى، ثم ذكره بهذه الأَلفاظ التي

---

(١) في المطبوع: «السابقة».

(٢) نقله عنه السمعاني في تفسيره (٣/ ١٠١)، ولفظ: «قال قتادة» سقط من المطبوع وأحمد٣.

(٣) غريب، قال ابن كثير في التفسير (٤/ ٤٧٣): وهذا القول غريب، لأن هذه الآية مكية، وعبد الله بن سلام إنما أسلم في أول مقدم النبي ﷺ المدينة، والأظهر في هذا ما قاله العوفي عن ابن عباس قال: هم من اليهود والنصارى، وكان سعيد بن جُبَيْر ينكر أن يكون المراد بها عبد الله بن سلام، ويقول: هي مكية.اهـ. وسيأتي من قول المصنف.

(٤) سنن سعيد بن منصور (٥/ ٤٤٢)، وتفسير الثعلبي (٥/ ٣٠٢)، وتفسير الطبري (١٦/ ٥٠٦)، والهداية لمكي (٥/ ٣٦٦٠).

(٥) في نجيبويه: «جنسا».

(٦) ساقط من المطبوع، وقول النقاش لم أجد من نقله عنه.

تتضمن صفة تعظيم، ويعترض هذا القول بأَن فيه عطف الصفة على الموصوف، وذلك لا يجوز، وإِنما تعطف الصفات بعضها على بعض.

ويحتمل أَن تكون (مَنْ) في موضع رفع بالابتداءِ، والخبرُ / محذوف، تقديره: أَعْدَلُ أَو أَمضى قولاً، ونحو هذا مما يدل عليه لفظ: ﴿شَهِيدًا﴾، ويراد بذلك الله تعالى. [٣/ ١٠٢]

وقرأ علي بن أَبي طالب، وأُبَيٌّ بن كعب، وابن عباس، وابن جبير، وعكرمة، ومجاهد، والضحاك، والحكم، وغيرهم: (وَمِنْ عندِه علمُ الكتاب) بكسر الميم مِنْ (مِنْ) وخفض الدال، قال أَبو الفتح: ورُويت عن النبي ﷺ[١].

وقرأَ علي بن أَبي طالب أَيضاً، والحسن، وابن السميفع: (وَمِنْ عندِه عُلِمَ الكِتَابُ) بكسر الميم [من (مِن)][٢]، والدال، وبضم العين من (عُلِم) [وكسر اللام][٣] على أنه مفعول لم يسم فاعله ورفع (الكتابُ)[٤].

وهذه القراءَات يرادُ فيها الله تعالى، لا يحتمل لفظها غير ذلك، [والله المعين برحمته][٥].

---

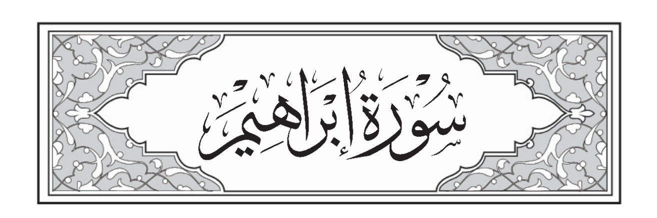
(١) لا يثبت، أخرجه الطبري (١٦/ ٥٠٦) من حديث هارون الأعور، عن الزهري، عن سالم، عن ابن عمر؛ أن رسول الله ﷺ قرأها كذلك، ثم قال: وهذا خبرٌ ليس له أصلٌ عند الثِّقات من أصحاب الزهريّ، وأخرجه أبو يعلى في مسنده (٩/ ٤٢٤) من طريق هارون بن موسى هذا، عن سليمان بن أرقم ـ وهو ضعيف ـ عن الزهري، عن سالم، كذلك. ولا يثبت. قاله ابن كثير في التفسير (٤/ ٤٧٤).

(٢) ساقط من المطبوع.

(٣) من المطبوع، وأحمد٣، وفيهما: بدل «على أنه مفعول»: «على ما».

(٤) وهما شاذتان، انظرهما مع التوجيه في: المحتسب (١/ ٣٥٨).

(٥) ساقط من أحمد٣ ومن المطبوع، وفيه زيادة: «تم تفسير سورة الرَّعد والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد رسول الله وعلى آله وصحبه»، وفي التركية: «تم الجزء من كتاب تفسير القرآن العظيم لابن عطية بحمد الله وعونه ومنه وكرمه في اليوم الخامس من شهر جمادى سنة عشر وسبع مئة...».



هذه السورة مكية إلاَّ آيتين، وهي قوله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾ [إبراهيم: ٢٨] إلى آخر الآيتين: ذكره مكي والنقاش[١].

قوله عز وجل: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٣﴾﴾.

تقدم القول في الحروف المقطعة في أَوائل السور [والاختلاف في ذلك][٢].

و﴿كِتَٰبٌ﴾ رفع على خبر ابتداءٍ مضمر، تقديره: هذا كتابٌ، وهذا على أَكثر الأَقوال في الحروف المقطعة، وأَما مَنْ قال فيها: إِنها كناية عن حروف المعجم، فـ﴿كِتَٰبٌ﴾ مرتفع بقوله: ﴿الٓر﴾، أَي: هذه الحروف كتاب أَنزلناه إِليك.

وقوله: ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ في موضع الصفة للكتاب، قال القاضي ابن الطيب، وأَبو المعالي، وغيرهما: إِن الإِنزال لم يتعلق بالكلام القديم الذي هو صفة الذات، لكن بالمعاني التي أَفهمها اللَّهُ تعالى جبريل عليه السلام من الكلام[٣].

---

(١) الهداية إلى بلوغ النهاية (٥/ ٣٧٦٧)، والنقاش غير متوفر.

(٢) ساقط من المطبوع وأحمد٣.

(٣) تقدم بيان مذهب السلف في كلام الله تعالى، وانظر: إعجاز القرآن للباقلاني (ص: ٢٦٠)، والتلخيص في أصول الفقه (٢/ ١٧٢).

وقوله: ﴿لِتُخۡرِجَ﴾ أَسند الإِخراج إِلى النبي عليه السلام من حيث له فيه المشاركة بالدعاءِ والإِنذار، وحقيقته إِنما هي لله تعالى بالاختراع والهداية، وفي هذه اللفظة تشريف للنبي عليه السلام، وعمَّ النَّاسَ إِذ هو مبعوث إِلى جميع الخلق، ثبت ذلك بآيات القرآن التي اقترن بها ما نُقل تواتراً من دعوته العالَمَ كلَّه، ومن بعثته[١] ﷺ إِلى الأحمر والأسود، علم ذلك الصحابة مشاهدة، ونقل عنهم تواتراً، فعلم قطعاً والحمد لله.

واستعير الظُّلُمات للكفر والنُّور للإِيمان تشبيهاً.

وقوله: ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ﴾ أَي: بعلمه وقضائه وتمكينه لهم.

و﴿إِلَىٰ﴾ في قوله: ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ﴾ بدل من الأولى في قوله: ﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾، أَي: الْمحَجَّة المؤدية إِلى طاعة الله والإِيمان به ورحمته، فأَضافها إِلى الله بهذه التعلقات[٢].

و﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ صفتان لائقتان في هذا الموضع، فالعزَّةُ من حيث الإِنزال للكتاب، وما في ضمن ذلك من القدرة، واستيجابُ الحمد من جهة بثّ هذه النعم على العالم في نصب[٣] هدايتهم.

وقرأَ نافع وابن عامر: ﴿اللهُ الذي﴾ برفع اسم الله على القطع والابتداء، وخبره ﴿ٱلَّذِى﴾، ويصحُّ رفعه على تقدير: هو الله الذي، وقرأَ الباقون بكسر الهاء على البدل من قوله: ﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾، وروى الأَصمعي وحده هذه القراءَة عن نافع[٤].

وعبَّر بعض الناس عن هذا بأَن قال: التقدير: إِلى صراط اللَّهِ العزيز الحميد، ثم قدم الصفات وأَبدل منها الموصوف.

---

(١) في المطبوع وأحمد٣ ونور العثمانية: «وفي بعثه».

(٢) في المطبوع وأحمد٣: «المتعلقات».

(٣) ليست في المطبوع.

(٤) وهما سبعيتان، انظر: التيسير (ص: ١٣٤)، ورواية الأصمعي ليست من طرقه لكنها في السبعة (ص: ٣٦٢).

قال القاضي أبو محمد: وإذا كانت هكذا فليست بعْدُ بصفات على طريقة صناعة النحو، وإن كانت بالمعنى صفاته ذُكر معها أو لم يذكر.

وقوله: ﴿وَوَيْلٌ﴾ معناه: وشدَّةٌ وبلاءٌ ونحوه، أي: يلقونه من عذابٍ شديدٍ ينالهم الله به يوم القيامة، ويحتمل أن يريد: في الدنيا، هذا معنى قوله: (وَيْلٌ).

وقال بعض الناس: (وَيْلٌ) اسم واد في جهنم يسيل من صديد أهل النار[١].

قال القاضي أبو محمد: وهذا خبر يحتاج إلى سند يقطع العذر، ثم [لو كان هكذا لَقَلِقَ][٢] تأْويل هذه الآية لقوله: ﴿مِنْ عَذَابٍ﴾، وإنما يحسن تأْويله في قوله: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ [المطففين: ١] وما أشبهه، وأَما هنا [فلا يحسن وإنما][٣] يحسن في (ويْل) أن يكون مصدراً، ورفعه على نحو رفعهم «سَلَامٌ عَلَيْكَ» وشبهه.

و﴿ٱلَّذِينَ﴾ بدلٌ من ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، وقوله: ﴿يَسْتَحِبُّونَ﴾ من صفة الكافرين الذين توعدهم قَبْلُ، والمعنى: يؤثرون دنياهم وكفرهم وترك الإذعان للشرع على رحمة الله وسكنى جنَّته. وقوله: ﴿وَيَصُدُّونَ﴾ يحتمل أن يتعدى وأن يقف، والمعنى على كلا الوجهين مستقل، تقول: صدَّ زيد وصدَّ[٤] غيرَه، ومن تعديته قول الشاعر:

صَدَدْتِ الْكَأْسَ عَنَّا أُمَّ عَمْرٍو ... وكانَ الْكَأْسُ مجْرَاها الْيَمِينَا[٥] [الوافر]

---

(١) روي مرفوعاً ولا يصح، روي نحو هذا الكلام مرفوعاً من حديث دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد عند أحمد (٣/ ٧٥)، والطبري (٢/ ٢٦٩)، وابن حبان (٧٤٦٧)، والحاكم (٢/ ٥٨٣) وغيرهم، ورفعه منكر، قاله ابن كثير (١/ ٣١٢)، ومن حديث عثمان عند الطبري وحده (٢/ ٢٦٨) وقال ابن كثير: غريب جدّاً. وروي بأسانيد أخر لا يصح منها شيء، وروي نحوه أيضاً من طريق: سفيان الثوري عن زياد بن فياض، عن أبي عياض من قوله. أخرجه الطبري (٢/ ٢٦٧-٢٦٨)، ومن طريق: ابن عجلان، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار كذلك، أخرجه ابن أبي حاتم (١/ ٢٠٥) وروي عن غير واحد مثله، يراجع الدر المنثور (١/ ٢٠٢).

(٢) في نجيبويه ونور العثمانية بدلاً منه: «لما كان هذا القلق».

(٣) من نجيبويه، وفي بقية النسخ بدله: «فإنما».

(٤) في المطبوع: «صده».

(٥) البيت لعمرو بن كلثوم من معلقته المشهورة، كما تقدم في تفسير الآية: (٣٤) من سورة التوبة.

و﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ طريقة هداه وشرعه الذي جاءَ به رسوله.

وقوله: ﴿وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًا﴾ يحتمل ثلاثة أَوجه من التأْويل: أَظهرها أَن يريد: ويطلبونها في حالة عِوَج منهم، ولا يُراعى إِن كانوا بزعمهم على طريق نظر وبسبيلِ اجتهاد واتباع الأَحسن، فقد وصف الله حالهم تلك بالعوج، وكأَنه قال: ويصدُّون عن سبيل الله التي هي بالحقيقة سبيله(١)، ويطلبونها على عوج في النظر.

والتأْويل الثاني أَن يكون المعنى: ويطلبون لها عوجاً يظهر فيها، أَي: يسعون على الشريعة بأَقوالهم وأَفعالهم، فـ﴿عِوَجًا﴾ مفعول.

والتأْويل الثالث أَن تكون اللفظة من البغْي على معنى: ويبغون عليها أَو فيها عوجاً، ثم حذف الجار، وفي هذا بعض القلق.

وقال كثير من أَهل اللغة: العِوَجُ ـ بكسر العين ـ في الأُمور وفي الدِّين، وبالجملة في المعاني، والعَوَجُ ـ بفتح العين ـ في الأَجرام(٢).

قال القاضي أبو محمد: ويعترض هذا القانونُ بقوله تعالى: ﴿ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفۡصَفًا ١٠٦ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمۡتًا ﴾ [طه: ١٠٦-١٠٧]، وقد تتداخل اللفظة مع الأُخرى. ووصْف الضلال بالبُعد عبارة عن تعمُّقهم فيه وصعوبة خروجهم منه.

قوله عز وجل: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٤ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرۡهُم / بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ٥﴾. [٣/ ١٠٣]

هذه الآية طعن ورَدٌّ على الـمُسْتَغْرِبين أَمْر محمد ﷺ، أَي: لستَ يا محمد ببدع

(١) في المطبوع: «نبيلة».
(٢) تقدم مثله عن أبي عبيدة، في تفسير الآية (١٠٠) من سورة آل عمران.

من الرسل، وإِنما أَرسلناك لتخرج الناس من الظلمات إِلى النور على عادتنا في رسلنا في أَن نبعثهم بأَلسنة أُممهم ليقع التكلم بالبيان والعبارة المتمكنة، ثم يكون سائر[(١)] الناس من غير أَهل اللسان عيالاً في التَّبْيين على أَهل اللسان الذي يكون للنبي، وجعل الله العلة في إِرسال الرسل بأَلسنة قومهم طلب البيان، ثم قطع قوله: ﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ﴾، أَي: أَن النبي إِنما غايته أَن يُبلِّغ ويُبيِّن، وليس فيما كلف أَن يهدي ويضل، بل ذلك بيد الله ينفذ فيه سابق قضائه، وله في ذلك العزَّة التي لا تعارض، والحكمة التي لا تُعَلَّل، لا ربّ غيره.

قال القاضي أبو محمد: فإِن اعترض أَعجمي بأَن يقول: من أَين يبيّن هذا الرسولُ لي الشريعة وأَنا لا أَفهمه؟ قيل له: أَهل المعرفة باللسان يعبّرون لك[(٢)]، وفي ذلك كفايتك. فإِن قال: من أَين يتبيّن لي المعجزة وأَفهم الإِعجاز وأَنا لا أَفهم اللغة؟ قيل له: الحجة عليك إِذْعان أَهل الفصاحة والذين كانوا يُظَنُّ بهم أَنهم قادرون على المعارضة، وبإِذعانهم قامت الحجة على البشر، كما قامت الحجة في معجزة موسى بإِذعان السَّحرة، وفي معجزة عيسى بإِذعان الأَطباءِ.

واللِّسان في هذه الآية يُراد به اللغة.

وقرأَ أَبو السَّمَّال: ﴿بِلِسْنِ﴾ بسكون السِّين [دون ألف[(٣)]، كرِيْش ورياش، ويقال: لِسْن ولِسَانٌ في اللغة، فأَما العضو فلا يقال فيه: لِسْن بسكون السين][(٤)].

وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ﴾ الآية، آيات الله هي العصا، واليد، وسائر الآيات التِّسع[(٥)].

---

(١) في المطبوع: «تبايُن».

(٢) في نور العثمانية: «ذلك».

(٣) وهي شاذة، نسبها له في المحتسب (١/ ٣٥٨).

(٤) ساقط من الحمزوية.

(٥) وهي: الطوفان، والجراد، والقُمّل، والضفادع، والدَّم، والعصا، ويده البيضاءُ، والسنون، والنقص في الثمرات كما تقدم.

وقوله: ﴿أَنْ أَخْرِجْ﴾، تقديره: بأَن أَخرِج، ويجوز أَن تكون ﴿أَنْ﴾ مفسِّرةً لا موضع لها من الإِعراب، وأَما الظُّلمات والنُّور هنا فيحتمل أَن يراد بها: من الكفر إِلى الإِيمان، هذا على ظاهر أَمر بني إِسرائيل في أَنهم كانوا قبل بعث موسى فيهم أَشياعاً متفرقين في الدين؛ قوم مع القبط في عبادة فرعون، وكلهم على غير شيءٍ، وهذا مذهب الطبري، وحكاه عن ابن عباس(١)، وإِن صحَّ أَنهم كانوا على دين إِبراهيم وإِسرائيل(٢) ونحو هذا، فالظلماتُ: الذل والعبودية، والنور: العزَّة والدين والظهور بأَمر الله تعالى.

قال القاضي أبو محمد: وظاهر هذه الآية وأَكثر الآيات في رسالة موسى عليه السلام أَنها إِنما كانت إِلى بني إِسرائيل خاصَّةً في معنى الشرع لهم، وأَمرهم ونهيهم بفروع الديانة، وإِلى فرعون وأَشراف قومه في أَن ينظروا ويعتبروا في آيات موسى فيقرُّوا بالله ويؤمنوا به تعالى وبموسى ومعجزته، ويتحققوا نبوته، ويرسلوا معه بني إِسرائيل.

قال القاضي أبو محمد: ولا يترتب هذا منهم إِلا بالإِيمان به.

وأَمَّا أَن تكون رسالته إِليهم لمعنى اتِّباعه والدخول في شرعه فليس هذا بظاهر القصة، ولا كشف الغيب ذلك، أَلا ترى أن موسى خرج(٣) عنهم ببني إِسرائيل، فلو لم يُتَّبع لمضى بأُمته؟ وأَلا ترى أَنه لم يَدْعُ القبط بجملتهم وإِنما كان يحاور أُولي الأَمر؟ وأَيضاً فليس دعاؤُه لهم على حدّ دعاءِ نوح وهود وصالح أُممَهم في معنى كفرهم ومعاصيهم، بل في الاهتداءِ والتَّزكي(٤) وإِرسال بني إِسرائيل، ومما يؤيد هذا أَنه لو كانت دعوته لفرعون والقبط على حدّ دعوته لبني إِسرائيل فلمَ كان يطلب بأَمر الله أَن

---

(١) أخرجه الطبري (٦/ ٥١٨!) من طريق عطية العوفي عن ابن عباس.

(٢) في نجيبويه: «بني إسرائيل»، وفي حاشيته: «إبراهيم وإسرائيل»، وعليها علامة: «خ».

(٣) من هنا إلى بداية سورة الإسراء ساقط من الحمزوية، وهو الجزء السادس من المخطوط، ولا يزال مفقوداً.

(٤) في نجيبويه: «والتذكر».

يرسل معه بني إِسرائيل؟ بل كان يطلب أَن يؤمن الجميع ويتشَرَّعوا بشرعه ويستقرَّ الأَمر، وأَيضاً فلو كان مبعوثاً إِلى القبط لردَّه الله إِليهم حين أَغرق فرعون وجنوده، ولكن لم يكونوا أُمة له فلم يُرَدّ إِليهم.

قال القاضي أبو محمد: واحتجَّ من ذهب إِلى أَن موسى بُعث إِلى جميعهم بقوله تعالى في غير آية: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ [الأعراف: ١٠٣]، و﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ﴾ [النمل: ١٢]، والله أَعلم.

وقوله: ﴿وَذَكِّرْهُم﴾ الآية، أَمَرَ الله عزَّ وجلَّ موسى أَن يعظ قومه بالتهديد بِنقم الله التي أَحلَّها بالأُمم الكافرة قبلهم، وبالتَّعديد لنعمه عليهم في المواطن المتقدمة، وعلى غيرهم من أَهل طاعته، ليكون جَرْيُهُم على منهاج الذين أَنعم الله عليهم، وهربهم[1] من طريق الذين حلَّت بهم النقمات.

وعُبِّر عن النِّعم والنِّقم بالأَيام إِذْ هي في أَيَّـام، وفي هذه العبارة تعظيم هذه الكوائن الـمُذَكَّر بها، ومن هذا المعنى قولهم: يومٌ عصيب، ويوم عبوسٌ، ويوم بسَّام، وإِنما الحقيقة وصف ما وقع فيه من شِدَّة أَو سرور، وحكى الطبري عن فرقة أَنها قالت: أَيام الله: نِعَمُه، وعن فرقة أَنها قالت: أَيام الله: نِقَمُه[2].

قال القاضي أبو محمد: ولفظة الأَيام تعم المعنَـيَيْن، لأَن التذكير يقع بالوجهين جميعاً.

وقوله: ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ إِنما أَراد: لكل مؤمن ناظر لنفسه، فأَخذ من صفات المؤمن صفتين تجمع أَكثر الخصال، وتعم[3] أَجمل الأفعال.

---

(١) في نجيبويه: «هديهم»، وفي نور العثمانية: «طربهم».

(٢) انظر تفسير الطبري (١٦/ ٥٢٢).

(٣) في المطبوع: «تجمعان»، و«تعُمَّان»، وفي نجيبويه: «صفتين ثم يجمع الخصال»، وفي نور العثمانية: «أجل الأفعال»، بدل: «أجمل».

قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ۝٦ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ۝٧ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ۝٨ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ۝٩﴾.

هذا من التذكير بأيام الله في النعم، وكان يوم الإِنجاءِ عظيماً لعظم الكائن فيه.

وقد تقدم تفسير هذه الآية وقصصها بما يغني عن إعادته، غير أَن في هذه الآية زيادة الواو في قوله: ﴿وَيُذَبِّحُونَ﴾، وفي البقرة: ﴿يُذَبِّحُونَ﴾ [البقرة: ٤٩] بغير واو عطف، فهنالك فسر سوءَ العذاب بأنه التذبيح والاستحياءُ، وهنا دلَّ بسوء العذاب على أَنواع غير التذبيح والاستحياءِ، وعطف التذبيح والاستحياءَ عليها.

وقرأَ ابن محيصن: (وَيَذْبَحُونَ) بفتح الياءِ والباءُ مخففة[1].

والْبَلاَءُ في هذه الآية يحتمل أَن يريد به المحنة، ويحتمل أَن يريد به الاختبار، والمعنى متقارب.

و﴿تَأَذَّنَ﴾ بمعنى: آذن[2]، أَي: أَعلم، وهو مثل: أَكْرم وتكرم /، وأَوْعد وتوعَّد، وهذا الإِعلام منه مقترن بإِنفاذٍ وقضاءٍ قد سبقه، وما في «تَفَعَّل» هذه من المحاولة والشروع إِذا أُسندت إِلى البشر منفيٌّ في جهة الله تعالى، وأَما قول العرب: [٣/ ١٠٤]

---

(١) انظرها في: الشواذ للكرماني (ص: ٢٥٨)، وتقدم مثلها عن المحتسب والنحاس في آية البقرة.

(٢) ضبطت في المطبوع: «أَذَّن»، والمعنى لا يساعد على ذلك.

تَعلَّمْ، بمعنى: اعْلَمْ، فمرفوضُ الماضي على ما ذكر يعقوب[١]، كقول الشاعر:

تَعَلَّمْ أَبيْتَ اللَّعْنَ ....[٢] .... [الطويل]

ونحوه.

وقال بعض العلماءِ: الزِّيادة على الشكر ليست في الدنيا، وإِنما هي من نعم الآخرة، والدنيا أَهون من ذلك.

قال القاضي أبو محمد: وصحيح جائز أَن يكون ذلك، وأَن يزيد الله أيضاً المؤمن على شكره من نعم الدنيا، وأَن يزيده أَيضاً منهما جميعاً، وفي هذه الآية تَرْجية وتخويف، ومما يقضي بأَن الشكر متضمن الإِيمان أَنه عادَلَه بالكفر، وقد يحتمل أَن يكون الكفر كفر النعم لا كفر الجحد.

وحكى الطبري عن سفيان وعن[٣] الحسن أَنهما قالا: «معنى الآية: لئن شكرتم لأَزيدنكم من طاعتي»، وضعفه الطبريّ[٤]، وليس كما قال، بل هو قويٌّ حسَنٌ فتأَمله.

قال القاضي أبو محمد وقوله: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ﴾ هو جواب قَسَم يتضمنه الكلام.

وقوله: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ الآية في هذه الآية تحقيرٌ للمخاطبين بشرط كفرهم وتوبيخٌ، وذلك بيِّن من الصفتين اللتين وصف بهما نفسه تعالى في آخر الآية.

وقوله: ﴿لَغَنِيٌّ﴾ يتضمن تحقيرهم وعظمته، [إذ له الكمال التام على الإطلاق][٥].

---

(١) هو ابن السكيت، انظر كلامه في: الموضوع في إصلاح المنطق (١/ ٣٧٩).

(٢) تقدم التعليق عليه في تفسير الآية (١٦٧) من سورة الأعراف.

(٣) في نجيبويه وأحمد٣: «عن الحسن» دون واو.

(٤) انظر: تفسير الطبري (١٦/ ٥٢٧)، قال: ولا وجهَ لهذا القول يُفْهَم، لأنه لم يجرِ للطاعة في هذا الموضع ذكرٌ.

(٥) زيادة من الأصل ونجيبويه.

وقوله: ﴿حَمِيدٌ﴾ يتضمن توبيخهم، وذلك أَنه بصفة يستوجب[١] المحامد كلها دائماً[٢] كذلك في ذاته لم يزل ولا يزال، فكفركم أَنتم بإِلهٍ هذه حالُه غايةُ التخلف والخذلان.

وفي قوله أَيضاً: ﴿حَمِيدٌ﴾ ما يتضمن أَنه ذو آلاءٍ عليكم أَيها الكافرون به، كان يستوجب بها حمدكم، فكفركم به مع ذلك أَذهب في الضلال، وهذا توبيخ بيِّن.

وقوله: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾ الآية، هذا من التذكير بأَيَّام الله في النقم من الأُمم الكافرة.

وقوله: ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ من نحو قوله: ﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٨]، وفي مثل هذا قال رسول الله ﷺ: «كذب النَّسابون من فوق عدنان»[٣].

ورُوي عن ابن عباس أَنه قال: «كان بين زمن موسى وبين زمن نوح قرون ثلاثون لا يعلمهم إِلا الله»[٤].

وحكى عنه المهدوي أَنه قال: «كان بين عدنان وإِسماعيل ثلاثون أَباً لا يُعرفون»[٥].

قال القاضي أبو محمد: وهذا الوقوف على عدتهم بعيد، ونفْي العلم بها جملة أَصح، وهو ظاهر القرآن.

---

(١) في المطبوع ونجيبويه: «توجب».

(٢) جاءت هذه اللفظة في الأصل ونور العثمانية وأحمد٣: «دائم» بالرفع.

(٣) لا يصح، ولفظه: كان إذا انتسب لم يجاوز في نسبته معد بن عدنان بن أد، ثم يمسك ويقول: «كذب النسابون، قال الله تعالى: ﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾»، أخرجه: ابن سعد في الطبقات (١/ ٥٦) وابن عساكر في تاريخ دمشق (٣/ ٥٢) من طريق: الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، به، وهو إسناد ساقط كذب.

ثم أخرجه ابن سعد من طريق: إسرائيل عن أبي إسحاق عن عمرو بن ميمون عن عبد الله من قوله.

ولا يتبين سماع أبي إسحاق من عمرو، وعمرو لم يدرك ابن مسعود.

(٤) لم أجده.

(٥) لم أجده، وانظر: التحصيل للمهدوي (٣/ ٥٩٨).

واختلف المفسرون في معنى قوله تعالى: ﴿فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ بحسب احتمال اللفظ.

قال القاضي أبو محمد: والأَيدي في هذه الآية قد تُتَأَوّل بمعنى الجوارح، وقد تُتَأَوّل بمعنى أَيدي النعم، فما ذكر على أَن الأَيدي الجوارح أن يكون المعنى(١): رَدُّوا أَيدي أَنفسهم في أَفواه أَنفسهم عضّاً عليها من الغيظ على الرُّسل، ومبالغةً في التكذيب، هذا قول ابن مسعود(٢)، وابن زيد(٣)، وقال ابن عباس: عجبوا وفعلوا ذلك(٤).

والعض من الغيظ مشهور مِن البشر(٥)، وفي كتاب الله تعالى: ﴿عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِ﴾[آل عمران: ١١٩]، وقال الشاعر:

[المتقارب]
قَدْ أَفْنَى أَنَامِلَهُ أَزْمة ... فَأَضْحَى يَعَضُّ عَلَيَّ الْوَظِيفَا(٦)

وقال الآخر:

[الرجز]
لَوْ أَنَّ سَلْمَى أَبْصرَتْ تَخَدُّدي ... وَدِقَّةً في عَظْم سَاقِي ويَدِي
وَبُعْدَ أَهْلي وَجَفَاءَ عُوَّدِي ... عضَّتْ مِنَ الْوَجْدِ بِأَطْرَافِ الْيَدِ(٧)

ومما ذُكر أَن يكون المعنى أَنهم ردُّوا أَيدي أَنفسهم في أَفواه أَنفسهم إِشارةً على الأَنبياءِ بالسكوت، واستبشاعاً لما قد قالوا من دعوى النبوة.

---

(١) وقعت العبارة في المطبوع بتغيير بسيط هكذا: «فيما ذكر، وعلى أَن الأَيدي هي الجوارح يكون المعنى».
(٢) أخرجه الطبري (١٦/ ٥٣١) من طرق عن: أبي إسحاق، عن أبي الأحوص وهبيرة ـ مفرقين ـ عن ابن مسعود.
(٣) انظر قوله في: تفسير الطبري (١٦/ ٥٣٣).
(٤) أخرجه الطبري (١٦/ ٥٣٣) من طريق: عطية العوفي عن ابن عباس.
(٥) «من البشر» ساقطة من أحمد٣، ومن المطبوع، وقد تم التنبيه عليها في حاشيته.
(٦) البيت للهذلي صخر الغي كما في المعاني الكبير (٢/ ٨٣٤)، وتفسير الثعلبي (٥/ ٣٠٧)، وتهذيب اللغة (٤/ ٤٩٥)، وأَزمةً: عَضّاً.
(٧) البيتان بلا نسبة في معاني القرآن للنحاس (٣/ ٥٢٠)، وفي الكامل للمبرد (١/ ١٦٣) أنهما لرجل اعتل في غربةٍ فتذكر أهله.

ومما ذكر أَن يكون المعنى: رَدُّوا أَيدي أَنفسهم في أَفواه الرُّسل تسكيناً[١] لهم، ودفعاً في صدر قولهم، قاله الحسن[٢]، وهذا أَشنع في الردِّ وأَذهب في الاستطالة على الرسل والنيل منهم.

قال القاضي أبو محمد: وتحتمل الأَلفاظ معنى رابعاً، وهو أَن يُتجَوَّز في لفظ الأَيدي، أَي: أَنهم ردُّوا قوتهم ومدافعتهم ومكافحتهم[٣] فيما قالوه بأَفواههم من التكذيب، فكأَن المعنى: ردُّوا جميع مدافعتهم في أَفواههم، أَي: في أَقوالهم[٤]، وعُبِّر عن جميع المدافعة بالأَيدي إِذ الأَيدي موضعٌ لشدِّ[٥] المدافعة والمرادِّ.

وحكى المهدوي قولاً ضعيفاً، وهو أَن المعنى: أَخذوا أَيدي الرسل فجعلوها في أَفواه الرسل[٦].

قال القاضي أبو محمد: وهذا عندي لا وجه له.

ومما ذكر على أَن الأَيدي أَيادي النعم ما ذكره الزجاج[٧]، وذلك أَنهم ردُّوا آلاء[٨] الرسل في الإنذار والتبليغ بأَفواههم، أَي: بأَقوالهم، فوَصَل الفعلُ بـ﴿فِيٓ﴾ عِوَضَ وصوله بالباءِ.

ورُوي نحوه عن مجاهد وقتادة[٩].

---

(١) في نجيبويه: «تسكيتاً».
(٢) نقله عنه الماوردى في النكت والعيون (٣/ ١٢٥)، وذكره الطبري (١٦/ ٥٣٥) غير منسوب.
(٣) في المطبوع وأحمد٣: أَقوالهم ومكافحتهم ومدافعتهم.
(٤) في نجيبويه زيادة: «من التكذيب».
(٥) في المطبوع وأحمد٣ ونجيبويه: «موضع أشد».
(٦) التحصيل للمهدوي (٣/ ٥٩٨)، وقد نقل هذا القول القرطبي (٩/ ٣٤٥) عن مقاتل.
(٧) انظر كلامه في: كتابه معاني القرآن وإعرابه (٣/ ١٥٦) مع ما سيأتي عنه.
(٨) في المطبوع وأحمد٣: «الأيدي من».
(٩) انظر قولهما في تفسير الطبري (١٦/ ٥٣٤).

قال القاضي أبو محمد: والمشهور جمع يد النعمة على أَيادٍ، ولا يجمع على أَيدٍ، إِلا أَن جمعه على أَيدٍ لا يَكسر باباً ولا ينقض أَصلاً، وبحسبنا أَن الزجَّاج قدَّره وتأَول عليه.

قال القاضي أبو محمد: ويحتمل اللفظ على هذا معنى ثانياً، أَن يكون المقصد: ردُّوا إِنعام الرسل في أَفواه الرسل، أَي: لم يقبلوه، كما تقول لمن لا يُعجبك كلامه: أَمْسِك يا فلان كلامك في فمك، [ومن حيث كانت أَيدي الرسل أَقوالاً ساغ هذا فيها، كما تقول: كسرتُ كلام فلان في فمه][١]، أَي: رَدَدْتُه عليه وقطعته بقلَّة القبول وبالردّ.

وحكى المهدوي عن مجاهد أَنه قال: «معناه: ردُّوا نعم الرُّسل في أَفواه أَنفسهم بالتكذيب والنَّجْه»[٢].

وقوله: ﴿لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ يقتضي أَنهم شكُّوا في صدق نبوتهم وأَقوالهم أو كذبها[٣]، وتوقفوا في إِمضاءِ أَحد[٤] المعتقدَيْنِ، ثم ارتابوا بالمعتقد الواحد في صدق نبوتهم، فجاءَهم شك مؤكَّد بارتياب.

وقرأَ طلحة بن مصرف: (مما تدعونَّا) بنون واحدة مشددة[٥].

قوله عز وجل: ﴿ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ١٠﴾.

قوله: ﴿أَفِي ٱللَّهِ﴾ مُقدَّر فيه ضمير، تقديره عند كثير من النحويين: أَفي إِلاهية[٦] الله

---

(١) ساقط من نجيبويه.

(٢) التحصيل للمهدوي (٣/ ٥٩٨) والنَّجْه: استقبالك الرجل بما يكره، وردُّك إِياه عن حاجته، وهو أقبح الرد.

(٣) في المطبوع ونجيبويه: «وكذبوها».

(٤) في نجيبويه: «أجر».

(٥) وهي شاذة نقلها عنه الكرماني في الشواذ (ص: ٢٥٩).

(٦) في المطبوع: «ألوهية».

شك؟ وقال أَبو علي الفارسي: تقديره أَفي وحدانية الله[١] شك؟.

قال القاضي أبو محمد: وزعم بعض الناس أَن أَبا عليٍّ إِنما فزع إِلى هذه العبارة حفظاً للاعتزال، وزوالاً عما تحتمله لفظة الإلهية من الصفات بحسب عمومها، ولفظة الوحدانية مخلصة من ذلك الاحتمال.

و«الْفَاطِرِ»: المخترع المبتدئ، وسوْقُ هذه الصفة احتجاج على الشَّاكِّين [يبين التوبيخ][٢]، أَي: أَيُشك / فيمن هذه صفته، فساق الصفة التي هي منصوبة لرفع الشك. [٣/ ١٠٥]

وقوله: ﴿مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾، ذهب بعض النحاة إِلى أَنها زائدة، وسيبويه يأْبى أَن تكون زائدة [في الواجب][٣]، ويراها للتبعيض.

قال القاضي أبو محمد: وهو معنى صحيح، وذلك أَن الوعد وقع بغفران الشرك وما معه من المعاصي، وبقي ما يستأْنف أَحدهم بعد إيمانه من المعاصي مسكوتاً عنه ليبقى معه في مشيئة الله تعالى، فالغفرانُ إِنما نفذ به[٤] الوعد في البعض، فصحَّ معنى ﴿مِّن﴾.

وقوله: ﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، قد تقدم القول فيه في سورة الأعراف في قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةًۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤]، وجلبت هذه هناك بسبب ما يظهر بيْن الآيتين من التعارض.

ويليق هنا أَن نذكر مسأَلة المقتول: هل قُطع أَجله أَم ذلك هو أَجله المحتوم عليه؟ فالأَول قول المعتزلة، والثاني قول أَهل السُّنَّة، فتقول المعتزلة: إِنه لو لم يقتله لعاش، وهذا سبب القَوَد، وقالت فرقة من أَهل السُّنَّة: لو لم يقتله لمات حتف أنفه، قال أَبو المعالي: «وهذا كله تخبُّط، إِنما هو أَجله الذي سبق في القضاءِ أَنه يموت فيه على تلك الصفة، فمحال أَن

---

(١) في المطبوع: «وحدانيته»، «إلهيته»، بالإضافة للضمير، كلام أبي علي لم أجده.

(٢) ساقط من المطبوع.

(٣) ساقط من الأصل، وقد تقدم الكلام على مذهب سيبويه وخلافه مع الأخفش في هذا مراراً.

(٤) في المطبوع: «يقدمه»، بدل «نفذ به».

يقع غير ذلك، فإن فرضنا أنه لم يقتله، وفرضنا مع ذلك أن علم الله سبق بأنه لا يقتله بقي أمره في حيِّز الجواز في أن يعيش أو يقتل أو كيف ما كان علم الله تعالى يسبق فيه»[١].

وقول الكفرة: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ فيه استبعادٌ لبعثة البشر، وقال بعض الناس: بل أرادوا إحالته، وذهبوا مذهب البراهمة[٢]، أو من يقول من الفلاسفة: إن الأجناس لا يقع فيها هذا التَّباين.

قال القاضي أبو محمد: وظاهر كلامهم لا يقتضي أنهم أغمضوا هذا الإغماض، ويدل على ما ذكرتُ أنهم طلبوا منهم الإتيان بآية وسلطان مبين، ولو كانت بعثتهم عندهم محالاً لما طلبوا منهم حجة، ويحتمل أن طلبهم منهم السلطانَ إنما هو على جهة التعجيز، أي: بعثتكم محال وإلا فأْتوا بسلطانٍ مبين، أي: إنكم لا تفعلون ذلك أبداً، فيَتَقوَّى بهذا الاحتمال منحاهم إلى مذهب الفلاسفة.

قوله عز وجل: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾﴾.

المعنى: صدقتم في قولكم: إنَّا بَشَرٌ مثلكم[٣] في الأشخاص والخلقة، لكن تبايُنُنا[٤] بفضل الله ومَنِّه الذي يختص به من يشاءُ.

---

(١) في نجيبويه: «سبق» بدل «يسبق»، وانظر: تمهيد الأوائل (ص: ٣٧٥)، والفرق بين الفرق (ص: ٣٣١)، وشرح المقاصد (٢/ ١٦٠).

(٢) الْبَرَاهِمَة: طائفة من الهنود لا يجوّزون على الله تعالى بعث الأنبياء، ويحرمون لحوم الحيوان، والواحد: برهمي.

(٣) زيادة من أحمد٣ ونجيبويه.

(٤) في المطبوع وأحمد٣ ونجيبويه: «تبايَنَّا».

قال القاضي أبو محمد: ففارقوهم بالمعنى، بخلاف قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ﴾ [المدثر: ٥٠]، فإِنَّ ذلك في المعنى لا في الهيئة.

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ﴾، هذه العبارة إِذا قالها الإِنسان عن نفسه، أَو قيلت له فيما يقع تحت مقدوره، فمعناها النهي والحظر، وإِن كان ذلك فيما لا قدرة له عليه فمعناها نفي ذلك الأَمر جملة، وكذلك هي آيتنا، وقال المهدوي: «لفظها لفظ الحظر ومعناها النفي»[١].

واللام في قوله: ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ﴾ لام الأَمر، وقرأَها الجمهور ساكنة، وقرأَها الحسن مكسورة[٢]، وتحريكها بالكسر هو أَصلها، وتسكينُها طلب للتخفيف، ولكثرة استعمالها، وللفرق بينها وبين لام كي التي أُلزمت الحركة إِجماعاً.

وقوله: ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ﴾ الآية، وقفتهم الرسل ـ على جهة التوبيخ ـ على تعليل في أَلاَّ يتوكلوا على الله وهو قد أَنعم عليهم، وهداهم طريق النجاة، وفضلهم على خلقه، ثم أَقسموا أَن يقع منهم الصبر على الإِذاية في ذات الله تعالى.

و﴿مَآ﴾ في قوله: ﴿مَآ ءَاذَيْتُمُونَا﴾ مصدرية، وهي حرف عند سيبويه بانفرادها، إِلا أَنها اسمٌ مع ما اتصل بها من المصدر، وقال بعض النحويين: ما المصدرية بانفرادها اسمٌ[٣].

ويحتمل أَن تكون ﴿مَآ﴾ في هذا الموضع بمعنى الذي، فيكون في ﴿ءَاذَيْتُمُونَا ﴾ ضمير عائد تقديره: آذيتموناه، ولا يجوز أَن تضمر[٤] «به» بسبب إِضمار حرف الجر، هذا مذهب سيبويه، والأَخفش يُجيز ذلك[٥].

---

(١) التحصيل للمهدوي (٣/ ٥٩٩).
(٢) وهي شاذة، انظر عزوها له في: المحتسب (١/ ٣٥٨).
(٣) انظر القولين في: توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك (١/ ٤١٨).
(٤) في المطبوع: «يضم».
(٥) انظر هذه المسألة في: الكتاب لسيبويه (٣/ ١٥٤)، والأصول في النحو (٢/ ٢٤٧).

قوله عز وجل: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾﴾.

[قوله: ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾][1]، قالت فرقة: ﴿أَوْ﴾ هنا بمعنى: «إِلاَّ أن»، كما هي في قول امرئ القيس:

فَقُلْتُ لَـهُ لا تَبْـكِ عَيْنُـكَ إِنَّمـا ... نُحَاوِلُ مُلْكاً أَوْ نَمُوتَ فَنُعْذَرَا[2] [الطويل]

قال القاضي أبو محمد: وتحتمل ﴿أَوْ﴾ في الآية أن تكون على بابها لوقوع أَحد الأَمرين، لأَنهم حمَلوا رسلهم على أَحد الوجهين، ولا يحتمل بيت امرئ القيس ذلك لأَنه لم يحاول أَن يموت فيعذر، فتخلصت بمعنى «إِلاَّ أَن» ولذلك نصب الفعل بعدها.

وقالت فرقة: هي بمعنى «حتَّى» في الآية، وهذا ضعيف، وإِنما يترتب ذلك في قوله: لأَلْزَمنَّك أَو تقضيَني حَقِّي، وفي قوله: لا يقوم زيدٌ أَو يقومَ عمرو، وفي هذه المُثُل كلها يحسن تقدير «إِلاَّ أَن».

والعوْدَةُ أَبداً إِنما هي إِلى حالةٍ قد كانت، والرُّسل ما كانوا قط في ملَّة الكفر، فإِنما المعنى: أَو لتعودن إِلى سكوتكم عنَّا وكونكم[3] أَغفالاً، وذلك عند الكفار كوْنٌ في مِلَّتهم، وخصَّص تعالى الظَّالِمينَ من الذين كفروا إِذ جائز أَن يؤْمن من الكفرة الذين قالوا المقالة ناسٌ، فإِنما توعَّد بإِهلاك من خلص للظلم.

وقوله: ﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ﴾ الخطاب للحاضرين والمرادُ هُمْ وذريتهم، ويترتب

(١) ساقط من نجيبويه.

(٢) تقدم في الآية (٥٣) من سورة الأعراف.

(٣) من نجيبويه ونور العثمانية وأحمد٣.

هذا المعنى في قوله: ﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾[إبراهيم: ١٠]، أَي: يؤخركم وأَعقابكم.

وقرأَ أَبو حيْوة: (لَيُهْلِكَنَّ) و(لَيُسْكِنَنَّكُمْ) بالياءِ فيهما[١].

وقوله ﴿مَقَامِى﴾ يحتمل أَن يريد به المصدر من القيام على الشيءِ بالقدرة.

[٣/ ١٠٦] ويحتمل أَن يريد به الظرف لقيام العبد بين يديه في الآخرة، فإِضافته / إِذا كان مصدراً إِضافةُ المصدر إِلى الفاعل، وإِضافته إِذا كان ظرفاً إِضافة الظرف إِلى حاضره، أَي: مقام حسابي، فجائز قوله: ﴿مَقَامِى﴾، وجائز لو قال: مقامه، وجائز لو قال: مقَام العرض والجزاء[٢]، وهذا كما تقول: دار الحاكم، ودار الحُكْم، ودار المحكوم عليهم.

قال أَبو عبيدة: «﴿مَقَامِى﴾ مجازه: حيث أُقيمُه بين يديَّ للحساب»[٣].

والاستفتاحُ: طلب الحُكْم، والفتَّاح: الحاكم، والمعنى: إِن الرُّسل استفتحوا، أَي: سأَلوا الله تعالى إِنفاذ الحكم بنصرهم وتعذيب الكفرة، وقيل: بل استفتح الكفارُ على نحو قول قريش: ﴿عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾ [ص: ١٦]، وعلى نحو قول أَبي جهل في بدر: «اللهم أَقْطَعُنَا للرحم، وآتانا بما لا يُعرف، فأَحِنْهُ الغداة»[٤]، هذا قول ابن زيد[٥].

وقرأَت فرقة: (واسْتَفْتِحُوا) بكسر التاءِ على معنى الأَمر للرسل، قرأَها ابن عباس، ومجاهد، وابن محيصن[٦].

---

(١) وهي شاذة، انظر عزوها له في: مختصر الشواذ (ص: ٧٢)، ومع آخرين في الشواذ للكرماني (ص: ٢٥٨).

(٢) في المطبوع: «والحساب».

(٣) مجاز القرآن (١/ ٣٣٧)

(٤) مرسل، أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٧/ ٣٥٥)، وأحمد (٥/ ٤٣١)، والنسائي في الكبرى (١١١٣٧)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٣٥٧) من طريق: الزهري حدثني عبد الله بن ثعلبة بن أبي صعير العذري قال: كان المستفتح أبو جهل... وعبد الله هذا له رؤية فقط، ولم يدرك القصة، وأَحِنْه الغَداة: اجعل حَيْنَه (أي: وقت وفاته) سريعاً في الغد.

(٥) في المطبوع: «ابن دُرَيْد»، والمثبت هو الموافق لما في تفسير الطبري (١٦/ ٥٤٥).

(٦) وهي شاذة، عزاها لهم في المحتسب (١/ ٣٥٨)، وانظر: إتحاف فضلاء البشر (ص: ٣٤٢).

و(خَابَ) معناه: خسِر ولم ينجح، والجَبَّارُ: المتعظِّم في نفسه، الذي لا يرى لأَحد عليه حقّاً، وقيل: معناه: الذي يجبر الناسَ على ما يكرهون.

قال القاضي أبو محمد: وهذا هو المفهوم من اللفظ، وعبَّر قتادة وغيره عن الجبار بأَنه الذي يأْبى أَن يقول: لا إِله إِلا الله[١]، والعنيد: الذي يعاند ولا ينقادُ.

وقوله: ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ﴾، ذكر الطبريُّ وغيره من المفسرين أَن معناه: من أَمامه[٢]، وعلى ذلك حملوا قوله تعالى: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ﴾ [الكهف: ٧٩]، وأَنشد الطبريّ:

أَتُوعِدُنِي وراءَ بني رِياحٍ كَذَبْتَ لَتَقْصُرَنَّ يداكَ دُوني[٣] [الوافر]

قال القاضي أبو محمد: وليس الأَمر كما ذكر، والوراءُ ها هنا على بابه، أَي: هو ما يأْتي بعدُ في الزمان، وذلك أَن التقدير في هذه الحوادث بالأَمام والوراءِ إِنما هو بالزمان، وما تقدم فهو أَمامٌ، وهو بين اليد، كما يقال في التوراة والإِنجيل: إِنهما بين يدي القرآن، والقرآن وراءَهما على هذا، وما تأَخر في الزمان هو وراءَ المتقدم، ومنه قولهم لِولَد الْولَد: الوراءُ.

وهذا الجبار العنيد وجودُه وكُفره وأَعماله في وقت ما، ثم بعد ذلك في الزمان يأْتيه أَمر جهنم.

قال [القاضي أبو محمد][٤]: وتلخيص هذا: أَن يُشَبَّه الزمان بطريق تأْتي الحوادث [من جهته الواحدة متتابعة][٥]، فما تقدم فهو أَمام، وما تأَخر فهو وراءَ المتقدم.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١٦/ ٥٤٥)، وتفسير الثعلبي (٥/ ٣٠٩)، ومعاني القرآن للنحاس (٣/ ٥٢١)، والهداية لمكي (٥/ ٣٧٨٩).

(٢) تفسير الطبري (١٦/ ٥٤٦).

(٣) البيت لجرير كما في تاج العروس (٤٠/ ١٩٣)، وهو بلا نسبة في مجاز القرآن (١/ ٣٣٧)، وتفسير الطبري (١٦/ ٥٤٧)، وفي نجيبويه: «بني رماح كذبت لتضربن بذاك».

(٤) في المطبوع وأحمد٣: «قال»، فقط دون بيان فاعلها.

(٥) ساقط من نجيبويه، وسقطت الفقرة كلها من نور العثمانية.

وكذلك قوله: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ﴾ [الكهف: ٧٩] أَيْ: غَضْبُه[١] وتَغَلُّبه يأْتي بعد حذرهم وتحفظهم.

وقوله: ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ﴾، وليس بِمَاءٍ، لكن لمَّا كان بدل الماءِ في العُرف عندنا [عُدَّ ماء][٢] ثم نعته بـ﴿صَدِيدٍ﴾، كما تقول: هذا خاتم حديد.

والصَّديدُ: القَيْحُ والدَّمُ، وهو ما يسيل من أَجساد أَهل النار، قاله مجاهد والضحاك[٣].

وقوله: ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ عبارة عن صعوبة أَمْرِهِ عليهم.

ورُوِي أَن الكافر يؤتى بالشربة من شراب أَهل النار فيتكرهها، فإِذا أُدْنيت منه شوت وجهه وسقطت فيها فروة رأْسه، فإِذا شربها قطعت أَمعاءَه[٤].

قال القاضي أبو محمد: وهذا الخبر مفرَّق في آيات من كتاب الله.

وقوله: ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ أَي: مِن كلِّ شعرةٍ في بدنه، قاله إِبراهيم التيمي[٥].

وقيل: من جميع جهاته الست، وقوله: ﴿وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾، أَي: لاَ يُـرَاحُ بالموت. وباقي الآية كأَوَّلها.

ووصْف العذاب بالغليظ مبالغة، وقال الفضيل بن عياض: «العذابُ الغليظ: حبْسُ الأَنفاس في الأَجساد»[٦].

---

(١) في نجيبويه: «غضبه».

(٢) ساقط من الأصل والمطبوع ونجيبويه.

(٣) انظر قولهما في: تفسير الطبري (١٦/ ٥٤٨)، ونقله أيضاً عن قتادة.

(٤) حديث غريب، أخرجه أحمد (٥/ ٢٦٥)، والترمذي (٢٥٨٣)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٧١)، والحاكم (٢/ ٣٨٢) وابن عدي في الكامل (٤/ ١٧٣) وغيرهم من طريق: عبد الله بن المبارك، عن صفوان بن عمرو عن عبيد الله بن بسر عن أبي أمامة، قال الترمذي: هذا حديث غريب، وهكذا قال محمد بن إسماعيل: عن عبيد الله بن بسر، ولا نعرف عبيد الله بن بسر إلا في هذا الحديث.

(٥) تفسير الطبري (١٦/ ٥٥٠)، وفي المطبوع: «التميمي»، وهو تحريف.

(٦) نقله عنه النحاس في معاني القرآن (٣/ ٥٢٣)، وابن المنذر كما في الدر المنثور (٨/ ٥٠٤).

وقيل: إِنَّ الضمير في ﴿وَرَآئِهِۦ﴾ هنا [هو العذابُ][1] المتقدم.

قوله عز وجل: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖۖ لَّا يَقۡدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ١٨ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ ١٩ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٖ ٢٠﴾.

اخْتُلِف في الشيءِ الذي ارتفع به قوله: ﴿مَّثَلُ﴾، فمذهب سيبويه رحمه الله أن التقدير: فيما يُتلى عليكم ـ أَوْ يُقَصُّ ـ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا، ومذهب الكسائي والفراءِ أنه ابتداءٌ وخبره ﴿كَرَمَادٍ﴾[2]، والتقدير عندهم: مَثَلُ أعمال[3] الذين كفروا كرمادٍ.

وقد حكي عن الفراءِ أنه يرى إِلغاءَ مَثَلُ[4]، وأن المعنى: الذين كفروا أعمالهم كرماد.

وقيل: هو ابتداءٌ، و﴿أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾ ابتداءٌ ثان، و﴿كَرَمَادٍ﴾ خبر الثاني، والجملة خبر الأَول، وهذا عندي أَرجح الأَقوال، وكأَنك قلت: الْمُتَحَصّل مثالاً[5] في النفس الذين كفروا، هذه الجملة المذكورة، وهي: ﴿أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ﴾، وهذا يطَّرد عندي في تقدير قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ﴾ [الرعد: ٣٥]، [محمد: ١٥]، وشُبِّهت أَعمال الكفرة ومساعيهم، [في فسادها][6] وقت الحاجة وتلاشيها، بالرماد الذي تذروه الريح وتفرقه بشدتها، حتى لا يبقى أَثر، ولا يجتمع منه شيءٌ.

---

(١) في نجيبويه بدلاً منه: «للعذاب»، وفي الأصل: «هو بالعذاب».

(٢) تقدم هذا الخلاف قريباً في قوله: ﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ﴾ في سورة الرعد.

(٣) ليست في المطبوع، وهي في أحمد٣ ملحقة في الهامش وعليها تصحيح، وفي نجيبويه: «أعمالهم».

(٤) في نجيبويه: «العامل» بدل «إلغاء»، وانظر مذهب الفراء في الهداية لمكي (٥/ ٣٧٤٦)، وفي معاني القرآن له (٣/ ٦٠)، أنها بمعنى صفة.

(٥) ليست في المطبوع.

(٦) ساقط من نجيبويه.

ووصَف اليومَ بالعصُوف وهي من صفة الريح بالحقيقة لمَّا كانت في اليوم، ومن هذا المعنى قول الشاعر:

[الطويل] وَقَدْ لُمْتِنَا يا أُمَّ غيلاَنَ في السُّرَى وَنِمْتِ وَمَا لَيْلُ الْمَطِيِّ بِنَائِم(١)

ومنه قول الآخر:

[الرجز] يَوْمَيْنِ غَيْمَيْنِ وَيَوْماً شَمْساً(٢) ....

فأَعمال الكفرة لتلاشيها لا يقدرون منها على شيءٍ.

وقرأَ نافع وحده، وأَبو جعفر: ﴿الرِّيَاحُ﴾، والباقون: ﴿ٱلرِّيحُ﴾ بالإِفراد، وقد تقدم هذا ومعناه مستوفىً بحمد الله(٣).

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إِشارة إِلى كونهم بهذه الحال، وعلى مثل هذا الغَرَر.

و﴿ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾: الذي قد تعمق فيه صاحبه وأَبْعَد عن لاحب النجاة.

وقرأَ ابن أَبي إِسحاق، [وإبراهيم بن أبي بكر](٤): (فِي يَومِ عَاصِف) بإِضافة (يوم) إِلى (عاصف)(٥)، وهذا بيِّن.

وقرأَ السُّلَمي: (أَلَمْ تَرْ) بسكون الراءِ(٦)، بمعنى: أَلم تعلم، من رؤْية القلب.

---

(١) تقدم للمؤلف نسبته لذي الرمة في تفسير الآية (٦٧) من سورة يونس، وبينا هناك أن الصواب أنه لجرير، وأُم غيلان هي بنته.

(٢) قال الفراء في معاني القرآن (٣/ ١٩): أنشدنيه بعضهم، واستشهد به بلا نسبة مكي في الهداية (٨/ ٥١٠٤)، والطبري (٢١/ ٤٤٧).

(٣) تقدم ذكر القراءات التي فيها في تفسير الآية (١٦٤) من سورة البقرة.

(٤) في المطبوع وأحمد٣: «وإِبراهيم النَّخَعي، وابن أَبي بكر»، وهو خطأ فيما يبدو، ولعله: إبراهيم بن أبي بكر بن المنكدر التيمي المدني روى عن عمه محمد بن المنكدر، وصفوان بن سليم، وربيعة، وعنه: ابن وهب، والحميدي، ضعفه الدارقطني تاريخ الإسلام (١٢/ ٤٨).

(٥) وهي شاذة، نقلها عنهما في مختصر الشواذ (ص: ٧٢)، والمحتسب (١/ ٣٦٠) إلا أن فيه: «بن أبي بُكَير»، وسيأتي في سورة المؤمنون.

(٦) وهي شاذة، انظرها في: المحتسب (١/ ٣٦٠)، وقد تقدمت في سورة البقرة.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم، وابن عامر: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾.

وقرأ حمزة، والكسائي: ﴿خَالِق السماوات﴾[1]، فوجه الأول أنه فعل قد مضى فذكر ذلك، ووجه الثانية أنه كـ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[الأنعام: ١٤]، و﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾ [الأنعام: ٩٦].

وقوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أَي: بما يحق في وجوده ومن جهة مصالح عباده، وإِنفاذ سابق قضائه، ولتدلَّ عليه وعلى قدرته.

ثمَّ تَوَعَّدَ تبارك وتعالى بقوله: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ أَي: يعدمكم ويطمس آثاركم.

وقوله: / ﴿بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ يصح أَن يريد: من فِرَق بني آدم، ويصح غير ذلك. [٣/ ١٠٧]

وقوله: ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ أَي: بممْتَنع.

قوله عز وجل: ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ۚ قَالُواْ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾﴾

﴿وَبَرَزُواْ﴾ معناه: صاروا بالبَـراز، وهي الأَرض المتسعة كالبَراح والقواء[2] والخَبارِ[3]، فاستعير ذلك لجمع[4] يوم القيامة.

وقوله: ﴿تَبَعًا﴾ يحتمل أَن يكون مصدراً، فيكون على نحو قولهم: قوم عدل وقوم حرب[5]، ويحتمل أَن يكون جمع تابع على نحو: غائبٌ وغَيَبٌ، وهو تأْويل الطبري[6].

---

(١) وهما سبعيتان، انظر: التيسير (ص: ١٣٤).

(٢) في المطبوع وأحمد٣: «والعَراءِ»، وفي نجيبويه: «والنواء».

(٣) الخَبارُ من الأرض: ما لان واسترخى وساخت فيه قوائم الدوابّ، ويقال في المثل: «من تَجَنَّبَ الخَبَارَ أَمِنَ العِثَار».

(٤) «جمع»: سقطت من المطبوع، وفي أحمد٣ ونور العثمانية: «بجمع».

(٥) في المطبوع وأحمد٣: «يوم عدل ويوم حرب».

(٦) ولفظه في تفسيره (٦١/ ٥٥٧): و«التبع» جمع «تابع»، كما الغَيَب جمع «غائب».

وفسَّر الناس ﴿ٱلضُّعَفَـٰٓؤُاْ﴾ بالأَتْباع[١]، والمستكبرين بالقادة وأَهل الرأْي.

وقولهم: ﴿مُّغْنُونَ﴾ من الغَناءِ، وهي المنفعة التي تكون من الإِنسان للآخَر في [الدفاع وغيره][٢].

[والأَلِف في][٣] قوله: ﴿أَجَزِعْنَآ﴾ أَلِف التسوية وليست بأَلِف استفهام، بل هي كقوله: ﴿ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ [البقرة: ٦].

والْمَحِيصُ: المفَرُّ والنجاة[٤] والملجأُ، مأْخوذ من حاص يحيص: إِذا نفرَ وفرَّ، ومنه في حديث هرقل: «فحاصُوا حَيْصَة حُمُر الوحش إِلى الأَبواب»[٥].

وروي عن[٦] ابن زيد، وعن محمد بن كعب أَن أَهل النار يقولون: إِنما نال أَهلُ الجنة الرحمة بالصبر على طاعة الله تعالى، فلنصبر[٧]، فيصبرون خمس مئة سنة فلا ينتفعون، فيقولون: هلم[٨] فلنجزع، فيضجُّون ويصيحون ويبكون خمس مئة سنة أُخرى فلا ينتفعون، فحينئذ يقولون هذا القول الذي في الآية[٩].

وظاهر الآية أنهم إنما[١٠] يقولونها في موقف العرض وقت البروز بين يدي الله تعالى.

---

(١) في نجيبويه: «بالأيتام».

(٢) في المصرية: «في انتفاع ومزية».

(٣) من المطبوع.

(٤) من المصرية.

(٥) أخرجه البخاري، (٧) من حديث ابن عباس، وهو حديث هرقل الشهير.

(٦) في المصرية: «علي بن زيد»، وفي نجيبويه: «أبي زيد»، والذي في تفسير الطبري (١٦/ ٥٥٩): «ابن زيد»، ولعله عبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

(٧) في نجيبويه: «فتعالى فلنصبر».

(٨) ليست في المطبوع.

(٩) نقله عن ابن زيد ومحمد بن كعب الطبري (١٦/ ٥٥٩) في تفسيره.

(١٠) ساقطة من المطبوع.

قوله عز وجل: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾﴾.

المراد هنا بـ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ﴾: إِبليس الأَقدم نفسه، وروي في حديث عن النبي ﷺ من طريق عقبة بن عامر أَنه قال: «يقوم يوم القيامة خطيبان: أَحدهما إِبليس، يقوم في الكفرة بهذه الأَلفاظ، والثاني عيسى بن مريم عليه السلام، يقوم بقوله: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ﴾ الآية [المائدة: ١١٧]»[١]، وقال بعض العلماءِ: يقوم إِبليس خطيب السوءِ الصادق بهذه الآية[٢].

قال القاضي أبو محمد: فعلى معنى هذه الروايات يكون معنى قوله: ﴿قُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾ أَيْ: [تعيَّن قومٌ لدخول النَّار، وقومٌ لدخول الجنَّة، وذلك كله في الموقف، ورُوي في حديث أَن إِبليس إِنما يقوم بهذه الأَلفاظ في النَّار على أَهلها عند قولهم: ﴿مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ في الآية المتقدمة[٣]، فعلى هذه الرواية يكون معنى قوله تعالى: ﴿قُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾][٤]، أَي: حصل أَهل النار في النَّار، وأَهل الجنَّة في الجنَّة، وهو تأْويل الطبري[٥].

قال القاضي أبو محمد: وقُضِيَ قد يُعبَّر بها في الأُمور عن فعل، كقوله تعالى:

---

(١) وهو منكر من رواية عقبة بن عامر موقوفاً ومرفوعاً، والمحفوظ من قول عامر الشعبي، أخرجه الطبري (١٦/ ٥٦١) من طرق عن داود بن أبي هند عن عامر الشعبي من قوله، وهو الصحيح، ثم أخرجه من طريق: رشدين بن سعد، قال: أخبرني عبد الرحمن بن زياد، عن دخين الحجري، عن عقبة بن عامر به مرفوعاً بنحوه. ورشدين ضعيف جدّاً كان فيه غفلة.

(٢) نقله الطبري في التفسير (١٦/ ٥٦٥) عن ابن زيد.

(٣) أخرجه الطبري (١٩/ ٧٦) وغيره بإسناد ضعيف مرسل.

(٤) ساقط من الأصل.

(٥) في نجيبويه: «وهو معنى قول الطبري»، ولفظه في التفسير (١٦/ ٥٦٠): يعني لما أدخل أهلُ الجنة الجنةَ وأهل النار النارَ... إلخ.

﴿وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ﴾ [هود: ٤٤]، وقد يُعبَّر بها عن عزم على أَن يفعل كقوله: ﴿قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ﴾ [يوسف: ٤١].

والْوَعْد في هذه الآية على بابه في الخير، أَي: أَن الله وعدهم النعيم إِنْ آمنوا، ووعدهم إِبليسُ الظفر والأَمل إِنْ كذَّبوا، ومعلوم اقتران وعد الله بوعيده، واتَّفق أَن لم يَتَّبعوا طلب وعد الله فوقعوا في وعيده، وجاءَ من ذلك كأَن إِبليس أَخلفهم.

والسلطان: الحُجَّة البيِّنة[1]، وقوله: ﴿إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ﴾ استثناءٌ منقطع، و﴿أَن﴾ في موضع نصب، ويصح أَن تكون في موضع رفع على معنى: إِلا أَنَّ النائب عن السلطان أَنْ دعوتكم، فيكون هذا في المعنى كقول الشاعر:

[الطويل]

.... تَحِيَّـةُ بَيْنِهِـمْ ضَـرْبٌ وَجِيـعُ[2]

ومعنى قوله: ﴿فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ﴾ أَي: رأَيتم ما دعوتكم إِليه ببصيرتكم، واعتقدتموه الرأْي، [وأَتى نظركم عليه][3].

قال القاضي أبو محمد: وذكر بعض الناس أَن هذا المكان يبطل منه التقليد، وفي هذه المقالة ضعف على احتمالها، والتقليد وإِن كان باطلاً ففساده من غير هذا الموضع.

قال القاضي أبو محمد: ويحتمل أَن يريد بالسلطان في هذه الآية الغلبة والقدرة والملك، أَي: ما اضطررتكم ولا خوفتكم بقوة منِّي، بل عرضت عليكم شيئاً فأَتى رأْيكم عليه.

وقوله: ﴿فَلَا تَلُومُونِي﴾ يريد بزعمه: إِذ لا ذنب لي، ﴿وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم﴾ في سوءِ نظركم وقلَّة تثبتكم، فإِنكم إِنما أَتيتم اتباعي عن بصيرة منكم وتكسُّب.

---

(١) في المصرية: «البالغة».

(٢) تقدم في تفسير الآية (٢٠٤) من سورة البقرة.

(٣) في نجيبويه: «وأثنى فكركم عليه».

والمُصْرِخ: المغيث، والصَّارِخُ: المستغيث، ومنه قول الشاعر:

كُنَّا إِذَا مَا أَتَانَا صَارِخٌ فَزِعٌ كانَ الصُّرَاخُ لَهُ قَرْعَ الظَّنَابِيب[١] [البسيط]

فيقال: صرخ الرَّجُل وأَصرخ غيرَه، وأَما الصَّريخُ فهو مصدر بمنزلة البريح[٢]، ويوصف به كما يقال: رجلٌ عَدْلٌ، ونحوه.

وقرأَ حمزة، والأَعمش، وابن وثاب: ﴿بِمُصْرِخِيِّ﴾ بكسر الياءِ[٣] تشبيهاً [لياء الإضمار بهاء الإضمار][٤] في قوله: بمصرخيه، وردَّ الزجاج هذه القراءَة، وقال: هي رديئة مرذولة[٥]، وقال فيها القاسم بن معن: إِنها صواب، ووجَّهها أَبو علي[٦]، وحكى أَبو حاتم أَن أَبا عمرٍو حسَّنها، وأَنكر أَبو حاتم ذلك على أَبي عمرٍو[٧].

وقوله: ﴿بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ﴾ أَي: مع الله في الطاعة التي ينبغي أَن يُفْرد الله بها، فـ(ما) مصدرية، وكأَنه يقول: إِني الآن كافر بإِشراككم إِياي مع الله قبل هذا الوقت.

قال القاضي أبو محمد: فهذا تَبرٍّ منه، وقد قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾[فاطر: ١٤].

---

(١) البيت لسَلامة بن جَنْدل، كما في كتاب العين (٨/ ١٦٥)، والبيان والتبيين (١/ ٤٣٠)، والكامل للمبرد (١/ ٧)، والمفضليات (ص: ١٢٤)، والظَّـنَابيب: جمع ظُنْـبُوب، وهو عظم الساق، وقرعه هو أن يضرب الرجل ظنبوب البعير ليتنوخ له فيركبه، وفي الأصل: «قطع».

(٢) يقال: قولٌ بريحٌ: مُصَوَّبٌ به.

(٣) سبعية، انظر عزوها لحمزة في: التيسير (ص: ١٣٤)، وللباقين في معاني القرآن للفراء (٢/ ٧٥)، وإعراب القرآن للنحاس (٢/ ٢٣١).

(٤) في المطبوع وأحمد٣ والمصرية: «تشبيهاً بياءِ الإِضمار».

(٥) في المصرية ونجيبويه: «رديَّةٌ مردودة»، ولفظ الزجاج في معاني القرآن وإعرابه له (٣/ ١٥٩): وهذه القراءة عند جميع النحويين رديئة مرذولة ولا وجه لها إلا وجه ضعيف، وهذا خطأ منه رحمه الله فهي متواترة.

(٦) في الحجة له (٥/ ٢٩)، ونقل تصويب القاسم عن الفراء في كتاب التصريف له.

(٧) نقله السمين في الدر المصون (٧/ ٨٩)، وفي نجيبويه: «على أبي علي»، ولعله خطأ.

ويحتمل اللفظ أَن يكون إِقراراً على نفسه بكفره الأَقدم، فتكون (ما) بمعنى الَّذي، يريد اللَّهَ تعالى، أَي: خطيئتي قبل خطيئتكم فلا إِصراخ عندي، وباقي الآية بيِّن.

وقرأَ الجمهور: ﴿وَأُدْخِلَ﴾ على بناءِ الفعل للمفعول، وقرأَ الحسن: (وَأُدْخِلُ) على فعل التكلم[1]، أَي: يقولها الله عز وجل.

وقوله: ﴿مِن تَحْتِهَا﴾ أَي: من تحت ما عَلا منها كالغُرف والمباني والأَشجار وغيره، والخلود في هذه الآية على بابه في الدوام، والإِذْنُ هنا عبارة عن القضاءِ[2] والإِمضاءِ.

وقوله: ﴿تَحِيَّتُهُمْ﴾ مصدر مضاف إِلى الضمير، فجائز أَن يكون الضمير للمفعول، أَي: تُحَيِّيهم الملائكة، وجائز أَن يكون الضمير للفاعل، أَي: يُحَيِّي بعضُهم بعضاً، و﴿تَحِيَّتُهُمْ﴾ رفع بالابتداءِ، و﴿سَلَٰمٌ﴾ ابتداءٌ ثانٍ وخبره محذوف تقديره: عليكم، والجملة خبر الأول، والجميع في موضع / الحال من الضمير في ﴿خَٰلِدِينَ﴾، أَو يكون صفةً لـ﴿جَنَّٰتٍ﴾. [٣/ ١٠٨]

قوله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾.

قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ بمعنى: أَلم تعلم، و﴿مَثَلًا﴾ مفعول لـ﴿ضَرَبَ﴾، و﴿كَلِمَةً﴾ مفعول أَول بها، وضَرَبَ هذه تتعدى إِلى مفعولين، لأَنها بمنزلة جَعَل ونحوه، إِذ معناها: جَعَل ضَرْبها.

وقال المهدوي: ﴿مَثَلًا﴾ مفعول، و﴿كَلِمَةً﴾ بدل منه[3].

---

(١) وهي شاذة انظر عزوها له في: المحتسب (١/ ٣٦١)، و«على» زيادة من المطبوع ونجيبويه.

(٢) تحرفت في المصرية إلى: «اللغط».

(٣) التحصيل للمهدوي (٣/ ٦١٩).

قال القاضي أبو محمد: وهذا على أَنها تتعدى إِلى مفعول واحد، وإِنما أَوهم في هذا قلةُ التحرير في «ضرب» هذه.

والكاف في قوله: ﴿كَشَجَرَةٍ﴾ في موضع الحال، أَي: مشبَّهة بشجرة.

قال القاضي أبو محمد: وقال ابن عباس وغيره: الكلمة الطيبة هي «لا إِله إِلا الله»، مثَّلها الله بالشجرة الطيبة[1]، وهي النخلة في قول أَكثر المتأَولين، فكأَن هذه الكلمة أَصْلُها ثابِتٌ في قلوب المؤمنين، وفضلُها وما يصدر عنها من الأَفعال الزكية والحسنة[2]، وما يتحصل عليها من عفو الله ورحمته، هو فرعها يصعد إِلى السماءِ من قِبَل العبد، ويتنزل منها مِنْ قِبَل الله تعالى.

وقرأَ أَنس بن مالك: (ثابِتٌ أَصْلُهَا)[3].

وقالت فرقة: إِنما مثَّل الله بالشجرة الطيبة المؤْمنَ نفسه، إِذ الكلمة الطيبة لا تقع إِلا منه، فكأَن الكلام: كلمةً طيبةً وقائلَها، وكأَن المؤمن ثابت في الأَرض، وأَفعاله وأَقواله صاعدة، فهو كشجرة فرعها في السماءِ، وما يكون أَبداً من المؤمن من الطاعة أَو على الكلمة من الفضل والأَجر والغفران هو بمثابة الأُكل الذي تأْتي به كل حين.

وقوله عن الشجرة: ﴿وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ أَي: في الهواءِ نحو السماءِ، والعرب[4] تقول عن المستطيل: نحو الهواءِ، وفي الحديث: «خَلَق الله آدم طوله في السماءِ ستون ذراعاً»[5].

[وفي كتاب سيبويه][6]: «والقيدودة: الطويل في غير سماءٍ»[7].

---

(١) أخرجه الطبري (١٦/ ٥٦٧) من طريق: علي بن أبي طلحة عن ابن عباس.

(٢) في المطبوع ونور العثمانية: «الخبيثة»، وفي المصرية: «الخشينة»، وفي نجيبويه ونور العثمانية: «الخشية».

(٣) وهي شاذة لمخالفة الرسم، عزاها له ابن جني في المحتسب (١/ ٣٦٢).

(٤) في المطبوع ونجيبويه: «وهذا كما»، بدل: «العرب».

(٥) متفق عليه، أخرجه البخاري (٦٢٢٧) ومسلم (٢٨٤١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٦) ساقط من المطبوع.

(٧) «غير» ليست في نجيبويه والمصرية، ولفظ سيبويه في الكتاب (٤/ ٣٦٥): «قد يخصون المعتل =

قال القاضي أبو محمد: كأَنه انقاد وامتد، وقال أَنس بن مالك وابن مسعود وابن عباس[١]، ومجاهد، وعكرمة، وقتادة، والضحاك، وابن زيد: الشجرة الطيبة في هذه الآية: النخلة[٢]، ورُوي في ذلك أَحاديث[٣].

وقال ابن عباس أَيضاً: هي شجرة في الجنة[٤].

قال القاضي أبو محمد: ويحتمل أَن تكون شجرة غير معينة إِلا أَنها كل ما اتَّصف بهذه الصفات، فيدخل فيه النخلة وغيرها، وقد شبَّه الرسول ﷺ المؤمنَ الذي يقرأُ القرآن بالأُتْرُجَّة[٥]، فلا يتعذر أَن يُشَبَّه أَيضاً بشجرتها.

والأُكل: الثَّمر، وقرأَ عاصم وحده: ﴿أُكُلَهَا﴾ بضم الكاف[٦].

وقوله: ﴿كُلَّ حِينٍ﴾، الحينُ في اللغة: القطيع من الزمان غير محدود، كقوله تعالى:

= بالبناء لا يخصون به غيره من غير المعتل، ألا تراهم قالوا: كينونةٌ والقيدود لأنه الطويل من غير السماء، وإنما هو من قاد يقود ألا ترى أنك تقول: جملٌ منقاد وأقود، فأصلهما فيعلولةٌ وليس في غير المعتل فيعلولٌ مصدراً».

وفي حاشية المطبوع: «اختلفت الأصول في كلمة «القيدودة» كتبت بالدال في بعضها وبالراءِ في أُخرى».

(١) ليس في المطبوع، ولم أره عنه، لكنه ثبت هذا عن أنس وابن مسعود، أخرجهما الطبري (١٦/ ٥٦٩) بأسانيد صحيحة.

(٢) انظر قول هؤلاء الخمسة في: تفسير الطبري (١٦/ ٥٧٢)، وزاد معهم مسروقاً، و«عكرمة» من المطبوع والمصرية فقط.

(٣) منها ما أخرج الطبري (١٦/ ٥٧٤) من حديث سليمان التيمي عن يوسف بن سرج عن رجل عن ابن عمر مرفوعاً بلفظ: هل تدرون ما الشجرة الطيبة؟... وفيه أنها النخلة، وإسناده فيه مجاهيل، والمحفوظ في هذا الحديث ما أخرجه البخاري (٦١) ومسلم (٢٨١١) من حديث ابن عمر مرفوعاً بلفظ: «إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها وإنها مثل المسلم»، لكن ليس فيه ذكر الشجرة الطيبة.

(٤) ضعيف، أخرجه الطبري (١٦/ ٥٧٣) من طريق: قابوس بن أبي ظبيان، عن أبيه، عن ابن عباس، وقابوس، ضعيف، كان رديء الحفظ، ينفرد عن أبيه بما لا أصل له.

(٥) متفق عليه، أخرجه البخاري (٥٤٢٧) ومسلم (٧٩٧) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(٦) بل هي قراءة الجمهور ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي كما في التيسير (ص: ٨٣)، وتقدم ذلك في (٢٦٥) من سورة البقرة.

﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ﴾ [الإنسان: ١] وكقوله: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍ﴾ [ص: ٨٨].

وقد تقتضي لفظة الحين بقرينتها تحديداً كهذه الآية، فإن[1] ابن عباس، وعكرمة، ومجاهداً، والحَكَم، وحَمَّاداً، وجماعة من الفقهاءِ، قالوا: «من حلف لا يفعل شيئاً حيناً فإِنه لا يفعله سنة»، واستشهدوا بهذه الآية: ﴿تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾[2]، أَي: كل سنة.

وقال ابن عباس[3]، وعكرمة، والحسن: «أَي: كل ستة أَشهر»[4].

وقال ابن المُسَيَّب: «الحينُ: شهران، لأَن النخلة تدوم مثمرة شهرين»[5].

وقال ابن عباس أَيضاً[6] والضحاك، والربيع بن أَنس: «﴿كُلَّ حِينٍ﴾ أَي: كل غدوة وعشية، ومتى أُريدَ جناها»[7].

قال القاضي أبو محمد: وهكذا يشبهها المؤمن الذي هو في جميع أَيامه في عمل، أو الكلمة التي أَجرها[8] والصادر عنها من الأعمال مستمر، فيشبه أَن قول[9] الله تعالى إِنما شبَّه المؤمن أَو الكلمة بالشجرة في حال إِثمارها، إِذ تلك أَفضل أَحوالها.

وتأَوَّل الطبري في ذلك أَن أُكُل الطلْع في الشتاءِ، وأَن أُكل الثمر في كل وقت من

---

(١) في المطبوع وأحمد٣: «كقوله في هذه الآية ﴿كُلَّ حِينٍ﴾، وقال ابن عباس... إلخ».
(٢) انظر أقوال هؤلاء الخمسة في: تفسير الطبري (١٦/ ٥٨١).
(٣) أخرجه الطبري (١٦/ ٥٧٧) من طريق: الثوري وقيس بن الربيع ـ مفرقين ـ عن طارق بن عبد الرحمن ـ هو البجلي الأحمسي ـ، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس. وطارق فيه لين.
(٤) انظر قول الثلاثة ومعهم سعيد بن جبير وقتادة في: تفسير الطبري (١٦/ ٥٧٩).
(٥) تفسير الطبري (١٦/ ٥٨١).
(٦) أخرجه الطبري (١٦/ ٥٧٦) من طريق: الأعمش. ومن طريق: قابوس بن أبي ظبيان. كلاهما عن أبي ظبيان. ومن طريق: عطية العوفي، كلاهما عن ابن عباس. وفي الإسنادان ضعف مشهور.
(٧) انظر قول الربيع بن أنس ومن معه في تفسير الطبري (١٦/ ٥٧٧).
(٨) في المطبوع: «أخرجها»، وكذا في هامش أحمد٣، وفي نور العثمانية: «أخرها»، ولعله تصحيف.
(٩) «قول»: من الأصل.

أَوقات العام، هو إِتيانُ أُكُل وإِن فارق النخل[١]، وإِن فرضنا التشبيه بها على الإطلاق، [وهي إِنما][٢] تؤتي في وقت دون وقت، فالمعنى: كشجرة لا تخلُّ بما جعلت له من الإتيان بالأُكل في الأَوقات المعلومة، فكذلك هذا المؤْمن لا يُخلُّ بما يُسِّر له من الأَعمال الصالحة، أَو الكلمة التي لا تغيب بركتها والأَعمال الصادرة عنها، بل هي في حفظ النظام كالشجرة الطيبة في حفظ وقتها المعلوم، وباقي الآية بيِّن.

قال القاضي أبو محمد: ومَن قال: الحين سنة، راعَى أَن ثمر النخلة وجناها إِنما يأْتي كل سنة، ومن قال: ستة أَشهر، راعى من وقت جَداد[٣] النخلة إِلى حملها من الوقت المقبل.

وقيل: إِن التشبيه وقع بالنخل الذي يثمر مرتين في العام، ومن قال: شهرين، قال: هي مدة الجني في النخل، وكلهم أَفتى بقوله في الأيمان[٤] على الحين.

وحكى الكسائي والفراءُ أَن في قراءَة أُبَيٍّ بن كعب: (وضرب الله مَثَلَ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ)[٥].

والكلمة الخبيثة هي كلمة الكفر وما قاربها[٦] من الكلام السوء[٧] في الظلم ونحوه.

والشجرة الخبيثة قال أَكثر المفسرين: شجرة الحنظل، قاله أَنس بن مالك[٨]، ورواه عن النبي ﷺ[٩]، وهذا عندي على جهة المثال.

---

(١) تفسير الطبري (١٦/ ٥٨٢)، وفي الأصل: «وهو إتيان».

(٢) في نجيبويه بدلاً منه: «وأنها».

(٣) في العلمية: «جذاذ» بالذال، وفي نجيبويه: «جذاد».

(٤) في المطبوع وأحمد٣: «الإتيان».

(٥) وهي شاذة، انظرها في: معاني القرآن للفراء (٢/ ٧٦)، وإعراب القرآن للنحاس (٢/ ٢٣٢) وفيه: «وضرب مثل»، دون لفظ الجلالة.

(٦) في نجيبويه ونور العثمانية: «قارنها».

(٧) في المطبوع: «السوقي».

(٨) صحيح، أخرجه الطبري (١٦/ ٥٨٣) من طريق: جماعة عن أنس بأسانيد جيدة، منها طرق عن شعيب بن الحبحاب عن أنس.

(٩) رفعه لا يصح، أخرجه الترمذي (٣١١٩) والطبري (١٦/ ٥٨٥) من طريق: حماد بن سلمة عن =

وقالت فرقة: هي الثُّوْم، وقال الزجاج: قيل: هي الكَشُوثى[١].

قال القاضي أبو محمد: وعلى هذه الأَقوال من الاعتراض أَن هذه كلها من النَّجْم، وليست من الشجر[٢]، والله تعالى إِنَّما مثَّل بالشجرة، فلا تسمى هذه شجرة إِلاَّ بتجوُّز، فقد قال عليه السلام في الثوم والبصل: «من أكل من هذه الشجرة»[٣].

وأَيضاً فإِن هذه كلها ضعيفة وإن لم تجتث[٤]، اللهم إِلا أَن نقول: اجتثت بالخلقة.

وقال ابن عباس: «هذا مثل ضربه الله ولم يخلق هذه الشجرة على وجه الأَرض»[٥].

والظاهر عندي أَن التشبيه وقع بشجرة غير معينة إِذا[٦] وجدت فيها هذه الأَوصاف، فالخبث هو أَن تكون كالعِضاه[٧] أَو كشجر السموم أو نحوها إِذا اجتثت، أَي: اقتلعت جثتها بنزع الأُصول، وبقيت في غاية الوهاء[٨] والضعف لتقلبها[٩] أَقلُّ ريح، فالكافر يرى أَن بيده شيئاً، وهو لا يستقر ولا يغني عنه، كهذه الشجرة التي يُظَن بها على بُعدٍ، أَو للجهل بها، أَنها شيءٌ نافع، وهي خبيثة الجنى غير باقية.

= شعيب بن الحبحاب عن أنس بن مالك به مرفوعاً، قال الترمذي: روى غير واحد مثل هذا موقوفاً ولا نعلم أحداً رفعه غير حماد بن سلمة، ورواه معمر وحماد بن زيد وغير واحد ولم يرفعوه. اهـ.

(١) ولفظه في معاني القرآن وإعرابه (٣/ ١٦١): «قيل: إن الشجرة الخبيثة الحنظل، وَقيلَ: الكوث»، ولعل الصواب «الكشوثى» كما وردت في تفسير الطبري (١٧/ ٤٨٦)، وتفسير الثعلبي (٦/ ١١٢)، وتفسير السمعاني (٣/ ١١٤).

(٢) النَّجْم من النَّبات: ما لا ساقَ له.

(٣) متفق عليه، أخرجه البخاري (٨٥٣) (٨٥٤) (٨٥٦) ومسلم (٥٦١).

(٤) في المطبوع: «تخبث»، ولعله تصحيف.

(٥) ضعيف، أخرجه الطبري (١٦/ ٥٨٥) من طريق: قابوس، عن أبيه، عن ابن عباس، وقابوس ضعيف، ينفرد عن أبيه بأشياء منكرة.

(٦) في نجيبويه: «إنما».

(٧) في المطبوع ونجيبويه: «كالعضاة»، وهو خطأ.

(٨) في المطبوع: «الوهن»، وهما بمعنى.

(٩) في المطبوع ونور العثمانية ونجيبويه: «فتقلبها»، وفي المصرية: «فبقلتها أقل ريحاً»، وفي أحمد٣: «فبقلها أول ريح».

[٣/ ١٠٩] / قوله عز وجل: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾﴾.

القولُ الثابت في الحياةِ الدُّنيا وفي الآخرة[١]: كلمةُ الإخلاصِ والنجاةِ من النار «لا إله إلا الله»، والإِقرار بالنبوة، وهذه الآية تعم العالم من لدن آدم عليه السلام إِلى يوم القيامة.

وقال طاوس، وقتادة، وجمهور من العلماء: ﴿ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ هي مدة حياة الإنسان، ﴿وَفِى ٱلْأَخِرَةِ﴾ هي وقت سؤاله في قبره[٢].

وقال البراءُ بن عازب وجماعة: ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ هي وقت سؤاله في قبره[٣]، ورواه البراءُ عن النبي ﷺ في لفظ مُتَأَوَّل[٤].

قال القاضي أبو محمد: ووجْهُ القول: لأَن ذلك في مدة وجود الدنيا، وقوله: ﴿وَفِى ٱلْأَخِرَةِ﴾ هو يوم القيامة عند العرض.

قال القاضي أبو محمد: والأَول أَحسن، ورجَّحه الطبريُّ.

والظَّالِمُونَ في هذه الآية: الكافرون، بدليل أَنه عادل بهم المؤمنين، وعادل التثبيت بالإِضلال، وقوله: ﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ تقرير لهذا التقسيم المتقدم، كأَن امرأً رأَى التقسيم فطلب في نفسه علَّته فقيل له: ﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ بحق المُلْك، وفي هذه الآية ردٌّ على القدرية.

---

(١) «وفي الآخرة»: زيادة من المطبوع وأحمد٣.

(٢) انظر قولهما في: تفسير الطبري (١٦/ ٦٠٢)، مع الترجيح الذي سيأتي عنه.

(٣) أخرجه الطبري (١٦/ ٥٨٩) من طرق عدة عن البراء، وهو صحيح إليه.

(٤) متفق عليه، أخرجه البخاري (١٣٦٩) (٤٦٩٩) ومسلم (٢٨٧١).

وذكر الطبريُّ في صفة مُساءَلة العبد في قبره أَحاديث منها ما وقع في الصحيح[١]، وهي من عقائد الدين، وأَنكرت ذلك المعتزلة، ولم تقل بأَن العبد يُسأَل في قبره[٢].

وجماعة السنة تقول: إِن الله يخلق له في قبره إِدراكات وتحصيلاً، إِما بحياة كالمتعارفة وإِما بحضور النفس وإِن لم تتلبس بالجسد كالعرف، كل هذا جائز في قدرة الله تعالى، غير أَن في الأَحاديث أَنه يسمع خفق النعال[٣]، ومنها أَنه يرى الضوءَ كأن الشمس[٤] دنت للغروب[٥]، وفيها: أَنه ليراجع[٦]، وفيها: فتعاد روحه إِلى جسده[٧]، وهذا كله يتضمن الحياة، فسُبْحَانَ ربِّ هذه القدرة.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾، هذا تنبيه على مثال من ظالمين أضلوا[٨]، والتقدير: بدَّلوا شكر نعمة الله كفراً، وهذا كقوله: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢]، ونعمة الله المشار إِليها في هذه الآية هو محمد عليه

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١٦/ ٥٨٩)، وقد سبق منها حديث البراء بن عازب قريباً.

(٢) هذا قول ضرار بن عمرو الغطفاني أحد شيوخ المعتزلة كما في الفصل في الملل (٤/ ٥٥)، قال: وأكثرهم على رأي أهل السنة.

(٣) متفق عليه، أخرجه البخاري (١٣٣٨) بلفظ: «قرع نعالهم»، ومسلم (٢٨٧٠) من حديث أنس.

(٤) «كأن» ليست في المطبوع وأحمد٣، وفيهما: «كالشمس».

(٥) أخرجه الحاكم في المستدرك (١/ ٥٣٥) من طريق: محمد بن عمرو بن علقمة عن أبي سلمة عن أبي هريرة مرفوعاً، وهو حديث طويل. ولمحمد بهذا الإسناد مناكير كثيرة.

(٦) لم أجده.

(٧) أخرجه الحاكم (١/ ٩٣) من طريق: أبي معاوية عن الأعمش ثنا المنهال بن عمرو عن زاذان أبي عمر قال: سمعت البراء بن عازب به مرفوعاً، في حديث طويل، قال ابن حبان في صحيحه (٧/ ٣٨٦): خبر الأعمش عن المنهال بن عمرو عن زاذان عن البراء، سمعه الأعمش عن الحسن بن عمارة عن المنهال بن عمرو، وزاذان لم يسمعه من البراء فلذلك لم أخرجه. اهـ. والحسن متروك، وحديث الأعمش هذا ذكره أحمد في المسند (٤/ ٢٨٨) وأبو داود (٣٢١٤) وغيرهما مختصراً جداً، وهو الصحيح، والطول الذي في حديث المستدرك غير محفوظ، وقد أعله ابن حبان كما سبق.

(٨) في المطبوع: «الظالمين»، بدل «الكلمتين».

السلام ودينه، أَنعم الله به على قريش فكفروا النعمة ولم يقبلوها وتبدلوا بها الكفر، والمراد بـ﴿ٱلَّذِينَ﴾ كفرة قريشٍ جملة، وهذا بحسب ما اشتهر من حالهم، وهو قول جماعة من الصحابة والتابعين.

وروي عن عمر بن الخطاب وعليّ بن أَبي طالب أَنها نزلت في الأَفْجَرَيْنِ من قريش: بني مخزوم وبني أُمية، قال عمر: فأَما بنو المغيرة فكُفوا يوم بدر، وأَما بنو أُمية فمُتِّعوا إِلى حين[١]، وقال ابن عباس: هذه الآية في جَبَلَة بن الأَيْهَم[٢].

قال القاضي أبو محمد: ولم يُرِد ابن عباس أَنها فيه نزلت، لأَن نزول الآية قبل قصته، وإِنما أَراد أَنها تحصر[٣] مَنْ فَعَلَ فِعْلَ جَبَلَة إِلى يوم القيامة.

وقوله: ﴿وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ﴾ أَي: من أَطاعهم وكان معهم في التبديل، فكأَن الإِشارة والتعنيف إِنما هو للرؤُوس والأَعلام، و﴿ٱلْبَوَارِ﴾ الهلاك، ومنه قول أَبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب:

يَا رَسُولَ الْمَلِيكِ إِنَّ لِسَانِي ... فَاتِقٌ مَا رَتَقْتُ إِذْ أَنَا بُورُ [الخفيف]

قاله الطبريُّ، وقال هو وغيره: إِنه يُرْوى لابن الزِّبعرى[٤].

---

(١) أخرجه الطبري (١٦/ ٥) من طريق: سفيان، عن علي بن زيد، عن يوسف بن سعد، عن عمر بن الخطاب، وعلي هو ابن جدعان، ضعيف متفق على ضعفه، ومن طريق: حمزة الزيات، عن عمرو ابن مرة، قال: قال ابن عباس لعمر... وهذا مرسل.

(٢) أخرجه الطبري (١٦/ ١٠) من طريق: عطية العوفي عن ابن عباس، وفي حاشية المطبوع: «في الأصول: جبلة بن إبراهيم»، وهو خطأ، وجبلة بن الأيهم كان أحد ملوك غسان فأسلم وكتب بإسلامه إلى رسول الله ﷺ وأهدى له هدية ولم يزل مسلماً حتى كان في زمان عمر بن الخطاب، ثم ارتد نصرانياً بسبب رجل من مزينة لطمه، انظر تفصيل قصته في: الطبقات الكبرى (١/ ٢٠٣).

(٣) في المطبوع: «تخص».

(٤) الصواب نسبة البيت لابن الزبعرى، وهو عبد اللَّه بن الزّبعرى بن قيس بن عدي بن سعيد بن سهم القرشي السهمي، كان من أشعر قريش، وكان شديدا على المسلمين، ثم أسلم في الفتح، وحسن إسلامه، الإصابة (٤/ ٧٦) انظر عزوه له جزماً في: مجاز القرآن (١/ ٣٤٠)، وتكرر ذلك منه في =

ويحتمل أَن يريد بالْبَوَار الهلاك في الآخرة، ففسَّره حينئذ بقوله: ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا﴾، أَي: يحترقون في حرِّها ويحتملونه، ويحتمل أَن يريد بالْبَوَار الهلاك في الدنيا بالقتل والخزي، فتكون الدار قَلِيبَ بدر ونحوه، وقال عطاءُ بن يسار: «نزلت هذه الآية في قتلى بدر»[١].

قال القاضي أبو محمد: فيكون قوله:﴿جَهَنَّمَ﴾ نصباً، على حدِّ قولك: زيداً ضربته، بإِضمار فعل يقتضيه الظاهر.

و﴿ٱلْقَرَارُ﴾: موضع استقرار الإِنسان.

والأَنداد: جمع نِدٍّ، وهو المِثْل والشبيه المناوئ، والمراد الأَصنام، واللام في قوله: ﴿لِّيُضِلُّوا۟﴾ بضم الياءِ لام «كي».

وقرأَ ابن كثير، وأَبو عمرٍو: ﴿لِيَضِلُّوا﴾ بفتح الياءِ، أَي: هم أَنفسهم، فاللَّام على هذا لام عاقبة وصيرورة، وقرأَ الباقون: ﴿لِّيُضِلُّوا۟﴾ بضم الياء، أَي: يُضِلُّوا غيرهم[٢].

وأَمْرُهم بالتمتع هو وعيد وتهديد على حدِّ قوله: ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾[فصلت: ٤٠].

قوله عز وجل: ﴿قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَـٰلٌ ﴿٣١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَـٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّر لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ

= سورتي الفرقان والملك، والزاهر في معاني كلمات الناس (١/ ٢٧٥)، وسيرة ابن هشام (٢/ ٤١٨)، والأمالي (٢/ ٢١٧)، والإتباع للقالي (١/ ٧٩)، وجمهرة اللغة (٢/ ١٠٢٠)، وإصلاح المنطق (١/ ١٢٥)، وتفسير الثعلبي (٧/ ١٢٧)، والمحكم (١٠/ ٣٣١)، وتفسير السمعاني (٤/ ١٢)، وتفسير الماوردي (٤/ ١٣٧)، وسيأتي للمؤلف الجزم به في سورتي الفر قان والفتح، وجزم بنسبته لأبي سفيان الطبري في تهذيب الآثار (ص ١٥٩) وذكر الخلاف فيه في تفسيره (١٦/ ٥)، وفي أحمد٣ والمطبوع: «سفيان» دون كنية، وفيهما: «راتق ما فتقت»، والرَّاتق: الذي يصلح ما تمزق، وفَـتَق: شقَّ.

(١) انظر قوله في: تفسير الطبري (١٦/ ١٠)، ونقله أيضاً (١٦/ ٩)، عن أبي مالك وسعيد بن جبير، وغيرهما.

(٢) وهما سبعيتان، انظر: التيسير (ص: ١٣٤)

ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلۡتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ ﴿٣٤﴾﴾.

العباد: جمع عبدٍ، وعُرفه في التكرمة بخلاف العبيد.

وقوله: ﴿يُقِيمُواْ﴾، قالت فرقة مِن النحويِّين: جزْمه بإِضمار لام الأَمر على حدِّ قول الشاعر:

[الوافر] مُحَمَّدُ تَفْدِ نَفْسَكَ كلُّ نَفْسٍ[1] ....

أنشده سيبويه، إِلا أنه قال: «إِن هذا لا يجوز إِلا في شعر»[2]، وقالت فرقة ـ أبو عليٍّ وغيره ـ: «هو فعل مضارع بني[3] لمَّا كان في معنى فعل الأمر، لأن المراد: أَقيموا، وهذا كما بني الاسم المتمكن في النداءِ في قولك: يا زيد، لمَّا شُبِّه بـ«قبل» و«بعد»[4].

وقال سيبويه: «هو جواب شرط مقدر يتضمنه صدر الآية، تقديره: إِن تقل لهم: أَقيموا، يقيموا»[5].

قال القاضي أبو محمد: ويحتمل أَن يكون جوابَ الأَمر الذي يعطينا معناه قولُه: ﴿قُل﴾، وذلك بأَن تجعل ﴿قُل﴾ في هذه الآية بمعنى: بَلِّغ وأَدِّ الشريعة يقيموا الصلاة، وهذا كله على أَن المقول هو الأَمر بالإِقامة والإِنفاق، وقيل[6]: إن المقول هو الآية التي بعدُ، أَعني قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ الآية.

---

(١) البيت بلا نسبة في معاني القرآن للأخفش (١/ ٥٩)، وغيره تمامه: إِذَا ما خِفْتَ مِنْ شَيْءٍ تَبالا، وقد تقدم في أول سورة النساء.

(٢) لفظه في الكتاب (٣/ ٨): واعلم أن هذه اللام قد يجوز حذفها في الشعر.

(٣) في المطبوع: «جزم»، وكذا في أحمد٣ ولكن صححت في الهامش.

(٤) لم أقف عليه.

(٥) انظر كلامه على هذه الآية في: الكتاب (٣/ ٩٩).

(٦) في المطبوع وأحمد٣ والمصرية ونور العثمانية: «ويظهر».

والسِّر: صدقةُ التَّنفل، / والعلانية: الصدقةُ المفروضة، هذا هو مقتضى الأَحاديث[١]، [٣/ ١١٠]
وفسَّر ابن عباس هذه الآية بزكاة الأَموال مجملاً، وكذلك فسَّر الصلاة بأَنها الخمس[٢]، وهذا عندي منه تقريب للمخاطب.

والخِلاَل مصدر من خالل[٣]: إِذا وَادَّ وصافى، ومنه الخُلَّة والخليل، قال امرؤ القيس:

صَرَفْتُ الْهَوى عَنْهُنَّ مِن خَشْيَةِ الرَّدَى ... ولَسْتُ بِمَقْلِيِّ الْخِلاَلِ وَلاَ قَالِ[٤] [الطويل]

وقال الأَخفش: «الخِلالُ جمع خُلَّة»[٥].

وقرأَ نافع، وعاصم، وحمزة، والكسائي، وابن عامر: ﴿لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ﴾ بالرفع على إِلغاءِ «لا»، وقرأَ أَبو عمرو، والحسن، وابن كثير: ﴿لا بيعَ ولا خلالَ﴾ بالنصب[٦] على التبرئة، وقد تقدم هذا، والمرادُ بهذا اليوم يوم القيامة.

وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ الآية، تذكير بآلاءِ الله، وتنبيه على قدرته التي فيها إِحسانٌ إِلى البشر؛ لتقوم الحُجَّة من وجهين، و﴿ٱللَّهُ﴾ مبتدأٌ، و﴿ٱلَّذِى﴾ خبره، ومن أُخبر بهذه الجملة وتقررت في نفسه آمَن وصلَّى وأَنفق[٧].

---

(١) روي في ذلك آثار، منها عن ابن عباس عند الطبري (٥/ ٥٨٣) من طريق علي بن أبي طلحة عنه بلفظ: جعل الله صدقة السر في التطوع تفضل علانيتها بسبعين ضعفاً، وجعل صدقة الفريضة: علانيتها أفضل من سرها، يقال بخمسة وعشرين ضعفاً...

(٢) أخرجه الطبري (١٦/ ٤٢١) من طريق علي بن أبي طلحة عنه.

(٣) في المطبوع: خالَّك.

(٤) انظر نسبته له في: تفسير الطبري (١٦/ ١٢)، والأمالي للقالي (١/ ١٩٦)، وتفسير الثعلبي (٥/ ٣٢٠)، وتهذيب اللغة (٢/ ٤٠١).

(٥) لفظه في معاني القرآن (٢/ ٤٠٧): وإِنَّما «الخِلالُ» لجماعة «الخُلَّةِ» كما تقول: «جُلّة وجِلال»، و«قُلَّة وقِلال».

(٦) وهما سبعيتان، انظر: التيسير (ص: ٨٢).

(٧) في المصرية: «وأيقن».

و﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ هي الأَرقعة السبعة، وقوله: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ يريد: السحاب.

وقوله: ﴿مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ يجوز أَن تكون ﴿مِنَ﴾ للتبعيض، فيكون المراد بعض جنى الأَشجار، ويسقط ما كان منها سُمّاً أَو مجرداً للمضرات، ويجوز أَن تكون ﴿مِنَ﴾ لبيان الجنس كأَنه قال: فأَخرج به رزقاً لكم من الثمرات، وقال بعض الناس: ﴿مِنَ﴾ زائدة، وهذا لا يجوز عند سيبويه لكونها في الواجب[(١)]، ويجوز عند الأَخفش[(٢)].

و﴿ٱلْفُلْكَ﴾ جمع فُلْكٍ، وقد تقدم القول فيه مراراً.

وقوله: ﴿بِأَمْرِهِۦ﴾ مصدر من أَمر يأْمُر، وهذا راجع إِلى الكلام القائم بالذات، كقوله الله تعالى للبحار وللأَرض وسائر الأَشياءِ: «كن» عند الإِيجاد، إِنما معناه: كن بحال كذا، أَو على وتيرة كذا، وفي هذا [يندرج جريان][(٣)] الفلك وغيره، وفي تسخير الفُلك ينطوي تسخير البحر وتسخير الرياح، وأَما تسخير الأَنهار فتفجيرها في كل بلد وانقيادها للسقي وسائر المنافع.

و﴿دَآئِبَيْنِ﴾ معناه: متمادين، ومنه قول النبي ﷺ لصاحب الجمل الذي بكى وأَجهش إِليه: «إِن هذا الجمل شكا إِليَّ أَنك تجيعه وتدئبه»[(٤)]، أَي: تديمه في الخدمة والعمل.

وظاهر الآية أَن معناه: دَائِبَيْنِ في الطلوع والغروب وما بينهما من المنافع للناس التي لا تُحصى كثرة، وحكى الطبريُّ عن مقاتل بن حيان، يرفع إلى ابن عباس، أَنه قال: معناه: دائبين في طاعة الله[(٥)]، وهذا قول إِن كان يُراد به أَن الطاعة انقياد منهما في

---

(١) في المطبوع: «الجواب».

(٢) كما تقدم ذلك عنهما مراراً.

(٣) في المطبوع وأحمد٣: «تدريج دوران».

(٤) أخرجه أبو داود (٢٥٥١) والحاكم (٢/ ١٠٩) وغيرهما من طريق: مهدي بن ميمون ثنا محمد بن عبد الله بن أبي يعقوب عن الحسن بن سعد مولى الحسن بن علي عن عبد الله بن جعفر رضي الله عنهم قال: أردفني رسول الله ﷺ ذات يوم خلفه فأسر إلي حديثاً لا أحدث به أحداً من الناس... وفيه قصة الجمل، وأخرجه مسلم (٣٤٢) من طريق آخر عن الحسن به، دون قصة الجمل.

(٥) ضعيف، أخرجه الطبري (١٦/ ١٤) عن خلف بن واصل، عن رجل، عن مقاتل عن عكرمة عن ابن عباس، ولا يعرف من الرجل.

التسخير فذلك موجود في قوله: ﴿وَسَخَّرَ﴾، وإن كان يُراد أَنها طاعة مقصودة كطاعة العباد من البشر فهذا بعيد[١]، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَءَاتَىٰكُم﴾ للجنس من البشر، أَي: أَن الإِنسان بجملته قد أُوتي من كل ما شأْنه أَن يُسأَل ويُنتفع به، ولا يطرد هذا في واحد من الناس، وإِنما تفرقت هذه النعم في البشر، فيقال بحسب هذا للجميع: أُوتيتم كذا، على جهة التعديد للنعمة، وقيل: المعنى: وَآتاكُمْ مِنْ كُلِّ ما [سَأَلْتُمُوهُ أن لو سأَلتموه][٢].

قال القاضي أبو محمد: وهذا قريب من الأَول.

و﴿مَا﴾ في قوله: ﴿مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ يصح أَن تكون مصدرية، ويكون الضمير في قوله: ﴿سَأَلْتُمُوهُ﴾ عائداً على الله تعالى، ويصح أَن تكون ﴿مَا﴾ بمعنى الذي، ويكون الضمير عائداً على الذي.

وقرأَ الضحاك بن مزاحم وابن عباس: (من كلٍّ ما سألتموه) بتنوين (كُلٍّ)، وهي قراءَة الحسن، وقتادة، وسلام، ورويت عن نافع[٣].

والمعنى: وآتاكم من كل هذه المخلوقات المذكورات قبلُ ما من شأْنه أَن يُسأَل لمعنى الانتفاع به، فـ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ مفعول ثانٍ بـ(آتاكم)، وقال بعض الناس: مَا نافية على هذه القراءَة، أَي: أَعطاكم من كُلٍّ شيئاً [ما سأَلتموه، والمفعول الثاني هو قولنا: «شيئاً»، فعدَّد على هذه النعمةَ في تفضله بما لم يسأَله البشر من النعم، وكأَن ما سأَلوه][٤] لم يعرض له.

---

(١) في الأصل والمصرية: «جيد».

(٢) في المصرية بدل هذا: «شئتموه».

(٣) وهي شاذة، رواها محمد بن إسحاق المسيّبي عن أبيه عن نافع، كما في جامع البيان (٣/ ١٢٥٨)، وليست من طرق التيسير ولا النشر، وعزاها في المحتسب (١/ ٣٦٣) لابن عباس والحسن والضحاك وزاد الثعلبي (٥/ ٣٢٠) سلاما، والكل في البحر المحيط (٦/ ٤٤٠).

(٤) ساقط من الأصل.

قال القاضي أبو محمد: وهذا تفسير الضحاك[(١)].

وأَما القراءَة الأُولى بإِضافة ﴿كُلِّ﴾ إِلى ﴿مَا﴾ فلا بُدَّ من تقدير المفعول الثاني: جُزءاً أو شيئاً أَو نحو هذا.

وقوله: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ أَي: لكثرتها وعظمها في الحواس والقوى، والإِيجاد بعد العدم، إِلى الهداية للإِيمان وغير ذلك.

وقال طلق بن حبيب[(٢)]: «إِن حقَّ الله أَثقل من أَن يقوم به العباد، ونعمه أَكثر من أَن يُحصيها العباد، ولكن أصبِحوا توابين وأمسوا توابين»[(٣)].

وقال أَبو الدرداءِ: «من لم ير نعمة الله عليه إِلا في مطعمه ومشربه فقد قلَّ علمه وحَضر عذابه»[(٤)].

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ يريد به النوعَ والجنسَ، المعنى: توجد فيه هذه الخلال، وهي الظلم والكفر، فإِن كانت هذه الخلال من جاحد فهي بصفة، وإِن كانت من عاص فهي بصفة أُخرى.

قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ (٣٥) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٦) رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (٣٧)﴾.

---

(١) تفسير الطبري (١٧/ ١٥).

(٢) هو طلق بن حبيب العنزي البصري روى عن ابن عباس، وجابر، وأنس، وعنه: منصور، والأعمش، وسليمان التيمي، وجماعة. وكان صالحاً عابداً شديد البر بأمه طيب الصوت بالقرآن، يتكلم على الناس ويعظ، توفي بعيد المئة. تاريخ الإسلام (٧/ ١٢١).

(٣) تفسير الطبري (١٧/ ١٦).

(٤) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٤/ ١١٣) من طريق: يزيد بن إبراهيم ـ وهو التستري البصري ـ عن الحسن قال: قال أبو الدرداء.. وهذا منقطع.

المعنى: واذكر إِذ قال إِبراهيم، و﴿ٱلْبَلَدَ﴾: مكة، و﴿ءَامِنًا﴾ معناه: فيه أَمْن، فوصفه بالأَمن تجوُّزاً، كما قال: ﴿فِي يَوۡمٍ عَاصِفٍ﴾[إبراهيم: ١٨]، وكما قال الشاعر:

.... وَمَـا لَيْلُ الْمَطِـيِّ بِنَائِمِ[١] [الطويل]

و﴿وَٱجْنُبْنِي﴾ معناه: امنعني، يقال: جَنَـبَه كذا وجَنَّـبَه وأَجنَبَه: إِذا منعه من الأَمر وحماه منه.

وقرأَ الجحدريُّ والثقفي: (وأَجْنِبْني) بقطع الأَلف وكسر النون[٢].

وأَراد إبراهيم[٣] بني صُلْبه، وكذلك[٤] أُجيبت دعوته فيهم، وأَما باقي نسله فقد عبدوا الأَصنام، وهذا الدعاءُ من الخليل عليه السلام يقتضي إفراط خوفه على نفسه ومن حصل في رتبته، فكيف يخاف أَن يعبد صنماً؟ لكن هذه الآية ينبغي أَن يُقتدى بها في الخوف وطلب الخاتمة.

والأَصنام هي المنحوتة على خلقة البشر، وما كان منحوتاً على غير خِلْقة البشر فهي أَوثان، قاله الطبري عن مجاهد[٥]، ونسب إِلى الأَصنام أَنها أَضلت كثيراً من الناس تجوُّزاً إِذ كانت عرضة الإِضلال والأَسبابَ المنصوبة للغي، وعليها ينشأ الأعمار[٦]، وحقيقة الإِضلال إِنما هي لمخترعه، [وقيل: أراد بالأَصنام هنا الدنانير والدراهم][٧].

---

(١) أوله: لَقَدْ لُمْتِنَا يا أُمَّ غَيْلَانَ في السُّرَى، ونمت... وقد سبق الاستشهاد به عند الآية (١٨) من هذه السورة.

(٢) المحتسب (١/ ٣٦٣)، وزاد أبا الْهَجْهاج.

(٣) في المطبوع وأحمد٣ بدل الكلمتين: «و﴿وَبَنِيَّ﴾ أَراد»، وفي المصرية: «وأولاد إبراهيم بنو صلبه».

(٤) في المطبوع وأحمد٣: «ولذلك».

(٥) لفظه في تفسير الطبري (١٧/ ١٧): والصنم: التمثال المصوّر، ما لم يكن صنماً فهو وثَن.

(٦) كذا في الأصل لا واو بعدها، وفي المطبوع وأحمد٣: «منشأُ الأَعمال»، وفي التركية: «الأعماء»، وفي نجيبويه: «الإضمار».

(٧) زيادة من الأصل والإماراتية.

[٣/ ١١١] وقوله / : ﴿وَمَنْ عَصَانِي﴾ ظاهره: بالكفر، لمعادلة قوله: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي﴾، وإِذا كان ذلك كذلك فقوله: ﴿فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ معناه: بتوبتك على الكفرة حتَّى يؤْمِنوا، لا أَنه أَراد أَن الله يغفر لكافر، ولكن حمله على هذه العبارة ما كان يأْخذ نفسه به من القول الجميل والنطق[١] الحسن وجميل الأدب عليه السلام.

قال قتادة: اسمعوا قول الخليل، والله ما كانوا طعَّانين ولا لعَّانين[٢].

وكذلك قال نبيُّ الله عيسى: ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨].

وأَسند الطبريّ عن عبد الله بن عمرو حديثاً أن النبي ﷺ تلا هاتين الآيتين، ثم دعا لأُمته فبُشِّر فيهم[٣].

وكان إِبراهيم التيمي يقول: «من يأْمن على نفسه بعد خوف إبراهيم الخليل على نفسه من عبادة الأَصنام؟»[٤].

وقوله: ﴿مِن ذُرِّيَّتِي﴾ يريد إِسماعيل عليه السلام، وذلك أَن سارة لما غارت بهاجر[٥] بعد أَن ولدت إِسماعيل تعذَّب إِبراهيم عليه السلام بهما، فروي أنه ركب البراق هو وهاجر والطفل، فجاءَ في يوم واحد من الشام إِلى بطن مكة، فنزل وترك[٦] ابنه وأَمَتَه هنالك، وركب منصرفاً من يومه ذلك، وكان هذا كله بوحي من الله تعالى، فلما ولَّى دعا بمُضمَّن هذه الآية، وأَما كيفية بقاءِ هاجر وما صنعت وسائر خبر إِسماعيل ففي كتاب البخاري والسِّير وغيره[٧].

---

(١) في نجيبويه: «النظر».
(٢) تفسير الطبري (١٧/ ١٨).
(٣) مسلم (٢٠٢).
(٤) تفسير الطبري (١٧/ ١٧) بلفظ: «من يأمن من البلاء بعد خليل الله إبراهيم، حين يقول... إلخ».
(٥) في المطبوع وأحمد٣: «لهاجر».
(٦) في المطبوع وأحمد٣: «ونزل».
(٧) البخاري (٣٣٦٤) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

و(مِنْ) في قوله: ﴿مِن ذُرِّيَّتِي﴾ للتبعيض، لأَن إِسحاق كان بالشام، والْوَادِي: ما بين الجبلين، وليس من شروطه أَن يكون فيه ماءٌ.

وهذه الآية تقتضي أَن إِبراهيم عليه السلام قد كان عَلِمَ من الله تعالى أَن الله لا يُضَيِّع هاجر وابنها في ذلك الوادي، وأَنه يرزقهما الماءَ، وإِنما نظر النظر البعيد للعاقبة فقال: ﴿غَيْرِ ذِى زَرْعٍ﴾، ولو لم يعلم ذلك من الله لقال: غير ذي ماءٍ، على ما كانت عليه حال الوادي عند ذلك.

وقوله: ﴿عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾ إِما أَن يكون البيت قد كان قديماً على ما رُوي قبل الطوفان، وكان علمه عند إِبراهيم، وإِما أَن يكون قالها لما كان قد أَعلمه الله تعالى أَنه سيبني هنالك بيتاً لله تعالى فيكون مُحَرَّماً، والمعنى: محرَّماً على الجبابرة أَن تُنْتَهك حرمته ويُستخف بحقه، قاله قتادة وغيره[1].

وجَمْعُه الضمير في قوله: ﴿لِيُقِيمُواْ﴾ يدل على أَن الله قد أَعلمه أَن ذلك الطفل سيعقب هنالك ويكون له نسل.

واللام في قوله: ﴿لِيُقِيمُواْ﴾ هي لام «كي»، هذا هو الظاهر فيها، على أَنها متعلقة بـ﴿أَسْكَنتُ﴾، والنداءُ اعتراضٌ، ويصحُّ أَن تكون لامَ أَمْر، كأَنه رغب إِلى الله أَن يوفِّقهم لإقامة الصلاة، ثم ساق عبارة ملزمة لهم إِقامة الصلاة، وفي اللفظ ـ على هذا التأْويل ـ بعضُ تجوُّز يربطه المعنى ويُصلحه.

و(الأَفْئِدَةُ): القلوب، جمع فؤاد، سمي بذلك لانفئاده[2]، مأْخوذ من: فَأَدَ، ومنه المُفْتَأَد، وهو مستوقَد النار حيث يشوى اللحم.

وقرأَ ابن عامر بخلاف عنه: ﴿فاجْعَلْ أَفْئِيدَةً﴾ بياءٍ بعد الهمزة[3].

---

(١) تفسير الطبري (١٧/ ٢١)

(٢) في الأصل والإماراتية: «لاتقاده»، وفي نجيبويه: «لاتفاده».

(٣) وهي سبعية عنه من رواية هشام كما في التيسير (ص: ١٣٥).

وقوله: ﴿مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ تبعيض، ومراده: المؤمنون، قال مجاهد: «لو قال إبراهيم: أَفئدة الناس، لازدحمت على البيت فارس والروم»، وقال سعيد بن جبير: «لَحَجَّتْه اليهود والنصارى»[(١)].

و﴿تَهْوِىٓ﴾ معناه: تسير بجدٍّ وقصد مستعجل، ومنه قول الشاعر:

[الكامل] وَإِذَا رَمَيْتَ بِهِ الْفِجَاجَ رَأَيْتَهُ يَهْوِي مَخَارِمَهَا هُوِيَّ الأَجْدَلِ[(٢)]

ومنه البيت المروي:

[السريع] تَهْوِي إِلَى مَكَّةَ تبغي الْهُدَى ما مُؤْمِنُو الْجِنِّ كَأَنْجَاسِهَا[(٣)]

وقرأ سلمة بن عبد الله: (تُهْوِي) بضم التاءِ، مِنْ أَهوى، وهو الفعل المذكور معدًّى بالهمزة، وقرأ علي بن أَبي طالب، ومحمد بن علي، ومجاهد: (تَهْوَى) بفتح التاءِ والواو[(٤)].

وتعدَّى هذا الفعل ـ وهو من الهُوِيِّ ـ بـ(إلى) لما كان مقترناً بسَيْرٍ وقصد.

وروي عن مسلم بن محمد الطائفي[(٥)] أَنه لما دعا عليه السلام بأَن يرزق سكان مكة من الثمرات بعث الله جبريل فاقتلع بجناحه قطعة من أَرض فلسطين، وقيل: من الأُردن، فجاءَ بها وطاف حول البيت بها سبعاً ووضعها قريب مكة، فهي الطائف، وبهذه القصة سُمِّيت، وهي موضع ثقيف، وبها أَشجار وثمرات، [وثم هي ركبة][(٦)].

---

(١) انظر قولهما في: تفسير الطبري (١٧/ ٢٥)

(٢) البيت لأبي كبير عامر بن الحُلَيس الهُذَلي، كما في الشعر والشعراء (٢/ ٦٦١)، والمحكم (٥/ ١٨٤)، ومعجم مقاييس اللغة (٦/ ١٦).

(٣) في المطبوع: «كأجناسها»، والبيت لرئي أحد الكهان كما في سيرة ابن هشام (١/ ٢١١)، وتاريخ دمشق (٧٢/ ٣٢٥).

(٤) وهما شاذتان، انظر عزوها لهم في: المحتسب (١/ ٣٦٤)، وفيه وفي نور العثمانية والإمارتية: «مسلمة»، وأشار لها في هامش أحمد٣، وعزا الثانية النحاس في معاني القرآن (٣/ ٥٣٦) لمجاهد.

(٥) كذا في النسخ، والصواب أنه محمد بن مسلم الطائفي، كما في الطبراني (١٧/ ٢٦-٢٧).

(٦) زيادة من الأصل والإماراتية.

قوله عز وجل: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾.

مقصد إِبراهيم عليه السلام [بقوله: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُ﴾](١) التنبيه على اختصاره في الدعاء، وتفويضه إِلى ما علم الله من رغائبه وحرصه على هداية بنيه والرفق بهم، وغير ذلك، ثم انصرف إِلى الثناءِ على الله تعالى بأَنه علام الغيوب، وإِلى حمده على هباته، وهذه من الآيات المُعْلمة أَن علم الله تعالى بالأَشياءِ هو على التفصيل التام.

ورُوي في قوله: ﴿عَلَى ٱلۡكِبَرِ﴾ أنه وُلد له إِسماعيل وهو ابن مئة وسبعة عشر عاماً، ورُوي أَقل من هذا، وإِسماعيل أَسَنُّ من إِسحاق فيما روي، وبحسب ترتيب هذه الآية.

ورُوي عن سعيد بن جُبير أَنه قال: «بُشِّر إِبراهيم وهو ابن مئة وسبعة عشر عاماً»(٢).

وقوله: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾، دعا إِبراهيم عليه السلام في أَمر كان مثابراً عليه، متمسكاً به، ومتى دعا الإِنسان في مثل هذا فإِنما القصد إِدامة ذلك الأَمر واستمراره.

وقرأ طلحة والأَعمش: ﴿دُعَآءِ * رَبَّنَا﴾ بغير ياءٍ، وقرأَ أَبو عمرٍو وابن كثير: ﴿دُعَاءِي﴾ بياءٍ ساكنة في الوصل، وأَثبتها بعضهم دون الوقف في الوصل، وقرأَ نافع، وابن عامر، وحمزة، والكسائي بغير ياءٍ في وصل ولا وقف، وروى / ورش عن نافع [٣/ ١١٢] إِثبات الياءِ في الوصل(٣).

---

(١) ساقط من أحمد٣ والمطبوع.

(٢) تفسير الطبري (١٧/ ٢٧).

(٣) فيه تخليط وتداخل وقصور بيِّن، وحاصل طرق التيسير (ص: **١٣٥**) أن في هذه الكلمة ثلاث قراءات، الأولى قراءة الجمهور بكسر الهمز وحذف الياء وصلاً ووقفاً، لابن عامر وعاصم والكسائي ونافع من رواية قالون، وابن كثير من رواية قنبل، والثانية إثبات الياء وصلاً لا وقفاً، وهي لحمزة وأبي عمرو، وورش عن نافع، والثالثة بإثباتها في الحالين للبزي عن ابن كثير، وضبطها في المطبوع: «دعايْ».

وقرأت فرقة: ﴿وَلِوَالِدَيَّ﴾، واختلف في تأْويل ذلك:

فقالت فرقة: كان هذا من إِبراهيم قبل يأْسه من إِيـمان أَبيه وتَـبَـيُّـنِـهِ أَنه عدوٌّ لله، فأَراد أَباهُ وأُمه لأَنها كانت مؤمنة.

[وقيل: أَراد أُمه ونوحاً عليه السلام، وقيل: أَراد آدم وحوَّاءَ لأَن أُمه لم تكن مؤمنة][1].

وقيل: أَراد آدم ونوحاً عليهما السلام.

وقرأ سعيد بن جبير: (وَلِوَالِدِي) بإِفراد الأَب وحده[2]، وهذا يدخله ما تقدم من التأْويلات.

وقرأَ الزهري، وإِبراهيم النَّخَعيّ: (وَلِـوَلَـدَيَّ)[3] على أَنه دعاءٌ لإِسماعيل وإِسحاق[4]، وأَنكرها عاصم الجحدري، وقال: إِن في مصحف أُبيٍّ بن كعب: (ولأَبوَيَّ)[5].

وقرأ يحيى بن يَعْمَر: (ولِوُلْدِي) بضم الواو وسكون اللام[6].

والوُلْد لغة في الولَد، ومنه قول الشاعر وأَنشده[7] أَبو عليٍّ وغيره:

فَلَيْتَ زِيَـاداً كانَ في بَطْنِ أُمِّهِ وَلَيْتَ زياداً كان وُلْدَ حِمارِ[8] [الطويل]

ويحتمل أَن يكون الوُلْدُ جمع وَلَد[9]، كأُسْدٍ في جمع أَسَدٍ.

---

(١) ساقط من الأصل.
(٢) انظر عزوها له في: المحتسب (١/ ٣٦٥).
(٣) وهما شاذتان، انظر عزاهما في: المحتسب (١/ ٣٦٥)، وزاد في الثانية الحسين بن علي، وأبا جعفر محمد بن علي.
(٤) سقط من المصرية.
(٥) وهي شاذة عزاها له الزمخشري في الكشاف (٢/ ٥٦٢)، وابن خالويه في مختصر الشواذ (ص: ٧٣).
(٦) انظر: المحتسب (١/ ٣٦٥).
(٧) في المطبوع: «وأسند» وهو تصحيف، وفي أحمد٣: «ومنه ما أنشد أبو علي... إلخ».
(٨) بلا نسبة في معاني القرآن للفراء (٢/ ١٧٣)، وإصلاح المنطق (ص: ٣٤)، والحجة لأبي علي (٥/ ٢١١).
(٩) في المطبوع هنا زيادة: «لا»، وهو خطأ مطبعي.

وقوله: ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ﴾ يعني: يوم يقوم الناس للحساب، فأَسند القيام إِلى الحساب إِيجازاً إِذ المعنى مفهوم.

قال القاضي أبو محمد: ويتوجه أَن يريد قيام الحساب نفسه، ويكون القيام بمعنى ظهوره وتَلَبُّس العباد بين يدي الله به، كما تقول: قامت السوقُ، وقامت الصلاة، [كما قال:][1] وقامت الحرب على ساق[2].

قوله عز وجل: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمۡ لِيَوۡمٖ تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ٤٢ مُهۡطِعِينَ مُقۡنِعِي رُءُوسِهِمۡ لَا يَرۡتَدُّ إِلَيۡهِمۡ طَرۡفُهُمۡۖ وَأَفۡـِٔدَتُهُمۡ هَوَآءٞ ٤٣ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوۡمَ يَأۡتِيهِمُ ٱلۡعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رَبَّنَآ أَخِّرۡنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ نُّجِبۡ دَعۡوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَۗ أَوَلَمۡ تَكُونُوٓاْ أَقۡسَمۡتُم مِّن قَبۡلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٖ ٤٤﴾.

هذه الآية بجملتها فيها وعيد للظالمين، وتسلية للمظلومين، والخطاب بقوله: ﴿تَحۡسَبَنَّ﴾، لمحمد عليه السلام، والمراد بالنهي غيره مِمَّن يليق[3] به أَن يحسب مثل هذا.

وقرأَ طلحة بن مصرف: (ولا تحسب الله غافلاً) بإِسقاط النون، وكذلك: (فلا تحسب الله مخلف وعده)[4].

وقرأَ أَبو حيوة، وأبو عبد الرحمن، والحسن، والأَعرج: (نُؤَخِّرُهُمْ) بنون العظمة[5].

وقرأَ الجمهور: ﴿يُؤَخِّرُهُمۡ﴾ بالياءِ، أَي: الله تعالى.

---

(١) سقطت من الأصل.

(٢) ورد هذا التمثيل به في: تفسير ابن فورك (٣/ ٩٨)، وغريب القرآن لابن قتيبة (ص: ٤٨١)، والصحاح للجوهري (٤/ ١٤٩٩).

(٣) في المطبوع: «تَلَبَّس».

(٤) إبراهيم: (٤٧)، وهي شاذة تابعه عليها في البحر المحيط (٦/ ٤٥١).

(٥) وهي شاذة، انظر عزوها للحسن والسلمي في: مختصر الشواذ (ص: ٧٣)، وللأعرج في البحر المحيط (٦/ ٤٥١)، وزاد آخرين، وأما أبو حيوة فلم أجد من نقلها عنه، وهو زيادة من المطبوع، وفيه «عبد الرحمن» دون كنية.

و﴿تَشۡخَصُ﴾ معناه: تُحِدُّ النظر لفزع، ولفرط ذلك يشخص المحتضَر.

والمُهْطِع: المُسْرِعُ في مشيه، قاله ابن جبير وقتادة[١].

قال القاضي أبو محمد: وذلك بِذِلَّة واستكانة، كإِسْراع الأَسير الخائف ونحوه، وهذا هو أَرجح الأَقوال، وقد توصف الإِبل بالإِهطاع على معنى الإِسراع، وقلَّما يكون إِسراعها إِلاَّ مع خوف السوط ونحوه، فمن ذلك قول الشاعر:

[الكامل] وَبِمُهْطِعٍ سُرُحٍ كَأَنَّ عِنَانَهُ ... في رأْسِ جِذْعٍ مِنْ أَوَالَ مُشَذَّبِ[٢]

ومن ذلك قول عِمْرانَ بن حِطَّان:

[البسيط] إِذَا دَعَانَا فَأَهْطَعْنَا لِدَعْوَتِهِ ... داعٍ سميعٌ فَلَفُّونا وسَاقُونا[٣]

ومنه قول ابن مفرِّغ:

[الوافر] بِدِجْلَةَ دارُهُمْ وَلَقَدْ أَرَاهُمْ ... بِدِجْلَةَ مُهْطِعِينَ إِلَى السَّمَاعِ[٤]

ومن ذلك قول الآخر:

[الطويل] بِمُسْتَهْطِعٍ رَسْلٍ كَأَنَّ جَدِيلَهُ ... بِقَيْدُومِ رَعْنٍ مِنْ صَوامٍ مُمَنَّعُ[٥]

وقال ابن عباس[٦]، وأَبو الضحى: الإهطاع: شدة النظر من غير أَن يطرف[٧].

---

(١) انظر: تفسير الثعلبي (٥/ ٣٢٤)، ولفظه: قال قتادة: مسرعين، سعيد بن جبير عنه: منطلقين

(٢) البيت لأنيف بن جبلة الضَّبِّيّ الجمحيّ فَارس الشيط، كما في أمالي الزجاجي (ص: ٣)، وأَوَالُ: قرية بالبحرين، وقيل: جزيرة.

(٣) انظر عزوه له في: البحر المحيط (١٣/ ١٩٠) طبعة الرسالة، وفي الأصل: «فلونا» وهي خطأ.

(٤) انظر عزوه له في: مجاز القرآن (١/ ٣٤٣)، تاج العروس (٢٢/ ٣٩٨).

(٥) بلا نسبة في مجاز القرآن (١/ ٣٤٣)، وتفسير الطبري (١٧/ ٣١)، وتفسير الثعلبي (٥/ ٣٢٥)، وأساس البلاغة (٢/ ٣٧٦)، مع اختلاف ألفاظه، والرَّعْن: أنف الجبل، وقيدوم الجبل: أَنْفٌ يتقدم منه، والقيدوم الرَّعْن: هو الأنف المندفع في ارتفاعه، وصَوَام (كسَحَابٍ): اسم جبل.

(٦) أخرجه الطبري (١٧/ ٢٩) من طريق عطية العوفي عن ابن عباس.

(٧) تفسير الطبري (١٧/ ٢٩).

وقال ابن زيد: «المهطع الذي لا يرفع رأْسه»[١].

قال أَبو عبيدة: «قد يكون الإِهطاع للوجهين جميعاً: الإِسراع وإِدامة النظر»[٢].

والمُقْنِع هو الذي يرفع رأْسه قدماً بوجهه نحو الشيءِ، ومن ذلك قول الشاعر:

يُبَاكِرْنَ الْعِضَاهَ بِمُقْنَعَاتٍ نَوَاجِذُهُنَّ كالحِدَأ الْوَقِيع[٣] [الوافر]

يصف الإِبل بالإِقناع عند رعيها أَعالي الشجر.

وقال الحسن في تفسير هذه الآية: «وجوه الناس يوم القيامة إِلى السماءِ، لا ينظر أَحد إِلى أَحد»[٤]، وذكر المبرِّد فيما حكى عنه مكي أنَّ الإِقناع يوجد في كلام العرب بمعنى خفض الرأْس من الذِّلَّة[٥].

قال القاضي أبو محمد: والأَول أَشهر.

وقوله: ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ أَي: لا يطرفون من الحذر والجزع وشدة الحال.

وقوله: ﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ تشبيه محض، لأَنها ليست بهواءٍ حقيقةً، وجهة التشبيه يحتمل أَن تكون في فراغ الأَفئدة من الخير والرجاءِ والطمع في الرحمة، فهي منخرقة مشبِهةٌ الهواءَ في تفرغه من الأَشياء وانخراقه، ويحتمل أَن يكون في اضطراب أَفئدتهم وجيشانها في صدورهم، وأنها تجيءُ وتذهب وتبلغ ـ على ما رُوي ـ حناجرهم، فهي في ذلك كالهواءِ الذي هو أَبداً في اضطراب.

---

(١) تفسير الطبري (١٧/ ٣٠).

(٢) اقتصر في مجاز القرآن (١/ ٣٤٣)، على معنى الإسراع في مواضعه الثلاثة.

(٣) البيت للشَّمَّاخ بن ضرار، كما في مجاز القرآن (١/ ٣٤٣)، وتفسير الطبري (١٧/ ٣١)، والعين (٣/ ٢٧٩)، والصحاح للجوهري (١/ ٤٣).

(٤) انظره بلفظه في: تفسير الطبري (١٧/ ٣٢).

(٥) الهداية الى بلوغ النهاية (٥/ ٣٨٣٥)، ولفظ المبرد في الكامل (٣/ ٩١): المقنع: الرافع رأسه، في هذا الموضع، ويقال في غيره: الذي يحط رأسه استخذاء وندماً؛ قال الله جل وعز: ﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾... إلخ، وسقط ذكر «مكي» من المطبوع.

قال القاضي أبو محمد: وعلى هاتين الجهتين يشبَّه قلب الجبان وقلب الرجل المضطرب في أُموره بالهواءِ، فمن ذلك قول الشاعر:

[الطويل] ولا تَكُ مِنْ أَخْدَانِ كُلِّ يَرَاعَةٍ هَواءٍ كَسَقْبِ النَّابِ جُوفاً مَكَاسِرُهْ[١]

ومن ذلك قول حسَّان:

[الوافر] أَلا أَبْلِغ أَبا سُفْيَانَ عَنِّي فَأَنْتَ مُجَوَّفٌ نَخِبٌ هَوَاءُ[٢]

ومن ذلك قول زهير:

[الوافر] كَأَنَّ الرَّحْلَ مِنْه فَوْقَ صَعْلٍ مِنَ الظِّلْمَانِ جُؤْجُؤُهُ هَوَاءُ[٣]

فالمعنى أَنه في غاية الخفَّة [في إِجفاله][٤].

وقوله تعالى: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ الآية، المرادُ باليوم يومُ القيامة، ونصبه على أَنه مفعول بـ﴿وَأَنذِرِ﴾، ولا يجوز أَن يكون ظرفاً لأَن القيامة ليست بموطن إِنذار.

وقوله: ﴿فَيَقُولُ﴾ رفع عطفاً على قوله: ﴿يَأۡتِيهِمُ﴾.

وقوله: ﴿أَوَلَمۡ تَكُونُوٓاْ﴾ إِلى آخر الآية معناه: يقال لهم، فحذف ذلك إِيجازاً إِذ المعنى يدلُّ عليه، وقوله: ﴿مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ هو المقسم عليه نقل المعنى، و﴿مِّن زَوَالٍ﴾ معناه: من الأَرض بعد الموت، أَي: لا بعث من القبور، وهذه الآية ناظرة إِلى ما حكي عنهم في قوله: ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَا يَبۡعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾[النحل: ٣٨].

---

(١) في المطبوع: «البان»، والبيت في لسان العرب (٨/ ٤١٣) عن ابن بري لكعب الأمثال، وهو في مجاز القرآن (١/ ٣٤٤) بلا نسبة.

(٢) يعني أبا سفيان بن الحارث، انظر عزوه له في: تفسير الطبري (١٧/ ٣٥)، ومجاز القرآن (١/ ٣٤٤)، والعين (٤/ ١٠٤).

(٣) انظر عزوه له في: الحيوان (٤/ ٤٥٣)، وعيون الأخبار (٢/ ٨٢)، والكامل للمبرد (١/ ٢٦٢)، والعقد الفريد (٧/ ٢٦١).

(٤) ساقط من المصرية.

قوله عز وجل: ﴿وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾﴾ / [٣/ ١١٣]

يقول عزَّ وجلَّ: ﴿وَسَكَنتُمْ﴾ أَيها المعرضون عن آيات الله من جميع العالم ﴿فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ بالكفر من الأُمم السالفة فنزلت بهم المَثُلات، فكان نولكم[(١)] الاعتبار والاتعاظ.

وقرأَ الجمهور: ﴿وَتَبَيَّنَ﴾ بتاءٍ، وقرأَ السُّلَمي فيما حكى المهدوي: (وَنُـبَيِّنْ) بنون عظمة مضمومة وجزم، على معنى: أَولم نُـبَيِّنْ، عطف على ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟﴾، قال أَبو عمرو: «وقرأَ أَبو عبد الرحمن بضم النون الأُولى[(٢)] ورفع النون الآخرة»[(٣)].

وقوله: ﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾ [هو على حذف مضاف تقديره: وعند الله عقاب مكرهم، أَو][(٤)] جزاءُ مكرهم.

ويحتمل قوله تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ﴾ أَن يكون خطاباً لمحمد عليه السلام والضمير لمعاصريه، ويحتمل أَن يكون مما يقال للظَّلَمة يوم القيامة، والضمير للذين سُكن في منازلهم.

وقرأَ السبعة سوى الكسائي: ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ بكسر

---

(١) أي: حقكم، وفي المطبوع وأحمد٣ والإماراتية والمصرية ونجيبويه: «قولكم».

(٢) من المطبوع وأحمد٣.

(٣) انظر: التحصيل للمهدوي (٤/ ٢٥٠)، والقولان في البحر المحيط (٦/ ٤٥٣)، وعزاها له مختصر الشواذ (ص: ٧٣)، مشكولة بالضم.

(٤) ساقط من المصرية وفيها بدلاً منها: «أي».

اللام الأولى[١] من ﴿لِتَزُولَ﴾ وفتح الأخيرة، وهي قراءَة علي بن أَبي طالب وجماعة، وهذا على (أَن) تكون إِنْ نافية بمعنى «ما»، ومعنى الآية تحقير مكرهم، وأَنه ما كان لتزول منه الشرائع والنبوات وأَقدار الله بها التي هي كالجبال في ثبوتها وقوتها، هذا تأْويل الحسن وجماعة المفسرين[٢].

وتحتمل عندي هذه القراءَة أَن تكون بمعنى تعظيم مكرهم، أَي: وإِن كان شديداً إِنما يُفعل لتذهب به عظام الأُمور.

وقرأَ الكسائي: ﴿وإن كان مكرهم لَـتَزُولُ منه الجبال﴾ بفتح اللام الأُولى من ﴿لَتَزُولُ﴾ وضم الأخيرة[٣]، وهي قراءَة ابن عباس، ومجاهد، وابن وثاب[٤]، وهذا على أَن تكون (إِنْ) مخففة من الثقيلة، ومعنى الآية تعظيم مكرهم وشدته، أَي: أَنه مما يُشقى به، ويزيل الجبال من مستقراتها بقوته، ولكن الله تعالى أَبطله ونصر أَولياءَه، وهذا أَشد في العبرة.

وقرأَ علي بن أَبي طالب، وابن مسعود، وعمر بن الخطاب، وَأُبيٌّ بن كعب: (وإِن كاد مكرهم)[٥]، ويترتب مع هذه القراءَة في ﴿لِتَزُولَ﴾ ما تقدم.

وذكر أَبو حاتم أَن في قراءَة أُبيٍّ بن كعب: (وَلَوْلاَ كَلِمَةُ اللَّهِ لَـزَالَ مِنْ مَكْرِهِمُ الْجِبَالُ)[٦].

---

(١) سقطت من الأصل، وسقطت «من لتزول» من المطبوع وأحمد٣.

(٢) تفسير الطبري (١٧/ ٤١).

(٣) في المطبوع: «الأولى ورفع الثانية».

(٤) انظر قراءة الكسائي في: التيسير (ص: ١٣٥)، والباقين في البحر المحيط (٦/ ٤٥٤)، وانظر عزوها لعلي وابن عباس وأنس ومجاهد في تفسير الطبري (١٧/ ٤٠-٤١)، وعزاها الثعلبي (٥/ ٣٢٦)، لابن جريج، وعزاها في إتحاف فضلاء البشر (ص: ٣٤٤) لابن محيصن.

(٥) نقلها عنهم إلا أُبياً النحاس في إعراب القرآن (٢/ ٢٣٤)، وكذلك ابن جني في المحتسب (١/ ٣٦٥)، وزاد: أبي بن كعب وآخرين.

(٦) انظر: معاني القرآن للنحاس (٣/ ٥٤٣).

وحكى الطبريُّ عن بعض المفسرين أَنهم جعلوا هذه الآية إِشارة إِلى ما فعل نمروذ، إِذْ علَّق التابوت من[1] الأنسر ورفع لها اللَّحم في أَطراف الرِّماح بعد أَن أَجاعها، ودخل هو وحاجبه في التابوت، فعلت بهما الأَنسر حتى قال له النمروذ: ماذا ترى؟ قال: أَرى بحراً وجزيرة، يريد الدنيا المعمورة، ثم قال: ما ذا ترى؟ قال: أَرى غماماً ولا أَرى جبلاً، فكأَن الجبال زالت عن نظر العين بهذا المكر[2]، وذكر ذلك عن عليِّ بن أَبي طالب، وذلك عندي لا يصح عن عليٍّ[3]، وفي هذه القصة كلها ضعف من طريق المعنى، وذلك أَنه غير ممكن أَن تصعد الأَنسر كما وصف، وبعيد أَن يُغَرِّر أَحد بنفسه في مثل هذا.

وقوله: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ﴾ الآية، تثبيت للنبي عليه السلام ولغيره من أُمَّتِه، ولم يكن النبي عليه السلام ممن يحسب مثل هذا، ولكن خرجت العبارة هكذا، والمراد بما فيها من الزَّجر من شارك النبي عليه السلام في أَن قصد تثبيته.

وقرأَ جمهور الناس: ﴿مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ﴾ بالإِضافة، ﴿رُسُلَهُۥٓ﴾ بالنصب، وأَضاف ﴿مُخْلِفَ﴾ إِلى الْوَعْدِ إِذ للإِخلاف تعلق بالوعد على تجوُّز، وإِنما حقيقة تعلقه بالرسل، وهذا نحو قول الشاعر:

تَرَى الثَّوْرَ فيها مُدْخِلَ الظِّلِّ رأْسَه ... وسَائِرُهُ بادٍ إِلى الشَّمْسِ أَجْمَعُ[4] [الطويل]

وكقولك: هذا مُعْطِي درهم زَيْداً[5].

وقرأَت فرقة: (مخلفَ وعدَه رسلِه) بنصب الوعد وخفض الرسل على الإِضافة، وهذه القراءَة ذكرها الزَّجاج وضعَّفها[6]، وهي تَحُول بين المضاف والمضاف إِليه

---

(١) في المطبوع وأحمد٣: «بين».

(٢) تفسير الطبري (١٧/ ٣٩)، بالمعنى.

(٣) لم أقف عليه.

(٤) تقدم في تفسير الآية (٢٩) من سورة هود.

(٥) في المطبوع وأحمد٣: «هذا مُعْطِي زَيْدٍ درهماً».

(٦) ولفظه في معاني القرآن وإعرابه (٣/ ١٦٨): وهذه القراءة التي بِنَصْب الوَعْدِ وخَفْض الرسُل شاذَّة رديئة.

بالمفعول، وهو كقول الشاعر:

[مجزوء الكامل] فَـزَجَـجْـتُـهَـا بِـمَـزَجَّـةٍ زَجَّ الْـقَـلُـوصَ أَبِـي مَـزادَه[1]

وأَمَّا إِذا حِيلَ في نحو هذا بالظرف فهو أَشهر في الكلام كما قال الشاعر:

.... لِلَّهِ دَرُّ الْـيَـوْمَ مَـنْ لامَـهَـا[2]

وقال آخر:

[الوافر] كَمَـا خُـطَّ الْكِتَـابُ بِكَـفِّ يَوْمـاً يَـهُـودِيٍّ يُـقَـارِبُ أَوْ يُـزِيـلُ[3]

والمعنى: لا تحسب يا محمد أَنت ومن اعتبر بالأَمر من أُمَّتك وغيرهم أَن الله لا يُنْجِزُ ميعاده في نصره رسله وإِظهارهم، ومعاقبة من كفر بهم في الدنيا أو في الآخرة، فإِن الله عزيز لا يمتنع منه شيءٌ، ذو انتقام من الكفرة، لا سبيل إِلى عفوه عنهم.

وقوله: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ ﴾ الآية، ﴿ يَوْمَ ﴾ ظرف للانتقام المذكور قبله، ورُويت في تبديل الأَرض أَقوال:

منها في الصحيح: «أَن الله يبدل هذه الأَرض بأَرض عفراءَ بيضاءَ كأَنها قُرصَةُ نَقِيٍّ»[4].

وفي الصحيح: «أَن الله يبدلها خبزة يأْكل المؤمن منها من تحت قدميه»[5].

---

(١) تقدم في تفسير الآية (١٣٧) من سورة الأنعام.

(٢) صدره: لمَّا رأتْ ساتيدما استعبرتْ، البيت لعمرو بن قمئة اليشكري كما في الجمل في النحو (ص: ١٠٥)، والكتاب لسيبويه (١/ ١٧٨)، وإيضاح الشواهد (١/ ٢٣١) والمفصل للزمخشري (ص: ١٣٠)، والإنصاف لابن الأنباري (٢/ ٣٥٢) و«ساتيدما»: اسم جبل أو نهر.

(٣) تقدم في تفسير الآية (١٣٧) من سورة الأنعام.

(٤) مسلم (٢٧٩٠) من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه، والنَّقِيُّ: دقيق خالص البياض، والقرصة فطيرة مصنوعة منه.

(٥) متفق عليه، أخرجه البخاري (٦٥٢٠) ومسلم (٢٧٩٢) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

وروي «أَنها تبدل أَرضاً من فضة»[١]، وروي أَنها أَرض كالفضة في بياضها[٢].

وروي أَنها تبدل أَرضاً من نار[٣].

وقال بعض المفسرين: تبديل الأَرض هو نسف جبالها، وتفجير بحارها، وتَغْيِيرها حتى لا يُرى فيها عِوَج ولا أَمْتٌ[٤]، فهذه حال غير الأولى، وبهذا وقع التبديل.

قال القاضي أبو محمد: وسمعت من أَبي رضي الله عنه أَنه رُوي أَن التبديل يقع في الأَرض، ولكن يُبدَّل لكل فريق بما يقتضيه حاله، فالمؤمن يكون على خبز يأْكل منه بحسب حاجته إِليه، وفريق يكون على فضة، إِن صحَّ السند بها، وفريق الكفرة يكونون على نار، ونحو[٥] هذا مما كله واقع تحت قدرة الله تعالى.

وأَكثر المفسِّرين على أَن التبديل يكون بأَرض بيضاءَ عفراءَ لم يُعْصَ اللَّهُ فيها، ولا سُفك فيها دم، وليس فيها مَعْلم لأَحد.

وروي فيها عن النبي عليه السلام أَنَّه قال: «المؤمنون[٦] وقت التبديل في ظل العرش»[٧].

وروي عنه أَنه قال: «الناس وقت التبديل على الصراط»[٨].

---

(١) روي هذا عن علي وابن عباس وأنس بأسانيد لا يحتج بها، أخرجها الطبري (١٧/ ٤٦).

(٢) روى ذلك الطبري (١٧/ ٤٦) مرفوعاً بأسانيد ضعيفة لا تقوم بها الحجة، ورواه أبو إسحاق السبيعي عن عمرو بن ميمون، تارة يجعله من قوله، وتارة يزيد فيه: عن ابن مسعود. ورواه عاصم ابن أبي النجود عن زر بن حبيش عن ابن مسعود أيضاً، وعاصم ضعيف.

(٣) روي عن الأعمش، عن المنهال بن عمرو، عن قيس بن السكن، قال: قال عبد الله. وروي عن الأعمش، عن خيثمة، قال: قال عبد الله. أخرجهما الطبري (١٧/ ٤٨) وفي الإسنادين مقال، ولا يظهر فيهما الاتصال.

(٤) في المطبوع وأحمد٣: «حتى لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً».

(٥) في المطبوع: «ويجوز».

(٦) في المطبوع: «المؤمن».

(٧) لم أقف عليه.

(٨) مسلم، أخرجه رقم (٢٧٩١) من حديث عائشة.

وعنه أنه قال: «الناسُ حينئذ أضياف الله فلا يعجزهم ما لديه»[١].

و﴿وَبَرَزُوا﴾ مأخوذ من البَرَاز، أي: ظهروا بين يديه لا يواريهم بناءٌ ولا حِصْن.

وقوله: ﴿الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ صفتان لائقتان بذكر[٢] هذه الحال.

قوله عز وجل: ﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (٤٩) سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ (٥٠) لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٥١) هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ (٥٢)﴾/. [٣/ ١١٤]

المجرمون هم الكفار، و﴿مُقَرَّنِينَ﴾ مربوطين في قَرَنٍ وهو الحبل الذي يُشَدُّ به رُؤُوس الإبل والبقر، ومنه قول الشاعر:

[البسيط] وابْنُ اللَّبُونِ إِذَا مَا لُزَّ في قَرَنٍ ... لم يَسْتَطِعْ صَوْلَةَ الْبُزْلِ الْقَنَاعِيسِ[٣]

و﴿الْأَصْفَادِ﴾ الأغلال، واحدها: صَفَد، يقال: صَفَده وأَصْفَدَهُ وصَفَّدَه: إذا غَلَّلَهُ، والاسم الصفاد، ومنه قول سلامة بن جندل:

[الوافر] وَزَيْدُ الْخَيْلِ قَدْ لاقَى صِفَاداً ... يَعَضُّ بِسَاعِدٍ وبِعَظْم سَاقِ[٤]

كذلك يقال في العطاءِ، والصفد: العطاء، ومنه قول النابغة:

[البسيط] .... فَلَمْ أُعَرِّض أَبيْتَ اللَّعْنَ بالصَّفَدِ[٥]

---

(١) ضعيف جداً، أخرجه الطبري (١٧/ ٥٢) من طريق أبي بكر بن عبد الله بن أبي مريم عن سعيد بن ثوبان الكلاعي، عن أبي أيوب الأنصاري مرفوعاً، وابن أبي مريم متفق على ضعفه.

(٢) «ذكر»: ساقطة من المطبوع ونجيبويه.

(٣) البيت لجرير، كما في طبقات فحول الشعراء (٢/ ٣٨٤)، والعين (٢/ ٢٩٢)، وجمهرة اللغة (١/ ١٣٠)، والكتاب لسيبويه (٢/ ٩٧).

(٤) انظر عزوه له في: الكشاف للزمخشري (٢/ ٥٦٧)، وتفسير البيضاوي (٣/ ٢٠٤). والصِّفادُ: الغُلُّ أو الوثاق يُشدُّ به الإنسان.

(٥) صدره: هَذَا الثَّنَاءُ فَإِنْ تَسْمَعْ بِهِ حسَناً، وهو من آخر معلقته، وقد تقدم في تفسير الآية (٢٣) من سورة البقرة.

والسرابيل: القُمُص، والْقَطِرَان هو الذي تُهْنَـأُ به الإِبل، وللنار فيه اشتعال شديد، فلذلك جعل الله قُمُص أَهل النار منه، ويقال قَطِران بفتح القاف وكسر الطاءِ، وقِطْران بكسر القاف وسكون الطاءِ، ويقال: قَطْران بفتح القاف وسكون الطاءِ[١].

وقرأَ عُمَرُ بن الخطاب، وعلِيُّ بن أبي طالب، والحسن - بخلاف - وابن عباس، وأَبو هريرة، وعلقمة، وسِنانُ بن سَلَمة[٢]، وعكرمة، وابن سيرين، وابن جُبَيْر، والكَلْبيُّ، وقتادة، وعمرو بن عبيد: (من قطرٍ آنٍ)[٣]، والقَطِرُ: القصدير، وقيل: النحاس.

روي عن عمر أنه قال: ليس بالقطران، ولكنه النحاس يُسَرْبلونه[٤].

و(آنٍ) صفة[٥]، وهو الذائب الحارُّ الذي قد تناهى حرُّه، قال الحسن: «قد سُعِّرَت عليه جهنم منذ خلقت فتناهى حرُّه»[٦]، وقال ابن عباس: المعنى: أنى أن يعذبوا به[٧].

وقرأَ جمهور الناس: ﴿وُجُوهَهُمُ﴾ بالنَّصب ﴿ٱلنَّـارُ﴾ بالرفع.

---

(١) سقطت من أحمد٣ والمطبوع لفظة «قطران» في المواضع الثلاثة، والأخيرة قراءة عيسى بن عمر كما في تفسير الثعلبي (٥/ ٣٢٩).

(٢) هو سنان بن سلمة بن المحبّق الهذلي، ولد يوم حنين، ولأبيه صحبة، وروى عنه قتادة، وسلم بن جنادة وغيرهما، ونزل البصرة. وولّاه زياد غزو الهند وله خبر عجيب في ذلك، قال العجليّ: تابعيّ ثقة، مات في آخر ولاية الحجّاج. الإصابة (٣/ ٢٠١)

(٣) مكونة من كلمتين: موصوف وهو (قَطِر)، وصفة وهي (آن)، انظر قراءة ابن عباس والحسن وقتادة وعكرمة وابن جبير في: تفسير الطبري (١٧/ ٥٦)، ونقلها ابن جني في المحتسب (١/ ٣٦٦) عنهم إلا عمر فلم أجد له ذكراً، وعلياً ففي البحر المحيط (٦/ ٤٥٨).

(٤) لم أقف عليه من قول عمر، لكن روي عن ابن عباس وغيره، وفي بعض الكتب: «يصير بلونه»، بدل: يسربلونه.

(٥) ساقط من الأصل.

(٦) لم أجده بهذا اللفظ إلا في البحر المحيط (٦/ ٤٥٨)، وتفسير الثعالبي (٣/ ٣٩٢).

(٧) في المطبوع: «يعذبون به»، وفي الأصل: «أتى أن يعذبوا»، وفي المصرية: «أي أن»، وفي نجيبويه: «أو أن»، أخرجه الطبري (١٧/ ٥٦) من طريق: ثابت بن يزيد، قال: ثنا هلال بن خباب، عن عكرمة، عن ابن عباس، وهلال ثقة لكن تغير بأخرة.

وقرأ ابن مسعود: (وُجُوهُهُمُ) بالرفع (النَّارَ) بالنَّصب[١].

فالأَولى على نحو قوله: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾ [الليل: ١] فهي حقيقة الغشيان.

والثانية على نحو قول الشاعر:

[الكامل] يُغْشَـوْنَ حَتَّـى مـا تَهِـرُّ كِلابُهُـمْ لا يَسْأَلونَ عَنِ السَّوَادِ المُقْبِلِ[٢]

فهو بِتَجَوُّزٍ في الغشيان، كأَن ورود الوجوه على النار غشيان.

وقوله: ﴿لِيَجۡزِيَ﴾ أي: لكي يجزي، واللام متعلقة بفعل مضمر، تقديره: [فُعل هذا][٣]، وأُنفذ هذا العقاب على المجرمين ليكون في ذلك جزاء المسيء على إساءته، وجاء من لفظة الكسب بما يعم المسيءَ والمحسنَ لِيُنَبِّه على أَن المحسن أَيضاً يجازى بإِحسانه خيراً.

وقوله: ﴿سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ أي: فاصله بين خلقه بالإحاطة التي له بدقيق أمورهم وجليلها، لا إله غيره، وقيل لِعَلي بن أَبي طالب: كيف يحاسب الله العباد في وقت واحد مع كثرتهم؟ قال: «كما يرزقهم في وقت واحد»[٤].

وقوله: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٞ لِّلنَّاسِ﴾ الآية، إشارة إلى القرآن والوعيد الذي تضمنه، ووصفه بالمصدر في قوله: ﴿بَلَٰغٞ﴾ والمعنى: هذا بلاغ للناس وهو لينذروا به.

وقرأ جمهور الناس: ﴿وَلِيُنذَرُواْ﴾ بضم الياءِ وفتح الذال على بناءِ الفعل للمفعول.

---

(١) ذكرها أبو حيان (٦/ ٤٥٩) بلا نسبة، والذي في مختصر الشواذ (ص: ٧٤)، والشواذ للكرماني (ص: ٢٦٣) عن ابن مسعود: «تغشَّى».

(٢) البيت لحسَّان بن ثابت كما في الكتاب لسيبويه (٣/ ١٩)، وجمهرة أشعار العرب (ص: ٧٧)، والحيوان للجاحظ (١/ ٢٥٣)، وطبقات فحول الشعراء (١/ ٢١٨)، والشعر والشعراء (١/ ٢٩٦)، والهرير: صوت الكلب دون النباح.

(٣) ساقط من المطبوع مع الواو بعده، وفي أحمد٣: «فعلى هذا لو أنفذ.. إلخ»، كأنه غير مستقيم.

(٤) لم أقف عليه مسنداً.

وقرأَ يحيى بن عمارة[١]، وأَحمد بن يزيد بن أُسيد[٢]: (وَلِيَنْذَرُوا) بفتح الياءِ والذال[٣].

[تقول العرب: نَذِرْتُ بكذا: إِذا أُشعرتَ به، وتحَرَّزْتَ منه، وأَعْدَدْتَ له][٤].

ورُوي أَن قوله: ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ نزلت في أَبي بكر الصديق رضي الله عنه[٥].

❋ ❋ ❋

---

(١) هو يحيى بن عمارة بن أبي حسن الأنصاري المازني المدني، روى عن أبي سعيد، وعبد الله بن زيد بن عاصم، وأنس بن مالك، وعنه: ابنه عمرو بن يحيى، والزهري، ومحمد بن يحيى بن حبان، وعمارة بن غزية، ووثقه النسائي، تاريخ الإسلام (٦/ ٥٠٢).

(٢) أحمد بن يزيد أبو الحسن الحلواني المقرئ، أحد الأئمة، قرأ على قالون، وهشام بن عمار، وكان كثير الأسفار، وكان عارفاً بالقراءات، مجوداً لرواية قالون، توفي سنة نيف وخمسين ومئتين. تاريخ الإسلام (١٩/ ٦٣).

(٣) نقلها عنهما ابن جني في المحتسب (١/ ٣٦٧)، إلا أنه سمى الأول يحيى بن عمر الذارع.

(٤) ساقط من الأصل.

(٥) لم أقف عليه مسنداً.



هذه السورة مكية.

قوله عز وجل: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٥﴾﴾.

تقدم القول في الحروف المقطعة في أوائل السور.

و﴿تِلْكَ﴾: يمكن أَن تكون إِشارة إِلى حروف المعجم، بحسب بعض الأَقوال، ويحتمل أَن تكون إِشارة إِلى الحِكَم والعِبَر ونحوها التي تضمنتها آيات التوراة والإِنجيل، وعطف القرآن عليه، قال مجاهد وقتادة: الكتاب في هذه الآية: ما نزل من الكتب قبْل القرآن[1]، ويحتمل أَن يريد بالكتاب القرآن، ثم تعطف الصفة عليه.

وقرأَ نافع، وعاصم: ﴿رُبَمَا﴾ بتخفيف الباءِ، وقرأَ الباقون بشدها، إِلا أَن أَبا عمرو قرأَها على الوجهين[2]، وهما لغتان، وروي عن عاصم: (رُبُما) بضم الراء والباء مخففة[3].

---

(١) انظره في: تفسير الطبري (١٧/ ٥٩) عن قتادة بلفظه، وعن مجاهد بمعناه.

(٢) انظر تخفيف نافع وعاصم وتشديد غيرهما في: التيسير (ص: ١٣٥)، والخلاف عن أبي عمرو في السبعة (ص: ٣٦٦).

(٣) نقلها في جامع البيان (٣/ ١٢٦٥) عن الأعشى وعبد الجبار معاً عن أبي بكر عنه، وهذه القراءة ساقطة من المطبوع والمصرية.

وقرأ طلحة بن مصرف: (رُبَّتَما) بزيادة التاءِ[١]، وهي لغة.

و«رُبَّمَا» للتقليل، وقد تجيءُ شاذة للتكثير، وقال قومٌ: إن هذه من تلك، [ومنه:

[الخفيف] رب رِفْـدٍ هَـرَقْـتُـه]......[٢] ....

ومنه:

رُبَّ كأسٍ هَرَقْتَ يابْنَ لُؤَيٍّ[٣] ....

وأنكر الزَّجَّاج أَن تجيءَ «رُبَّ» للتكثير[٤]، و«ما» التي تدخل عليها «رُبَّ» قد تكون اسماً نكرةً بمنزلة شيءٍ، وذلك إذا كان في الكلام ضمير عائد عليه كقول الشاعر:

[الخفيف] رُبَّما تَكْرَهُ النُّفوسُ مِنَ الأَمْـ ـرِ لَـهُ فَرْجَـةٌ كَحَـلِّ الْعِقَـالِ[٥]

التقدير: رُبَّ شيءٍ، وقد تكون حرفاً كافّاً لـ «رُبَّ» وَمُوَطِّئاً لها لتدخل على الفعل، إذْ ليس من شأْنها أَنْ تدخل إلا على الأَسماءِ، وذلك إذا لم يكن ثَمَّ ضمير عائدٌ، كقول الشاعر:

---

(١) شاذة، نسبها أبو حيان (٦/ ٤٦٥) له، وفي مختصر الشواذ (ص: ٧٤) لأبي السمال، وفي الشواذ للكرماني (ص: ٢٦٤) للضحاك.

(٢) ساقط من المطبوع، وملحق في هامش أحمد٣، وتمام البيت: ذلك اليوم وأسرى من معشر قتال، وهو للأعشى في جمهرة أشعار العرب (ص: ٢٢٦)، ومجاز القرآن (١/ ٢٩٨)، والعين (٥/ ١٢٧)، والبيان والتبيين (٣/ ١٦٩)، والمعاني الكبير (٢/ ٨٨٦)، وأمالي القالي (١/ ٩٠).

(٣) هذا صدر عجزه: حَذَرَ الموتِ لم تَكُنْ مُهْرَاقَهْ، عزاه ابن هشام في السيرة (١/ ٩٧) لسامة بن لؤي ابن غالب القرشي، قالها لما أحس بالموت، فتضبط هرقت بضم التاء، وفي أمالي الزجاجي (ص: ٤٩) أنها لزوجة الأزدي الذي نزل به ترثيه بعد موته، فتفتح التاء.

(٤) قال في معاني القرآن وإعرابه (٣/ ١٧٣): فأما من قال إن رب يعني بها الكثير فهذا ضد ما يعرفه أهل اللغة... إلخ.

(٥) البيت لأُميَّةَ بن أبي الصَّلْت، كما في الكتاب لسيبويه (٢/ ١٠٨)، وتاريخ الطبري (١/ ٢٧٧)، وتفسير الثعلبي (٨/ ١٥٥)، والصحاح للجوهري (١/ ٣٣٤)، والمحكم (٧/ ٣٩٧)، ونسبه أسامة في لباب الآداب (١/ ٢٩٤) لعبيد بن الأبرص، وفي المصرية: «كحل الوثاق».

رُبَّــمَــا أَوْفَــيْــتُ فــي عَـلَـمٍ   تَـرْفَـعَـنْ ثَوْبي شَـمَـالاتُ[١]   [المديد]

قال القاضي أبو محمد: وكذلك دخلت «ما» على «مِنْ» كافَّةً في نحو قوله: «وكان رسول الله ﷺ مِمَّا يُحرك شفتيه»[٢].

ونحو قول الشاعر:

وإِنَّا لمِمَّا نَضْرِبُ الْكَبْشَ ضَربَةً   عَلَى رَأْسِهِ تُلْقِي اللِّسَانَ مِنَ الْفَمِ[٣]   [الطويل]

قال الكسائي، والفراءُ: الباب في «رُبَّما» أَن تدخل على الفعل الماضي، ودخلت هنا على المستقبل إِذ هذه الأَفعال المستقبلة من كلام الله تعالى لمَّا كانت صادقةً حاصلة[٤] ولا بُدَّ جرت مجرى الماضي الواقع[٥].

قال القاضي أبو محمد: وقد تدخل «رُبَّ» على الماضي الذي يراد به الاستقبال، وتدخل على العكس، والظاهر في ﴿رُبَّما﴾ في هذه الآية أَن (ما) حرف كافٌّ، هكذا قال أَبو عليٍّ[٦]، قال: ويحتمل أَن تكون اسماً، ويكون في ﴿يَوَدُّ﴾ ضمير عائد عليه، التقدير: رُبَّ ودٍّ، أَو شيءٍ يوده الذين كفروا لو كانوا مسلمين.

قال القاضي أبو محمد: ويكون ﴿لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ﴾ بدلاً من (ما).

وقالت فرقة: تقدير الآية: ربما كان يود الذين كفروا، / قال أَبو علي: وهذا لا يجيزه سيبويه، لأَن «كان» لا تضمر عنده. [٣/ ١١٥]

---

(١) البيت لجذيمة بن مالك الأبرش كما في الكتاب لسيبويه (٣/ ٥١٨)، وطبقات فحول الشعراء (١/ ٣٧)، والاختيارين (ص: ٧١٨).

(٢) البخاري، أخرجه (٥) من حديث ابن عباس رضي الله عنه.

(٣) البيت لأبي حيَّةَ النميري، واسمه: الهيثم بن الربيع، كما تقدم في تفسير الآية (٥٦) من سورة النساء، والمراد بالكبش: سيِّدُ القوم.

(٤) في المطبوع وأحمد٣: واقعةً.

(٥) انظر قولهما في: تفسير الطبري (١٧/ ٦٠).

(٦) في الحجة (٥/ ٣٨)، وكذا ما سيأتي من بقية كلامه على الآية.

واختلف المتأَولون في الوقت الذي يود فيه الذين كفروا لو كانوا مسلمين:

فقالت فرقة: هو عند معاينة الموت في الدنيا، حكى ذلك الضحاك[١]، وفيه نظر؛ لأنه لا يقين للكافر حينئذ بحسن حال المسلمين.

وقالت فرقة: هو عند معاينة أَهوال يوم القيامة، قاله مجاهد[٢]، وهذا بيِّنٌ؛ لَأن حُسْن حال المسلمين ظاهر فتُوَدّ.

وقال ابن عباس، وأَنس بن مالك: هو عند دخولهم النار ومعرفتهم بدخول المؤمنين الجنة[٣].

واحتُج لهذا القول بحديث رُوي في هذا من طريق أَبي موسى الأَشعري، وهو أَن الله تعالى إِذا أَدخل عصاة المسلمين النار نظر إِليهم الكفار فقالوا: أَليس هؤلاءِ من المسلمين؟ فماذا أَغنت عنهم لا إِله إِلا الله؟ فيغضب الله تعالى لقولهم، فيقول: أَخرجوا من النار كل مسلم؟ قال رسول الله ﷺ: «فحينئذ يودُّ الذين كفروا لو كانوا مسلمين»[٤].

[وهذا يقينهم فيه متمكن بحُسْن حال المسلمين، فمن حيث هذا كله موطن واحد في كلِّ قول فـ﴿ رُّبَمَا ﴾ للتقليل، لأَنهم كانوا في الدنيا لا يودون الإِسلام في كل أَوقاتهم، ومن حيث موطن الآخرة يدوم ودُّهم فيه جعل بعض الناس ﴿ رُّبَمَا ﴾ هذه

---

(١) كما في تفسير الماوردي (٣/ ١٤٧)، وتفسير السمعاني (٣/ ١٢٨)، وتفسير البغوي (٣/ ٤٩).

(٢) تفسير مجاهد (ص: ٤١٥)، وتفسير عبد الرزاق (٢/ ٢٥١)، وتفسير الطبري (١٧/ ٦١).

(٣) أخرجه الطبري (١٧/ ٦١) من طريق القاسم بن الفضل بن عبد الله بن أبي جروة، قال: كان ابن عباس وأنس بن مالك يتأولان هذه الآية ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴾ قالا: ذلك يوم يجمع الله أهل الخطايا من المسلمين والمشركين في النار، والظاهر أن في الإسناد تخليطاً، يدل عليه الإسناد الآتي عنده أيضاً، وهو، القاسم، قال: ثنا ابن أبي فروة العبدي أن ابن عباس وأنس بن مالك كانا يتأولان هذه الآية، والقاسم بن الفضل هو الحداني معروف ثقة، وابن أبي فروة العبدي هذا لم أعرفه.

(٤) أخرجه الطبري (١٧/ ٦١) عن علي بن سعيد بن مسروق الكندي، قال: ثنا خالد بن نافع الأشعري، عن سعيد بن أبي بردة، عن أبي بردة، عن أبي موسى، قال: بلغنا أنه إذا كان يوم القيامة، وخالد بن نافع هو الأشعري ضعيف.

للتكثير، إِذْ كلما تذكر أَمره ودَّ أَن لو كان مسلماً، و﴿لَوۡ﴾ في هذه الآية هي التي للتمني، ويدخلها الامتناع من الشيءِ لامتناع غيره بإِضمار يوضحه المعنى، وذلك أَنهم وَدُّوا لو كانوا مسلمين فينجون النجاءَ الذي مانعه أَن لم يكونوا مسلمين][1].

قال القاضي أبو محمد: ومن العِبَر في هذه الآية حديث الوابصي الذي في صدر «ذيل الأَمالي»، ومقتضاه أَنه ارتد ونسي القرآن إِلاَّ هذه الآية[2].

وقوله: ﴿ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ﴾ الآية، وعيدٌ وتهديد، وما فيه من المهادنة[3] منسوخ بآية السيف.

وقوله: ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ وعيدٌ ثان، وحكى الطبري عن بعض العلماءِ أَنه قال: الأَول في الدنيا، والثاني في الآخرة[4]، فكيف تطيب حياةٌ بين هذين الوعيدين؟.

ومعنى قوله: ﴿وَيُلۡهِهِمُ﴾ أَي: يشغلهم أَملهم في الدنيا والتَّـزَيُّد فيها عن النظر والإِيمان بالله ورسوله.

ومعنى قوله: ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ﴾ الآية، أَي: لا تَسْتَبْطِئَن هلاكهم، فليس من قرية مُهْلَـكَة إِلاَّ بأَجل، و﴿كِتَابٌ مَّعۡلُومٌ﴾: محدود[5].

والواو في قوله: ﴿وَلَهَا﴾ هي واو الحال.

وقرأَ ابن أَبي عَبْلَة: (إلا لها)، بغير واو[6].

وقال منذر بن سعيد: هذه الواو هي التي تعطي أَنَّ الحالةَ التي بعدها [في اللفظ

(١) زيادة من المطبوع.
(٢) ذيل الأمالي (ص: ٢٠)، و«صدر» ليست في المطبوع، وهي في أحمد٣ ملحقة في الهامش.
(٣) غير واضحة في أحمد٣، وفي هامشه: «المعاملة».
(٤) لعله بالمعنى، وانظر كلامه على هذه الاية في تفسير الطبري (١٧/ ٦٥).
(٥) في المطبوع وأحمد٣: «ومعنى معلوم: محدود».
(٦) وهي شاذة، عزاها له الكرماني في الشواذ (٢٦٤).

هي][1] في الزمن قبل الحالة التي قبل الواو، ومنه قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ [الزمر: ٧١].

وباقي الآية بين.

قوله عز وجل: ﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ۝٦ لَّوۡ مَا تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٧ مَا نُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذٗا مُّنظَرِينَ ۝٨ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي شِيَعِ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝١٠ وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ۝١١﴾.

الضمير في (قَالُوا) يُراد به كفارُ قريش، ويروى أن القائلين كانوا: عبد الله بن أَبي أُميَّة، والنضر بن الحارث وأَشباههما[2].

وقرأ الأَعمش: (يَاأَيُّها الَّذي أُلْقِيَ إِلَيْهِ الذِّكْرُ)[3].

وقولهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ﴾ كلامٌ على جهة الاستخفاف، أَي: بزعمكَ ودعواكَ، وهذه المخاطبة كما تقول لرجل جاهل أَراد أَن يتكلم فيما لا يُحْسِن: يأَيُّها العالِم أَنت لا تُحْسِن تتوضأ.

و﴿لَّوۡ مَا﴾ بمعنى: لولا، فتكون تحْضيضاً كما هي في هذه الآية، وقد تكون دالةً على امتناع شيءٍ لوجوب غيره، كما قال ابن مقبل:

[البسيط]
لَوْلاَ الحياءُ ولَوْمَا الدِّينُ عِبْتُكُمَا ... بِبَعْضِ ما فيكُمَا إِذْ عِبْتُمَا عَوَرِي[4]

وقرأَ ابن كثير، ونافع، وأَبو عمرو، وابن عامر: ﴿ما تَنَـزَّلُ الملائكةُ﴾ بفتح التاءِ والرفع.

---

(١) ساقط من المطبوع، وكتاب منذر غير متوفر.

(٢) قاله مقاتل بلا إسناد.

(٣) وهي شاذة مخالفة للرسم، عزاها له في مختصر الشواذ (ص: ٧٤)، ولعلها خطأ من سامعها أو ناقلها.

(٤) انظر عزوه في: تفسير الطبري (١٧/ ٦٦)، ومجاز القرآن (١/ ٣٤٦)، والشعر والشعراء (١/ ٤٤٧)، قال: وهي أجود شعره.

وقرأ عاصم في رواية أَبي بكر: ﴿ما تُنزَّلُ﴾ بضم التاء والرفع[١]، وهي قراءَة يحيى ابن وثاب.

وقرأ حمزة، والكسائي، وحفص: ﴿مَا نُنَزِّلُ﴾ بنون العظمة ﴿ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ﴾ بالنصب، وهي قراءَة طلحة بن مصرف[٢].

وقوله: ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾، قال مجاهد: «المعنى: بالرسالة والعذاب»[٣].

قال القاضي أبو محمد: والظاهر أَن معناه: كما يجب ويحق من الوحي والمنافع التي أراها[٤] الله لعباده، لا على اقتراحِ كافرٍ، ولا باختيارِ معترِض.

ثم ذكر عادة الله في الأُمم من أَنه لم يأْتهم بآية اقتراح إِلا ومعها العذاب في أَثرها إِن لم يؤمنوا، وكأَن الكلام: ما تنزل الملائكة إِلا بحق واجب لا باقتراحكم، وأَيضاً فلو نزلت لم تُنظروا بعد ذلك بالعذاب، أَي: تؤخروا، والنَّظِرَة: التأْخير، والمعنى: فهذا لا يكون أَبداً، إِذ كان في علم الله أَن منهم من يؤمن، أَو يلد من يؤمن.

وقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾ ردٌّ على المستخفِّين في قولهم: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ﴾، وهذا كما يقول لك رجل على جهة الاستخفاف: يا عظيم القدر، فتقول له على جهة الرَّدِّ والنَّجْه[٥]: نعم أَنا عظيم القدر، ثم تأْخذ في قولك، فتأَمله.

وقوله: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾، قالت فرقة: الضمير في ﴿لَهُۥ﴾ عائد على محمد ﷺ، أَي: يحفظه من أَذاكم، ويحوطه من مكركم وغيره، ذكر الطبري هذا القول ولم ينسبه[٦].

---

(١) جاءت العبارة في المطبوع: «كذلك إِلاَّ أَنه ضم التاءَ».

(٢) وكلها سبعية، انظر: التيسير (ص: ١٣٥)، وانظر قراءتي ابن وثاب وطلحة في: البحر المحيط (٦/ ٤٦٧).

(٣) تفسير مجاهد (ص: ٤١٥)، وتفسير ابن أبي حاتم (٧/ ٢٢٥٨)، وتفسير الطبري (١٧/ ٦٨).

(٤) في نور العثمانية: «رآها».

(٥) «النجه»: الزجر والرد، كما في اللسان.

(٦) ولفظه في التفسير (١٧/ ٦٩): وقيل..... بمعنى: وإنا لمحمد حافظون ممن أراده بسوء من أعدائه.

وفي ضمن هذه العِدَة كان رسول الله ﷺ حتى أَظهر الله به الشرع وحان أَجله.

وقالت فرقة ـ وهي الأَكثر ـ: الضمير في ﴿لَهُۥ﴾ عائد على القرآن، وقاله مجاهد وقتادة[١].

والمعنى: لَحافِظُونَ من أَن يُبَدَّل أَو يُغيَّر كما جرى في سائر الكتب المنزلة، وفي آخر ورقة من البخاري عن ابن عباس أَن التبديل فيها إِنما كان في التأْويل[٢]، وأَما في اللفظ فلا.

وظاهر آيات القرآن أَنهم بدلوا اللفظ، وَوَضْعُ اليَدِ على آية الرجم هو في معنى تبديل الأَلفاظ، وقيل: ﴿لَحَٰفِظُونَ﴾ باختزانه في صدور الرجال.

قال القاضي أبو محمد: والمعنى متقارب.

وقال قتادة: هذه الآية نحو قوله تعالى: ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦ﴾ [فصلت: ٤٢][٣].

قال القاضي أبو محمد: وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ﴾ الآية، تسلية للنبي ﷺ، وعَرْض أُسوة، أَي: لا يضق صدرك يا محمد بما يفعله قومك من الاستهزاءِ في قولهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ﴾ وغير ذلك، فقد تقدم منا إِرسال الرسل في شِيَعِ الأَولين، وكانت تلك سيرتهم في الاستهزاءِ بالرسل.

والشِّيَعُ: جمع شِيعَةٍ، وهي الفرقة التابعة لرأْس ما[٤]، مذهبٍ أَو رجل أَو نحوه، وهي مأْخوذة من قولهم: شيعتُ النار: إِذا استدمت وقدها بحطب أَو غيره، فكأَن الشيعة تصل أَمر رأْسها وتظهره وتمده بمعونة.

---

(١) انظر قولهما في: تفسير الطبري (١٧/ ٦٨).

(٢) ذكر البخاري في باب: قول الله تعالى ﴿بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ * فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ﴾ [البروج: ٢١-٢٢]: وقال ابن عباس: يكتب الخير والشر ﴿يُحَرِّفُونَ﴾ [النساء: ٤٦] يزيلون، وليس أحد يزيل لفظ كتاب من كتب الله عز وجل، ولكنهم ـ يحرفونه: يتأولونه على غير تأويله. قال الحافظ ابن حجر في الفتح (١٣/ ٥٢٢): لم أر هذا موصولاً من كلام ابن عباس من وجه ثابت.

(٣) فصلت: (٤٢)، وانظر: تفسير الطبري (١٧/ ٦٨)، وتفسير ابن أبي حاتم (٧/ ٢٢٥٨).

(٤) في المطبوع وأحمد٣: «إما».

وقوله: ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾ يقتضي رُسُلاً، ثم أوجز باختصار[١] ذكرهم لدلالة الظاهر من القول على ذلك.

قوله عز وجل: ﴿كَذَٰلِكَ نَسۡلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ١٢ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَقَدۡ خَلَتۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٣ وَلَوۡ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم / بَابٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعۡرُجُونَ ١٤ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ ١٥﴾. [٣/ ١١٦]

يحتمل أن يكون الضمير في ﴿نَسۡلُكُهُۥ﴾ يعود على الاستهزاءِ أَو الشرك ونحوه، وهو قول الحسن، وقتادة، وابن جريج، وابن زيد[٢]، ويكون الضمير في «بِهِ» يعود أيضاً على ذلك بعينه، وتكون باء السبب، أَي: لا يؤمنون بسبب شِرْكهم واستهزائهم، ويكون قوله: ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ في موضع الحال.

ويحتمل أَن يكون الضمير في ﴿نَسۡلُكُهُۥ﴾ عائداً على الذِّكْر المحفوظ المتقدم الذكر وهو القرآن، أَي: مكَذَّباً به مردوداً مُسْتَهْزَءاً به ندخله في قلوب المجرمين، ويكون الضمير في ﴿بِهِۦ﴾ عائداً عليه أَيضاً، أَي: لا يصدقون به، ويحتمل أَن يكون الضمير في ﴿نَسۡلُكُهُۥ﴾ عائداً على الاستهزاءِ والشرك، والضمير في ﴿بِهِۦ﴾ يعود على القرآن، فيختلف على هذا عَوْد الضميرين، والمعنى في ذلك كله يَنظر بعضُه إِلى بعض.

و﴿نَسۡلُكُهُۥ﴾: معناه: نُدْخِلُه، يقال: سلكْتُ الرجل في الأَمر: إِذا أَدخلته فيه، ومن هذا قول الشاعر:

وَكُنْتُ لِزَازَ خَصْمِكَ لَمْ أُعَرِّدْ ... وَقَدْ سلكُوكَ في أَمْرٍ عَصِيبِ[٣] [الوافر]

ومنه قول الآخر:

حَتَّى إِذا سَلَكُوهُمْ في قُتَائِدَةٍ ... شَلّاً كما تَطْرُد الْجَمَّالَةُ الشُّرُدَا[٤] [البسيط]

---

(١) في المطبوع: «ثم اختصر».

(٢) انظر قول الأربعة في: تفسير الطبري (١٧/ ٧٠).

(٣) البيت لعديٍّ بن زيد العباديّ، وقد تقدم في تفسير الآية (٧٧) من سورة هود، بلفظ: «في يوم عصيب».

(٤) البيت لعبد مناف بن رِبْع الهُذَلي كما في مجاز القرآن (١/ ٣٧)، وتفسير الطبري (١/ ٤٤٠)، =

ومنه قول أَبي وَجْزَة يصف حُمُر وَحْشٍ:

[البسيط] حَتَّى سَلَكْنَ الشَّوى مِنْهُنَّ في مَسَكٍ ... مِـن نَسْـلِ جَوَّابَةِ الآفَـاقِ مِهْدَاجِ[١]

قال الزَّجاج: ويُقرأُ: (نُسْلِكُهُ) بضم النون وكسر اللام[٢].

و﴿ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ في هذه الآية يُراد بهم كفار قريش ومعاصري محمد ﷺ.

وقوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ عموم معناه الخصوص فيمن حتم[٣] عليه.

وقوله: ﴿وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أَي: على هذه الوتيرة، وتقول: سلَكْتُ الرجلَ في الأَمر وأَسْلَكْتُه بمعنى واحد، ويُروى: «حَتَّى إِذَاْ أَسْلَكُوهُمْ في قُتَائِدَةٍ» البيت.

وقوله: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم﴾ الضمير في ﴿عَلَيْهِم﴾ عائد على قريش وكفرة العصر المحتوم[٤] عليهم.

والضمير في قوله: ﴿فَظَلُّواْ﴾ يحتمل أَن يعود عليهم، وهو أَبلغ في إِصرارهم، وهذا تأْويل الحسن[٥]، و﴿يَعْرُجُونَ﴾ معناه: يصعدون.

وقرأَ الأَعمش، وأَبو حيوة: (يَعْرِجُونَ) بكسر الراءِ[٦].

والمعارج: الأَدراج، ومنه المِعْراج، ومنه قول كثير:

= وإعراب القرآن للنحاس (٥/ ٣٥)، وجمهرة اللغة (٢/ ٨٥٤)، وأدب الكاتب (ص: ٤٣٤)، والإنصاف للأنباري (٢/ ٣٧٧)، و«قُـتَائِدَة»: جَبَلٌ، وفي المطبوع: «اسلكوكم»، وهو هنا خطأ.

(١) البيت لأبي وجْزَةَ، كما في غريب القرآن لابن قتيبة (ص: ٢٣٧)، وإصلاح المنطق (ص: ٥٨)، وتهذيب اللغة (٤/ ٣٦).

(٢) انظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٣/ ١٧٤)، وهي قراءة مسلم بن جندب كما في تفسير الثعلبي (١٠/ ٥٤).

(٣) في المطبوع: «ختم» بالخاء.

(٤) في المطبوع: «المختوم» بالخاء.

(٥) تفسير الطبري (١٧/ ٧٣).

(٦) انظر عزوها لهما في: مختصر الشواذ (ص: ٧٤)، وفي المصرية: «الأعرج»، بدل «الأعمش»، ولعله خطأ.

إِلَى حسبٍ عَوْدٍ بَنى الْمَرْءَ قَبْلَهُ   أَبُوهُ لَهُ فِيهِ مَعَارِج سُلَّم[١]   [الطويل]

ويحتمل أَن يعود على الملائكة لقولهم: ﴿ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ ﴾ [الحجر: ٧]، فقال الله تعالى[٢]: ولو رأَوا الملائكة يصعدون ويتصرفون في باب مفتوح في السماءِ لما آمنوا، وهذا هو تأْويل ابن عباس[٣].

وقرأَ السبعة سوى ابن كثير: ﴿سُكِّرَتْ﴾ بِضَمِّ السِّين وشد الكاف، وقرأَ ابن كثير وحده بتخفيف الكاف، وهي قراءَة مجاهد[٤].

وقرأَ الزهري بفتح السين وتخفيف الكاف، على بناءِ الفعل للفاعل[٥].

وقرأَ أَبان بن تغلب: (سُحِّرت أَبصارنا)[٦]، ويجيءُ قوله: ﴿بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ انْتقالاً إِلى درجة عُظمى من سحر العقل والجملة.

وتقول العرب: سَكَرَت الريحُ تَسْكُر سُكُوراً: إِذا ركدت ولم تنفذ لِمَا كانت بسبيله أَولاً، وتقول: سَكِر الرَّجُلُ من الشراب يَسْكَرُ سُكْراً: إِذا تغيرت حاله وركد ولم ينفذ فيما للإِنسان أَن ينفذ فيه، ومن هذا المعنى: سَكْران لا يَبِتُّ، أَي: لا يقطع أَمراً، وتقول العرب: سَكَرْتُ الفَتْق في مجاري الماءِ سَكْراً: إِذا طمسته وصرفت الماءَ عنه فلم ينفذ لوجهه.

قال القاضي أبو محمد: فهذه اللفظة: ﴿سُكِّرَتْ﴾ بشَدِّ الكاف، إِن كانت من سُكْر الشراب، أَو من سُكُورِ الرِّيح فهي فعل عُدِّي بالتضعيف، وإِن كانت من سَكْر مجاري الماءِ

---

(١) انظر عزوه له في: تفسير الطبري (١٧/ ٧٣).

(٢) في المطبوع: «فكأن الله تعالى قال».

(٣) أخرجه الطبري (١٧/ ٧٢) من طريق العوفي ومن طريق قتادة كلاهما عن ابن عباس، الأول ضعيف والثاني منقطع.

(٤) وهما سبعيتان، انظر: التيسير (ص: ١٣٦)، وانظر عزو الثانية لمجاهد في: تفسير الطبري (١٧/ ٧٤)، ومعاني القرآن للنحاس (٤/ ١٤).

(٥) وهي شاذة، انظر: المحتسب (٢/ ٣).

(٦) وهي شاذة لمخالفة الرسم، انظرها في: البحر المحيط (٦/ ٤٧١).

فتضعيفها للمبالغة لا للتعدية، لأَن المخفف من فعله مُتَعَدٍّ، ورجَّح أَبو حاتم هذه القراءَة(١)، لأَن الأَبصار جمع، والتثقيل مع الجمع أَكثر، كما قال: ﴿مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ﴾ [ص: ٥٠].

ومن قرأَ: ﴿سُكِرَتْ﴾ بضم السِّين وتخفيف الكاف، فإِن كانت اللفظة منْ سَكْر الماءِ فهو فعل مُتَعَدٍّ، وإِن كانت من سُكْر الشراب، أَو من سُكُور الرِّيح فتضمنا أَن الفعل بني للمفعول إِلى أَن ننـزله متعدياً، ويكون هذا الفعل من قبيل: رجع زَيْدٌ ورَجَعه غيرُه، وغارت العين وغارها الرجلُ، فتقول ـ على هذا ـ: سكِرَ الرجلُ وسَكَرَهُ غيرُه، وسَكَرت الريحُ وسَكَرَها شيءٌ غيرها، ومعنى هذه المقالة منهم: أَي: غُيِّرت أَبصارُنا عما كانت عليه، فهي لا تعطينا حقائق الأَشياءِ كما كانت تفعل.

قال القاضي أبو محمد: وعبَّر بعض المفسرين عن هذه اللفظة بقوله: غشي على أَبصارنا، وقال بعضهم: عميت أَبصارنا، وهذا ونحوه تفسير بالمعنى لا يرتبط باللفظ.

ولقال(٢) أَيضاً هؤلاء المبصِرون عروجَ الملائكة أَو عروجَ أَنفسهم بعد قولهم: ﴿سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا﴾: بل سُحِرْنا حتَّى لا نعقل الأَشياءَ كما يجب، أَي: صرِّف فينا السحر.

قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾.

لما ذكر تعالى أَنهم لو رأَوا الآية المذكورة قبلُ في السماءِ لعاندوا فيها عقَّب ذلك بهذه الآية، كأَنه قال: وإِن في السماءِ لعِبَراً منصوبة غير هذه المذكورة، وكفرهم بها وإِعراضهم عنها إِصرارٌ منهم وعُتُوٌّ.

---

(١) غير متوفر.

(٢) في بعض النسخ: «ويقال» وهي غير واضحة.

والبروج: المنازل، واحدها بُرْج، وسُمِّي بذلك لظهوره ووضوحه، ومنها تبرُّج المرأَة: ظهورها وبدوُّها، والعرب تقول: برج الشيءُ إِذا ظهر وارتفع.

وحفظ السماءِ: هو بالرجم بالشهب على ما تضمنته الأَحاديث الصحاح، قال رسول الله ﷺ: «إِن الشياطين تقرب من السماءِ أَفواجاً، قال: فينفرد المارد[١] منها فيعلو فيسمع فيرمى بالشهاب، فيقول لأَصحابه وهو يلتهب[٢]: إِنه من الأمر كذا وكذا، فيزيد الشياطين في ذلك، ويلقونه إِلى الكهنة، فيزيدون مع الكلمة مئة»، ونحو هذا الحديث[٣].

وقال ابن عباس: «إِن الشهب تَجْرَحُ وتؤْذي ولا تقتل»[٤]، وقال الحسن: تقتل[٥].

قال القاضي أبو محمد: وفي الأَحاديث ما يدل على أَن الرجم كان في الجاهلية ولكنه اشتد في وقت الإِسلام[٦]، وحفظ السماءَ حفظاً تامّاً.

وقال الزَّجاج: لم يكن إِلا بعد النبي ﷺ؛ بدليل أَن الشعراءَ لم يشبهوا به / في السرعة إِلا بعد الإِسلام[٧]. [١/ ١١٧]

وذكر الزهراوي عن أَبي رجاءٍ العطاردي أنه قال: كنا لا نرى الرجم[٨] بالنجوم قبل الإِسلام[٩].

---

(١) في المطبوع وأحمد٣: «المراد».
(٢) في المطبوع: «يلهث».
(٣) في صحيح البخاري (٣٢٨٨) ومسلم (٢٢٨) ـ واللفظ للبخاري ـ من حديث عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: «الملائكة تتحدث في العنان والعنان الغمام بالأمر يكون في الأرض فتسمع الشياطين الكلمة فتقرها في أذن الكاهن كما تقر القارورة فيزيدون معها مئة كذبة».
(٤) لم أقف عليه.
(٥) نقله في البحر المحيط (٦/ ٤٧٢)، ولم أجده لمن قبله.
(٦) لم أجده.
(٧) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٣/ ١٧٦).
(٨) كتبت في الأصل: «النجم» وهو خطأ.
(٩) لم أجد من نقله عنه.

و﴿رَّجِيمٍ﴾ [بمعنى مرجوم][(١)]، فعيل بمعنى مفعول، فإِمَّا من رجْم الشهب، وإِما من الرجم الذي هو الشتم والذم، ويقال: تَبِعْت الرجل واتَّبَعْتُه بمعنى واحد.

و﴿إِلَّا﴾ بمعنى «لكن».

قال القاضي أبو محمد: هذا قول، والظاهر أَن الاستثناءَ من الحفظ، وقال محمد ابن يحيى عن أَبيه[(٢)]: إِلاَّ منِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فإِنها لم تحفظ منه، ذكره الزهراوي[(٣)].

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا﴾ روي في الحديث أَن الأَرض كانت تتكفَّأُ بأَهلها كما تتكَفَّأُ السفينة، فثبتها الله تعالى بالجبال[(٤)].

ويقال: رَسَا الشيءُ يرسو إِذا رسخ وثبت.

وقوله: ﴿مَّوْزُونٍ﴾، قال الجمهور: معناه: مقدر محرر[(٥)] بقصد وإِرادة، فالوزن على هذا مستعار.

وقال ابن زيد: المراد ما يوزن حقيقة كالذهب والفضة الفلز وغير ذلك مما يوزن[(٦)].

قال القاضي أبو محمد: والأَول أَعَمُّ وأَحسن.

والمعايش جمع معيشة، وقرأَها الأَعرج بالهمز، وكذلك روى خارجة عن نافع[(٧)]، والوجه ترك الهمز، لَأن أصل ياء «معيشة» الحركة، فيردها الَأصل إِلى الجمع، بخلاف مدينة ومدائن.

---

(١) ساقط من المصرية ونجيبويه ونور العثمانية.

(٢) محمد تقدم، وأبوه يَحْيى بْن حَبّان المازِنيُّ الأنصارِيُّ، سَمِعَ ابْن عُمَر، رَوَى عَنه ابنه مُحَمَّد. التاريخ الكبير للبخاري (٨/ ٢٦٨).

(٣) نقله عن الزهراوي في البحر المحيط (٦/ ٤٧٢)، وانظر: تفسير ابن أبي زمنين (٢/ ٣٨٢).

(٤) ذكره بمعناه دون ذكر السفينة: قتادة، أخرجه الطبري (١٨/ ٤٣٥).

(٥) في أحمد٣: «محرز»، وفي المطبوع: «محدد»، مع التنبيه على النسخة الأخرى في الحاشية.

(٦) تفسير الطبري (١٧/ ٨١)، والفلز ليس في المطبوع.

(٧) كما في السبعة (ص: ٢٧٨)، وليس من طرق التيسير، وانظرها مع قراءة الأعرج في: إعراب القرآن للنحاس (٢/ ٤٥).

وقوله: ﴿وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ﴾ يحتمل أَن تكون (مَن) في موضع نصب وذلك على ثلاثة أَوجه:

أَحدها: أَن يكون عطفاً على ﴿مَعَٰيِشَ﴾، كأَن الله تعالى عدَّد النِّعم في المعايش وهي ما يُؤْكل ويُلْبس، ثم عدَّد النعم في الحيوان والعبيد والضياع وغير ذلك مما ينتفع به الناس وليس عليهم رزقهم.

والوجه الثاني: أَن تكون ﴿وَمَن﴾ معطوفة على موضع الضمير في ﴿لَكُمْ﴾، وذلك أَن التقدير: وأنعشناكم وأنعشنا[١] أُمماً غيركم من الحيوان، وكأَن الآية على هذا فيها اعتبار وعرض آية.

والوجه الثالث: أَن تكون (مَنْ) منصوبة بإِضمار فعل يقتضيه الظاهر، وتقديره: وأنعشنا مَنْ لسْتُم له برازقين، ويحتمل أَن تكون (مَن) في موضع خَفْض عطفاً على الضمير في ﴿لَكُمْ﴾، وهذا قلق في النحو، لأَنه العطف على الضمير المجرور وفيه قُبْح، فكأَنه قال: ومن لَسْتُمْ له برازقين وأَنتم تنتفعون به.

وقوله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ﴾: قال ابن جريج: «هو المطر خاصة»[٢].

قال القاضي أبو محمد: وينبغي أَن يكون أَعَمَّ من هذا في كثير من المخلوقات.

والخزائن: المواضع الحاوية، وظاهر هذا أَن الماءَ والريح ونحو ذلك موجود مخلوق، وهو ظاهر قولهم في الريح: عتَت على الخزائن، وانفتح منها قدرُ حلقة الخاتم، ولو كان قدر منخر الثور لأَهلك الأَرض، إِلى غير ذلك من الشواهد.

وذهب قوم إِلى أَن كونها في القدرة هو خَزْنُهَا، فإِذا شاءَ الله أَوجدها.

قال القاضي أبو محمد: وهذا أَيضاً ظاهر في أَشياءَ كثيرة، وهو لازم في الأَعراض إِذا عَمَّمْنا لفظة ﴿شَيْءٍ﴾، وكيفما كان الأَمر فالقدرة تسعه وتُتْقنه.

---

(١) في المطبوع: «وأَعَشْناكم وأَعشْنا»، هنا وفي الموضع الآتي، وفي أحمد٣: «وأمعشناكم وأمعشنا أُمَماً غيركم».
(٢) تفسير الطبري (١٧/ ٨٤).

وقوله: ﴿نُنَزِّلُهُۥٓ﴾ ما كان من المطر ونحوه فالإِنزال فيه متمكن، وما كان من غير ذلك فإِيجاده والتمكين من الانتفاع به إِنزالٌ على تجوز.

وقرأ الأَعمش: (وَمَا نُرْسِلُهُ)[١].

وقوله: ﴿بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ روي فيه عن[٢] ابن مسعود وغيره أَنه ليس عامٌ أَكثر مطراً من عام، ولكن الله تعالى ينزله في مواضع دون مواضع[٣].

قوله عز وجل: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾.

يقال: لَقِحَتِ الناقة والشجرة فهي لاقحة: إِذا حملت، والرياح تُلْقِحُ الشجر والسحاب، فالوجه في الريح أَنها مُلْقِحَة لا لاقحة، وتتجه صفة الرياح بـ﴿لَوَٰقِحَ﴾ على أَربعة أَوجه:

أَولها وأَوْلاها: أَنَّ جعلها لاقحةً حقيقةٌ؛ وذلك أَن الرياح منها ما فيها عذاب أَو صِرٌّ[٤] أَو نار، ومنها ما فيه رحمة أَو مطر أَو نصر أَو غير ذلك، فإِذا بها[٥] تحمِلُ مَا حمَّلَتها القدرة، أَو ما علقته من الهواءِ أَو التراب أَو الماءِ الذي مرت عليه، فهي لاقحة بهذا الوجه، وإِن كانت أَيضاً تُلْقح غيرها وتصيِّر إِليه نفعها، والعرب تُسمِّي الجَنوب: الحامل واللاقحة، وتسمِّي الشمال: الحايل والعقيم ومَحْوة لأَنها تمحو السحاب، روى أَبو هريرة أَن رسول الله ﷺ

---

(١) كما في الشواذ للكرماني (ص: ٢٦٥)، وهي شاذة مخالفة لمصاحف المسلمين.

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

(٣) ضعيف، أخرجه الطبري (١٧/ ٨٣) من طريق: يزيد بن أبي زياد، واختلف عليه، فقيل: عنه عن رجل، وقيل: عنه عن أبي جحيفة، عن عبد الله. وهو ضعيف على كل حال لضعف يزيد نفسه.

(٤) في المطبوع: «ضر».

(٥) في المطبوع: «هي».

قال: «الرِّيح الجنوب من الجنة، وهي اللواقح التي ذكر الله، وفيها منافع للناس»[١].

ومن هذا قول الطِّرِمَّاح:

قَـلِـقٌ لأَفْـنَـانِ الـرِّيَـا ... حِ لِـلاَقِـح منها وحـائـل[٢] [مجزوء الكامل]

وقول أَبي وجزة:

.... مِنْ نَسْلِ جَـوَّابَـةِ الآفَـاقِ....[٣] [البسيط]

فجعلها حاملاً بنسل.

قال القاضي أبو محمد: ويخرج هذا على أَنها ملقحة، فلا حجة فيه.

والثاني: أَن يكون وصفها بـ﴿لَوَاقِحَ﴾ من باب قولهم: ليل نائِمٌ، أَي: فيه نوم ومعه، ويوم عاصف ونحوه، فهذا على طريق المجاز.

والثالث: أَن توصف الرياح بـ﴿لَوَاقِحَ﴾ على جهة النسب، أَي: ذات لقح، كقول النابغة:

---

(١) ضعيف، أخرجه الطبري (١٧/ ٨٨) من طريق: عيسى بن ميمون، قال: ثنا أبو المهزم، عن أبي هريرة، مرفوعا. وأبو المهزم متروك. ورواه محمد بن أبان ثنا أبو عوانة عن قتادة عن أنس قال: قال النبي ﷺ: «نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور والجنوب من ريح الجنة».
والحديث في صحيح البخاري (١٠٣٥) ومسلم (٩٠٠) بغير ذكر الجنوب.
وأخرج الحميدي في مسنده (١٢٩) من طريق: ابن عيينة عن عمرو بن دينار عن يزيد ابن جعدبة الليثي أنه سمع عبد الرحمن بن مخراق يحدث عن أبي ذر مرفوعاً بنحوه. وقد اختلف في رفع هذا الحديث ووقفه، راجع علل الرازي (٢١٣٢) وعلل الدارقطني (٦/ ٢٥١) ويزيد وشيخه فيهما جهالة.

(٢) انظر عزوه له في: غريب القرآن لابن قتيبة (ص: ٢٣٦)، والأزمنة والأمكنة (ص: ٥٢٤)، واللاَّقِح: الجنوب، والحائل: الشمال.

(٣) والبيت بتمامه: حَتَّى سلَكْنَ الشَّوَى مِنْهُنَّ في مَسَكٍ مِنْ نَسْلِ جَوَّابَةِ الآفَاقِ مِهْدَاج، وقد تقدم في الآية (١٢) من هذه السورة.

[الطويل] كِلِينـي لِهَـمٍّ يـا أُمَيْمَـةَ نَاصِبِ[١] ....

أَي: ذي نصب.

والرابع أَن يكون ﴿لَوَٰقِحَ﴾ جمع ملقحة على حذف زوائده، فكأَنه لَقِحة، فجمعها كما تجمع لاقحة، ومثله قول الشاعر:

[الطويل] لِيُبْـك يَزِيـدُ ضـارِعٌ لِخُصومَـةٍ وأَشعَثُ مِمَّن طَوَّحَتْهُ الطَّوَائِحُ[٢]

وإِنما طَـوَّحَتْهُ المطاوح، وعلى هذا النحو فسَّرها أَبو عبيدة في قوله: «لواقح: ملاقح»[٣]، وكذلك العبارة عنها في كتاب البخاري: «لواقح: ملاقح ملقحة»[٤].

وقرأ الجمهور: ﴿ٱلرِّيَٰحَ﴾ بالجمع، وقرأَ الكوفيون: حمزة، وطلحة بن مصرف، والأَعمش، ويحيى بن وثاب: ﴿الرِّيحَ﴾ بالإِفراد[٥]، وهي للجنس فهي في معنى الجمع، ومثَّلها الطبريُّ بقولهم: قميص أَخلاقٌ، وأَرضٌ أَغفال[٦].

قال القاضي أبو محمد: وهذا كله من حيث هو أَجزاءٌ كثيرة تجمع صفته، فكذلك ريح لواقح لأَنها متفرقة الهبوب، وكذلك: دارٌ بلاقعُ، أَي: كل موضع منها بلقعٌ.

[٣/ ١١٨] وقال الأَعمش: إِن في قراءَة عبد الله: (وأَرْسَلْنَا الرِّيحَ يلقحن)[٧] / .

---

(١) مطلع قصيدة للنابغة، وعجز البيت: وَلَيْلٍ أُقاسيه بَطِيءِ الْكَوَاكِبِ، وقد تقدم في تفسير الآية (١٢٠) من سورة التوبة.
(٢) البيت لنهشل بن حريّ، وقد تقدم في تفسير الآية (٧٣) من سورة الأنعام.
(٣) مجاز القرآن (١/ ٣٤٨).
(٤) صحيح البخاري (٨/ ٢٥٣).
(٥) انظر قراءة حمزة خاصة في: التيسير (ص: ٧٨)، وقراءة الباقين في إعراب القرآن للنحاس (٢/ ٢٣٩)، وقد تقدم ذلك في البقرة.
(٦) تفسير الطبري (١٧/ ٨٤).
(٧) في المطبوع: «تَلْقَح»، وفي نجيبويه والمصرية: «تلقحن»، وهي شاذة، لم أجدها لغير المصنف.

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «الريح من نَفَس الرحمن»[١]، ومعنى الإِضافة هنا هي إِضافة خَلْق إِلى خالق، كما قال: ﴿مِن رُّوحِي﴾ [الحجر: ٢٩]، ومعنى «نَفَس الرحمن»، أَي: من تنفيسه وإِزالته الكُرَب والشدائد، فمن التنفيس بالريح النَّصْر بالصبا وذرو[٢] الأَرزاق بها، وما لها من الخدمة في الأَرزاق وجَلْب الأَمطار وغير ذلك مما يكثر عدُّه، ولقد حُدِّثْتُ أَن ابن أَبي قحافة[٣] رحمه الله فَسَّر هذا الحديث بنحو هذا، وأَنشد في تفسيره:

فإِنَّ الصَّبا ريحٌ إِذا ما تنسمت ... على نفْسِ محزون تَجَلَّت همومها[٤] [الطويل]

وهذا من جملة التنفيس، والعرب تقول: أَسقَى وسقى بمعنى واحد، قال لبيد:

سَقَى قَوْمِي بَني مجدٍ وأَسْقَى ... نُمَيْراً والقَبَائِلَ مِنْ هِلَالِ[٥] [الوافر]

---

(١) اختلف في إسناده، وفي رفعه ووقفه، والوقف أشبه، هذا الحديث رواه الأعمش وشعبة، بلفظ: «لا تسبوا الريح»، ولفظ: «فإنها من نفس الرحمن» في بعض حديث الأعمش وحده، واختلف عليهما، أما حديث الأعمش، فرواه أبو عوانة عنه عن حبيب بن أبي ثابت عن سعيد بن عبد الرحمن ابن أبزى عن أبيه عن أبي بن كعب قوله، ورواه جرير عن الأعمش مثله وزاد ذرّاً بين حبيب وسعيد، ورواه أسباط بن محمد عن الأعمش كرواية أبي عوانة لكن مرفوعاً، ورواه محمد بن الفضيل عن الأعمش مثله وزاد ذرّاً بين حبيب وسعيد، وأما حديث شعبة فلم يختلف عليه في وقفه لكن بعضهم ذكر حبيباً وبعضهم لم يذكره، أخرج ذلك كله النسائي في الكبرى (٦/ ٢٣٢). ونقل الطحاوي في شرح مشكل الآثار (٢/ ٣٨٠) عن النسائي قوله عقب رواية شعبة: إنها الصواب.

(٢) في المطبوع وأحمد٣: «دُرُور».

(٣) في نجيبويه: «بن قحافة»، وهو أبو محمد عبد الجبار بن علي بن سليمان بن سيد بن أبي قحافة، روى عن أبي عمر بن عبد البر، روى عنه غالب بن عطية الغرناطي وآخرون بالمرية، انظر: إكمال الإكمال لابن نقطة (٣/ ٢٦٣)، وانظر: فهرس ابن عطية (ص: ٦٦).

(٤) في المطبوع: «تنَفَّسَتْ على نفس مَهْمُوم»، وفي المصرية ونجيبويه: «على قلب»، والبيت للمجنون كما في محاضرات الأدباء (٢/ ٥٧٤) وورد في أمالي القالي (٢/ ١٨١)، وأخبار النساء (ص: ٢٣) منسوباً لامرأة من نجد، وكتاب ابن أبي قحافة لم أجده.

(٥) انظر عزوه له في: مجاز القرآن (١/ ٣٥٠)، وشرح ديوان الحماسة (ص: ٧٥)، وأخبار مكة للأزرقي (١/ ١٧٩) قال: ومجد هي ابنة تيم ربيعة بن عامر بن صعصعة، وزوجها الأدرم تيم بن =

فجاء باللغتين، وقال أَبو عبيدة: أَما إِذا كان من سَقْي الشفة خاصة فلا يقال إِلاَّ سَقَى، وأَما إِن كان لسَقْي الأَرض والثمار وجملة الأَشياءِ فيقال: أَسقى، وأَما الداعي لأَرض أَو غيرها بالسقي فإِنما يقال فيه: أَسقى[1]، ومنه قول ذي الرمة:

[الطويل]

وَقَفْتُ عَلَى رسْم لِمَيَّةَ نَاقَتي ... فمَا زِلْتُ أَبْكِي عِنْدَهُ وأُخاطِبُهْ

وأَسْقِيهِ حتَّى كادَ مِمَّا أبُثُّهُ ... تُكَلِّمُني أَحْجَارُهُ وَمَلاعِبُهْ[2]

قال القاضي أبو محمد: على أَن بيت لبيد دعاءٌ وفيه اللغتان.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ﴾ الآية، هذه الآية مع الآيات التي قبلها تضمنت العبرة والدلالة على قدرة الله تعالى، وما يوجب توحيده وعبادته، فمعنى هذه الآية: وإِنا نحن نحيي من نشاءُ بإخراجه من العدم إِلى وجود الحياة، بردِّه[3] عند البعث من مرقده ميتاً، ونميت بإِزالة الحياة عمن كان حيّاً، ﴿وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ أَي: لا يبقى شيءٌ سوانا، وكل شيٍ هالك إِلا وجهه، لا ربَّ غيره.

ثم أَخبر تعالى بإحاطة علمه بمن تقدم من الأُمم وبمن تأَخر في الزمن، من لدن أُهبط آدم إِلى الأَرض إِلى يوم القيامة، وأَعلم أَنه هو الحاشر لهم، الجامع لِعَرض يوم القيامة على تباعدهم في الأَزمان والأَقطار، وأَنَّ حِكْمَته وعِلْمه يأْتيان بهذا كله على أَتَمِّ غاياته التي قدرها وأَرادها.

وقرأَ الأَعرج: (يَحْشِرُهُم) بكسر الشين[4].

قال القاضي أبو محمد: فهذا سياق معنى الآية، وهو قول جمهور المفسرين.

= غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة، وفي نجيبويه: «سقى مدحي».

(١) مجاز القرآن (١/ ٣٥٠) بتصرف.

(٢) تقدم في تفسير الآية (١٦١) من سورة آل عمران.

(٣) في المصرية وأحمد٣: «ونرده».

(٤) ذكرها ابن جني في المحتسب في سورة الفرقان، (٢/ ١١٩)، والبحر المحيط هنا (٦/ ٤٧٥).

وقال الحسن: معنى قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ﴾ أي: في الطاعة والبدار إلى الإيمان والخيرات، و﴿ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾ بالمعاصي[١].

قال القاضي أبو محمد: وإن كان اللفظ يتناول كل تقدمٍ وتأخر على جميع وجوهه، فليس يطَّرد سياق معنى الآية إلا كما قدمنا.

وقال ابن عباس، ومروان بن الحكم، وأبو الجوزاءِ: نزل قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا﴾ الآية في قوم كانوا يصلون مع النبي ﷺ، وكانت تصلي وراءَه امرأَة جميلة، فكان بعض القوم يتقدم في الصفوف لئلا تفتنه، وكان بعضهم يتأَخر ليسرق النظر إليها في الصلاة، فنزلت الآية فيهم[٢].

قال القاضي أبو محمد: وما تَقَدَّم الآية من قوله: ﴿وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ وما تأَخر من قوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ﴾ يضعف هذه التأْويلات، لأَنها تُذهب اتصال[٣] المعنى، وقد ذكر ذلك محمد بن كعب القرظي لعون بن عبد الله[٤].

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ الآية، ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ هنا للجنس، والمراد آدم، قال ابن عباس: سُمِّي بذلك لأَنه عُهد إليه فنسي[٥]، ودخل مَنْ بعده في ذلك إذ هو من نسله.

---

(١) تفسير الطبري (١٧/ ٩٣).

(٢) أخرجه الطبري (١٧/ ٩٣) من طريق: نوح بن قيس، قال: ثنا عمرو بن مالك، عن أبي الجوزاء، عن ابن عباس به، وعمرو قال ابن عدي في الكامل (١/ ٤١١): حدث عن أبي الجوزاء عن ابن عباس قدر عشرة أحاديث غير محفوظة، وقد روي أيضاً عن عمرو عن أبي الجوزاء من قوله، وهذا أولى، وانظر قول أبي الجوزاء ومروان في: تفسير الطبري (١٧/ ٩٣).

(٣) في المطبوع وأحمد٣ والأصل: «إيصال».

(٤) تفسير الطبري (١٧/ ٩٠).

(٥) أخرجه الطبري (١٧/ ٩٥) من طريق الأعمش عن مسلم البطين، عن ابن جبير عنه، وإسناده صحيح لو سلم من تدليس الأعمش.

والصلصال: الطين الذي إذا جف صَلْصَل، هذا قول فرقة، منها من قال: هو طين الخزف، ومنها قول الفراءِ: هو الطين الحر يخالطه رمل دقيق[١].

وقال ابن عباس: خلق من ثلاثة: من طين لازب، وهو اللازق والجيد، ومن صلصال، وهو الأَرض الطيبة يقع عليها الماءُ ثم ينحسر فتشقق وتصير مثل الخزف، ومن حمأٍ مسنون، وهو الطين فيه الحمأَة[٢].

قال القاضي أبو محمد: وكان الوجه أَن يقال ـ على هذا المعنى ـ: صلال، لكن ضوعف الفعل من فائه، وأُبدلت إِحدى اللامين من «صلال» صاداً، وهذا مذهب الكوفيين، وقاله ابن جني[٣]، والزبيدي[٤]، ونحوُهما على نحو البصرة، ومذهب جمهور البصريين أَنهما فعلان متباينان[٥]، وكذلك قالوا في ثَـرَّة[٦] وثَرْثَارة، قال بعضهم: تقول: صلَّ الخزف ونحوه إذا صوت بتمديد، فإِذا كان في صوته ترجيع كالجرس ونحوه قلت: صَلْصَلَ، ومنه قول الكُميت:

فيهـا الْعَنَاجِيـج تَـرْدي فـي أَعِنَّتِهَـا ... شُعْثاً تُصلْصِلُ في أَشْدَاقِهَا اللُّجُمُ[٧] [البسيط]

وقال مجاهد وغيره: صَلْصَال هنا إِنما هو مأخوذ من: صَلَّ اللَّحْم وغيره إِذا أَنْـتَن[٨].

---

(١) لفظه في معاني القرآن (٢/ ٨٨): ويُقال: إن الصلصال طين حُرّ خُلِطَ برمل فصار يصلصل كالفَخَّار

(٢) أخرجه الطبري (١٧/ ٩٦) بنحوه مفرقاً بأسانيد جياد.

(٣) انظر كلامه في هذا المعنى في: الخصائص (٢/ ٥٤).

(٤) لم أقف عليه، ولعله مُحَمَّد بن الحَسَن بن عبد الله بن مذْحج بن مُحَمَّد بن عبد الله الإشبيلى أبو بكر الزبيدى نزيل قرطبة، كَانَ إماماً فِي النَّحْو واللغة، توفي سنة (٣٧٩هـ)، له: شرح كتاب سِيبَوَيْه، الاسْتِدْرَاك على الْعين في اللُّغَة. هدية العارفين، (٢/ ٥١).

(٥) أشار لذلك ابن مالك في الألفية بقوله: واحكم بتأصيل حروف سمسم ونحوه والخلف في كلملم، وللتفصيل انظر شروحه.

(٦) في المطبوع: «ثرار».

(٧) العَنَاجيج: جمع عُنْجُوج، وهو الرائع من الخيل، ولم أجد من استشهد بهذا البيت.

(٨) انظر: تفسير مجاهد (ص: ٤١٦)، وتفسير الطبري (١٧/ ٩٧).

قال القاضي أبو محمد: فجعلوا معنى صَلْصَالٍ ومعن حَمَأٍ في لزوم النَّـتَن شيئاً واحداً.

[قال القاضي أبو محمد: والحمأ جمع حمأة وهو الطين الأسود المنتن يخالطه ماء][١].

والمَسْنُون، قال معمر: معناه: المنتن[٢]، وهو من أَسِن الماءُ إِذا تغير.

قال القاضي أبو محمد: والتصريف يرُدُّ هذا القول.

وقال ابن عباس: المسنون: الرطب[٣]

قال القاضي أبو محمد: هذا تفسير لا يخص اللفظة.

وقال الحسن: المعنى: سن ذريته على خلقه[٤].

والذي يترتب في ﴿مَّسْنُونٍ﴾ إما أن يكون بمعنى: محْكُوك مُحْكم العمل أَملس السطح، فيكون من معنى المسنّ والسنان، وقولهم: سننت السكين، وسننت الحجر، إِذا أَحكمت تمليسه[٥]، ومن ذلك قول الشاعر:

ثُـمَّ دافَعْتُهَـا إِلَـى القُبَّـةِ الْخَضْــ ـراءِ تَمْشِـي فِـي مَرْمَرٍ مَسْـنُونِ[٦] [الخفيف]

أَي: مُحْكم الإِملاس بالسن[٧]، وإِما أَن يكون بمعنى الْمَصْبُوب: تقول: سنَنتُ

(١) ساقط من المطبوع، و«المنتن» ليست في المصرية.

(٢) تفسير الطبري (١٧/ ٩٨)، ونقل مثله عن قتادة أيضاً.

(٣) أخرجه الطبري (١٧/ ٩٩) من طريق: علي بن أبي طلحة عن ابن عباس.

(٤) البحر المحيط (٦/ ٤٧٦).

(٥) في المطبوع وأحمد٣: «مَلْسه».

(٦) البيت لعَبْد الرَّحْمَن بْن حسان كما في غريب الحديث لابن سلام (١/ ٣٠٩)، وجمهرة اللغة (١/ ٥٨٦)، والشعر والشعراء (١/ ٤٧٤)، وتهذيب اللغة (٧/ ٥٩)، والصحاح للجوهري (٢/ ٦٤٦)، والعقد الفريد (٦/ ١٧١)، وقد جاء في التذكرة الحمدونية (٦/ ١٨٠) أن الأبيات لأبي دهبل الجمحي، وذكر ذلك المبرد في الكامل (١/ ٢٣٦) ثم قال: والذي كأنه إجماع أنها لعبد الرحمن.

(٧) ليست في المطبوع ونور العثمانية والمصرية وأحمد٣، وهي في الإماراتية ملحقة في الهامش، وفي نجيبويه: «بالشين».

الترابَ والماءَ، إذا صببْتَـهُ شيئاً بعد شيءٍ، ومنه قول عمرو بن العاص لمن حضر وفاته: «إِذَا أَدخلتُموني في قبري فسُنُّوا علي التراب سنّاً»[١]، ومن هذا هو سنُّ الغارة.

وقال الزَّجاج: هو مأْخوذ من كونه على سُنَّة الطريق، لأَنه إِنما يتغير إِذا فارق الماءَ[٢]، فمعنى الآية على هذا: من حمأٍ مصبوب يوضع بعضه فوق بعض على مثال وصورة.

وَالْجَانّ يراد به جنس الشياطين، ويُسَمَّون جِنَّة وجَانّاً وجِنّاً[٣]؛ لاستتارهم عن العين.

وسئل وهب بن مُنَـبِّه عنهم فقال: هم أَجناس، فأَما خالص الجِنِّ فهم ريح لا يأْكلون ولا يشربون ولا يموتون ولا يتوالدون، ومنهم أَجناس تفعل هذا كله، / منها السعالي والغول وأَشباه ذلك[٤]. [٣/ ١١٩]

وقرأَ الحسن بن أَبي الحسن: (الجأن) بالهمز[٥].

قال القاضي أبو محمد: والمراد بهذه الخلقة إِبليس أَبو الجن.

وفي الحديث: «إِن الله تعالى خلق آدم من جميع أَنواع التراب، الطيب والخبيث، والأَسود والأَحمر»[٦]، وفي سورة البقرة إِيعاب هذا.

وقوله: ﴿مِن قَبْلُ﴾ لأَن إِبليس خلق قبل آدم بمدة، وخلق آدم آخر الخلق.

---

(١) مسلم (١٢١) وروي بالمعجمة.

(٢) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٣/ ١٧٩).

(٣) سقطت من الأصل.

(٤) تفسير الطبري (١٧/ ١٠٠).

(٥) وهي شاذة، انظر: إعراب القرآن للنحاس (٢/ ٢٣٩)، وإتحاف فضلاء البشر (ص: ٣٤٦)، وضبطها بفتح الهمز، وعممها له.

(٦) إسناده مستقيم، أخرجه أحمد (٤/ ٤٠٠) وأبو داود (٤٦٩٥) والترمذي (٢٩٥٥) وابن حبان (٦١٨١) والحاكم (٢/ ٢٨٨) والبزار (٨/ ٤٢) من طريق: عوف الأعرابي عن قسامة بن زهير عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه مرفوعاً بنحوه، وقال الترمذي: حسن صحيح. اهـ، وقال البزار: هذا الكلام لا نعلم رواه عن النبي إلا أبو موسى، ولا نعلم له طريقاً عن أبي موسى إلا هذا الطريق. اهـ، وقد روي نحو هذا عن ابن عباس وأبي قلابة من قولهما.

والسَّمُومُ في كلام العرب إِفراط الحَرّ حتى يقتل، من نارٍ أَو شمس أَو ريح، وقالت فرقة: السَّموم بالليل، والحرُور بالنهار.

قال القاضي أبو محمد: وأَما إِضافة النار إِلى السموم في هذه الآية فيحتمل أَن تكون النار أَنواعاً ويكون السموم أَمراً يختص بنوع منها فتصح الإِضافة حينئذ، وإِن لم يكن هذا فَيُخَرَّج هذا على قولهم: مسجد الجامع، ودار الآخرة، على حذف مضاف.

قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾﴾.

(إِذْ) نصبت بإِضمار فعل مقدر، تقديره: واذكر إِذ قال ربك، والبشر ها هنا آدم، وهو مأْخوذ من البشرة، وهي وجه الجلد في الأَشهر من القول.

ومنه قول النبي ﷺ: «وأَنْقوا البشرة»[(١)].

وقيل: البشرة ما يلي اللحم، ومنه قولهم في المثل: «إِنما يُعَاتَبُ الأَديمُ ذُو البَشَرة»[(٢)]، لأَن تلك الجهة هي التي تبشر.

---

(١) رفعه منكر، والصحيح أنه من قول الحسن، أو عنه مرسلاً، هو حديث: «تحت كل شعرة جنابة فاغسلوا الشعر وأنقوا البشرة»، أخرجه أبو داود (٢٤٨)، والترمذي (١٠٦)، وابن ماجه (٥٩٧) وغيرهم من حديث الحارث بن وجيه، عن مالك بن دينار، عن محمد بن سيرين، عن أبي هريرة مرفوعاً، قال أبو داود: «الحارث بن وجيه حديثه منكر، وهو ضعيف»، وكذلك ضعفه الترمذي. وقال البيهقي في «معرفة السنن والآثار» (١/ ٤٣١-٤٣٢): «أنكره أهل العلم بالحديث، البخاري، وأبو داود، وقال الشافعي هذا الحديث ليس بثابت» وقال أبو حاتم في علل الحديث (١/ ٢٩): قال أبي: هذا منكر، والحارث ضعيف الحديث. اهـ.

وقد أخرجه ابن أبي شيبة (١/ ٩٥) من قول الحسن، وهو الصواب، وقيل: روي عنه مرسلاً.

(٢) المستقصى للزمخشري (١/ ٤٢٠) قال: ومعاتبته رده إِلَى الدّباغ، وَلاَ يُعَاتب إِلاَّ الْجيد الْبشرَة، يضْرب للنَّهْي عَن عتاب الْجَاهِ.

وأَخبر الله تعالى الملائكة بعجب عندهم، وذلك أَنهم كانوا مخلوقين من نور، فهي أجسام[١] لطاف، فأَخبرهم أَنه يخلق جسماً حيّاً ذا بشرة، وأَنه يخلقه من صلصال.

قال القاضي أبو محمد: والبِشْر والبِشارة أَيضاً أَصلهما البَشَرة لأَنهما فيها يظهران.

و﴿سَوَّيْتُهُۥ﴾ معناه: كمَّلته وأَتقنته حتى استوت أَجزاؤُه على ما يجب.

وقوله: ﴿مِن رُّوحِي﴾ إِضافةُ خلقٍ ومِلْكٍ إِلى خالق مالك، أَي: من الروح الذي هو لي، ولفظة الروح هنا للجنس.

وقوله: ﴿فَقَعُواْ﴾ من وقع يَقَع، وفتحت القاف لأَجل حرف الحلق، وهذه اللفظة تُقَوِّي أَن سجود الملائكة إِنما كان كالمعهود عندنا، لا أَنه خضوع وتسليم وإِشارة كما قال بعض الناس، وشبهوه بقول الشاعر:

[الطويل] فَكِلْتَاهُمَا خرَّتْ وأَسْجَدَ رأْسُهَا ... كَمَا سَجَدَتْ نَصْرَانَةٌ لَمْ تَحَنَّفِ[٢]

وهذا البيت يشبه أَن يكون السجود فيه كالمعهود عندنا.

وحكى الطبري في تفسير هذه الآية عن ابن عباس أَنه قال: «خلق الله ملائكة أَمرهم بالسجود لآدم فأَبوا، فأَرسل عليهم ناراً فأَحرقتهم، ثم خلق آخرين فكذلك، ثم خلق آخرين فأَمرهم بالسجود فأَطاعوا إِلا إِبليس فإِنه كان من الأَولين»[٣].

قال القاضي أبو محمد: وقول ابن عباس: «من الأَولين» يحتمل أَن يريد: من الأَولين في حالهم وكفرهم[٤]، ويحتمل أَن يريد أَنَّه بقِيَ منهم.

---

(١) في الأصل: «مخلوقات».

(٢) البيت لأبي الأخزر الحماني، وقد تقدم في تفسير الآية (٦٢) من سورة البقرة.

(٣) أخرجه الطبري (١٧/ ١٠١) من طريق: شبيب بن بشر، عن عكرمة، عن ابن عباس. وشبيب لين الحديث.

(٤) في نور العثمانية: «في حال كفهم»، والفقرة كلها سقطت من المصرية.

وقوله: ﴿كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ﴾ هو عند سيبويه تأْكيد بعد تأْكيد، يتضمن الآخر ما تضمن الأَول، وقال غيره: ﴿كُلُّهُمۡ﴾ لَوْ وُقف عليه لصلحت للاستيفاء[١]، وصلحت على معنى المبالغة مع أَن يكون البعض لم يسجد، وهذا كما يقول القائل: كلُّ الناس يعرف كذا، وهو يريد أَن المذكور أَمر مشتهر، فلما قال: ﴿أَجۡمَعُونَ﴾ رفع الاحتمال في أَن يبقى منهم أَحد، واقتضى الكلامُ أَن جميعهم سجد، وقال المبرّد: لو وُقف على ﴿كُلُّهُمۡ﴾ لاحتمل أَن يكون سجودهم في مواطن كثيرة، فلما قال: ﴿أَجۡمَعُونَ﴾ دلَّ على أَنهم سجدوا في موطن واحد[٢].

قال القاضي أبو محمد: واعترض قول المبرّد بأَنه جعل قوله تعالى: ﴿أَجۡمَعُونَ﴾ حالاً بمعنى مُجْتَمِعِينَ، ويلزمه ـ على هذا ـ أَن يكون ﴿أَجۡمَعُونَ﴾ [هنا على أن][٣] يقرب من التنكير إِذ هو معرفة لكونه يلزم إِتباع المعارف، والقراءَة بالرفع تَأْبى قوله.

وقوله: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ﴾، قيل: إِنه استثناءٌ من الأَول، وقيل: إِنه ليس من الأَول، وهذا متركب على الخلاف في إِبليس، هل هو من الملائكة أَم لا؟ والظاهر من كثير من الأَحاديث ومن هذه الآية أَنه من الملائكة، وذلك أَن الله تعالى أَمر الملائكة بالسجود، ولو لم يكن إِبليس من الملائكة لم يذنب في ترك السجود.

وقد روي عن الحسن بن أَبي الحسن أَن إِبليس إِنما كان من قبيل الجن، ولم يكن قط ملَكاً[٤]، ونسب ابن فُورك القول إِلى المعتزلة[٥]، وتعلَّق من قال هذا بقوله تعالى في صفته: ﴿كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ﴾ [الكهف: ٥٠].

---

(١) في المطبوع: «للاستثناءِ»، وفي المصرية: «الاستفهام»، وفي نور العثمانية: «للاستبقاء».
(٢) في المطبوع: «موضع واحد»، وانظر: الكتاب لسيبويه (٢/ ٣٨٧)، والمقتضب (٤/ ٣٩٥).
(٣) ساقط من الأصل ونجيبويه، وفيهما: «أجمعين»، وفي المصرية نور العثمانية: «هذا على أن».
(٤) تفسير الطبري (١/ ٥٠٦).
(٥) لم أقف عليه.

وقالت الفرقة الأُخرى: لا حجة في هذا لأَن الملائكة قد تُسمَّى جِنّاً لاستتارها، وقد قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ [الصافات: ١٥٨].

وقوله: ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ﴾، قيل: إِنه حينئذ سمَّاه إِبليس، وإِنما كان اسمه قَبْلُ عَزَازيل[١]، وهو من الإِبلاس، وهو الإِبْعَاد، أَي: يا مُبْعَد، وقالت طائفة: إِبليس كان اسمَه، وليس باسم مشتق، بل هو أَعجمي، ويقضي بذلك أَنه لا ينصرف، ولو كان عربيّاً مشتقّاً لكان كإِجفيل، من أَجفل وغيره، ولكان منْصرفاً، قاله أَبو علي الفارسي[٢].

وقوله: ﴿أَلَّا تَكُونَ﴾، (أَنْ) في موضع نصب، وقيل: في موضع خفض، والأَصل: مالك في أَلا تكون، وقول إِبليس: ﴿لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ﴾ ليس هذا موضع كفره عند الحذاق، لأَن إِبايته إِنما هي معصية فقط، وأَما قوله وتعليله[٣] فإِنما يقتضي أَن الله خلق خلقاً مفضولاً وكَلَّف خلقاً أَفضل منه أَن يذلَّ له، فكأَنه قال: وهذا جور، وذلك أَن إِبليس لما ظن أَن النار أَفضل من الطين ظن أَن نفسه أَفضل من آدم من حيث النار تأْكل الطين، فقاس وأَخطأَ في قياسه، وجهل أَن الفضائل إِنما هي حيث جعلها المالك للجميع، لا ربَّ غيره.

قوله عز وجل: ﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾.

---

(١) كتبت في الأصل: «عزرائيل» مع التنبيه على النسخة الأخرى في الهامش والرمز عليها بحرف العين.

(٢) انظر الحجة لأبي علي (٥/ ٣٧٦).

(٣) في المطبوع وأحمد٣: «وأما تعليله»، دون كلمة: «قوله».

الضمير في ﴿مِنۡهَا﴾ للجنة وإِن لم يجر ذكرها، فالقصة تتضمنها، / ويحتمل [٣/ ١٢٠] أَن يعود الضمير على صيغة[١] الملائكة، والرجيم: المشتوم[٢]، أَي: المرجوم بالقول والشتم، و﴿يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ يوم الجزاءِ، ومنه قول الشاعر:

ولَــمْ يـبْـق سِــوَى الْـعُـدْوا نِ دِنَّـاهُــمْ كما دَانُـــوا[٣] [الهزج]

وسأَل إِبليس النَّظِرة إِلى يوم البعث فأَعطاه الله إِياها إِلى وقت معلوم، واختُلف فيه، فقيل: إِلى يوم القيامة، أَي: يكون آخِرَ من يموت من الخلق، قاله الطبري وغيره[٤].

وقيل: إِلى وقت غير معين ولا موسوم[٥] بقيامة ولا غيرها، بل علمُه عند الله وحده.

[وقيل: بل أَمره كان إِلى يوم بدر، وأَنه قتل يوم بدر.

قال القاضي أبو محمد:][٦] وهذا ـ وإِن كان رُوي ـ فهو ضعيف.

والمُنْظَر: المؤخَّر، وقوله: ﴿رَبِّ﴾ مع كفره يخرَّج على أَنه يُقِرُّ بالربوبية والخلق، وهو الظاهر من حاله وما تقتضيه فيه الآيات والأَحاديث، وهذا لا يدفع في صَدْر كفره.

وقوله: ﴿بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي﴾، قال أَبو عبيدة، وغيره: «أَقْسَمَ بالإِغواءِ»[٧].

قال القاضي أبو محمد: كأَنه جعله بمنزلة قوله: ربِّ بقدرتك عليَّ وقضائك.

ويحتمل أَن تكون باءَ السبب[٨]، كأَنه قال: ربِّ والله لأغوينهم بسبب إِغوائك لي ومن أَجله وكفاءً له.

---

(١) في الأصل: «صنيفة».
(٢) في المطبوع ونجيبويه: «المشؤوم».
(٣) تقدم في تفسير سورة الفاتحة.
(٤) تفسير الطبري (١٧/ ١٠٢).
(٥) في المطبوع وأحمد٣ والمصرية: «مرسوم».
(٦) ساقط من المصرية.
(٧) لفظه: في مجاز القرآن (١/ ٣٥١)، مجازه مجاز القسم بالذي أغويتنى.
(٨) في المطبوع: «ويحتمل أن تكون بالسبب»، وفي نور العثمانية وأحمد٣: «باء سبب».

ويحتمل أَن يكون المعنى تجلداً منه ومبالغة في الجد، أَي: بحالي هذه وبعدي من الخير والله لأَفعلن ولأُغوِيَنَّ.

ومعنى: ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أَي: الشهوات والمعاصي، والضمير في ﴿لَهُمْ﴾ لذرية آدم وإِن كان لم يجر لهم ذكر، فالقصة بجملتها حيث وقعت كاملةً تَتَضَمَّنُهم.

والإِغواءُ: الإِضلال.

وقرأَ ابن كثير، وأَبو عمرو، وابن عامر، والحسن، والأَعرج: ﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ بفتح اللام، أَي: الذين أَخلصتهم أَنت لعبادتك وتقواك.

وقرأَ الجمهور ﴿المخلِصين﴾ بكسر اللام[١]، أَي: الذين أَخلصوا الإِيمان بك وبرسولك.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ هَـٰذَا صِرَٰطٌ﴾ الآية، القائل هو الله تعالى، ويحتمل أَن يكون ذلك بواسطة.

وقرأَ الضحاك، وحُميْد، والنَّخَعي، وأَبو رجاءٍ، وابن سيرين، وقتادة، وقيس بن عبَّاد، ومجاهد، وغيرهم: ﴿عليٌّ مستقيم﴾[٢] من العُلُوِّ والرفعة.

والإِشارة بـ ﴿هَـٰذَا﴾ على هذه القراءَة إِلى الإِخلاص، لما استثنى إِبليسُ مَن أَخلص قال الله له: هذا الإِخلاص طريق رفيع مستقيم لا تَنال أَنت بإِغوائك أَهلَه.

وقرأَ جمهور الناس: ﴿عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ بياءٍ مشددة مفتوحة، والإِشارة بـ﴿هَـٰذَا﴾ على هذه القراءَة إِلى انقسام الناس إِلى غاو ومخلص، لما قَسَّم إِبليس الناس هذين القسمين قال الله له: هذا طريق عليَّ[٣]، أَي: هذا أَمر مصيره إِلَيَّ، والعرب تقول: طريقك في هذا الأمر على

---

(١) كذا في جميع النسخ، وقد وقع فيه قلب في عزو القراءتين، وهو سبق قلم، فقد تقدم له على الصواب في سورة يوسف.

(٢) أبعد النجعة، فهي قراءة عشرية ليعقوب كما في النشر (٢/ ٣٠١)، وعزاها في المحتسب (٢/ ٣) له وللمذكورين إلا النخعي، وزاد آخرين، وعزاها في البحر المحيط (٦/ ٤٧٨) لهم جميعاً.

(٣) في المطبوع: «إِلَيّ».

فلان، أَي: إِليه يصير النظر في أَمرك، وهذا نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ١٤].

قال القاضي أبو محمد: والآية على هذه القراءَة تتضمن وعيداً، ثم ابتدأ الإِخبار عن سلامة عباده المتقين من إِبليس، وخاطبه بأَنه لا حجة له عليهم ولا ملكة.

قال القاضي أبو محمد: والظاهر من قوله: ﴿عِبَادِى﴾ الخصوص في أَهل الإِيمان والتقوى لا عموم الخلق، وبحسب هذا يكون ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ﴾ مستثنى من غير الأَول، والتقدير: لكن من اتبعك من الغاوين لك عليهم سلطان، وإِن أَخذنا العباد عامّاً في عباد الناس، إِذ لم يقدر[1] الله لِإبليس سلطاناً على أَحد، فإِنا نقدر الاستثناءَ في الأقل في القَدْر من حيث لا قَدْر للكفار، والنظر الأَول أَصوب، وإِنما الغرض أَلا نقع في استثناءِ الأَكثر من الأَقل وإِن كان الفقهاءُ قد جوزوه، وقال أَبو المعالي: ليس معروفاً في استعمال العرب، وهذه الآية أَمثل ما احتج به مُجَوِّزوه[2].

قال القاضي أبو محمد: ولا حجة لهم في الآية على ما بيَّنْتُه.

وقوله: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أَي: موضع اجتماعهم، والموعد يتعلق بزمان ومكان، وقد يذكر المكان ولا يحدد زمان الموعد، و﴿أَجْمَعِينَ﴾ تأْكيد، وفيه معنى الحال.

وقوله: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾ قيل: إِن النار بجملتها سبعة أَطباق، أَعلاها جَهَنَّم، ثم لظَى، ثم الحُطَمَة، ثم السَّعير، ثم سَقَر، ثم الجَحِيم وفيه أَبو جهل، ثم الهاوية، وإِن في كل طبق منها باباً، فالأَبواب على هذا بعضها فوق بعض.

وعُبِّر في هذه الآية عن النار جملة بـ﴿جَهَنَّمَ﴾، إِذ هي أَشهر منازلها وأَولها، وهي موضع عصاة المؤمنين الذين لا يخلدون، ولهذا روي أَن جهنم تخرب وتبلى.

وقيل: إِن النار أَطباق كما ذكرنا، لكن الأَبواب السبعة كلها في جهنم على خط استواءٍ، ثم ينزل من كل باب إِلى طبقة الذي يفضي إِليه.

---

(١) في الأصل ونور العثمانية: «يقرر».

(٢) التلخيص في أصول الفقه (٢/ ٧٤).

قال القاضي أبو محمد: واختصرت ما ذكر المفسرون في المسافات بين الأَبواب، وفي هواءِ النار، وفي كيفية الحال، إِذ هي أَقوال كثيرة أَكثرها لا يستند، وهي في حيِّز الجائز، والقدرة أَعظم منها، عافانا الله من ناره، وتغمدنا برحمته بِمَنِّه.

وقوله: ﴿جُـزۡءٞ﴾، قرأَ الجمهور: ﴿جُـزۡءٞ﴾ بهمز، وقرأَ ابن شهاب بضم الزاي، وقرأَت فرقة: ﴿جُزٌّ﴾ بشد الزاي دون همز، وهي قراءَة ابن القعقاع[1].

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ۝٤٥ ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ۝٤٦ وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ إِخۡوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ۝٤٧ لَا يَمَسُّهُمۡ فِيهَا نَصَبٞ وَمَا هُم مِّنۡهَا بِمُخۡرَجِينَ ۝٤٨ ۞نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٤٩ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ ۝٥٠﴾.

ذكر الله تعالى ما أَعد لأَهل الجنة عَقِب ذكره ما أَعد لأَهل النار ليظهر التباين.

وقرأَ الجمهور: ﴿وَعُيُونٍ﴾ بضم العين، وقرأَ نُبَيح، والجراح، وأَبو واقد، ويعقوب في رواية رُوَيْس: ﴿وَعِيُونٍ﴾ بكسر العين[2]، مِثْل بيوت وشيوخ.

وقرأَ الجمهور: ﴿ٱدۡخُلُوهَا﴾ على الأَمر، بمعنى: يقال لهم: ادخلوها.

---

(١) أما حذف الهمزة وتشديد الزاي فعشرية لأبي جعفر كما في النشر (١/ ٤٠٦)، وعزاها للزهري ومثله في المحتسب (٢/ ٤)، وأما ضم الزاي مع الهمز فسبعية لشعبة كما في التيسير (١/ ٦٥)، ولم أجد من عزاها للزهري، قال في البحر المحيط (٦/ ٤٧٩): ولعله تصحيف.

(٢) هذه من غرائب الشيخ، وأغرب منها ما سيأتي له في سورة الجاثية من الاقتصار في كسر العين على عاصم، فقد قرأ بكسر العين جمهور السبعة وهم: ابن كثير وحمزة والكسائي وابن ذكوان وأبو بكر، ووافقهم ابن محيصن من المبهج والأعمش، كما في إتحاف فضلاء البشر (١/ ٢٠٠)، وزاد النيسابوري (٤/ ٤٧٣): معهم: الأعشى ويحيى وحماداً، وقرأ بضمها: الباقون من السبعة، والثلاثة المكملون للعشرة، هذا حاصل ما في: التيسير (ص ٩٥)، والنشر (٢/ ٢٢٦) والعنوان (١/ ٩)، وتفسير البيضاوي (١/ ـ٣٧٣)، والبحر المحيط (٥/ ٤٤٥) وغيرهم، ولم أجد من نقل عن رويس كسر العين، ولا من ذكر لنبيح أو الجراح أو أبي واقد شيئاً هنا، والله أعلم.

وقرأَ رويس عن يعقوب: ﴿أُدْخِلُوها﴾ على بناءِ الفعل للمفعول [بضم الهمزة وكسر الخاءِ][١] وضم التنوين في ﴿وَعُيُونٍ﴾ أَلْقى عليه حركة الهمزة[٢].

و«السَّلام» ها هنا يحتمل أَن يكون السلامة، ويحتمل أَن يكون التحية.

والغِلُّ: الحقد، وذكر الله تعالى في هذه الآية أَنه ينزع الغِلَّ من قلوب أَهل الجنة، ولم يذكر لذلك موطناً، وجاءَ في بعض الحديث أَن ذلك على الصراط، وجاءَ في بعضها أَن ذلك على أَبواب الجنة، وفي لفظ بعضها: «أَن الغِلَّ ليبقى على أَبواب الجنة كمعاطن الإِبل»[٣].

قال القاضي أبو محمد: وهذا على أَن الله تعالى يجعل ذلك تمثيلاً بكونٍ[٤] يخلقه / هناك ونحوه، وهذا كحديث ذبح الموت[٥]. [٣/ ١٢١]

وقد يمكن أَيضاً أَن يُسلَّ من الصدور، ولذلك جواهر سود فيكون كمبارك الإِبل، وجاءَ في بعض الأَحاديث أَن نزع الغل إِنما يكون بعد استقرارهم في الجنة[٦].

قال القاضي أبو محمد: والذي يقال في هذا أَن الله ينزعه في موطن من قوم، وفي موطنٍ من آخرين، وقال عليُّ بن أَبي طالب رضي الله عنه: «إِني لأَرجو أَن أَكون أَنا وطلحة والزبير ممن قال الله فيهم: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾»[٧].

---

(١) من المطبوع وأحمد٣.

(٢) فهي عشرية، وهي الرواية المشهورة عنه، وانظر: تفصيل الروايتين عنه في النشر (٢/ ٣٠١).

(٣) ذكره أبو نُعيم في صفة الجنة (٣/ ١٥٢) بدون إسناد، بلفظ: «كمبارك الإبل إذا نزع من صدور المؤمنين»، وأورده القرطبي في التفسير (٧/ ٢٠٨) ولم يعزه لأحد.

(٤) في الأصل ونجيبويه: «بلون».

(٥) متفق عليه، أخرجه البخاري (٤٤٥٣) ومسلم (٢٨٤٩) من حديث أبي سعيد الخدري.

(٦) لم أقف عليه.

(٧) رواه عبد الرزاق في تفسيره (١/ ٢١٧) عن الحسن، والطبري (١٢/ ٤٣٨) عن قتادة، كلاهما عن علي، وكلاهما منقطع.

وذُكر أَن ابناً لطلحة كان عنده، فاستأْذن الأَشتر فحبسه مدة، ثم أَذن له فدخل، فقال: أَلهذا حبستني؟ وكذلك لو كان ابن عثمان حبستني له؟ فقال عليٌّ: «نعم، إِني أَنا وعثمان وطلحة والزبير ممن قال الله فيهم: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ الآية»[١].

قال القاضي أبو محمد: وقد رُوي أَن المستأْذن غير الأَشتر.

و﴿إِخْوَانًا﴾ نصب على الحال، وهذه أُخُوَّة الدِّين والوُدّ، والأَخ من ذلك يُجمع على إِخوان وإِخْوة أيضاً، والأَخ من النسب يجمع إِخوة وآخاءٌ، ومنه قول الشاعر:

[الطويل]

.... وأَيُّ بَني الآخاءِ تصْفُو مَذَاهِبُهْ[٢]

[ويجمع أيضاً: إخواناً][٣].

والسُّرُر: جمع سرير.

و﴿مُّتَقَابِلِينَ﴾ الظاهر أَن معناه: في الوجوه، إِذ الأَسِرَّة متقابلة، فهي أَحسن في الزينة.

قال مجاهد: «لا ينظر أَحدهم في قفا صاحبه»[٤].

وقيل: متقابلين في المودة، وقيل غير هذا مما لا يعطيه اللفظ.

والنَّصَب: التَّعب، يقع على القليل من ذلك والكثير، ومن الكثير قول موسى عليه السلام: ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ [الكهف: ٦٢]، ومن ذلك قول الشاعر:

---

(١) أخرجه الطبري (١٧/ ١٠٩) من طريق الحسن قال: استأذن الأشتر على علي وعنده ابن لطلحة... وهذا مرسل أيضاً.

(٢) صدره: وجَدْتُمْ بَنيكُمْ دُونَنَا إذْ نُسِبْتُم، وقد عزاه ابن جني في الخصائص (١/ ٢٠٢) لبشر بن المهلب بلفظ: «تنبو مناسبه».

(٣) ساقط من المطبوع وأحمد٣ والمصرية ونور العثمانية، وهو في الإماراتية ملحق بالهامش.

(٤) تفسير الطبري (١٧/ ١١٠).

.... كِلِينِـي لِهَـمٍّ يـا أُمَيْمَـةُ ناصِبِ[١] [الطويل]

و﴿نَبِّئْ﴾ معناه: أَعْلِم، و﴿عِبَادِيَ﴾ مفعول بـ ﴿نَبِّئْ﴾، وهي تتعدى إِلى ثلاثة مفاعيل[٢]، فـ ﴿عِبَادِيَ﴾ مفعول، و(أَنَّ) تسدُّ مسَدَّ المفعولين الباقيين، واتفق ذلك وهي مع ما عملت فيه بمنزلة اسم واحد، أَلا ترى أَنك إِذا قلت: أَعجبني أَنَّ زيداً منطلق إِنما المعنى: أَعجبني انطلاق زيد، لأَن دخولها إِنما هو على جملة ابتداءٍ وخبر، فسدت بذلك[٣] مسَدَّ المفعولين.

قال القاضي أبو محمد: وقد يتعدى «نَـبَّـأَ» إِلى مفعولين فقط، ومنه قوله تعالى: ﴿مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا﴾[التحريم: ٣]، وتكون في هذا الموضع بمعنى: أَخْبِر وعرِّف، وفي هذا كله نظر.

وهذه آية ترجية وتخويف، وروي في هذا المعنى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لو يعلم العبد قَدْر عفو الله لما تورع من حرام، ولو يعلم قدر عذابه لَبَخَع نفسه»[٤].

ورُوي في هذه الآية أَن سببها أَن رسول الله ﷺ جاءَ إِلى جماعة من أَصحابه عند باب بني شيبة في الحرم فوجدهم يضحكون، فزجرهم ووعظهم، ثم ولَّى، فجاءَه جبريل عن الله فقال: يا محمد، أَتُـقَنط عبادي؟ وتلا عليه الآية، فرجع بها رسول الله ﷺ إِليهم وأَعلمهم[٥].

قال القاضي أبو محمد: ولو لم يكن هذا السبب لكان ما قبلها يقتضيها، إِذ قد تقدم ذكر ما في النار وما في الجنة فأَكد تعالى تنبيه الناس بهذه الآية.

---

(١) تقدم قريباً.

(٢) في المصرية وأحمد٣ ونور العثمانية ونجيبويه: «مفعولين».

(٣) في المطبوع: «تلك».

(٤) ضعيف مرسل، أخرجه الطبري (١٧/ ١١١) من حديث قتادة قال: بلغنا أن نبي الله ﷺ قال...

(٥) ضعيف جداً، أخرجه الطبري (١٧/ ١١١) من طريق: ابن المبارك، قال: أخبرنا مصعب بن ثابت، قال: ثنا عاصم بن عبد الله ـ صوابه: ابن عبيد الله ـ، عن ابن أبي رباح، عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال: «طلع علينا رسول الله ﷺ..» ومصعب لين الحديث، وعاصم ضعيف جداً.

قوله عز وجل: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿٥٦﴾﴾.

قرأ أَبو حيوة: (ونَبِّهُمْ) بضم الهاءِ من غير همز[1].

وهذا ابتداءُ قصص بعد انصرام الغرض الأَول، والضَّيف مصدر وُصف به فهو للواحد وللاثنين والجمع والمذكَّر والمؤنث بلفظ واحد، قال النحاس وغيره: التقدير: عن أَصحاب ضيف[2].

قال القاضي أبو محمد: ويغني عن هذا أَن هذا المصدر عومل معاملة الأَسماءِ، كما فعل في «رهن» ونحوه، والمراد بالضيف هنا الملائكة الذين جاؤُوا لإِهلاك قوم لوط وبشروا إِبراهيم، وقد تقدم قصصهم.

وقوله: ﴿سَلَامًا﴾ مصدر منصوب بفعل مضمر تقديره: سلَّمنا ـ أو: نُسَلِّم ـ سلاماً، والسلام هنا التحية، وقوله: ﴿سَلَامًا﴾ حكاية قولهم، فلا يعمل القول فيه، وإِنما يعمل إِذا كان ما بعده ترجمة عن كلام ليس يحكى بعينه، كما تقول لمن قال: «لا إِله إِلا الله»: قُلْت حَقّاً، ونحو هذا.

وقوله: ﴿إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾ أَي: فزعون، وإنما وجل إِبراهيم عليه السلام منهم لمَّا قدَّم إِليهم العجل الحنيذ فلم يرهم يأْكلون، وكان عندهم العلامة المؤمِّنة أَكل الطعام، وكذلك هو في غابر الدهر أَمَنَةٌ للنازل والمنزول به.

وقرأ الجمهور: ﴿قَالُوا لَا تَوْجَلْ﴾ مستقبل «وَجِل»، وقرأ الحسن: (لا تُؤْجَل)،

---

(١) وهي شاذة، وظاهره بلا ياء، وفي البحر المحيط (٦/ ٤٨٤) أنه قرأ بإبدال الهمزة ياء، وانظر: الشواذ للكرماني (ص: ٢٦٤).

(٢) إعراب القرآن للنحاس (٢/ ٢٤١).

بضم التاءِ على بناءِ الفعل للمفعول من «أَوجل»[١]، لأن «وَجِلَ» لا يتعدى.

وكانت هذه البشارة بإِسحاق، وذلك بعد مولد إِسماعيل بمدة، وقول إِبراهيم: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ﴾[إبراهيم: ٣٩] ليس يقتضي أَنه حينئذ وهبهما، بل قبل الحمد بكثير.

وقرأَ الجمهور: ﴿أَبَشَّرْتُمُونِى﴾ بأَلف استفهام، وقرأَ الأَعرج: (بشَّرْتُمُونِي) بغير أَلف[٢].

وقوله: ﴿عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ﴾ أَي: في حالة قد مسني الْكِبَـرُ فيها.

وقرأَ ابن محيصن: (الكُبْرُ) بضم الكاف وسكون الباءِ[٣].

وقرأَ أَبو عمرو، وعاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: ﴿تُبَشِّرُونَ﴾ بفتح النون التي هي علامة الرفع، والفعل على هذه القراءَة غير مُعَدًّى.

وقرأَ الحسن البصري: (تبشرُونِّي) بنون مشددة وياءٍ.

وقرأَ ابن كثير بشَدِّ النون دون ياءٍ، وهذه القراءَة أُدغمت فيها نون العلامة في النون التي هي للمتكلم موطئة للياءِ.

وقرأَ نافع: ﴿تُبَشِّرُونِ﴾ بكسر النون[٤].

وغلَّط أَبو حاتم نافعاً في هذه القراءَة، وقال: إِن شاهد الشعر في هذا اضطرار[٥].

---

(١) وهي شاذة، انظرها في: المحتسب (٢/ ٤).

(٢) وهي شاذة، انظر: البحر المحيط (٦/ ٤٨٥)، وعزاها القرطبي (١٠/ ٣٥)، والكرماني في الشواذ (ص: ٢٦٦) للأعمش.

(٣) وهي شاذة، انظر: البحر المحيط (٦/ ٤٨٥).

(٤) انظر القراءة الأولى وقراءتي نافع وابن كثير في: التيسير (ص: ١٣٦)، وكلها سبعية، وقراءة الحسن في البحر المحيط (٦/ ٤٨٥).

(٥) البحر المحيط (٦/ ٤٨٥).

قال القاضي أبو محمد: وهذا حمْل منه، وتقدير هذه القراءَة أَنه حُذفت النون التي للمتكلم، وكُسرت النون التي هي علامة الرفع بحسب الياءِ، ثم حذفت الياءُ لدلالة الكسرة عليها، ونحو هذا قول الشاعر، أَنشده سيبويه:

[الوافر] تَـرَاهُ كـالـثَّـغَـام يُـعَـلُّ مِـسْـكـاً   يَسُـوءُ الْفَالِـيَـاتِ إِذَا فَـلَيْنِـي[1]

ومنه قول الآخر:

[الوافر] أَبـالْمَـوْتِ الَّـذِي لا بُـدَّ أَنِّـي   مُـلاقٍ لا أَبَـاكِ تُخَـوِّفِـيـنـي[2]

[٣/ ١٢٢] / ومن حذف هذه النون قول الشاعر:

[الرجز] قَدْنِيَ مِنْ نَصْرِ الْخُبَيْبَيْنِ قَدِي[3]   ....

يريد عبد الله ومصعباً ابني الزبير، وكان عبد الله يكنى أَبا خبيب.

وقرأَ الحسن: (فَبِمَ تَبْشُرونِ) بفتح التاءِ وضم الشين[4].

وقول إِبراهيم عليه السلام: ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ تقرير على جهة التعجب والاستبعاد لكبرهما، أَو على جهة الاحتقار وقلة المبالاة بالمسرات الدنيوية[5] لمضيِّ العمر واستيلاءِ الكبر.

قال مجاهد: عجب من كبره وكبر امرأَته[6]، وقد تقدم ذكر سنِّه وقت البشارة.

---

(١) البيت لعمرو بن معديكرب الزَّبيدي كما تقدم في تفسير الآية (٧٨) من سورة الأنعام.

(٢) البيت لأبي حَيَّة النُّمَيْري كما في مجاز القرآن (١/ ٣٥٢) ونسبه مكي في مشكل إعراب القرآن (١/ ٤١٤) للأَعْشَى.

(٣) هذا الرجز لحميد بن مالك الأرقط، وقيل: إنه لأبي بحدلة، ومعنى «قدني»: حسبي، وقد تقدم في آخر تفسير سورة الأعراف.

(٤) التخفيف هنا شاذ لاتفاق العشرة على تشديدها كما في النشر (٢/ ٢٤٠)، ولم أجد من نقله عن الحسن.

(٥) زيادة من الأصل، ليست في النسخ الأخرى.

(٦) تفسير الطبري (١٧/ ١١٣).

وقولهم: ﴿بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ فيه شدَّة ما، أَي: أَبْشِر بما بُشرت به ودع غير ذلك.

وقرأَ جمهور الناس: ﴿ٱلْقَٰنِطِينَ﴾، والقنوطُ: أَتَمُّ اليأْس.

وقرأَ يحيى بن وثاب، والأَعمش، وابن مصرف، ورويت عن أَبي عمرو: (الْقَنِطِينَ)[١].

وقرأَ ابن كثير، ونافع، وعاصم، وابن عامر، وحمزة: ﴿وَمَن يَقْنَطُ﴾ بفتح النون في كل القرآن، وقرأَ أَبو عمرو، والكسائي: ﴿ومن يقنِط﴾ بكسر النون[٢].

وكلهم قرأَ: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟﴾ [الشورى: ٢٨] بفتح النون، وردَّ أَبو عبيد[٣] قراءَة أهل الحرمين، وأَنكر أَن يقال: «قَنِطَ» بكسر النون، وليس كما قال، لأَنهم لا يُجمعون إِلا على قويٍّ في اللغة مرويٍّ عندهم، وهي قراءَة فصيحة، يقال: قَنَط يقْنِط، وقَنِط يقْنَط، مثل: نَقَم ونَقِم.

وقرأَ الأَعمش هنا: ﴿يَقْنِطُ﴾ بكسر النون، وقرأَ: (مِنْ بَعدِ ما قَنِطُوا) بكسر النون أَيضاً، فقرأَ باللغتين[٤].

وقرأَ الأَشهب: (يَقْنُط) بضم النون، وهي قراءَة الحسن، والأَعمش أَيضاً، وهي لغة تميم[٥].

---

(١) انظر: المحتسب (٢/ ٤)، والرواية عن أبي عمرو ليست من طرق التيسير، ونقلها في إتحاف فضلاء البشر (ص: ٣٤٧) عن الحسن.

(٢) وهما سبعيتان، انظر: التيسير (ص: ١٣٦).

(٣) في المطبوع: «أبو عبيدة» ونور العثمانية، وفي المصرية: «أبو عمرو»، والتصويب من إعراب القرآن للنحاس (٢/ ٢٤٢) ففيه: «قال أبو جعفر: أبو عبيد القاسم بن سلام يختار قراءة أبي عمرو والكسائي في هذا، وزعم أنها أصحّ في العربية، وردّ قراءة أهل الحرمين»، مع أن في الدلائل في غريب الحديث (٣/ ٩٨١) أن أبا عمرو لحن بلال بن أبي بردة لما قرأ «يقنطون» بالفتح.

(٤) وهي شاذة، انظر قراءته للمضارع في: تفسير الثعلبي (٥/ ٣٤٥)، والماضي سيأتي في محله إن شاء الله تعالى.

(٥) وهي شاذة، انظر قراءة الأشهب في: المحتسب (٢/ ٥)، وإعراب القرآن للنحاس (٢/ ٢٤٢)، ونقلها =

قوله عز وجل: ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾.

القائل هنا إبراهيم عليه السلام، وقوله: ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ﴾ سؤال فيه عنف ما، كما تقول لمن تنكر حاله: ما دهاك؟ وما مصيبتك؟ وأَنت إِنما تريد استفهاماً عن حاله فقط، لأَن الخطب لفظة إِنما تستعمل في الأُمور الشداد، على أَن قول إِبراهيم عليه السلام: ﴿أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ وكونهم أَيضاً قد بشَّروه، يقتضي أَنه قد كان عرف أَنهم ملائكة حين قال: ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ﴾، فيحتمل قوله: ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ﴾ مع هذا أَنه أَضاف الخطب إِليهم من حيث هم حَمَلتُه إِلى القوم المعذبين، أَي: ما هذا الخطب الذي تحملونه، وإِلى أَي أُمَّة؟.

والقوم المجرمون يراد بهم أَهل مدينة سدوم الذين بعث فيهم لوط عليه السلام، والمجرم: الذي يجرُّ الجرائر[1] ويرتكب المحظورات، وأَصل جَرم وأَجْرَمَ: كَسَب، ومنه قول الشاعر:

[الوافر] جَرِيمَة نَاهِضٍ في رأْسِ نيق[2] ....

أَي: كسْب عقاب في قُـنَّة شامخ، ولكن اللفظة خُصَّت في عرفها بالشر، لا يقال لكاسب الأَجر: مجرم.

= ابن القطاع في كتاب الأفعال (١/ ١٢) عن أبي حيوة، وأما الأعمش فالمعروف عنه كما مر الكسر وكذلك الحسن كما في إتحاف فضلاء البشر (ص: ٣٤٧) عنهما.

(١) في المطبوع وأحمد٣: «الجرائم».

(٢) هذا صدر بيت لأبي خِرَاشِ الهُذَليُّ يصف عُقَاباً تَرْزق طفلها، وتمامه: تَرَى لِعِظَامِ مَا جَمَعَتْ صَلِيباً، وقد تقدم في أول المائدة.

وقولهم: ﴿إِلَّآ ءَالَ﴾ استثناءٌ منقطع، والآلُ: القوم الذين يؤول أَمرهم إِلى المضاف إِليه، كذا قال سيبويه، وهذا نصٌّ في أَن لفظة آلٍ ليست لفظة أَهْلٍ كما قال النحاس، ويجوز على هذا إِضافة آلٍ إِلى الضمير، وأَما أُهيْل فتصغير أَهْل، واحترزوا به عن تصغير آلٍ، فرفضوا: أُويْلاً[(١)].

وقرأَ جمهور السبعة: ﴿لَمُنَجُّوهُمْ﴾، وقرأَ حمزة، والكسائي: [﴿لمنْجُوهم﴾ بسكون النون وضم الجيم مخففة][(٢)].

والضمير في (مُنَجُّوهُم) في موضع خفض بالإِضافة، وانحذفت النون للمعاقبة، هذا قول جمهور النحويِّين[(٣)]، وقال الأخفش: الضمير في موضع نصب، وانحذفت النون لأنه لا بُدَّ من اتصال هذا الضمير[(٤)].

قال القاضي أبو محمد: وفي هذا نظر.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ﴾ استثناءٌ بعد استثناءٍ، وهما منقطعان فيما حكى بعض النحاة، لأَنهم لم يجعلوا امرأَته الكافرة من آله.

قال القاضي أبو محمد: وفي هذا نظر، لأَنها قبل الاستثناءِ داخلة في اللفظ الذي هو الآل، وليس كذلك الآل مع المجرمين، فيظهر الاستثناءُ الأَول منقطعاً، والثاني متصلاً، والاستثناءُ بعد الاستثناءِ يردُّ المستثنى الثاني في حكم الأَمر الأَول.

ومثَّل بعض الناس في هذا بقولك: عندي مئة درهم إِلا عشرة دراهم إِلا درهمين، فرجعتِ الدرهمان في حكم التسعين الدرهم[(٥)]، وقال المبرد: ليس هذا المثال بجيد،

---

(١) انظر مذهب سيبويه في: المخصص (٥/ ١٤٧)، وقول النحاس لم أجده.

(٢) وهما سبعيتان، انظر: التيسير (ص: ١٣٦)، وفي المطبوع بدل ما بين المعكوفتين: بالتَّخفيف.

(٣) في نجيبويه: «المفسرين».

(٤) لم أجده، وقصد المؤلف أن هذا مذهبه، بصرف النظر عن هذه الآية.

(٥) في المطبوع: «درهماً»، وفي أحمد٣: «التفسير للدرهم».

لأنه من خَلَقِ الكلام ورَثِّه[١]، إِذْ لَه طريق إِلى أَداءِ المعنى المقصود بأَجمل من هذا التحليق، وهو أَن يقول: لي عندك[٢] مئة إِلا ثمانية، وإِنما ينبغي أَن يكون مثلاً للآية قولُك: ضربت بني تميم إِلا بني دارم إِلا حاجباً، [لأَن حاجباً][٣] من بني دارم، فلما كان المستثنى الأول في ضمنه ما لا يجري الحكم عليه، والضرورة تدخله في لفظه، ولا يمكنك العبارة عنه دون ذلك الذي لا يجري الحكم عليه، اضطررت إِلى استثناءٍ ثانٍ[٤].

قال القاضي أبو محمد: ونزعة المبرد في ذلك نبيلة.

وقرأ جميعهم سوى عاصم في رواية أَبي بكر: ﴿قَدَّرْنَآ﴾ بتشديد الدَّال في كل القرآن.

وقرأ عاصم بتخفيفها وثَقَّل في رواية حفص[٥]، والتخفيف يكون بمعنى التثقيل، كما قال الهذليُّ [أَبو ذؤيب:][٦]

[الطويل] وَمُفْرِهَـةٍ عَنْسٍ قَـدَرْتُ لِسَـاقِهَا فَخَرَّت كَمَـا تَـتَّابَعُ الرِّيحُ بالقَفْلِ[٧]

يريد: قَدَّرْتُ ضربي لساقها، وكقول النبي ﷺ في الاستخارة: «واقْدُرْ لي الخير حيث كان»[٨]، ويَكُونُ أَيضاً بمعنى: يَسِّـرْ ووَفِّق، ومنه قول الشاعر:

[البسيط] بِقُنْـدُهَـارَ ومَـنْ تُـقْـدَرْ مَنِيَّـتُـهُ بِقُنْـدُهَـارَ يُـرَجَّـمْ دُونَـهُ الْخَبَـرُ[٩]

---

(١) في المطبوع والمصرية ونجيبويه: «من خلف الكلام وردِّه».

(٢) في المطبوع والمصرية: بدل الكلمتين: «عندي».

(٣) ساقط من نجيبويه.

(٤) انظر في الموضوع: إعراب القرآن للنحاس (٢/ ٢٤٣)، ولم أقف على كلام المبرد في شيء من كتبه.

(٥) وهما سبعيتان، انظر: التيسير (ص: ١٣٦).

(٦) ساقط من المصرية ونور العثمانية.

(٧) انظر عزوه له في: جمهرة اللغة (٢/ ٩٦٦)، والصحاح للجوهري (٣/ ١١٩٢)، وإصلاح المنطق (ص: ٤٦)، والمحكم (٤/ ٣٠٧).

(٨) البخاري (١١٠٩) من حديث جابر رضي الله عنه.

(٩) البيت ليزيد بن مفرّغ، كما في الخراج وصناعة الكتابة (ص: ٤١٥)، وفتوح البلدان (ص: ٤١٨)، =

وكسرت الأَلف من ﴿إِنَّهَا﴾ بسبب اللام التي في قوله: ﴿لَمِنَ﴾.

والغَابر: الباقي في الدهر وفي غيره، وقالت فرقة منهم النحاس: هو من الأَضداد، يقال في الماضي وفي الباقي[1]، وأَما في هذه الآية فهي للبقاءِ، أَي: من الغابرين في العذاب.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ الآيات، تقدم القولُ وذِكْرُ القصص في أَمر لوط، وصورة لقاءِ الرسل له، وقيل: / إِن الرسل كانوا ثلاثة: جبريل وميكائيل وإِسرافيل، وقيل: كانوا اثني عشر. [٣/ ١٢٣]

وقوله: ﴿مُّنكَرُونَ﴾ أَي: لا تُعرفون في هذا القطر، وفي هذه اللفظة تحذير، وهو من نمط ذمِّه لقومه، وجريه إلى أَلَّا ينزل هؤلاءِ القوم في تلك المدينة خوفاً منه أَن يظهر سوءُ فعلهم وطلبهم الفواحش، فقالت الرسل للوط: بل جئناك بما وعدك الله من تعذيبهم على كفرهم ومعاصيهم وهو الذي كانوا يشكُّون فيه ولا يحققونه.

وقرأَت فرقة: ﴿فَأَسْرِ﴾ بوصل الأَلف، وقرأت فرقة: ﴿فَأَسْرِ﴾ بقطع الألف[2].

يقال: سَرَى وَأَسْرَى بمعنى إِذا سار ليلاً، قال النابغة:

أَسْرَتْ عَلَيْهِ مِنَ الْجَوْزَاءِ سَارِيَةٌ[3] .... [البسيط]

فجمع بين اللغتين في بيت[4].

وقرأَ اليماني: (فَسِرْ بِأَهْلِكَ)[5].

= والمسالك والممالك (ص: ٥٦)، ومعجم البلدان (٤/ ٤٠٣)، وقُنْدُهار بضم القاف والدال وسكون النون بينهما مدينة من بلاد السند والهند، وتقع الآن في أفغانستان.

(١) انظر قوله في: الباقي في إعراب القرآن للنحاس (٢/ ٢٤٣).

(٢) في المطبوع: «وفرقة بقطعها»، وهما سبعيتان، الأولى لنافع وابن كثير والثانية للباقين، انظر: التيسير (ص: ١٢٥).

(٣) تقدم قريباً.

(٤) «في بيت»: ليست في أحمد٣ والمطبوع.

(٥) وهي شاذة، انظر عزوها له في الشواذ للكرماني (ص: ٢٦٦).

وهذا الأَمر بالسُّرى هو عن الله تعالى، أَي: يقال لَكَ، والقِطْعُ: الجزءُ من الليل.

وقرأَت فرقة: (بِقِطَع) بفتح الطاءِ، حكاه منذر بن سعيد[1].

وقوله: ﴿وَٱتَّبِعۡ أَدۡبَٰرَهُمۡ﴾ أي: كن خلفهم وفي ساقتهم[2] حتى لا يبقى منهم أَحد، ولا تلْوي.

و﴿حَيۡثُ﴾ في مشهورها ظرف مكان.

وقالت فرقة: أُمِرَ لوطٌ أَن يسير إِلى زُغَر، وقيل: إِلى موضع نجاة غير معروف عندنا، وقالت فرقة: «حيث» قد تكون ظرف زمان، وأَنشد أَبو علي في هذا بيت طرفة:

[المديد] لِلْفَتى عقْلٌ يَعِيشُ بِهِ حَيْثُ تَهدِي سَاقهُ قَدَمُه[3]

كأَنه قال: مُدَّة مَشْيِهِ وتنقله، وهذه الآية من حيث أُمر أَن يسري بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ، ثم قيل له: حيث تُؤمر، ونحن لا نجد في الآية أَمراً إِلا في قوله: ﴿فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾، أَمكن أَن تكون ﴿حَيۡثُ﴾ ظرف زمان.

و﴿يَلۡتَفِتۡ﴾ مأْخوذ من الالتفات الذي هو نظر العين.

قال مجاهد: المعنى: لا ينظر أَحد وراءَه[4].

قال القاضي أبو محمد: ونُهوا عن النظر مخافة الغفلة[5] وتعلق النفس بمن خلف، وقيل: بل لئلا تتفطَّر قلوبهم من معاينة ما جرى على القرية في رفعها وطرحها.

---

(١) وهي شاذة عزاها في الشواذ للكرماني (ص: ٢٦٧) لأبي واقد والجراح، وانظر: نقل منذر في البحر المحيط (٦/ ٤٨٨).

(٢) في المطبوع: «ساقهم».

(٣) انظر عزوه له في: تفسير الطبري (١/ ١٦٨)، والمعاني الكبير (٣/ ١٢٦٣)، وسمط اللآلي (١/ ٣١٩)، والصحاح للجوهري (٦/ ٢٥٣٤).

(٤) تفسير الطبري (١٧/ ١١٦).

(٥) في الأصل: «العقلة»، وكتبت في العلمية: «العقلنة».

وقيل: ﴿يَلْتَفِتْ﴾ معناه: يتلوى، من قولك: لَفَتُّ الأَمر إِذا لويته، ومنه قولهم للعصيدة[١]: لفيتة، لأنها تُلوى[٢] بعضُها على بعض.

قوله عز وجل: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾.

المعنى: وَقَضَيْنا ذلِكَ الْأَمْرَ، أَي: أَمضيناهُ وحتمنا به[٣]، ثم أُدخل في الكلام ﴿إِلَيْهِ﴾ من حيث أُوحي ذلك إِليه وأَعلمه الله به، فجُلب هذا المعنى بإِيجاز، وحُذف ما يدل الظاهر عليه، و﴿أَنَّ﴾ في موضع نصب، قال الأَخفش: هي بدل من ﴿ذَٰلِكَ﴾[٤]، وقال الفراءُ: بل التقدير: بأَن دابر، فحذف حرف الجر[٥]، والأَول أَصوب.

والدَّابِرُ: الذي يأْتي آخر القوم، أَي: في أَدبارهم، وإِذا قُطع ذلك وأُتي عليه فقد أَتى العذاب من أَولهم إِلى آخرهم، وهذه أَلفاظ دالَّة على الاستئصال والهلاك التام، يقال: قطع الله دابره، واستأْصل شأْفته، وأَسْكَتَ نأْمته[٦] بمعنى.

و﴿مُّصْبِحِينَ﴾ معناه: إِذا أَصبحوا ودخلوا في الصباح.

---

(١) في المطبوع وأحمد٣ والمصرية: «للقصيدة».

(٢) في المطبوع وأحمد٣: «ملوي»، وفي حاشيته: «في بعض النسخ: لأنها يلتوي بعضها على بعض».

(٣) في المطبوع: «أمضياه وحتمناه»، وكتبت في العلمية: «وختمنا به» بالخاء.

(٤) معاني القرآن للأخفش (٢/ ٤١٣).

(٥) لفظه في معاني القرآن (٢/ ٩٠): وتكون نَصْباً آخر بسقوط الخافض منها، أي: قضينا ذَلِكَ الأمر بِهذا.

(٦) قال في تهذيب اللغة (١٥/ ٣٦٥): يقال: أسكت نأمته، مهموزة مخففة الميم، وهو من النئيم، وهو الصوت الضعيف.

وقوله: ﴿ وَجَآءَ أَهۡلُ ٱلۡمَدِينَةِ﴾ يحتمل أَن يرجع إِلى وصف أَمر جرى قبل إِعلام لوط بهلاك أُمَّته، ويدل على هذا أَن محاجَّة لوط لقومه [في الأَضياف][1] تَقتضي ضعف من لم يعلم إِهلاكهم وأَن الأَضياف ملائكة.

ويحتمل أَن يكون قوله: ﴿ وَجَآءَ أَهۡلُ ٱلۡمَدِينَةِ﴾ بعد علمه بهلاكهم، وكان قوله ما يأْتي من المحاورة على جهة التكتم عنهم، والإِملاءِ لهم، والتَّربُّص بهم.

قال القاضي أبو محمد: والاحتمال الأَول عندي أَرجح، وهو الظاهر من آيات غير هذه السورة.

وقوله: ﴿يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾ أَي: بالأَضياف طمعاً منهم بالفاحشة، والضَّيف مصدر وُصف به فهو يقع للواحد والجميع والمذكر والمؤنث.

وقولهم: ﴿أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، رُوي أَنهم كانوا قد تقدموا إِليه في أَلَّا يضيف أَحداً ولا يجيره، لأَنهم لا يراعونه ولا يكتفُّون[2] عن طلب الفاحشة فيه.

وقرأَ الأَعمش: (إِنَّ دَابِرَ) بكسر الهمزة[3].

ورُوي أَن في قراءَة عبد الله: (وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الأَمْرَ وقُلْنَا إِنَّ دَابِرَ هَؤُلاءِ مقطوع)[4].

وذكر السديُّ أَنهم إنما[5] كانوا يفعلون الفاحشة مع الغرباءِ ولا يفعلونها بعضهم ببعض، فكانوا يعترضون الطرق.

---

(١) ساقط من الأصل.

(٢) في المطبوع ونور العثمانية وأحمد٣: «يكفون».

(٣) الكشاف للزمخشري (٢/ ٥٨٤).

(٤) نقلها عنه الفراء في معاني القرآن (٢/ ٩٠)، ومقطوع: سقطت من المطبوع، وسقطت: «وقلنا إن» من المصرية.

(٥) من المصرية ونجيبويه.

وقول لوط عليه السلام: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ﴾ اختلف في تأْويله:

فقيل: أَراد نساءَ أُمَّته، لأَنَّ زوجات النبيين[١] أُمهات الأمم وهو أَبوهم، فالنساءُ بناته في الحرمة، والمراد بالتزويج، ويلزم[٢] من هذا التأْويل أَن يكون في شرعه جواز زواج الكافر للمؤمنة، وقد ورد أَن المؤمنات به قليل جدّاً، وقيل: إِنما أَراد بنات صلبه، ودعا إِلى التزويج أَيضاً، قاله قتادة[٣]، ويلزم هذا التأْويلَ أيضاً ما لزم المتقدمَ في ترتيبنا.

قال القاضي أبو محمد: ويحتمل أَن يريد عليه السلام بقوله: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ﴾ بنات صلبه، ويكون ذلك على طريق المجاز، وهو لا يحقق في إِباحة بناته، وهذا كما تقول لإِنسان تراه يريد قَتْل آخر: اقتلني ولا تقتله، فإِنما ذلك على جهة التشنيع عليه، والاستنـزال من جهة ما، واستدعاءِ الحياءِ[٤] منه، وهذا كله من مبالغة القول الذي لا يدخله معنى الكذب، بل الغرض منه مفهوم، وعليه قول النبي ﷺ: «وَلَوْ كَمَفْحَص قَطاةٍ»[٥] إِلى غير هذا من الأَمثلة.

والعَمْرُ والعُمْرُ بفتح العين وضمها واحد، وهما [عُمْر الحياة ومدتها][٦]، ولا يستعمل في القَسَم إِلا بالفتح، وفي هذه الآية شرف لمحمد ﷺ لأَن الله تعالى أَقسم بحياته، ولم يفعل ذلك مع بشر سواه، قاله ابن عباس[٧].

قال القاضي أبو محمد: والقَسَم بـ«لَعَمْرُك» في القرآن، وبـ«لَعَمْري» ونحوه في

---

(١) في المطبوع: «البنين»، وفي نجيبويه «الأنبياء».

(٢) وكتبت في نجيبويه: «لا يلزم».

(٣) تفسير الطبري (١٧/ ١١٨).

(٤) في نجيبويه: «الحياة».

(٥) سبق تخريجه، وهو حديث: «من بنى لله مسجداً»، سورة النساء الآية رقم (٢٢).

(٦) من المطبوع وأحمد٣، وفي الأصل والنسخ الأخرى: «مدة الحياة».

(٧) أخرجه الطبري (١٧/ ١١٨) من طريقين فيهما لين عن عمرو بن مالك هو النكري، عن أبي الجوزاء هو أوس بن عبد الله الربعي.

أَشعار العرب وفصيح كلامها في غير موضع، كقوله:

[الطويل] لَعَمْرِي وَمَا عَمْرِي عَلَيَّ بِهَيِّنٍ[1] ....

وقول الآخر:

[الوافر] لَعَمْرُ أَبِيكَ ما نُسِبَ الْمُعَلَّى[2] ....

[٣/ ١٢٤] وكقول الآخر / :

[الطويل] لَعَمْرُكَ إِنَّ الْمَوْتَ مَا أَخْطَأَ الْفَتَى لَكَالطِّوَلِ الْمُرْخَى وثِنْيَاهُ بالْيَدِ[3]

والعرب تقول: لَعَمْرُ الله، ومنه قول الشاعر:

[الوافر] إِذَا رَضِيَتْ عَلَيَّ بنو قُشَيْرٍ لَعَمْرُ اللَّهِ أَعْجَبَنِي رضاهَا[4]

---

(١) هذا صدر بيت للنابغة، وتمامه: لَقَدْ نَطَقَتْ بُطْلاً عَلَيَّ الأَقارِعُ، كما في العين (٧/ ٤٣١)، والجمل في النحو (ص: ٩٠)، والكتاب لسيبويه (٢/ ٧٠)، وجاء صدر بيت آخر لعامر بن الطفيل تمامه: لقد شان حر الوجه طعنة مسهر، كما في المفضليات (ص: ٣٦٢)، وأنساب الخيل (ص: ٤٥)، والأصمعيات (ص: ٢١٥)، والشعر والشعراء (١/ ٣٢٢)، وجاء في صدر بيت آخر لهند بنت حذيفة ترثي أخاها، وتمامه: ولا حالف بر كآخر فاجر، كما في بلاغات النساء (ص: ١٧٤)، وجاء في الكامل للمبرد (٢/ ١٤٩)، والأوائل للعسكري (ص: ١٢٥)، وديوان المعاني (٢/ ٦٩): أن رجلاً من بني سليم بن منصور قتلته خثعم، فقالت أخته ترثيه: لعمري وما عمري علي بهين... لنعم الفتى غادرتم آل حثعما، وفي حماسة أبي تمام: وقال يزيد بن قنانة: لعمري وما عمري على بهين... لبئس الفتى المدعو بالليل حاتم، انظر: شرح ديوان الحماسة (ص: ١٠٢٣).

(٢) هذا صدر بيت لأبي علي البصير، وتمامه: إلى كَرَمٍ وفي الدُّنْيَا كَريمُ، كما في أمالي القالي (٢/ ٢٨٧)، المنتحل (ص: ١٣٦).

(٣) البيت لطَرَفة بن العبد، من معلقته، انظر: نسبته له في العين (٧/ ٤٥١)، وغريب الحديث لابن قتيبة (٢/ ٢٩٢)، وجمهرة اللغة (٢/ ٩٢٦)، وجمهرة أشعار العرب (ص: ٣٣٠)، والشعر والشعراء (١/ ١٨٣)، وتفسير الطبري (٢/ ٤٧٧)، وإصلاح المنطق (ص: ١٢٩).

(٤) البيت لِلْقُحَيْف العُقَيْلِيِّ كما تقدم في أول سورة البقرة.

وقال الأَعشى:

وَلَعَمْرُ مَنْ جَعَلَ الشُّهورَ عَلاَمَةً فينَا فَبَيَّنَ نِصْفَها وكَمالَها[١] [الكامل]

[ويروى: وهلالها][٢].

وقال بعض أَصحاب المعاني: لا يجوز هذا، لأَنه لا يقال: لله تعالى عُمْر، وإِنما يقال: بقاءٌ أَزلي، ذكره الزهراوي[٣]، وكره إِبراهيم النَّخَعي أَن يقول الرجل: لعمري، لأنهَ حلف بحياة نفسه، وذلك من كلام ضعفة الرجال[٤]، ونحو هذا.

وقَوْلُ مالك في لَعَمْري ولَعَمْركَ أَنها ليست بيمين[٥]، وقال ابن حبيب: ينبغي أَن تصرف لعمرك في الكلام اقتداءً بهذه الآية[٦].

و﴿يَعۡمَهُونَ﴾ يَرْتَبكون ويتحيرون، والضمائر في ﴿سَكۡرَتِهِمۡ﴾ يراد بها قوم لوط المذكورون، وذكر الطبري أَن المراد قريش[٧]، وهذا بعيد لأَنه ينقطع مما قبله ومما بعده.

وقوله: ﴿لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ﴾ مجازٌ وتشبيه، أَي: في ضلالتهم وغفلتهم وإعراضهم[٨] عن الحق ولهوهم، و﴿يَعۡمَهُونَ﴾ معناه: يترددون[٩] في حيرتهم، و﴿مُشۡرِقِينَ﴾ معناه: قد دخلوا في الإِشراق، وهو سطوع ضوءِ الشمس وظهوره، قاله ابن زيد[١٠].

---

(١) وهو من قصيدة للشاعر يمدح بها قيس بن معديكرب، انظر نسبته له في: البحر المحيط (٥/ ٤٥٠)، والديوان.

(٢) زيادة من الأصل ونجيبويه، وهي في الإماراتية ملحقة في الهامش.

(٣) لم أجده.

(٤) تفسير الطبري (١٧/ ١١٩).

(٥) التلقين في الفقة المالكي (١/ ٩٧).

(٦) نقله القرطبي في الجامع لأحكام القرآن (١٠/ ٤٠).

(٧) تفسير الطبري (١٧/ ١١٨).

(٨) سقطت من المطبوع وأحمد٣.

(٩) سقطت من نور العثمانية، في الأصل وأحمد٣: «يتردون».

(١٠) لم أجده له، وانظر: الوجيز للواحدي (ص: ٥٩٥)، وتفسير السمعاني (٣/ ١٤٦).

قال القاضي أبو محمد: وهذه الصيحة هي صيحة الوجبة[١]، وليست كصيحة ثمود، وأُهلكوا بعد الفجر مصبحين، واستوفاهم الهلاك مشرقين.

وخبر قوله: ﴿لَعَمۡرُكَ﴾ محذوف تقديره: لَعَمْرك قسمي أَو يميني، وفي هذا نظر.

وقرأَ ابن عباس: (وَعَمْرك).

وقرأَ الأَشهب العقيلي: (لفي سُكْرَتِهِمْ) بضم السِّين، وقرأَ ابن أَبي عبلة: (سَكَرَاتِهِمْ)، وقرأَ الأَعمش: (لفي سُكْرِهِمْ) بغير تاء.

وقرأَ أَبو عمرو في رواية الجهضمي: (أَنَّهُمْ في سكرتهم)[٢] [بفتح الألف][٣].

ورُوي في معنى قوله: ﴿فَجَعَلۡنَا عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ أَن جبريل عليه السلام اقتلع المدينة بجناحه[٤] ورفعها حتى سمعت ملائكة السماءِ صراخ الديكة ونباح الكلاب، ثم قلبها وأَرسل الكل، فمن سقط عليه شيءٌ من جرم[٥] المدينة مات، ومن أَفلت منهم أَصابته حِجارَةٌ مِنْ سِجِّيلٍ.

وسِجِّيل: اسم من أَسماءِ سماءِ الدنيا، وقيل: هي لفظة فارسية، وهي الحجارة المطبوخة من الطين كالآجُرِّ ونحوه، وقد تقدم القول في هذا.

والمُتَـوَسِّمُونَ قال مجاهد: المتَفَرِّسون[٦]، وقال الضحاك: الناظرون، وقال قتادة: المعتبِرون[٧]، وقيل غير هذا مما هو قريب منه، وهذا كله تفسير لها بالمعنى، وأما تفسير

---

(١) في المصرية: «الوَحْشَة».

(٢) في نجيبويه: «سكرأتهم».

(٣) ساقط من المطبوع، وانظر القراءات الخمس في: البحر المحيط (٦/ ٤٩٠)، وفي أحمد٣: «الجهضميين».

(٤) في الأصل: «بجناحيه».

(٥) في المطبوع: «ردم»، وفي المصرية: «هدم».

(٦) تفسير الطبري (١٧/ ١٢٠).

(٧) انظر قول الضحاك وقتادة في: تفسير الطبري (١٧/ ١٢١).

اللفظة[١] فإن المعاني التي تكون في الإنسان وغيره من خير أو شرٍّ يلوح عليه وَسْم على تلك المعاني، كالسكون والدماثة واقتصاد الهيئة[٢] التي تكون عن الخير ونحو هذا، فالمتوسِّم هو الذي ينظر في وَسْم المعنى ليستدل به على المعنى، وكأَن معصية هؤلاءِ أَبقت من العذاب والإِهلاك وسْماً، فمن رأَى الوَسْم استدل على المعصية به، واقتاده النظر إِلى تجنب المعاصي لئلا ينزل به ما نزل بهم، ومن الشعر في هذه اللفظة قول الشاعر:

تَـوَسَّـمْتُـه لَمَّـا رَأَيْـتُ مَهَـابَـةً ... عَلَيْهِ وقلْتُ الْمَرْءُ مِنْ آلِ هَاشِمِ[٣] [الطويل]

وقال آخر:

وظَلَلْـتُ فيهَـا واقِفـاً أَتَوَسَّـمُ[٤] .... [الكامل]

وقال آخر:

إِنِّي توسَّمْتُ فيكَ الْخَيْرَ نَافِلَةً[٥] .... [البسيط]

والضمير في قوله: ﴿وَإِنَّهَا﴾ يحتمل أَن يعود على المدينة المهلكة، أَي: أَنها في طريقٍ ظاهر بيِّنٍ[٦] للمعتبِر، وهذا تأْويل مجاهد، وقتادة، وابن زيد[٧]، ويحتمل أَن يعود على الآيات.

---

(١) في المطبوع: «وإِنما تفسيرها باللفظ».
(٢) في المصرية: «المنقبة»، وفي المطبوع: «كالسكون والديانة والهيبة».
(٣) من أبيات مشهورة لأعرابي يمدح عبيد الله بن عباس، انظر قصتها في: الفاضل للمبرد (ص: ٣٢)، ولباب الآداب (١/ ١٠٠).
(٤) لم أقف عليه لغير المؤلف.
(٥) هذا صدر بيت لعبد الله بن رواحة يخاطب النبي ﷺ، وتمامه: والله يَعْلَمُ أَنِّي ثابِتُ الْبَصَرِ، انظر: تفسير الماوردي (٣/ ١٦٨)، وجاء في سيرة ابن هشام (٢/ ٣٧٤) بفلظ: «تفرست»، قال ابن هشام ويروى تمامه: فراسة خالفت فيك الذي نظروا.
(٦) «بين»: ليست في المطبوع.
(٧) تفسير الطبري (١٧/ ١٢٢).

ويحتمل أَن يعود على الحجارة، ويقوي هذا التأْويل ما روي أَن النبي ﷺ قال: «إِن حجارة العذاب معلقة بين السماءِ والأَرض منذ أَلْفَيْ سنة لعصاة أُمَّتي»[١].

وقوله: ﴿لَآيَةً﴾ أَي أَمارة وعلامة، كما تقول: آيةُ ما بيني وبينك كذا وكذا.

قوله عز وجل: ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ (٧٨) فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ (٧٩) وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ (٨٠) وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٨١) وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ (٨٢) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ (٨٣) فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٤) وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ۗ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ ۖ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ (٨٥) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (٨٦)﴾.

﴿الْأَيْكَةِ﴾: الغيْضة والشجر الملتف المخضر، يكون السِّدر ونحوه[٢].

قال قتادة: رُوي أَن أَيكة هؤلاءِ كانت من شجر الدوم[٣]، وقيل: من المقل، وقيل: من السِّدْر، وكان هؤلاءِ قوماً يسكنون غَيْضة ويرتفقون بها في معايشهم، فبعث الله إِليهم شعيباً فكفروا، فسلَّط الله عليهم الحر فدام عليهم سبعة أَيام، ثم رأَوا سحابةً فخرجوا فاستظَلُّوا تحتها فاضطرمت عليهم ناراً، وحكى الطبريُّ قال: بُعث شُعَيْبٌ إِلى أُمتين كفرتا فعُذِّبتا بعذابين مختلفين: أَهل مدين عذبوا بالصيحة، وأَصْحابُ الْأَيْكَةِ [عذِّبوا بالظُّـلَّة][٤].

ولم يختلف القراءُ في هذا الموضع في إِدخال الأَلف واللام على (أَيْكَة)، وأَكثرهم همز أَلف (أَيكة) بعد اللام، ورُوي عن بعضهم أَنه سهَّلها ونقل حركتها إِلى اللام فقرأَ: (الَايْكَةِ) دون همز[٥]، واختلفوا في سورة الشعراءِ، وفي سورة ص[٦].

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) في المصرية ونجيبويه: «وغيره».

(٣) تفسير الطبري (١٧/ ١٢٤).

(٤) من المطبوع ونجيبويه، انظر: تفسير الطبري (١٧/ ١٢٤)، و(١٩/ ٣٩٣)، نقلاً عن قتادة.

(٥) هذه رواية ورش عن نافع وهي قاعدته في جميع القرآن، انظر: تفصيل مذهبه في ذلك في التيسير للداني (ص: ٢٩).

(٦) الآية (١٧٦) من سورة الشعراء، و(٣٨) من سورة ص، وسيأتي تفصيل الخلاف فيهما في محله إن شاء الله تعالى.

و(إِنْ) هي المخففة من الثقيلة على مذهب البصريين.

وقال الفراءُ: «(إِنْ) بمعنى «ما»، واللام في قوله: ﴿لَظَٰلِمِينَ﴾ بمعنى إِلاَّ»[١].

قال أَبو علي: «الأَيْكُ: جمع أَيْكة، كتَمرة وتَمْر»[٢].

قال القاضي أبو محمد: ومن الشاهد على اللفظة قول أُمَيَّـة بن أَبي الصلت:

كَبُكَا الْحَمام عَلَى غُصُو ... نِ الأَيْكِ في الطَّيْرِ الْجَوَانح[٣] [مجزوء الكامل]

وقول جرير:

وقَفْتُ بها فَهَاجَ الشَّوْقَ مِني ... حَمامُ الأَيْكِ يسعِدُها حَمامُ[٤] [الوافر]

ومنه قول الآخر:

أَلا إِنَّما الدُّنيا غَضارةُ أَيْكَةٍ ... إِذا اخْضَرَّ مِنها جانِبٌ جَفَّ جَانِبُ[٥] [الطويل]

ومنه قول الهذلي:

مُوَشَّحَةٌ بالطُّرَّتَيْنِ دَنَا لَهَا ... جَنى أَيْكَةٍ يَضْفُو عَلَيْهَا قِصَارُهَا[٦] [الطويل]

وأَنشد الأَصمعي:

وما خلِيجٌ من المروت ذو حَدَبٍ ... يرْمِي الصَّعيدَ بخُشْبِ الأَيْك والضَّالِ[٧] [البسيط]

---

(١) معاني القرآن للفراء (٢/ ٩١).

(٢) الحجة (٥/ ٥٢).

(٣) انظر عزوه له في: سيرة ابن هشام (٢/ ٣٠)، وتفسير الطبري (١٧/ ١٢٤)، والعقد الفريد (٣/ ٢٥٢)، والبصائر والذخائر (٩/ ٧٦).

(٤) بلا نسبة في تفسير الطبري (١٧/ ١٤٨).

(٥) البيت لابن عبد ربه كما في العقد الفريد (٣/ ١٣٤) له، ويتيمة الدهر (٢/ ٩)، وجذوة المقتبس (ص: ١٠٣)، ومعجم الأدباء (١/ ٤٦٥).

(٦) هو أبو ذؤيب انظر عزوه له: في الحجة للفارسي (٥/ ٥١)، والمحكم (٢/ ٣٦٤)، وأساس البلاغة (٢/ ٣٣٥)، ومحاضرات الأدباء (٢/ ٧٠١).

(٧) البيت لأوس بن حجر كما في في شرح أبيات الجمل (١/ ٢٧)، وهو في الاشتقاق (١/ ٤٥) =

والضمير في قوله: ﴿وَإِنَّهُمَا﴾ يحتمل أَن يعود على المدينتين اللَّتَين تقدم ذكرهما، مدينة قوم لوط، ومدينة أَصحاب الأَيكة، ويحتمل أَن يعود على النَّبيَّين لوطٍ وشُعيب في أَنهما على طريق / من الله وشرع مبين. [٣/ ١٢٥]

والإِمامُ في كلام العرب: الشيءُ الذي يهتدى به ويُؤْتَمُّ، يقولونه لخيط البناءِ، وقد يكون الطريق، وقد يكون الكتابَ المفيد، وقد يكون القياسَ الذي يعمل عليه الصناع، وقد يكون الرجلَ المُقْتدى به، ونحو هذا، ومن رأَى عَود الضمير في ﴿وَإِنَّهُمَا﴾ على المدينتين قال: الإِمامُ: الطريق، وقيل على ذلك: الإِمامُ: الكتاب الذي سبق فيه إِهلاكهما.

وأَصْحابُ الْحِجْرِ هم ثمود، وقد تقدم قصصهم، والْحِجْر مدينتهم، وهي ما بين المدينة وتبوك، وقال: ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ من حيث يجب بتكذيب رسول واحد تكذيب الجميع، إِذ القول في المعتقدات واحد للرسل أَجمع، فهذه العبارة أَشنع على المكذبين.

والآيات التي آتاهم الله هي الناقة وما اشتملت عليه من خرق العادة حسب ما تقدم تفسيره وبسْطه.

وقرأَ أَبو حيْوة: (وآتَـيْناهم آيَـتَنا) مفردة[(١)].

وقوله تعالى: ﴿وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ﴾ الآية، يصف قوم صالح بشدة النظر للدنيا والتكسب[(٢)] منها، فذكر من ذلك مثالاً أَن بيوتهم كانوا ينحتونها في حجر من الجبال، والنحتُ: النقر بالمعاول ونحوها في الحجارة والعود ونحوه.

وقرأَ جمهور الناس: ﴿يَنْحِتُونَ﴾ بكسر الحاءِ، وقرأَ الحسن: (ينحَتون) بفتحها، وذلك لأَجل حرْف الحلق، وهي قراءَة أَبي حيوة[(٣)].

= غير منسوب، وروايته «يرمي الضرير»، قال: «والضرير: فعيل في معنى مفعول. وضريرا الوادي: جنباه،... والمروت: واد معروف»، وفي المطبوع بدل المروت: نقاط (...).

(١) لم أجدها لغير المصنف.

(٢) في المطبوع: «والكسب».

(٣) وهي شاذة، انظر عزوها للحسن في: المحتسب (٢/ ٤)، وتقدمت في سورة الأعراف، =

وقوله: ﴿ءَامِنِينَ﴾، قيل: معناه: من انهدامها، وقيل: من حوادث الدنيا، وقيل: من الموت لاغترارهم بطول الأَعمار.

قال القاضي أبو محمد: وهذا كله ضعيف، وأَصح ما يظهر في ذلك أَنهم كانوا يأْمنون عواقب الآخرة، فكانوا لا يعملون بحسبها، بل كانوا يعملون بحسب الأَمن منها.

ومعنى ﴿مُصْبِحِينَ﴾ أَي: عند دخولهم في الصباح، وذُكر أَن ذلك كان يوم سبت، وقد تقدم قصص عذابهم وميعادهم وتغيُّر أَلوانهم، ولم تغن عنهم شدة نظرهم للدنيا وتكَسُّبهم شيئاً، ولا دفع عذاب الله.

و(ما) الأُولى للنفي، وتحتمل التقرير، والثانية مصدريَّة.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ الآية، المراد أَن هؤلاءِ المكتسبين للدنيا الذين لم يغن عنهم اكتسابهم ليسوا في شيءٍ، فإِن السماوات والأَرض وجميع الأَشياءِ لم تخلق عبثاً ولا سُدى ولا لتكون طاعة الله كما فعل هؤلاءِ ونظراؤُهم، وإِنما خلقت بالحق، ولواجب مقصود وأَغراض لها نهايات من عذاب ونعيم، وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَـةٌ على جميع أُمور الدنيا، أَي: فلا تهتم يا محمد بأَعمال قومك، فإِن الجزاءَ لهم بالمرصاد، فَاصْفَحْ عن أَعمالهم، أَي: وَلِّها صفحة عنقك بالإِعراض عنها، وأَكَّد الصفح بِنَعْت الجَمَال إِذ المرادُ منه أَن يكون لا عَتْب فيه ولا تعرض، وهذه الآية تقتضي مهادنة، ونسختها آية السيف، قاله قتادة[١].

ثم سلاَّه في آخر الآيات بأَن الله تعالى يخلق ما شاءَ لمن شاءَ، ويعلم تعالى وجه الحكمة في ذلك، لا هذه الأَوثان التي يعبدونها[٢].

وقرأَ جمهور الناس: ﴿ٱلْخَلَّٰقُ﴾، وقرأَ الأَعمش والجحدري: (الْخَالِقُ)[٣].

= وانظر: إتحاف فضلاء البشر (ص: ٣٤٨).

(١) تفسير الطبري (١٧/ ١٢٨).

(٢) في المطبوع: «تعبدونها».

(٣) انظر: المحتسب (٢/ ٦)، وزاد مالك بن دينار.

قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

قال ابن مسعود(١)، وابن عمر(٢)، وابن عباس(٣)، ومجاهد، وابن جبير: السَّبع هنا هي السبع الطُّوَل: البقرة، وآل عمران، والنساءُ، والمائدة، والأَنعام، والمص، والأَنفال مع براءَة.

وقال ابن جبير: بل السابعة يونس: وليست الأَنفال وبراءَة منها(٤).

و﴿ٱلْمَثَانِي﴾ على قول هؤلاءِ: القرآن كله، كما قال تعالى: ﴿كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ [الزمر: ٢٣]، وسُمِّي بذلك لأَن القصص والأَخبار تُثَـنَّى فيه وتُـرَدَّد.

وقال عمر بن الخطاب(٥)، وعلي بن أَبي طالب(٦)، وابن عباس(٧) أَيضاً، وابن

---

(١) منقطع، أخرجه الطبري (١٧/ ١٢٩) من طريق: سفيان ـ هو الثوري ـ، عن يونس ـ هو ابن عبيد ـ، عن ابن سيرين، عن ابن مسعود. وابن سيرين يظهر أنه لم يلق ابن مسعود، أو لم يدركه، يروي عن أصحابه.

(٢) فيه مبهم، أخرجه الطبري (١٧/ ١٢٩) من طريق: سفيان ـ هو الثوري ـ، عن سعيد الجريري، عن رجل، عن ابن عمر.

(٣) صحيح، أخرجه الطبري (١٧/ ١٢٩) من طريق مجاهد وسعيد بن جبير، مفرقين، عن ابن عباس.

(٤) انظر القولين في تفسير الطبري (١٧/ ١٣٠).

(٥) ضعيف، أخرجه الطبري (١٧/ ١٣٢) من طريق: سعيد الجريري، عن أبي نضرة، قال: قال رجل منا يقال له: جابر أو جويبر عن عمر، وفيه قصة وفيها غرابة، والرجل لا يعرف.

(٦) أخرجه الطبري (١٧/ ١٣٣) من طريق: سفيان، عن السدي ـ هو إسماعيل بن عبد الرحمن ـ، عن عبد خير، عن علي. وفي (١٧/ ١٣٤): من طريق السدي عمن سمع علياً.

(٧) أخرجه الطبري (١٧/ ١٣٤) من طريق: سفيان، عن ابن جريج، عن أبيه، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، ومن طريق العوفي عنه أيضاً. وكلاهما ضعيفان.

مسعود[١]، والحسن، وابن أَبي مُلَيْكة، وعبيد بن عمير، وجماعة: «السبع هنا هي آيات الحمد»[٢].

وقال ابن عباس: هُنَّ سبع بـ«بسم الله الرحمن الرحيم»[٣]، وقال غيره: هُنَّ سبع دون البسملة.

ورَوى في هذا حديث أُبَيِّ بن كعب ونَصُّه: قال أُبَيٌّ: قال رسول الله ﷺ: «أَلا أُعلمك يا أُبيُّ سورة لم ينزل في التوراة ولا في الإِنجيل ولا في الزبور ولا في الفرقان مثلها» قلت: بلى يا رسول الله، قال: «إِنِّي لأَرجو أَلا تخرج من ذلك الباب حتى تعلمها»، فقام رسول الله ﷺ وقمت معه، ويدي في يده، وجعلت أبطئُ [في المشي][٤] مخافة أَن أَخرج، فلما دنوت من باب[٥] المسجد قلت: يا رسول الله، السورة التي وعدتنيها؟ فقال: «كيف تقرأُ إِذا قُمت في الصلاة»؟ قال: فقرأْتُ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ١] حتى أَكملت فاتحة الكتاب، فقال: «هي هي، وهي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أُوتيت»، كذا أَو نحوه، ذكره مالك في الموطأ، وهو مروي في البخاري ومسلم عن أَبي سعيد بن المعلى أَيضاً[٦].

وروى أَبو هريرة عن النبي ﷺ: «إِنها السبع المثاني، وأُم القرآن، وفاتحة الكتاب»[٧].

---

(١) منقطع، أخرجه الطبري (١٧/ ١٣٣) من طريق ابن سيرين عن ابن مسعود، ولم يدركه.

(٢) انظر الثلاثة وآخرين غيرهم في: تفسير الطبري (١٧/ ١٣٥).

(٣) أخرجه الطبري (١٧/ ١٣٤) من طريق سفيان عن ابن جريج عن أبيه عن ابن جبير عن ابن عباس، ووالد ابن جريج لين الحديث.

(٤) زيادة من الأصل ونجيبويه، وهي في الإماراتية ملحقة في الهامش.

(٥) سقط من أحمد٣ والمطبوع.

(٦) انظر: الموطأ رقم (١٨٦) بهذا اللفظ أو نحوه. البخاري (٤٢٠٤) (٤٤٢٦) (٤٧٢٠) بلفظ: ألا أعلمك أعظم سورة في القرآن، وليس فيه: لم ينزل في التوراة ولا في الإِنجيل ولا في الزبور ولا في الفرقان مثلها، وليس في مسلم، انظر: تحفة الأشراف (١٢٠٤٧).

(٧) البخاري (٤٤٢٧).

وفي كتاب الزهراوي: وليس فيها بسملة، والْمَثانِي على قول هؤلاءِ يحتمل أَن تكون القرآن، فـ﴿مِنَ﴾ للتبعيض، وقالت فرقة: بل أَراد الحمد نفسها، كما قال: ﴿ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ﴾ [الحج: ٣٠] فـ﴿مِنَ﴾ لبيان الجنس، وسميت بذلك لأَنها تُثنَّى في كل ركعة.

وقيل: سميت بذلك لأَنها يُثْنى بها على الله تعالى، جوّزه الزجاج[١].

قال القاضي أبو محمد: وفي هذا القول من جهة التصرف نظر.

وقال ابن عباس: سميت بذلك لأَن الله تعالى استثناها لهذه الأُمة ولم يعطها لغيرها[٢].

وقال نحوه ابن أَبي مُلَيْكَة[٣].

وقرأَت فرقة: (وَالْقُرْآن) بالخفض عطفاً على ﴿ٱلۡمَثَانِي﴾، وقرأَت فرقة: ﴿وَٱلۡقُرۡءَانَ﴾ بالنصب عطفاً على قوله: ﴿سَبۡعٗا﴾، وقال زياد بن أَبي مريم: المراد بقوله: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا﴾ أي: سبع معانٍ من القرآن خوَّلناك فيها شرف المنزلة في الدنيا والآخرة / ، وهي: مُرْ، وانْهَ، وبَشِّر، وأَنْذِرْ، واضرب الأَمثال، واعدد النعم، [وفُضَّ واقصص][٤] الغيوب[٥]. [٣/ ١٢٦]

---

(١) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٣/ ١٨٥).

(٢) أخرجه الطبري (٤/ ١٦٣) وغيره من طريق: ابن جريج قال: حدثني أبي عن سعيد بن جبير أنه أخبره أنه سأل ابن عباس عن السبع المثاني قال: أم القرآن، قال سعيد: قرأها وقرأ فيها «بسم الله الرحمن الرحيم»، قرأها سعيد بن جبير كما قرأها ابن عباس، وقرأ فيها «بسم الله الرحمن الرحيم» فقلت لابن عباس: فما المثاني؟ قال: هي أم القرآن استثناها الله لأمة محمد فرفعها في أم الكتاب فدخرها لهم حتى أخرجها ولم يعطها أحدا قبله، قال: فقلت لأبي: أخبرك سعيد بن جبير أن ابن عباس قال له: «بسم الله الرحمن الرحيم» آية من القرآن؟ قال: نعم.اهـ، وهو إسناد لين بسبب والد ابن جريج، وهو عبد العزيز، وكان لا يتابع على حديثه.

(٣) البحر المحيط (٦/ ٤٩٤).

(٤) من المصرية ونجيبويه، وفي النسخ الأخرى: «وقص».

(٥) تفسير الثعلبي (٥/ ٣٥٢) وفيه: «مر، وانه، وبشر، وأنذر، واضرب الأمثال، واعدد النعم، وآتيتك نبأ القرآن».

وقال أَبو العالية: السبع المثاني هي آي فاتحة الكتاب، وقد نزلت هذه السورة وما نزل من السبع الطُّوَل شيءٌ[(١)].

وقوله تعالى: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ الآية، حكى الطبري عن سفيان بن عُيَيْنَة أَنه قال: هذه الآية أَمر بالاستغناءِ بكتاب الله عن جميع زينة الدنيا، وهي ناظرة إِلى قوله ﷺ: «ليس منا من لم يتغنَّ بالقرآن»[(٢)]، أَي: يستغن به.

قال القاضي أبو محمد: فكأَنه قال: ولقد آتيناك عظيماً خطيراً، فلا تنظر إِلى غير ذلك من أُمور الدنيا وزينتها التي متعنا بها أَنواعاً من هؤلاءِ الكفرة، ومن هذا المعنى قول النبي ﷺ: «من أُوتي القرآن فرأَى أَن أَحداً أُعطي أَفضل مما أُعطي فقد عظَّم صغيراً وصغر عظيماً»[(٣)].

وكأَن مدَّ العين يقترن به تَمَنٍّ، ولذلك عبَّر عن الميل إِلى زينة الدنيا بِمَدِّ العين، والأَزواج هنا: الأَنواع والأَشباه.

وقوله: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾، أَي: لا تتأَسف لكفرهم وهلاكهم، واصرف وجه تَحَفِّيك[(٤)] إِلى من آمن بك، وَاخْفِضْ لهم جَناحَكَ، وهذه استعارة بمعنى: ليِّن جانبك ووطئ أَكنافك، والجناح: الجانب والجنب، ومنه قوله: ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾ [طه: ٢٢] فهو أَمر بالميل إِليهم، والجنوحُ: الـمَيْلُ.

﴿وَقُلْ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ﴾، أَي: تمسَّك بهذا القدر العظيم الذي وهبناك،

---

(١) تفسير الطبري (١٧/ ١٣٥).

(٢) البخاري (٧٠٨٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) لا يصح، قال المناوي في الفتح السماوي بتخريج أحاديث القاضي البيضاوي (٢/ ٧٥٠): قال العراقي: لم أقف عليه، وقال ابن حجر: لم أجده من حديث أبي بكر، ورواه إسحاق بن راهويه في مسنده ومن طريقه الطبراني في معجمه من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص. وأخرجه ابن عدي في ترجمة حمزة النصيبي عن زيد بن رفيع، عن أبي عبيدة عن ابن مسعود رفعه، وحمزة اتهموه بالوضع.

(٤) في المطبوع والمصرية: «وجهك وتحفيك»، وفي أحمد٣: «وجهك بحقك».

والكاف من قوله: ﴿كَمَآ﴾ متعلقة بفعل محذوف تقديره: وقل إِني أَنا النذير عذاباً كالذي أَنزلناه على المقتسمين، والكاف اسمٌ في موضع نصب.

قال القاضي أبو محمد: هذا قول المفسرين، وهو عندي غير صحيح، لأَن ﴿كَمَآ﴾ ليست مما يقوله محمد ﷺ، بل هو من قول الله تعالى له، فينفصل الكلام، وإِنما يترتب هذا القول بأَن يقدر أَن الله تعالى قال له: تنذر عذاباً كما، والذي أَقول في هذا المعنى: وقل إِني أَنا نذير كما قال قبلك رسلُنا، وأَنزلنا عليهم كما أَنزلنا عليك، ويحتمل أَن يكون المعنى: وقل أَنا النذير كما [قال قبلك رسلنا و][1] أَنزلنا في الكتب أَنك ستأْتي نذيراً، وهذا على أَن ﴿ٱلْمُقْتَسِمِينَ﴾ أَهل الكتاب.

واختلف الناس في ﴿ٱلْمُقْتَسِمِينَ﴾ من هم؟ فقال ابن زيد: «هم قوم صالح الذين اقتسموا بالله لَنُبَيِّتَنَّهُ»[2]، فالمقتسمون على هذا من القسم.

قال القاضي أبو محمد: ويقلق هذا التأْويل مع قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾.

وقال ابن عباس[3]، وسعيد بن جبير: «المقتسمون هم أَهل الكتاب الذين فرقوا دينهم، وجعلوا كتاب الله أَعضاءَ، آمنوا ببعض وكفروا ببعض»، وقال نحوه مجاهد[4].

وقالت فرقة: المقتسمون هم من كفار قريش الذين اقتسموا الطرق وقت المواسم ليُعَرِّفوا الناسَ بحال محمد ﷺ، وجعلوا القرآن سحراً وشعراً وكهانة، فعضهوه بهذا وعضَّوه أَعضاءً بهذا التقسيم، وقال عكرمة: المقتسمون هم قوم كانوا يستهزئون بِسُوَر

(١) زيادة من أحمد٣ والمصرية.

(٢) في المصرية: «البينة»، و«بالله» زيادة من المطبوع.

(٣) صحيح، أخرجه الطبري (١٧/ ١٤٢) من طريق: هشيم، قال: أخبرنا أبو بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، ومن طريق: الأعمش، عن أبي ظبيان، عن ابن عباس، ومن طريق: عطية العوفي عن ابن عباس.

(٤) انظر هذه الأقوال في: تفسير الطبري (١٧/ ١٤٢).

القرآن، ويقول الرجل منهم: هذه السورة لي، ويقول الآخر: وهذه لي[١].

وقوله: ﴿عِضِينَ﴾ مفعول ثان، و(جَعَل) بمعنى صَيَّر[٢]، أي: بألسنتهم ودعواهم، وأظهر ما فيه أنه جمع عِضَة، وهي الفرقة من الشيءِ، والجماعة من الناس، كثُبَةٍ وثُبين، وعِزةٍ وعِزين، وأصلها عِضهَة وثبوة[٣]، فالياءُ والنون عوض من المحذوف، كما قالوا: سَنَةٌ وسنون، إذ أصلها سَنْهَة.

وقال ابن عباس وغيره: ﴿عِضِينَ﴾ مأْخوذ من الأَعضاءِ، أَي: عضَّوه فجعلوه أَقساماً وأَعضاءً[٤]، ومن ذلك قول الراجز:

وَلَيْسَ دِينُ اللَّهِ بِالْمُعَضَّى[٥] .... [الرجز]

وهذا هو اختيار أَبي عبيدة[٦].

وقال قتادة: ﴿عِضِينَ﴾ مأْخوذ من العَضْهِ وهو السَّبُّ المفحش[٧]، فقريش عَضَهوا كتاب الله بقولهم: هو شعر، هو سحر، هو كهانة، وهذا هو اختيار الكسائي[٨]، وقالت فرقة: ﴿عِضِينَ﴾ جمع عِضَة، وهو اسم للسِّحْر خاصة بلغة قريش، ومنه قول الراجز:

لِلْمَاءِ مِنْ عِضَاتِهِنَّ زَمْزَمَهْ[٩] [الرجز]

---

(١) تفسير الثعلبي (٥/ ٣٥٢)، والهداية لمكي (٦/ ٣٩٢٩).

(٢) في المطبوع وأحمد٣: «جعلوا»، «صيروا».

(٣) في المطبوع: «وثُوبَة».

(٤) في المصرية ونجيبويه: أعضاء مقسما، صحيح، نحو التخريج المتقدم عنه قريبا.

(٥) البيت لرؤبة بن العجاج، كما في مجاز القرآن (١/ ٣٥٥)، وسيرة ابن هشام (١/ ٢٧٢)، وغريب القرآن لابن قتيبة (ص: ٢٣٩).

(٦) مجاز القرآن (١/ ٣٥٥).

(٧) تفسير الطبري (١٧/ ١٤٨).

(٨) لم أجده عنه، وعزا له في زاد المسير (٢/ ٥٤٤) مثل قول أبي عبيدة، وفي النكت (ص: ٢٨١) أنه من العضيهة وهي الكذب.

(٩) بلا نسبة في تفسير الطبري (١٧/ ١٤٨).

قال هذا القول عكرمة مولى ابن عباس[١]، وقال: العَضْه: السِّحْر، وهم يقولون للساحرة: العاضِهة، وفي الحديث: «لعن الله العاضهة والـمُسْتَعْضِهَة»[٢] وهو اختيار الفراءِ[٣].

قال القاضي أبو محمد: ومن قال: جعلوه أَعضاءً، فإِنما أَراد: قسَّموه كما يُقَسَّم الجزور أَعضاءً.

وقوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ﴾ إِلى آخر الآية، ضمير عام، ووعيد محضٌ يأْخذ كل أَحد منه بحسب جرمه وعصيانه، فالكافر يُسأَل عن «لا إِله إِلا الله»، وعن الرسل، وعن فكره وقصده، والمؤمن العاصي يُسأَل عن تضييعه، والإِمام عن رعيته، وكلُّ مكلف عما كلف القيام به، وفي هذا المعنى أَحاديث[٤].

وقال أَبو العالية في تفسير هذه الآية: «يسأَل العباد كلهم عن خلَّتين يوم القيامة: عما كانوا يعبدون، وبماذا أَجابوا المرسلين»[٥]، وقال في تفسيرها أَنَسُ بن مالك[٦]، وابن عمر[٧]،

---

(١) تفسير الطبري (١٧/ ١٤٨).

(٢) ضعيف أخرجه ابن عدي في الكامل (٣/ ٣٣٩) من حديث ابن عباس، وفي إسناده زمعة بن صالح وسلمة بن وهرام وهما ضعيفان.

(٣) معاني القرآن للفراء (٣/ ٣٧).

(٤) من ذلك حديث: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته...» متفق عليه من حديث ابن عمر، أخرجه البخاري (٨٥٣) وغير موضع، ومسلم (١٨٢٩). وحديث: ما منكم من أحد إلا سيكلمه الله ليس بينه وبينه ترجمان فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدم وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدم وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه فاتقوا النار ولوبشق تمرة. متفق عليه من حديث عدي بن حاتم، أخرجه البخاري (٧٠٧٤) ومسلم (١٠١٦).

(٥) تفسير الطبري (١٧/ ١٥٠).

(٦) ضعيف، أخرجه الطبري (١٧/ ١٥٠) من طريق: ليث ـ هو ابن سليم ـ، عن بشير بن نهيك، عن أنس. وليث ضعيف، وبشير لا تعرف له رواية عن أنس، وهو ليس بالحجة.

(٧) ضعيف، أخرجه الطبري (١٧/ ١٥٠) من طريق: فضيل بن مرزوق، عن عطية العوفي، عن ابن عمر.

ومجاهد: إن السؤال عن «لا إله إلا الله»[١]، وذكره الزهراوي عن النبي ﷺ[٢].

وقال ابن عباس في قوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ قال: يقال لهم: لِم عملتم كذا وكذا؟ قال: وقوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾ [الرحمن: ٣٩]، معناه: لا يقال له: ما أذنبت؟ لأن الله تعالى أعلم بذنبه منه[٣].

قال القاضي أبو محمد: ونفْيُ السؤال هو نفي الاستفهام المحض، وإيجاب السؤال هو على جهة التقرير لهم والتوبيخ.

قوله عز وجل: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (٩٤) إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (٩٥) الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٩٦) وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ (٩٧) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (٩٨) وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (٩٩)﴾.

﴿فَاصْدَعْ﴾: معناه: أَنفذ وصرِّح بما بعثت به، والصَّدع: التفريق بين ملتحم[٤]، كصدع الزجاجة ونحوه، فكأَن المصرِّح بقول يُرْجع إِليه يصْدع به ما سواه مما يضادُّه، والصَّديعُ: الصُّبْح لأَنه يَصدع الليل، وقال مجاهد: نزلت في أَن يجهر بالقرآن في الصلاة[٥].

وفي ﴿تُؤْمَرُ﴾ ضمير عائد على (ما)، تقديره: تؤْمر به، أَو تؤمره، وفي هذين تنازع.

وقوله: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ من آيات المهادنات التي نسختها آية السيف،/ [٣/ ١٢٧] قاله ابن عباس[٦].

---

(١) تفسير الطبري (١٧/ ١٥٠).

(٢) منكر، أخرجه الطبري (١٧/ ١٥٠) من طريق: ليث الذي مضى لكن مرفوعاً. وهذ أوهن من الموقوف السابق.

(٣) أخرجه الطبري (١٧/ ١٥٠) من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس.

(٤) في نجيبويه والأصل: «مُلْتئم».

(٥) تفسير الطبري (١٧/ ١٥١).

(٦) أخرجه الطبري (١٧/ ١٥٣) من طريق: علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس.

ثم أَعلمه تعالى أَنه كفاه الْمُسْتَهْزِئِينَ به من كفار مكة ببوائق من الله أَصابتهم، لم يَسْعَ بها محمد، ولا تكلَّف فيها مشقةً.

وقال عروة بن الزُّبير، وسعيد بن جبير: المستهزئون خمسة نفر: الوليدُ بن المغيرة، والعاصُ بن وائل، والأَسود بن المطلب أَبو زمعة، والأَسود بن عبد يغوث، ومن خزاعة الحارث بن الطُّلاطلة، وهو ابن غيطلة، وهو ابن قيس[١]، [قال أَبو بكر الهذليُّ: قلت للزهري: إن ابن جبير وعكرمة اختلفا في رجل من المستهزئين، فقال ابن جبير: هو الحارث بن غيطلة، وقال عكرمة: هو الحارث بن قيس، فقال الزهري: صَدَقا، أُمُّه غيطلة وأَبوه قيس][٢]، وذكر الشَّعْبي في الْمُسْتَهْزِئِينَ هَبَّار بن الأسود[٣]، وذلك وهم، لأن هَبَّاراً أَسلم يوم الفتح ورحل إِلى المدينة.

وذكر الطبريُّ عن ابن عباس أَن الْمُسْتَهْزِئِينَ كانوا ثمانية، كلهم مات قبل بدر[٤].

وروي أَن رسول الله ﷺ كان في المسجد، فأَتاه جبريل، فجاء الوليدُ فأَومأَ جبريل بإِصبعه إِلى ساقه وقال [للنبي ﷺ:][٥] كُفيت، ثم جازَ[٦] العاصي فأَومأَ إِلى أَخمصيه، وقال: كفيت، ثم مر أَبو زمعة فأَومأَ إِلى عينه، ثم مرَّ الأَسود بن عبد يغوث فأَومأَ إِلى رأْسه وقال: كفيت، ثم مرَّ الحارث فأَومأَ إِلى بطنه وقال: كفيت.

---

(١) انظر قول عروة في: تفسير الطبري (١٧/ ١٥٣)، وقول سعيد (ص: ١٥٥).

(٢) ساقط من الأصل، والأثر في تاريخ دمشق (٤١/ ٩٠).

(٣) هو هبّار بن الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى بن قصي القرشي الأسديّ، وهو الذي نخس بزينب بنت النبي ﷺ، وكان النبي ﷺ أمر بحرقه يوم الفتح ثم عفا عنه فأسلم، وله شعر ورواية، الإصابة (٦/ ٤١١).

(٤) جيد، أخرجه الطبري (١٧/ ١٥٩) من طريق: الحسين، ثني حجاج، عن ابن جريج، قال: أخبرني عمرو بن دينار، عن ابن عباس.

(٥) ساقط من المطبوع، وهو في أحمد**٣** ملحق في الهامش.

(٦) في أحمد**٣** والمطبوع: «جاء».

وكان الوليد قد مرَّ بقَيْن في خزاعة فتعلق سهم من نبله بإِزاره فخدش[1] ساقه، ثم برئ، فانتقض به ذلك الخدش بعد إِشارة جبريل فقتله، وقيل: إِن السهم قطع أَكْحَلَهُ، قاله قتادة ومقسم[2].

وركب العاصي بغلة في حاجة، فلما جاءَ ينزل وضع أَخْمصَه على شِبْرِقة[3] فورمت قدمه فمات، وعمي أَبو زمعة، وكان يقول: دعا عليَّ محمد بالعمى فاستجيب له، ودعوت عليه بأَن يكون طريداً شريداً فاستجيب لي.

وتمخض رأْسُ الأَسود بن عبد يغوث قيحاً فمات.

وامتلأَ بطن الحارث ماءً فمات حبناً[4].

قال القاضي أبو محمد: وفي ذكر هؤلاءِ وكفايتهم اختلاف بين الرواة، وفي صفة أَحوالهم وما جرى لهم جلبتُ أَصحَّه مختصراً طلباً للإِيجاز.

ثم قرر تعالى ذنبهم في الكفر، واتخاذ الأَصنام آلهة مع الله، ثم توعَّدهم بعذاب الآخرة الذي هو أَشق.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ آية تأْنيس للنبي ﷺ وتسلية عن أَقوال المشركين وإِن كانت مما يقلق، وضيق الصدر يكون من امتلائه غيظاً بما يكره الإِنسانُ، ثم أَمره تعالى بملازمة الطاعة، وأَن تكون مَسْلاتَه عند الهموم.

وقوله: ﴿مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ يريد: من المصلين، فذكر من الصلاة حالة القرب من الله

---

(١) في المطبوع: «فجرح».

(٢) رواه عنهما الطبري في التفسير (١٧/ ١٥٧).

(٣) في المصرية: «سرقة». الشِّبْرِقُ بالكسر: نبات ثمرتُه شاكَّة، صغيرة الحجم، حمراءُ مثل الدَّم، مَنْبَتُها السباخ والقيعان، واحدته: شِبْرِقَة.

(٤) الحبَن داء يأخذ في البطن فيعظم منه، وفي المطبوع: «حيناً» ولعلها خطأ، والحَيْنُ: الهلاك، والقصة في تفسير الطبري (١٧/ ١٥٥).

تعالى وهي السجود، وهي أَكرم حالات الصلاة وأَقمنُها بنيل الرحمة، وفي الحديث: كان رسول الله ﷺ إذا حَزَبه أَمْرٌ فزع إِلى الصلاة[١]، فهذا منه ﷺ أَخذٌ بهذه الآية.

و﴿ٱلْيَقِينُ﴾: الموتُ، بذلك فسَّره هنا ابن عمر[٢]، ومجاهد، وقتادة، والحسن، وابن زيد[٣].

ومنه قول النبي ﷺ عند موت عثمان بن مظعون: «أَما هو فقد رأَى اليقين»، ويروى: «فقد جاءَه اليقين»[٤].

وليست اليقين من أَسماءِ الموت، وإِنما العلم به يقين لا يمتري فيه عاقل، فسمَّاه هنا يقيناً تَجَوُّزاً، أَي: يأْتيك الأَمر اليقين علْمُه ووقوعُه، وهذه الغاية معناها: مُدَّة حياتك، ويحتمل أَن يكون المعنى: حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ في النصر الذي وُعِدْتَه.

نجز تفسير سورة الحجر.

---

(١) ضعيف، أخرجه أبو داود (١٣٢١)، وأحمد (٥/ ٣٨٨)، والطبري (٢/ ١٢) وغيرهم، وإسناد هذا الحديث ليس بالقائم، وقد اختلف فيه، قال المزي في تحفة الأشراف (٣٣٧٥): رواه أبو داود في الصلاة (٣١٣) عن محمد بن عيسى، عن يحيى بن زكريا، عن عكرمة بن عمَّار، عن محمد بن عبد الله الدؤليِّ، عنه به. وهكذا رواه سريج بن يونس، عن يحيى بن زكريا بن أبي زائدة.
وخالفهما خلف بن الوليد وإسماعيل بن عمر، فروياه عن يحيى، وقالا فيه: قال عبد العزيز أخو حذيفة: كان رسول الله ﷺ...، ولم يذكرا حذيفة.
ورواه الحسن بن زياد الهمدانيُّ، عن ابن جريج، عن عكرمة بن عمَّار، عن محمد بن عبد الله بن أبي قدامة، عن عبد العزيز بن أخي حذيفة أنّ النبيّ ﷺ، ولم يذكر حذيفة، وشيخ عكرمة على أية حال لا يعرف، وكذا عبد العزيز الذي اختلف فيه هل هو أخو حذيفة أم ابن أخيه، وليست له صحبة كما قال ابن حبان في الثقات (٥/ ١٢٤)، ومع ذلك فقد روي الحديث مرسلاً بغير ذكر حذيفة.
(٢) الذي أخرجه الطبري (١٧/ ١٦٠) من طريق: سفيان، قال: ثني طارق بن عبد الرحمن، عن سالم ابن عبد الله من قوله، ولم يسنده لأبيه عبد الله بن عمر. وطارق أظنه هو الأحمسي البجلي، فيه لين.
(٣) نقله عنهم الطبري في التفسير (١٧/ ١٦٠).
(٤) صحيح، أخرجه الطبري (١٧/ ١٦١) من طريق ابن شهاب: أن خارجة بن زيد بن ثابت أخبره عن أم العلاء امرأة من الأنصار قد بايعت رسول الله ﷺ أخبرته... به في قصة. وإسناده صحيح.